الصوفيّة الألمانيّة الطوباويّة

الأخت «أنّا كاتارينا إيمّيريك»

٢

الرؤى

*

سيرة السيّدة العذراء ويسوع حتّى الآلام

أديب مصلح

الصوفيّة الألمانيّة الطوباويّة

الأُخت «أنّا كاتارينا إيمّيريك»

٢

الرؤى

*

سيرة السيّدة العذراء ويسوع حتّى الآلام

٢٠١٩

طبعة أولى

٢٠١٩

❊

جميع الحقوق محفوظة

منشورات المكتبة البولسية
جونيه – شارع القدّيس بولس – ص.ب.: ١٢٥
هاتف: ٠٩/٩١٢٥٩٣ – ٠٩/٩٣٣٠٥٢ – ٠٣/٣٥٧ ٣٥٣ – فاكس: ٠٩/٦٤٣٨٨٦
بيروت – شارع لبنان – هاتف: ٠١/٤٤٨٨٠٦ – تلفاكس: ٠١/٤٤٤٩٧٣
زحلة – شارع سيّدة النجاة – مُقابل مُطرانيّة الروم الملكيّين الكاثوليك – تلفاكس: ٠٨/٨١٢٨٠٧

إلى الذين حملوا الصليبَ طوعاً وبفرحٍ،

مشاركينَ الفادي تضحيةَ فدائه... !

تمهيد

"مَن يحبّني، يحبّه أَبي، وأنا أحبّه، وأظهر له ذاتي"
(يوحنّا/ ١٤: ٢١)

تمهيدًا لكتاب الرؤى هذا، كنتُ قد أصدرتُ سيرة الطوبايّة "أنّا كاتارينا إيميريك"، وأفردتُ فيه فصلاً مسهبًا عن رؤاها، وفي ما يلي تنويةٌ بأبرز ما جاء فيه:

دائرة تنقّلات الأُخت "أنّا كاتارينا"، أثناء حياتها، لم تتخطَّ نحو عشرين كيلومترًا. فقد قضت معظم حياتها ملتصقةً بفراش المرض والألَم، ولم تقوَ على مبارحته. ومع ذلك انطلقت في المدى والزمن، إلى أبعد ممّا اجتازه أعتى رحّالةٍ في التاريخ.

منذ نعومة أظفارها كانت قد تلقّت من السماء معارف خفيت عن الدارسين والموغلين في مضامير البحث، ولا سيّما في ميدان الروح والخلاص. وكان يسوع وملائكته وقدّيسوه طليعة معلّميها. وغالبًا ما كانوا يرتدون أشكال أطفالٍ في مثل سنّها، كي يشرحوا لها أسرار السماء والأرض، ويفسّروا لها رموز الوجود، فاستطاعت أن تقرّ، عندما بلغت: "بفضل الله، لم أُطالع كتابًا، ومع ذلك، كان حسبي أن أُلقي نظرةً على أيّ كتابٍ، حتّى أتبيّن أنّني حافظةٌ له عن ظهر قلبي. وحتّى سِيَر القدّيسين التي كانت تُروى لي، كانت تبدو لي شمسًا أرضيّةً باهتةً، مقارنةً بالشمس الحقيقيّة التي أُعطيَ لي رؤيتها".

وتذكر أنّها، في نحو السادسة من عمرها، حاولت تمعُّن قانون الإيمان: "أومن بالله الآب، كلّيّ القدرة..."، فرأت كيف تمّت الخليقة، وكيف أفضى عصيان مشيئة الله إلى طرد الأبوين الأوّلَيْن من الفردوس، وكيف أودت الكبرياء بالملائكة إلى الجحيم.

وكانت تظنّ أنّ الجميع يعرفون ما عرفت، فكانت تعارض، بحميّةٍ، كلّ من يدّعي نقيض ما أُعطيت معرفته، ولكنّها عندما أدركت أنّ معرفة الآخرين تختلف

عن معرفتها، فترت غلواؤها في المعارضة، وتضاءل اندفاعها في تأكيد ما انفردت بمعرفته، ولكنّ يقينها به لم يتزعزع. وكان في طليعة المتيقّنين بسموّ المعارف التي أُطلعت عليها، والدُها الذي كان يقرن الورع بصرامة الاستقامة، فكان، كلّما تسنّت لهما سانحة انفرادٍ، يطلب منها أن تحدّثه عن إبراهيم والأنبياء، فتستطرد في سرد أحداثٍ لم يسمع مثلها، قطّ، سردًا حيًّا، دقيقًا، مفصّلاً، وكأنّها تحياها. ويستوضحها أبوها عن مصدر معرفتها لهذه الأمور، فتؤكّد له أنّها هكذا رأتها، فتفيض دموعه تأثّرًا.

ثمّ، بعد أن أمضت أربعة أشهرٍ في المدرسة البدائيّة، طلب منها المعلّم مغادرة المدرسة، بعدما تبيّن أنّها أوسع منه، ومن معلّميه، معرفةً.

وهي لم تُعطَ المعرفة فحسب، بل أُعطيت، أيضًا، منذ صباها، كلّ مقوّمات القداسة، من انغماسٍ في الصلاة، وتقشّفٍ، وتضحيةٍ، ومحبّةٍ، وقمعٍ للميول الوبيلة، وإيثار الآخرين على الذات. فلم تنتفض على الفقر الذي وُلدت فيه، ولا على خدمة الآخرين التي فُرضت عليها، بل قامت بأعمال الخدمة هذه بأمانةٍ، وإتقانٍ، وباتّصالٍ دائمٍ مع الربّ.

وباكرًا جدًّا سطت على نفسها دعوةٌ ملحّةٌ إلى تكريس ذاتها، كلّيّةً، لله، ولخدمة أبنائه. وكان عليها، دون تلبيتها الفعليّة لهذه الدعوة، تذليل عقباتٍ كأداء، وتحمّل تضحياتٍ مادّيّةٍ ونفسيّةٍ بطوليّةٍ. ولّما بلغت غايتها، انهالت عليها الأسقام والاضطهادات. ولئن كافأها المخلّص بطبعه سمات صلبه في جسدها، وبإبراز صورته فيها، إلاّ أنّ البشر أمعنوا في إسامتها كلّ ألوان الاضطهادات الجائرة، والاتهامات الباطلة، والإهانات المذلّة.

بيد أنّها، في غمرة اعتلالها، وآلامها، وأوجاعها، ما انفكّت تطوف، بالروح، في أفضاء تاريخ الخلاص ومواقعه، مستقريةً أحداثه، منصتةً إلى ما قيل، ونوقش، وأُوحيَ في طيّاته. وتواترت انخطافاتها، واتّسعت آفاق رؤاها. وبعد اطّلاعها على رموز العهد القديم ومعاني نبوآته، تكشّفت لها مسيرة الفداء، فواكبت مسيرة

المخلّص، مذ حبل العذراء به، حتّى صلبه وقيامته، فواكبت خطاه، وأصغت إلى تعاليمه، وردّدت عظاته، وشهدت معجزاته. ثمّ واكبت نشأة الكنيسة، فسعدت ببطولاتها وإنجازاتها، وحزنت لتخاذل العديد من مسؤوليها وخياناتهم، ومع ذلك ظلّت تشهد وتؤكّد انتصارها في نهاية المطاف.

وكان حصاد رؤاها وفيرًا. وفي سياق هذه الرؤى شهدت ما لم تشهد له مثيلاً على الأرض، وما لم تتخيّله من قبلُ، ووصفته بدقّةٍ مبهرةٍ، وسمعت أسماء أشخاصٍ وأماكنَ لم يكن لها بها علمٌ، فذكرتها، وأثبت الواقع صحّتها جميعًا.

بادئ الأمر، لم تُطلِع على بضعٍ من تلك الرؤى سوى حفنةٍ من مرشديها الروحيّين، إلى أن أوعز إليها الربّ بواجب إعلانها. فقد سألته، يومًا، إعفاءَها من الرؤى التي يستغلق عليها فهمها، فأوضح لها أنّ هذه الرؤى ليست لها وحدها، بل ينبغي نشرها وتعميمها، كي يطّلع عليها المعنيّون بأمرها. وهكذا أمرها، أيضًا، رؤساؤها الروحيّون الذين عاينوا علامات الله فيها، وأدركوا غايته ممّا كان يريها.

وكان الله قد أراها من سيتولّى أمر تدوين هذه الرؤى، ودبّر أمر التقاء "كليمانس برينتانو" بها، وإلهامه وقف مواهبه الأدبيّة على هذه المهمّة.

وكان "برينتانو" المذكور من نخبة شعراء ألمانيا، حينذاك، ومن أقرب أصدقاء عبقريّ ألمانيا "غوتيه"، وكان واقفًا على عتبة مستقبلٍ أدبيٍّ زاهرٍ، ولكنّ العناية الإلهيّة دفعته إلى قرية "دُلمن"، فشاهد بأمّ عينيه، روائع الله في الراهبة "أنّا كاتارينا"، فتخلّى عن أحلام المستقبل الأدبيّ، الواعد بالشهرة والأمجاد، وارتضى أن يكون أمين سرّ راهبةٍ فقيرةٍ، معتلّةٍ، مغْفَلةٍ، مضطهَدةٍ، لم تحرز من علوم الأرض شيئًا، ولكنّها اكتنــزت من علوم السماء الكثير. وأكبّ، مدى سنواتٍ، على صون كنــز رؤاها النادر الثمين، عاكفًا على تدوينه، بأسلوبٍ راقٍ، متيسّر الفهم، حريصًا على الأمانة المطلقة لجوهره، بلا إضافةٍ، ولا إنقاصٍ، قارئًا على مسامعها النصوص التي دوّنها، وملتزمًا بكلّ ما تقتضيه من تصحيحٍ وإيضاحٍ.

ثمّ تولّى نشر تلك الرؤى في ثلاثة مجلّداتٍ، تجاوزت صفحاتها ألفًا وخمس مئة

صفحة، وتُرجمت إلى لغاتٍ عديدةٍ. وما هذان المجلّدان اللذان نزفّهما لقرّاء اللغة العربيّة، سوى مقتطفاتٍ من تلك المجلّدات.

إنّ الكنيسة، التي أعلنت الأُخت "أنّا كاترينا إيمّيريك" طوباويّةً، من خلال البابا القدّيس يوحنّا بولس الثاني، لم تتبنَّ هذه الرؤى بكلّ حذافيرها، ولم ترفضها، مكتفيةً بإعلان عدم تعارضها مع تعاليمها وعقائدها، واعتبرتها خليقةً بدعم التقوى الشعبيّة.

وجديرٌ بالذكر أنّ رؤى الأُخت الطوباويةّ قد أبرزت إلى العلن أمورًا غاليةً على قلب كلّ مسيحيٍّ، وأهمّها كفن يسوع الذي خلّد صورة آلامه، والبيت الذي قضت فيه أمّ يسوع العذراء، أيّامها الأخيرة، في تلّةٍ مشرفةٍ على مدينة أفسس، والذي أصبح مزارًا عالميًّا.

وخليقٌ بالإشارة، أيضًا، إلى أنّ السينمائيّ العبقريّ "ميل جيبسون" قد بنى فيلمه الشهير المتعلّق بآلام الفادي على رؤى الآلام كما رأتها وروتها أُختنا الطوباويّة "أنّا كاتارينا إيمّيريك".

وهنا لا معدى عن التذكير بأنّ الإنجيل، بنصوصه الأربعة، ينطوي على ما يكفي لإرساء إيماننا على وقائع ثابتةٍ، وعلى ما يمكّننا من الإلمام بمجمل مسيرة الخلاص وبحياة يسوع وذويه، وبفعال حبّه ومعجزاته، وبجوهر تعليمه. ولكنّ الإنجيل اقتصر على الجوهريّ، وأغفل جزئيّاتٍ كثيرةً، لم تكن ضروريّةً لإثبات ألوهته، ولإقرار حقيقة تعليمه. وهذا ما أشار إليه القدّيس يوحنّا الذي اختتم إنجيله بهذه الملاحظة: "وأشياء أُخرى كثيرةٌ صنعها يسوع، لو كتبت، واحدًا فواحدًا، لما ظننتُ العالم كلّه يسع الصحف المكتوبة".

وها قد نعمنا بمواكبة الأُخت "أنّا كاتارينا إيمّيريك"، في رحلاتها الملائكيّة عبر المدى والزمن، والتمتّع بمشاهد شيّقةٍ، وتفاصيل عذبةٍ، لم تُكتب في الإنجيل، وتزيدنا معرفةً وتعلّقًا بيسوع وذويه، وطلائع روّاد الكنيسة.

فشكرًا للربّ الذي زادنا اطّلاعًا، من خلال الطوباويّة "أنّا كاتارينا" على لفتاتٍ عذبةٍ من مروره بكوكبنا، وعلى أحداثٍ خلاصيّةٍ غاليةٍ على أفئدتنا.

أديب مصلح

حياة مريم العذراء ويسوع حتّى الآلام

الفَصَلُ الأَوَّلُ

محتد العذراء

رأت "أنّا كاتارينا إيميريك" أجداد العذراء، حتّى الجيل الخامس قبل جيلها، قومًا ممعنين في البساطة والورع، وقلوبهم تخفق توقًا إلى مجيء المسيح. وكانوا يتباينون، تباينًا واضحًا، عن المحيطين بهم، الذين يبدون، بالقياس إليهم، مغرقين في الفظاظة والهمجيّة.

كانوا يسوقون حياة "تجرّدٍ". وكان حتّى المتزوّجون منهم ينذرون فترات عفّةٍ، ولاسيّما في الفترات التي تسبق الأعياد الدينيّة الكبرى، ويستغرقون في الصلوات، وغالبًا ما يهجرون منازلهم وممتلكاتهم، إلى أماكن أشدّ بساطةً وفقرًا، لكيلا ينجرّوا إلى ما يجعلهم يحيدون عن مبادئهم. وكانوا يصيحون إلى الله، ليلَ نهارَ، وبين حينٍ وآخر، يمزّقون ثيابهم، كاشفين عن صدورهم لكي يقتحمها الله بأشعّة شمسه، ويعرضون صدورهم المكشوفة للقمر والنجوم، ساعين إلى إرواء ظمئهم إلى مجيء المخلّص، بلمسة أشعّة تلك الكواكب الصامتة الباردة.

كانوا يقطنون في محلّة "مارا" الواقعة في جوار جبل حوريب. وكانوا، روحيًّا، متّصلين بجماعة الأسّينيّين الورعة، وهي كيانٌ شبه كهنوتيّ، فئةٌ منهم ينذرون العفّة، طالما هم منتسبون إلى الجماعة، ويُعرضون عن الزواج، إلاّ إذا خرجوا عن الجماعة. أمّا أجداد العذراء فكانوا ينضوون إلى فئة الأسّينيّين المتزوّجين، المؤمنين بأنّ خطايا البشر هي التي تؤخّر ولادة أمّ المخلّص، ومن ثمّ كانوا يدعون إلى التوبة والصلاة، والتضحية الداخليّة غير الدمويّة.

وكان للنبيَّيْن أشعيا وإرميا يدٌ في تنظيم الأسّينيّين، الذين يتميّزون عن سائر الإسرائيليّين بتقشّفهم، بل أحيانًا، بإيغالهم في التقشّف. فكانوا يواظبون على ارتداء الثياب عينها إلى أن تهترئ اهتراءً كاملاً، ولا يعنون بإصلاحها، ويمارسون العفّة أيّامًا طويلة، فيقيمون في المغاور بعيدًا عن زوجاتهم، ولا يقيمون علاقاتٍ زوجيّةً إلاّ بغية توفير الظروف لمجيء المسيح. وكان طالب الانتماء للجماعة يخضع لاختبارٍ يدوم سنةً أو سنتين.

كان لهم حيٌّ خاصٌّ في أورشليم، ومكانٌ خاصٌّ في الهيكل. وكان أغلى ما تتطلّع إليه نساؤهم إنجاب فتياتٍ، قد تكون إحداهنّ أمّ المسيح الموعود.

وكانت جدّة حنّة، والدة العذراء، تدعى "موروني"، وتقطن في صحراء "مارا"، ولها ممتلكاتٌ هناك. وعندما بلغت، تقدّم كثيرون لطلب يدها، فاستشارت نبيّ قومها الذي نصحها باختيار سادس طالبيها. وكان غريبًا عن قريتها، وتنبّأ لها بأنّ أحد أفراد ذرّيّتها، سيكون أداة الخلاص الوشيك، وسيحمل علامةً مميّزةً. وقد أنجبت "موروني" ابنتين إحداهما دُعيت "إسميريا"، هي جدّة العذراء. وكانت شقيقتها جدّة يوحنّا المعمدان.

"إسميريا" تزوّجت رجلاً يدعى "إيليود" وسكنا في ضواحي الناصرة وساقا حياة الأسّينيّين التي تتّصف بفترات عفّةٍ طوعيّةٍ. ابنتهما الأولى لم تكن تحمل أيّة علامةٍ مميّزةٍ. فاستشارا النبيّ الذي حرّضهما على الصلاة والتضحية ووعدهما بالعزاء. وظلّت "إسميريا" عقيمةً مدى ثماني عشرة سنةً، وحينئذٍ رأت في الحلم، قرب سريرها، ملاكًا يرسم على الجدار حرف "م"، واتّفق أن خطر الحلم عينه لزوجها، ولمّا استيقظا قرآ حرف "م" مدوّنًا على الحائط. وبعد ثلاثة أشهر أنجبت "إسميريا" ابنتها حنّة، التي تحمل فوق معدتها علامة التميّز، وفي سنّ الخامسة اقتيدت "حنّة" إلى مدرسة الهيكل، حيث أقامت حتّى بلغت السابعة عشرة. وبعد سنةٍ من عودتها اعتلّت أُمّها علّةً أودت بحياتها. وكانت، قُبيْل وفاتها، قد أوصت بأن تخلفها حنّة في إدارة شؤون المنـــزل، ثمّ تحدّثت إلى حنّة على انفرادٍ، وأنبأتها بأنّها مصطفاةٌ من الله، وأنّ عليها استشارة نبيّ حوريب بشأن زواجها.

وجديرٌ بالتنويه أنّ والد جدّ حنّة كان نبيًّا، وأنّ والدها "إيليود" كان ينتسب إلى سبط "لاوي" وأنّ والدتها "إسميريا" كانت من سبط "بنيامين". وقد رأت حنّة النور في بيت لحم، ثمّ انتقل ذووها إلى قرية "سيفوريس" في ضواحي الناصرة، حيث كانوا يمتلكون عقاراتٍ وحقولاً. وعقب وفاة "إسميريا" استقرّ والد حنّة في وادي زابلون حيث كان يملك حقولاً، وهناك عقد صلاتٍ مع ذوي يواكيم الذي أصبح زوج حنّة.

في مطلع حياتها لم تتميّز حنّة بالجمال الخارق، ولكنّها تميّزت بالبساطة والورع. وكان لها عدّة إخوةٍ متزوّجين، أمّا هي فلم تكن راغبةً في الزواج، فردّت ستّةً من طالبي يدها، واستشارت الأسّينيّين فنصحوها بالتزوّج من يواكيم، الذي لم تكن قد عرفته بعد. في التاسعة عشرة من عمرها اقترنت حنّة بيواكيم، في دسكرةٍ لا تحتوي إلاّ على مدرسةٍ واحدةٍ، واحتفل بقرانهما كاهنٌ واحدٌ. وسكنا في منــــزل "إيليود" والد حنّة، حيث أقاما عدّة سنوات. وقد تميّزا، كلاهما، بسلوكهما الوقور الرصين. ذوو حنّة كانوا ميسوري الحال يمتلكون قطعانًا وفيرةً، وسجّادًا رائعًا، وأدواتٍ منــــزليّةً فاخرةً، وإلى ذلك كانوا مغرقين في الاستقامة والإحسان والورع، وكانوا يهبون، كلّ سنةٍ، ثلث قطعانهم للهيكل، وثلثًا للفقراء أو لأقارب يطلبونه منهم، ويحتفظون لأنفسهم بأصغر جزءٍ، وأدناه جودةً. وارتضى يواكيم وحنّة العيش البسيط، وكانا يهبان، بلا تردّد، كلّ ما يُطلب منهما. وكان الله يبارك وينمّي الحصّة التي يحتفظان بها فيقسمانها، ثانيةً، إلى ثلاثة أجزاء، ويتبرّعان بالجزأين الأكبرين. كان منــــزلهما ملتقى الكثير من الأقرباء، فكانا يحسنان وفادة الجميع، ولكن بعيدًا عن البذخ. وفي خلوتهما كانا يتحدّثان عن الله حديثًا مفعمًا بالرجاء.

بكر مواليد حنّة كان فتاةً أسمياها "مريم"، ولكنّها لم تكن ابنة الوعد، وقد ارتبطت ولادتها بظروفٍ حزينةٍ، ففيما كانت حنّة حبلى، أغوى قريبٌ ليواكيم إحدى خادماتها، فحملت سفاحًا، وأنحت حنّة بلومٍ شديدٍ على الخادمة المخطئة فأسقطت مولودًا ميتًا قبل موعد وضعه، وشقّ ذلك على حنّة فوضعت مولودها، هي أيضًا، قبل موعده، وكان المولود فتاةً، ولكن بما أنّها لم تكن تحمل علامات الوعد، وبما أنّها رأت النور قبل الأوان رأت إليصابات في ذلك عقابًا إلهيًّا، واضطربت اضطرابًا شديدًا، وخُيّل إليها أنّها ارتكبت خطأً جسيمًا. ولكنّ ذويها فرحوا بمولد الفتاة وأطلقوا عليها اسم مريم، التي أثبتت، لاحقًا، كونها فتاةً طيّعةً، لطيفةً وورعةً. وحظيت بحبّ والديها اللذين، مع ذلك، لم يبارحهما القلق والاضطراب، ولم يعثرا فيها على ثمرة قرانهما المباركة التي توقّعاها.

وتاب الزوجان طويلاً، غير أنّ حنّة ظلّت، عقب ذلك، سنين طويلةً، عاقرًا، وتمادى بُعاد أحدهما عن الآخر، وترسّخ لديهما الاعتقاد بأنّ ما حدث هو عقابٌ إلهيٌّ، فباتا يضاعفان الحسنات، تكفيرًا عن خطئهما. وعكفا على الاستغراق في صلواتٍ متماديةٍ حارّةٍ.

يواكيم وحنّة يستقرّان في الناصرة

بعد سبع سنواتٍ قضياها في منـــزل "إيليود" قرّرا العيش في منـــزل خاصٍّ بهما، وحقولٍ ملحقةٍ به وهبهما إيّاها ذوو يواكيم، في ضواحي الناصرة. وهناك كانا عازمين على استئناف حياتهما الزوجيّة، مستقلّين، واستمطار بركات الله على قرانهما بسلوكٍ لا غبار عليه ولا مأخذ. وقد أسهم ذوو حنّة في تنفيذ هذا المشروع، فمنحا الزوجين قسمًا من قطعانهم، وزوّدوهما بأبقارٍ وحميرٍ من أجل نقل أثاث البيت العتيد، وكلّ ما يلزمهما من مؤونةٍ ووسائل العيش، وأرسلوا خدّامهم مع الأمتعة، فأعدّوا كلّ شيءٍ ونظّموا كلّ متاعٍ في مكانه. وكان ذلك المنـــزل يقع في منطقة تلالٍ، بين وادي الناصرة، ووادي زابلون، تحيق به حقولٌ مخضلّةٌ، وأشجارٌ مثمرةٌ.

ولّما وصل إليه يواكيم وحنّة وجداه مجهّزًا لإقامتهما ولراحتهما. وكانا قد وطّنا العزم على استهلال حياةٍ جديدةٍ، وكأنّهما يلتقيان للمرّة الأولى، وكان إرضاء الله هو محطّ تطلّعهما الوحيد. وقد حذوا حذو ذويهما فكانا، كلّ سنةٍ، يقسمان قطعانهما وخيرات أرضهما إلى ثلاثة أقسام يقدّمان منها قسمًا للهيكل، وقسمًا للفقراء، ويحتفظان بالقسم الأصغر، والأقلّ جودةً، وكان ما يحتفظان به يتكاثر بسرعةٍ ووفرةٍ، فيقسمانه من جديد. وكانا مثابرين على الصلاة والإحسان والتقشّف مكتفيَيْن بالبسيط من العيش.

وكرّت تسعة عشر عامًا منذ ولادة ابنتهما مريم البكر التي كانت قد تزوّجت في هذه الأثناء، ومع كرّ السنين كان حزنهما يتنامى لأنّ الله لم يمنّ عليهما بالمولود

الموعود، مع طول صبرهما وانتظارهما؛ وكان بعض الأشرار يعيّروهما، ويعدّوهما ملعونين، إذ إنّ العقم كان يعدّ لدى اليهود لعنةً. ومع ذلك كانت حنّة وطيدة اليقين بأنّ مجيء المسيح بات وشيكًا، وأنّ عائلتها مرشّحةٌ لتعطي العالم مخلّصه. فكانت أدعيتها تزداد حرارةً واضطرامًا، وحياتهما الزوجيّة تمعن في الطهر والتسامي. غير أنّ المحيط ما انفكّ يلاحقهما بتعييره، وإهاناته، بحيث بات الزوجان يتهيّبان الظهور في المجتمع، خشية نظرات الإزدراء.

ومع ذلك قرّر يواكيم، ذات يومٍ، تقديم ضحايا للهيكل، فانتقى أفضل مواشيه، وزوّدته حنّة بأقفاص حمام وطيور، وسلالٍ مليئةٍ بالزاد، وانطلقا مع خدّامهما حاجّين إلى الهيكل، حيث قدّما كلّ ما جاءا به. ولكنّ الكاهن المكلّف باستقبال التقادم، نظر بازدراء إلى تقادم يواكيم، وعوضًا عن وضعها في مكانٍ ظاهرٍ مع سائر التقادم، ألقاها جانبًا، ولم يسمح له بالاقتراب، ولم يتحرّج من لعنه، بسبب عقم زوجته.

وارتدّ يواكيم مثقلاً بالحزن والخزي، وفزع، في جوار بيت عنيا، إلى مبنًى يسكنه أسّينيّون، علّه يلقى شيئًا من العزاء. ثمّ مضى إلى الحرمون حيث كانت قطعانه ترعى كي يدفن في العزلة عاره وحزنه، وأحجم عن إخبار زوجته بمكانه. ولكنّ حنّة علمت من بعض الحاضرين في الهيكل بالإهانة التي لحقت به، فأخذ بها الأسى كلّ مأخذٍ، وزاد من أساها جهلها لمكان زوجها الذي استمرّ تواريه أكثر من خمسة أشهر.

وضاعف حزنَ حنّة فظاظةُ إحدى خادماتها التي لم تكن تكفّ عن تذكيرها بسوء حالها. وقد طلبت تلك الخادمة، بمناسبة عيد المظالّ، إذنًا بالاحتفال بالعيد، بعيدًا عن بيت مستخدِمتها، وتذكّرت حنّة ما تعرّضت له إحدى خادمات ذوي يواكيم سالفًا من إغواءٍ وفضيحةٍ، فرفضت طلب خادمتها، التي انتقمت لنفسها مستفيضةً في تعيير حنّة بعقمها، وبهجر زوجها لها، عقابًا لها على قسوتها، فأعادت تلك الخادمة إلى ذويها، مزوّدةً بهدايا، وانزوت في حجرتها مثقلةً بالكآبة، مذرّفةً الدموع. وفي المساء

التفّت بغطاءٍ أحاط بكلّ جسدها، وفزعت إلى شجرةٍ وارفة الظلال، ممتدّة الأغصان، منتصبةٍ في فناء منـــزلها، وأشعلت مصباحًا علّقته بأحد أغصانها، وأمضت ساعاتٍ طوالاً مبتهلةً إلى الله، مستسلمةً لقدر عقمها، ولكن متوسّلةً ألاّ يطول غياب زوجها البارّ. وإذ بملاكٍ يمثُل أمامها، ويُنبئها بأنّ دعاءها استُجيب، فعليها أن تشخص في الغداة إلى الهيكل مع اثنتين من خادماتها، حاملةً أقفاص حمامٍ بمثابة أضاحٍ؛ وأخبرها الملاك أنّ دعاء زوجها يواكيم، أيضًا، قد استُجيب، وأنّه هو أيضًا سيشخص في الغداة، إلى الهيكل بأضاحٍ، وأنّهما سيلتقيان عند الباب الذهبيّ، وستُقبل تقدمة يواكيم، "وسيبارك الله كليهما" وستعلم، قريبًا، اسم مولودها، وأنّ زوجها قد بُلِّغ هذه الرسالة عينها. طفح قلب حنّة فرحًا وشكرًا لرحمة الله، وفي الحال، عادت إلى بيتها وشرعت تستعدّ للرحيل في الغد إلى أورشليم. ثمّ صلّت ونامت، وجاءها ملاك الربّ على شكل شعاع نورٍ، وبشّرها بأنّها ستحمل مولودًا مقدّسًا، ثمّ دوّن على الجدار فوق سريرها اسم مريم، وتوارى. هذا الحلم الحافل بدواعي الفرح أيقظها فاستفاقت، لحظاتٍ، وشكرت الله، واستعادت غفوتها التي لم تطُل، فالغبطة أقصت عنها الكرى. وحينئذٍ قرأت بغبطةٍ ممزوجةٍ بالرهبة ما كُتب على الحائط، بحروفٍ مضيئةٍ ملوّنةٍ بالأحمر والذهبيّ وظلّت تتأمّلها في ذهولٍ وبهجةٍ، إلى أن محاها نور الصباح، وحينئذٍ اتّضح لها كلّ شيءٍ. فبدت، لشدّة الفرح، وقد استعادت رواء شبابها، وغدت متأهّبةً لاستقبال بركة الله، ولكي تصبح أحشاؤها محرابًا ومهدًا للعليّ، ونبع خلاصٍ للعالم. وكانت، حينئذٍ، في نحو الثالثة والأربعين، فنهضت، وأشعلت مصباحًا، وتأهّبت للحجّ إلى أورشليم مع تقادمها.

في هذه الأثناء كان يواكيم في مراعي الحرمون لا يني يرفع إلى الله أدعيته. وكان يُحزنه مشهد الحملان الملتصقة بأمّهاتها، المتوثّبة من حولها، ويندب حرمانه من أولادٍ يُبهجون وحدته، ولكنّه كان يخفي عن الرعاة أسباب كآبته. وفيما كان يصلّي، شاكيًا لله تخلّفه عن الحجّ إلى أورشليم وتقديم الضحايا بمناسبة عيد المظالّ، عقب الإهانات التي انصبّت عليه، في حجّه السابق، ظهر له الملاك وشدّ من

عضده، وأمره بنبذ كلّ خشيةٍ، وبالانطلاق إلى أورشليم بتقادِمه التي أصبحت مقبولةً، كما أصبحت أدعيته مستجابةً. وبشّره الملاك بالتقاء زوجته عند الباب الذهبيّ. فباشر يواكيم، في الحال، في تقسيم قطيعه إلى ثلاثة أقسامٍ، أرسل أفضلها إلى الهيكل، ووهب قسمًا آخر إلى الأسّينيّين، واحتفظ بالقسم الأصغر والأدنى جودةً. وانتهى إلى أورشليم رابع أيّام العيد، وفي الحال مثل إلى الهيكل.

ووصلت حنّة إلى أورشليم، وأقامت في بيت أقرباء لزكريّا، ولم تلتقِ يواكيم إلاّ بعد انتهاء عيد المظالّ. وكان الكهنة قد تلقّوا إيعازًا سماويًّا بتقبّل تقدمة يواكيم، على نقيض ما حدث لتقدمته السابقة، ولا سيّما أنّ الكاهن الذي رفضها وأهان مقدّمها كان قد ابتُلي بعقابٍ قاسٍ. وفي الهيكل تلقّى يواكيم تهاني معارفه لارتضاء الله تقادِمَه. وجاءه كاهنان اقتاداه عبر حُجَرٍ جانبيّةٍ إلى هيكل العطور الذهبيّ، حيث وضع كاهنٌ كتلةً من البخور والعطور، انبثقت منها غمامةٌ كثيفةٌ عطرةٌ، وحينئذٍ اعترى يواكيم انخطافٌ، فجثا باسطًا ذراعيه، وظهر له ملاكٌ وأعطاه كتابًا دُوّنت عليه ثلاثة أسماء: هيلي أو عالي (وهو اسم يواكيم) وحنّة، ومريم. وإلى جانب هذا الاسم تجلّى رسم تابوت عهدٍ صغيرٍ ومحرابٍ. ودسّ يواكيم هذا الكتاب على صدره، تحت ثيابه. وأكّد له الملاك أنّ العقم لم يكن له مدعاة عارٍ، بل سبب مجدٍ، فالمولود الذي ستضعه زوجته سيكون ثمرة بركة الله، وتتويجًا لبركة إبراهيم. استغلقت هذه الأقوال على إدراكه، فانتحى به الملاك جانبًا، وجاء بإناءٍ زجاجيٍّ مستديرٍ وأمره بالنفخ فيه، فنفخ ولكن لم يظهر أيّ أثرٍ لنَفَسه على الإناء الذي بقي نقيًّا شفّافًا، وحينئذٍ أفهمه أنّ حبل حنّة سيبقى نقيًّا مثلما بقي هذا الإناء. ثمّ رفع الملاك الإناء عاليًا فتعاقبت عليه سلسلة من اللوحات المتعلّقة بمعصية الإنسان الأوّل وبالفداء، بدءًا بعلامة الثالوث الأقدس، التي تلتها صورة الفردوس، وآدم وحوّاء، وسقطتهما، والوعد بفدائهما، وكلّ ما تخلّل هاتين الحقبتين من أحداثٍ حاسمةٍ، اتّسمت بالسموّ والبركة حينًا، وبالانحطاط واللعنة أحيانًا، وانتهت، عبر صراعاتٍ دائمةٍ، وبقيادة العناية الإلهيّة إلى ولادة أمّ المخلّص.

وتقرّ الرائية أنّها وسط هذه المشاهد رأت بستانًا محاطًا بسورٍ من أشواكٍ تجهد في اجتيازه، سدًى، أفاعٍ بشعةٌ وحيواناتٌ مقزّزةٌ، وتصاب دائمًا بالفشل، ورأت أيضًا قلعةً منيعةً يبذل محاربون اقتحامها من كلّ جانبٍ، ولكنّهم يُدحَرون، دائمًا، من أعالي الأسوار. وتعترف الرائية، أيضًا، أنّها من خلال هذه اللوحات، أدركت معاني الكثير من الأناشيد التي تمجّد العذراء والمعبَّر عنها برموزٍ لم تكن تدركها إلى أن رأت هذه المشاهد.

ثمّ رأت الملاك يمسح جبين يواكيم، ويطعمه غذاءً مضيئًا، ويسقيه سائلاً شفّافًا، وخيّل إليها أنّه يدخل إلى فمه سنبلة قمحٍ، وعنقود عنبٍ صغيرًا، وبذلك يُحرّره من كلّ دنسٍ، ثمّ استخرج الملاك من قدس الأقداس بركةً، وأسبغها على يواكيم، جاعلاً منه إناءً مقدّسًا يخرج منه الكلمة المتجسّد.

عقب هذه الرؤى أُغمي على يواكيم، ولّما شهده الكهنة على هذه الحال، متألّقًا فرحًا، جهدوا كلّ ما استطاعوا لإيقاظه من إغمائه. ولّما استعاد وعيه بدا مشعًّا نورًا، متدفّقًا همّةً، مستعيدًا شبابه.

التقاء يواكيم وحنّة تحت الباب الذهبيّ

بإلهامٍ سماويٍّ اقتيد يواكيم من خلال ممرٍّ تحت الهيكل، ينحدر إلى الباب الذهبيّ. وكانت حنّة قد جاءت بتقدمتها إلى الهيكل، برفقة خادمتها، وأعلمت الكهنة أنّ ملاكًا أمرها بالتقاء زوجها تحت الباب الذهبيّ، فاقتادوها في موكب نسوةٍ مكرَّساتٍ لخدمة الهيكل يضمّ، في ما يضمّ، حنّة النبيّة، إلى ممرٍّ آخر، حيث تُركت وحيدةً. وكان يواكيم قد اجتاز ثلث مسافة الممرّ، وتوقّف أمام عمودٍ منحوتٍ على شكل نخلةٍ متدلّية الأغصان والثمار، وفي ذلك المكان التقته زوجته حنّة تضجّ فرحًا، فتبادلا قبلات الفرح والمصالحة والسعادة، ولكأنّهما في حالة انخطاف، تلفّهما غمامةٌ متألّقةٌ منطلقةٌ من جوق ملائكةٍ حاملين ما يشبه قلعةً مضيئةً محلّقةً فوق

رأسهما. وتقول الرائية إنّها، حينذاك، رأت السماء مفتوحةً فوقهما معبّرةً عن فرح الثالوث، وغبطة الملائكة، للبركة التي حلّت على والدَي مريم اللذين سارا معًا، وهما يمجّدان الله، إلى الباب الذهبيّ، وعبرا تحت قناطر رائعةٍ إلى أن توقّفا في ما يشبه معبدًا تضيئه عشرات الشموع، حيث استقبلهما كهنةٌ، واقتاداهما إلى الخارج. ثمّ عادا مع مرافقيهما إلى منـــزلهما في الناصرة، حيث أقام يواكيم مأدبةً بهيجةً، وأطعم العديد من الفقراء، وجاد بحسناتٍ وفيرةٍ. وكان الزوجان يطفحان حبورًا واندفاعًا، وشكرًا للعليّ على ما أسبغه عليهما من رحمةٍ؛ وصلّيا معًا، ومآقيهما تفيض دموع عُرفان جميلٍ.

وقد خطرت للرائية رؤًى عديدةٌ ترمز إلى دور العذراء في الفداء، وفي تاريخه. ورأت النبيّ إيليّا على قمّة جبل الكرمل مستغيثًا مترقّبًا غمامةً ماطرةً، وبعد لأيٍ قامت، وسط البحر، زوبعةٌ بيضاء، انبعثت منها غمامةٌ سوداء صغيرةٌ سرعان ما امتدّت واتّسعت، وتجلّت، وسطها، صورة وجهٍ مضيءٍ يحاكي وجه عذراء، تحيق برأسها أشعّة نورٍ، وذراعاها مبسوطتان على شكل صليب، وبإحدى يديها إكليل نصرٍ. كانت تكبر مع الغمامة التي لا تني تتّسع، وتمطر فيضًا من الندى، في الأماكن التي يقطنها ناسٌ ورعون، توّاقون إلى الخلاص. وكانت أطراف الغمام الماطر موشّاةً بألوان قوس قزح، والبركة تتجمّع في وسطها كما تتجمّع اللؤلؤة وسط الصدفة. وقد رأى إيليّا بالروح زمن مولد العذراء ودورها في مسيرة الخلاص.

ولادة مريم

لّما شعرت حنّة بدنوّ أوان وضعها، استدعت إلى بيتها أُختها "مراحا"، من قرية "سيفورس"، وخالتها الأرملة وابنة أُختها مريم من بيت صيدا. وكانت ابنتها الكبرى زوجة كليوبا، البالغة من العمر تسعة عشر عامًا تدير شؤون المنـــزل. ومضى يواكيم إلى أقرب مراعي قطعانه وانتقى خيرة حملانه وجدائه وعجوله، وأرسلها إلى الهيكل تقدمة شكرٍ.

مساءً وصلت إلى المنـــزل النساء اللواتي استُدعين، فوقفت حنّة، وأنشدت معهنّ نشيدًا جاء فيه: "سبّحوا الله الربّ، فقد رئف بشعبه، وحقّق الوعد الذي أعطاه لآدم بأن يُنبت من ذرّيّته المرأة التي تسحق رأس الأفعى...". كانت حنّة، في انخطافٍ، تعدّد كلّ النبوءات المتعلّقة بمريم، مثل قولها: "إنّ البذرة التي أعطاها الله لإبراهيم قد نضجت فيّ"، "إنّ غصن هارون قد أزهر فيّ". كانت تشعّ نورًا، وكانت النسوة اللائي لبّينَ دعوتها مأخوذاتٍ وكأنّهنّ يشاطرنَها رؤاها. وفيما هنّ أخلدنَ إلى الراحة من عناء السفر، بقيت حنّة ساهرةً تصلّي، وعند منتصف الليل استدعتهنّ لمشاركتها الصلاة في مخدعها. واستخرجت من خزانةٍ محفورةٍ في الحائط علبة ذخائر، تحتوي خصلاً من شعر سارة، وأجزاء من عظام يوسف، عاد بها موسى من مصر، وأثرًا من طوبيّا، والكأس التي استقى منها إبراهيم عندما باركه الملاك.

وجثت حنّة أمام الخزانة وجثت اثنتان من ضيفاتها كلٌّ منهما إلى جانبٍ، والثالثة وقفت وراءها، وأنشدت نشيدًا ذكرت فيه علّيقة موسى الملتهبة، وحينئذٍ امتلأت الحجرة نورًا سماويًّا تركّز على حنّة، في حين ارتمت النسوة أرضًا، وقد أُغمي عليهنّ، واتّخذ النور شكل العلّيقة الملتهبة، مخفيًا حنّة عن الأنظار. كان النور ينبع منها، وبغتةً تلقّت حنّة بين ذراعيها الطفلة مريم مشعّةً متألّقةً، فغطّتها بمعطفها، وضمّتها إلى صدرها، ثمّ وضعتها على منضدةٍ صغيرةٍ أمام خزانة الذخائر، وتابعت حنّة صلاتها، إلى أن سمعت بكاء الطفلة، فأخذت أقماطًا لفّتها بها حتّى ما تحت ذراعيها تاركة صدرها ورأسها وذراعيها مكشوفةً.

ونهضت النسوة، وأخذنَ بين أيديهنّ الطفلة الوليدة، مذرّفاتٍ دموع الفرح. وفيما كنّ ينشدنَ نشيد شكرٍ رفعت حنّة طفلتها إلى فوق ولكأنّها تقدّمها لله. ومن جديدٍ ملأ النور الحجرة التي دوّت بأناشيد ملائكةٍ مسبّحين الله، ومعلنين أنّ الطفلة ستحمل، بعد عشرين يومًا، اسم مريم.

وتمدّدت حنّة في سريرها، في حين كانت النسوة يخلعن الأقمطة عن الطفلة،

ويغسلنها، ويُعدنَ لفّها بأقماطٍ ويأتينَ بها إلى أُمّها التي أعدّت في سريرها مكانًا لمهدٍ يحضن الطفلة على مقربةٍ منها.

واستُدعي يواكيم فجثا عند سرير زوجته، وانحنى على الطفلة مذرّفًا وابلاً من دموع الفرح والشكر، ثمّ رفعها بين يديه، وهو ينشد تمجيدًا لله، معلنًا تحقيق الوعد الإلهيّ.

وفي اليوم التالي احتشد في المنــزل جمعٌ غفيرٌ من الخدّام والخادمات والجيران الذين اجتذبهم نورٌ فائقٌ رأوه ليلاً يلفّ المنــزل. لقد أنجبت حنّة بعد عقمٍ دام سنواتٍ طوالاً، ورأى الجميع، في إنجابها، نعمةً كبرى.

ضجّت السماء فرحًا بمولد مريم، وانتفضت بهجةً نفوس الآباء الأقدمين، منذ آدم وحوّاء حتّى آخر الأنبياء، الذين رأوا في هذا المولود تحقيق الوعد الإلهيّ، وتتويجًا لأعمال البرّ التي نفّذوها في حياتهم الأرضيّة، وأطلق مسكونون بأرواحٍ شرّيرةٍ صيحاتٍ هستيريّةً، وسُمعت الأبالسة تصرخ بألسنتهم معترفةً بأنّ زمن سيادتهم قد ولّى.

وبعد أيّامٍ، جرى احتفالٌ كبيرٌ اجتمع له جميع أقرباء يواكيم وحنّة، وأُقيم في منــزلهما هيكلٌ لُفَّ بغطاءٍ أبيض وأحمر، ووضع عليه مهدٌ يحمل هذين اللونين عينهما، ملفوفٌ بغطاءٍ سماويّ اللون. وإلى جانبه منبرٌ كُدّست عليه لفائف دُوّنت عليها صلوات، والتفّ من حولها كهنةٌ بزيّهم الكهنوتيّ. وجاءت إحدى قريبات حنّة بالطفلة مريم، وأودعتها بين ذراعي أبيها، فتلا الكهنة صلواتٍ بصوتٍ عالٍ، وحينئذٍ سلّم يواكيم طفلته لكبير الكهنة الذي رفعها في الجوّ، وكأنّه يقدّمها لله، ثمّ وضعها في مهدها أمام الهيكل، وقصّ خصلاتٍ صغيرةً من شعرها من جانبي رأسها ومن جبينها وأحرقها في موقدٍ، ثمّ دهن حواسّها الخمس بزيتٍ مقدّسٍ، ووضع على صدرها برديًّا دُوّن عليه اسم مريم، وخُتم الاحتفال بإنشاد مزامير، ثمّ بمأدبةٍ عامرةٍ.

وفي الموعد الذي حدّدته الشريعة، قدّم يواكيم وحنّة طفلتهما للهيكل بروحٍ طافحٍ ورعًا وشكرًا، وفي اليوم التالي قدّما ضحيّةً للهيكل، والتزما بتكريس الطفلة لله في الهيكل حالما تبلغ سنًّا ملائمةً، وعادا إلى الناصرة.

تقدمة مريم إلى الهيكل

ولمّا بلغت مريم الثالثة من سنواتها لقّنتها أمّها الصلوات، وأعدّتها من أجل تقديمها للهيكل، إذ كان عليها، كي تُقبَل فيه، أن تجتاز امتحان الكهنة. وكان قد اجتمع في بيت يواكيم عددٌ من الأقارب، وأطفالٌ في مثل عمر مريم، لمواكبة هذا الحدث، وثلاثة كهنةٍ قادمون من ثلاثة أماكن مختلفةٍ، كي يسهروا على الزيّ المطلوب في الهيكل. وكانت الطفلة مريم، في تلك المرحلة، رقيقة القامة، غير أنّها كانت تحسن القراءة، وتدهش الجميع بحكمة أجوبتها. وقد ارتدت على التوالي كلّ الأزياء المعدّة لها كي يشاهدها الكهنة ويوافقوا عليها، فيما كانوا يمتحنونها بأسئلتهم. وقد اندرج ذلك الاحتفال بوقارٍ، فبادئ الأمر كان الكهنة يطرحون أسئلتهم ببسمةٍ تتوافق وسذاجة الأسئلة الظاهريّة، غير أنّ الإبهار الذي فجّره سداد الأجوبة وعمقها، ودموع الفخر التي ذرّفها أبواها أشاعت جوًّا من الجدّ والدهشة.

وكان الكهنة، في سياق امتحانها، قد طرحوا عليها السؤال التالي: "عندما قرّر والداك تكريسك للهيكل نذرا بألاّ تشربي لا خمرًا ولا خلاًّ، وألاّ تأكلي عنبًا ولا تينًا، فما الذي تعزمين، أنتِ، إضافته إلى هذه النذور؟" وأمهلوها كي تفكّر بالأمر مليًّا، وتعلن عن إجابتها لاحقًا. وقد أدلت مريم بجوابها، عقب الغداء، فأعلنت أنّها ستمتنع عن أكل اللحم والسمك، وعن شرب اللبن، مكتفيةً بالماء، وعصير البرديّ، على غرار الفقراء، وهو شرابٌ غير مستساغٍ ولكنّه مقوٍّ. كما أعلنت امتناعها عن كلّ ألوان البهارات والثمار، باستثناء عنبيّاتٍ صفراء يتناولها الفقراء. وأعلنت عزمها الرقاد على الحضيض، والنهوض ثلاث مرّات، ليلاً للصلاة، في حين أنّ سائر العذارى لا ينهضنَ إلاّ مرَّةً واحدةً، لهذه الغاية.

هذه النذور كانت شديدة الوقع على أبويها، فشدّها أبوها إلى صدره وقال: "هذه نذورٌ مغرقةٌ في الصرامة، وإن أنت سقتِ حياةً على هذا القدر من القسوة، فلن يتسنّى لوالدك رؤيتك ثانيةً". وطلب منها الكهنة التخفيف من شدّة الحرمان، والاكتفاء بالنهوض مرَّةً واحدةً في الليل للصلاة، أُسوةً بالأخريات، وتناول

السمك في أيّام الأعياد. وأخبرها الكهنة أنّ عذارى أُخريات يُقبَلنَ مجّانًا وبلا مقابلٍ في الهيكل، يلتزمنَ، بموافقة ذويهنّ، بغسل ثياب الكهنة الملطّخة بدماء الأضاحي، وغسل أقمشةٍ صوفيّةٍ أُخرى غليظةٍ، موضحين أنّه عملٌ شاقٌّ، غالبًا ما يدمي الأيدي. وأنّها غير ملزمةٍ به، إذ إنّ ذويها يتولّون أداء أكلاف إقامتها في الهيكل. ولكنّها أجابت أنّها متأهّبةٌ للاضطلاع بهذه المهمّة أيضًا، إذا ارتأوا أنّها مؤهّلةٌ لها.

في نهاية الاحتفال نالت مريم البركة، وهي واقفةٌ على عرشٍ صغيرٍ بين كاهنين كانا يتناوبان على تلاوة الصلوات، وقد أُلهم أحد الكهنة، في أثناء الاحتفال، أنّ هذه الطفلة، هي الإناء المصطفى الذي يحتوي سرّ الخلاص.

ودفع الكهنة الطفلة إلى والديها اللذيْن كانا غارقين في لجّةٍ من التأثّر. فأخذتها حنّة بين ذراعيها وقبّلتها قبلةً امتزج فيها الحنان بالإجلال. وأمسك والدها بيدها وهو يحاول كبح دموعه، فيما قبّلتها أُختها الكبرى بحرارةٍ فاقت حرارة قبلة أُمّها، وطوّقتها ابنة أُختها بيديها، وهي تضجّ فرحًا. وحينئذٍ خُلِعت عنها أزياء الاحتفال.

انطلاق مريم إلى الهيكل

لقد بدت الطفلة مريم، أثناء هذا الامتحان، رائعةً ورزينةً، ومع أنّها لم تكن قد تخطّت الثالثة من سنيها بدت أكثر نضجًا من ابنة أختها، التي كانت تكبرها بسنتين. وإثر الامتحان عاد الجميع إلى بيت يواكيم، وأكبّوا على إعداد إقامتها في الهيكل، فأبوها انتقى من خيرة قطعانه، خمسة رؤوسٍ من كلّ نوع، تقدمةً للهيكل، وأرسلها مع خدّامه عشيّة انتقال طفلته إلى مسكنها الجديد؛ وفي صباح انتقالها إلى الهيكل حمّل دابّةً رزمًا تحتوي ألبسة مريم التي نُضّدت على أكمل نسقٍ، ورزم هدايا للكهنة، وكانت والدها قد أعدّت سلالاً وقففًا تحتوي طيورًا وفاكهةً من كلّ لونٍ، وغُطّي ذلك الحِمل بغطاءٍ مزركشٍ. وبدا جميع أهل البيت مثل خليّة نحلٍ. وتميّزت شقيقة مريم الكبرى بانهماكها، ودأبها الذي لا يفتر.

وتقول الرائية إنّها، حينئذٍ، شاهدت صبيّين جميلين لا يمتّان إلى الأسرة بصلة

قُربى، ولم يُعرْهما أحدٌ بالاً. وقيل لها إنّهما مجرّد رمزين. فكبيرهما كان يحمل لفائف ويطالعها، ممثّلاً موسى الذي شاهد الله في علّيقةٍ ملتهبةٍ لا تحترق، وهو رمزٌ لمريم التي تحمل في داخلها الروح القدس، على غير وعيٍ منها. أمّا الصبيّ الأصغر فيمثّل إيليّا ويحمل اللفائف معلّقةً حول عصا وكأنّه يحمل علمًا يلهو به، رامزًا إلى براءة مريم التي تحمل وعدًا إلهيًّا جسيمًا ولكنّها، مع هذا المصير الاستثنائيّ، ما برحت تعبث كالأطفال.

منذ الفجر تحرّك الموكب صوب هيكل أورشليم، وكانت مريم الطفلة تلتهب اندفاعًا وتوقًا لمصيرها الجديد، فهرعت نحو الدابّة المحمّلة بأمتعتها ورُفِعت على متنها، فيما سبقتها دابّةٌ أُخرى محمّلةٌ بهدايا الهيكل والكهنة، وشتّى المؤونات. وكان يواكيم ممسكًا بعصا ذات رأسٍ مستديرٍ سميكٍ، يسوق الدابّة، وكانت حنّة تسبقهما ببضع خطواتٍ، ممسكةً بيد حفيدها مريم ابنة كليوبّا، وترافقها إحدى خادماها.

كان الموكب الذي لا يني يتسلّق تلالاً ويهبط وديانًا، يمخر، تارةً، أمواج الضباب الكثيف، ويتبلّل تارةً أُخرى بفيض ندى الليل، ويتمتّع، حينًا آخر، بمشاهد زهورٍ من كلّ لونٍ توشّي الحقول، ويتوقّف بين حينٍ وحينٍ، في منازل قرى على الطريق، تخصّ أَقارب لذوي مريم، فيصيب قسطًا من الراحة، وشيئًا من الطعام، ويتزوّد بالمؤونة الطازجة والماء، وقد أُودعت ابنة أُختها التي نال منها التعب والسأم في إحدى هذه المنازل.

وكان أقرباء حنّة ويواكيم الذين أُحيطوا علمًا بقدوم العيلة المقدّسة مع الطفلة مريم إلى الهيكل قد وافوا وانتظروا موكبهم في بيوت ذوي قرباهم المنتشرة على طريق أورشليم. وهناك كانوا يحيون احتفالات وداع الطفلة المكرّسة، ويغدقون عليها الهدايا. وكانت مشاعر الوداع تنتاب الجميع، فيواكيم كان يضمّ طفلته بين حينٍ وآخر، باكيًا، خاشيًا ألاّ تتسنّى له رؤيتها ثانيةً. وكانت مريم لا تني تهجر مكانها على المائدة كي تلتصق بأُمّها، أو تقف من ورائها وتطوّق عنقها بكلتي يديها. وكانت كلّما اقتربت من أورشليم ازدادت توقًا إلى هيكلها.

لدى وصول الموكب إلى أورشليم استُقبلوا، بحفاوةٍ واحتفالٍ، في منـــزل زكريّا وإليصابات حيث كان أقرباء لهم ينتظرونهم مع فتياتٍ صغيراتٍ يحملنَ عقود زهورٍ للطفلة مريم، التي كانت ضاجّةً اندفاعًا، ومحطّ إعجاب الجميع.

وجيء بامرأةٍ أرملةٍ مسنّةٍ كانت مكلّفةً برعاية مريم، أثناء إقامتها في الهيكل. فتسلّمتها برقّةٍ وحنانٍ ووقارٍ، وتسلّمت أيضًا أمتعة الطفلة كي تعدّ احتفال تقديمها للهيكل خير إعدادٍ. في حين برهنت مريم عن تواضعٍ واحترامٍ جمّين. وصباح اليوم التالي اقتاد يواكيم أضاحيه إلى الهيكل، فاختار الكهنة خيرها وذبحوها وقطّعوها وملّحوها تمهيدًا للتضحية بها في الهيكل.

وفي النـــزل الذي حلّت فيه العيلة المقدّسة والأقرباء أُقيمت وليمةٌ جمعت على مائدتها نحو مئة شخص، منهم أربعٌ وعشرون فتاةً من أعمارٍ مختلفةٍ، وبينهنّ "سيرافيا"، ابنة الثانية عشرة، والتي عرفت لاحقًا باسم "ڤـــيرونيكا". واشترك بالمأدبة عددٌ من الكهنة واللاويّين الذين لفت انتباههم سخاء يواكيم وجسامة تقدمته، التي اعتبرها تعويضًا عن الإهانة التي كان الكهنة قد ألحقوها به بسبب عقم زوجته، وشكرًا لرحمة الله، الذي أزاح عنهما العار.

دخول مريم إلى الهيكل

منذ صباح ذلك اليوم شخص يواكيم إلى الهيكل برفقة زكريّا، والرجال الأقرباء. بعدئذٍ جاء موكبٌ رسميٌّ، تتقدّمه حنّة، وابنتها الكبرى وحفيدتها وكلتاهما تحملان اسم مريم، تتبعهنّ الطفلة مريم مرتديةً ثوبًا ومعطفًا صغيرًا سماويَّي اللون، وقد ازدان عنقها، وذراعاها بأطواق الورود، حاملةً شمعةً مزيّنةً بالزهور، ويحيق بها، من كلّ جانبٍ، ثلاث طفلاتٍ حاملاتٍ أيضًا شموعًا مزيّنةً، ومرتدياتٍ ثيابًا بيضاء موشّاةً بخيوطٍ ذهبيّةٍ، ومعاطف صغيرةً سماويّة اللون، ومكلّلاتٍ بالزهور، وفي إثرهنّ طغمةٌ من الفتيات المرتديات ثياب العيد المتعدّدة الألوان، فيما كانت نساءٌ تختمن الموكب.

وقد طاف ذلك الموكب عبر أزقّة المدينة، قبل ولوج الهيكل، ناشرًا الفرح بين السكّان، الذين أحاطوه بالتكريم، وتأثّروا، خاصّةً، بما كان يشعّ من صاحبة الاحتفال من نفحاتٍ قدسيّةٍ.

وعند وصول الموكب إلى الهيكل هرع الخدم لفتح الباب الذهبيّ الثقيل المتألّق بلونه الذهبيّ وبالنقوش المحفورة عليه. ثمّ كان على الداخلين تسلّق خمسين درجةً، وقد أبت الطفلة مريم كلّ عون، فصعدت السلّم بمفردها وهي تتوثّب بهجةً واندفاعًا، مثيرةً إعجاب الحاضرين. وعند العتبة استقبلها زكريّا، ووالدها يواكيم وثلّةٌ من الكهنة اقتادوها إلى قاعاتٍ عاليةٍ، فيما ارتدّت النساء والأولاد إلى جناح الهيكل المخصّص للنساء. وطرح الكهنة على الطفلة مزيدًا من الأسئلة، ثمّ انسحبوا وقد بلغ تأثّرهم كلّ مبلغٍ بما اكتشفوا فيها من حكمة. وحينئذٍ ألبستها أُمّها المجموعة الثالثة من ألبسة الاحتفال ذات اللون البنفسجيّ، وإكليلاً وقناعًا كانا قد أُعِدّا لهذه المرحلة من الاحتفال.

في هذه الأثناء كان يواكيم واقفًا بين كاهنين في موقع التقادِم، وقد تمكّنت الفتيات المرافقات لمريم من مراقبة تقادِمه، من خلال نافذةٍ في جدارٍ يفصل هيكل التقادِم عن قاعة النساء، وقد شاهدنَ، عند الهيكل، أولاد الهيكل في زيّهم الأبيض يعزفون على القيثارة والناي.

ثمّ نُصب هيكلٌ متحرّكٌ صغيرٌ يُصعد إليه عبر بضع درجاتٍ، وانتصب حوله يواكيم وزكريّا وأحد الكهنة ولاويّان يحملان أدوات الكتابة. وركعت مريم على إحدى الدرجات، فبسط أبواها أيديهما فوق رأسها، وقصّ كاهنٌ خصلاتٍ من شعرها وأحرقها في موقد. وتلفّظ يواكيم وحنّة بعبارات تقديم ابنتهما للهيكل، فيما كان اللاويّان يدوّنان أقوالهما.

وفي هذه الأثناء كانت فتياتٌ تنشدن المزمور ٤٤ القائل: "جاش قلبي بطيّب الكلام..." والكهنة ينشدون المزمور ٤٩ القائل: "تكلّم الربّ إله الآلهة، ودعا الأرض من مشرق الشمس إلى مغربها..." على أنغام آلات الطرب.

وأخذ كاهنان بيدَي مريم، وصعدا بها إلى ما يشبه مشكاةً يمكنها أن ترقب منها ما يجري في الهيكل، وقد وقف كاهنٌ على كلّ جانبٍ منها، فيما كان رئيس كهنةٍ منتصبًا أمام الهيكل يصعّد البخور الذي عبق به المكان.

وتقول الرائية إنّها شاهدت من خلال مريم صورًا لسفينة نوح ولتابوت العهد تتوارى كي تحلّ محلّها كأس العشاء الأخير عند صدرها، وأمام فمها خبزٌ رسم عليه الصليب، وكلّ الأمجاد والألقاب التي ستمجَّد بها مَن ستضحي أمّ المخلّص. وحيال روعة هذه الأمجاد بدا لها كلّ بهاء الهيكل باهتًا.

ونزع الكهنة عن ذراعي مريم أكاليل الزهور، وأخذوا المصباح الذي كانت تحمله، وألقوا على رأسها حجابًا بنّيّ اللون، وانحدروا بها بضع درجاتٍ، واقتادوها إلى حجرةٍ مجاورةٍ حيث استقبلتها ستّ فتياتٍ أكبر منها سنًّا، بالزهور التي رشَشنَها أمامها، وفي إثرهنّ معلّماتهنّ "نُعَيْمى" خالة لعازر، وحنّة النبيّة، وأُخرى، تسلّمنَ مريم من أيدي الكهنة بحضور ذويها، وبعد ترتيل بعض أناشيد، ودّعت الطفلة أُسرتها، وقد بلغ تأثّر يواكيم ذروته فشدّ طفلته إلى قلبه، وقال لها وسط وابل دموعه: "اذكري نفسي أمام الله".

وبوحيٍ إلهيّ تمتمت حنّة على مسمع أقربائها: "ها إنّ تابوت العهد، وإناء الوعد يدخل إلى الهيكل". وعملاً بالتقليد الجاري استأذنت مريم أترابها في الهيكل ومعلّماتها بقبولها بينهنّ، وأُقيمت مأدبةٌ بهذه المناسبة على أنغام عزف بعض الفتيات. ثمّ اقتادت "نُعَيْمى " تلميذتها الصغيرة إلى غرفتها المجهّزة بمرقدٍ ومنضدةٍ صغيرةٍ، ومقعدٍ واطئٍ، وخزانة ثياب. واستأذنت مريم معلّمتها بالنهوض عدّة مرّاتٍ ليلاً، للصلاة، ولكنّ المعلّمة وعدتها بالنظر في الأمر، لاحقًا.

حياة مريم في الهيكل قامت، بمعظمها على الصلاة، وفضلاً عن نصوص الصلوات المفروضة، كانت في صلاةٍ داخليّةٍ مستمرّةٍ، دائمة التوق إلى تحقيق الفداء. تصلّي خفيةً وبهدوء، ولطالما كانت تنهض ليلاً تتضرّع، ساكبةً الدموع، وكانت تسدل على ذاتها حجابًا، كلّما صلّت، وكلّما تعيّن عليها مخاطبة الكهنة أو الشخوص إلى الأماكن

المخصّصة لاستلام الموادّ التي ستصنّعها أو لتسليمها بعد إنجازها. أمّا في الهيكل فكانت صلاتها انخطافًا، وإقامةً خارج نطاق الأرض والزمن، وتوقًا إلى تحقيق وعد الخلاص. وفي تواضعها لم تطمع يومًا إلى أن تكون أكثر من أدنى خادمةٍ لأمّ المخلّص.

وإلى جانب ذلك كانت تنمو في الدراسة والعمل، تغزل وتحيك، وتصنع بعض لوازم الهيكل وتغسل الأغطية والأواني. ولم تكن تتناول من الطعام إلاّ ما يقيم أودَها، حريصةً على تجنّب كلّ ما نذرت الصوم عنه.

معلّمتها كانت "نُعَيْمى"، خالة لعازر، البالغة الخمسين من العمر، والمنتمية إلى جماعة الأسّينيّين. على يديها كانت مريم تتعلّم العمل. وكان زكريّا يزورها كلّما حانت نوبة خدمته في الهيكل، وكان سمعان الشيخ أيضًا يعرفها. وكانت علامات القداسة، والحكمة، والسموّ، المشعّة منها، تلفت إليها الأنظار، وتوحي لمشاهديها توقّع مستقبلٍ فريدٍ واستثنائيٍّ لها.

يوسف

هو ابن يعقوب، وثالث إخوته الستّة؛ كان ذووه يسكنون بناءً كبيرًا قرب بيت لحم، سبق أن كان منــزل والد داود. كان يوسف يختلف عن إخوته بذكائه، وهدوئه، وبساطته وورعه، وقناعته؛ هذه الخصال لم ترُقْ لإخوته الذين كانوا يخصّونه بمعاملةٍ فظّةٍ. وبما أنّ كلاًّ منهم كان قد اختصّ بقسمٍ من حديقة الأسرة، فكانوا غالبًا يفسدون مزروعات قسمه الخاصّ. وغالبًا ما كان يقضي ساعاتٍ مصلّيًا، راكعًا، باسط الذراعين، وحينئذٍ، كان إخوته يدنون منه خلسةً ويضربونه على ظهره، وبما أنّه لم يكن يردّ، إذ غالبًا ما كان انغماسه في الصلاة يأخذه في انخطافٍ، كانوا يعيدون الكرّة حتّى يرموه أرضًا. وحينئذٍ، كان ينتحي زاويةً منعزلةً يواصل فيها صلاته، ولا يخطر له ببالٍ أن يردّ على الأذى بأذًى.

هذه الخصال لم ترُق لذويه الذين كانوا يؤثرون أن يستثمر مواهبه الذهنيّة في سبيل الظفر بمركزٍ مرموقٍ، في حين لم تكن تراوده أيّة رغبةٍ في مثل تلك المناصب،

وكان يؤثر العمل اليدويّ، بعيدًا عن عيون الآخرين. وكان في صباه يفزع من مضايقات إخوته إلى جماعات الأسّينيّين. وكان على مقربةٍ من هؤلاء نجّارٌ، فاعتاد الاختلاف إلى محترفه، وتلقّن منه هذه المهنة.

في نحو الثامنة عشرة من سنيه ضاق ذرعًا باضطهادات إخوته، فتنكّر، ذات ليلةٍ، وهجر المنـــزل الأبويّ، ساعيًا وراء حياةٍ جديدةٍ أوفر هدوءًا، آملاً أن تساعده مهنة النجارة على القيام بنفقات العيش. حاول البدء بإجادة مهنته عاملاً لدى نجّارٍ في إحدى القرى، ولكنّ ذلك النجّار المعلّم كان رجلاً فقيرًا، لا يحسن صنع سوى أشياءٍ رديئةٍ، غير ذات قيمةٍ. ومع ذلك سرعان ما غزا يوسف قلب معلّمه وقلوب أهالي القرية بورعه، وطيبته، وبساطته.

وظنّ إخوته، بادئ الأمر، أنّه اختُطف، ولكنّهم، اهتدوا لاحقًا، إلى مكانه فألحوا عليه بأمرّ لومٍ، بسبب ما آل إليه من وضاعة المكانة، ولكنّه، بدافع التواضع، لبث في ذلك المكان فترةً، قبل أن ينتقل إلى قريةٍ أُخرى، ويعمل لدى نجّارٍ أرفع مستوى، ينتج مصنوعاتٍ راقيةً.

وانتهى به المطاف في طبريا، حيث عمل لدى نجّارٍ هناك، وسكن وحيدًا في بيتٍ على الشاطئ. وكان قد بلغ الثالثة والثلاثين. وكان والداه قد توفّيا، منذ سنواتٍ، وتبعثر إخوته في كلّ ناحيةٍ، ولم يتبقّ منهم سوى اثنين في بيت لحم، وبيع البيت الوالديّ لغرباء، وهوت العيلة إلى حالةٍ من الانحطاط المريع.

على مقربةٍ من مسكنه، أقام مصلًّى، كان ينتحي فيه، قاضيًا ساعاتٍ طويلةً في الصلاة، والدعاء من أجل مجيء الخلاص. وذات يومٍ ظهر له ملاكٌ، وطلب منه التخلّي عن العمل، والانصراف إلى المهمّة التي ستُسند إليه، فكما أنّ يوسف بن يعقوب قد كُلّف، قديمًا، بإدارة أهراء مصر، ستوكل إليه أهراء الخلاص القادم. ولم يدرك، في الحال، مغزى هذه الدعوة وواصل أدعيته بحرارةٍ إلى أن أُمر بالمثول إلى هيكل أورشليم حيث سيتعيّن عليه أن يصبح زوجًا للعذراء مريم، مع أنّ فكرة الاقتران بامرأة لم تخطر له قطّ ببال.

(هنا ترد حادثة بشارة زكريّا في الهيكل. وكان زكريّا يتهيّب القيام بمهمّته في الهيكل خشيةً من نظرات الاحتقار التي كانت تنصبّ عليه بسبب عقم زوجته)

ولّما بلغت مريم الرابعة عشرة بُلّغت بوجوب مغادرة الهيكل والاقتران برجلٍ، وبُلّغت سبعٌ من أترابها بالأمر عينه. واعترضت مريم بأنّها كرّست ذاتها لله وحده وأنّ فكرة الزواج غريبةٌ عن رغبتها وخاطرها. وأعلنت موقفها هذا لكهنة الهيكل. ولكنّ البتوليّة لم تكن مستحبّةً في ذلك العهد، وكان الزواج واجبًا، إذ إنّ كلّ امرأةٍ يهوديّةٍ قد تكون مختارةً لحمل المسيح الموعود. فاستغرقت مريم في صلاةٍ حارَّةٍ ملتمسةً الاستنارة، واستطلاع ما يتعيّن عليها فعله من أجل التوفيق بين تكريس ذاتها الكليّ لله وواجب الزواج، وجاءها صوتٌ يدعوها إلى القبول بالزواج. وبما أنّ أشعيا كان قد تنبّأ بأنّ "غصنًا سينبت من جذر يسّا"، فقد استُدعي إلى هيكل أورشليم جميع الرجال المتحدّرين من أصل داود، والذين ما زالوا عازبين، ولبّى الدعوة عددٌ غفيرٌ من الشبّان والرجال. وخضوعًا لوحيٍ سماويٍّ وزّع رئيس الكهنة على كلٍّ من المتقدّمين غصنًا وأوعز إليهم أن يدوّن كلٌّ منهم اسمه على غصنه، ويمسكه بيده في أثناء صلاة التقدمة، ثم يضعه على الهيكل، واعدًا بأن يصبح من يزهر غصنه خطيبًا لمريم. ولكن في ختام الصلاة لم يزهر أيٌّ من الأغصان التي أودعت على الهيكل، وطُلب من جميع القادمين العودة إلى بيوتهم، وكان بينهم شابٌّ ورعٌ تضطرم بين ضلوعه رغبةٌ عارمةٌ في مجيء المسيح، آثر الاعتكاف مع جماعةٍ من النسّاك.

أمّا مريم فانتحت وذرّفت كلّ ما احتوته مآقيها من دموع، لأنّها لم تكن قادرةً على تخيّل أن تكون لأيّ رجلٍ، بعد أن كرّست ذاتها لله وحده.

وعكف الكهنة على البحث، ثانيةً، عن رجالٍ وشبّانٍ من ذرّيّة داود لم يحضروا، وتبيّن لهم وجود ستّة إخوةٍ في بيت لحم، أحدهم غائبٌ ومجهول الإقامة، وجدّوا في البحث عنه إلى أن عثروا على يوسف في معتزله.

امتثالاً لأمر رئيس الكهنة شخص يوسف إلى الهيكل، فأعطي غُصنًا أمسكه طيلة صلاة التقدمة، وعندما همّ بإيداعه على الهيكل، نبتت منه زهرة بيضاء تحاكي

الزنبقة، وشهدت الرائية نورًا يحيق به، ولكأنّه تلقّى الروح القدس. واتّضح أنّه هو الذي اختاره الله ليكون خطيب مريم، فقدّموه لها بحضور أُمّها. واستسلمت مريم لمشيئة الله، وهي موقنةٌ أنّ الله قادرٌ على كلّ شيءٍ، وعلى إيجاد وسيلةٍ لصون بتوليّتها التي كرّستها له وحده.

واحتُفل بعرس يوسف ومريم في أورشليم احتفالاً قرن الفخامة بالوقار. فقد حرصت حنّة على إخراجه في أبهى شكلٍ، وعلى جعله ذكرى لا تمّحي من الأذهان، فأغدقت التقادِم للهيكل، واختارت لابنتها أفخر الثياب، وأمعنت في تكريم الضيوف. عادت حنّة إلى الناصرة، ولحقت بها مريم سيرًا على الأقدام بصحبة ثلّةٍ من العذارى اللائي غادرنَ الهيكل معها. أمّا يوسف فعاد إلى بيت لحم من أجل حلّ قضايا عيليّة، ولم يعد إلى الناصرة إلاّ بعد فترةٍ طويلةٍ. في هذه الأثناء لبثت مريم في بيت أُمّها، ولم تغادره إلى بيتها في الناصرة إلاّ بعد عودة يوسف. وفي الناصرة كانت والدتها تزورها بين حينٍ وآخر وتأتيها بالمؤن و الهدايا، وكانت مريم تذرّف دموعًا حرّى كلّما غادرتها أمّها عائدةً إلى بيتها.

البشارة

كانت مريم منتحبةً في حجرتها، مرتديةً ثوبًا أبيض طويلاً، متلفّعةً بغطاءٍ أبيض ضاربٍ إلى الصُّفرة، راكعةً أمام منضدةٍ مستديرةٍ واطئةٍ، ضامّةً يديها على صدرها، تصلّي بحرارةٍ، وعيناها إلى السماء مستعجلةً مجيء المخلّص، واعتراها الخطافٌ، فلَوَت رأسها على صدرها. وحينئذٍ، هبط عليها نورٌ ساطعٌ، تجلّى في ثناياه الملاك المتألّق جبرائيل، وحيّاها، فأمالت مريم رأسها ناحية اليمين من غير أن توجّه إليه نظرها، وإذ استمرّ الملاك في مخاطبتها التفتت إليه، وكأنّها تنفّذ أمرًا، وأماطت الحجاب عن وجهها، وهتفت: "ها أنذا أمة الربّ، فليكن لي حسب قولك". وبدا كأنّ أبواب السماء قد فُتحت، وانفرجت عن مشهدٍ مثلّثٍ يرمز إلى الله الواحد ثلاثيّ الأقانيم.

وردًّا على قول العذراء: "ها أنذا أمة الربّ"، ظهر الروح في لجّة نورٍ، وقد امتدّ من

جانبيه شعاعان وكأنّهما جناحان، ومن تلك المجموعة انطلقت ثلاثة تيّاراتٍ منيرةٍ، وتوحّدت إلى يمين العذراء التي انقلبت في الحال كتلةً تشعّ نورًا، طاردًا كلّ صفاقةٍ وقتامٍ.

وشهدت الرائية الملاك خارجًا من مخدع العذراء يسحق رقطاء مريعةً كانت تترصّد عند باب المخدع، وثلاثة ملائكة ينقضّون عليها ويضربونها ويطردونها خارج البيت. بدت مريم في حالة انخطافٍ سحيقٍ، عابدةً العليّ الذي حلّ في أحشائها، وعلى خلاف محراب هيكل أورشليم المحظور على النساء، والمباح للكهنة فقط، أضحت تلك الفتاة المختارة هي الهيكل وقدس أقداسه. كم كان ذلك المشهد مؤثّرًا، رائعًا، وبسيطًا!

حدث ذلك في السرّ، نحو منتصف الليل، وأيقظ النور الساطع الذي غمر المنـــزل حنّة والنساء الموجودات معها، فهرعن إلى مخدع مريم، ولمّا شهدنَ انخطافها، انسحبنَ إجلالاً. وعندما استعادت مريم روعها، نهضت وصلّت واقفةً أمام الهيكل الصغير الذي نصبته في حجرتها. ثمّ آوت إلى فراشها مع انبلاج الفجر. ويبدو أنّ حنّة قد تلقّت وحيًا بالسرّ الذي حلّ على ابنتها، وبالدافع الذي حمل المخلّص على المكوث تسعة أشهرٍ في أحشائها وعلى رؤية النور طفلاً مثل كلّ أطفال البشر، لا أن يظهر رجلاً مكتملاً مثلما خرج آدم من يد الخالق، وذلك لكي ينـــزع اللعنة عن ولادة البشر التي كانت قد لطّختها الخطيئة.

مريم هي المرأة الوحيدة، التي لم يكن لها مثيلٌ من قبل، ولن يكون لها شبيهٌ من بعد، إنّها إناء النعمة الطاهر الذي اعتزم الله أن يتّخذ منه جسدًا، كي يخلّص البشريّة، باستحقاقات آلامه. مريم هي الزهرة كلّيّة الطهر التي أنتجها الجنس البشريّ والتي تفتّحت لّما حلّ ملء الزمن، وقد مهّد لتفتّحها جميع أبناء الله من البشر، وجميع الذين شاركوا في مهمّة تقديس البشريّة. هي ذهب الأرض الصافي الوحيد والجزء الأسمى من جسد البشريّة، ودمها الطاهر والمنزّه من كلّ لطخة دنس، الذي أُعِدّ، وطُهِّر وكُرِّس على امتداد أجيالٍ كثيرةٍ. مصيرها أُعِدّ منذ الأزل، حتّى ظهرت في الزمن أُمًّا للأبديّ.

زيارة إليصابات

عاد يوسف إلى الناصرة بعد انقضاء يومين على بشارة الملاك لمريم. ولم يكن، بعدُ، قد أقام في الناصرة، حيث كان يعتزم إجراء بعض ترتيباتٍ لمزاولة مهنة النجارة فيها. ولم يكن لديه أيّ علمٍ بالبشارة، التي عدّتها مريم سرًّا إلهيًّا احتفظت به لنفسها. وبما أنّ يوسف كان يعتزم الحجّ إلى أورشليم بمناسبة عيد الفصح، فقد انتهزت مريم هذه السانحة كي تزور إليصابات وتحقّق رغبةً ما انفكّت تراودها مذ أنبأها الملاك أنّ إليصابات حاملٌ في شهرها السادس، واعتبرت أنّ الواجب يفرض عليها مدّ يد العون لها.

إثر حجّهما لأورشليم يمّمت العذراء ويوسف شطر بيت زكريّا وإليصابات. وفي هذه الأثناء انتاب إليصابات حدْسٌ بأنّ مريم قادمةٌ لزيارتها، فسارت مسافةً طويلةً على درب أورشليم لعلّها تقابلها على الطريق، ولكنّها، قبل ذلك، التقت زوجها زكريّا الذي كان عائدًا من المدينة المقدّسة، وعجب لرؤيتها بعيدًا عن بيتها، وهي في وضع حبلٍ متقدّمٍ. ففسّرت له سبب خروجها، ولكنّه حاول أن يبدّد هواجسها، مدوّنًا على لوحٍ كان يرافقه، رأيه في هذا الشأن.

عادت إليصابات مع زوجها إلى المنــزل، ولكنّ توقّعها زيارة مريم لم يبارحها لحظةً. فقد كانت قد رأت في الحلم أنّ فتاةً من دمها كانت قد أصبحت أُمًّا للمسيح الموعود، واستقرّ في خلدها اليقين بأنّ تلك المرأة هي مريم، فالتهبت لديها الرغبة في رؤيتها، واستقرّ في ذهنها اليقين بأنّها قادمةٌ إليها، وأعدّت لها حجرةً تقيم فيها. وفي تلك الحجرة جلست تنتظرها في الغداة، وفجأةً هبّت واقفةً وخفّت لملاقاتها.

كانت إليصابات امرأة مسنّةً، مديدة القامة، ذات وجه صغيرٍ، جميل القسمات. لم تكن تعرف مريم إلاّ بما سمعت عنها. ومُذ رأتها مريم من بعيدٍ تعرّفتها وجرت نحوها فيما تخلّف عنها يوسف خفرًا. ولدى مرورها بين بيوت جيران إليصابات استولى عليهم الإعجاب بجمالها، وبالوقار السماويّ المنبعث من كلّ كيانها. وتصافحت

المرأتان، ولكأنّ بؤرة نورٍ انطلقت من مريم وهزّت كلّ كيان إليصابات. ولكي لا تظلاّ محطًّا لأنظارٍ فضوليّةٍ، هرعتا إلى داخل البيت ممسكتين إحداهما بيد الأُخرى. ولحق بهما يوسف الذي ربط حماره في فناء الدار وقصد زكريّا، وحيّاه باحترامٍ، وحاول زكريّا أن يردّ عليه ويستفسر عن أحواله من خلال ما كان يدوّنه على لوحه، منذ إصابته بالبكم، عقابًا على شكّه في تبشير الملاك له، في الهيكل، بحبل زوجته.

دخلت المرأتان إلى البيت وتعانقتا، فتسلّل من نفس مريم إلى نفس إليصابات شعاعٌ مشيعًا فيها النور، وخفق قلبها تأثّرًا وبهجةً، فتراجعت قليلاً إلى الوراء ورفعت يديها إلى السماء، وهي تضجّ تواضعًا وفرحًا واندفاعًا، وهتفت:

« مباركةٌ أنت بين النساء، ومباركةٌ ثمرة حشاك. من أين لي أن تأتي إليّ أُمّ ربّي؟ فما إن طرق صوت تحيّتك أُذنيّ حتّى انتفض فرحًا الجنين الذي أحمله في حشاي. طوبى لك لأنّك آمنت: وسيتحقّق ما قيل لك من قِبَل الربّ. »

ثمّ اقتادت إليصابات ضيفتها إلى الحجرة التي كانت قد أعدّتها لها، كي ترتاح من عناء السفر، فضمّت مريم يديها فوق صدرها وهتفت بالنشيد الملهم:

« "تعظّمُ نفسيَ الربَّ وتبتهجُ روحي باللهِ مخلّصي، لأنّه نظرَ إلى حقارةِ أمَتِهِ. أجل، إنّهُ، بعدَ اليومِ، تطوّبني جميعُ الأجيالِ لأنَّ القديرَ صنعَ فيَّ عظائم. قدّوسٌ هو اسمُهُ. وإنّ رحمتَهُ، جيلاً بعدَ جيلٍ، للذين يتّقونَه. بسطَ قدرةَ ساعدِه: فشتَّتَ المتغطرسينَ بأفكارِ قلوبِهِم. حطَّ الأعزّاء عن عروشِهِم، ورفع المتواضعين. أفاضَ على الجياعِ الشبع، وصرفَ الأغنياء فارغين. عَضَدَ إسرائيل فتاهُ متذكّرًا، كما قال لآبائنا، رحمتَهُ لإبراهيمَ ونسلِهِ إلى الأبد ».

وكانت إليصابات تردّد أقوال مريم بصوتٍ خافتٍ. ثمّ جلستا على مقاعد واطئةٍ، وصلّتا معًا.

حتّئذٍ، كان يوسف يجهل حبل زوجته بالروح القدس، وحرصت مريم وإليصابات على الاحتفاظ بهذا السرّ مكتومًا إلى أن يبوح به الله نفسه في الوقت المناسب وبالطريقة التي يرتئيها.

كان يوسف عازمًا على العودة في الحال إلى الناصرة، ولكنّه، نزولاً عند إلحاح مضيفه، مكث ستّة أيّامٍ. وكان زكريّا ويوسف يتناولان الطعام مع إليصابات ومريم، ثمّ ينتحي الرجلان في معبدٍ صغيرٍ للصلاة، وتفزع المرأتان إلى حجرةٍ وتقف إحداهما إزاء الأخرى وتنشدان معًا "التعظيمة" الموحاة لهما.

وكانت مريم تضطلع بكلّ شؤون منـــزل إليصابات، وعندما تفرغ منها، تجلس إلى جانب نسيبتها وتعملان معًا في إعداد ثياب الطفل القادم وأقماطه، وسرير حنّة النفساء، وفقًا للتقاليد السائدة، والأشياء التي ستُهدى للفقراء تيمّنًا بالمولود. ومن جهتها كانت إليصابات ترسل خادمتها إلى الناصرة للعناية بمنـــزل مريم، أثناء غيابها.

وعادت مريم إلى الناصرة عقب وضع إليصابات ليوحنّا، وكان يوسف ينتظرها في منتصف الطريق.

حينئذٍ فقط تبيّن يوسف حبل مريم فغزت نفسَه أمواجُ الهواجس والشكوك، التي كان يكبتها في نفسه صامتًا، ولا يفصح عنها. وبما أنّ مريم كانت تتوقّع ذلك، فقد بدا عليها الوجوم، ما ضاعف قلق يوسف. وآثرت مريم، مباشرةً بعد عودتها إلى الناصرة، المكوث يومين لدى أنسباء لها، هم أهل "برمَناس"، الذي لم يكن قد رأى النور بعد، وأصبح لاحقًا واحدًا من الشمامسة السبعة الذين انتخبتهم الكنيسة الأولى لخدمة المؤمنين. وعندما همّت بالعودة إلى بيتها، كان قد نضج في ذهن يوسف عزمه على هجرها سرًّا. وفيما كان يقلّب هذا القرار في رأسه ظهر له ملاك، وأطلعه على الحقيقة التي يصعب تخيّلها، وسكب في روعه السكون والعزاء.

وفي تلك الفترة، أَلِفَت مريم قضاء الكثير من أيّامها في بيت أُمّها حنّة، التي كانت تكلّف خَدَمها بالعناية ببيت ابنتها وبتوفير كلّ ما يلزم ليوسف. ومنذئذٍ شرعت العذراء تعدّ أمتعة الطفل الإلهيّ، ولوازم وضعها له، وكانت حنّة الجدّة العتيدة، دائمة الانهماك، تنفق بسخاءٍ لهذا الغرض، ظانّةً أنّ حفيدها سيبصر النور في منـــزلها.

انطلق يوسف إلى أورشليم حيث اقتاد ضحايا، ومكث بضعة أيّامٍ في بيت لحم حيث كان يعتزم ابتناء بيتٍ صغيرٍ ومحتَرَفٍ، وحيث استفسر عن التدابير المقتضاة منه في سياق الإحصاء الذي أمر به الإمبراطور الرومانيّ، والذي يُلزم كلّ مواطنٍ بتسجيل نفسه في مكان مسقط رأسه. وفي أثناء عودته إلى الناصرة، ليلاً، ظهر له ملاكٌ، وأمره بالرحيل فورًا إلى بيت لحم مع زوجته، لأنّ الربّ يشاء أن تضع ابنها في بيت لحم، كما أمره بألاّ يستصحب سوى الزهيد من الأمتعة، مهملاً الأغطية الفاخرة الموشّاة التي كانت حنّة قد أعدّتها، وألاّ يأخذ معه سوى الحمار الذي سيحمل الأمتعة والمؤونة ويحمل مريم، وأتانًا صغيرةً لم تُركَب بعدُ، يدعها حرَّة تجري أمامهم وتدلّهم إلى الطريق.

وفي ذلك المساء عادت مريم مع أمّها إلى بيت الناصرة، لاستقبال يوسف العائد من أورشليم، والذي بادر إلى إطلاعهما على أمر الملاك. وكانت مريم تعلم، بوحيٍ إلهيٍّ، ومن خلال النبوءات، أنّ عليها وضع ابنها في بيت لحم، ولكنّها، في تواضعها وكتمانها، لم تصرّح بذلك لأحد. أمّا أمّها فقد اغتمّت غمًّا شديدًا لهذا النبأ، وأُصيبت بخيبةٍ مُرَّةٍ، إلاّ أنّها قفلت مع مريم إلى بيتها في زابلون لأجل توضيب ما لا بدّ منه، من أجل رحلة بيت لحم.

رغم مشقّة الرحلة، في ذلك الوقت من السنة، حيث البرد قارسٌ ليلاً، ومع وضع حبل مريم المتقدّم، كانت العذراء فرحةً بإسهامها في تحقيق النبوءات، وفي مجيء مخلّص البشريّة.

إلى بيتَ لحم

توقّفت العيلة المقدّسة في مزرعةٍ تخصّ حنّة، ومنها أخذ يوسف الأتان الصغيرة التي كانت تجري أمامهما حينًا، وتدلّهما على دروبٍ جانبيّةٍ مختصرةٍ، وتارةً أُخرى تسير معهما. وعندما تفرغ من مهمّة الدليل كانت تنطلق حرَّةً تجوس الجوار، طليقةً.

محطّتهم الثانية كانت في مزرعةٍ ورثها لعازر عن والده، حيث لقوا أجمل ترحيب،

وفي الليلة التالية اشتدّ البرد، واكتستِ الأرض بطبقةٍ رقيقةٍ من الجليد، فهتفت العذراء: "لا قدرة لي على متابعة السير، فلنتوقّف!". وما كادت تتلفّظ بهذه العبارة حتّى توقّفت الأتان الصغيرة تحت شجرة بطمٍ عتيقةٍ ورافةٍ، وعلى مقربةٍ منها عين ماء. فأعدّ يوسف من أغطيةٍ مجلسًا لمريم، وأنزلها عن الحمار، وأجلسها، وأشعل مصباحًا علّقه في أحد أغصان الشجرة. وابتهلت العذراء إلى الله ألاّ يصيبها البرد أو يصيب جنينها بأذًى، وفي الحال شاعت الحرارة في جسمها، فمدّت يديها ليوسف كي يستدفئ بهما. وتناولا شيئًا من الخبز والفاكهة، وشربا من ماء النبع. وكان يوسف يحيط مريم بأرقّ عنايةٍ، مدركًا مدى العناء الذي تسبّبه لها تلك الرحلة، في تلك الظروف، وجهد في بثّ العزاء في نفسها، معلّلاً إيّاها بالراحة التي ستنعم بها في بيت لحم حيث له أقرباء وأصدقاء لن يتوانوا عن توفير كلّ وسائل النقاهة لهم، فهو، حتّئذٍ، لم يكن يتوقّع الصدّ الذي سيلقاه في مسقط رأسه.

وكانت الأتان الصغيرة، للعيلة المسافرة، خير دليلٍ في تلك المرحلة، فحيثما كانت تختلط المسالك كانت تسبقهم وتقف في مدخل الوجهة الصحيحة، وكلّما احتاجا إلى راحةٍ، كانت تتوقّف في المكان الذي يوفّر القسط الأكبر منها.

وتوقّف الركب أمام مزرعةٍ كانت ربّتها غائبةً، فأبى زوجها استقبالهما، فتابعا مسيرهما وإذ بالأتان تدخل كوخ رعاةٍ، فتبعاها، وبادر الرعاة إلى إخلاء الكوخ واستقبلوا القادمَيْن بالترحيب، وقدّموا لهما ما يشعلان به نارًا يستدفئان بها. ومن ساعتهم شخصوا إلى المزرعة التي طرد منها المسافران وأخبروا ربّتها بفعلة زوجها وأسهبوا في امتداح طيبة يوسف وورعه، وجمال زوجته الفتيّة وقداستها، فأنحت المرأة بأشدّ اللوم على زوجها، وأخذت طعامًا وماءً وخفّت إلى الكوخ الذي انتهى إليه المسافران، مستصحبةً طفليها. وتأثّرت أبلغ تأثّر بحال المسافرين، وقدّمت لهما خالص اعتذارها، وما لبث أن لحق بها زوجها واستصفح يوسف عمّا بدر منه، ونصحه بالمضيّ إلى مكانٍ قريب في الجبل، حيث سيلقى ملاذًا مريحًا يقضيان فيه

السبت، فانطلقا إليه. وما لبثا أن انتهيا إلى نزلٍ يوحي بحسن الإقامة فيه. غير أنّ صاحبه اعتذر عن استقبالهما بحجّة عدم توفّر أماكن خالية. واستغاثت مريم بزوجته التي تأثّرت أعمق تأثّرٍ بمشهدها وكلامها، وأخيرًا أوجد لهما أصحاب النــزل إقامةً مريحةً في كوخٍ مجاورٍ. تناول المسافران شيئًا من الطعام وأشعل يوسف مصباحًا، فتلوا معًا صلوات يوم الربّ، ورقدا على حصرٍ ممدودةٍ على الأرض.

وسرعان ما نشأت صداقةٌ وثيقةٌ بين العذراء وأصحاب النــزل الذين كانوا يأتون بأولادهم كي يستمعوا إلى إرشادات مريم، وجاءت أيضًا صاحبة المزرعة التي أرشدتها إلى هذا النــزل مع ولديها، وكان الجميع يشعرون بمتعةٍ فائقةٍ إلى جانب تلك الفتاة الجميلة التي تحمل الله والسماء في أحشائها. وقد توسّلتها صاحبة النــزل أن تقيم لديها، حتّى تضع، واعدةً بتخصيص حجرةٍ لها وبتوفير كلّ وسائل الراحة والمساعدة.

وكان يوسف، من جهته يعقد أواصر مودّةٍ مع كلّ الرجال الذين يلتقيهم ويتبادل معهم أحاديث بنّاءةً.

ولكن كان على العيلة المقدّسة أن تواصل مسيرها إلى بيت لحم، فيمّمت صوبها منذ صباح الأحد. وقضيا الليل في بيت رعاةٍ أحسنوا وفادتهما. كانت مريم، بين حينٍ وحينٍ، تنحدر عن الحمار وتسير على الأقدام، وكان يوسف يتوقّف حيثما يلقى مكانًا لائقًا يمكن للعذراء أن تصيب فيه راحةً. ولكنّه لم يكن يتوفّق دائمًا إلى المكان المناسب. وقد توقّف، ذات ليلةٍ، أمام بيتٍ، قرع بابه، وعرض وضعه ووضع زوجته، وطلب الضيافة واعدًا بأداء الكرى المطلوب، ولكنّ صاحب البيت أجاب، بفظاظةٍ، أنّ بيته ليس نزلاً للإيجار، ونصحه بالبحث عن مكانٍ آخر. فتابعا سيرهما إلى أن شاهدا أتانهما واقفةً في مستودعٍ فأويا إليه. وفي الصباح استأنفا رحلتهما على طريقٍ جبليٍّ مصعّدٍ، والتمسا الضيافة في أحد البيوت، ولكنّ طلبهما رُدّ بجفوةٍ، وإذ تفاقم تعب مريم ارتأى يوسف الاستراحة تحت تينةٍ كانت، عادةً، مثقلةً بالثمار، ومن حولها مقاعد للاستراحة. ولكنّ تلك التينة، حينئذٍ، كانت خاليةً من أيّة ثمرة.

وطلبا الضيافة في بيتٍ آخر، ولكنّ صاحبه ردّ على يوسف بفظاظةٍ، ولمّا رأى

العذراء سخر منه لعجزه عن توفير الراحة لفتاةٍ تصغره بسنوات. غير أنّ زوجته اقتربت، ولّما تبيّنت حال مريم قدّمت لهما مكانًا في بيتٍ مجاورٍ، وزوّدت المسافرين بالخبز والماء، وحينئذٍ انتاب الزوج الندم، فاستصفح عمّا بدر منه، وحاول التعويض عن جفوته بتقديم الخدمات لضيوفٍ كانت القداسة تفوح من أعطافهم.

في نوبةٍ أُخرى طلبا الضيافة في بيت زوجين شابّين استقبلاهما بأدبٍ خالٍ من اللهفة، مجرّدٍ من مبادرةٍ ودّيّةٍ، ومن كلّ رغبةٍ في الخدمة، إذ إنّهما لم يكونا من فئة الرعاة الطيّبين، بل من الذين يقيسون كلّ شيءٍ بميزان الربح والخسارة.

وتواترت وقفات العيلة المقدّسة، فقد كانت حال مريم تزداد حراجةً وتعبًا، ولم يكن بوسعهما انتهاج طريقٍ موجزٍ يوفّر عليهما وقتًا، لأنّ مثل هذا الطريق هو جبليٌّ ومصعِّدٌ، ويضاعف عناء مريم. ولذلك كانا يسلكان طرقًا مستقيمةً جانبيّةً، ترشدهما إليها الأتان، وبذلك كان يطول أمد الرحلة.

واستُضيفا في بيت رعاةٍ كبيرٍ، استقبلهما صاحبه استقبالاً ودّيًّا، وقدّم لهما ما استطاع من خدمةٍ، إذ غسل الخدم رجلي يوسف وثيابه وأعطوه ثيابًا نظيفةً، فيما عكفت خادماتٌ على غسل رجلي مريم وثيابها. ولكنّ صاحبة البيت التي كانت شابّةً معجبةً بذاتها، تولاّها الحسد لّما شهدت جمال مريم، فحبست ذاتها في غرفتها، وأبت مقابلة الضيوف أو مصافحتهم. ومن مصادفات القدر أنّ يسوع التقى تلك المرأة عينها بعد ثلاثين سنةً وكانت مطويّةً على نفسها ومصابةً بالعمى، فشفاها بعد أن أخذ عليها عُجْبها بذاتها وفظاظة استقبالها لأُمّه.

وفي مساء اليوم التالي اجتاز يوسف ومريم محلّةً فيها طريقٌ واسعٌ انتصبت على جانبيه بيوتٌ أنيقةٌ تخصّ أقارب ليوسف، ولكنّهما لم يتوقّفا فيها، وانتهيا إلى فندقٍ غصّ بجموعٍ كانت تشارك في جنازةٍ، ومع ذلك أشار أصحاب الفندق للقادمَيْن بالدخول، وأمروا بإعداد غرفةٍ لهما معزولةٍ بحصرٍ، فاستراحا فيها وتناولا طعامًا، وناما. وعندما همّا بالمغادرة، في اليوم التالي، جهدت صاحبة الفندق في إقناعهما بالتريّث، إذ كانت تخشى أن تضع مريم وليدها بين لحظةٍ وأُخرى، ولكنّ مريم

أكّدت لها أنّها لن تضع قبل ثمانٍ وثلاثين ساعةً. وحذّرتهما صاحبة الفندق بأنّه سيتعذّر عليهما وجود إقامةٍ في بيت لحم بسبب الازدحام، ولكنّ يوسف كان ما زال موقنًا أنّ أقرباءه سيرحّبون به وبزوجته.

ودخلا إلى بيت لحم حيث البيوت متباعدةٌ، وشرع يوسف يقرع أبوابها، بيتًا بيتًا، وحيًّا حيًّا، ولا يلقى في أيٍّ منها ترحيبًا. وبحثا في ناحيةٍ أُخرى من المدينة، ولم تكن النتيجة بأفضل، وفي إحدى الساحات كانت شجرةٌ وارفة الأغصان، فأجلس يوسف مريم تحتها، كي يتسنّى له البحث على مهلٍ، وبعد لأيٍ عاد، حزينًا، باكيًا، إذ تنكّر له جميع معارفه الذين توسّم فيهم خيرًا، وحاولت مريم تعزيته. وكان الفضول يستدعي بعض المارّة إلى التوقّف، وتأمّل تلك المرأة الشابّة التي آن موعد وضعها، والتي لا تريم عن مكانها. لم يوفّر يوسف جهدًا، ولكنّ جهوده باءت بالفشل. وكان يشقّ عليه أن يعترف لزوجته بالفشل، بعد ما كان قد منّاها بحسن الضيافة، وبعد تأكيده ثقته بأصدقائه وأقربائه. ولكنّه، في آخر المطاف، اعترف لها أنّ لا أمل لهما إلاّ المغاور التي يزرب فيها الرعاة قطعانهم في الشتاء، وحيث كان يفزع فارًّا من اضطهادات إخوته، ودعاها إلى قصد إحداها للاستراحة، ريثما يعثر على مكانٍ أكثر لياقةً.

واستقرّا في مغارةٍ محفورةٍ في الصخر، وفي داخلها حجرةٌ، متّجهةٌ غربًا، وعند مدخلها خيمةٌ من أغصانٍ توفّر شيئًا من الظلّ.

في القسم الشرقيّ من تلك المغارة انبثق نور العالم، وكان مهده معلقًا للسائمة محفورًا في الصخر. ويعتقد أنّ حواء قد وضعت ابنها شيث وأخفته فيها كي تقيه من حسد إخوته. وأنّ إبراهيم قد دفن في تلك المغارة عينها مرضعته الوفيّة التي واكبته حتّى آخر لحظة من حياتها، وكانت تلك المرضعة قد أخفت إبراهيم في تلك المغارة كي تحميه من ملك ذلك العهد الذي كان قد رأى في الحلم أنّ ولدًا سيرى النور، ويكون خطرًا عليه، فاتّخذ جميع الإجراءات للقضاء عليه في مهده. ومنذئذٍ تحوّلت تلك المغارة إلى مكان عبادةٍ، إذ إنّها كانت تؤوي رفات أمّ أبي المؤمنين، التي رمزت إلى أُمّ مخلّص الأنام، وساهمت إلى حدٍّ ما في مجيء المسيح، وقد أُطلق عليها اسم مغارة الحليب.

كان الليل قد بدأ يخيّم عندما انتهت العيلة المقدّسة إلى تلك المغارة، وإذ بالأتان الصغيرة، التي غابت منذ وصول أصحابها إلى بيت لحم وشردت في كلّ اتجاهٍ، تعود مسرعةً وتتوثّب أمامهم جذلاً، ولكأنّها تدعوهما إلى ولوج المغارة. وأنزل يوسف مريم عن راحلتها وأعدّ لها مجلسًا خارج المغارة، ريثما أضاء فيها مصباحًا، ونظّفها، وحرَّرها ممّا تكدّس فيها، وهيّأ في جهتها الشرقيّة، مرقدًا من أغطيةٍ مكدّسةٍ يوفّر حدًّا أدنى من الراحة، ثمّ أدخل مريم، وهو يذوب خجلاً وحياءً من حقارة المكان الذي لم يستطع توفير سواه لمختارة الله، ولمخلّص الورى، ولكنّ نفس مريم كانت تسبح في خضمّ الفرح والامتنان والرضى.

ثمّ دأب على سدّ كلّ منافذ المغارة بما تيسّر له من أغطية، كي يقي مريم والوليد العتيد من هبّات الريح الباردة. وبعد أن هيّأ لنفسه مجلسًا عند مدخل المغارة. انطلق فملأ قربةً ماءً، ثمّ قصد السوق، حيث ابتاع طعامًا وموقدًا مليئًا جمرًا، وضعه عند عتبة المغارة، وأشعل نارًا بالقشّ والأغصان اليابسة.

قضت العذراء اليوم التالي، وكان يوم سبتٍ، في المغارة، متخشّعةً مصلّيةً، متأمّلةً، فيما شخص يوسف إلى المجمع. وكانت مريم قد أنبأته أنّ ولادتها ستتمّ عند منتصف الليل، فاقترح الإتيان بنساءٍ ورعاتٍ من بيت لحم، ولكنّها أبت، مؤكّدةً أنّها لا تحتاج إلى أيّ عونٍ بشريٍّ، ودعته إلى مشاركتها استقبال ابن الله بكلّ ما يستطيعان من تكريمٍ؛ وبعد الغروب، ابتاع يوسف ما كان ضروريًّا، ومنضدةً واطئةً وزبيبًا، وملأ المذود قشًّا طريًّا وأعشابًا، ووضع فيه غطاءً بمثابة سرير، وعزل مكان رقاده الخاصّ عن سائر المغارة بحُصُر. وعلّق مصابيح على جدران المغارة. وبغتةً سمع جلبةً فخرج مستطلعًا، وإذ بالأتان الصغيرة قد عادت تتوثّب فرحًا، فربطها. وقدّم لها علفًا، ودخل فرأى مريم راكعةً ملتفتةً صوب الشرق، وقد لفّتها أنوارٌ منبعثةٌ من عالمٍ آخر، فامتلكته الرهبة مثل موسى وهو يحدّق إلى العوسجة المشتعلة التي لا تحترق، ثمّ انزوى في صومعته مطّرحًا أرضًا، معفّرًا وجهه بالتراب.

حياة يسوع الخفيّة

الفصل الثاني

مولد المسيح

كان النور المحيط بالعذراء لا يني يزداد سطوعًا وتألّقًا. وعند منتصف الليل اعترى مريم الخطافٌ، وارتفعت قليلاً فوق الأرض، ويداها مضمومتان فوق صدرها، وثوبها الفضفاض يخفق متموّجًا، والبهاء الذي يلفّها لا ينفكّ يتعاظم. ولكأنّ موجة حبورٍ اجتاحت سقف المغارة وجوانبها وأرضها، وأشاع فيها النور الإلهيّ حياةً جديدةً. وانساب الفرح إلى الطبيعة كلّها، وبدت صخور المغارة تضجّ جذلاً، وتتألّق نورًا، وانطلق درب نورٍ من صدر العذراء صوب السماء، وصدحت أجواق الملائكة منشدةً أمجاد السماء؛ وأفاقت العذراء من انخطافها، فإذا بالله الذي ولدته راقدٌ على الأرض أمامها، عند ركبتيها، مثل بؤرة نورٍ يطمس كلّ أضواء الأرض، في هيئة طفلٍ هشٍّ، يفوق بهاؤه كلّ جمالات الدنيا، وألقت عليه والدته غطاءً، وهي ما زالت مأخوذةً في عالمٍ من الذهول أيقظها منه بكاء الطفل، وحينئذٍ أخذته بين يديها، وقمّطته وأخفته في طيّات قناعها، وأرضعته، فيما كانت أفواج الملائكة تسجد له، وتعبده. وانقضى نحو ساعةٍ على مولد ابن الله، عندما نادت مريم يوسف، الذي كان ما زال ساجدًا مطّرحًا أرضًا، وجبينه يلاصق الحضيض، فنهض واقترب، وهو يرتعد تجلّةً، وانحنى يطفح فرحًا، وتواضعًا وخشوعًا. ودعته مريم إلى ضمّ عطيّة العليّ المقدّسة إلى قلبه، فاستقام، وأخذه بين ذراعيه مذرّفًا دموع الشكر والفرح والعبادة.

وقمّطت مريم الطفل وأرقدته أمامها، وجلس يوسف مأخوذًا، مثل والدته، في تأمّل الإله الذي ارتضى أن يصبح طفلاً، في حين لم يخطر ببال أحدٍ أن يولد ابنُ الله في مغارةٍ، ولادةً لم يعانِها حتّى أفقر الفقراء، وأوضع عامّة الناس شأنًا. ثمّ وضعاه في المذود، وركعا أمامه خاشعَيْن، عابدَيْن، متأمّليْن، منشدَيْن مدائح الشكر، مبلّلَيْن أناشيدهما بعبَرات الفرح. وعكف يوسف على إعداد سريرٍ مريحٍ للعذراء.

وشهدت الرائية فرحًا يتفجّر في كلّ أرجاء العالم، غامرًا قلوب ذوي النوايا الصالحة، والغيظ يجيش في قلوب الأشرار. شهدت حيوانات تتوثّب بهجةً، وزهورًا

تشرئبّ قاماتها، ونباتاتٍ وأشجارًا تستعيد رواءً قشيبًا، وحياةً جديدةً تنبعث، وورودًا تنشر إلى البعيد فوح أريجها، وينابيع تنبجس في أماكن عديدةٍ. وقد شاهد يوسف نبعًا انبجس في مغارةٍ قريبةٍ فحفر له مسيلاً.

وكان، على مقربةٍ من مغارة الميلاد برجٌ عالٍ يستخدمه زعماء الرعاة لمراقبة الجوار من قمّته، إذ كان يتيح الرؤية حتّى أورشليم وصحراء أريحا، والتنبّه لكلّ غزوٍ مباغتٍ. وحوالي ذلك البرج انتشرت أكواخ الرعاة وبيوتهم المحاطة ببساتينهم، ومراعي قطعانهم، وزرائبهم. وقد أدهشت تلك الليلة الرعاة بالنور الرحب غير المألوف الذي أضاء حواشيها، وبوقارٍ قدسيٍّ سيطر على كلّ تلك الناحية، وسارع مراقبو البرج إلى تسنّم قمّته مستطلعين، وقد لفت أنظارهم، على نحوٍ خاصٍّ، نورٌ ساطعٌ يلفّ مغارة الميلاد، وفيما هم يحدّقون إلى الأجواء تراءى لهم موكبٌ منيرٌ هابطًا نحوهم وسط أنغامٍ تسيل غبطةً وعزاءً؛ ذلك المنظر ألقى الرعدة في نفوس الرعاة، ولكنّ ملاكًا سارع إلى تبديدها، وهتف:

"لا تخافوا فقد جئناكم ببشرى سعيدةٍ للعالم أجمع. فاليوم، في مدينة داود، وُلِد لكم مخلّصٌ هو المسيح الربّ: هذه هي العلامة التي بها تتعرّفونه: ستجدون طفلاً مقمّطًا راقدًا في مذودٍ".

وفيما كان الملاك يزفّ هذه البشرى، اكتسب نور الليل سطوعًا وتألّقًا، وتجلّت، وسط ذلك النور، أشكال ملائكةٍ رائعين متوهّجين، منشدين:

"المجد لله في أعالي السماء، والسلام على الأرض للبشر مستقيمي النوايا".

وقد تراءى ذلك الموكب الملائكيّ زافًّا بشراه، لعدّة فئاتٍ من الرعاة في أماكن مختلفةٍ من السهل المنبسط حول المغارة، حيث ساد الذهول، وتجمّع الرعاة في كلّ بقعةٍ للتشاور في ما يحسن تقديمه هديّةً للوليد، الذي لم ينتهوا إلى مغارته إلاّ مع انبلاج النهار.

وفي تلك الليلة حدثت للعديد من الأبرار ومن أقرباء العذراء رؤى عن مولد المخلّص؛ ولكن لا أحد منهم كان على درايةٍ بمكان ذلك المولود ما عدا جدّته حنّة.

وفي الهيكل نبذت الخزن كتب الصدّوقيّين ورمتها أرضًا، واضطرّ الصدّوقيّون، الذين ينافسون الفرّيسيّين على النفوذ، إلى إنفاق أموالٍ طائلةٍ في سبيل إبقاء هذا الحدث طيّ الكتمان. وحدثت أمورٌ غريبةٌ في روما، حيث تفجّر نبع زيتٍ، وفي مكان ذلك النبع شُيّدت كنيسة مكرّسة للسيّدة العذراء، نبع الزيت. وتحطّم، تلقائيًّا، تمثالٌ فاخرٌ لجوبيتير، وانتثرت شظاياه، وانهار سقف المعبد الذي كان يؤويه؛ وأخذت الرعدة بعبدة الأوثان، فقدّموا الضحايا للاستفسار عن أسباب تلك الظواهر، واعترف إبليس، مرغمًا، بأنّ السبب يعود لأنّ "عذراء وضعت ابنًا وما برحت عذراء". وكانت امرأةٌ رومانيّةٌ قد حذّرت، قبل عقودٍ، من الإسراف في تزيين تمثال جوبيتير، لأنّه سيتحطّم، ذات يومٍ، ويتناثر شظايا، فقُبض عليها وأُرغمت على إعلان زمن هذا التحطّم، ولمّا عجزت عن تحديده سُجنت ونُكّل بها إلى أن أوحي إليها بأنّ ذلك سيحدث يوم تلد عذراء طفلاً، فعُدّت مجنونةً وأُطلق سراحها.

وفي مصر كان صنمٌ كبيرٌ يُستشار في الأمور الخطيرة، قد خرس بغتةً، فقُدّمت الضحايا في كلّ أرجاء البلاد أملاً في ردّه عن صمته، وبمشيئة الله تكلّم قائلاً إنّ عليه أن يزول، لأنّ ابن العذراء قد وُلد، وأنّ معبدًا سيشاد له، في مكانه، فأُزيل الصنم، وأقيم في مكانه معبدٌ للعذراء وابنها المجهولَيْن.

وكان ثلاثةٌ من الملوك المجوس قد اعتادوا الاجتماع على قمّة برجٍ لمراقبة الأفلاك. واتّفق أنّ أحدهم غاب، وكان الاثنان يراقبان، فشهدا حركةً غير مألوفةٍ بين مجموعةٍ من النجوم، ورأيا امرأةً جالسةً فوق قوس قزح، وأمامها كأسٌ خرج منها ولدٌ، تعلوه أشعّة نورٍ تشبه سنابل قمحٍ، وعلى يمينه نبتت كنيسةٌ ثمانيّة الأضلاع على شكل زهرةٍ، لها بابٌ رئيسٌ ذهبيٌّ وبابان جانبيّان، وقد أدخلت العذراء الولد والكأس إلى الكنيسة التي اتّسعت بغتةً، ثمّ تحوّلت إلى مدينةٍ متألّقةٍ. وكانت تلك المشاهد تتوالى متسارعةً.

وقد رأى الملك الغائب هذه المشاهد عينها، في وقت مشاهدة الملكين الآخرين لها وقد غمر، الملوكَ الثلاثةَ فرحٌ يتعذّر وصفه، فجمعوا هداياهم وانطلقوا، وتلاقوا في الطريق.

عبادة الرعاة

مع أولى أشعّة الشمس قرع ممثّلو الرعاة باب المغارة قرعًا خجولاً، وقد جاؤوا بهداياهم المتواضعة من جداءٍ وحملانٍ وطيورٍ مذبوحةٍ وطيورٍ حيّةٍ، ورحّب بهم يوسف، فكرّروا على مسامعه أقوال الملائكة، معبّرين عن رغبتهم في تكريم ابن الوعد الإلهيّ، وتقديم هداياهم لهم. وتقبّل يوسف هداياهم بشكرٍ متواضعٍ، واقتادهم إلى العذراء التي كانت جالسةً أمام المذود والطفل الإلهيّ على ركبتيها، فركعوا، والتزموا صمتًا طويلاً، وقد أخذ بهم فرحٌ يندّ عن الوصف. ثمّ رتّلوا النشيد الذي سمعوه من الملاك، ومزمورًا. وعندما همّوا بالانصراف قدّمت العذراء لهم يسوع، فتناوبوا على حمله بين أيديهم، وأعادوه لها وهم يذرّفون الدموع. أوَلسنا من يديها نتلقّى جميعنا يسوع والنعمة الإلهيّة؟

وفي المساء وافت مجموعةٌ أخرى من الرعاة، مع نسائهم، وأبنائهم، قادمين من مكانٍ يبعد نحو أربعة فراسخ (نحو ١٦ كم)، حاملين طيورًا وبيضًا وعسلاً، وخيوطًا ملوّنةً، ونباتات، قدّموها ليوسف ثمّ دنوا خاشعين من العذراء، وركعوا وحيّوا الطفل ورتّلوا مزامير، ونشيد الملائكة، وارتجلوا نشيدًا يقول: "أيّها الصغير، القرمزيّ مثل الوردة، إنّك تبدو رسول سلامٍ!" ولمّا همّوا بالانصراف انحنوا فوق المذود وكأنّهم يرغبون في تقبيل يسوع.

وفي اليوم التالي عاد زعماء الرعاة وأعانوا يوسف في ترتيب مغارة الميلاد والمغاور المحاذية، وجعلها أوفر راحةً. ووافت نساءٌ أسّينيّياتٌ قاطناتٌ في الجوار، وقدّمن لمريم خدماتٍ عديدةً، ثمّ غدونَ يعدنَ بالتوالي، آتياتٍ بالمؤونات، ويعنينَ بالخدمات المنــزليّة.

وذات يومٍ، إذ كان يوسف ومريم جالسين أمام المذود مأخوذَين في تأمّل الطفل الإلهيّ، وإذ بالحمار يركع ويلامس الأرض برأسه، مستمطرًا دموع تأثّرهما. ومساء ذلك اليوم قدم من الناصرة رجلٌ مسنٌّ وأرملةٌ كانت تعمل في خدمة حنّة، حاملين

أمتعةً لمريم، وكان تأثّرهما برؤية الصبيّ بالغًا، ثمّ عاد الرجل يزفّ لحنّة النبأ السارّ، فيما مكثت الأرملة كي تساعد مريم.

وعندما تكاثرت أعداد الزائرين، وشاعت الروايات عن ظواهر عجيبةٍ تحدث في ذلك المكان، أعدّ يوسف مغارةً محاذيةً حيث كان نبعٌ قد انبجس في ساعة ولادة يسوع، وباتت مريم تختلي فيها مع طفلها والمرأة الأرملة. وكانت تلك المغارة تُستخدم لإخفاء الطفل الإلهيّ عن عسس وجواسيس هيرودس، الذين كانوا يجوبون تلك الديار بحثًا عن الوليد الذي قدم المجوس لعبادته. ولكنّهم عندما كانوا يجدون يوسف أمام مغارةٍ يتحدّث إلى رعاةٍ، ويشهدون وضاعة المكان، يعودون أدراجهم، لاعنين حماقة من أرسلهم.

وجديرٌ بالذكر أنّه لم يأتِ أحدٌ من بيت لحم إلى المغارة للترحيب بالمخلّص، ولكنّ لّما شاع في الجوار ظهور الملائكة وتبشيرهم الرعاة بولادة المخلّص، جاء صاحب النـــزل الذي أقامت فيه العيلة المقدّسة الليلة الأخيرة، وقدّم الهدايا والتهنئة ووافت أيضًا المرأة التي كان زوجها قد ردّ العيلة المقدّسة عن مزرعته بفظاظة، ولّما رأت الطفل الإلهيّ هنّأت نفسها بإصلاحها خطأ زوجها وبتقديم العون لمريم.

زيارة إليصابات

منذ دخولها إلى المغارة، تبادلت إليصابات مع مريم قبلاتٍ طوتاها على فرحٍ يتعذّر وصفه. ثمّ ضمّت إليصابات يسوع إلى قلبها وهي تفيض دموع فرحٍ. وأُعدّ لها مرقدٌ على مقربةٍ من حيث كان يرقد الطفل الإلهيّ.

تبادلت مريم وإليصابات أحاديث حميمةً، وعندما أَطلعت مريم نسيبتها على ما عاناه يوسف كي يجد مكانًا تضع فيه وليدها، بكت إليصابات بمرارةٍ. وأخبرتها مريم عن أُمورٍ كثيرةٍ تتعلّق بمولد يسوع. وروت لها أنّها في أثناء البشارة، عراها انخطافٌ دام عشر دقائق، شعرت في أثنائها أنّ قلبها انقسم إلى اثنين، وأنّ سعادةً لا توصف

غمرت نفسها كلّها. وفي أثناء وضعها، أيضًا، اعتراها الخطافُ، وارتقى بها ملائكةٌ فوق الأرض، وشعرت بقلبها ينشطر، ورغبةً عارمةً في سعادةٍ لامحدودةٍ تقيم خارجها، وكانت من قبل تنعم بها في داخلها. ثمّ رأت أمامها نورًا ساطعًا، وفي وسطها يتكوّن ابنها تحت ناظريها. ولّما استعادت وعيها شهدته يتحرّك، وسمعته يبكي، فأخذت الطفل الإلهيّ بين ذراعيها، وشدّته إلى قلبها، فيما كانت قد فقدت جرأة لمسه عندما رأته مغمورًا بالنور. وأكّدت أنّها لم تعِ لحظة انفصاله عنها، فقالت إليصابات: "لقد أحاطت النعمة بوضعك الذي يختلف عن وضع سائر النساء. لا ريب أنّ وضعي ليوحنّا قد أُحيط بنعَمٍ كبرى، ولكنّه كان من نمطٍ مختلفٍ".

وفي مساء ذلك اليوم توارت مريم وطفلها وإليصابات في مغارةٍ مجاورةٍ، إذ إنّ الفضول دفع أشخاصًا من علّيّة القوم للقدوم، زرافاتٍ، إلى المغارة، ولم تكن مريم راغبةً في الظهور أمامهم.

المجوس الثلاثة يغادرون المشرق

جاء كلٌّ منهم من مملكته والتقوا في مكانٍ معيّنٍ، وكان كلٌّ منهم يستصحب أربعةً أو خمسةً من أقاربه أو معاونيه، وثلّةً من الخدم. وفي كلّ محطّةٍ كان الملوك وكبار القوم يقومون بخدمة أعضاء الموكب وحتّى الخدم منهم، ويقدّمون لهم الطعام والشراب، في بساطةٍ ووداعةٍ مذهلتين.

النجمة التي كانوا يسترشدون بها، كانت تحاكي مصباحًا مستديرًا مربوطًا بخيطٍ منيرٍ، تحرّكه يدٌ خفيّةٌ، وكان جسمٌ منيرٌ يرشدهم أثناء النهار، ممّا أتاح لهم أن يحثّوا السير، بثقةٍ وبعيدًا عن كلّ تعثّرٍ. وكانت وتيرة سيرهم تتباطأ، ليلاً، فينشدون أناشيد بليغة التعابير، بعيدة التأثير، وكان أحد الأقوال التي يردّدونها:

"نريد اجتياز الجبال، والركوع أمام الملك الجديد".

كان أحدهم يهتف بالبيت الأوّل، فيكرّره معظمهم في إثره، مالئين سكون الليل طربًا وعذوبةً، وعيونهم شاخصةٌ إلى النجم الذي ينحدر حتّى يكاد يلامس الأرض

بأشعّته. كانت الجمال تبتلع المسافات بخطاها الواسعة الواثقة، الصامتة، وكأنّها تخشى إيقاظ أصحابها من حلمهم العذب.

وكم كان مؤثّرًا منظر ذلك الركب الساعي إلى ملكٍ لم يرَه أحدٌ منهم، في توقٍ وتجلّةٍ قلّما يُشَاهدَان لدى مَن عرفوه، وظفروا بفيض نعمه، وتناولوا جسده ودمه!

كانت بشائر النجم الذي يقودهم قد ظهرت للمرَّة الأولى، يوم وُلدت مريم العذراء، ومنه استخلصوا أنّ ولادة الملك الموعود باتت وشيكةً. وخُيِّل إليهم أنّ ملوكًا كُثُرًا سيسبقونهم لتقديم الولاء والتكريم للملك الجديد، وكان ذاك هو دافعهم إلى الإسراع في القدوم إليه.

توقّف المجوس، على طريق رحلتهم، لدى ملكٍ، ورووا له ما شاهدوه في الأفلاك، فدُهش، وحدّق إلى النجم الذي كان يقودهم، فرأى، في داخله، طفلاً يحمل صليبًا، ورجاهم أن يرووا له، في طريق عودتهم، ما شاهدوه، لأنّه، هو أيضًا، راغبٌ في تكريم هذا الوليد، وإقامة معابد له.

وذكر له المجوس أنّهم من ذرّيّة أيّوب، وأنّ النبيّ بلعام هو أحد أنبياء شعبهم، وأنّ أحد تلاميذه نقل عنه نبوءةً تقول: "ستولد نجمةٌ من يعقوب". ولذلك دأبوا، جيلاً فجيلاً، على استطلاع الأفلاك، وتحرّكات النجوم، وتدوين مشاهداتهم، وتبادلها. وعندما حملت العذراء من الروح القدس شاهدوا عذراءً حاملةً بيدٍ صوجانًا، وبالأُخرى ميزانًا، تحتوي إحدى كفّتيه سنابل قمحٍ، وتحتوي الأُخرى عناقيد عنبٍ، ثمّ شاهدوا العذراء مع الطفل، وخُيّل إليهم أنَّ هذا الطفل سيرى النور في جوٍّ من الأبّهة الملكيّة، فجاؤوه بهدايا تليق بملكٍ.

في تلك الأيّام كانت المغارة تنعم بالهدوء، ولم يكن مع العيلة المقدّسة سوى قريبة حنّة الأرملة الورعة، التي تساعد في خدمة المنـــزل.

وكانت أُسرةٌ ميسورةٌ من بيت لحم قد عرضت على يوسف بيتًا يقيم فيه مع مريم ويسوع، ولكنّه رفض هذا العرض. وكانت مريم بوحيٍ ربّانيٍّ قد استشعرت قرب

وصول المجوس، واتّفقت مع يوسف على إعداد المغارة لهذه المناسبة. واعتزمت حنّة، والدة العذراء، أيضًا، زيارة المغارة، وقد مهّدت لهذه الزيارة بإرسال سلّة فواكه، مغطّاة بورودٍ نضرةٍ حديثة القطاف، متعدّدة الألوان أدخلت الكثير من الفرح إلى قلب مريم، وفضلاً عن ذلك أرسلت حنّة لبيت ابنتها أمتعةً وأطعمةً كثيرةً.

وصل المجوس مساءً إلى أُولى مدن اليهوديّة، وانطلقوا يُنشدون، وفوجئ الأهالي بوصولهم، فهم لم يشهدوا النجم أو لم يأبهوا به، ولم يكن لهم علمٌ بولادةٍ ملكيّةٍ. غير أنّ كثيرين منهم خفّوا لمساعدة الغرباء، وزوّدوهم بالماء لهم ولرواحلهم، وانضمّوا إلى موكبهم. وكان النجم يزداد سطوعًا في الأماكن التي يقطنها قومٌ طيّبون، فيخيّل إلى المجوس أنّهم انتهوا إلى مكان الوليد الإلهيّ.

وكان سخاء المجوس قد اجتذب العديد من الفقراء والطامعين في كرمهم، فارتقى عديد موكبهم، لدى وصولهم إلى فلسطين إلى نحو مئتي نفرٍ. ولكنّهم كانوا يزدادون اكتئابًا وخيبةً كلّما تبيّنوا جهل اليهود لمولد مخلّصهم الموعود، وكانوا يسردون لليهود ما رأوا في السماء، وما دفعهم إلى المجيء، ويشيرون إلى النجم الذي أرشد موكبهم.

واصل المجوس رحلتهم، واجتازوا نهر الأردنّ، يوم سبتٍ، بمساعدة وثنيّين مأجورين، مدّوا لهم جسرًا فوق النهر. ولمّا أمسوا على مشارف أورشليم، فتر اندفاعهم، لأنّهم لم يشهدوا أيّة مظاهر فرحٍ، ولأنّ نور نجمهم خبا. غير أنّ موكبهم كان يثير الدهشة، فهم لم يكونوا يحتفلون بعيدٍ، ولا يتعاطون أيّة تجارةٍ. وعندما وافى حرّاس الأبواب، وعاينوا سخاء المسافرين، وسمعوا أنّهم يعزمون مقابلة هيرودس، وأنّهم يبحثون عن نزلٍ يقيمون فيه، واستعدادهم لأداء أيّ أجرٍ يُطلب منهم، نشطت الحركة واحتدمت مساعي الضيافة.

واقتادهم حرَسٌ إلى فناءٍ قريبٍ من سوق السمك، حيث فناءٌ فسيحٌ محاطٌ باسطبلاتٍ، أو بأبنيةٍ يحرسها جنودٌ. فأودعت بهائمهم في الاسطبلات، وجلس أفراد الموكب على مقربةٍ من نبع ماءٍ، فيما كان عسسٌ يفتّشون أمتعتهم.

زيارة حنّة

وفي هذه الأثناء وصلت حنّة من الناصرة، مع زوجها الثاني الذي اقترنت به عقب وفاة يواكيم، وابنتها البكر مريم الكبرى، وخادمةٍ، وأقاموا جميعهم في المغارة التي كان يوسف قد أعدّها لهم. وأقامت العذراء ويوسف في مغارةٍ أُخرى حيث وُضع فراشٌ للعذراء وعلى مقربةٍ منه مهدٌ ليسوع مصنوعٌ من لحى الأشجار، وكان مرقد العذراء وطفلها مفصولَيْن عن سائر أجزاء المغارة بحاجزٍ من حصيرٍ.

وبادرت مريم إلى إيداع يسوع بين ذراعي جدّته، التي تلقتّه وضمّته إلى صدرها باكيةً، بتأثّرٍ بالغٍ. وكانت حنّة قد جاءت بأغطيةٍ، وأقماطٍ وأطعمةٍ، ولكنّ مريم سارعت إلى توزيع ما لا تحتاج إليه حاجةً ماسّةً فوريّةً. وروت لوالدهّا ما كانت قد روته لإليصابات، فامتزجت دموعهما تأثّرًا وفرحًا. ثمّ عادت مريم إلى مغارة الميلاد وأُضجع الطفل في المذود، وكثيرًا ما كان يوسف ومريم يجثوان أمامه عابدين، وكذلك كانت تفعل جدّته حنّة.

ولّما أُطلعت حنّة على قرب وصول المجوس، غادرت المغارة إلى قريةٍ مجاورةٍ حيث حلّت ضيفةً على شقيقتها الصغرى، على أن تعود لاحقًا.

وسرعان ما تنامى أمر المجوس إلى مسامع هيرودس، وكان قصره على مقربةٍ من الخان الذي حلّوا فيه، فأرسل أحد رجاله، كي يأتيه بأحد المجوس سرًّا، وفي القصر استجوبه موظّفٌ عمّا جاء به وبرفاقه إلى تلك البلاد. فروى ببساطةٍ، وصراحةٍ، وبراءةٍ، قصّة النجم الذي أرشدهم، وسأله أن يستوضح سيّده عن مكان ولادة ملك اليهود الجديد. وللوهلة الأولى اضطرب هيرودس ممّا سمع ولكنّه سرعان ما تماسك وتمالك نفسه، وطلب تبليغ ضيفه عزمه على استيضاح الأمر، وعن رغبته في مقابلة المجوس الثلاثة، في الغد كي يبلّغهم نتيجة ما انتهى إليه بحثه.

لم يحظَ، إذن، المجوس، بما يبدّد حيرهم، وجفاهم الكرى، إلاّ إنّ أحدهم اقترح إعادة حزم أمتعتهم، استعدادًا للعودة إلى موطنهم. وجاس بعضُهم في أحياء أورشليم الصامتة وعيونهم شاخصةٌ إلى السماء عسى أن تقرأ فيها إشارة.

ومع أنّ هيرودس كان قد أعلن عن احتفالٍ في قصره، تلك الليلة، وأنّ ضيوفه قد توافدوا إلاّ أنّ الهواجس كانت تتجاذبه، فاستدعى، على عجلٍ، عشرات الكهنة والعلماء. وطلب منهم استبيان مكان ولادة المسيح، فأجمعوا كلّهم على التأكيد بأنّ النبوءات تحدّد بيت لحم مسقط رأس المسيح المنتظر، واستفاضوا في محاولة تبديد هواجسه بقولهم إنّ أولئك المجوس المهووسين بالكواكب، يستنبطون من مراقبتها نتائج غير واقعيّةٍ، وإنّه لو كان جرى حدثٌ خطيرٌ لكان هو والكهنة طليعة المحيطين به علمًا.

وفي صباح اليوم التالي، باكرًا جدًّا، استقدم هيرودس المجوس الثلاثة إلى قصره، وتظاهر بالفرح بالنبأ، وطلب منهم أن يرووا بالتفصيل ما شاهدوه في السماء، فذكروا له أنّهم رأوا عذراء، وأمامها طفلٌ، انبثق من جنبه الأيمن غصنٌ مضيءٌ، نشأ فوقه برجٌ متعدّد المداخل، وفوقه ظهر الطفل متوّجًا، حاملاً سيفًا وصولجانًا، مثلما يحمل الملوك. ثمّ رأوا أنفسهم وجميع ملوك العالم ساجدين أمامه، عابدين، لأنّ على جميع الممالك أن تخضع لملكته. وحينئذٍ صرّح لهم هيرودس أنّ النبوءات تشير على حدثٍ من هذا القبيل سيحدث في بيت لحم، ودعاهم إلى قصد تلك المدينة، واستبيان الحدث بكتمانٍ، متحاشين عن إثارة أيّة ضجّةٍ، وطلب منهم، عندما يعثرون على الوليد، أن يعودوا إليه ويخبروه كي يؤدّي، هو أيضًا، واجب عبادته.

في الواقع كانت شائعاتٌ عن ولادة المسيح قد تنامت إلى سمعه، ولكنّه، في ذلك الحين، كان مضطرب البال، إذ كان قد أمر بقتل أحد معاونيه، واتّهم لصوصًا بتلك الجريمة، وكان قد أعدّ رأس خروفٍ من ذهبٍ خالصٍ وطالب بوضعه في الهيكل، زاعمًا، بذلك، كسب ودّ اليهود، ولكنّ الكهنة لم يستسيغوا وجود هذا الصنم في الهيكل، وأقدم أحدهم على تحطيم الصنم فأمر بسجنه، ما أفضى إلى توتّر الأوضاع وتأزّمها. وبالتالي لم يولِ شأنًا لأمر ما أُشيع عن ولادة المسيح، في حينه، ولكنّه، مع ذلك، كان قد كلّف عيونه باستقراء الأمر في بيت لحم، غير أنّ فقر ساكني مغارة الميلاد، أبعدت عنهم كلّ ريبةٍ بهذا الشأن.

بيد أنّ وصول الملوك المجوس من بلادٍ نائيةٍ في موكبٍ ضخمٍ من أجل تكريم الملك الوليد، أعاد إيقاظ هواجسه وريَبه، وابتغى التحقّق من المجوس إثر عودتهم من بيت لحم، ولكنّ هؤلاء، بإيعازٍ سماويٍّ، سلكوا طريقًا آخر لكي لا يقابلوه. وحينئذٍ، حفاظًا على ماء وجهه أشاع هيرودس أنّ المجوس تبيّنوا الخطأ الفادح الذي دفعهم إلى مغامرةٍ عبثيّةٍ ، واتّضح لهم بطلان رؤاهم، فخجلوا وأعرضوا عن العودة إليه، والتعرّض للسخريّة، فآثروا العودة، خلسةً، إلى بلادهم. وأمر بمنع تداول قضيّة مولودٍ، ولادةً غريبةً، في بيت لحم، وخُيّل إليه أنّ القضيّة برمّتها قد وُئدت في مهدها، وأُسدل عليها حجاب التفاهة والإهمال. ولكنّه، في سريرة نفسه، لم يجد إلى راحة البال سبيلاً، وبثّ عيونه في كلّ اتّجاهٍ، بحثًا عن الملك الوليد. ولّما آلت مساعيه كلّها إلى فشلٍ ذريعٍ، وطّن العزم على قتل كلّ طفلٍ من عمر سنتين فما دون. وارتكب مجزرةً ما زالت لعنتها تواكب ذكراه، على كرّ الأجيال.

المجوس في بيت لحم

خرج المجوس من أورشليم، وترقّبوا النجم، فظهر لهم ثانيةً، فانطلقوا ينشدون معبّرين عن فرحهم. واقتادهم النجم إلى بيت لحم، عبر طرقٍ جانبيّةٍ، خاليةٍ من الازدحام، خلافًا للطريق العامّ المكتظّ بالعائدين من الاكتتاب، وبالحجّاج إلى الهيكل، وبقاصدي السوق بغية بيعٍ وشراءٍ. وبفضل انتهاجهم هذه الدروب تجنّبوا الفوضى ولفت الأنظار، وبلغوا مقصدهم بعد الغروب، ولم يثيروا ضجيجًا. وكانوا قد توقّفوا في إحدى القرى على الطريق، فانبجس أمامهم نبع ماءٍ، فاستقوا، واغتسلوا، وسقوا رواحلهم، وحفروا مخزنًا للماء، ونالوا قسط راحةٍ. ولاحقًا، غدا رسل يسوع وتلاميذه يتّخذون من ذلك المكان محطّة استراحةٍ.

وما لبث أن تجمّع الأهالي من حولهم، مرحّبين بضيوفٍ تجلّت عليهم أمارات رفعة المقام، والسخاء في توزيع الأموال والهدايا. وجاءهم موظّفون كبارٌ بالمرطّبات. وحتّى الذين كانوا قد صدّوا يوسف ومريم بازدراءٍ، بسبب فقرهما،

تطوّعوا لخدمة الغرباء الميسورين، وكان كلٌّ منهم يحاول إرشادهم إلى حيث تقتضي مصلحته. وشجّعهم بعضهم على الحطّ في وادي الرعاة حيث يتسنّى لهم نصب خيامهم، وإراحة رواحلهم. وكان المجوس حريصين على عدم ذكر المولود الذي كان هدف رحلتهم لكيلا يشدّوا إليه عيون عسس هيرودس. ووقعوا في حيرةٍ أنقذهم منها النجم الذي انزاحت عنه الغيوم بغتةً، وأسقط أشعّةً عموديّةً فوق التلّة التي احتضنت مغارة الميلاد، وأشعّ فوقها بؤرة نورٍ كثيفٍ، وبدا لهم أنّ النجم ذاته ينحني فوق المغارة، ويتّسع حجمًا. ووسط هذا النور رأوا وجه طفلٍ مشعٍّ نورًا، فكشفوا عن رؤوسهم وسجدوا له، وترسّخ لديهم اليقين بأنّ ما أراهم الأفلاك قد تحقّق.

حطّوا، إذن رحالهم، على جوانب المغارة، وفيما كان خدمهم ينصبون الخيام، بمعاونة رعاة الجوار، شخص الملوك المجوس إلى المغارة، ونادوا ساكنيها، فخرج يوسف وراعٍ مسنٌّ، وإذ بالمغارة تطفح نورًا سماويًّا، والعذراء في صدرها، وابنها بين ذراعيها، مثلما كانوا عاينوها في رؤاهم. وأطلع المجوس يوسف، بكلّ بساطةٍ، وبراءةٍ، وصدقٍ، عمّا دفعهم إلى هذه الرحلة الطويلة، وكيف انتهوا إلى المغارة، وعن رغبتهم في تقديم العبادة والهدايا للملك الوليد، فرحّب بهم يوسف بفيضٍ من المودّة والدماثة والاحترام.

وفيما انطلق الراعي المسنّ يساعد حاشية المجوس على الاستقرار، راح الملوك يتأهّبون للاحتفال بتقديم عرابين العبادة للملك الوليد، وكأنّهم يؤدّون طقوسًا مقدّسةً، فارتدوا معاطفهم البيضاء الفاخرة الفضفاضة، التي كانوا يتّشحون بها في احتفالاتهم الدينيّة؛ وكان يرافق كلّ ملكٍ أربعةٌ من أفراد أُسرته، وكان خدمهم قد وضعوا عند مدخل المغارة منضدةً وغطّوها بسجّادة، بسطوا فوقها ما جاؤوا به من هدايا. ثمّ تعاقبوا على الدخول، كلٌّ منهم مع مرافقيه، بعد خلعهم نعالهم عند العتبة، وكانت العذراء جالسةً متلفّعةً بحجابٍ يغطّي أيضًا طفلها.

استحوذ على الملوك التأثّر والخشوع، والانبهار بالنور الذي غمر المغارة، مع أنّه لم يكن يضيئها سوى "نور العالم". وكانوا ينحنون أمام العذراء والطفل، ويوجّهون إليه عبارات احترامٍ، وتجلّةٍ، وعبادةٍ مؤثّرةٍ، وكان الطفل يرنو إلى كلّ منهم بعينين تقطران نورًا وعذوبةً.

ولكم كانوا هم صادقين، صافي النوايا! وقد وصفتهم الرائية بقولها: "قلوبهم طاهرةٌ، لا لوثة فيها... إنّهم يفيضون وداعةً وبراءةً، وقلوبهم قلوب أطفالٍ. إنّهم منَزّهون من العنف، وزاخرون اندفاعًا وحبًّا.."

كانوا مضطرمين حبًّا، ثملين سعادةً، وفي أدعيتهم البسيطة والحارّة، كانوا يوكلون إلى الطفل يسوع ذواتهم وأُسَرهم، وبلدانهم، وممتلكاتهم، وكلّ ما لديه قيمةٌ عندهم. قدّموا للطفل الإلهيّ قلوبهم، ونفوسهم وخواطرهم، وأعمالهم. وسألوه أن ينير بصيرتهم، ويثبّت فيهم الفضيلة والسلام والحبّ والفرح الطاهر. كانوا يضجّون فرحًا وكانت دموع التأثّر والفرح تسيل على وجناتهم وتغسل لحاهم، فيشكرون الله تحقيق وعدٍ طالما انتظرته أجيالهم المتعاقبة.

وقد انتابهم، في المغارة، ضربٌ من الانخطاف، وخُيّل إليهم أنّهم اختُطفوا إلى النجم الذي قاد مسيرتهم، وفاضت قلوبهم جذلاً وغبطةً، وامتنانًا، مثلما فاضت مآقيهم دموعًا.

أحد الملوك، واسمه "منصور" قدّم للطفل الإلهيّ ذهبًا خالصًا، لأنّه كان ممتلئًا صدقًا ومحبّةً، وكان ينشد الحقيقة باندفاعٍ لا يفتر ولا يتزعزع.

وقدّم الآخر واسمه "سعير" مبخرةً ذهبيّةً، وإناءً ذهبيًّا مملوءًا بخورًا فاخرًا تعبيرًا عن خضوعه المطلق لله الذي كان يخدمه بكلّ غيرةٍ. وتمادى ركوعه الخاشع أمام المهد الإلهيّ، وكأنّه لا يطيق عنه بعادًا.

وكذلك كان ثالثهم وأكبرهم سنًّا، المدعوّ "ثيوكينو"، الذي لم يستطع الركوع بسبب شيخوخته، فظلّ واقفًا، منحنيًا انحناءً عميقًا. وقدّم له إناءً ذهبيًّا يحتوي نبتة مرٍّ

خضراء، جميلةً، رمزًا للتضحية، وللتغلّب على الأهواء، إذ إنّه كان قد شنّ صراعاتٍ شديدةً وطويلةً ضدّ عبادة الأصنام، وتعدّد الزوجات، وميول العنف لدى رعيّته. وهو أيضًا، شقّ عليه النأي عن الطفل الإلهيّ وأُمّه، فطال وقوفه الخاشع أمامهما.

وتقبّلت مريم الهدايا بشكرٍ متواضعٍ. لم تسهب في الكلام، غير أنّ قسمات محيّاها كانت تعبّر عن تأثّرٍ بليغٍ، وكانت توجّه لكلٍّ منهم أرقّ العبارات، وهي التي كان مالك الكون ثاويًا في حضنها، والتي لم تكن بحاجةٍ إلى شيءٍ، تقبّلت بامتنانٍ وعذوبةٍ هدايا المحبّة.

وبعد تأدية الملوك طقوس العبادة، دخل إلى المغارة خدّامهم الذين كانوا محتشدين أمام باب المغارة، مضطرمين شوقًا إلى إمتاع أنظارهم وقلوبهم برؤية مرسل السماء. كانوا يلجون خمسةً خمسةً، فيركعون أمام الطفل الإلهيّ، ويعبدونه صامتين.

ثمّ عاد الملوك الثلاثة متّشحين بمعاطف جديدةٍ، حاملين المباخر، ونشروا دخانها العَطِر أمام الطفل وأُمّه، ويوسف، وفي كلّ زوايا المغارة، وفق تقاليدهم في العبادة.

وكان تأثّر مريم ويوسف بهذا الحدث يندّ عن كلّ وصفٍ. فما عجزا، هما، عن توفيره لإلهما من أسباب ولادةٍ لائقةٍ، وما أمسكه عنه أبناء جلدتهما وشعبهما، أسبغته العناية الإلهيّة بسخاءٍ من خلال ملوكٍ غرباء، قدموا من بعيدٍ كي يقدّموا له التكريم اللائق به، متخطّين كلّ مظاهرات الهشاشة، وساكبين أجمل عزاءٍ في قلب مريم ويوسف، اللذين شاركاهم تكريم طفلٍ أضحى نبع أقصى سعادةٍ لهم، وللورى أجمع.

كانت النجوم قد ملأت رقعة السماء، عندما فرغ المجوس ومرافقوهم من طقوس التكريم، فتحلّقوا في الوادي، وصدحوا بأناشيدهم المؤثّرة التي سالت بكلّ ما غمر نفوسهم من فرحٍ وشكرٍ.

في هذه الأثناء كان يوسف قد أعدّ للملوك الثلاثة بمساعدة رعاةٍ، وجبة طعامٍ بسيطةً قوامها خبزٌ وفاكهةٌ وعسل ولبنٌ وأعشابٌ، ورجاهم أن يقبلوها، فأقبلوا عليها راضين شاكرين، وشاركهم يوسف وقلبه يفيض تأثّرًا وامتنانًا.

وفيما كان المجوس وأعضاء موكبهم عاكفين، بكلّ قلوبهم، على تكريم الطفل الإلهيّ، كان يهودُ يراقبون ما يحدث خلسةً، ويحيكون مؤامراتٍ ماكرةً.

صباح اليوم التالي قام المجوس وأعضاء من موكبهم بزيارةٍ أُخرى للعيلة المقدّسة. وكان وصولهم قد استقطب زرافاتٍ من الفقراء، فجادوا عليهم بكرمٍ، وأغدقوا عطاياهم على الرعاة الذين تطوّعوا لخدمتهم. وأبدى بعض أفراد موكبهم رغبةً في المكوث مع الرعاة، فاستجاب الملوك لطلبهم ووهبوهم الكثير ممّا قد يحتاجون إليه، فضلاً عن المال، وأتاحوا لهم الاحتفاظ بالرواحل التي كانوا قد جاؤوا بها. واستغلّ الظرفَ يهودُ تملّكهم الجشع، مدّعين حقَّ الحصول على ضرائب ومكوسٍ على ما جاء به المجوس ووزّعوه، فكان لهم ما طمعوا به افتئاتًا.

وفي المساء توالى الملوك على المغارة مودّعين، وكانت العذراء تضع طفلها بين ذراعي كلٍّ منهم، فأخذ بجميعهم تأثّرٌ استمطر دموعهم. وفي هذه النوبة، أيضًا، أغدقوا الهدايا، وتخلّوا حتّى عن معاطفهم المصنوعة من صوفٍ فائق النعومة. ولّما همّوا بمغادرة المغارة وقفت العذراء، ونزعت عنها الحجاب الأصفر الذي كانت تعتمره وتغطّي به ابنها، وأهدتهم إيّاه، فخفقت قلوبهم تأثّرًا. واحتفظوا بذلك الحجاب ذخيرةً مقدّسةً.

لم تحفل العذراء بكلّ ما أُغدق عليها من هدايا وثرواتٍ، ولم تلقِ إليها ولو نظرةً، ولكنّ ما أسال إلى قلبها العزاء، هو أنّ زيارة ملوك المشرق قد وفّرت ليوسف اعتبارًا أنساه ما لقيه من أهله في بيت لحم من جفاءٍ وازدراء، بسبب فقره، وما كان قد جرحها في الصميم. وبالفعل، بعد الصدود الذي جوبه به يوسف لّما كان يسأل زاويةً في بيتٍ يمكن لمريم أن تضع فيه وليدها، غدا هو يوزّع ذهبًا، وهدايا فاخرةً على المعوزين، وعاد بعضٌ ممّن كانوا قد أوصدوا أبواب بيوتهم في وجهه يقدّمون له استضافتهم.

قبل رحيلهم، رغب المجوس وأعضاء موكبهم في الحصول على قسطٍ من

الراحة، والنوم، ولكن سرعان ما حضر ملاكٌ وأيقظهم وأوعز إليهم بالمغادرة في الحال، منتهجين الطريق المحاذي للبحر الميّت، ومتجنّبين اجتياز أورشليم. وهرع المجوس إلى يوسف فأخطروه بذلك، وتوسّلوه أن يرافقهم مع مريم والطفل، إذ توجّسوا خشيةً من أن تجلب زيارتهم على العيلة المقدّسة سخط هيرودس ونقمته وانتقامه. وأكّدوا على ضرورة مغادرة الأُسرة للمغارة التي غدت مشبوهةً، وطلبوا من يوسف تبليغ سائر أعضاء موكبهم الذين كانوا قد رقدوا في فنادق ببيت لحم كي يسرعوا في الانضمام إليهم، وفيما كان يوسف في الطريق إليهم التقى بهم قادمين مسرعين بعد أن تلقّوا، هم أيضًا، إنذار الملاك.

وتمّت استعدادات الرحيل بسرعةٍ فائقةٍ. وقبل رحيلهم قبّلوا يوسف، وهم يبكون كالأطفال، ولكأنّهم يودّعون أخًا حبيبًا، وامتطوا رواحلهم، وغاصوا في الصحراء، عائدين إلى بلدانهم، بعد أن انقسموا إلى ثلاث فرقٍ. وكانت ملائكةٌ ترشدهم إلى المسالك الآمنة.

سلطات بيت لحم

كان الربّ قد رئف بالمجوس إذ سرّع رحيلهم، فقد قرّرت سلطات بيت لحم، ربّما بإيعازٍ من هيرودس، أو بمبادرةٍ منها من أجل كسب رضاه، أن تقبض على المجوس وتسجنهم، في كهوفٍ عميقةٍ محفورةٍ تحت المجمع، بحجّة إقلاق النظام العامّ.

ولّما حضر العسس لإلقاء القبض عليهم وجدوا مكان خيمهم خاليًا إلاّ من بعض أوتادٍ، ومن أعشابٍ مداسةٍ.

وفي الواقع كان مجيء المجوس قد أثار خضّةً كبرى، والكثير من الأقاويل. فهناك من ندموا لتخلّفهم عن استقبال يوسف في حين لم يتورّع ملوكٌ من المجيء إليه من بعيدٍ وتكريمه في مقامه الزريّ؛ وبعضهم ربط زيارة الملوك بما روى الرعاة عن بشارة الملائكة، وآخرون ادّعوا أنّ المجوس ما هم إلاّ أشخاصٌ غريبو الأطوار ومغامرون مهووسون. وبغية تهدئة الأمور دعت السلطات السكّان إلى اجتماعٍ في

ساحةٍ قريبةٍ من المجمع، وأعلنت حظر تداول الشائعات المتعلّقة بموكب المجوس، ثمّ استدعت يوسف، واستجوبته ثلّةٌ من أعيان اليهود، ولكنّه كرّ عائدًا إلى المغارة وجاء ببعض الهدايا الثمينة التي جاء بها ملوك المشرق ووزّعها عليهم فأطلقوا سراحه، وبدا الأمر وكأنّه مجرّد ابتزازٍ. ثمّ أغلقت السلطات الطريق المؤدّي إلى المغارة، وأقاموا حاجزًا وحرسًا لمنع أيّ شخصٍ من سلوكه. وغدوا يستنطقون كلّ قاصدٍ لذلك المكان. وأرسل هيرودس، أيضًا، فرقةً من جنوده للتحقّق، فلم يجدوا، في تلك الناحية، سوى الهدوء، ولدى سكّان المغارة سوى الفقر والبساطة، فعادوا أدراجهم مطمئنّين.

وإذ كانت مريم ما زالت مقيمةً في المغارة زارها زكريّا، وأخذ يسوع بين ذراعيه، وتلا الصلاة التي تلاها يوم ختانة ابنه يوحنّا، مدخلاً عليها تعديلاً طفيفًا، مستفيضًا في إنشاد تمجيد الله. وعادت، حنّة، أيضًا، إلى المغارة، وسعدت بحمل حفيدها والعناية به، واجتاحت نفسها سعادةٌ عارمةٌ بما سمعت من مريم عن تكريم المجوس له، وعُنيت بتوزيع هداياهم وبالحفاظ على ما يلزم الأُسرة منها وبتوضيبه، وأعدّت ما كانت تعتزم توزيعه في الناصرة، وسادت السعادة العيلة المقدّسة.

وكانت حنّة هي الوحيدة التي تدع مريم يسوع بين يديها وتوكله إلى عنايتها، وكان يسوع، منذ أيّامه الأولى، يبدي حبًّا لافتًا لأمّه، وتعلّقًا بها غير مألوفٍ لدى أطفالٍ في مثل سنّه.

أمّا يوسف فلكي لا يتعرّض في تنقّلاته لاستجواب أزلام هيرودس، كان يكلّف الرعاة بابتياع ما تحتاجه أسرته، ولا سيّما أنّ جواسيس هيرودس كانوا، في تلك الأثناء، دائبين على استقصاء أمر المولود الملكيّ. غير أنّ فقر مريم ويوسف، ومسكنهم الزريّ، كانا يُقصيان عنهما كلّ شبهةٍ. ومع ذلك كان الرعاة ينذرونهما كلّما ظهر أزلام هيرودس في الجوار، فتلجأ مريم وابنها إلى مغارةٍ مهجورةٍ، وتبدو مغارة الميلاد مهجورةً، أيضًا.

وذات يومٍ أنذر الرعاة العيلة المقدّسة أنّ رجالاً من قِبَل هيرودس يستوضحون

عن مصير الطفل فاستحوذ قلقٌ شديدٌ على مريم ويوسف، وسارع هذا الأخير إلى انتزاع يسوع من يدي أُمّه، ولفّه بأغطيةٍ، وفرّ به إلى مكانٍ أمينٍ، ولبثت أمّه مدى نصف نهارٍ بعيدةً عنه، فريسةً للهواجس ولمضض غيابه عنها. وكان كلّما حان أوان إرضاعه يمضي بها رعاةٌ إلى مخبئه. وإذ كانت تخشى أن يكون الحزن والقلق اللذان اعترياها، بسبب غيابه عنها، قد أفضيا إلى إفساد حليبها، ممّا قد يسبّب له ضررًا، كانت حريصةً قبل إرضاعه، على اعتصار قدرٍ ضئيلٍ من حليبها في حفرة صخرةٍ. وشاهد هذا الحليب راعٍ مسنٌّ، كان قد كُلِّف بمواكبة مريم إلى مخبأ ابنها، وكان واثقًا من قداسة العذراء، فأخذ قطراتٍ منه إلى زوجته التي أخذت منابع حليبها تجفّ، وغدت عاجزةً عن إشباع وليدها. وتناولت المرأة تلك القطرات الثمينة بثقةٍ وإيمانٍ، وكوفئت في الحال، إذ غدا حليبها فيّاضًا. ومنذئذٍ أمست الصخرة التي تلقّت حفرتُها الحليب المقدّس، مصدر معجزاتٍ.

ختانة يسوع

عشيّة اليوم السابع لولادة يسوع، انهمك يوسف والنساء الأسّينيّات، وإحدى قريبات مريم، في إعداد مأدبةٍ، وفرش الأرض بالأغطية، تأهّبًا لختان يسوع في يومه الثامن عملاً بالشريعة.

وقصد يوسف بيت لحم، وعاد منها بثلاثة كهنةٍ، وبامرأةٍ مكلّفةٍ بإتمام هذه المراسم، والتي جاءت بكلّ مستلزمات الاحتفال. وجلس الجميع على حُصُرٍ بُسِطت أمام مدخل المغارة.

تبادل الكهنة بضع عباراتٍ مع العذراء مريم، ثمّ أخذوا الطفل بتأثرٍ وورعٍ. قُدِّم الطعام في خيمةٍ أُعِدَّت لهذا الغرض. وقد التمّ حول المائدة طغمةٌ من الفقراء الذين رافقوا الكهنة، وفقًا لتقليدٍ متّبعٍ في مثل هذه المناسبات. وبعد العشاء وزّع يوسف والكهنة كلّ ما زاد من طعامٍ، وكلّ ما كان يفيض عن حاجة الأُسرة، من زادٍ ومؤونةٍ أُهديْتها.

أُضيئت المغارة طوال الليل، الذي أُنفق في الصلاة والإنشاد. وتمّ الختان عند الفجر. وبدت العذراء قلقةً مكتئبةً.

وكان الملاك قد أوعز ليوسف أنّ اسم الوليد هو يسوع. ولكنّ الكاهن تردّد في قبول هذه التسمية، إلى أن جاءه ملاكٌ آخر بلوحةٍ دُوِّن عليها اسم يسوع.

عقب الختان سُلِّم الطفل لأُمّه، التي كانت قد انتحت زاويةً، مع امرأتين أُخريين. فمضت به إلى قرب المذود، والدموع ملء مآقيها، جاهدةً في تهدئة ابنها، الذي عبّر عن وجعه ببكائه الحادّ المستمرّ. ثمّ وضع الكهنة أيديهم فوق الطفل وباركوه. وقبل انصرافهم تناولوا شيئًا من الطعام.

في تلك الليلة اشتدّت أوجاع يسوع، وسهرت مريم ويوسف دائبين على تهدئته وهدهدته.

تقديم يسوع إلى الهيكل

استعدادًا لمغادرة بيت لحم، نظّف يوسف المغارات الثلاث، وتبرّع للرعاة بكلّ محتوياتها، ما خلا بضعة أغطيةٍ، كانت تلزم للرحلة، والزهيد من مؤونةٍ للطريق. وبسط سجّادة المجوس في مكان مولد يسوع، ثمّ في مكان ختانه، ووضعت مريم الطفل الإلهيّ فوقها، وركعت هي ويوسف أمامه متعبّدين.

ولّما أشرقت شمس الصباح امتطت العذراء متن حمارٍ، كان الرعاة قد زيّنوه للمناسبة وعلّق يوسف ببردعته سلّتين تحتوي إحداهما فاكهةً وثمارًا وتحتوي الأُخرى يمامتين؛ وكانت تلك تقدمة الفقراء للهيكل، من أجل تطهّر مريم، وتقديم يسوع إلى الهيكل وفقًا لمقتضيات الشريعة. وسلك موكب العيلة المقدّسة دربًا محاذيًا لبيت لحم من جهة الشرق، فلم يلمحهم أحدٌ. وفي أثناء الطريق استراحوا عند نبع ماءٍ، فجاءهم امرأتان بجرار ماءٍ وبخبزٍ.

ولّما اقتربا من أورشليم، شرع الليل يرخي سدوله. فحلّوا في بيتٍ صغيرٍ تقطنه أُسرة أسّينيّين تربطهم علاقة نسَب بحنّة زوجة شوزا، استقبلت الضيوف بالترحيب

والمودّة. وأمضت العيلة المقدّسة اليوم التالي في ذلك البيت حيث انتحت العذراء مع ابنها، في إحدى حجراته، وأنفقت النهار كلّه في الصلاة، راكعةً أمام ابنها الراقد فوق بساطٍ على الأرض، تأهّبًا للاحتفال العتيد.

ودلّ المضيفين حدسُهم إلى قداسة الطفل، فأحاطوه وأُمّه بالاحترام والإجلال والعناية. وفي تلك الليلة، ركع سمعان الشيخ للصلاة، في بيته الملاصق للهيكل والمتّصل به. وكان كاهنًا مسنًّا، ورعًا، هزيل الجسم. وفيما كان يصلّي ببساطةٍ وخشوعٍ، خاليين من التشنّجات التي تواكب صلاة بعض اليهود، اعتراه انخطافٌ، وظهر له ملاكٌ أوعز إليه أن يمعن النظر إلى الطفل الذي سيُقَدَّم للهيكل في الغداة، فهو المسيح الذي طالما انتظره، وتاق إلى إشباع عينيه من رؤيته، قبل عودته إلى ربّه. وأُنعم على النبيّة حنّة برؤيا مماثلةٍ.

وصباح اليوم التالي شخصت العيلة المقدّسة إلى الهيكل، وكانت في استقبال مريم امرأةٌ مسنّةٌ اقتادهما إلى قرب الهيكل، وما كادتا تدخلان حتّى هرع سمعان الشيخ إلى الترحيب بمريم وابنها، وهو يضجّ جذلاً. وبعد أن ضمّ الطفل إلى قلبه باندفاعٍ، وتجلّةٍ، وتأمّله بعبادةٍ، وأفصح، بعباراتٍ مؤثّرةٍ، عمّا طفح به قلبه، عاد إلى داخل الهيكل. وكان قد حضر منذ الفجر، إذ لم يقوَ على انتظار مَن طالما تاق إليه بكلّ جوارحه. وما لبث أن عاد متّشحًا بزيّه الكهنوتيّ، احتفاءً بهذه المناسبة الفريدة، مع أنّه لم يكن مكلّفًا بأيّة مهمّةٍ رسميّةٍ في ذلك اليوم.

واقتيدت مريم إلى مكان تقديم الطفل، حيث كانت تنتظرها النبيّة حنّة، ونُعَيْمى معلّمتها السابقة عندما كانت مقيمةً في الهيكل. وسرعان ما عاد إليها سمعان، وأدخلها إلى حيث يتمّ افتداء المواليد الذكور الأبكار، ولحقت بهما حنّة النبيّة، ونُعَيْمى.

في هذه الأثناء كان يوسف قد سلّم لحنّة النبيّة تقدمة العيلة، ثمّ عاد إلى موقع الرجال من الهيكل.

رافق سمعانُ مريمَ التي كانت تحمل يسوع على ذراعيها، وقد لفّته بغطاءٍ سماويّ اللون، ووضعته فوق منضدة التقادِم، وفق الطقوس الجارية. وكانت مريم ترتدي ثوبًا سماويّ اللون يعلوه معطفٌ أصفر صافٍ يلفّ كلّ جسدها، وتعتمر حجابًا أبيض. وأخذ كاهنٌ، كان واقفًا خلف الهيكل، يسوع الطفل، ورفعه إلى العلاء، ودار به في جهات الهيكل الأربع، مستفيضًا في الصلوات، ثمّ سلّمه لسمعان، الذي أودعه بين يدي أُمّه، وهو يتلو طائفةً من الأدعية.

وتقول الرائية إنّها رأت، حينئذٍ، الهيكل يتوهّج بأنوارٍ باهرةٍ نابعةٍ من الله، وأنّ السماء انفتحت فوق الطفل الإلهيّ حتّى عرش الثالوث.

وعندما انتهت طقوس التقدمة، جاء سمعان، فأخذ يسوع من يدي أُمّه، وفي غمرة بهجةٍ واندفاعٍ، شكر لله تحقيق وعده، هاتفًا:

"الآن، أيّها السيّد، تطلق عبدك بسلامٍ، على حسب قولك، فإنّ عينيّ قد شاهدتا خلاصك، الذي أعددته على وجه الشعوب كلّها، نورًا لهداية الأُمم، ومجدًا لشعبك إسرائيل".

ثمّ توجّه لمريم بهذه النبوءة:

"هذا الطفل جُعِل لسقوط كثيرين في إسرائيل أو لنهوضهم، وليكون آية مقاومةٍ. وأنتِ سيجوز سيفٌ في نفسك. وهكذا تنكشف الأفكار التي تجول في قلوبٍ كثيرةٍ".

وكان يوسف يستمع بذهولٍ إلى تلك الأقوال النبويّة.

وما إن فرغ سمعان من أقواله، حتّى أسهبت حنّة النبيّة، هي أيضًا، في مديح الطفل الإلهيّ والتنبّؤ بمستقبله وغبط أُمّه التي انتُخبت لتكون أُمّ المخلّص. وكان نحو عشرين امرأةً أُخرى جئنَ لتقديم أبكارهنّ، يستمعنَ دهِشاتٍ إلى هذه الأقوال. ومعهنّ سمع هذه الأقوال العديد من الكهنة.

ومع أنّ تقدمة العيلة المقدّسة، كانت تقدمة الفقراء، بل أفقر الفقراء، قدّم يوسف بسخاء، ولكن بكتمانٍ، وسرًّا، لسمعان وحنّة، ما تبقّى لديه من ذهب المجوس، من أجل رعاية عذارى الهيكل.

وعاد سمعان إلى بيته، حيث ما لبث أن اعتلّ، ولكنّه على فراش مرضه واحتضاره، ما انفكّ يحدّث ذويه عمّا قاله له الملاك. وما عتّم أن انتقل إلى جوار ربّه، راضيًا، وقد امتلأت نفسه عزاءً. وجديرٌ بالتنويه أنّ أواصر قرابةٍ كانت تربطه بسيرافيا، التي سمّيت، لاحقًا، "ڤــيرونيكا"، وأيضًا بزكريّا وأسرته.

عودةٌ إلى الناصرة

كان يوسف، عندما غادر بيت لحم، قد أودع لدى أصدقاء له الأتان التي كانت ترشدهم في أثناء رحلتهم، وأودع لدى رعاةٍ بعض أمتعته، وباح لهم عن رغبته في العودة لبناء بيتٍ في بيت لحم، بعد أن تكون مريم قد نالت قسطًا من الراحة في الناصرة.

وانطلقت العيلة المقدّسة إلى أورشليم، سالكةً دروبًا بعيدةً عن المدن. وكانت محطّتهم الأُولى في البيت الذي استراح فيه ذوو مريم لثلاث عشرة سنةً خلت عندما قدّموها للهيكل. وكانت حنّة قد أرسلت إلى ذلك البيت من كلّفتهم بمواكبة مريم وأُسرتها إلى الناصرة، حيث أعدّت الجدّة لحفيدها احتفالاً، ترحيبًا بمجيئه إلى الناصرة. وغمر الجميع فرحٌ داخليٌّ، ساجٍ، نابعٌ من وجود الطفل الإلهيّ بين ظهرانيهم.

ثمّ انتقلت مريم وابنها ويوسف إلى مسكنهم الخاصّ في الناصرة، الذي كانت حنّة تزوّده، بانتظامٍ، بالطعام وبكلّ مستلزمات العيش. وكانت حنّة وابنتها الكبرى وابن هذه الأخيرة البالغ الخامسة من سنواته، يقضون معظم وقتهم، مراقبين يسوع الطفل، ومعتنين به. وكان وجود ذلك الطفل يشيع في البيت جوًّا فردوسيًّا،

تسوده علاقاتٌ لا أروع ولا أبلغ تأثّرًا. فحنّة أُمّ الجميع المتفانية في سبيل هنائهم، ومريم أُمٌّ شابّةٌ لا أعذب ولا أكثر حنانًا، واندفاعًا في خدمة ابنها، والقدّيس يوسف الصديق الأوفى، والأعمق تواضعًا، والأشدّ تفانيًا في خدمة الجميع. ولكم كان مؤثّرًا مشهد مريم وهي تداعب خالقها وإلهها الذي ابتغى أن يتأنّس منها، ويختبر هشاشة الضعف البشريّ ووهنه، وحاجته إلى الآخرين!

المنفى المصريّ

في بيت الناصرة كانت حنّة ترقد في حجرةٍ، وابنتها الكبرى مع ابنتها في حجرةٍ أُخرى، ومريم ويسوع في حجرةٍ ثالثةٍ، ويوسف في حجرةٍ رابعةٍ. وكانت حواجز من أغصان أشجارٍ تفصل الحُجر بعضها عن بعض.

وفيما كان يوسف راقدًا في مخدعه، على جانبه، مسندًا رأسه على ذراعه. دنا منه ملاكٌ راغبًا في التحدّث إليه. ولكنّ يوسف كان منهكًا، رازحًا تحت وطأة التعب والنعاس، فما لبث أن ارتدّ إلى إغفاءته. فأمسكه الملاك من يده، وأنهضه، وبلّغه بواجب الفرار، في الحال، إلى مصر، حفاظًا على حياة يسوع. فهبّ يوسف واقفًا، وأشعل مصباحًا، ونقر بيده على حاجز مخدع العذراء، فاستيقظت، وتلقّت إنذار الملاك. فهبّت في الحال، وأطلعت أُمّها وأُختها على رسالة السماء، وانهمكنَ جميعهنَّ في توضيب الأمتعة الأساسيّة التي تحتاجها الرحلة، خضوعًا لمشيئة الله، قبل الاستسلام لأسى الفراق. وأعدّ يوسف الحمار وأمتعة السفر، وأخذت العذراء ابنها الغافي، فتعاقبت جدّته وخالته على ضمّه إلى قلبهما.

ومع أنّ التأهّب للرحيل كان هادئًا وسريعًا، ولا سيّما أنّ المرتحلين لم يستصحبوا من الأمتعة والزاد سوى الزهيد والأساسيّ، إلاّ أنّ الوداع كان شاقًّا وموجعًا؛ فقد أقبلت حنّة على ابنتها المسافرة تقبيلاً وأغرقتها بدموعها، وكأنّها تودّعها الوداع الأخير، في حين رمت حدّة الأسى أُخت العذراء الكبرى أرضًا، واستنْزَفت كلّ ما اختزنته مآقيها من دموعٍ.

انطلقت رحلة النفي في نحو منتصف الليل، وكان يوسف قد ساعد مريم على امتطاء متن الحمار، ثمّ أودع يسوع بين يديها فأثبتته بشريطٍ إلى كتفها، ولفّته بأرداف معطفها، وبجزءٍ من وشاحها الكبير، وسار يوسف صامتًا، ساهمًا، ساهرًا، ممسكًا بعنان الراحلة التي تدلّت من جوانب بردعتها قربة ماءٍ، وسلالٌ تحتوي خبزًا، وأغطيةٌ وإبريقٌ. وبعد اجتياز العيلة المقدّسة، في تلك الليلةِ، أماكن عديدةً، استراحت في خانٍ، قبل استئناف مسيرها. ومساءً توقّفوا في قريةٍ تدعى "نذاراء"، قريبةٍ من السامرة، يقطنها قومٌ لا ينتمون إلى ملّة اليهود، الذين كانوا يزدرونهم ويُخضعونهم لأعمال العبيد الشاقّة، ولا سيّما في الهيكل. غير أنّ أسرةً هناك استضافتهم استضافةً مفعمةً مودّةً وظرفًا، ما شجّعهم على المكوث طيلة اليوم التالي في ذلك البيت. وكان لطيبة أولئك القوم وقعٌ بليغٌ في نفس مريم ويوسف حفر فيها ذكرى راسخةً. فتوقّفوا عندهم لدى عودتهم من مصر. وقد اعتنق أهل ذلك البيت، لاحقًا، الدين المسيحيّ، وتلقّوا العماد على يد المعمدان، وانضمّ بعضٌ منهم إلى تلاميذ يسوع.

غادر يوسف ومريم ويسوع تلك القرية ليلاً، واستراحوا يومي الأحد والإثنين تحت شجرة البطم، المدعوّة بطمة إبراهيم، المثقلة بالتاريخ، التي كانت العذراء الحامل قد احتمت تحتها من البرد القارس، في أثناء رحلتها مع يوسف للاكتتاب في بيت لحم. والمرجّح أنّ العيلة المقدّسة آثرت الانزواء في ظلال تلك البطمة تفاديًا للاختلاط بالجموع، إذ إنّ اضطهاد هيرودس ودقّة تعقّبه يسوع الطفل كانا قد بلغا ذروةً مخيفةً. وفي هذه الأثناء كانت مريم ويوسف يقتاتان بالخبز وبالثمار البرّيّة التي يعثران عليها في البراري التي يجتازانها.

وكان زكريّا وإليصابات، هما أيضًا، قد أدركا الخطر المحيق بابنهما يوحنّا، وربّما تلقّيا إخطارًا بذلك من حنّة وأُسرها. فحملت إليصابات يوحنّا، وأخفته في الصحراء، صحراء لم تكن مساحةً متماديةً من رمالٍ قاحلةٍ، بل كانت مكانًا غير مأهولٍ، انتشرت فيه صخورٌ ومغاور، وشجيراتٌ تؤتي ثمارًا برّيّةً. وأخفت

إليصابات ابنها يوحنّا في كهفٍ، اعتكفت فيه الجدليّة لاحقًا، عقب صعود يسوع إلى السماء. وكان يوحنّا، حينئذٍ، يشارف شهره الثامن عشر، قادرًا على الجري، حاملاً بيده عصا يعبث بها، ومكثت إليصابات وابنها في ذلك المنفى حتّى زال الخوف من اضطهاد هيرودس، الذي ارتكب مجزرةً مريعةً بحقّ أطفالٍ أبرياء.

وانتهت العيلة المقدّسة، ذات يومٍ، إلى مغارةٍ رحبةٍ، وقد أُنهك أفرادها تعبًا، وحزنًا، وقلقًا وحرمانًا، ولا سيّما أنّهم كانوا يتحاشون عن انتهاج الطرق العامّة، والمدن، والفنادق، تفاديًا لعيون هيرودس وبطشه. ورئفت بهم العناية الإلهيّة فانبجس، داخل المغارة، نبع ماءٍ، وجاءتهم عنْزَةٌ مكّنتهم من احتلابها، وظهر لهم ملاكٌ مواسيًا.

ثمّ واصلت العيلة المقدّسة مسيرها، متوغّلةً في الصحراء. وكانت قد نفدت مؤونتها من الماء، ومن كلّ ما يروي الغليل. وتهالك أعضاؤها نَصَبًا، واستبدّ الظمأ بالعذراء وبطفلها، فانحدرت عن راحلتها، واستفاءت ظلّ صخرةٍ، وانصرفت إلى دعاءٍ حارٍّ، استجابت له العناية الإلهيّة التي خفّت إلى نجدتها. وحينئذٍ تراءى منظرٌ يقرنُ الغرابة والدهشة بالروعة. فقد كان المكان الذي توقّفت فيه العيلة المقدّسة غير بعيدٍ عن المغارة التي أخبأت فيها إليصابات ابنها. ومثلما كان يوحنّا الجنين قد انتفض في بطن أُمّه لدى سماع سلام مريم، انتفض، طفلاً، لدى شعوره بظمأ يسوع وأُمّه، فراح يجري حافيًا، وبيده قضيبٌ، ثمّ جثا، وبسط ذراعيه، ودعا الله بحرقةٍ، ثمّ نهض بغتةً، وجرى نحو صخرةٍ وضرب الأرض بعصاه، فتفجّر نبعٌ غزيرٌ، سالت مياهه حتّى موقع العيلة، ورفعت العذراء يسوع عاليًا وهتفت: "هو ذا يوحنّا في الصحراء!". وبعد أن صفا الماء حفر يوسف خزّانًا سرعان ما امتلأ ماءً، فاستقوا جميعهم واغتسلوا، وغسلت مريم ابنها. وعمّ الانتعاش حتّى العشب الذي كان قد ذبل، والحمار الذي ارتوى. ومكثت العيلة هناك بضع ساعاتٍ حتّى ظفرت بقسطٍ من الراحة، وهي تشكر للعناية الإلهيّة سهرها وغوثها.

بين اللصوص

بعد تخطّي العيلة المقدّسة الأراضي الخاضعة لحكم هيرودس، ولجت صحراء رمليّةً متماديةً امّحت مسالكها وانتصبت، أمام أنظار المسافرين سلسلة جبالٍ وعرةٍ، مهيبةٍ، مريعةٍ، وحار يوسف أيّ طريقٍ بين هذه الجبال يتعيّن عليه سلوكه، فركع ومريم مغتمّين، مستغيثين بالسماء، وإذ بثلّةٍ من الوحوش تحيق بهما، مشيعةً الرعب في قلوبهما، للوهلة الأولى. ولكن سرعان ما تبيّن أنّ تلك الوحوش لا تريد بهما شرًّا، بل هي مرسلةٌ لإرشادهما، فقد كانت ترنو إليهما بلطفٍ، وكأنّها كلابٌ حول أصحابها، وثمّ تحدّق إلى الجهة التي ينبغي انتهاجها، وتجري نحوها، ثمّ تعود إليهما داعيةً إيّاهما إلى اقتفاء أثرها، فتعقّباها حتّى انتهوا إلى مكانٍ موحشٍ، وكان الليل قد حلّ. وتراءى لهما كوخٌ مريعٌ عُلّق مصباحٌ على شجرةٍ قريبةٍ منه ، وكان اجتياز الكوخ يقتضي تخطّي حفرٍ عديدةٍ، مُدَّت إلى جوانبها حبالٌ خفيّةٌ، كانت، حالما تُمَسُّ، تحرّك أجراسًا تنبئ اللصوص المتخفّين بوصول ضحايا، فيهرعون لسلبهم مقتنياتهم. ولم يكن موقع ذلك الكوخ ثابتًا، بل كان يُنقَل من مكانٍ إلى آخر وفقًا للظروف والمواسم.

وما إن دنت العيلة المقدّسة من المصباح، حتّى أحاط بها ستّة لصوصٍ، تتطاير نوايا الشرّ من عيونهم. ولكن ما إن شهد زعيمهم الطفل يسوع حتّى لامس قلبَه شعاعُ نورٍ، فأمر أزلامه بألاّ يُلحقوا بالقادمين أيّ أذًى أو سوءٍ. ثمّ اقتادهم إلى كوخه حيث كانت زوجته وابناه، فروى لهم ما انتابه لدى رؤية الطفل. ورحّبت زوجته بالمسافرين ترحيبًا امتزجت فيه الطيبة بشيءٍ من الخجل، وأجلستهم في زاويةٍ، حيث شرعوا يتناولون شيئًا من الزاد الذي جاؤوا به. وسرعان ما تقرّب منهم مضيفوهم، وشيئًا فشيئًا تجرّأوا وعقدوا معهم الحديث، وجاءتهم زوجة الزعيم بخبزٍ وعسلٍ وفاكهةٍ، ثمّ أقامت حاجزًا، يفصلهم عن سائر الكوخ، واستجابةً لطلب مريم جاءتها بطست ماءٍ لغسل الطفل، واهتمّت هي بغسل أقماطه وجفّفتها أمام الموقد.

وفيما كانت العذراء تحمّم ابنها، بلغ تأثّرٌ مبهمٌ بزعيم اللصوص، فباح لزوجته: "إنّ هذا الولد اليهوديّ ليس طفلاً عاديًّا، بل هو طفلٌ مقدّسٌ. فاسأليها أن نغطّس ابننا في الماء الذي استحمّ فيه ابنها، لعلّه يشفى من برصه". واقتربت المرأة من مريم ولكن قبل أن تتفوّه بمطلبها، دعتها العذراء إلى غسل ابنها في ذلك الماء، الذي بدا أكثر صفاءً ممّا كان حين جاءها به، وأتت المرأة بطفلٍ في نحو الثالثة من العمر وقد ابيضّ جسده كلّه من البرص، وما إن غطّسته حتّى هوت قشور البرص التي كانت منتشرةً على كلّ جسده، وبُرئ بُرءًا تامًّا فوريًّا. وطلبت منها مريم أن تحفر في الصخر خزّان ماءٍ، تسكب فيه الماء الذي اغتسل به على التوالي يسوع، ثمّ الطفل الأبرص الذي نعم بالشفاء، كي يكون مصدر شفاءٍ لكلّ أبرصٍ. ومنذئذٍ وطّنت زوجة زعيم اللصوص العزم على هجر ذلك المكان الموبوء، حالما تستطيع.

وسرعان ما انتشر نبأ الشفاء العجيب وامتلأ الكوخ بقومٍ دهشين. وفي صباح الغداة الباكر غادرت العيلة المقدّسة الكوخ، وواكبهم الزعيم وزوجته حتّى دربٍ أمينٍ، وقال لهم الرجل: "أذكروني عندما ستكونون في مملكتكم". هذه العبارة ردّدها ابنه، بعد ثلاثٍ وثلاثين سنةً، عندما كان مصلوبًا على يمين يسوع، وكانت جواز عبوره إلى الفردوس، برفقة المخلّص.

دخول مصر

إثر مغادرة كوخ اللصوص، استبهمت المسالك على العيلة المقدّسة، المرتحلة، ولكن جرت أُعجوبةٌ طريفةٌ. فبعد أن أرشدهم إلى السبيل زواحف من كلّ لونٍ كانت تسير أمامهم، أخذت ترسم لهم المسالك التي يتعيّن انتهاجها زهرةٌ تدعى "زهرة أريحا" كانت تنبت أمام أقدامهم على امتداد الطريق. وانتهوا إلى مجرى نهرٍ اجتازوه على ظهر مركبٍ بدائيٍّ يقوده بحّارةٌ بشعو المنظر، قاتمو البشرة، فُطْس الآناف. وعبروا بلا توقّفٍ خلال بيوتٍ معزولةٍ يسكنها قومٌ أجلافٌ متعجرفون.

وبعد أن ساروا عشرة أيّامٍ في أراضٍ يهوديّةٍ وعشرة أيّامٍ في الصحراء انبسطت أمامهم الأراضي المصريّة الشاسعة، حيث شاهدوا قطعانًا تسرح، وأصنامًا معلّقةً على أشجارٍ، مرتديةً ثياب أطفالٍ، ورُسمت عليها حروفٌ وصورٌ، وعلى مقربةٍ منها رجالٌ قصار القامة ممتلئو الأجسام، يكرّمونها. وفزعت العيلة إلى اسطبلٍ فخرج منه القطيع الذي كان لاجئًا إليه، وأخلاه كي يفسح لهم ملجأً.

وكان الجوع قد أخذ بالركب كلّ مأخذٍ، بحيث أمست العذراء عاجزةً عن إرضاع طفلها، ولكن لم يبادر أحدٌ إلى إغاثتهم، إلى أن جاء رعاةٌ كي يسقوا سائمتهم، وجادوا عليهم بجرعات ماءٍ، تلبيةً لتوسّلات يوسف وإلحاحه، ثمّ بمشقّةٍ واصلت العيلة مسيرتها، في حالةٍ مريعةٍ من الجوع والتعب، إلى أن وقعت أبصارهم على نخلةٍ باسقةٍ زخرت قمّتها بالتمور. فصلّت مريم، ورفعت ابنها في الهواء فانحنت نحوه النخلة، مقدّمةً ثمارها كلّها، التي وزّعت العذراء قسطًا وافرًا منها على أطفالٍ جياعٍ كانوا يلاحقونها. وما لبثوا أن انتهوا إلى جمّيزةٍ معمّرةٍ، كثيفة الأغصان. كان جوفها فارغًا، كما هو حال الكثير من الأشجار العتيقة، فلجأوا إلى داخلها، ناجين ممّن كانوا يتابعونهم بفضولٍ، وقضوا فيها ليلتهم.

وفي الغداة تابعوا رحلتهم عبر صحراء رمليّةٍ، وكانوا، منذ زمنٍ يفتقرون إلى الماء، فصلّت العذراء، فإذا بنبعٍ غزيرٍ يتفجّر أمامهم ويروي التربة، فاستقوا حتّى الارتواء، وغسلت مريم طفلها، وروى يوسف حماره، وتقاطرت زواحفُ وسلاحف ضخمةٌ عطشى، وارتوت هي أيضًا، ورمقت شاكرةً أولئك الغرباء الذين أنقذوها. وبوركت التربة التي ارتوت بذلك الماء العجيب فاخضوضلت، ونبتت فيها أشجار بلسمٍ، تزوّدت من نتاجها العيلة المقدّسة لدى عودتها من مصر. قد تكون تلك المعجزات مجرّد رموزٍ لما تؤتيه وساطة أمّ الله من نعمٍ ومعوناتٍ مدهشةٍ غير متوقّعة.

بعدئذٍ تابع الركب مسيرته حتّى دنا من مدينةٍ مدمّرةٍ، ذات طرازٍ هندسيٍّ غير

مألوفٍ، هي هيليوبوليس. وصلوا إليها فوق جسرٍ مرتفعٍ وطويلٍ ممتدٍّ فوق نهرٍ كبيرٍ متعدّد الروافد (النيل)، وانتهوا إلى ساحةٍ، أمام باب المدينة تحيط بها الأشجار، وقد انتصب فيها صنمٌ له رأس ثورٍ يحمل طفلاً ملفوفًا بالأقماط، وكان حوالي الصنم مقاعد حجريّة، يلقي عليها أهل المدينة تقادمهم. وأجلس يوسف مريم على مقعدٍ تظلّله شجرةٌ. وما كادت تنال قسط راحةٍ حتّى اهتزّت الأرض وانقلب التمثال، فهرع إلى المكان قومٌ غفيرٌ ممّن كانوا يعملون في حفر قناة، وتطوّع رجلٌ طيّبٌ لإبعاد الأسرة الغريبة واقتيادها إلى داخل المدينة. كان ذلك تحقيقًا لنبوءة أشعيا (١٩:١)"هوذا الربّ يركب على غيمٍ سريعٍ ويدخل مصر فتضطرب أوثان مصر من وجهه، ويذوب قلب مصر في داخلها". وحينئذٍ تنبّه القوم إلى دخول غرباء في ذلك المكان آن حدوث الزلزال، فالتمّ من حولهم جمعٌ كثيفٌ، ساخطٌ، لاعنٌ، مهدّدٌ، عازٍ الزلزال وسقوط الصنم لوجودهم هناك. ولكن سرعان ما اهتزّت الأرض مجدّدًا وأضحت الأرض التي كان عليها الصنم مَوْحَلَةً كبرى غاص فيها الصنم حتّى قرونه، والتهم الوحل بعض الأشرار الذين هاجموا العيلة الغريبة. ودخلت العيلة المقدّسة المدينة بهدوءٍ، واستقرّت في بناءٍ مهجورٍ، محاذٍ لهيكل أوثان.

ذلك البناء كان قائمًا فوق عمدٍ كبيرةٍ، استخدمت منها العيلة المقدّسة قاعاتٍ جزّأها يوسف إل حُجَرٍ تفصل بينها حواجز رقيقة، ونصب فيها هيكلاً للصلاة يعلوه مصباحٌ مضيءٌ. وكان يوسف يقضي وقته في صنع عصيٍّ مستديرة الرأس (نبابيت) ومناضدَ صغيرةٍ، وسلالٍ، وحواجز تُستخدم في تجزئة الأكواخ إلى حُجَر منفصلةٍ. وكانت مريم تقبع على الحضيض تحيك ألبسةً ليسوع وليوسف ولها، وأمامها طفلها الإلهيّ راقدًا أو جالسًا في مهده. وكانت تقطن المدينة جاليةً يهوديّةً، دأب يوسف ومريم على صنع لوازم منـــزليّة لهم يقايضونها بخبزٍ وأطعمةٍ.

وهناك أخذ يسوع ينمو ويقف ويمشي، مرتديًا، غالبًا، ثوبًا حاكته له أُمّه، وكان يرافق أحيانًا يوسف عندما كان هذا الأخير يعمل خارج البيت. ولكنّ أهل المدينة

لم يكونوا قد نسوا بعد تحطّم الصنم عند مدخل المدينة يوم جاؤوا إليها، ويتذكّرونه كلّما وجدوا صنمًا محطّمًا في الهيكل القريب من مكان إقامتهم، فيوسعون أولئك الغرباء شتيمةً وتنكيلاً.

ولّما بلغ يسوع ثمانية عشر شهرًا، نمت إلى مسامع العيلة المقدّسة مجزرة أطفال بيت لحم التي اقترفها هيرودس، فاغتمّ يوسف ومريم غمًّا شديدًا، وقضى يسوع نهاره منتحبًا. كان تخلّف المجوس عن العودة إلى أورشليم قد سرّب السخط إلى نفس هيرودس الذي كان، آنذاك، يواجه قضايا وخلافاتٍ داخل أسرته؛ ثمّ تنامت إليه تنبّؤات سمعان الشيخ، وحنّة النبيّة، بشأن يسوع فتفاقمت هواجسه، وأنفذ عسسه إلى بيت لحم والخليل، حيث ظلّوا مدى تسعة أشهر يتحرّون أخبار يسوع، ثمّ سافر هيرودس، ولّما عاد ولم يكن قد ظفر بأيّ معلومةٍ أكيدةٍ، أمر بإجراء المجزرة، مستخدمًا خدعةً ماكرةً مجرمةً إذ أشاع وعدًا بتكريم جميع الأمّهات اللواتي أنجبن صبيانًا منذ سنتين فما دون، وتقاطرت الأمّهات من بيت لحم والخليل وجوارها وهنّ يمنّين أنفسهنّ بالمكافآت، مستصحباتٍ أطفالهنّ الذين ألبسنَهم أجمل ثيابهم، ومنهم من كانوا رضّعًا في الأقماط. وقد جاءت نساءٌ بصبيّين، طمعًا بمكافأةٍ مزدوجةٍ، وحُشدنَ في مكانٍ فسيحٍ محاطٍ بجدرانٍ مرتفعةٍ، بحيث لا يستطيع أحدٌ رؤية أو سماع ما يحدث فيه. وسُجنت النسوة طيلة تلك الليلة. وفي الصباح استدعينَ، واحدةً فواحدةً، إلى قاعةٍ كبيرةٍ، وعند عتبتها كان أطفالهنّ يُنتزعون منهنّ، عنوةً، ويُسَلّمون إلى أحد الجزّارين الذين كانوا يطعنونهم في رقابهم وقلوبهم بسيوفٍ وحرابٍ، ثمّ يمسكونهم من إحدى أيديهم وإحدى أرجلهم ويكدّسونهم بعضهم فوق بعض، تمهيدًا لدفنهم في حفرةٍ جماعيّةٍ. استمرّت المجزرة المريعة، طيلة النهار. ولّما أدركت الأمّهات ما كان يحدث، أطلقنَ صيحاتٍ يائسةً تفطّر الأكباد، وانتزعنَ شعورهنّ بأيديهنّ حزنًا وقنوطًا، وهمالكنَ أرضًا. وكنّ مكدّساتٍ ملتصقاتٍ الواحدة بالأُخرى لا يقوين على حركةٍ. وبقينَ سجيناتٍ حتّى الصباح وحينئذٍ أُعدنَ مكبّلاتٍ إلى بيوتهنّ.

نجاة المعمدان وإقامته في الصحراء

قُبَيْل تلك المجزرة، كانت إليصابات قد عادت بطفلها يوحنّا إلى المنـــزل، ولكنّ ملاكًا أنذرها بأنّ الخطر ما زال داهمًا، ففزعت به عائدةً إلى الصحراء، حيث عثرت على مغارةٍ رحبةٍ وأمينةٍ، ومكثت معه هناك، أربعين يومًا. وفي هذه الأثناء التقاهما ناسكٌ أسّينيّ تربطه صلات نسبٍ بحنّة النبيّة، وغدا يأتيهما كلّ أسبوعٍ بالطعام والماء، فاطمأنّت إليصابات، وعادت إلى منـــزلها واستمرّ الناسك يزوّد الفتى بما يحتاج إليه، ثمّ اقتصر على زيارته مرَّةً كلّ أُسبوعين، ويزوّده بما يحتاج إليه. وفي هذه الأثناء كان يوحنّا قد اكتشف أسرار الصحراء، وموارد الماء والنباتات والثمار التي تصلح لطعامه، وكان قد أَلِف حياة الصحراء وكَلِف بها، وغدت هي توفّر له كلّ ما يحتاج إليه. كان معلّمه ومرشده الوحيد هو الروح القدس، فروح الله يثوي في البراءة، والنـــزاهة من فساد العالم. وكانت براءته قد اجتذبت إليه حيوانات الصحراء وطيورها، التي كانت تؤنس وحدته، وترشده إلى مطارح احتياجاته. فالطيور كانت تحطّ على كتفه، وتتناول طعامها من كفّه، والأسماك كانت تواكب نزهاته على ضفاف البحيرات، وتسارع إليه كلّما ناداها. وكانت حيواناتٌ تحذّره من مكامن الأخطار، وترشده إلى مواقع الثمار. وكلّما اشتدّ شوق والديه إليه كان يهديهما روحٌ إلى مكانه. وعند زوال نُذر الخطر كان الروح يقتاد يوحنّا إلى منـــزل ذويه، ثمّ يعود به إلى الصحراء.

وكان والده زكريّا، رغم حبّه المضطرم له، وشوقه الحارق إليه، يتحاشى عن زيارته في الصحراء، خشية أن يضعه هيرودس إزاء خيارٍ عسيرٍ: الكذب أو تسليم ابنه للطاغية. ولّما ضاق هيرودس بالبحث عن يوحنّا بلا طائلٍ، أمر بنصب كمينٍ لأبيه. وفيما كان زكريّا قاصدًا الهيكل ذات صباحٍ، مجتازًا منحَدَرًا خفيًّا عن العيون، انقضّ عليه جنود هيرودس، وأودعوه سجنًا، وأمعنوا به تنكيلاً بغية انتزاع إقرارٍ منه بمكان وجود ابنه. ولّما فشلوا في مبتغاهم، اقتادوه إلى سجنٍ على هضبة جبل صهيون، وأوسعوه تعذيبًا، بلا هوادةٍ، أملاً في التغلّب على صمته. ولكنّ

شراستهم لم تؤتهم أيّة نتيجةٍ، فأمر هيرودس بقطع رأسه، ودفنه أصدقاؤه على مقربةٍ من الهيكل. ولمّا أُحيطت إليصابات علمًا بهذه الجريمة، انتابها حزنٌ لم تقوَ على احتماله بمفردها، ففزعت إلى الصحراء لتكون على مقربةٍ من ابنها، وهناك قضت عليها فاجعتها وقام أسّينيّون بدفنها.

في هذه الأثناء كانت العيلة المقدّسة ما زالت في مصر. ويوحنّا لا ينفكّ يتوغّل في مطاوي الصحراء.

إقامة العيلة المقدّسة في المطريّة

ضاقت الحال بالعيلة المقدّسة في هيليوبوليس، حيث تضاءلت فُرَص عمل يوسف، واشتدّ اضطهاد الأهالي له ولذويه، فغادروها ميمّمين جنوبًا. ولدى توقّفهم في إحدى المدن المصريّة، للاستراحة في فناء معبدٍ وثنيٍّ، هوى وتحطّم، صنمٌ ضخمٌ على شكل ثور ثلاثيّ القرون، وعلى جوانبه فوهاتٌ كانت تُحرَق فيها التقادِم. ونشبت جلبةٌ عارمةٌ، وهمّ كهنة الوثن باحتجاز الغرباء، والتنكيل بهم، غير أنّ أحدهم ذكّرهم بالنكبات التي حلّت بأسلافهم إثر اضطهادهم يهودًا غرباء، فاكتفوا بطردهم.

وابتغت العيلة المقدّسة الإقامة في مدينةٍ واقعةٍ على ضفّة النيل الشرقيّة. ولكنّ سكّانها لم يستسيغوا وجود أولئك الغرباء فيها، وحبسوا عنهم حتّى الماء والتمر، فواصلوا ارتحالهم حتّى قريةٍ تدعى، اليوم، المطريّة، محاطةٍ بمياه النيل من جانبين، وسكّانها، قليلو العدد، يقيمون في أكواخٍ مبعثرةٍ، مصنوعةٍ، صنعًا سيّئًا، من خشب النخيل، ومن الطين المجفّف، ومسقوفةٍ بالقصب. وأقامت العيلة المقدّسة تحت قنطرةٍ معتمةٍ، في مكانٍ منعزلٍ، عند مدخل القرية، وعلى مقربةٍ من ذلك المكان ابتنى يوسف منـــزلاً متواضعًا، ووجد ميدانًا واسعًا للعمل فدأب على بناء منازل أكثر متانةً من الأكواخ المألوفة، مؤلّفةٍ من طبقتين، وفوقهما أروقةٌ تصلح للنـــزهة.

وكان على مقربةٍ من سكن العيلة المقدّسة معبدٌ وثنيٌّ تحطّم صنمه، وفي إثره تحطّمت كلّ الأصنام الموجودة في تلك البقعة. وجاشت نفوس الأهالي غيظًا، وعزوا تلك المصائب إلى وجود أولئك الغرباء اليهود، وكادوا ينْزلون بهم انتقامًا مريعًا، لولا تدخّل كاهنٍ حكيمٍ، هدّأ روع قومه، وذكّرهم بالكوارث التي حلّت بأجدادهم مغبّة قمعهم اليهود. وفي نهاية المطاف، تخلّى كهنة الأوثان عن المعبد الذي تحطّمت أصنامه لليهود الذين حوّلوه إلى مجمع، وشيئًا فشيئًا، التمّ حول العيلة المقدّسة أفراد الجالية اليهوديّة ووثنيّون اعتنقوا الدين اليهوديّ، وانتخبوا يوسف رئيسًا للمجمع، فتولّى تلقينهم ترتيل المزامير الذي نسوه، وذكّرهم بتقاليد الآباء.

واتّضح وجود فئتين من اليهود في تلك المنطقة تتباين أوضاعهما تباينًا مفضوحًا. فثمّة من يعيشون في حُفَرٍ، ويعانون فقرًا مدقعًا، ومن جانبٍ آخر، هناك ميسورون بطرون كانوا يملكون مجمعًا حوّلوه إلى معبدٍ وثنيٍّ يمارسون فيه طقوسًا خلاعيّةً بحجّة استعجال مجيء المسيح. وأقاموا فيه عجلاً ذهبيًّا، محاطًا بحيوانات يُزعَم أنّها تحمي من التماسيح.

وطلب بعضٌ من أولئك اليهود من مريم أن تخيط أو تحيك ألبسةً لهم، ولكنّها مهما كانت حاجتها إلى العمل ضاغطةً، لم تكن ترضى صنع غير الألبسة البسيطة المستخدمة للصلاة، أو للاستعمال اليوميّ، رافضةً صنع الألبسة الفاخرة المعدّة للتباهي. فكان الذين ترفض تلبية طلباتهم يغمرونها بالشتائم.

ومع أنّ يوسف بذل كلّ جهوده لجعل مساكن السكّان أوفر أمانًا وراحةً، إلاّ أنّه كان يتلقّى، لقاء عمله، أجرًا زريًّا، وفي الغالب لا يتلقّى أيّ أجرٍ.

وفضلاً عن ذلك، بادئ الأمر، كانت إقامة العيلة المقدّسة في المطريّة شاقّةً، من جرّاء الافتقار إلى الماء النظيف والغذاء الضروريّ، فكانت تضطرّ أحيانًا، على غرار سائر الأهالي، إلى استخدام ماء النيل العكر، والاقتصار في طعامها على الثمار والأعشاب. وغالبًا ما كان يوسف يلجأ إلى الصحراء على متن حماره، ويعود منها بماءٍ صالحٍ للشرب، يمتاحه من ينابيع كان قد اكتشفها أثناء رحيلهم إلى مصر.

وذات يومٍ، فيما كانت العذراء تصلّي، أنبأها ملاكٌ بأنّ خلف منـــزلها نبع ماء مسدودًا، فقصدت، مع يوسف، بورةً خلف المنـــزل، فيها شجرةٌ عتيقةٌ، وحفرةٌ مليئةٌ بالأنقاض، ونقر يوسف برفشٍ سطح الحفرة، حيث اكتشف نبعًا مسدودًا بالأتربة والأنقاض، فحرّر المكان والنبع الذي تدفّق منه ماءٌ زلالٌ. وأضحت مريم تزوّد بيت أُسرتها من ذلك النبع، وتغسل بمائه أقماط يسوع، ثمّ تعلّقها على أغصان الشجرة كي تجفّ جفافًا صحيًّا. ثمّ غدت تأتي بأتراب ابنها وأبناء جيرانها فتسقيهم من ذلك الماء النظيف، وسرعان ما انقلب ذلك النبع لأهالي الحيّ، منهلاً عامًّا.

واستغفل يسوع، يومًا، أُمّه التي كانت عاكفةً على الصلاة، وتسلّل بمفرده إلى النبع وملأ قربةً، وعاد بها إلى أمّه، التي، مع تأثّرها الشديد بهذه المبادرة، خشيت عليه، ورجته ألاّ يعيد الكرّة. ولكنّه طمأنها بأنّه سيكون حذرًا متيقّظًا، وأنّه راغبٌ في إعفائها من مهمّة الشخوص إلى النبع كلّما احتاجت ماءً، إذ سيكون دائمًا ماءٌ كافٍ بمتناول يدها. ومنذئذٍ أمسى يؤدّي لأمّه وليوسف كلّ ما يستطيع إليه سبيلاً من الخدمات، مبديًا قدرًا جمًّا من التنبّه والاهتمام، موفّرًا لهما الكثير من العزاء، ومخفّفًا مشقّة عيشهما. فكان يوصل أشغال أُمّه لأصحابها، ويأتي مقابلها بالخبز، وكان يأتي إلى يوسف بأدوات عمله التي نسي استصحابها.

وذات يومٍ، إذ كان يؤدّي بعضًا من هذه المهمّات الصغيرة، ركع في الطريق للصلاة، فظهر له ملاكان، وأنبآه بوفاة هيرودس، ولكنّهما أوعزا إليه بكتمان الأمر، لأنّ الظروف لم تكن، بعدُ، ملائمةً لعودتهم إلى فلسطين.

ورويدًا رويدًا، تحسّنت ظروف عيش العيلة المقدّسة، وقسّم يوسف منـــزله إلى حُجَيْراتٍ تفصل إحداها عن الأُخرى حواجز، وابتنى مطبخًا، وصنع مناضد واطئةً، ومرقدًا خاصًّا ليسوع، على مقربةٍ من مخدع أُمّه، التي كانت تقضي آناءً طويلةً من الليل راكعةً تصلّي، وأقام يوسف، داخل المسكن، مصلًّى صغيرًا، حيث كان لكلٍّ من أفراد العيلة مكانه الخاصّ.

ورغم وفاة هيرودس، كانت عودة العيلة المقدّسة إلى فلسطين ما زالت محفوفةً بالمخاطر، فقرّرت تمديد إقامتها في مصر، فترةً. غير أنّ تلك الإقامة كانت تتفاقم صعوبةً ولا سيّما بسبب ممارسات الجالية اليهوديّة طقوسًا وثنيّةً فاسقةً، تعارض عبادة الإله الواحد، وأيضًا بسبب تكليف يوسف بأشغالٍ لا يؤدّون له عليها أجرًا، فيعجز عن توفير أوَد أُسرته. فركع ذلك البارّ الصبور ذات يومٍ، وشكا لله همومه وغمّه، وفي تلك الليلة ظهر له ملاكٌ، ودعاه إلى العودة جهارًا إلى موطنه، حيث زال الخطر على حياة يسوع، وشجّعه على انتباذ الخوف من سلوك الطرق العامّة لأنّ الله سيكون إلى جانبه. وبلّغ يوسف أمر الله هذا لمريم ويسوع، فتأهّبا للرحيل في الحال. وأحزن رحيلهم معظم الذين عرفوهم عن كثب، وودّعوهم بهدايا متواضعةٍ، وكان أشدّهم أسفًا أتراب يسوع الصغار وذووهم، وامرأةٌ كانت عقيمةً والتمست صلاة مريم، فأُنعم عليها بابنٍ رائعٍ أسمته عطيّة الله. وواكبهم رهطٌ من سكّان المطريّة حتّى وصلوا إلى هيليوبوليس وفرحوا لرؤية المكان الذي تفجّر فيه نبعٌ استجابةً لدعاء مريم، والذي كان قد اخضلّ وازدان بالأشجار المثمرة. وهناك نالت العيلة المقدّسة قسطًا من الراحة، وقامت مريم بغسل أمتعة الأُسرة وتنشيفها على أغصان الأشجار وملأ يوسف قربةً ماءً للطريق.

وكان السفر شاقًّا على يسوع الصغير، إذ كان ينتعل أحذيةً من لحاء الأشجار صنعها له يوسف، وكانت كثيرًا ما تمتلئ رملاً حارقًا يجعل السير بها موجعًا، فيضطرّ يوسف ومريم للتوقّف المتواتر من أجل إفراغ تلك الأحذية من الرمال، والظفر بشيء من الراحة، وكانا، بين فينةٍ وفينةٍ، يساعدانه على امتطاء الحمار ليخفّفا عنه وعثاء السير.

وكانت تراود يوسف الرغبة في الاستقرار ببيت لحم، ولكنّه، منذ دخوله أراضي فلسطين تنامى إلى علمه أنّ حكم اليهوديّة أُنيط بأرخيلاوس. وكان يوسف يخشى بطش هذا الأمير وظلمه. فأقام مع يسوع ومريم ثلاثة أشهرٍ في غزّة، إلى أن

أوعز إليه الملاك بالمضيّ إلى الناصرة، حيث كانت حنّة ما زالت على قيد الحياة، فاستقرّوا فيها، وكان يسوع قد بلغ من العمر سبع سنواتٍ وتسعة أشهر.

ومنذئذٍ أمست حياة العذراء جزءًا من حياة ابنها.

يسوع في الهيكل وسط علماء الشريعة

حتّى الثانية عشرة من عمره ما انفكّ يسوع يؤدّي خدماتٍ لأمّه وليوسف، وحتّى للغرباء في كلّ سانحةٍ. وكان قدوةً لجميع أبناء الناصرة، الذين أحبّوه، وتجنّبوا إغضابه، وكثيرًا ما كان يصلّي معهم من أجل إصلاح نفوسهم.

كان يسوع مديد القامة، ذا وجهٍ بيضاويّ الشكل، شديد البياض، وكان يتألّق صحّةً وفرحًا، شعره الأشقر كان سبطًا، مفروقًا فوق جبينٍ عريضٍ عالٍ، منسدلاً على كتفيه. وكان يرتدي ثوبًا رماديًّا داكنًا، واسع الأكمام، يهبط حتّى قدميه.

في الثامنة من عمره رافق للمرّة الأولى أُمّه ويوسف إلى أورشليم، بمناسبة الفصح، ومنذئذٍ أَلِف مرافقتهما في كلّ سنةٍ. وكان، منذ تلك الزيارة الأولى، قد لفت انتباه علماء الشريعة، والكهنة والكتبة، بما تميّز به من سكونٍ، وورعٍ ونباهةٍ. وبالتالي عندما شخص إلى أورشليم، وهو في الثانية عشرة كان له في المدينة المقدّسة عددٌ من الأصدقاء والمعجبين. وكان يوسف ومريم يحجّان إلى أورشليم وسط موكبٍ من المعارف والأصدقاء والجيران، وكان يسوع ينضمّ إلى أترابه من صبيان الناصرة. ولكنّه في أثناء العودة من ذلك الحجّ، انفصل عن أترابه على مقربةٍ من جبل الزيتون، وأقام في النـــزل الذي كانت ترتاده العيلة المقدّسة أثناء وجودها في القدس. وفي حين ظنّت مريم ويوسف أنّه برفقة أترابه الناصريّين، ظنّ هؤلاء أنّه آثر قضاء الليل مع أسرته. ولكن عندما آن تجمّع كلّ الحجّاج مساءً تبيّن لمريم ويوسف غيابه، فانتابهما قلقٌ قاتلٌ، وفي الحال ارتدّا إلى أورشليم باحثين عنه بلهفةٍ، ولكنّهما لم يعثرا له على أثرٍ لدى أيٍّ من معارفهما. وهو كان قد زار، في هذه الأثناء، كلّ يومٍ مدرسةً. ويوم وصول مريم ويوسف بعد ظهر اليوم الثالث، كان في الهيكل.

وفي كلّ مدرسةٍ زارها كانت أسئلته وأجوبته قد أثارت دهشة المعلّمين الذين قرّروا إخضاعه، في الهيكل، لسلسلةٍ من أسئلةٍ مستعصيةٍ، يطرحها عليه أكثر الرابيّين توغّلاً في العلم. وقد أجلسوه على مقعدٍ عالٍ والتفّت من حوله ثلّةٌ من الشيوخ مرتدين حلًى كهنوتيّةً، وأصغوا إليه بانتباهٍ مشوبٍ بالضيق والسخط، بسبب تفوّقه عليهم حكمةً وعلمًا.

وكانوا قد استدعوا لهذا الجدال، أو لتلك المبارزة، علماء متعمّقين في جميع أبواب العلم. وكان هو، منذ البدء، قد أكّد أنّ مثل هذا السجال لا يليق حدوثه في الهيكل، ولكن بما أنّهم أرادوه فسيجيب على استفساراتهم، إذ تلك هي مشيئة أبيه السماويّ. ولكنّهم لم يدركوا معنى هذه العبارة، وخُيّل إليهم أنّ يوسف هو الذي أمره بإبراز معارفه ومواهبه.

وجلّى يسوع في جميع المواضيع التي أُثيرت من طبٍّ، وفلكٍ، وهندسةٍ، وزراعةٍ، وحسابٍ وفقه... إلخ، وأدلى فيها بمعلوماتٍ كانت خافيةً عن أهل زمانه، وأثار إدلاؤه بها مزيجًا من دهشةٍ وسخطٍ، وذهولٍ، وإعجابٍ، وكاد الغيظ يتغلّب على تلك المشاعر كلّها، فأولئك المدّعون سمعوا من طفلٍ ما لم يسمعوه قطّ، وتعلّموا منه ما لم يعلّمهم إيّاه أحدٌ، مثبتًا لهم أنّ جميع العلوم تنبع من كلمة الله، فعلى مدّعي العلم أن يتواضعوا ويقرّوا بجهلهم الكثير ممّا لا زال بعيدًا عن مداركهم.

كانت قد انقضت ساعتان على السجال القائم بين يسوع والعلماء، عندما وصل يوسف والعذراء إلى الهيكل باحثين عنه، وأخبرهما لاويّون من معارفهما أنّه في قاعة التعليم يناقش العلماء ويعلّمهم. وبما أنّه لم يكُن مسموحًا لهما بالولوج إلى تلك القاعة فقد كلّفا لاويّين إبلاغه حضورهما، ورغبتهما في رؤيته. ولكنّه طلب من اللاويّين إبلاغهما عدم قدرته على الانضمام إليهما، في الحال، قبل إنجاز المهمّة التي كان يضطلع بها، واستمرّ في مناقشة العلماء حتّى دحض كلّ اعتراضاتهم، وقد استغرق ذلك نحو ساعةٍ. هذا الجواب أحزن مريم، فقد كانت تلك هي المرّة الأولى

التي يشعرهما يسوع أنّ عليه الخضوع لمشيئةٍ غير مشيئتهما. وعندما انضمّ إليهما منعت الدهشة والاضطراب يوسف من التفوّه بلفظةٍ واحدةٍ، ولكنّ مريم دنت من يسوع وقالت له: "لمَ صنعت بنا هكذا، يا بنيّ؟ فها أنا وأبوك نبحث عنك متألّمين". فأجابها: " علامَ تبحثان عنّي؟ ألا تعلمان أنّ عليّ الاهتمام بشؤون أبي؟". ومع أنّهما لم يفهما لجوابه معنًى، إلاّ أنّهما أمسكا بيده، وعادا به إلى الناصرة. وكان جميع الحاضرين ينظرون إلى يسوع بدهشةٍ وإعجابٍ، وتداول الكتبة واللاويّون أقواله طويلاً، ولكنّ بعض الموتورين منهم شوّهوا الوقائع وأشاعوا عنه الأكاذيب.

وكانت عودة الأُسرة إلى الناصرة مناسبةً لوليمةٍ مبهجةٍ أقامتها حنّة، ودعت إليها جميع أتراب حفيدها الذين يمتّون لمريم ويوسف بصلةٍ. وقد أصبح معظمهم، لاحقًا، من تلاميذ يسوع. أمّا يسوع فروى لرفاقه هؤلاء قصصًا ترمز إلى المعجزات التي سيجريها، في ما بعد. منذ سنّ الثانية عشرة انقلب يسوع معلّمًا لأترابه. وعندما بلغ الثامنة عشرة جدّ لمساعدة يوسف في عمله.

وفاة القدّيس يوسف

في الناصرة كان لكلٍّ من أفراد العيلة حجرته، وكانت حجرة مريم هي الأرحب والأحسن ترتيبًا، وفيها كانت تقضي نهارها تحيك وتخيط، وإلى جانبها قفّةٌ تحتوي لوازم عملها. وكانت العيلة تلتئم للصلاة وقوفًا، وكلٌّ منهم ضامٌّ يديه إلى صدره. ومع دنوّه من أوان مباشرته حياته العلنيّة، أمسى يسوع أكثر نزوعًا إلى العزلة والتأمّل. وعندما بلغ الثلاثين شرعت همّة يوسف بالانهيار، وغدا يسوع وأُمّه يقفان قسطًا أطول من الوقت على المكوث إلى جانبه، حتّى انتقل إلى جوار ربّه محاطًا بهما. وقد ضمّا يديه إلى صدره ولفّاه بكفنٍ أبيض، وأودعاه لحدًا تبرّع له به محسنٌ كريمٌ، في موكبٍ متواضعٍ مؤلّفٍ من عددٍ ضئيلٍ من الأقرباء والأصدقاء، غير أنّ الأُخت الرائية شاهدت نعشه مشعًّا نورًا ومحفوفًا بطغماتٍ من الملائكة.

كان يوسف يحبّ يسوع حبًّا جمًّا، ويخشى عليه أدنى نسمة سوءٍ، وكان يتألّم لكلّ ما يلحق به من اضطهادات الأشرار، ومن جرائر خبثهم. ولكان مات قهرًا لو شهد ما كابد من اضطهاد الفرّيسيّين له، ومقاومة اليهود لتعليمه، وحكمهم بالصلب، ظلمًا جائرًا، على ابن الله، الذي كانوا يعدّونه ابن يوسف النجّار. ولا ريب أنّ العذراء قد قاست الكثير من ذلك القهر والأسى.

عقب وفاة يوسف انتقلت إقامة مريم ويسوع إلى دسكرةٍ واقعةٍ بين كفرناحوم وبيت صيدا حيث وهبهم أحد سكّان كفرناحوم، يدعى لاوي، بيتًا معزولاً، فيه خدمٌ يضطلعون بشؤون المنـــزل، وكان يرسل لهم، كلّ يومٍ، من المدينة، ما يلزمهم من أسباب العيش.

كان معظم أتراب يسوع في الناصرة قد ارفضّوا عنه، بعد أن وصفه فرّيسيّو الناصرة بالمأفون المتشرّد. وبعد أن اطمأنّت العذراء إلى توفّر وسائل العيش ليسوع في كفرناحوم، حيث أصبح محاطًا دائمًا بأصدقاء غدوا له، من بعدُ، رسلاً وتلاميذ، وبات يمضي معظم وقته في تعليمهم وإعدادهم لنشر رسالته، قفلت عائدةً إلى بيتها في الناصرة حيث ما لبثت أن انضمّت إليها شقيقتها الكبرى مريم وأولادها.

أمّا يسوع فبعد أن اطمأنّ إلى استقرار أُمّه في الناصرة، وتوفّر وسائل العيش والراحة والأمان لها، عاد إلى كفرناحوم، كي يستهلّ حياته العلنيّة.

حياة يسوع العلنيّة

الفَصْلُ الثَّالِث

السنة الأولى

استهلّ يسوع تعليمه بأعمال رحمةٍ روحيّةٍ وجسديّةٍ.

كان مارًّا بمكانٍ يحتفل به خليطٌ من رجالٍ ونساءٍ بعيدٍ شعبيٍّ، ويلهون، ويعقدون رهاناتٍ على ثمارٍ. ولحظ رجلاً يدعى نثنائيل واقفًا يصارع نفسه التي أغوتها شهوة امرأة كانت تشارك بالرهانات، على مقربةٍ منه، فألقى عليه يسوع نظرةً، ارتدت شكل تحذيرٍ، ومع أنّ نثنائيل كان يجهل المخلّص إلاّ أنّ تأثير نظرته نفذ إلى أعماق نفسه. واستشفّ في ذلك المارّ شيئًا يفوق عامّة الناس، فاضطربت أعماقه وأَعمل الفكر والإرادة، وتغلّب على التجربة التي راودته.

ثمّ قصد بيت عنيا حيث كان له معرفةٌ برجلٍ ورعٍ غنيٍّ يدعى لعازر يكبره بنحو ثماني سنواتٍ، كان يرسل أموالاً للعذراء مريم وليوسف كي يوزّعاها على المعوزين في الناصرة. بعدئذٍ، اعتزل، فترةً، في الصحراء، ومكث في المغارة التي كانت إليصابات قد أخفت فيها يوحنّا، لتَقِيَه من جرائم هيرودس. وهناك انقطع للصلاة. ومن الصحراء شخص إلى الخليل، في اليهوديّة، حيث دأب على ممارسة أعمال عطفه حيال الجميع. فقد شوهد ذات يومٍ، على مقربةٍ من البحر الميّت، يساعد قومًا مبحرين على طوقٍ تعلوه خيمةٌ، وقد امتلأ سطحه بالناس، والبهائم والأمتعة، ولكنّه تعطّل وعجز عن الحركة، فمدّ لهم يسوع لوحًا خشبيًّا اجتازوا فوقه إلى البرّ، ثمّ ساعدهم على إصلاح الطوف. وحار القوم في أمره، فمع أنّ مظهره الخارجيّ كان عاديًّا، إلاّ أنّ الجلال والسموّ اللذين كانا ينبعثان منه كانا مذهليْن. وقد ظنّ القوم، بادئ الأمر، أنّه المعمدان، ولكنّهم سرعان ما تبيّنوا أنّه يتباين عنه فهو أقلّ سمارًا، وملامحه أقلّ قسوةً.

وفي الخليل عاد يسوع مرضى وواساهم، وعالجهم، ورتّب أسرّتهم. وكان مجرّد

حضوره يؤتي تأثيرًا خلاصيًّا رائعًا. وفي تلك المرحلة لم يُحدث أشفيةً ومعجزاتٍ بل اقتصر على إنهاض الواقعين، وإرواء ظمأ العطشى، وإرشاد المسافرين إلى اجتياز السواقي، وكان الجميع يُعجبون بذلك الغريب المحسن. وصباح يوم الأحد وصل إلى مصبّ نهر الأردنّ وتوجّه إلى الجليل محاذيًا ضفّة النهر. وحيثما مرّ كان ينثر إحساناته فيواسي البرص ويرشدهم إلى العلاج المجدي، وكان كثيرون ممّن يلتقون به يواكبونه من مكانٍ إلى آخر.

واتّفق أن مرّ بقومٍ فقراء يبنون السفن ولكنّهم يفتقرون إلى المهارة، فلقّنهم وسائل إتقان العمل، وساعدهم، وحثّهم على ممارسة الصبر والمحبّة.

ومرّ بمركزٍ أُودع فيها مجانين وممسوسون بأرواحٍ شرّيرةٍ، قامت قائمتهم لدى وصوله، وتعذّر على المراقبين تهدئتهم، فدخل يسوع وكلّمهم، ودعاهم إلى السيطرة على ذواتهم، وفي الحال هدأوا وتحرّروا، وعاد كلٌّ منهم إلى موطنه. وكان إعجاب أهالي القرية من الشدّة بحيث ألحّوا في التماس بقاء يسوع بين ظهرانيهم. ودعوه إلى عرس بصفة ضيفٍ ممتاز، فأضفى على الاحتفال بهجةً ورونقًا، وبسموّ حكمته، وعذوبة معاملته أدخل على نفوس المحتفلين سجوًّا وورعًا.

وعاد إلى الناصرة حيث استُقبل بفتورٍ، ولّما أعلن عن عزمه الشخوص إلى المجمع للتعليم حاولوا ردعه عن عزمه، غير أنّه تكلّم في الساحات العامّة، أمام فرّيسيّين وصدّوقيّين، عن المسيح المنتظر، مؤكّدًا أنّه سيكون مناقضًا للصورة التي كوّنوها عنه، قائلاً: "إنّكم تتوقّعون رؤيته قادمًا بمظاهر الأبّهة العالميّة. ولكنّه قد جاء، حقًّا، وسيظهر في الفقر، وسيشهد للحقّ، وسيلقى من اللوم والهجاء أكثر ممّا سيلقى من المديح، لأنّه حريصٌ على إقامة العدل. لا ترضوا بأن تُبعَدوا عنه، لكيلا تهلكوا كما هلك أبناء نوح، الذين سخروا منه، لأنّه كان يجهد في بناء السفينة، ولم ينجُ سوى الذين صدّقوا أقواله، ودخلوا السفينة". والتفت إلى مرافقيه قائلاً: "لا تبعدوا عنّي، كما انفصل لوط عن إبراهيم، نشدانًا لمراعٍ أكثر خصبًا، فانتهى إلى سدوم

وعمّورة". وكانت أقواله هذه تثير غضب الفرّيسيّين، الذين كانوا يردّون عليها بقولهم: "بِمَ عساه يعدهم، وهو لا يملك شيئًا؟ أوَليس من الناصرة، وابن يوسف ومريم؟". وتحدّث أيضًا عن صوت المعمدان الصارخ في الصحراء، وأهاب بمستمعيه: "هيّوا بلا تلكّؤٍ إلى عماد يوحنّا، وتطهّروا بالتوبة، لئلاّ يأتيَ يومٌ تصيحون فيه: الويل لنا!".

وبعدئذٍ غادر الناصرة مع أُمّه وعائلة ابنة أُختها الذين كان يقيمون معها في الناصرة، إلى مكان إقامته في كفرناحوم، مستصحبين معهم أمتعتهم على ظهور حميرٍ.

وتابع يسوع جولاته في فلسطين، وفي أيّام السبت، كان يتحدّث في المجامع عن المسيح المنتظر وعن العمادة التي كان يقوم بها يوحنّا على ضفاف الأردنّ. وكان بعض المستمعين يبتسمون ساخرين قائلين: "أليس هذا الذي كان يعمل منذ أشهرٍ قليلةٍ مع يوسف النجّار، وما إن تجوّل في بعض أماكن خارج قريته حتّى ظنّ نفسه مؤهّلاً لتعليمنا؟"

كان يختبر أفكار الناس ومواقفهم، وينهج الدرب الذي أعدّه له سابقه المعمدان.

ورأته الأُخت "أنّا كاتارينا"، يومًا، مارًّا بين السامرة والناصرة، وكانت شلّةٌ من الشبّان ينتظرون تحت شجرةٍ، وقد أصبح بعضهم من تلاميذه. ولمّا اقترب خفّوا للقائه، وبلّغوه أنّ يوحنّا الذي عمّدهم قبل قليلٍ، قد أنبأهم عن اقتراب ظهور المسيح، وأطلعوه على أنّ يوحنّا لا يعمّد من الجنود إلاّ أقلّيةً ضئيلةً، ويقول إنّ تعميد الجنود لا يختلف عن تعميد صخور الأردنّ.

وتابع المخلّص مسيرته شمالاً، على امتداد بحر الجليل، وأضحى حديثه عن المسيح أكثر جلالاً ووضوحًا. وفي أماكن عديدةٍ كان المسكونون بأرواح شرّيرة يطلقون، لدى مروره، صيحاتٍ مروّعةً، وكان يحرّر بعضهم من عبوديّتهم الرهيبة. وفي أثناء الطريق التقى ستّة رجالٍ كانوا تعمّدوا للتوّ على يد يوحنّا، وكانوا يتوسّمون فيه يسوع المسيح الذي حدّثهم عنه يوحنّا، ولكنّهم ما زالوا مرتابين،

ومع ذلك واكبوه، وهم مأخوذون بأقواله التي لم يسمعوا قطّ لها نظيرًا. وكان قاصدو يوحنّا للعماد يحدّثونه عن يسوع، والقادمون من عمادة يوحنّا يحدّثون يسوع عنه.

استقبالٌ عدائيٌّ في الناصرة

قدم يسوع إلى الناصرة مع خمسةٍ من تلاميذه، ووصلوا إليها ليلاً، فأوعز إلى تلاميذه أن يبحثوا لأنفسهم عن مأوى، في الأكواخ المنتشرة عند مدخل القرية، فاستقبلهم ساكنوها وأعطوا كلاًّ منهم كسرة خبزٍ وماءً من أجل غسل أرجلهم. وكان أولئك المضيفون من أصدقاء العيلة المقدّسة، وحلّ يسوع ضيفًا على ابن أخٍ لزكريّا والد المعمدان، يدعى "إيليود"، كانت مريم، لدى مغادرتها الناصرة، قد أوكلت إليه السهر على بيتها.

صباح اليوم التالي انطلق التلاميذ لزيارة ذويهم في الناصرة، وآثر يسوع المكوث مع ضيفه "إيليود"، وتبادل معه أحاديث حميميّةً. وباكرًا جاءت إلى يسوع أُمّه مع ابنة أُختها، ورجته ألاّ يأتي إلى الناصرة حيث النفوس مشحونةً ضدّه، وهي شديدة القلق عليه. وظلّت العذراء، طيلة ذلك اليوم، تختلف إلى بيت "إيليود" وتتحدّث طويلاً إلى يسوع الذي أنبأها أنّه سيحتفل معها، بالفصح، ثلاث مرّاتٍ في أورشليم، وسيكون الفصح الثالث مدعاة فاجعةٍ لها.

وقد طرح عليه "إيليود" يومذاك، أسئلةً كثيرةً عن مقاطع الكتاب الذي استغلق عليه فهمها. ومن تلك الأسئلة سبب تلكّئه في المجيء، فأوضح له المخلّص أنّه لم يكن بوسعه أن يولد مثل سائر البشر، بل من امرأةٍ منَزّهةٍ من عدوى الخطيئة الأصليّة. ومنذ آدم وحوّاء لم يوجد زوجان في مثل طهارة يواكيم وحنّة.

وسأله "إيليود" أيضًا أين سيقيم مملكته: أَفي أورشليم أو في أريحا أوفي عين جدي. فأجابه يسوع أنّ مملكته ليست أرضيّة، وأنّها ستكون حيث سيكون هو.

ومساءً قدم يسوع مع "إيليود" إلى الناصرة، حيث كانت، خارج الأسوار،

منجرة يوسف، سابقًا. وكانت تقطن ذلك المكان أُسرٌ فقيرةٌ مستقيمةٌ، معظم أعضائها من رفاق طفولة يسوع، فقدّموا له خبزًا وماءً ــ وماء الناصرة زلالٌ عذبٌ ــ وجلس يسوع معهم أرضًا وحثّهم على الظفر بعمادة يوحنّا. وأخبرهم بأنّه هو نفسه سينال هذا العماد قريبًا، برفقة العديد من الأشخاص، وكانوا ينصتون إليه باحترامٍ واهتمامٍ، ولا سيّما أنّه كان برفقة الجليل "إيليود". كانوا قد سمعوا عن مجيء المسيح، ولكن لم يخطر ببال أحدٍ منهم أنّ المسيح هو يسوع رفيق طفولتهم.

ولّما انفرد يسوع بتلاميذه أوضح لهم سبب رفضه طلب شبّانٍ ناصريّين كانوا قد التمسوا الانضمام إليه، فقال: "إنّهم لا يتطلّعون إلاّ إلى مصالحهم، وليسوا مستعدّين للتخلّي عن كلّ امتلاكٍ بدافع المحبّة. أمّا أنتم فلا تطلبون شيئًا، ولذلك ستنالون كثيرًا".

وأطلع يسوع "إيليود" على اعتزامه التوجّه إلى يوحنّا المعمدان مع عددٍ من تلاميذه لنيل العماد، ومع أنّ "إيليود" كان ابن عمّ المعمدان فلم يكن قد رآه، ولا اعتمد على يده، وأنبأه، أيضًا، أنّه يعتزم، بعدئذٍ، الشخوص إلى بيت عنيا لزيارة لعازر وأخواته وهنّ ثلاثٌ: مرتا الكبرى وهي طيّبةٌ وورعةٌ، ومريم البسيطة المنغلقة على ذاتها التي يظنّها الناس غبيّةً، ويدعونها الصامتة، لأنّها تحيا حياةً داخليّةً، وتدرك أعمق الأسرار من غير أن يبدو عليها ذلك، ولن تلبث أن تنتقل إلى جوار ربّها. أمّا الأخت الصغرى فتُدعى مريم المجدليّة، وهي تائهةٌ حاليًّا، ولكنّها سترتدّ وستفوق الجميع غيرةً، ومحبّةً ليسوع.

وجاء فرّيسيّان من الناصرة، ودعوا يسوع للتحدّث في مدرسة مدينتهما. فقد تنامى إليهما ما علّمه في القرى والمدن المجاورة، وتفسيره للنبوءات. وقد رحّب به فرّيسيّو الناصرة، واستمعوا إلى أمثاله بمتعةٍ، ثمّ مضوا به إلى المجمع حيث فسّر النبوءات، ولكن لّما لحظو أنّه يشير إلى نفسه استنكروا تفسيره، ومع ذلك أقاموا له مأدبةً.

وفي اليوم التالي تحدّث إلى حشدٍ من الجباة الذين كانوا يعتزمون العماد، وحدّثهم عن حبّة القمح التي لا بدّ من أن تموت في التربة كي تؤتي الحصاد الوفير، غير أنّ الفرّيسيّين أخذوا عليه مجالسته للجباة والخطأة والأسّينيّين الذين وصفوهم بالمنافقين. ولكنّه ردّ عليهم بأنّ النفاق هو من شيَم الفرّيسيّين دون سواهم. وأخذوا عليه مسايرته للأطفال ولاسيّما عندما شهدوا تقاطر النساء الملتمسات منه مباركة أطفالهنّ، وشفاءه للمعتلّين منهم.

وكان في الناصرة أسرتان ثريّتان خطر لهما خطب ودّه بالمال، كي يتّخذ من أبنائهما تلاميذ له، طمعًا في الشهرة والنفوذ، واكتساب العلم والحكمة منه. ولكنّه خيّب رجاءهم وأبى استصحاب هؤلاء التلاميذ الجدُد، الذين استشفّ نواياهم التي تقودها المصلحة. وقال لهم إنّ من يدفع مالاً بغية الظفر بأمرٍ ما، فهو يبتغي من الأمر نفعًا ومصلحةً زمنيّةً، في حين أنّ على من يبتغي اتّباع المسيح العزوف عن كلّ خيرات العالم، بل عليه، أيضًا، التخلّي عن ذويه وأصدقائه، وعن الرغبة في الزواج. وعندما احتجّوا، واحتجّ معهم بعض تلاميذه، الذين بلغ عددهم حينذاك التسعة، بأنّ بعض الأسّينيّن، المعروفين بتطهّرهم المتشدّد يتزوّجون، أجابهم أنّ الأسّينيّين يسلكون وفق قواعدهم وأنظمتهم، التي تمهّد للتعليم الذي سيرسي هو قواعده. وفي هذه الأثناء تآمر بعض الفرّيسيّين على امتحان يسوع بغية إحراجه، فدعوا إلى المجمع عالم شريعةٍ، وطبيبًا، وعلماء في كلّ فروع المعرفة. ولدى دخول يسوع المجمع شفى ولدين أبرصين. وتنافس العلماء في مقاطعة تعليمه كي يطرحوا عليه، كلٌّ في اختصاصه، أسئلةً شائكةً عويصةً، ولكنّ دقّة أجوبته على كلّ تلك الأسئلة أفحمت السائلين، وكان الحرج من نصيبهم. فقد أكّد لعالم الشريعة بطلان مبدأ الطلاق مبيّنًا الأسباب التي كانت قد دفعت موسى إلى السماح به، وعلى الطبيب ردّ بشروح مفصّلة لم يكن الطبيب نفسه مطّلعًا عليها، وبيّن تأثير النفس على الجسد، وكان حديثه من الحكمة والفصاحة ما أفحم الطبيب الذي أقرّ أنّه لم

يلقَ قطّ إنسانًا بمثل علم يسوع، واعترف بتفوّق يسوع عليه عندما استفاض يسوع في وصف أعضاء الجسم كلّها وتحديد وظائفها الخاصّة وعلاقاتها المتبادلة.

وأدهش يسوع أيضًا عالم فلكٍ كان قد جيء به، بما أدلى به من معلوماتٍ عن الكواكب لم يكن للعالم علمٌ بها. وساجل كلّ عالمٍ في ميدان اختصاصه، مثبّتًا تفوّقه عليهم جميعًا بلا قياسٍ، وأخيرًا، أنحى بأعنف النقد على تقاليد البذخ والمجون المستوردة من اليونان، موضحًا أنّ خطرها يكمن في نزع صفة الخطيئة عنها، واعتبارها هنةً متاحةً، لا غبار عليها.

ودهش مستمعوه من اتّساع معارفه، وحكمة أقواله، ورغبوا في مكوثه بين ظهرانيهم، معاتبينه على الإقامة مع أمّه في كفرناحوم، وحاولوا إغراءه بتقديمهم له منــــزلاً وتوفيرهم له كلّ وسائل العيش. ولكنّه بيّن لهم أنّ عليه رسالةً تقتضي تأديتُها إقامتَه في وسط البلاد، فسخطوا لرفضه عرضهم، الذي عزوه إلى الكبرياء والغرور.

غادر يسوع الناصرة برفقة "إيليود" وتلاميذه التسعة الذين أوعز إليهم بالشخوص إلى يوحنّا وإخطاره بقرب مجيئه. وعبروا بكفرناحوم من أجل إطلاع أُمّه العذراء على مقاصده. وفي أثناء الطريق كان يحادث "إيليود"، تارةً، وتارةً يسكتان كلاهما مصلّيين، متأمّلين. وكان ينتعل خفًّا، ولم يألف قطُّ، الاستعانة بعصا. ومرّ على مقربةٍ من منفى للمصابين بالبرص، فاعتزم زيارتهم وخالفه "إيليود"، لأنّ الشريعة كانت تعتبر نجسًا كلّ من يقترب من أبرص، وحذّره من أنّ يوحنّا قد يرفض تعميده، إن هو علم باقترابه من بُرصٍ. ولكنّ يسوع لم يعبأ بذلك التحذير، لاسيّما أنّه كان حريصًا على شفاء رجلٍ أبرص ورعٍ. تلبّث "إيليود"، إذن، خارجًا، ودخل يسوع إلى كوخٍ حيث كان الأبرص الورع الذي توخّى يسوع شفاءه راقدًا أرضًا ملفوفًا بأغطية. وجلس لّما حيّاه يسوع، وقد أخذ به التأثّر كلّ مأخذٍ. وأمره يسوع بالنهوض والغطس في جرن ماءٍ قائمٍ قرب كوخه، وحينئذٍ رفع يسوع يديْه فوقه وهو في الماء، وإذ به يتحرّر من البرص. وأمره يسوع بكتمان حدث شفائه حتّى يعود من عماده.

وفي أثناء حديثهما لمّح يسوع إلى ما سينقلب عليه جسده بعد أقلّ من ثلاث سنواتٍ من تمزّقٍ وتشويهٍ. وإذ تعذّر على "إيليود" فهم هذا التلميح، شاء يسوع أن يطلعه على جزءٍ من حقيقة هويّته، وفي الحال غمرهما غمامةٌ أخفتهما عن الأبصار، وانتاب "إيليود" انخطافٌ فرأى السماء مفتوحةً، وكلّ جمالاتها منتشرةٌ على يسوع، وبعد أن رفع "إيليود" أنظاره المذهولة إلى السماء، عفّر وجهه بالأرض تجلّةً ورعدةً، إلى أن انقشعت الرؤيا واستأنف السير. وكان "إيليود" يتبع يسوع صامتًا، خاشعًا، شديد التأثّر بما رآه. ولا بدّ من التنويه بأنّ يسوع كان يطلع "إيليود" على أكثر ممّا يطلع تلاميذه عليه، لأنّ "إيليود" كان على علمٍ بأسرار ولادة يسوع أكثر من التلاميذ أنفسهم، إذ كانت حنّة، جدّة يسوع، قد أطلعته عليها.

وعند انبلاج النهار وصل يسوع و"إيليود" إلى موئلٍ لرعاة، كانوا قد اقتادوا قطعانهم إلى المراعي، فخفّوا لاستقبال يسوع، وسجدوا له، وغسلوا قدميه، وقدمَيْ رفيقه، وقدّموا لهما ما تيسّر من طعامٍ وشراب. وهناك ودّع يسوع "إيليود"، وباركه قائلاً: "انتظر أجَلك بسلامٍ. فالطريق التي عليّ انتهاجها وعرةٌ وشاقّةٌ، ولن تقوى على انتهاجها معي. لقد قمتَ بقسطك من العمل في كرمة الربّ، وستنال جزاءك في ملكوتي". وكان "إيليود" صامتًا، بالغ التأثّر.

ورأت "أنّا كاتارينا" يسوع يدخل، بمفرده، إلى موقعٍ لصيد الأسماك يخصّ بطرس، واقعٍ على مقربةٍ من بحيرةٍ رست فيها خمسة مراكب، كان بطرس في أحدها يحدّث أخاه أندراوس، وكان حموه وثلاثةٌ من أشقّاء زوجته في مركبٍ يحتلّ الوسط، فيما احتلّ سائر المراكب زبدى، وأبناؤه ومنهم يعقوب ويوحنّا، وأشخاصٌ آخرون.

ورأته يسير على الشاطئ محدّثًا أندراوس الذي كان قد تلقّى العماد على يد يوحنّا وأضحى من تلاميذه. ثمّ رأته ينأى عن ذلك الشاطئ ويتوجّه صوب لبنان، بعد أن اشتدّ الجدل بشأنه في تلك المنطقة. فقد كان كثيرون يرون في يوحنّا المسيح المنتظر في حين أنّ يوحنّا أكّد أنّه ليس المسيح، بل هو ممهّدٌ طريقه.

ومع أنّ يسوع لم يكن له، بعدُ، تلاميذ ملتزمون به، إلاّ أنّ ثلّةً ممّن توسّموا فيه المسيح كانوا يواكبونه ويسعدون بالإصغاء إليه. وكان، في كلّ رحلاته، يوقظ في الأذهان صور الأنبياء، ولا سيّما إيليّا.

يسوع في لبنان

دنا يسوع، برفقة عشرة أشخاصٍ، من مدينةٍ كبيرةٍ على شاطئ البحر الأبيض المتوسّط، جاثمةٍ على إحدى قمم لبنان، ومشرفةٍ على منظرٍ منقطع النظير، حيث بدت المدينة ملاصقةً للبحر مع أنّها كانت تبعد عنه ثلاثة أرباع فرسخ. كانت مدينةً كبيرةً ضاجّةً، ومن قمّة الجبل كانت تبدو كأنّها طوّافة، إذ انتشرت فوق أسطحتها، وبشكل شباكٍ وصوارٍ، عُمُدٍ خشبيّةٍ، وإسقالاتٌ حيث كانت تخفق أعلامٌ متعدّدة الألوان، تُشاهد من خلالها حشودٌ بشريّةٌ دائمة الحركة والدأب على مهامٍّ من كلّ صنفٍ. وقد انبسطت في ضواحي تلك المدينة أراضٍ خصبةٌ، مثقلةٌ بكلّ أنواع الثمار، وعند أقدام الأشجار الباسقة نُصبت مقاعد، وسلالم تُمكّن من تسلّق أكثرها ارتفاعًا، وكان فيء الأغصان الوارفة يحتضن اجتماعاتٍ واحتفالاتٍ ومجالس نزهةٍ.

وكانت تلك المدينة تضمّ وثنيّين ويهودًا يتبادلون التجارة، وقد لقي يسوع فيها الترحيب، فبشّر تحت ظلّ الأشجار الباسقة، وتحدّث عن يوحنّا ومعموديّته وعن التوبة، وفي المدارس بشّر بمجيء المسيح الوشيك وبدمار الأصنام. ثمّ ترك يسوع رفاقه في صيدون، ويمّم، بمفرده، شطر صرفت، الواقعة في الجنوب بعيدًا عن البحر، حيث ابتغى الاعتزال للصلاة. وكانت تلك المدينة محاطةً بأحراجٍ من جانبٍ، وبالكروم من جانبٍ آخر، ومحصّنةً بأسوارٍ صفيقةٍ. وهناك أقام لدى رجلٍ مسنٍّ ورعٍ، وحدّث القوم عن المسيح الآتي، وديعًا متواضعًا، وعلّم القوم في المدارس داعيًا إلى التوبة والاعتماد. وغالبًا ما كان يعتزل بين الأحراج للصلاة. إلى أن حان أوان عودته إلى الأردنّ للعماد.

عماد يسوع في الأردنّ

في هذه الأثناء، إثر انتشار أقوال المعمدان عن المسيح الآتي، وسريان شائعاتٍ تؤكّد أنّ المسيح هو يسوع الناصريّ، أنفذ السنهدرين رسائل إلى جميع المجامع والمدارس اليهوديّة في كلّ أنحاء فلسطين مطالبةً بمراقبة المدعوّ يسوع، وتقصّي أقواله وأفعاله. وكان يوحنّا قد أعلن بأنّ المسيح سيتعمّد على يده، ومع أنّ السنهدرين ردّ بأنّ المسيح الحقّ لا يحتاج إلى معموديّة يوحنّا، إلاّ أنّ زعماءه شدّدوا على واجب مراقبته عن كثبٍ.

لّما دنا يسوع من الناصرة خفّت العذراء إلى ملاقاته، ولكنّها لّما رأته محاطًا برفاق ارتدّت إلى منـــزلها، محجمةً حتّى عن التحدّث إليه. وكم كان موقفها محطّ إعجاب!

وفي يوم سبتٍ علّم في المجمع، ولكنّ كثيرين من الحاضرين تبادلوا همسات الاستنكار والنقد اللاذع لمن يزعَم تمثّله بالمعمدان، الذي تمرّس بالنسك في الصحراء. وبعد يومين هجر الناصرة إلى بيت صيدا كي يعدّ نفوس الذين آمنوا برسالته، والتزموا بها.

وفي بيت صيدا دأب يسوع على التبشير والتعليم، محرّضًا على التماس معموديّة يوحنّا. ومن بيت صيدا يمّم صوب كفرناحوم برفقة تلاميذه الجدد مبشّرًا حيثما مرّ، غير أنّ كثيرين من المستمعين كانوا يتساءلون عن صحّة تعليمه الجديد وسلامته. وتكاثرت التحريضات على إيذائه، وتعاظم قلق مريم على حياته، وكثيرًا ما حاولت ثنيه عن التبشير في الأماكن التي كانت تجهر بعدائها له. ولكنّ قدرته على طرد الشياطين والأرواح الشرّيرة، كانت تستنفر له الأتباع والمناصرين، الذين يرون فيه أحد كبار الأنبياء. وحينئذٍ كانت نبرة دعوته إلى التوبة وإلى المعموديّة على يد يوحنّا تكتسب حدّةً وحرارةً.

وكان سكّان بعض القرى يتنافسون على استضافته أو على استضافة أحد

تلاميذه، ويجدون فيها امتيازًا، ولكنّه كان يحذّر من تحوّل هذه الضيافة إلى مكاسب اجتماعيّة. واشتدّ تقاطر أصحاب العلل والعاهات إليه، ولكنّه لم يكن راغبًا في إظهار قدراته الشفائيّة الإلهيّة، قبل إعلان تعليمه وترسيخ الإيمان به.

وفي بعض القرى كانوا يتفانون في ضيافته، ويغسلون قدميه وأقدام مرافقيه، ويغسلون ثيابهم، ويقيمون لهم المآدب.

وهكذا نشر يسوع تعاليمه في العديد من القرى والدساكر والبيوت. وحلّ يومًا في قريةٍ يقطنها يهودٌ متشدّدون في تنفيذ الشريعة اليهوديّة، ويرتبطون بنذورٍ قاسيةٍ، ويطيلون شعورهم حتّى تحقيق هذه النذور. فحاورهم وبيّن لهم ما هو الإيمان الصحيح، مؤكّدًا أنّ الكثير من مقتضيات الشريعة، يصبح نافلاً بالعماد والاسترشاد بالروح القدس، فاعتنق كثيرون منهم تعاليمه. إلاّ أنّ فئةً من هؤلاء أبت التخلّي عن مقتضيات الشريعة وانتهجوا طريقًا يقيم تآلفًا بين الشريعة اليهوديّة والتعاليم المسيحيّة، وأُطلِق على هذه الملّة اسم "النصارى".

ومرّ بقريةٍ معظم سكّانها من جابي الضرائب المقيمين في بيوتٍ جميلةٍ محاطةٍ بالحدائق، يسوقون حياة رفاهٍ، بفضل ما يكسبونه من فوائد شرعيّة وغير شرعيّة، فزار العديد من أُسَرهم وعلّم في مدارسهم، وحذّرهم من استيفاء ضرائب ومكوسٍ تفوق المفروض منها شرعًا. وكانوا هم دهشين من اطّلاعه على خِدَعهم وتجاوزاتهم، ولكنّهم، بالإجمال، كانوا أحسن استماعًا له من سائر اليهود. وحرَّضهم على العماد على يد يوحنّا. وعندما همّ بمغادرتهم حاول بعضهم تزويده هدايا، فرفضها برقّةٍ، غير أنّ كثيرين منهم واكبوه لتلقّي العماد.

ثمّ انتهى إلى قريةٍ يقطنها فرّيسيّون استنكروا ضمّه، في موكبه، جباةً كانوا يحتقرونهم بحجّة أنّهم يعملون لصالح المستعمر الرومانيّ، وممسوسين بأرواحٍ شرّيرةٍ. ومع ذلك علّم في مدارسهم، ودعاهم إلى تلقّي المعموديّة، ولكنّه حذّر من ابتغوا اتّباعه من اندفاعٍ عابرٍ، وحثّهم على التأكّد من عزمهم على المثابرة في طريقه

الوعر والضيّق، وضرب لهم العديد من الأمثال، في هذا المجال. ولكنّ الفرّيسيّين أدركوا أنّ بعض هذه الأمثال تندّد بسلوكهم، فأقلعوا عن سماعه وانقلبوا يتجسّسون عليه وينصبون له الشراك. ولكنّه لقّنهم درسًا قاسيًا. فقد أعدّوا له مأدبةً وأقاموا ثلاثة موائد جلسوا هم مع يسوع في وسطاها فيما جلس رفاق يسوع على الأُخرَيَيْن. ولكنّ يسوع، قبل أن يُقبل على الطعام، أخذ عليهم إهمالهم دعوة الفقراء لمشاركتهم الطعام حسب ما كان التقليد يقضي، ولا سيّما أنّ تلك القرية كانت زاخرةً بالفقراء والمعوزين. فتذرّعوا بأنّ الفقراء من حواليهم كُثُرٌ، ولكنّه أزرى بهذه الحجّة، وأوعز إلى تلاميذه بالطواف في المدينة وضواحيها والمجيء بكلّ فقيرٍ يلتقونه، حتّى إذا اضطرّوا إلى إيقاظه إن هو كان نائمًا. وعندما حضر الفقراء نهض يسوع وتلاميذه وعكفوا على خدمتهم بأنفسهم.

وإثر ذلك ألقى خطابًا سعّر به سُخطَ الفرّيسيّين، ولكنّهم، خوفًا من الحاضرين، كظموا غيظهم، والتزموا الصمت. ولم يجرؤوا على التلفّظ بكلمةٍ واحدةٍ عندما وزّع تلاميذه على الفقراء ما تبقّى من طعام المأدبة.

واستأنف يسوع مسيرته ليلاً، وهو يحدّث مرافقيه عن معموديّة يوحنّا، وعن ظهور المسيح الوشيك، وفي أثناء الطريق توقّف لدى رعاةٍ وبشّرهم، وانضمّ إلى موكبه فرّيسيّون قادمون من الجوار، ولكنّ تعليمه بعث في نفوسهم الضيق، فدأبوا على تحقيره، متذرّعين بمحتده الوضيع. واستمرّ هو في التعليم بأمثالٍ، واستمرّ الفرّيسيّون بالاستهزاء به، أمّا الجموع فكانت تقرّ أنّه يذكّرهم بتعاليم أنبيائهم الكبار، ولكنّه يفوقهم رقّةً ووداعةً، وعذوبةً.

وحلّ ضيفًا على عيلةٍ فقيرةٍ، كانت ربّتها مبتلاةً بعلّةٍ مزمنةٍ، فأبرأها منها. ولكنّه حظر عليها إشاعة نبأ هذا الشفاء قبل عودته من عماده. ولمّا علم رعاة تلك المنطقة بقدومه أعدّوا له ولرفاقه عشاءً، وغسلوا قدميه. ولحظ يسوع شيئًا من الاضطراب في سلوكهم، واستوضح عن أسبابه، فأخبروه أنّ اثنين منهم أُصيبا

ببرص، فأخفوهما خشية أن يرفض استضافتهم إن هو علم بوجودهما. فأمر بإحضارهما، فجيء بهما ملفوفين بأغطية من رأسيهما حتّى قدميهما. طيّب يسوع خاطرهما وأكّد لهما أنّ برصهما ليس نتيجة نجاسةٍ داخليّةٍ، بل هو عدوى خارجيّةٌ، وأمر بغسلهما بنفس الماء الذي غُسلت به قدماه. وما إن سال على جسديهما هذا الماء حتّى وقعت عنهما قشور البرص، مسفرةً عن جلدٍ سليمٍ. وفي هذه النوبة، أيضًا، حظر يسوع على هذين أيضًا إشاعة نبأ شفائهما حتّى يعود من عماده.

وحدّثهم عن معموديّة يوحنّا وعن ظهور المسيح الوشيك. فاستوضحوه مَن الأعظم المسيح أَمْ يوحنّا! فأوضح لهم أنّ العظيم حقًّا هو الأشدّ تواضعًا ومحبّةً، وبذل ذاتٍ. وحذّرهم من صعوبة اتّباعه. بعدئذٍ قصد يوحنّا برفقة خمسةٍ من تلاميذه، وضرب للآخرين موعد لقاء في الصحراء قرب أريحا، وشرع كثيرون منهم يتأهّبون لتلقّي المعموديّة.

يسوع في بيت عنيا

في طريقه إلى بيت عنيا كان يسوع يتوخّى النأي عن القرى والناس، مقتاتًا بالثمار البرّيّة، ومرتويًا من ماء الينابيع الذي يستقيه بقعر كفّيه. وكان يقضي لياليه في الخانات أو في أكواخ الرعيان، وكلّما دخل مجمعًا أو مدرسةً كان يدعو إلى المعموديّة على يد يوحنّا، ويبشّر بوجود مسيحٍ مناقضٍ للصورة التي رسمها له اليهود وتوقّعوها. وكان، في تلك الفترة، قبل معموديّته، يتحاشى، ما استطاع، عن إجراء أشفيةٍ عجيبةٍ، ولا سيّما في ضواحي أورشليم. وكان يندّد بالخطيئة حيثما شهدها أو سمع عنها.

وفي قرى اليهوديّة، كان القوم، حالما يلحظون لهجته الجليليّة، يستفسرون عن معلّم الناصرة الذي شاعت شهرته، وعن يوحنّا المعمدان، وعن المسيح الذي يبشّر المعمدان به. فكان يحثّهم على التماس المعموديّة، والتوبة، والتحوّل. أمّا عن المسيح فكان يؤكّد حضوره الذي لم يلحظه أحدٌ، لأنّهم ينتظرون مسيحًا محاربًا، فاتحًا،

منتصرًا، ناشدًا الأمجاد الأرضيّة، في حين هو أتى فقيرًا، بسيطًا، داعيًا إلى ملكوتٍ روحيٍّ، يُزري بكلّ أمجاد العالم، ومغرياته، وخيراته، وغواياته، ولأنّ تلاميذه، هم أيضًا، في مثل بساطته وتجرّده. ومع أنّهم لم يكونوا يفهمون كلّ أقواله، إلاّ أنّهم كانوا يُفتنون بشخصه، ويستضيفونه بطيبة خاطر.

ووصل إلى بيت عنيا ليلاً، وحلّ في قصر مرتا حيث كان غالبًا يقيم لعازر، وحيث كانت قد أعدّت له وليمةً دُعي إليها كلٌّ من سيرافيا (ڤــيرونيكا)، ومريم أُمّ مرقس وابنها مرقس، ونيقودمس، وأحد أبناء سمعان الشيخ، ورجلٌ شيخٌ يدعى "عبيد" وهو أخٌ للنبيّة حنّة أو ابن أخٍ لها. جميع هؤلاء كانت تربطهم بيسوع صلات قربى، أو كانوا قد أحبّوه وصادقوه إثر ما سمعوا عنه من نبوءات سمعان الشيخ وحنّة النبيّة يوم تقديمه إلى الهيكل. وكانوا جميعهم قد نالوا معموديّة يوحنّا، وجاؤوا إلى بيت عنيا تلبيةً لدعوة لعازر الذي دعا يسوع أيضًا.

كان لعازر قد أنفذ خدّامه لاستقبال يسوع فالتقوا به على مسافة نصف فرسخ من بيت عنيا. وكان أحدهم مسنًّا، وقضى عمره وفيًّا للعازر، فخرّ ساجدًا أمام يسوع، قائلاً: "إنّي خادمٌ للعازر، فأرجو، يا سيّدي، أن تتبعني إليه". ذلك الشيخ فُتِن بيسوع الإنسان، وعَبَد الله فيه، وتعاطف الله الإنسان مع ذلك الشيخ الطيّب الذي اقتاد يسوع إلى رواقٍ في القصر، حيث غسل قدميه وأعطاه خفًّا جديدًا. ثمّ حضر لعازر مع أصدقائه، وقدّموا ليسوع مرطّباتٍ، ودخلوا معه إلى البيت، مرورًا بجناح مرتا حيث كانت النسوة مجتمعاتٍ متلفّعاتٍ بحُجُبهنّ، فسجدنَ ليسوع، وأَخبر يسوع مرتا أَنّ أُمّه ستأتي وتمكث عندها إلى أن يعود هو من المعموديّة، وخلصوا إلى جناح لعازر حيث كانت المائدة ممدودةً، فبارك يسوع الأطعمة وقد ارتسمت على محيّاه علامات الجدّ المشوب بشيءٍ من الحزن. وفي أثناء الطعام أخطر يسوع الحاضرين بأنّ أوقاتًا عصيبةً قادمةٌ، وأنّه سيسلك دربًا شاقًّا يفضي به إلى آلامٍ مضنيةٍ، وحرَّضهم على الثبات، فمن شاء أن يكون له صديقًا عليه أن

يقاسمه آلامه. فكان لقوله هذا أثرٌ بليغٌ عليهم، استدرّ دموع بعضهم، ولكن من جرّاء جهلهم لطبيعته الإلهيّة لم يفهموا معنى أقواله إلاّ فهمًا جزئيًّا. فقد غاب عن إدراكهم أنّ الإنسان الذي يشاركهم الطعام هو، في الحقيقة إلهٌ، مولودٌ من عذراء، وأنّ المسيح الحقّ لا مطامع سياسيّةً له، ولا هو كَلِفٌ بالأمجاد البشريّة. ربّما خطر لهم أنّ يسوع هو المسيح ولكنّ سلوكه المناقض للمسيح الذي انتظره شعبهم كان يوقعهم في حيرةٍ.

بعد الطعام دخل الجميع إلى مصلّى حيث قدّم المخلّص الشكر لأنّ الأوان قد حان لمباشرته رسالته، وكانت صلاته من التأثير بحيث استدرّت دموع معظمهم، ثمّ اقتاده لعازر إلى حيث أعدّ له مكانًا يقضي فيه ليلته، وبعد أن نال بركته ثانيةً، تركه يرتاح.

وفي اليوم التالي تقاطر إلى بيت لعازر حشدٌ من أصدقائه قادمين من أورشليم، وفيما كانوا يسيرون مع يسوع جيئةً وذهابًا في حديقة قصر لعازر، كان المخلّص يحدّثهم برقّةٍ وجدٍّ وجلال، وهم كانوا يستمعون إليه بمتعةٍ، ومحبّةٍ، وتجلّةٍ. وحده لعازر كان يبدي نحوه أُلفةً وصداقةً.

وأبدى يسوع رغبةً في التحدّث إلى مريم الأخت الصامتة، والتي كانت تعَدّ غبيّةً، في حين هي كانت تحيا خارج الأرض، وفي أثناء تجوالها في الحديقة مع يسوع لم تحطّ أنظارها عليه مباشرةً لأنّ عينيها كانتا شاخصتين دائمًا إلى السماء، وقد تحدّثت بفرحٍ عن تجسّد الله في العذراء. ولّما افترقا قال يسوع للعازر ولمرتا: "ليست أختكما فاقدة العقل، ولكنّ نفسها ليست من هذا العالم، وهي لا ترى شيئًا من أشياء الأرض. وطوبى لها لأنّها لا تخطئ".

وتحدّثت مرتا بحزنٍ عن تيه أختها مريم المجدليّة، ولكنّ يسوع عزّاها بتأكيده أنّها سترتدّ عن ضلالها، ولكنّه دعاها وأخاها إلى المثابرة على الصلاة من أجلها، وفي حثّها على تغيير سلوكها.

ثمّ قدمت العذراء إلى بيت عنيا برفقة حنّة زوجة شوزا وأختها الكبرى، مريم زوجة كليوبا، ومريم صالوما، وخفّت لاستقبالهنَّ، عند مدخل الصرح، مرتا وسيرافيا (ڤــيرونيكا)، ومريم أُمّ مرقس وسوسن، اللائي رحَّبنَ بالضيفات، وأمرنَ بغسل أرجلهنَّ، ثمّ شخصنَ معًا إلى جناح مرتا، وما لبث أن حضر الرجال للترحيب بهنّ. واختلى يسوع مع أُمّه، وأخبرها بصراحةٍ حافلةٍ بالرقّة، أنّ رسالته ابتدأت، وأنّه ماضٍ للعماد على يد يوحنّا، ولدى عودته، سيمكث معها وقتًا وجيزًا، في نواحي السامرة، ثمّ سيعتزل في الصحراء مدى أربعين يومًا. وكانت لفظة الصحراء كافيةً لإسالة القلق والحزن إلى قلب مريم، وخشيةً عليه من الافتقار إلى وسائل العيش، وتوسّلت إليه العزوف عن هذا المقصد، فأجابها أنّ عليها، بعد الآن، الإقلاع عن الهواجس البشريّة في ما يتعلّق به، ورجاها ألاّ تحاول ثنيه عن مقاصده، فهو عازمٌ على فعل ما جاء من أجله، وهو دارٍ بأنّه سينهج دربًا وعرًا، وأنّ على من يتبعوه أن يشاركوه معاناته، وأنّ على أُمّه أن تضحّي بعواطفها الخاصّة. أمّا هو، فمع أنّه سيظلّ يحبّها مثلما أحبّها دائمًا، سيكون ملكًا للبشريّة، وعليها أن تنفّذ ما سيطلبه منها، وسيكافئها الآب السماويّ. وأخطرها أنّ الأوان قد حان لتحقيق نبوءة سمعان، ولاختراق سيف الألم نفسها. فاجتاح حزنٌ هاصرٌ قلب مريم لدى سماعها ذلك، ولكنّها برهنت عن رباطة جأشٍ، وعن قدرٍ فائقٍ من الاستسلام للمشيئة الإلهيّة. ولا ريب أنّه كان لعذوبة كلام يسوع ولرقّته المتناهية فضلٌ كبيرٌ في تقبّلها، بسجوٍّ، كلّ ما أنبأها من أحزانٍ قادمة.

وفي المساء أُقيمت مأدبةٌ ثانيةٌ في بيت لعازر دُعي إليها سمعان وفرّيسيّون آخرون، وكانت النساء تُقمن في حجرةٍ مجاورةٍ لحجرة المأدبة تفصلها شبكةٌ خشبيّةٌ تمكّنهنّ من الاستماع لأقوال يسوع الذي تحدّث عن الإيمان والرجاء والمحبّة، وعن العزيمة التي ينبغي أن يتحلّى بها تلاميذه، وعن الآلام التي سيتعيّن عليهم مقاسمته إيّاها، والاضطهادات التي سيتعرّضون لها معه. ولكنّ مستمعيه لم يستوعبوا كلّ أقواله ولم يتخيّلوا الآلام التي كان يشير إليها.

وعقب العشاء قصد يسوع أريحا، برفقة لعازر، بغية نيل العماد، ومع أنّ الطريق كانت وعرةً، خلع يسوع خفّيه وسار حافي القدمين فوق الحجارة والحصباء، وشقّ الأمر على لعازر، فرجاه أن ينتعل خفّيه، ولكنّ يسوع أجابه: "لا تقلق فأنا أعلم بما يجب عليّ أن أعمل"، واجتازا الصحراء.

لم يكن أصدقاء لعازر، ومنهم نيقودمس وابن سمعان، ويوحنّا مرقس قد تحدّثوا مباشرةً إلى يسوع، ولكنّهم كانوا معجبين، أعظم إعجابٍ، بسلوكه وأقواله، وبجملة شخصيّته، ويعترفون: "يا له من رجلٍ لم نرَ ولن نرى أحدٌ أبدًا مثيلاً له! ويا لوقاره، ووداعته، وحكمته، وتبصّره، وبساطته! فحتّى الذين لا يستوعبون كلّ أقواله يؤمنون بها لأنّها صادرةٌ عنه. ويا لبهائه، ولوقاره، ولرشاقة حركاته واتّزانها، ويا لقدرته على احتمال التعب! إنّه يبلغ مقصده لا يشكو نصَبًا، ويستأنف سيره في الحال!". ولكن لم يخطر ببال أحدٍ منهم أنّ ذاك الذي كانوا يتحدّثون عنه، هو الله، وابن الله.

المعمدان

نشأ ونما في أعماق الصحراء ممارسًا كلّ أصناف التضحية والتقشّف، راقدًا في العراء فوق صخرةٍ عاريةٍ، سائرًا فوق الحجارة وبين الأشواك، منفقًا ساعاتٍ طويلةً في الصلاة والتأمّل، مقتاتًا بالأعشاب والثمار البرّيّة ومن عسلٍ برّيٍّ كان يشتاره من فجوات الأشجار، لافًّا حقويه بجلد خروفٍ. وعندما تقدّم في السنّ، وغدا القوم يتقاطرون إليه كي يعمّدهم ويبشّرهم، اصطنع لنفسه معطفًا من وبر الجمال، إذ كانت الخراف تأنس به، وتجود عليه بصوفها، والجمال تنيخ أمامه كي يقتصّ الوبر من أعناقها، فيغزل الوبر والصوف ليصطنع منهما معطفًا له. وكان لا ينفكّ يتوغّل في التضحية والتقشّف، وكانت صلواته تكتسب يومًا فيومًا، مزيدًا من حرارةٍ.

لم يرَ المعمدان المخلّصَ، طيلة عمره، سوى ثلاث مرّاتٍ: عند اجتياز العيلة المقدّسة الصحراء فارَّةً من فلسطين وظلم هيرودس، في طريقها إلى مصر، ومرَّةً

ثانيةً يوم عمّده، والمرَّة الثالثة يوم كان مارًّا على ضفّة الأردنّ وشهد له أمام تلاميذه. ولطالما امتدح المخلّص سيطرة يوحنّا على نفسه وعلى رغباته، فهو مع حبّه الشديد ليسوع، آثر على انضمامه إلى جماعة الفادي، والإقامة معه، واحتلال المكانة العليا بقربه، الامّحاء التامّ أمامه وتصويب الأنظار كلّها إليه.

ولكنّ يسوع لم يغبْ، لحظةً، عن فكر المعمدان وروحه، فقد كان المعمدان يرى فيه غاية رسالته، وتحقيق دعوته، ولم يرَ فيه، يومًا، رفيقًا أو نسيبًا معاصرًا، بل كان يرى فيه فادي العالم، وابن الله المتجسّد، والأزلي المتجلّي في الزمن. ولذلك لم يخطر له، قطّ، أن يقيم معه علاقات أُلفةٍ وقرابةٍ، ومنذ ولادته كان الروح القدس قد ربطهما بعلاقاتٍ فائقة الطبيعة، وقلّما شوهدا معًا، ما خلا ساعة معموديّة يسوع.

وكان شعار يوحنّا الدائم: "استعدّوا وتوبوا: إنّ المخلّص قادمٌ!". وكان دائمًا وقورًا، متقشّفًا، ملهمًا، مكرَّسًا بكلّيّته لرسالته.

كان المعمدان يقيم في كوخٍ في محلّة عينون مبنيٍّ فوق أطلال صرحٍ كان لملكيصادق، ينبت العشب بين أنقاضه. وقد أُلهمت الرائية أنّ ذلك المكان عينه سبق أن أقام فيه إبراهيم وملكيصادق ويعقوب، وفي ذلك المكان شقّ النبيّ إيليّا المياه بمعطفه.

وشاهدت الرائية لقاءً بين هيرودس والمعمدان. وكان هيرودس قد أنفذ جنده يدعون يوحنّا إلى قصر هيرودس القائم على مقربةٍ من البحر الميّت ولكنّ المعمدان أجابهم أنّ لا وقت لديه لهذا اللقاء، فإن كان لدى هيرودس أيّ أمرٍ هامٍّ يرغب في بحثه معه فليأتِ إليه، وجاء هيرودس فعلاً والتقيا في خانٍ بضواحي عينون. وبدأ هيرودس بالاستفسار عن سبب إقامة يوحنّا في كوخٍ زريٍّ، بعيدًا عن المدن، ومنّاه ببناء بيتٍ لائقٍ به حيثما شاء، فأجاب يوحنّا بأنّه لا يحتاج إلى مثل هذا البيت، فهو راضٍ بحاله، وأنّه إنّما ينفّذ مشيئة من هو أعظم منه. وطيلة حوارهما لبث المعمدان على مسافةٍ من هيرودس، ولم يلقِ عليه نظرةً، واقتصر على الزهيد من الحديث معه، ولكنّ كلامه اتّسم، دائمًا، بالوقار والسلطان.

وللكهنة الذين كانوا يأتونه مستفسرين عن هويّته، وعمّن أرسله، وعن تعاليمه، كان يردّ بصرامةٍ، مبشّرًا بظهور المسيح الوشيك، وداعيًا إلى التوبة، وآخذًا عليهم رياءهم وتصلّب قلوبهم. أمّا الجباة فقد عمّد عددًا منهم، وكان أحدهم لاوي الذي عرف لاحقًا تحت اسم متّى. ولكنّه وبّخ كثيرين منهم، وأحجم عن تعميد من لم يلمس لديهم نيّة تحوّلٍ وتوبةٍ. وكذلك فعل مع ثلّةٍ من جند هيرودس الذين طلبوا منه العماد بغية اكتساب تقدير الشعب، فلم يعمّد سوى من توسّم لديهم نوايا سليمةً.

وتكاثف الإقبال على يوحنّا طلبًا للعماد، وكان عددهم، أحيانًا، من الكثرة بحيث يقتصر على تبشيرهم.

وأنفذت فئات اليهود الثلاثَ تسعةَ مندوبين لاستدعاء يوحنّا إلى هيكل أورشليم حيث كانوا ينوون استجوابه حول رسالته، وعمّن كلّفه بها، وعن نمط لباسه الهجين، وعن تعميده يهودًا، إذ إنّ العماد كان يُمنح للوثنيّين لا غير، وعن الشائعة التي تقول إنّه إيليّا العائد.

وكان يوحنّا، آن وصول المندوبين، منهمكًا في التعميد، فأرسلوا من يبلّغه واجب المثول أمام سلطات الهيكل، مرتديًا لباسًا لائقًا، فأجابهم بصرامةٍ جعلتهم يعودون أدراجهم، ولم يتلبّث منهم سوى يوسف الأريماثيّ، وابن سمعان الشيخ البكر، حتّى نالا العماد. وانتهز الذين أبى يوحنّا تعميدهم تلك السانحة كي يشكوا لمندوبي الهيكل عدم التزام المعمدان بالعدالة.

وذات ليلةٍ، فيما كان المعمدان راقدًا في كوخه ظهر له ملاكٌ، وأوعز إليه بالانتقال إلى الجانب الآخر من الأردنّ، صوب أريحا، لأنّ من كُلِّف بتمهيد الطريق له قادمٌ. وفي الحال هبّ يوحنّا وتلاميذه، وانطلقوا على ضفّة نهر الأردنّ الشرقيّة، ثمّ اجتازوا النهر، حتّى الضفّة الأُخرى.

وفي هذه الأثناء قدم إليه وفدٌ آخر من قِبَل سلطات الهيكل، وبلّغوه وجوب المثول بين أيديهم، ولكنّه تابع تعميده وتبشيره، وقال لرسل اليهود وأنّ عليهم أن يأتوا إليه إن كان لديهم ما يقولونه له. فجاؤوا، ولكنّه واصل مهمّته غير مبالٍ بهم،

فاضطرّوا إلى سماع عظته. ولّما فرغ منها دعاهم إلى لقائه تحت خيمةٍ أقامها تلاميذه على عجلٍ. وطرح عليه مندوبو الهيكل طائفةً من الأسئلة والاتّهامات، ومّما قالوه أنّ شائعاتٍ منتشرةً تزعم بمجيء المسيح، فأجابهم إنّ المسيح هو حقًّا بين ظهرانيكم، وأنتم تتجاهلونه، وتتجاهلون النبوءات المتعلّقة به، وأقرّ أنّه لم يرَه بعد، ولكنّه مكلّفٌ بإعداد طريقه، وبتعميده، وأنّه سيقوم بهذه المهمّة في غضون ثلاثة أسابيع. وواجههم بالقول: "أمّا أنتم فلم تقدموا إلاّ بغية التجسّس". فكرّروا اتّهامهم له بالتعميد بلا ترخيصٍ، واصفينه بالرياء والنفاق... وانصرفوا.

موقف يوحنّا هذا سعّر غيظ دهاقنة الهيكل، وضاعف قلقهم، فأنفذوا إليه وفدًا ثالثًا مؤلّفًا من ثلاثين مندوبًا بينهم العديد من الكهنة المرتدين زيّهم الكهنوتيّ وقلنسواتهم، كي يبلّغوه أمرًا حاسمًا بالمثول إلى المجمع وتبرير أفعاله الهجينة، مؤكّدين أنّ امتناعه سيُعَدّ برهانًا على قيامه بمهامّه، بلا تكليفٍ رسميٍّ. وردّ عليهم أنّ من كلّفه بهذه المهامّ سيأتي قريبًا، وما عليهم سوى انتظاره. وأدلى بمعلوماتٍ واضحةٍ عن المخلّص الذي وُلِد في بيت لحم، ونشأ في الناصرة، وفرّ إلى مصر... فاتّهموه بالتآمر مع يسوع سرًّيًا، ولكنّه أقرّ بعجزه عن أن يبيّن لأبصارهم المعميّة الرسائل غير المرئيّة التي يتبادلانها... فامتعضوا وانصرفوا.

وما انفكّت قوافل طالبي العماد الضامّة يهودًا ووثنيّين تتدافع صوب المعمدان، وشيئًا فشيئًا انتظم المكان الذي كان يوحنّا يعمّد فيه، ونُصِبَت فيه خيامُ رحبةٌ قادرةٌ على استقبال مرضى، وحجّاجٍ متعبين، حتّى أضحى المكان أشبه بقريةٍ نشطةٍ. وإلى جانب المياه التي كانت موئلاً للعماد، أُقيم ما يشبه مدرسةً للتعليم يلقي منها المعمدان مواعظه ودعواته إلى التوبة والتحوّل الروحيّ.

وما انفكّ هيرودس، من جانبه، يرسل عيونه لمراقبة ما يجري حول يوحنّا، ولّما عقد عزمه على الاقتران بامرأة أخيه، التي كانت قد انضمّت إليه مع ابنتها صالومة ابنة الستّ عشرة سنةً، واصطدم برفض السنهدرين لهذا القران غير الشرعيّ، خطر

له أن يهدّئ نقمة الشعب على خطيئته المفضوحة من خلال دعم نبيٍّ يجلّه الشعب. فيمّم شطر المعمدان ممنّيًا نفسه بأنّ المعمدان قد يرغب في كسب ودّه، فيعلن تأييده له. وجاء في موكبٍ عرمٍ، وأنفذ رسولاً ينبئ بوصوله، وخشي يوحنّا أن يدنّس وجود هيرودس وهيروديا والأميرات الماء الذي يعمّد فيه، فأوقف العماد، وشخص إلى موقع التدريس وأعلن إدانته الصريحة والمبرمة للزواج اللاشرعيّ الذي كان هيرودس عازمًا على عقده، ثمّ خاطب الجمع معلنًا عزمه الإقلاع عن التعميد في ذلك المكان، عقب تعميده من الذي جاء سابقًا له، وممهّدًا لسبيله.

ولّما أحيط هيرودس علمًا بموقف المعمدان، عزف عن لقائه، واكتفى بإيداع لفائف أمامه بيّن فيها مسوّغات ما كان قادمًا على فعله. ورفض يوحنّا لمس هذه اللفائف خشية تدنيس يده المكرّسة للتعميد. وقفل هيرودس راجعًا، ولكنّه كلّف بعض رجاله بالتريّث أملاً في إقناع يوحنّا، ولكن خاب مسعاهم وخاب رجاء سيّدهم.

وكان يوحنّا قد أعدّ مكان تعميد المخلّص بيديه، وزيّنه، في منتصف النهر، وفي المكان عينه الذي كان فيه إيليّا النبيّ قد قسم الماء أقام جزيرةً بيضاء، ووضع مع تلاميذه أحجارًا جسيمةً، مدّوا فوقها عمدًا وأغصانًا جعلوا منها جسرًا إلى الجزيرة، فرشوا سطحه بالحصباء. وغرسوا حول الجزيرة اثنتي عشرة شجرةً، وربطوا قمم بعضها ببعض، وكوّنوا منها سريرًا أخضر. وغرسوا بين الأشجار نبتاتٍ مزهرةً ومثمرةً أضفت على المكان رونقًا. وأحدثوا عند طرف الجزيرة حفرةً امتلأت ماءً زلالاً، وعند مستوى سطح الماء ظهر حجرٌ أحمر أملس ثلاثيّ الشكل كي يقف فوقه يسوع أثناء عماده. ولدى رؤيتهم هذه المعجزة تأثّر الحضور أبلغ تأثّرٍ، وأطلقوا أناشيد الشكر.

صراعٌ مستمرٌ مع هيرودس

لم يفقد هيرودس الأمل في إكراه المعمدان على تأييد قرانه بامرأة أخيه، فجاءه، ثانيةً، في موكبٍ لجبٍ، برفقة هيروديا، المتعجرفة، المزدهية بأفخر حلاها. وعندما

انتهى إلى حيث كان يوحنّا يعمّد، انحدر عن راحلته وخاطب المعمدان الذي كان واقفًا على مسافةٍ منه، والذي لم يكن قد حفل بالبيان الذي أودعه بين يديه وبرّر فيه علاقته الآثمة بزوجة أخيه، ولم يتردّد المعمدان عن إدانته، وحجب العماد عنه، ما لم يعزف عن سلوكه المشين. واستوضحه هيرودس هل يعرف شخصًا يدعى يسوع الناصريّ، كثرت الأحاديث عنه، وهل هو الذي يبشّر به، إذ كان راغبًا في استمالته لدعم مشروع زواجه بهيروديا. فأجابه المعمدان: "لن يصغي إليك هذا الذي تشير إليه أكثر ممّا أنا أصغيت إليك: إنّك زانٍ، وأيًّا كان من تستشيره، ستظلّ زانيًا". وعاتبه هيرودس لأنّه يحرص على محاورته عن بُعدٍ، متجنّبًا الاقتراب منه" فأجابه المعمدان: "لقد كنتَ أعمى، وتفاقم عماك من جرّاء خطيئتك. وإن أنا دنوت منك ستزداد عمى بصيرة. ولكن عندما سأقع بين يدي سلطتك، سترتكب جريمةً، وستندم عنها". وكان يتنبّأ عن جريمة قتله التي سيرتكبها هيرودس. وحينئذٍ انسحب هيرودس وهيروديا غاضبَيْن.

ومنذئذٍ شنّ هيرودس على المعمدان حربًا لا هوادة فيها، من أجل إكراهه على هجر المكان الذي كان يعمّد ويبشّر فيه، ودمّر رجاله مساكن تلاميذ يوحنّا، الذي ارتسمت عليه أمارات الكآبة، وبات يعرب أمام تلاميذه عن تحرّقه لمجيء يسوع كي يعتمد ويباشر رسالته العلنيّة، وتنتهي بذلك مهمّة المعمدان، فينتقل إلى ضفّة النهر الأُخرى.

وقدمت جماعاتٌ من طالبي العماد، استجابةً لتحريض يسوع، وضمّت عددًا من تلاميذ يسوع الذين أكّدوا أنّ وصول المسيح بات وشيكًا. هذا النبأ أسال همّةً متجدّدةً في نفس المعمدان الذي استأنف مهمّته بحميّةٍ، ولكنّ لهجته ارتدت مزيدًا من التواضع، ومن الامّحاء أمام القادم السماويّ، وكان هذا التحوّل يحزن تلاميذ يوحنّا الذي أمسى شاخصًا باستمرار إلى الآفاق منتظرًا بحرقةٍ وصول من سيعلنه للعالم مسيحًا ومخلّصًا.

عماد يسوع وبدء رسالته العلنيّة

وصل يسوع مع إشراقة النهار وكان حشدٌ من طالبي العماد متوجّهين نحو يوحنّا فانضمّ إليهم، كواحدٍ منهم. وكان المعمدان يعلن للجموع اقتراب اعتلان المسيح، وانتهاء مهمّته الممهّدة لظهوره، وضرورة التوبة، وتحوّل النفوس. ومع أنّ يسوع كان منضمًّا إلى الجموع لا يميّزه شيءٌ ظاهرٌ عن أيٍّ منهم، داخَلَ المعمدان شعورٌ بوجوده بينهم، وتوقّف نظره عليه، إذ كان نورٌ سماويٌّ يشعّ منه ويشير إليه، فامتلأ حبورًا، وأكمل عظته، واستأنف عمليّة العماد. وبعد أن نال كثيرون العماد تقدّم يسوع، فانحنى يوحنّا أمامه قائلاً: "عليّ أنا نيل العماد عن يديك، وأنت تأتي إليّ!" فأجابه المخلّص: "دع عنك هذا الآن: فلكي نتمّم كلّ برٍّ ينبغي أن تعمّدني أنت، وعليّ أنا تلقّي العماد منك... وأنت ستتلقّى عماد الروح القدس والدم". حينئذٍ دعاه يوحنّا إلى مواكبته إلى الجزيرة التي كان قد أعدّها لعماده، فقال يسوع إنّه سيفعل ذلك شرط أن ينقل الماء المستخدم في عماد الجموع إلى الحوض المعدّ لعماده هو، وأن يعمّد الجميع القادمين في نفس المكان. وأن تنقل الشجرة التي سيستند إليها، عقب عماده، إلى حيث يعمَّد الجميع، لكي يستفيدوا منها مثله.

وواكب يسوع تلاميذه التسعة الذين لازموه في الأشهر السالفة. انحنى يوحنّا الذي كان واقفًا على حافّة الحوض، وملأ قصعة ماءً، وأسال ثلاث سكباتٍ منها على رأس المخلّص، بلّلت إحداها الجزء الخلفيّ من رأسه، والثانية منتصفه، والثالثة جبينه ووجهه، وفي هذه الأثناء كان يوحنّا يستنْزل على يسوع البركات، ونعم الحكمة، والذكاء والقوّة. ثمّ وقف يسوع على الحجر الأحمر مثلّث الشكل، وجفّف جسده، وارتدى ثوبًا أبيض طويلاً، وفيما كان اثنان من تلاميذه يضعان أيديهما على كتفيه وضع المعمدان يده على رأسه.

وفيما كان يسوع يصلّي وحيدًا فوق حجرٍ، دوّى ما يحاكي صوت رعدٍ، جفّل الحاضرين الذين شخصوا بأبصارهم إلى السماء، ومنه سُمع صوتٌ يقول: "هذا هو ابني الحبيب، الذي أودعته رضاي". وظلّلت يسوع غمامةٌ بيضاء نيّرةٌ، غمرته بنورٍ

باهر، وشاهدته الرائية، حينئذٍ، محفوفًا بالملائكة، في حين رأت، فوق المياه، أشكالاً قاتمةً قميئةً، تمثّل إبليس وموكبه المريع من أفاعٍ ووحوشٍ بشعةٍ، وكأنّ كلّ ما انطوى عليه عالم الشرّ من خطايا وآثامٍ وسمومٍ قد تجمّع في ملك الظلمة. بشاعة هذا المشهد أبرزت بهاء مشهد يسوع وموكبه المتألّق والمشعّ.

انتحى يسوع في خيمةٍ محاذيةٍ لحوض العماد وارتدى ثيابه، وجاء إلى وسط الجزيرة حيث وقف محاطًا بتلاميذه. واستحوذت نشوة فرحٍ على يوحنّا، فاستفاض في الشهادة ليسوع، مؤكّدًا أنّه ابن الله والمسيح الموعود، الذي به تتحقّق النبوءات. وباح بما رأى وأشاد بالصوت السماويّ الذي سمعه جميع الموجودين، منوّهًا بأنّ المكان الذي يقف فيه يسوع هو المكان عينه الذي كان تابوت العهد قد أُودع فيه، ما يرمز إلى أنّ الله يعقد عهدًا جديدًا مع البشر من خلال ابنه يسوع، الذي سيدمغ هذا العهد بطابع كماله. وأهاب بالجميع اتّباعه، شاكرًا لله هذا النهار الفريد، نهار تحقيق وعد الخلاص. وأعلن أنّه سينسحب فور عودة يسوع.

وأيّد يسوع أقوال المعمدان، ثمّ أعلن أنّه سينأى فترةً، وعند عودته سيشفي المرضى وسيواسي الحزانى، ودعا الجميع إلى التأهّب لعودته بالتوبة وأعمال البرّ.

وواصل المعمدان التعميد في الحوض الذي عمّد فيه يسوع، وقد أضحى معظم الذين عمّدهم يومذاك من أتباع يسوع. أمّا يسوع فكان، في مسيرته نحو الصحراء، يتوقّف في المجامع ويبشّر بالخلاص وبقدوم ملكوت الله، داعيًا من يرغبون في اتّباعه إلى التخلّي عن كلّ شيءٍ أرضيٍّ، فالوقت وقت حصادٍ وليس وقت تلةٍّ. وكان سامعوه يُعجبون بكلامه، ولكنّ كثيرين منهم كانوا يفسّرونه تفسيرًا أرضيًّا لا علاقة له بمقاصده السامية الحقيقيّة.

وفي أثناء الطريق لم يكفّ عن إرشاد تلاميذه. فقد مرّوا تحت أشجار نخيلٍ وكانت بعض ثمارها قد وقعت أرضًا ولكنّهم تحرّجوا من تناولها، فأكّد لهم أنّ الطهر يكمن في نقاء القلوب والأقوال، ولا شيء ممّا يدخل الفمّ ينجّس. وفي بعض

القرى التي كانوا يجتازونها كان بعض تلاميذه يدخلون بيوت القوم ويطلعونهم عمّا عرفوه عن يسوع، وعمّا قالت السماء عنه أثناء عماده، وعمّا اعترف به يوحنّا نفسه أي كونه مجرّد ممهّد لدرب يسوع. وحينئذٍ كان القوم يتدافعون صوب يسوع فيعلّمهم ويباركهم.

وممّا قاله يسوع لتلاميذه أنّ إعلان الآب: "هذا هو ابني الحبيب" ينسحب على كلّ من يتلقّى عماد الروح القدس.

وقد مرّ يسوع في الأماكن التي كانت توقّفت فيها أُمّه في طريقها إلى بيت لحم، مباركًا أبناء الذين أحسنوا وفادتها، وموبّخًا الذين أوصدوا أبوابهم دونها. وكان كثيرون من هؤلاء وأولئك قد أُخبروا بما حدث يوم وُلد يسوع، وبحضور المجوس لعبادته، وبنبوءات سمعان وحنّة بشأنه، وبهربه إلى مصر، وتعليمه المدهش في الهيكل وهو فتًى.

وذات يومٍ، مرّ على مقربةٍ من المكان الذي كان يعلّم فيه، عمّالٌ قادمون من سنجار، حاملين أدوات عملهم من فؤوسٍ ورفوشٍ، بعد أن أنجزوا أعمال بناءٍ، وتوقّفوا بعيدًا عن المكان، مستمعين إلى أقوال يسوع، غير متجاسرين على الاقتراب خوفًا من اليهود الذين يمقتونهم ويزدرونهم، فاستدعاهم وأجلسهم بقربه، وأكّد لهم أنّ الآب يدعو البشر أجمعين، ويساوي بين جميع الذين يتوبون ويتلقّون العماد. فاطّرحوا عند قدميه وتوسّلوا أن يزورهم في موطنهم السامرة. فوعدهم بزيارتهم بعد أن يرسي قواعد الملكوت الذي جاء ليقيمه.

واقتاده الرعاة على الدروب التي كانت أُمّه قد سلكتها، ولكنّهم دُهشوا من معرفته لهذه الدروب أكثر منهم، وقدّروا تأثّره بخطى أُمّه.

كانت الجموع تتقاطر لسماعه حيثما مرّ. وفي الليل كان ينتحي على تلّةٍ كي يناجي أباه. هذا السهر الليليّ في مناخٍ يتّسم غالبًا بالبرودة، وتقشّفه في مأكله، وسيره معظم الأحيان حافي القدمين، كلّ تلك الممارسات كانت تقلق تلاميذه

وتملأهم خوفًا عليه. فتوسّلوا إليه أن يرحم جسده، فشكر لهم اهتمامهم، ولكنّه لم يبدّل شيئًا من سلوكه.

وذات صباحٍ، انحدر إلى وادي الرعاة الذين كانوا قد أخطرهم وحيٌ سماويٌّ بقدومه، فشخصت أبصارهم وقلوبهم إلى المكان الذي سيأتي منه، وشاهدوه محاطًا بالنور. فأولئك القوم البسطاء كانوا يتمتّعون بنعَمٍ فائقةٍ. وفور وصوله، أطلقوا الأبواق داعين الرعاة الجيران الذين تهافتوا لسماعه، منشدين المزامير، فروى لهم أمثالاً من بيئتهم. وشكر جميع الذين كرّموا ميلاده، وبارك أبناءهم، وقال لهم إنّه سيكون الراعي اليقظ على جميع أتباعه. وروى له شيوخهم ذكرياتهم عن مولده، وعن زيارة ملوك المشرق الذين أغدقوا عليهم الهبات، وعن زياراتهم للمغارة التي كان يرقد فيها.

وفي المساء أخطر تلاميذه أنّه سيمضي بمفرده كي يزور ويشكر جميع الذين ساعدوا أُمّه ويوسف أثناء فرارهم إلى مصر، وكي يشفي مرضاهم، وهدى الضالّين منهم إلى سواء السبيل، فقد كان حريصًا على خلاص جميع الذين أحسنوا وفادة أُسرته.

وعند تخوم الأراضي الواقعة تحت حكم هيرودس دخل فندقًا أصحابه لصوصٌ، ولكنّهم كانوا قد أحسنوا وفادة أُسرته في هربها، وطلب الإقامة حيث أقامت تلك الأسرة، وكان الرجل الذي استقبلهم حينذاك موجودًا، وقد تخطّى الخمسين من عمره، وما إن حيّاه يسوع ونظر إليه حتّى نفذ شعاع نورٍ إلى أعماق قلبه، وخضّه، فقال ليسوع: "يا ربّ، لكأنّ أرض الميعاد ذاتها تأتي إلى بيتي". وبيّن له يسوع أنّه إنّما جاء إليه لأنّه قد رحّب بأمّه وبيوسف وبه إذ كان طفلاً، حين كانوا فارّين إلى مصر، وقد حان لعمله الصالح آنذاك أن يؤتي ثماره.

فاطّرح الرجل أرضًا، هاتفًا: "يا ربّ، كيف تأتي إلى بيت إنسانٍ ملعونٍ، مثلي؟"، واستفاض في سرد آثامه، وخطايا ذويه وأبناء قريته. وأجابه يسوع أنّه إنّما هو جاء كي يردّ الخطأة إلى دروب التوبة ويطهّرهم من آثامهم. وقام الرجل فغسل قدمي يسوع، وقدّم له ما تيسّر من طعامٍ، ثمّ أخبره أنّ بعضًا من أحفاده

مصابون بالبرص، وبعضهم مقعدون، فدخل يسوع إلى حيث كانوا يقيمون، وأمرهم بالنهوض، فهبّوا واقفين معافين. وأُخبر أيضًا بأنّ هناك نساءً مصاباتٍ بأمراضٍ، فاستحضر ماءً، وسكب فيه بضع قطرات من ماء عماده، ودعاهم إلى الاغتسال به، فشفينَ. وسرعان ما ذاع النبأ وتقاطر الجيران لرؤية النبيّ وسماعه. فحدّثهم عن الطهارة والعفّة، وحذّرهم من العلاقات اللاشرعيّة واللاأخلاقيّة، ومن مغبّاتها الروحيّة والجسديّة.

وكان قد ضرب لتلاميذه موعدًا في وادٍ فالتقاهم هناك، واقتادهم إلى مغارةٍ واسعةٍ يصار إليها عبر دروبٍ وعرةٍ. وكانت العيلة المقدّسة، في أثناء هروبها إلى مصر، قد اتّخذت منها موئل استراحة سادسًا. وإلى تلك المغارة كان قد لاذ النبيّ صاموئيل عدّة مرّات، وإليها كان نُفي النبيّ داود لمّا كان يرعى قطعان أبيه، وفيها كان يطيب له أن يصلّي وينشد، وكانت العيلة المقدّسة قد وصلت إليها في حالةٍ من الإعياء والإملاق استدرّت دموع مريم، فجاءت إليهم عنْزةٌ وقدّمت لهم حليبها. وفي تلك المغارة تفجّر نبع ماءٍ روى عطش العيلة ووفّر لها ماءً للاغتسال. باح يسوع، إذن، لتلاميذه بما عانته أُسرته هناك، وأنذرهم بما سيعانون، هم أنفسهم، من جرّاء اتّباعهم له.

وفي الغد تابع مسيرته في ضواحي بيت لحم، شاكرًا ومعزّيًا، ومبشّرًا الرعاة الذين قدّموا عونًا لأُسرته، لمّا كان طفلاً.

ثمّ، في الصباح الباكر، توجّه مع تلاميذه صوب الأُردنّ يواكبه حشدٌ غفيرٌ، ولمّا صار على مسافة ربع فرسخٍ من الكوخ الذي اتّخذ منه المعمدان منبرًا للتعليم، حلّ الروح على يوحنّا فأشار من بعيدٍ إلى يسوع هاتفًا: "هوذا حمل الله الذي يزيل خطيئة العالم!". فهرع الكثيرون ممّن سمعوا هذا القول للالتحاق بيسوع. ولكنّ يسوع كان قد أضحى بعيدًا. وجديرٌ بالتنويه أنّ ذلك الحدث جرى غداة عيد التكفير، الذي أَلِف اليهود فيه التضحية بكبش الفداء الذي يحمّله رئيس الكهنة كلّ اللعنات التي يودّ تحرير الشعب منها.

وشكا تلاميذ يوحنّا من تكاثر أعداد أتباع يسوع، ومن عكوف تلاميذه على التعميد، معبّرين عن سخطهم وخشيتهم من تهميش المعمدان وتلاميذه. فكانت تلك سانحةً ليوحنّا كي يذكّر بما سبق له تأكيده أنّه إنّما أُرسل كي يمهّد الطريق للمسيح الحقّ وأنّه هو خادمٌ متواضعٌ للمعلّم، ولكن هذا القول لم يرُق لجميع تلاميذه الذين كانت تعتمل فيهم غيرةٌ حيال تلاميذ يسوع.

وكان الأولاد الذين يشهدون موكب المخلّص ينضمّون إليه منشدين الأناشيد. أو يهرعون إلى ذويهم كي ينبئوهم بقدومه.

وتوقّف يسوع في مكانٍ مقدّسٍ لدى اليهود، كان ملتقى الأنبياء، وعلى مقربةٍ من حائط الختان. هناك كان موسى قد توفّي ودُفن، وهناك أعلن يشوع بن نون وصيّته التي تتضمّن ستّ لعناتٍ وستّ بركاتٍ، وبهذا أشار يسوع إلى انتهاء العهد القديم، وولادة عهدٍ جديدٍ بلعناته وتطوبياته، وحيث يحلُّ العماد محلّ الختان، وتحلّ التطوبيات الإنجيليّة محلّ الوصايا.

ودعا يسوع سامعيه إلى التوبة وإلى العزم على تجنّب الخطيئة، وفي المدارس حرّض الفتيات على الحشمة، وأبدى الكثير من المودّة للأولاد الذين بادلوه المودّة والمحبّة.

في هذه الأثناء كانت قد شاعت الأقاويل حول يسوع، وأقلقت الفرّيسيّين ورؤساء الكهنة. فعقدوا اجتماعات، وتبادلوا مشاوراتٍ، وعيّنوا عشرين شخصًا منهم لمراقبته وتعقّبه، وترويج الأكاذيب عنه. وبما أنّ أبحاثهم أثبتت تحدّر مريم ويوسف من جذع داود وهارون، فقد أفتوا أنّه أفسد هذا المحتد باختلاطه بالخطأة والعشّارين والوثنيّين وتعاطفه مع العمّال السامريّين، ونسبوا إليه عزمه على إضرام ثوراتٍ شعبيّةٍ، وبما أنّه كان يقضي لياليه في الفلاة يصلّي، استنتجوا وروّجوا أنّه يتلقّى تعليمًا من الشيطان. ولكنّ بعض المكلّفين بمراقبته قد آمنوا بقداسته، وكتموا تكريمهم له لكي يستطيعوا تحذيره وخدمته، وكذلك تحذير تلاميذه وخدمتهم، في الأوقات الحرجة.

يسوع في الصحراء - صيامه

كان يسوع قد أنبأ أصدقاءه عزمه على الاعتزال في الصحراء تأهّبًا لمباشرة رسالته الشاقّة. ولكنّه لم يطلعهم على اعتزامه الصوم.

على مسافة فرسخٍ من أريحا تسلّق تلّةً تطلّ على منظرٍ رحبٍ، تكسو قسمًا منها الأشواك، وبعضها الآخر أجرد، موحشٌ، وعرٌ، وهي تُدعى اليوم تلّة الأربعين. وفي إحدى قممها ثلاث مغاراتٍ متراتبةٍ، تعلو إحداها الأُخرى، وقد فاء إلى عُلياها الجاثمة فوق جرفٍ سحيقٍ مظلمٍ، تتخلّله فُلَقٌ مريعةٌ. في ذلك المكان أَلِف النبيّ إيليّا أن ينتحي.

في تلك المغارة رأى يسوع الآلام المريعة المعدّة له، فكان يركع ويبسط يديه سائلاً أباه أن يساعد طبيعته البشريّة على احتمالها، وكانت ملائكةٌ تأتي إليه وتبثّه العزاء. وبذلك اكتسب لنا يسوع كلّ ما يحتاج إليه المؤمنون به من دعمٍ، وتشجيعٍ، وقوّةٍ على الاحتمال والتغلّب على التجارب، وعلى ممارسة التضحيات.

في الصباح الباكر اجتاز الأردنّ وانتهى إلى تلالٍ أشدّ وحشةً، حيث اعتزم الصوم أربعين يومًا. وهنا شرع إبليس يراوده. فبعد أن رأى بالروح جسامة الآلام والأهوال المعدّة له تساءل: "هل عليّ أن أُعاني كلّ هذا من أجل شعبٍ فاسدٍ؟" ولكن سرعان ما تغلّبت رحمته ومحبّته من هذه الهجمة الأولى.

وفيما كان راكعًا يخاطب أباه، ظهرت لعيني نفسه، كلّ خطايا العالم، منذ سقطة الإنسان الأوّل حتّى انتهاء العالم. ورانت عليه هذه المشاهد وكأنّها أكداس غيومٍ وعواصف، ورأى كلَّ ما سيقاسيه من جرّائها، وكلّ ما ينتج عنها من ربحٍ وخسارةٍ.

وعاينت الرائية إبليس يتسلّل إلى مدخل المغارة محدثًا ضجيجًا، وقد تموّه بزيّ ابن أرملةٍ كان يسوع قد شفاها من علّةٍ، ساعيًا إلى إثارة غيظ الربّ لظنّه أنّ أحد تلاميذه تأثّر خطاه خلسةً، متحدّيًا إيعازه لتلاميذه ألاّ يزعجوا خلوته. ثمّ راح يروي أكاذيب عن المعمدان زاعمًا أنّه اغتاظ لأنّ يسوع عمّد في أماكن عديدة، بلا تكليفٍ من أحدٍ. ولكنّ يسوع تجاهله تمامًا، ولم يلقِ عليه مجرّد نظرةٍ.

وذات مرّةٍ، عاينت الرائية يسوع راقدًا ووجهه على الأرض، وشاهدت قدميه محروثتين بالجراح، من جرّاء سيره حافيًا على أراضٍ وعرةٍ وشائكةٍ، وفجأةً دوّت السماء، وأضاء المغارة نورٌ سماويٌّ، وظهرت ثلّةٌ من الملائكة، سجدوا له واستأذنوا بإتمام مهمّتهم، بعد أن استوضحوه عن عزمه المضيّ قدمًا في التألّم، بطبيعته الإنسانيّة، افتداءً لإخوته، الذين من أجلهم انحدر من السماء وتجسّد من مريم العذراء، فأكّد لهم اعتزامه تجرّع كأس المرارة حتّى الثمالة. وحينئذٍ نصبوا أمامه صليبًا كانوا قد جاؤوا بأجزائه، وأفرغوا سلالاً تحتوي أدوات التعذيب وملابس الاستهزاء التي سيلبسه اليهود إيّاها، ورأى يسوع كلّ ما سيواكب آلامه من خياناتٍ وإهاناتٍ.

وفي أحد الأيّام ظهر له إبليس بشكل ثلّةٍ من تلاميذه تسلّلوا إلى المغارة كي يترجّوه إيقاف صيامه لكيلا يموت جوعًا، ويدعهم عزّلاً، وأن يكفّ عن أقواله وأفعاله التي تثير سخط الفرّيسيّين والكهنة وتُعرِّضه لانتقامهم. واكتفى يسوع بالردّ: "ابعد عنّي يا إبليس، لم يحن الوقت".

وفي يومٍ آخر جاءه رجلٌ شيخٌ، وقور المظهر، ولكنّه خائر القوى متهالكٌ، وتوقّل بمشقّةٍ سفح التلّة المفضي إلى المغارة، وعند مدخلها وقع إعياءً، وهو يتأوّه. ولكنّ يسوع لم يلتفت إليه. وبجهدٍ نهض الشيخ واقفًا، ودنا من يسوع وقال: "أنا أسّينيٌّ، مقيمٌ في جبل الكرمل، تنامت إليّ أخبارك، ومع أنّني أَحتضر جررتُ نفسي إليك". ورجاه أن يجلس ويحدّثه عن أمور الله، فهو، أيضًا، خبيرٌ بالصوم والصلاة، متوقّعًا لتعاونهما أن يؤتي ثمارًا وفيرةً. واكتفى يسوع بالردّ: "إبعد عنّي، يا إبليس، فالأوان لم يحن بعد"، فاكفهرّ وجه الشرّير وتميّز غضبًا، وتلاشى.

لم يكن إبليس على علمٍ بألوهة يسوع، ولم يرَ فيه إلاّ نبيًّا، وكان قد لحظ أمارات القداسة عليه منذ صباه، وكذلك قداسة أُمّه، التي، رغم جمالها، لم يحُم حولها رجلٌ حتّى أُكرهت على الزواج حسب التقاليد، والتي لم يجد فيها إبليس موطن ضعفٍ يتسلّل منه كي يُجرّبها. أمّا المخلّص الذي لحظ لهجته الصارمة حيال

رياء الفرّيسيّين، فقد خيّل إليه القدرة على إثارة سخطه على تلاميذه عندما يخالفون إرادته، فاستخدم حيلته الأولى، كما أنّه قد لحظ لهفته على المرضى والمحتاجين فتلبّس شكل شيخٍ متهافتٍ. ولكن هل من خداعٍ يضلّل نظر الله؟

وكانت المغارة التي يقضي فيها يسوع أيّامه ولياليه مصلّيًا مثابةً لملائكةٍ يدخلون ويخرجون ويبثّونه العزاء. في حين لم يكفّ إبليس عن استنباط الخدع للإيقاع بيسوع وثنيه عن صومه وعن الرسالة التي يتأهّب لها، والتي كان الشرّير يتوجّس منها خشيةً على سلطانه. وكان يسوع كلّما راوده إبليس بإحدى حِيَله يرفع نظره إلى السماء، ويستغيث بأبيه، فيتوارى المجرّب.

وأحيانًا كانت العواصف تزمجر حول المغارة وتنهمر الأمطار، وكُرات البَرَد، ومن خلالها تتراءى مناظر فسق العالم، والوهاد التي تتردّى إليها الكنيسة ويتردّى إليها ممثّلوها، بين حينٍ وحينٍ، وسط النعم السميا الغزيرة التي كان يغمرها بها.

وكان كلّما رأى بالروح مشاهد نكران الجميل، والشكّ، والمهانة، والخيانة، ومواطن بطلان تضحياته وآلامه، ينتابه الجوع والعطش، وحينئذٍ كانت تتسارع الملائكة إلى تعزيته ومساندته.

وأخيرًا تسلّق إبليس التلّة حاملاً حجرين، جاهدًا في عجنهما على شكل رغيف خبزٍ، ودعاه إلى تحويلهما إلى خبزٍ حقيقيٍّ، فردّ يسوع، من غير أن يلقي نظرةً عليه وعلى ما يحمل: "ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان". وحينئذٍ فجّر إبليس براكين غيظه، وأشهر مخالبه، وكأنّه يبتغي افتراس يسوع، وانسحب خائبًا.

وبالإجمال كان كلّ يومٍ من هذه الأيّام الأربعين التي أنفقها الربّ صائمًا ومصلّيًا مستودعًا يدّخر فيه لأتباعه، على مدى العصور وتعاقب الأجيال نِعَمًا جلّى، وقوى تساعدهم على الصبر والصمود.

مساء اليوم التالي جاء إبليس مموّهًا بشكل ملاكٍ جبّارٍ، في جلَبَةٍ مدوّيةٍ، مزدانًا بسلاحٍ شبيهٍ بذاك الذي يصوّر الملاك ميخائيل متّشحًا به. ولكن رغم الأبّهة التي

كان يزدهي بها كانت تتجلّى عليه مخايل الحزن والحقد. وبكثيرٍ من الادّعاء قال ليسوع: "أريد أن أُريك من أنا، وما هي قدراتي، وكيف أنّ ملائكتي تسندني بأكفّها. هذه هي أورشليم، وهو ذا هيكلها، وأنا سأُقلّك إلى أرفع ذروةٍ فيه، فأَظهر هناك قدراتك، ولنرَ هل ستحملك الملائكة. لم يفُه يسوع بأيّ جوابٍ، ولكن إبليس أمسكه بكتفيه، وطار به حتّى أورشليم، ووضعه على قمّة أحد الأبراج الأربعة المطلّة من الجهات الأربع على فناء الهيكل. وفيما كان يسوع معتصمًا بالصمت، انحدر إبليس إلى أسفل البرج، وقال له: "إن كنت ابن الله، فألقِ بنفسك، لأنّه مكتوبٌ: إنّه يأمر ملائكته بحملك بأيديهم لكيلا تصدم رجلك بحجرٍ" فردّ عليه يسوع: "إنّه مكتوبٌ أيضًا: لا تجرّب الله إلهك". فأخذ السخط بإبليس كلّ مأخذٍ، وعاد إلى يسوع وأخذه من كتفيه وطار به صوب أريحا، محلّقًا فوق الصحراء، وكان يتأرجح في طيرانه صعودًا وهبوطًا، فقد كان السخط يتعتعه، وحطّ بيسوع على الجبل الذي كان قد باشر عليه صيامه، فوق صخرةٍ لا تُطال، مطلّةٍ على هاويةٍ. وكان الليل قد حلّ، ولكنّ إبليس أشار إلى الأُفق، فاستضاء كلّ شيء، وتراءت من كلّ صوب، مناطق العالم الرائعة. وخاطب إبليس يسوع قائلاً: "إنّي أعلم أنّك معلّمٌ جهبذٌ، ترغب في أن يكون لك تلاميذ ينشرون تعاليمك. فتأمّل هذه البلدان الرائعة، وهذه الأمم القديرة، والتي، بإزائها لا شأن لليهوديّة. فإلى هناك ينبغي أن تمضي. وأنا سأهبك إيّاها كلّها إن سجدت لي وعبدتني". وفيما كان إبليس يشير بإصبعه، كانت تظهر ممالك تحيط بها بحارٌ، ومدنٌ، وملوكٌ في كلّ مجدهم، محاطون بجيوشهم. وكانت كلّ تلك المظاهر تبدو بكلّ وضوحٍ وبهاءٍ. وأفاض إبليس في امتداح تلك البلدان وفي فائدة السيطرة عليها، ونشر التعاليم فيها. واكتفى يسوع بالردّ: "إبعد عنّي يا إبليس: الربّ إلهك وحده تعبد، وإيّاه وحده تخدم". وحينئذٍ اكتسى إبليس بشاعةً مريعةً، وتردّى إلى هوّةٍ ابتلعته. وهرعت ثلّةٌ من الملائكة إلى يسوع، حملته برفقٍ، وأعادته إلى المغارة التي كان معتكفًا فيها، حيث احتفلت بانتصاره على قوى الشرّ.

وعاد يسوع إلى منطقة الأردنّ.

في أثناء غياب يسوع وصيامه كانت أُمّه العذراء في قانا لدى أنسباء لها يعدّون لعرس ابنهم. وكانت شهرة يسوع قد انتشرت ولا سيّما عقب عماده، وما واكبها من ظواهر سماويّةٍ، وما قاله المعمدان عنه. غير أنّ بعض النسوة اللائي لا يقوينَ على العيش من غير نميمةٍ، كنّ يختلفنَ إلى أُمّه ويستفضنَ في لومه لتركه أُمّه وحيدةً، عوضًا عن ممارسة مهنةٍ تمكّنها من العيش بكرامة. ولكنّ العذراء لم تأبه بهذه الترّهات، بل كانت مستغرقةً في التأمّل، وكان ابنها الغائب، جسديًّا، يسكن كلّ كيانها، وكانت هي تشاركه كلّ مشاعره.

أتباع يسوع

ما انفكّ يوحنّا يعمّد، وقد انتابه وانتاب المعمّدين شعورٌ بأنّ الماء أمسى مقدّسًا وأنّه كان يحدث تحوّلاً في قلوبهم ونفوسهم. غير أنّ هيرودس لم يكفّ عن إنفاذ رسله وعيونه للمراقبة، ويلحّ كي يزوّده يوحنّا بمعلوماتٍ عن يسوع الناصريّ، ولكنّ يوحنّا لم يُضِفْ كلمةً واحدةً إلى ما كان قد أدلى به سابقًا. وكان تلاميذ يسوع يستصحبون دائمًا بعضًا من الماء الذي تعمّد فيه يسوع ويضيفونه إلى الماء الذي يستخدمونه للعماد أينما وُجدوا.

وفيما كان يسوع، ذات يومٍ، مارًّا على ضفاف الأردنّ، لمحه المعمدان فأشار إليه وقال: "هذا هو حمل الله، الذي يزيل خطيئة العالم". وفي الحال هبّ أندراوس وتلميذٌ آخر من تلاميذ يوحنّا وتبعا يسوع، فالتفت إليهما الربّ وقال لهما: "عمَّ تبحثان؟"، فأجاب أندراوس: "أين تقيم؟"، قال: "تعاليا وانظرا". فصحباه إلى مكان إقامته، ومكثا معه ذلك النهار، وتناولا معه الطعام. وأطلعهما الربّ على اعتزامه مباشرة رسالته، فأعرب أندراوس عن رغبته في الانضواء إلى مدرسته ورسالته، وذكر أسماء أخيه سمعان وآخرين يجدهم جديرين، أيضًا، باتّباعه. وأنبأهما يسوع بأنّ مهمّة المعمدان قد دنت من نهايتها، وأنّ على الراغبين في اتّباعه التأهّب لهذه المهمّة. وأوعز إليهم إعداد حوض معموديّة كان يوحنّا قد استخدمه في "عينون"

قبل انتقاله إلى ضفّة الأردنّ الغربيّة. ثمّ وافى مع التلاميذ الذين انضمّوا إليه، يتبعهم حشدٌ كثيفٌ إلى ذلك المكان، وكان أندراوس قد جاء بقربةٍ مملوءةٍ من الماء الذي تعمّد فيه يسوع، وأراقه في حوض العماد. وأخذوا يعمّدون. وتقاطر القوم حشودًا لنيل العماد، ثمّ كانوا يعودون متأثّرين في أعماقهم.

وكان يسوع يعلّم الجموع، موضحًا أنّ كلّ من يتوب عن خطاياه ويتعمّد باسم الآب والابن والروح القدس، يصبح مثله ابن الله، وموضع رضاه، ويولد إلى حياةٍ جديدةٍ، وفي كلّ مكانٍ يغشاه، كان يسوع يشخص إلى المجمع ويعلّم بأمثالٍ تيسّر فهم أقواله، وكان السامعون يُفتنون بهذه الأقوال التي لم يسمعوا لها مثيلاً، وكان شيوخهم يقرّون بأنّ تعليمه يذكّرهم بتعليم الأنبياء، حسبما وصفه أجدادهم.

حينئذٍ لم يكن يسوع قد اختار أندراوس في عداد تلاميذه، بل إنّ أندراوس قد اندفع تلقائيًّا في إثر الربّ، في حين ظلّ أخوه سمعان متردّدًا، عادًّا ذاته غير جديرٍ بهذه المهمّة، ولا مؤهّلاً لها. وراودت الرغبة في اتّباع يسوع العديدين من تلاميذ يوحنّا، ولكنّهم كانوا يخشون جرح مشاعر المعمدان إن هم مالوا عنه إلى يسوع، فكان يوحنّا يأخذ عليهم ضيق تفكيرهم وحكمهم ويذكّرهم بأنّه هو نفسه إنّما جاء كي يمهّد طريق المخلّص، داعيًا العالم إلى الإيمان به وإلى اتّباعه.

غير أنّ جماعةً من الفرّيسيّين قد بدأت تناوئه، ساخرةً من وجود عمادين: واحدٍ يجريه يوحنّا، وآخر يجريه يسوع، ومتسائلةً بهزءٍ أيّهما أصحٌّ، وما جدوى ذلك بوجود الشريعة التي نظّمت كلّ شيء.

وردّ يسوع عليهم بأَنّ أجدادهم أضاعوا تابوت العهد الذي أُعطوه، وها هم مقبلون على إضاعة العهد الجديد الذي يهبهم إيّاه الله. وعندما أبدوا رغبةً في مناقشته بدأ هو بامتحانهم، اثنين اثنين، طارحًا عليهم أسئلةً، فشلوا جميعهم في الإجابة عليها، فاغتاظوا وخسئوا، وتدافعوا منسحبين خارجًا، الواحد تلو الآخر.

دعوة بطرس، وفيلبّس ونثنائيل

عاد أندراوس إلى أُسرته في بيت صيدا، وبشّر أخاه سمعان أنّه وجد المسيح. وتواعدا على مقابلته لدى عودته إلى الجليل. ثمّ قصدا معًا نثنائيل الذي كانا يقيّمانه أرفع تقييم. وكان يسوع موضع اهتمام جميعهم، غير أنّ نثنائيل كان أقلّهم اهتمامًا بشأنهِ.

وجاء سمعان ويوحنّا كي يصطادا في قريةٍ غير بعيدةٍ عن طبريّا، فأقنعهما أندراوس بالتقاء الربّ. ومذ رأى يسوع سمعان باغته بقوله: "أنت سمعان بن يونا، وفي المقبل من الأيّام، ستُدعى كيفا". واكتفى بهذا القول، أمّا يوحنّا الذي كان يعرفه فأكّد له أنّهما لن يلبثا أن يلتقيا. وعاد سمعان ويوحنّا إلى زوارق صيدهما، ولبث أندراوس مع يسوع ومعًا قصدا مركز صيدٍ على ضفّة طبريّا. وفي اليوم التالي اعتلى يسوع وثلّةٌ من أتباعه الجدُد تلّة، وانتحى وحيدًا ليصلّي، فاسحًا لأتباعه التناقش والتباحث في ما شهدوا وسمعوا بشأنه.

وفي هذه الأثناء استمرّ أندراوس يدعو أخاه بطرس ورفاقه إلى حضور تعليم يسوع في كفرناحوم، يوم السبت.

في كفرناحوم أقام يسوع وأندراوس ولعازر، وثلّةٌ من التلاميذ في بيتٍ يخصّ نثنائيل الذي كانت الاستعدادات جاريةً لعرسه. وفيما كان نثنائيل ما زال متحفّظًا بشأن يسوع، كان أندراوس لا يني يتحدّث عنه بإعجابٍ، ويؤكّد للجميع أنّ مجرّد الاستماع إليه كافٍ لاقتفاء خطاه. وكان قد انضمّ إلى يسوع أبناء خالته المدعوّون إخوة الربّ.

يوم السبت خطب يسوع في المجمع حيث تراصّ حشدٌ من أصدقائه وأنسبائه وأهل المدينة. فتحدّث عن اقتراب حلول الملكوت، واستفاض في سرد أمثالٍ ذات مرامٍ عميقةٍ، فعلى سبيل المثال، تحدّث عن المصباح الذي لا يسوغ إخفاؤه وحجبه، بل يجب وضعه على مشكاةٍ عاليةٍ كي يرى الجميع نوره، وعن مصير البذار الذي ينثره الزارع، وعن الإيمان الذي ينمو مثل بذرة خردلٍ تصبح شجرةً وارفةً.

أُسلوب تعليمه كان فريدًا، لم يسبقه إلى مثله أحدٌ، وكان تأثيره ينفذ إلى أعماق القلوب والضمائر. وكان في كلّ مرّةٍ يعطي لأمثاله تفسيراتٍ قشيبةً تخترق الأذهان والنفوس.

بعدئذٍ قصد يسوع وتلاميذه سهلاً منعزلاً، يرافقه أبناء خالته مريم، وابنا زبدى، في حين كان فيلبّس يلحقهم خجلاً متردّدًا وحيدًا، والتفت إليه يسوع وقال له: "إتبعني يا فيلبّس"، فغمر الفرح نفسَ فيليبّس وانضمّ إلى الآخرين.

كان أندراوس يتلهّف رغبةً في أن يؤمن الجميع بيسوع مثلما آمن هو، وأن يتبعوه في مثل الاندفاع الذي كان يحدوه، وبالتالي لم يكن يكفّ عن سرد ما حدث في أثناء عماده، وما شهد عنه المعمدان، أمّا يسوع فوعدهم بأنّهم سيرون أعظم من هذه المعجزات، مؤكّدًا للراغبين في اتّباعه واجب التخلّي عن كلّ شيءٍ عندما يدعوهم، ولكنّه هو سيُعنى بهم. وأوعز إليهم أن يواصلوا ممارسة حِرَفهم وأعمالهم إلى أن يفرغ من تدابير تمهيديّةٍ، وعندما سيدعوهم، عقب الفصح القادم، عليهم هجر كلّ شيء، بلا تلكّؤٍ، ولا قلقٍ، وفي هذه الأثناء يكونون قد رتّبوا أمورهم، واستعدّوا، عاطفيًّا، للانقطاع له وحده.

بعدئذٍ توجّه الجميع إلى قانا حيث كانوا مدعوّوين إلى عرس. انتهجت مريم والنسوة دربًا مختصرًا، ولكنّه ضيّقٌ، وبذلك ضمِنَّ تجنّب الاصطدام بالجموع. وكنّ يسرنَ واحدةً واحدةً، يسبقهنّ دليلٌ ويختم موكبهنّ دليلٌ آخر. أمّا يسوع وموكبه فانتهجوا دربًا عريضًا يمكّن من التحادث والتحاور. وغالبًا ما كان يسوع يتوقّف كي يستفيض في شرحٍ وتفسيرٍ.

وكلّف يسوع فيليبّس بدعوة نثنائيل إلى الاجتماع به على الطريق إلى قانا. وجاء فيليبّس إلى بيت نثنائيل الذي كان يعمل في عليّة منــزله محاطًا بعددٍ من الكتبة، وبشّره: "لقد وجدنا ذاك الذي أشار إليه موسى في شريعته، والذي بشّر به الأنبياء، إنّه يسوع ابن يوسف من الناصرة". وكان نثنائيل صلبًا في معتقداته، ولكنّه ممتلئٌ استقامةً وصدقًا، فأجاب: "وهل يخرج من الناصرة شيءٌ صالحٌ؟"، فقد كانت

الناصرة معروفةً بتراخي تعليم مدارسها التوراتيّة وبُعدها عن الحكمة الحقّة. واستخلص نثنائيل أنّ من ينشأ في تلك المدارس قد يستطيع إثارة إعجاب مواطنيه البسطاء، الذين لم يصيبوا من المعرفة سوى قشورٍ، ولكنّه لا يستطيع النفاذ إلى عقول نظرائه المتمكّنين من العلم. ولكنّ فيليبّس ألحّ في توسّل نثنائيل أن يرى بعينيه ويسمع بأذنيه يسوع الذي كان سائرًا على طريق قانا. واستجاب نثنائيل لإلحاح فيليبّس، وانضمّا إلى يسوع الذي كان متوقّفًا مع تلاميذه في فيء الطريق، وأعلن فيليبّس: "يا معلّم ها قد جئتك بمن يتساءل هل يمكن أن يخرج من الناصرة شيءٌ صالح"، فقال يسوع بلهجة صداقةٍ وحنانٍ: "هذا إسرائيليٌّ أصيلٌ، لا غشّ فيه" فسأل نثنائيل: "ومن أين تعرفني؟، أي كيف تعرف أنّي صادقٌ ولا غشّ فيّ، مع أنّك لم تكلّمني قطّ؟" فأجاب يسوع: "قبل أن يدعوك فيليبّس، وأنت تحت التينة رأيتك". قال هذا، وحدّق في عيني نثنائيل تحديقًا حافلاً بالمعنى، أيقظ لديه ذكرى ذلك الرجل الذي أحدثت نظرته العميقة الجادّة أثرًا خلاصيًّا، عندما كان على مقربةٍ من حمّامٍ يراقب نسوةً تلهَيْن في البرّيّة، ويصارع التجارب التي أوحين له بها، إلى أن أنقذته منها نظرةٌ نفذت إلى أعماقه، صوّبها إليه يسوع الذي كان له ملاك خلاصٍ، ولا سيّما أنّ نثنائيل كان طاهر القلب، وكان أدنى خطأٍ يوجعه. وكان نفاذ يسوع إلى أعماقه السرّيّة كافيًا لتأكّده من أنّ ذلك الرجل هو مخلّصه، وقد دفعه قلبه الصادق والعارف بالجميل إلى الاعتراف بذلك في الحال وأمام الجميع، معلنًا: "يا معلّم، أنت ابن الله، أنت ملك إسرائيل!"، فقال له يسوع: "أتؤمن الآن لأنّني قلت لك إنّي رأيتك تحت التينة. في الحقيقة سترى أمورًا أعظم...". ومخاطبًا تلاميذه أضاف: "في الحقيقة سترون السماء مشرعةً وملائكة الله يصعدون ويهبطون على ابن البشر". لم يدرك سائر التلاميذ ما عنى يسوع برؤيته لنثنائيل تحت التينة، ولا السبب الذي حمل نثنائيل على قلب رأيه في يسوع هذا الانقلاب المباغت. ولكنّ نثنائيل باح بهذا السرّ ليوحنّا عندما كانا مشتركين في عرس قانا. وكان نثنائيل، إثر اعترافه بألوهة يسوع قد استأذن بفرصةٍ وجيزةٍ يوكل فيها أُمور عمله لأخيه ويعود، ولكنّ يسوع أجابه

بمثل ما أجاب به الآخرين: أنّ على من يُدعى، أن يلبّي الدعوة في الحال، متخلّيًا عن كلّ شيءٍ آخر، ودعاه إلى مرافقته إلى قانا.

وفي قانا هبّ أهل العروس والعريس للترحيب بيسوع وصحبه مذْ رأوهم قادمين. وكان يسوع قد استصحب إلى قانا نحو خمسةٍ وعشرين من أصدقائه وأتباعه لأنّه كان يتوقّع التأثير العميق على نفوس الحاضرين بعد مشاهدتهم لقدراته الإلهيّة، وأيضًا لأنّ العريس كان من أقرباء أُمّه، وكانت شقيقة جدّته حنّة هي التي ترعاه، وهي المشرفة على شؤون العرس. وجديرٌ بالتنويه أنّ جدّته حنّة كانت قد أقامت احتفالاً عقب تقديم يسوع إلى الهيكل، وكان العريس يومها طفلاً مدعوًّا، بما أنّه ابن أختها وتنبّأت له بأنّ يسوع سيكون حاضرًا في احتفال زفافه.

وكان يسوع قد تعهّد بتقديم الخمرة اللازمة للعرس، ولذلك أنبأته أُمّه أنّ الخمرة التي قدّمها قد نفدت، لكيلا يقع اللوم عليه.

سببٌ آخر لحضوره العرس مع حشدٍ من أتباعه هو مآخذ أقربائه عليه من جرّاء إهماله أُمّه الأرملة الوحيدة وذرعه الطرقات، في كلّ اتّجاهٍ. فحرص على الاهتمام بحضورٍ بارزٍ له و لأصدقائه في عرس ابن خالة أمّه، وفي الواقع كانت تلك هي المناسبة المثلى كي يسفر للعالم أجمع عن حقيقة هويّته، وفرصةً مُثلى لانطلاق رسالته. وكان قد طلب من لعازر وأُخته مرتا مساعدة أُمّه في إعدادات العرس، وتبرّع لعازر بشراء كلّ ما تعهّد هو بتقديمه. فقد كان يسوع يثق ثقةً كبرى بلعازر، ويتقبّل بطيبة خاطرٍ كلّ ما يقدّمه له. وكان لعازر سعيدًا بكلّ ما يستطيع تقديمه ليسوع.

وقد حضرت، أيضًا، "سيرافيا" (ڤـيرونيكا) بسلالٍ مليئةٍ بالفاكهة، والزهور الجميلة، والحلوى الشهيّة المعدّة بإتقانٍ، وقدّمتها باسم يسوع.

وكان والد العروس ثريًّا صاحب مشاريع نقلٍ، ومالكًا العديد من الحوانيت والفنادق. وكان كثيرون من أهل قانا موظّفين لديه. ونشط تلاميذ يسوع في المساهمة بالإعداد للعرس، وفي أوقات فراغهم كان يسوع يعدّ نفوسهم للرسالة

الجليلة التي سيوكلها إليهم، فيستفيض في محادثتهم عمّا جاء من أجله، وكان يشارك المدعوّين أيضًا في نزهاتٍ، زارعًا في نفوسهم بذار الملكوت الآتي. وكانت تلك سانحةً للذين اختارهم كي يتعارفوا ويتآلفوا.

البيت الذي أُقيم فيه العرس كان يقع على مقربةٍ من المجمع، وكانت المسافة الواقعة بين هذا البيت والمجمع قد ازدانت بالأقواس الخضراء، وبباقات الزهور، والبيت أيضًا كان قد زُيِّن أجمل زينةٍ وأفخرها.

وقد نظّم يسوع نفسه أوقات الاحتفال وأوقات النــزهات، وأسبغ على جوّ العرس بأقواله وتعاليمه جوًّا من الوقار الممزوج بالفرح، كان دائم الابتسام، ولم يكن يحجم، أحيانًا، عن مشاركة القوم تسلياتهم البريئة، باثًّا حكمته وتعاليمه بلطفٍ ومتعةٍ مؤثّرين ونافذيْن إلى أعماق الوجدان.

واتّفق أن التأم الجميع في المجمع، فتحدّث يسوع عن التسليات المتاحة، ومعانيها، وعلى الحيّز الذي يحسن أن تتبوّأه من الحياة، وعن مدى الجدّ والحكمة اللتين يتعيّن مراعاتهما في أثنائها. ثمّ تحدّث عن الزواج، والعفّة والوفاء. وبعد فراغه من حديثه، تكلّم، على حدةٍ، إلى العروسين، وزوّدهما بنصائحه.

افتتحت احتفالات العرس بوليمةٍ، عقبها رقصٌ على وقع أغانٍ قدّمها أولادٌ، وعُقدت حلقات رقصٍ، وكان في يد كلّ رجلٍ وكلّ امرأةٍ أو فتاةٍ منديلٌ يمسك كلٌّ من الراقصين بطرفه من غير أن تتماسّ الأيدي. افتتح العروسان حلبة الرقص، ثمّ رقص الجميع في إثرهما، وكانت الفتيات يرتدين ثيابًا طويلةً، وقد حجبن نصف وجوههنَّ. ولم يكن الرقص آنذاك قفزاتٍ مجنونةً، ولا قرعًا للأرض بالأرجل، بل كان تمايلاً ، وحركات أيدٍ ورؤوسٍ على وقع الموسيقى. وقد طغت على كلّ ذلك الأناقة والحشمة. ومع ذلك لم يشترك في الرقص أيٌّ من الذين أمسوا رسل يسوع.

كانت الخواتم تقدمةً من العذراء مريم، وكان يسوع قد باركها، وتبادلها العروسان في المجمع، وحينئذٍ، شكّ الكاهن أصابعهما التي ألبست هذه الخواتم

بدبّوسٍ، واستقطر من كلّ منهما نقطة دمٍ في كأسٍ من النبيذ، شربها الزوجان معًا. وعقب العرس وُزّعت ألبسةٌ وأقمشةٌ على الفقراء.

في أثناء وليمة العرس لم يكفّ يسوع عن سرد الأمثال الحافلة بالرموز والتعاليم، بدماثةٍ وسجوٍّ، فأشار إلى أفراح الاحتفال، فقال ينبغي ألاّ تظلّ القوس مشدودةً، وأنّ التربة تحتاج، بين حينٍ وحينٍ إلى ماءٍ يرطّبها، وقُدّم له حملٌ مشويّ كي يقطّعه، فقال إنّ الحمل يُفصل عن القطيع، لا لكي يعيش على هواه، ويضمن استمرار جنسه، بل لكي يسلَم إلى الموت، ثمّ يُطهَّر بالنار، ويقطَّع أجزاءً، ويضحي طعامًا لكثيرين. وكذلك هو شأن المدعوّين إلى اتّباع الحمل، إذ عليهم العزوف عن الكلأ، والتضحية بأهوائهم، والانفصال عن ذويهم، كي يصبحوا غذاءً روحيًّا، بفضل الحمل والآب السماوي.

المرحلة الثانية من المأدبة التي تلي مرحلة الحمل المشويّ، كانت تتضمّن طيورًا وأسماكًا، وفاكهةً وحلوى. وكانت "سيرافيا" (ڤـيرونيكا) هي التي جاءت بها من أورشليم، وكان على مريم العذراء تقديمها، ولمّا همّت بذلك تبيّنت أنّ الخمرة نفدت، فقد كان هناك ستّ جرارٍ ثلاثٌ منها مملوءةً خمرًا، وثلاثٌ مملوءةٌ ماءً. فهرعت إلى يسوع الذي كان قد تعهّد بتقديم خمرة العرس، وأعربت له عن قلقها، وبما أنّ يسوع كان، حينئذٍ، مسترسلاً في حديثٍ روحيٍّ، قال لها: "يا امرأة مالي ولكِ؟ لم تحنْ ساعتي بعد"، ولكأنّه يقول لها: "حلّ هذا الإشكال ليس شأني ولا هو شأنك، بل هو شأن الآب". وإنّما قال لها "يا امرأة" ولم يقل "يا أُمّاه" لأنّه كان مقدمًا على عملٍ إلهيّ، وبصفته ابن الله، لا ابن مريم.

منذ تلك اللحظة تحلّت مريم بصفتها الوسيطة بين الله والبشر، وهي بمجرّد إخبارها يسوع عن نفاذ الخمر اطمأنّت، لأنّها كانت واثقةً بأنّ طلبها مستجابٌ، ولذلك قالت للخدم، بكلّ ثقةٍ: "افعلوا ما يشير عليكم به". أمّا قول يسوع: "إنّ ساعتي لم تَحِنْ بعدُ" فتنبؤٌ بتحويلٍ آخر سيجريه قبيل صلبه، إذ سيحوّل دمه إلى مشربٍ يروي ويخلّص متناوليه.

وأمر يسوع الخدم أن يملأوا ماءً جرار الخمر الثلاث التي فرغت من محتواها، ولّما جاء الخدم بهذه الجرار المملوءة ماءً، باركها يسوع، وعاد إلى مجلسه، وقال "قدّموا منها لرئيس الوليمة". وما إن تذوّق هذا الماء المتحوّل خمرًا، ولم يكن يعرف مصدره، حتّى استدعى العريس ولامه قائلاً: "على الإنسان الفطن أن يقدّم لضيوفه أوّلاً الخمرة الطيّبة، النفيسة فيقدّرونها، وعندما يثملون، يقدّم لهم خمرةً دون تلك جودةً وثمنًا. وأنت فعلت نقيض ذلك".

وقد بلغت دهشة العريس وأهله كلّ مبلغٍ عندما تذوّقوا تلك الخمرة منقطعة المثيل، ولا سيّما أنّهم كانوا على علمٍ بأنّها ماءٌ صرفٌ باركه يسوع. وراحوا، باعتزازٍ وبهجةٍ، يملأون الكؤوس من جديدٍ ويدعون الضيوف إلى التمتّع بالخمرة اللذيذة. وقد بدّد يسوع دهشة الجميع بقوله إنّ ربّ الملكوت لا يفعل ما يفعله أبناء البشر، ولا يبدأ بتقديم الخمرة الطيّبة، وعندما يتعتع الشاربين السكرُ، يقدّم لهم أسوأ شرابٍ، بل هو يحوّل المرّ إلى عذب المذاق، ويحوّل الفاتر إلى مضطرمٍ اندفاعًا.

لم تُسِل الخمرة العجيبة الثمل والخمول إلى الرؤوس والأعضاء، بل أيقظت في النفوس صحوةً روحيّةً، وأحدثت تحوّلاً جوهريًّا، ووطّدت لدى جميع الحاضرين يقينًا راسخًا بقدرة يسوع الفائقة، وبسموّ مكانه ورسالته، وكانت العجيبة الأولى التي أجراها يسوع هي حجر الأساس في كنيسته التي قامت على الإيمان به.

وفي نهاية الوليمة جاء العريس إلى يسوع واعترف بكلّ تواضعٍ أنّه تحرّر من كلّ شهوةٍ جسديّة، وأنّه راغبٌ في ممارسة العفّة التامّة إن كانت عروسه موافقة. وجاءت العروس واعترفت بالقصد عينه وأكّد الاثنان عزمهما على الالتزام بالعفّة مدى ثلاث سنواتٍ، يقضيانها معًا أخًا وأُختًا. فأوضح لهما يسوع أنّ كثيرين من الأبناء الروحيّين الذين كانوا ضالّين، ارعَووا بفضل تضحيات أولئك الأبرار، وسلكوا السراط القويم، وبذلك كان لأولئك الأبرار ذرّيّةٌ غفيرةٌ صالحةٌ.

وجديرٌ بالتنويه أنّ كلّ ما فضل من أطعمة العرس قد وُزّع في الحال على الفقراء.

تعليمٌ ومعجزاتٌ في الجليل

انتهى العرس، ومنذ فجر اليوم التالي يمّم يسوع وتلاميذه شطر كفرناحوم، وواكبهم العريس وذووه، مسافةً من الطريق.

وكلّف يسوع خمسةً من تلاميذه بممارسة العماد في المكان عينه الذي عمّد فيه يوحنّا، إذ إنّ يوحنّا كان قد انقطع عن العماد، منصرفًا إلى التعليم والوعظ، ناصحًا طالبي الاعتماد باللجوء إلى تلاميذ يسوع.

وكان لعازر قد وصل إلى قانا في آخر أيّام العرس، وفي الصباح، مضى مع يسوع نحو بيت لحم. كان لعازر راغبًا في إطلاع يسوع على موقف الأورشليميّين منه، فقد كان الفرّيسيّون، هناك، قد أشاعوا الأكاذيب عنه، وأطلقوا جواسيسهم في إثره، وكانوا يهزأون بشخصيّته، ويتساءلون هل سيجرأ على القدوم إلى المدينة المقدّسة في الفصح، ويجري المعجزات في مثل الجرأة التي يجريها في الجليل حيث لا يوجد من يفضح زيف أفعاله، حسب ادّعائهم، في حين كان بعض الأورشليميّين توّاقين إلى رؤيته وسماعه ومشاهدة معجزاته. وطمأن يسوع لعازر، وذكّره بمقاطع من الكتاب المقدّس بهذا الشأن، وعزّاه بشأن شقيقته المجدليّة، موضحًا له أنّ قبس نعمةٍ قد هبط على نفسها ولن يلبث أن يضرم كلّ كيانها، وأكّد له أنّه سيشخص إلى أورشليم للفصح.

ثمّ جاء يسوع إلى الأردنّ حيث كان عددٌ من تلاميذه وأصدقائه ينتظرونه. وفي هذه الأثناء كان لعازر وأُخته مرتا وسيرافيا (ڤـيرونيكا) وحنّة زوجة كوزا قد زاروا مريم أُخت لعازر في مجدلا ودعوها لمرافقتهم كي ترى وتسمع رجلاً رائعًا بحكمته وفصاحته ووسامته، يدعى يسوع، كان قد أضحى حديث العالم أجمع، فلبّت رغبتهم وجاءت مزدانةً بكلّ حلاها وبذخها. وحلّت في فندقٍ باذخٍ بمفردها، دون إخوتها وأصحابها، الذين حلّوا في نزلٍ شعبيٍّ، فقد كان كبرياؤها وزهوها بذاتها يمنعانها من الاختلاط بعامّة الناس. ومرّ يسوع يواكبه تلاميذه فلمحته من

نافذة الفندق التي كانت تقيم فيه، ورماها هو بنظرةٍ اخترقت أعماق نفسها، وأماطت لها اللثام عن كلّ بشاعة سلوكها، وقلبتها رأسًا على عقب. وفي الحال هرعت إلى مصحٍّ يضمّ برصًا ونساءً مصاباتٍ بأمراضٍ. فعلّق أصحاب الفندق الذين كانوا مطّلعين على سيرتها: "هذا هو المكان الذي يليق بها!". أمّا هي فكانت قد سارعت إلى المصحّ، بتأثير نظرة يسوع، اتّضاعًا وندمًا.

ويوم السبت عاد يسوع إلى كفرناحوم، حيث التأم كلّ تلاميذه، وعلّم في المجمع طيلة ذلك النهار، وجيء إليه بالعديد من المرضى الذين شفاهم، وبالمسكونين بالأرواح الشرّيرة الذين حرّرهم، وسط حشودٍ لم تكفّ تتقاطر وتتكثّف. وقدمت، حينذاك، وفودٌ من صيدون دعته إلى زيارة مدينتهم، فرحّب بدعوتهم، وقدمت وفودٌ أُخرى من قيصريّة فيليبّس أعربت عن رغبتها الحارّة في استقباله، فوعدهم بتلبية دعوتهم لاحقًا. وكانت ضغوط الجموع عليه من الشدّة، بحيث غادر كفرناحوم، منذ فجر يوم الأحد، مع تلاميذه، وقصد مكانًا جبليًّا واقعًا بين البحيرة ومصبّ نهر الأردنّ، وهناك انتحى زاويةً معزولةً هادئةً، وانقطع للصلاة.

وفي المساء شخص يسوع إلى البيت الذي كانت تقطنه أُمّه، في منطقةٍ واقعةٍ بين بيت صيدا وكفرناحوم، وكان قد سبقه إلى هناك لعازر وشقيقته مرتا والنساء القدّيسات كي يودّعوه، قبل عودتهم إلى أورشليم. فدعاهم يسوع ألاّ يقلقوا، بعدُ، على المجدليّة، فهي في حال تأثّرٍ عميقٍ، ولكنّها لم تستطع، بعدُ، التخلّي عن حلاها وبذخها، والتزيّن على غرار عامّة الناس.

قضى يسوع معظم اليوم التالي مع أُمّه، ثمّ عاد إلى كفرناحوم، حيث كان عددٌ غفيرٌ من ذوي العلل والعاهات يلتمسون غوثه، فشفى الكثيرين. مثيرًا غيظ الفرّيسيّين الذين اتّهموه ببلبلة الأذهان بتعاليمه وأفعاله غير المألوفة، وأخذوا عليه تكاثر عدد تلاميذه وأتباعه. ولكنّ يسوع ردّ عليهم بصرامةٍ، وأفحمهم، وأكّد لهم أنّه ماضٍ قدُمًا وصراحةً في تعاليمه ومعجزاته على مرأى الجميع.

وكان أندراوس وتلاميذ آخرون قد سبقوه إلى محلّةٍ عند أقدام جبل طابور

وأعدّوا لهم مكانًا في نزلٍ، إذ كان قد اعتزم قضاء السبت هناك مبشّرًا. ومذ سرى نبأ قدومه تقاطر إلى ذلك المكان حشدٌ غفيرٌ من القرى المجاورة، ومن الرعاة، ومن تجّار صيدون وصور الجوّالين، التوّاقين إلى رؤيته وسماعه.

وفي كلّ مكانٍ يغشاه يسوع كان القوم يحتشدون، وما إن يُطلّ حتّى تتعالى الصيحات التي تُحيّيه وتناديه. وكان كثيرون يخرّون ساجدين أمامه، وآخرون يزحمونه ويتراصّون من حوله وساعين إلى لمسه. وكثيرًا ما كان يتوارى بغتةً، كي ينجو بنفسه من هذا الازدحام، وعندما يكون سائرًا مع تلاميذه غالبًا ما كان يوعز إليهم سلوك طريقٍ، ويسلكُ هو، خفيةً، طريقًا أُخرى، كي ينعم بشيءٍ من العزلة والهدوء. وعندما كانت الجموع تضيّق عليه الخناق في المدن كان يطلب من تلاميذه أن يوفّروا له مفرًّا. ولكنّه كلّما ابتغى شفاء بعضهم كان يتيح لهم الاقتراب منه ولمسه.

وفي المكان المعدّ لإقامته مع تلاميذه، أفرز له تلاميذه زاويةً يعلّم منها، وطوّقوها بحبالٍ غليظةٍ مشدودةٍ إلى أوتاد. وإذ كان بين مستمعيه، يومذاك، عددٌ من الأغنياء، فقد تحدّث عن الثروة، وأوضح أنّ الأغنياء أكثر عرضةً للهلاك من العشّارين، لأنّه أيسر على هؤلاء التخلّي عن أموالهم، وأشار إلى الحبال الغليظة التي كانت تفصله عن الجمهور، وأكّد أنّ عبور هذه الحبال المصنوعة من وبر الجمال من خلال سمّ إبرة أسهل من دخول غنيٍّ متشبّثٍ بماله ملكوت السماوات. وحاول بعض الأغنياء المستمعين تبرير ذواتهم بحجّة أنّهم يتصدّقون بجزءٍ من أرباحهم، فردّ عليهم بأنّ الصدقة على حساب غُبن العمّال وغمطهم حقوقهم لا تستجلب أيّة بركةٍ. ومن البديهيّ أنّ هذا القول لم يُرقْ لمستمعيه الأغنياء.

وعلّم، ذات يومٍ، في مدينةٍ يقطن فيها لاويّون كانوا يملكون فيها مدرسةً كبرى، اشتهرت بتعليمها، وبفخامة احتفالاتها الدينيّة. فعلّم، صباحًا، في مدرستها، في حين علّم تلميذه أندراوس الأطفال في قاعةٍ محاذيةٍ للمجمع، وأخبر الغرباء الذين التفّوا من حوله الكثير ممّا سمعه من تعاليم يسوع وممّا رآه من أفعاله المعجزة.

أمّا يسوع فتحدّث عن الكبرياء، والمجد الباطل. ولتدعيم تعليمه امتنع عن إجراء معجزاتٍ، لأنّ أهل القرية كانوا يفتخرون بوجود نبيٍّ بين ظهرانيهم وبتعليمه في مدرستهم، مدّعين أنّه لبّى دعوهم لأنّهم أفضل من سواهم، في حين هو كان قد لبّى دعوهم رحمةً بهم، ورغبةً في إصلاحهم، وتحريرهم من كبريائهم وزهوهم، وسعيًا إلى اقتيادهم إلى التواضع.

عقب التعليم، جال يسوع في فناء المدرسة حيث جاءت نساءٌ بأطفالهنّ المعتلّين فشفاهم، كما شفى النساء اللواتي اعترفنَ بضعفهنَّ وخطاياهنَّ، واللواتي عبّرن عن رغبةٍ في التحرّر من الأهواء الشرّيرة.

يوم السبت، عزم يسوع التعليم في المجمع. وفي طريقه إليه شفى العديد من المرضى الذين كانوا ينتظرون مروره، وبعد تعليمه في المجمع قصد بيوت المرضى الذين تعذّر عليهم وعلى ذويهم المجيء إليه وشفاهم. وكانت بعض النساء التائبات يقفنَ خلف حواجز مشبّكةٍ، فيعترفنَ له بذنوبهنَّ، ويلتمسنَ عونه وبركته، فيرشدهنّ، ويعزّيهنّ، ويشجعهنّ، ويباركهنّ.

وكان لعازر يتكفّل بكلّ النفقات التي تقتضيها تنقّلات يسوع وتلاميذه وإقاماهم.

ثمّ قصد يسوع مدينةً جاثمةً على تلّةٍ، حيث احتشد جمعٌ غفيرٌ، مرحّبًا بيسوع ومناديًا به نبيًّا. وكان بعضهم سليمي النوايا وآخرون مدفوعين بالفضول فحسب. وتفاديًا للفوضى لم يلبث المخلّص هناك طويلاً، ولكنّه علّم في مدرسة القرية، وشفى وآسى المرضى. ومثل ذلك كان يحدث في كلّ مكانٍ يتوقّف فيه، ويعلّم في مجمعه. وكان تراصّ القوم لرؤيته وسماعه من الشدّة بحيث كان الربّ يستصحب عشرات تلاميذه لحفظ الأمن وضبط الجموع، وتجنّب الاضطرابات والفوضى.

وحلّ يسوع في قرية تدعى "اولوما"، حيث توجد ثلاث مدارس، إحداها لعلماء الشريعة، وأُخرى للشبّان، والثالثة تابعة للمجمع. يوم الجمعة، زار يسوع

عدّة منازل شافيًا مرضاها، معزّيًا الحزانى. وعلّم في مدرسة المجمع حيث دعا إلى البساطة وإلى احترام الوالدين، لأنّه لحظ افتقارًا إلى هذه الفضائل لدى أهالي القرية، وحثّهم على التوبة والعزوف عن التباهي الباطل. وغداة يوم السبت شخص يسوع وتلاميذه إلى ساحةٍ تبعد نحو ربع فرسخٍ عن المدينة حيث كان منبرٌ مقامًا على مقربةٍ من نافورة ماءٍ، واستقدم إلى هناك المرضى الذين لم يتّسع له الوقت لشفائهم في الأمس. وكان هؤلاء راقدين على محفّاتٍ في قاعاتٍ أو تحت خيامٍ، وكان الحشد الذي تبعهم من الكثافة بحيث غصّت الساحة بمن تقاطروا إليها، وبحيث اضطرّ التلاميذ والكهنة إلى الجهد في حفظ الأمن، وتنظيم الحركة.

وعشيّة ذكرى موت موسى تحدّث يسوع عن الصوم، وعن أرض الميعاد وخصبها، مشدّدًا على أنّ الخصب المقصود ليس مجرّد خصبٍ مادّيٍّ، بل هو خصبٌ روحيّ، خصبٌ بالأنبياء، المرشدين إلى سبيل الله، خصبٌ يؤتي ثمار خلاصٍ للراغبين في الخلاص والتوبة. ثمّ جاء يسوع بيتًا جُمع فيه مسكونون بالأرواح الشرّيرة فأطلقوا صيحاتٍ عنيفةً ومريعةً لدى وصوله، وكان معظمهم شبّانًا وأولادًا. وطلب يسوع تنظيمهم في صفٍّ، وأوعز إليهم بالتزام الهدوء، وكان أمره هذا كافيًا لتحريرهم من الأرواح. ثمّ علّمهم وشدّ أزرهم بحضور ذويهم.

ومن جرّاء الضجّة التي أثارها حضوره في تلك الديار، اعتزم يسوع البعاد، ويمّم مع تلاميذه صوب كفرناحوم. وعقب سفرٍ ليليٍّ طويلٍ، قرع في الصباح باب أُمّه. وكانت العذراء التي لا تملك لا أراضي ولا قطعانًا، تعتاش بما يقدّمه لها أنسباؤها ومعارفها، وبما تكسبه من أعمال الخياطة والحياكة التي تمارسها. ولكن كان يسكنها قلقٌ دائمٌ وهاصرٌ، كلّما راودتها صُوَر الأخطار التي يتعرّض لها يسوع من جرّاء خطاباته الجريئة، ومعجزاته المتألّقة، التي ذاعت في كلّ أرجاء الجليل، وردود فعل ذوي النوايا الشرّيرة، والنمائم التي كانت تروّج عنه، والتي كانت تتنامى إليها. وباح لها يسوع أنّ ساعته حانت وأنّه عازمٌ على الانتقال إلى

اليهوديّة، حيث سيصبح، بعد عيد الفصح، محطّ مقاومةٍ شديدةٍ. ثمّ ودّعها بقبلةٍ، كما ألف أن يفعل عند وداعها، كلّما كانا وحيدين. وكانت مريم ما زالت تبدو شابّةً، رشيقة القامة، نحيفةً، عالية الجبين، دقيقة الأنف، واسعة العينين اللتين تبقيان منخفضتين، رائعة الفم، حنطيّة اللون، متألّقة البشرة، مورّدة الخدّين.

من كفرناحوم إلى بيت عنيا

محطّته الأولى كانت "صفورية"، وهي مدينةٌ جاثمةٌ فوق تلّةٍ محاطةٍ بجبالٍ من كلّ جانب. كهنة المجمع في تلك المدينة لم يعبأوا به، فقد كانت تروَّج بحقّه مآخذ وأراجيف كثيرةٌ زائفةٌ، ومنها دأبه على ذرع الطرقات، وجَوْب الآفاق مهملاً أُمّه الأرملة الوحيدة العزلاء. ومع ذلك علّم في المجمع يوم السبت، ومع أنّه لم يُجرِ أيّ شفاءٍ عجيبٍ، زار جماعةً من الأسّينيّين، وشدّ أزرهم في ما يتعرّضون له من اضطهادٍ، بسبب موالاتهم له، وأوصاهم بتحمّل النميمة والسخريّة بصبرٍ، وطلب منهم ومن أقربائه في تلك المدينة ألاّ ينضمّوا إليه في حجّه إلى أورشليم، بل أن يقيموا أوفياء له، ومحسنين لكلّ محتاجٍ، كما طالما ألِفوا أن يحسنوا. وجديرٌ بالذكر أنّ بعضهم كانوا يتولّون عيالة والدته العذراء، فشكرهم بعباراتٍ تقطر تواضعًا ورقّةً.

وتوقّف في الناصرة حيث جاءه ثلاثة شبّانٍ كان قد رفض، آنفًا، انضمامهم إلى تلاميذه، لأنّهم كانوا يبتغون من هذا الانضمام اكتساب شهرةٍ وعلمٍ يتباهون بهما. فكرّروا طلبهم وكرّر هو رفضه، وأرشدهم إلى درب الخلاص الحقّ، فاتّهموه بإيثار رعاع القوم.

السنة الثانية

في بيت عنيا وفي الهيكل

كان في بيت لعازر حجرةٌ مخصّصةٌ لإقامة يسوع، محاذيةٌ لقاعة الصلاة، حيث وُضعت على منبرٍ، الكتب المقدّسة. وسرعان ما ذاع في أورشليم نبأ وصول نبيّ الناصرة إلى بيت عنيا، نبأ أسرّ البعض وأغاظ آخرين. وكان كثيرون يتوارون لدى مروره كيلا يوجّهوا له كلامًا.

كان يسوع على غرار الأنبياء يرتدي ثوبًا أبيض طويلاً، وغالبًا ما كان مظهره لا يستلفت نظرًا، ولكنّه في أحيانٍ أُخرى، كان متألّقًا، مشعًّا بنورٍ سماويٍّ.

صباح اليوم التالي دُعي يسوع ولعازر وتلاميذ يسوع ويوحنّا ومرتا والنسوة القدّيسات ونيقودمس ويوسف الأريماثيّ إلى مأدبةٍ أقامها سمعان الفرّيسيّ في نزلٍ كان يملكه في بيت لحم. لم يكن سمعان هذا شرّيرًا ولكنّه كان متردّدًا متأرجحًا بين ملّة الفرّيسيّين المتشدّدين من جانبٍ، ويسوع من جانبٍ آخر، إكرامًا لعلاقات الصداقة التي تربط يسوع بلعازر. لم يستفض نيقودمس في الحديث لأنّه آثر الإصغاء إلى يسوع على نقيض يوسف الأريماثيّ الذي أفاض جعبته من الكلام، وطرح على المخلّص طائفةً من الأسئلة.

وتحدّث يسوع عن الأنبياء وتحقُّق النبوءات، وذكّر بالظروف الخارقة التي واكبت ولادة المعمدان، وكيف أنقذه الله من مجزرة هيرودس للأطفال الأبرياء، لأنّه كان معدًّا لتمهيد طريق المسيح. وندّد بالنـزعة السائدة إلى الذهول عن إشارات الله، وسأل مستمعيه هل منكم من لا يزال يذكر أنّ ثلاثة ملوكٍ قدموا من المشرق، لثلاثين سنةً خلت، ترشدهم نجمةٌ، انقادوا لإرشادها في ثقةٍ مطلقةٍ، بحثًا

عن ملك اليهود الوليد، فوجدوا طفلاً فقيرًا لأبوين مدقعي الفقر، فسجدوا له وقدّموا له ولذويه هدايا، ومكثوا بجواره ثلاثة أيّامٍ. وأضاف يسوع: "لو كان ذلك الطفل ابن إمبراطور أو ملكٍ لما نسيه أحدٌ منكم ولا من شعبكم"، ولكنّه امتنع عن هتك سرّ أنّه، هو، ذلك الطفل.

وفي يومٍ آخر، سأل مستمعيه في الهيكل: "هل فيكم من لا يزال يذكر طالبًا ابن اثنتي عشرة سنةً جادل علماء الشريعة، لثماني عشرة سنةً خلت، وأفحمهم، وأحرجهم؟" وذكّر بأقوال ذلك الفتى يوم ذاك.

علَّم أيضًا في بيت عنيا حيث كان يؤتى إليه بمرضى فيشفيهم. وإلى بيت عنيا وافى أقرباء زكريّا ودعوه إلى زيارتهم في مدينة الخليل. وكان يختلف إلى هيكل أورشليم وعقب انتهاء الاحتفالات كان يعلّم الموجودين من حيث كان يقف، مبشّرًا باقتراب ملكوت الله، وبتضحية حمل الله، وكان بعض الكهنة المنهمكين في خدمة الهيكل يتوقّفون ويصغون إليه، وتجيش نفوسهم غيظًا بسبب تأثير أقواله البليغ الذي تفتقر إلى مثله أقوال رؤسائهم.

ومع اقتراب عيد الفصح كانت تقام محاضرات للكهنة واللاويّين، وكان يسوع يحضرها، أحيانًا، ويطرح أسئلةً واعتراضاتٍ تربك المحاضرين والمعلّمين، وكان ينتهز هذه السانحة ليؤكّد أنّ التضحية بالحمل الإلهيّ باتت وشيكةً، ومعها سينتهي دور الهيكل وطقوسه، ويُعقد عهدٌ جديدٌ بدل العهد القديم. فكان القوم يستوضحونه مذهولين، من أين له هذه المعلومات، فيجيب بأنّ أباه أطلعه عليها، ولكنّه لم يصرّح قطّ بهويّة أبيه. ومع امتعاض الفرّيسيّين العارم، لم يجرؤ أحدٌ منهم على أذيّته، حتّى عندما ولج إلى قدس الأقداس، الذي لم يكن متاحًا إلاّ لرئيس الكهنة والأنبياء.

وبعد السبت، عاد إلى بيت عنيا حيث مكث بضعة أيّامٍ، وانتهز تلك السانحة كي يتحدّث إلى مريم الصامتة أُخت لعازر المنعزلة، التي كانت تحيا في عالمٍ آخر. كانت

راقدةً على الأرض فوق أغطيةٍ رماديّة، خائرة القوى، تساندها خادماتٌ. كان أجَلها قد دنا، وآلامها تفاقمت. حتّئذٍ لم تكن تعي شيئًا من شؤون الأرض وأهلها، وكانت تعدّ الحجرة التي احتبست فيها فردوسًا. ولكنّها استشفّت أنّ يسوع المقيم على مقربةٍ منها سيقاسي آلامًا ممضّةً وأنّها ستشاركه آلامه، في جسدها.

زارها يسوع ليلاً، وطال حوارهما، وكانت هي تعي كلّ شيءٍ وعيًا جليًّا، مميّزةً بين شؤون الأرض وشؤون السماء، مدركةً أنّ يسوع هو المخلّص والحمل الفصحيّ، وأنّها ستقاسمه الآلام التي سيعانيها. وقد أضحت آلامه لها سجنًا خانقًا، ومزّق قلبها ما رأته روحيًّا، ممّا سيقابله به البشر من نكران جميلٍ. ولمّا حدّثها يسوع عن اقتراب ملكوت الله وعن آلامه، وباركها، أشعّت نورًا، واكتسى وجهها بياضًا ناصعًا، وغدت يداها كالعاج. وكان أجَلها يدنو، شيئًا فشيئًا.

وفي الصباح شفى يسوع عددًا من العميان والمشلولين الذين قدموا من أرجاء فلسطين بداعي الفصح، وجاءه موفدون من المجمع مستوضحين عن حقّه في الاعتراض على تعاليم الكهنة وعلماء الشريعة، فأجابهم، بوقارٍ، أنّ هذا الحقّ أخذه من أبيه. وخاف الفرّيسيّون من الاستمرار في مهاجمته، فمجرّد حضوره كان يبثّ الرعب في أوصالهم.

طرد تجّار الهيكل، والاحتفال بالفصح في بيت لعازر

وفي اليوم التالي، وافى إلى الهيكل مع تلاميذه، ولم يرق له امتزاج ثغاء الخراف وخوار الثيران، وصيحات الباعة بصلوات البشر، وفسّر هذا الأمر للباعة، وبرفقٍ دعاهم إلى الانتقال إلى الفناء المخصّص للأُمم خارج الهيكل، وساعدهم تلاميذه على إيجاد أماكن لمواشيهم وبضائعهم.

وفي ذلك اليوم، أيضًا، شفى العديد من المرضى الغرباء الذين توافدوا من الجوار. وكانت أورشليم، يومئذٍ، تضجّ بوافدين من كلّ صوبٍ، وبالباعة والخيام

المعدّة لاستقبال الغرباء. وعندما عاد إلى الهيكل، قبيل البدء بذبح الأضاحي، كان كثيرون من الباعة قد عادوا إلى حيث كانوا قبل إخراجهم، فدعاهم، ثانيةً، إلى الخروج ولكنّ بعضهم تمرّدوا وقاوموا المخلّص، فعاملهم بصرامةٍ، وعكف على قلب موائد الصيارفة والباعة بيديه، وتغلّب على مقاومتهم بمساعدة تلاميذه الذين سرعان ما نقلوا البضائع والمواشي، والموائد إلى خارج الهيكل. وحينئذٍ أنذر يسوع الباعة باستخدام القوّة إن هم حاولوا، ثانيةً، تحويل الهيكل إلى سوقٍ. وقابله بعضهم بالشتيمة، وبادّعاء عدم الاكتراث. ولكنّ جماعةً غفيرةً من الأتقياء أكبرت غيرته على قدسيّة الهيكل، وساندته، ولا سيّما أنّ الفرّيسيّين، مع ما كانوا يضمرون له من غيظٍ وامتعاضٍ، كانوا قد وطّنوا العزم على عدم الاصطدام به، مؤقّتًا، ودعوا مواليهم إلى انتهاج مثل موقفهم.

لدى خروجه من الهيكل شفى يسوع مقعدًا كان يستغيث به، فاندفع هذا الذي نال الشفاء إلى الهيكل معلنًا فرحه بالشفاء، ومباركًا يسوع الذي شفاه، فكان لهذا الحدث أثرٌ مدوٍّ.

وتناول يسوع الفصح في منـــزل لعازر بمشاركة نحو ثلاثين شخصًا يضمّون أقرباء يسوع وتلاميذه، وتلاميذ يوحنّا، وأقرباء لعازر وبعض أصدقائه. واتّبع جميعهم الطقوس المفروضة في مثل هذه المناسبة، ولكنّ يسوع أهمل الإضافات النافلة التي كان الفرّيسيّون قد أدخلوها عليها، وتولّى بنفسه دور ربّ الأُسرة، فقطع هو بيده أجزاء الحمل ووزّعها، معلنًا للجميع أنّه خادمهم، وبعد العشاء استمرّت الصلوات والأناشيد حتّى وقتٍ متأخّرٍ من الليل.

وفيما كان الجميع عاكفين على تناول الفصح ساد الهدوء أورشليم التي خلت شوارعها. ومنذ إشراقة نور اليوم التالي شخص يسوع وتلاميذه إلى الهيكل، المضاء بمئات المصابيح وأخذ يعلّم في فنائه.

وأخذ الباعة أيضًا يتوافدون مع بضائعهم إلى داخل الهيكل، فأوعز إليهم يسوع

بالابتعاد، حرصًا على صفاء جوّ الصلاة، ولكنّ بعضهم عاندوه بقحةٍ، فتناول حبلاً على شكل سوطٍ، وقلب موائدهم، وهدّدهم. وكان تلاميذه يحيقون به من كلّ جانبٍ، ويجهدون في تحرير الهيكل من البضائع والمواشي. وهرعت ثلّةٌ من أعضاء السنهدرين المتواطئين مع التجّار، وسألوا يسوع بأيّ حقٍّ أو تكليفٍ يفعل ما يفعله، فأجابهم أنّه، مع خلوّ الهيكل من تابوت العهد ومع قرب دماره، إلاّ أنّه ما برح مكان صلاةٍ، قدَّسته صلوات العديد من الأبرار، وهو ليس حانوت تجارةٍ واحتيالٍ ومراباةٍ. وأكّد أنّه إنّما يعمل بمشيئة أبيه، فسألوه من هو أبوه، فأجابهم أنّهم، حتّى لو أخبرهم فلن يفهموا. وواصل طرد الباعة غير عابئٍ بالكهنة. وحيال دعم الشعب ليسوع، أحجم الكهنة عن مواجهة يسوع. لا بل إنّ الجند أنفسهم الذين استقدمهم الكهنة، ساهموا في تحرير الهيكل من البضائع وموائد الباعة والصيارفة. وقد احترم يسوع وجود صغار الباعة الذين التزموا الأماكن المخصّصة لهم في فناء الهيكل حيث يبيعون الحمام، والخبز ولوازم العيش بهدوء.

وفي فناء الهيكل شفى يسوع عددًا من المقعدين والبكم، وكان لشفائهم دويٌّ، لأنّهم أذاعوا بأعلى أصواتهم وبكلّ اندفاع فرحهم، في كلّ جنبات الهيكل، قدرات الناصريّ الذي شفاهم، مسعّرين اندفاع الشعب وغيظ الكهنة والفرّيسيّين.

وفي فترة بعد الظهر، دخل يسوع قاعةً مخصّصةً للمناقشات في الهيكل ففسّر أُمورًا كثيرةً كانت خافيةً عن الشعب، وأدلى بتعليمٍ جديدٍ أفحم علماء الشريعة.

اضطهاد يسوع والنسوة القدّيسات

في تلك الفترة، لم يتسنَّ ليسوع رؤية أُمّه المقيمة في بيت مريم أُمّ مرقس، في أورشليم، قاضيةً وقتها مصلّيةً، باكيةً قلقًا على ابنها الذي شغل الدنيا وشطر اليهود بين موالٍ مندفعٍ، ومناوئٍ يضمر له أدهى الشرور.

أمّا يسوع فقد احتمى في بيت لعازر، إثر الزوبعة الهوجاء التي أثارها الفرّيسيّون بسبب الأشفية التي كان يجريها في الهيكل وفي جواره. وبعد انقضاء يوم السبت

راح الفرّيسيّون يبحثون عنه في كلّ مكان، بغية توقيفه، وقادهم بحثهم إلى بيت مريم أُمّ مرقس، حيث لم يجدوا سوى أُمّه العذراء ومرافقاها من النسوة القدّيسات المنقطعات لمواكبتها، فأمروهنّ بمغادرة المدينة، وفزعت العذراء إلى مرتا شقيقة لعازر في بيت عنيا، وكانت مرتا حينذاك منهمكةً في العناية بأختها مريم الصامتة التي تفاقمت حالها سوءًا. وما كادت العذراء تطأ عتبة بيت مرتا حتّى انهارت مغميًّا عليها لشدّة وطأة القلق والكآبة. ولم تقوَ مريم الصامتة شقيقة مرتا الصغرى على احتمال مشهد آلام أُمّ المخلّص، فلفظت نفسها الأخير، في الحال.

وفي تلك الليلة تحدّى نيقودمس الأخطار المحدقة بيسوع، والاضطهاد المعلَن عليه، ووافى إلى بيت لعازر وجلس أرضًا قرب يسوع مصغيًا، طيلة الليل، إلى تعليمه. وفي الصباح انضمّ إليهما يوسف الأريماثيّ. وأقرّ ذانك الفرّيسيّان الصالحان، نيقودمس ويوسف ليسوع: "إنّنا نعترف أنّك أكثر من إنسانٍ، ونعدك بأن نخدمك بوفاءٍ حتّى النهاية". وأوصاهما المخلّص بالتزام الحذر والكتمان، فتوسّلاه أن يساعدهما على المثابرة على دروب الخير.

وفي ذلك الصباح عاد إلى يسوع تلاميذه الذين شاركوه الفصح، فألقى عليهم توجيهاته للمستقبل القريب، فأمسك بعضهم بأيدي البعض، مذرّفين الدموع التي مسحوها بالكوفيّات التي كانوا قد لفّوا بها أعناقهم. ثمّ تفرّقوا منطلقين إلى حيث أرسلهم المعلّم، وعاد بعضهم مؤقّتًا إلى ذويهم.

وفي هذه الأثناء ما انفكّ الفرّيسيّون يتعقّبون يسوع، فبحثوا عنه في منــزل لعازر ومرتا في بيت عنيا، واستفسروا أمّه والنساء القدّيسات عن مكان وجوده، وهدّدوهنّ بنفيهنّ عن البلاد، فآثرت العذراء العودة إلى الناصرة فإلى كفرناحوم. أمّا يسوع فكان متخفّيًا في بيت عنيا أو في قريةٍ صغيرةٍ واقعةٍ شمال شرقيّ بيت عنيا، حيث اختبأ قديمًا داود من وجه مضطهديه.

عماداتٌ وإبراء مَلِكٍ

بعد مرور ثلاثة أسابيع على عيد الفصح، غادر يسوع بيت عنيا إلى حيث كان يوحنّا يعمّد وحيث لم يبقَ سوى حفنةٍ من الحرّاس، والتأم هناك التلاميذ من جديد، وانضمّ إليهم بعضٌ من تلاميذ المعمدان، واحتشد من حولهم جمعٌ غفيرٌ، وكان يسوع يعلّمهم وهم متحلّقون حوله في مثل نصف دائرةٍ، جالسين على مقاعد خشبيّةٍ أو حجريّةٍ، أو مفترشين الأرض.

واتّفق في تلك الفترة أنّ ملِكًا مقيمًا على مقربةٍ من دمشق أُصيب بدمّلٍ في قدميه منعه من السير، وحدّثه مسافرون عن الأشفية التي كان يسوع يجريها، والتي ضجّت بها بلاد اليهود، فأثار هذا الحديث في نفس ذلك الملك توقًا حارقًا إلى يسوع، ورغبةً عارمةً في رؤيته والتحدّث إليه، فدبّج له رسالةً يدعوه فيها إليه، وأنفذ إليه شابًّا من بلاطه يمتلك موهبة الرسم، حمّله الرسالة، وكلّفه برسمه، إن لم يستطع إقناعه بالمجيء إليه. وزوّده بهدايا نفيسةٍ يقدّمها له. وفي الحال انطلق الرسول يرافقه ستّةٌ من خدّام الملك.

ولدى وصول الرسول إلى المكان الذي كان يسوع يعلّم فيه، تعذّر عليه الدنوّ منه، فالحشد كان كثيفًا، وكانت الخيام التي نصبها الوافدون تسدّ الطريق، فتوقّف الرسول بعيدًا، آملاً في سماع الربّ، وربّما التمكّن من التقاط ملامحه، ولكنّه ما انفكّ يحاول الاقتراب منه أكثر فأكثر مخترقًا الجموع. ولمحه يسوع ولحظ رغبته وجهوده، فكلّف تلميذًا جالسًا على مقربةٍ منه بشقّ طريقٍ للرسول، وبتوفير مجلسٍ له ولمرافقيه. ونفّذ الرسول رغبة يسوع، فتسنّى لرسول الملك ولمرافقيه سماع يسوع وتأمّله. ووجد رسول الملك السانحة المثلى لتثبيت قسمات يسوع في لوحةٍ باشر، فورًا، في رسم خطوطها، ولكنّ هذه المهمّة بدت في منتهى الصعوبة. فكلّ نظرةٍ يلقيها على محيّا يسوع كانت تأتيه بانطباعٍ مختلفٍ، فيضطرّ إلى استئناف الرسم من جديد.

ولّما فرغ يسوع من تعليمه دعا رسولَ الملك إلى الاقتراب منه، وإلى إتمام

مهمّته. فتقدّم الرسول مع مرافقيه وقدّموا للمخلّص هدايا الملك المتضمّنة أقمشةً، وسبائك ذهبيّةً صغيرةً، وحملانًا جميلةً، فتقبّلها يسوع شاكرًا، وأوعز إلى تلاميذه بتوزيعها في الحال على الأكثر عوزًا بين الحاضرين.

وقدّم الرسول للمخلّص رسالة الملك، فقرأها، ودوّن على قفاها بعض كلماتٍ بحروفٍ كبيرةٍ، ثمّ غسل وجهه وبلّل به طرف الرسالة، وسلّمه لرسول الملك طالبًا منه أن يلصقه على لوحته، وفي الحال تغيّرت اللوحة إلى صورةٍ مطابقةٍ لمحيّا يسوع. ذهل الرسول الرسّام، وأرى الصورة لجميع الحاضرين، وخرّ أمام يسوع، ثمّ مضوا معه إلى حيث كان تلاميذ يوحنّا يعمّدون، فتعمّدوا.

ذُهل الملك لمّا رأى صورة يسوع، وإثر قراءته الرسالة أصلح سلوكه، وتخلّى عن العديد من نساء حرمه.

وفي الموقع الذي كان يوحنّا وتلاميذه يعمّدون، كلّف يسوع أندراوس وبطرس ويعقوب بالانضمام إلى تلاميذ المعمدان من أجل تعميد القادمين لهذه الغاية. غير أنّ الشعب آثر رقّة يسوع ووداعته على صرامة المعمدان. ومن جهةٍ أُخرى نشب نقاشٌ بين تلاميذ يوحنّا وتلاميذ يسوع حول مفعول عماد كلٍّ منهم التطهيريّ. وشكا تلاميذ المعمدان لمعلّمهم ميل الناس إلى يسوع، فذكّرهم بما سبق له قوله عن يسوع، وبموقفه الشخصيّ منه. ومن ثمّ كانت مكانة يسوع تتسامى، يومًا فيومًا، في عيون الشعب وفي نفوسهم، وغيظ الفرّيسيّين يزداد استعارًا وجيشانًا، وعزمهم على اضطهاده وإلغائه يتنامى إصرارًا وشراسةً. فعمّموا على جميع المجامع رسائل تدعو إلى ملاحقته وملاحقة تلاميذه أينما وُجدوا ومعاقبتهم بكلّ الوسائل.

إزاء هذه الفورة الجهنميّة غادر يسوع منطقة الأردنّ، ومن خلال السامرة والجليل، يمّم شطر تخوم صور وصيدون في حين عاد قسمٌ من تلاميذه، مؤقّتًا، إلى بيوتهم ومشاغلهم.

يسوع يبشّر الجليليّين المهملين وسكّان صور وجوارها

في هذه الأثناء ألقى هيرودس القبض على المعمدان بضغطٍ من زوجته، فهيرودس كان يُجلّ يوحنّا، وغالبًا ما كان يزوره، ولكنّه كان يضيق ذرعًا بتنديده المطّرد بزواجه من زوجة أخيه. وإرضاءً لها، أودعه سجنًا، حيث لم يكن متاحًا لأحدٍ زيارته أو الاتّصال به. ثمّ بعد ستّة أسابيع اعتقالٍ، أطلق سراحه.

وفيما كان يسوع يجتاز السامرة، كانت فئةٌ من تلاميذه تذيع أفعاله الخارقة في كلّ مكانٍ، وكان أندراوس أكثرهم اندفاعًا في هذا الميدان، واتّفق له أن التقى واحدًا من الكتبة يدعى برثلماوس، من ذوي النوايا الطيّبة، فاستفاض في التحدّث إليه عن يسوع. وكان أندراوس يتوسّم خيرًا في برثلماوس هذا، وكان شديد الرغبة في أن تضمّ جماعة المعلّم مثقّفًا مثله، وكان قد فاتح بشأنه يسوع الذي أكّد له أنّ برثلماوس هذا سينضمّ إليهم لاحقًا. وبعد مضيّ فترةٍ وجيزةٍ، رأى يسوع برثلماوس مارًّا، فقال لأندراوس: "إنّي أعرفه، وسيتبعني. إنّي أستشفّ فيه خيرًا، وسأدعوه عندما يحين الأوان".

وفيما كان يسوع في طريقه إلى صور التحق به عددٌ من تلاميذه وذوي قرباه، فحرّضهم على الصبر في المحن التي تنتظرهم، وأرشدهم إلى ما يتوجّب عليهم فعله، وكلّف بعضهم برسائل إلى ذويه وبعض تلاميذه.

واتّسمت تلك الرحلة بالمشقّات، إذ لم يكن يحظى أحيانًا مرافقوه إلاّ بخبزٍ جافٍّ لا يمكن أكله إلاّ بعد تبليله طويلاً بالماء. وفيما هو كان يعلّم ويشفي في أراضي صور وصيدا، ولا يرافقه سوى حفنةٍ من تلاميذ غير معروفين كان الفرّيسيّون ينفذّون خطط اضطهاداتهم، فيستدعون تلاميذه إلى المجامع والمدارس كي يدلوا باعترافاتهم عن تعاليم يسوع ونواياه، وعن علاقاتهم به، وينكّلون بهم بكلّ الوسائل. وقد قيّدوا ذات مرّة أيدي بطرس وأندراوس ويوحنّا، ولكنّ القيود فُكّت بقوّةٍ سماويّةٍ، فاضطرّ الفرّيسيّون إلى إطلاق سراحهم سرًّا، على أن يعودوا إلى مزاولة الصيد في مسقط رأسهم.

ولّما عاد يسوع من صور وصيدون جاء سرًّا إلى كفرناحوم حيث طمأن قلب أُمّه، وما لبث أن انضمّ إليه التلاميذ ورووا له ما عانوه في غيابه، فشدّ أزرهم، وحرَّضهم على الصبر، ووعدهم بتكليفهم بنشر رسالته في مهلةٍ وجيزةٍ.

ثمّ توجّه يسوع شمالاً، حيث كانت بركةٌ موحلةٌ، محاطةٌ بتلالٍ من جانبيها وعلى سفحها مدينتان صغيرتان تفصل بينهما هوّةٌ سحيقةٌ، وأقام يسوع في كلّ منهما فترةً من الزمن، وبشّر في جوارهما، وأجرى أشفيةً. إحدى المدينتين كان يقطنها يهودٌ تخلّوا عن أصول دينهم. وكان سكّان المدينة الأُخرى من الوثنيّين، وبعض اليهود المبعثرين في زوايا أبنيةٍ مهدّمةٍ، وخاناتٍ. وكان يسوع يعلّم في بيوتٍ، متجنّبًا المجمع، ويتجوّل بحذرٍ، مع أنّ القوم هناك كانوا يرون فيه نبيًّا.

هذا الحذر كان قد واكبه، أيضًا، في صور وصيدا، حيث تجنّب التعليم في المجمع، والمجالس العامّة، مؤثرًا زيارة بيوت الفقراء، معزّيًا، مشجّعًا، معلّمًا وشافيًا. كان يرافقه تلميذٌ وفتًى في نحو الثامنة عشرة، ولكنّهما لا يواكبانه في جولاته، ويقتصران على نقل رسائله إلى ذويه وتلاميذه في الجليل.

إقامته في صور وفّرت لتلاميذه سانحةً مثلى للالتقاء به بعيدًا عن عيون الفرّيسيّين ومكائدهم، فقد لحق به إلى هناك نحو عشرين منهم أطلعوه على ما أعدّه الفرّيسيّون له ولهم من حبائل ووسائل اضطهاد، فاستفاض في تثقيفهم، وإطلاعهم على رسالته، وحضّهم على الصبر والصمود، وطلب، خاصّةً من رسله، أن يتخلّوا عن كلّ شيءٍ، من أجل الانقطاع لنشر تعاليمه حيث هم موجودون، وأكّد لهم أنّه سيعود قريبًا لكي يستأنف رسالته علنًا، ولكي يكلّفهم رسميًّا برسالتهم.

ومع أنّ معظم سكّان تلك الناحية كانوا وثنيّين، إلاّ أنّه كان هناك، أيضًا، يهودٌ ربّما منفيّون، يقطنون بيوتًا جميلةً، منعزلةً عن سائر المساكن. وكان بعضهم يستخدم عبيدًا، تحدّث إليهم يسوع فأُخذ بعضهم بحكمته وأقواله الجميلة، وبقيت نفوس آخرين مغلقةً دون النعمة.

كان بعض اليهود المنفيّين قد التمسوا إذنًا بالعودة إلى موطنهم ولكنّ الفرّيسيّين ردّوا طلبهم. وكانوا قد سمعوا عن يسوع فتمنّوا رؤيته، ولكنّهم عدّوا أنفسهم غير جديرين بهذه الخطوة، بيد أنّه عرف رغبتهم فجاءهم عبر طرقٍ جبليّةٍ وعرةٍ قاطعًا مسافة نحو ستّة فراسخ (نحو ثلاثين كيلومترًا). وهناك أجرى الكثير من الأشفية.

أشفيةٌ عديدةٌ في كفرناحوم

بعد الغداء في بيت الفرّيسيّ، عاد يسوع إلى سفح الجبل حيث أُضيئت المصابيح، وواصل تبشير الوثنيّين، ثمّ ركب السفينة مع تلاميذه وجاء إلى بيت بطرس حيث كانت تنتظره أُمّه والنساء القدّيسات. وتناول الحديث، أثناء العشاء، قضيّة الفرّيسيّين الخمسة عشر الذين كلّفتهم مدارس اليهوديّة الرئيسة، بترصّد يسوع في كفرناحوم والجهد في الإيقاع به. وكان بينهم أحد الشبّان الأغنياء الناصريّين الذين رفض يسوع ضمّهم إلى صفوف تلاميذه، وكان ذلك الشابّ بعد أن تثبّت من فشل مبتغاه في الانضمام إلى جماعة يسوع، قد انقلب إلى أشرس أعدائه، ومن أوفى المتعاونين مع الفرّيسيّين وأشدّهم رغبةً في القضاء عليه.

وكان أولئك الفرّيسيّون المناوؤون قد استفتوا العديد من أفراد الشعب ومن المسؤولين المدنيّين حول أشفية يسوع العجيبة فأجمعوا كلّهم على تأكيدها، وهم أنفسهم لم يستطيعوا أن يمسكوا عليه أيّ خرقٍ للشريعة، ممّا زادهم غيظًا، ولا سيّما أنّه أبى الانخراط في أيٍّ من مدارسهم الفرّيسيّة أو الصدّوقيّة، وأنّه كان يؤثر عليهم عامّة الشعب، والعشّارين والخطأة، ويصادق الأسّينيّين، ولأنّه بشّر السامريّين، وأجرى أشفيةً أيّام سبتٍ. وبالإجمال، مع قناعتهم بصحّة ما يقول ويفعل، لم يكن بوسعهم تأييده إلاّ بإدانة أنفسهم. ولذلك خشيت عليه أُمّه، وخشيَ تلاميذه وأصدقاؤه من استئنافه التعليم في كفرناحوم أيّام السبت، ورجوه الانتقال إلى الجانب الآخر من البحيرة، ولكنّه لم يُصغِ إلى نصائحهم، غير ساعٍ إلى تبرير موقفه هذا.

كان بطرس قد جمع في بيته عددًا من المرضى فشفى يسوع معظمهم، وأنبأ

بطرس بأنّه سيوجّه إليه في الغد دعوةً نهائيّةً، فعليه أن يتأهّب لهجر شباكه، والانطلاق صوب صيدٍ آخر، واستجاب بطرس لرغبة المعلّم، ولكن في شيءٍ من القلق، لأنّ تلك المهمّة التي يبتغي إسنادها إليه تفوق طاقاته، ولأنّه كان يعدّ نفسه غير مؤهَّلٍ لخدمة الربّ، مع إيمانه به واعترافه بقدراته الخارقة، لم يكن ليُحجم عن إعطاء كلّ ما لديه عن طيبة خاطرٍ، وعن تنفيذ كلّ ما يطلبه منه المعلّم، ولكنّه لم يكن ليتخيّل أنّ رجلاً شبه أُمّيٍ، مثله، يستأهل دعوة يسوع له، فضلاً عن رواسب قلقٍ جرّاء إهمال مهنته ومورد رزقه، في سبيل اتّباع يسوع، وتحويل منـــزله إلى موئلٍ لرجالٍ مندفعين صاخبين. هذه الأفكار والمشاعر كانت تثير في نفسه صراعًا عنيفًا. لا ريب أنّه كان يفتقر إلى مثل اندفاع أخيه أندراوس، وابنيْ زبدى، وإن ضاهاهم إيمانًا وحبًّا للربّ، ولكنّه كان متواضعًا، خجولاً، ولم يكن يجيد سوى مهنته، ويتمنّى، في سريرة نفسه، الانصراف لها وحدها حتّى آخر أيّامه.

ومن بيت بطرس شخص يسوع إلى مدينة بيت صيدا حيث كانت في انتظاره جموع المبتلين بشتّى العلل وقد فُصِلت جماعات مرضى اليهود عن مرضى الوثنيّين، وتلبّث البُرص بعيدًا عن الجميع. وقد تمّت الأشفية، ذلك النهار، بانتظامٍ غير مألوفٍ، فالمرضى كانوا ينتظرون مرور يسوع منذ يومين وفي هذه الأثناء كان بطرس وأندراوس ويوحنّا ويعقوب وتلاميذ آخرون قد تولّوا إقامتهم المريحة في حنايا الجبل الظليلة، أو في فيء الأشجار الوارفة الكثيرة في ذلك المكان. وكان التلاميذ يقتادون إلى المعلّم جماعاتٍ منهم إثر جماعاتٍ، فيعلّمهم ويرشدهم. وكان كثيرون منهم يعربون عن رغبتهم في الإقرار بخطاياهم، فيأخذهم يسوع جانبًا، ويسمع اعترافاتهم، وكان العديد منهم يركعون أمامه مذرّفين الدموع مقرّين بآثامهم، وقد اعترف وثنيّون بأعمالٍ لصوصيّةٍ وجرائم قتلٍ، فتركهم راكعين ومضى إلى جماعاتٍ أُخرى، ثمّ عاد إليهم، وأعلن لمن لمس لديهم توبةً صادقةً: "انهضوا، غُفِرت لكم خطاياكم". واعترف اليهود بخطايا زنى وربا، فصلّى مع من استشفّ لديهم توبةً صادقةً، ووضع يديه عليهم وشفاهم، وأوصى فريقًا منهم

بالتطهُّر وفق الشريعة. وقد وجّه عددًا من الفرّيسيّين نحو العماد، أو نحو من ارتدّ من ذويهم وأقاربهم القاطنين في الجليل الأعلى. وكان التلاميذ يسهرون على حفظ النظام فيما كان المرضى يمرّون بالتوالي أمام يسوع. وكان الربّ يتوخّى أن يظهر للتلاميذ طريقة سلوكٍ حيال الخطأة والمرضى ينهجون وفقها، وينهج خلفاؤهم على غرارهم على كرّ الأجيال والأزمان. فهو كان يلجأ إلى أسلوبٍ خاصٍّ بكلّ حالةٍ. فيصلّي ويضع يديه على مَن يستغرقون في تأمّلٍ سحيقٍ. وكان المقعدون ينهضون على مهلٍ ويسجدون أمام طبيبهم الإلهيّ، ومع حصولهم على الشفاء، كانوا يستعيدون قواهم ومرونة أعضائهم تدريجيًّا، في غضون ساعاتٍ أو أيّامٍ، مثل النباتات التي ذوت عطشًا والتي تستعيد قوّتها ورواءها، رويدًا رويدًا إثر ريّها، وبالإجمال كانت معجزاته تتمّ ببساطةٍ وهدوءٍ، وبعيدًا عن الإبهار.

وعقب كلّ ما أجراه من أشفيةٍ، عاد إلى المدينة لقضاء السبت، وكان المسكونون بأرواحٍ شرّيرةٍ يخرجون من محاجرهم، ويسعون وراءَه مالئين الأجواء بصيحاتهم الهستيريّة، فيأمر الأرواح بالخرس وبمغادرة أولئك المساكين، وكان هؤلاء، وقد تحرّروا، يتبعونه إلى المجمع ويصغون إليه بهدوءٍ، مثيرين دهشة الشعب. وفي المجمع التفّ من حوله الفرّيسيّون المكلّفون بمراقبته، متصنّعين الاحترام، في خشيةٍ ملحوظةٍ. وأُعطي الكتب، فانتقى نصًّا لأشعيا يقول فيه إنّ الله لم ينسَ شعبه، إذ حتّى لو نسيت أُمٌّ ثمرة أحشائها، فالله لن ينسى شعبه. وعلّق يسوع على هذا المقطع وما تلاه بقوله إنّ حتّى كفر البشر لا يحول دون رأفة الله بالمنبوذين، وأكّد أنّ الزمن الذي تكلّم عنه النبيّ قد حان، "حان الزمن الذي يلوذ فيه المدمّرون بالفرار، ويوافي البنّاؤون، وأنّ أعداد نفوس الصالحين والأبرار والمحسنين ومرشدي الشعب ستكون من الوفرة، بحيث سيهتف المجمع العقيم: "من أتاني بجميع هؤلاء الأبناء؟". وسيرتدّ الوثنيّون إلى كنيسة الله، وسيصبح الملوك خدّام المولى... وسيردّ قاتلو المخلّص حنقهم بعضهم على بعض حتّى يقضوا بعضهم على بعضٍ. وتنبّأ بأنّ أورشليم ستدمّر، إن هي رفضت ملكوت النعمة، فالربّ قد دعا وأنذر، ولكن لم

يصغِ إليه أحدٌ... وعزا إلى ذاته قول النبيّ: "آتاني الربّ اللسان والعلم، كي أتبيّن الوقت الملائم للكلام. إنّه يُعدُّني منذ الفجر، ويهيّئ أُذنيّ للسماع، إنّ تعليم الربّ يفتح أُذنيّ، وأنا لا أعصي ولا أُعارض". هذا الخطاب خضّ الفرّيسيّين فتهامسوا معترفين: "لم يعلّم نبيٌّ قطّ على هذا النحو". واستأنف يسوع متبنّيًا قول أشعيا، أنّه جهد وتألّم من أجلهم، وتحمّل الصفع والجلد، مشيرًا إلى ما عانى منهم وما سيعاني، وإلى المعاملة السيّئة التي لقيها في الناصرة، وأكّد أنّ أعداءه سيندثرون مع تعليمهم، وستلتهم النارُ الذين أشعلوها.

وحار الفرّيسيّون بما يجيبون، فاكتفوا بالهمس الساخر، ولكنّهم كانوا في سريرة نفسهم، مخضوضين.

منذ صباح اليوم التالي شخص يسوع، أيضًا، إلى كفرناحوم، وكان قد اصطفّ أمام المجمع عددٌ غفيرٌ من المرضى فشفى فئةً منهم. وكان الازدحام في المجمع وفي جواره من الشدّة بحيث انتقى يسوع مكانًا يراه منه ويسمعه حتّى المقيمون في الخارج، وعلى الأسطحة المجاورة. وفي هذه النوبة، أيضًا، أكّد يسوع أنّ نبوءة أشعيا تنطبق عليه، وأنّ ملكوت السماوات قد دنا، مضيفًا: "لطالما تقتم إلى تحقيق النبوءات، ولطالما توسّلتم مجيء المسيح الذي سيحرّركم من أحمالكم الباهظة، ولكنّكم، عندما سيحضر لن تتقبّلوه لأنّه لن يحقّق تمنّياتكم الباطلة". ثمّ عدّد العلامات التي ستشير إليه، وأعلن أنّ هذه العلامات قد تجلّت، فقد كُتِبَ: "العُرج يمشون، والعميان يبصرون، والصمّ يسمعون. أفلا تحدث هذه الأمور؟ وما يعني إقبال الوثنيّين على الاسترشاد؟ وبِمَ يصيح الممسوسون، ولِمَ تخرج الشياطين ممّن سكنتهم، ولِمَ يسبّح اللهَ المرضى الذين نالوا الشفاء؟ وأوَلا يتعرَّض النبيّ لاضطهاد أعدائه، أوَليس محاطًا بالجواسيس؟ سيطردون ابن صاحب الكرم وسيقتلونه، فما ترى يفعله لهم سيّدهم؟ إنّ الخلاص، حتّى إذا رفضتموه، لن يُهدر، ولن تقووا على حرمان الفقراء، والمرضى والخطأة والعشّارين منه. ولا حتّى الوثنيّين الذين سيمضي

إليهم بعد أن يرفضّ عنكم... لقد اعترفتم بيوحنّا نبيًّا، وهو الآن سجينٌ، فاقصدوه واستوضحوا منه لمن مهّد الدرب، ولمن شهد". وفيما كان يدلي بهذه الأقوال كان جَيَشان الحنق يتصاعد في نفوس الفرّيسيّين، فيتهامسون ويتذمّرون.

وفيما كان يسوع يخطب، شاهد، من بعيدٍ، ثمانيةً من وجهاء كفرناحوم، مصابين بعاهاتٍ غير خطيرةٍ، آتين بأربعة أشخاصٍ مصابين بأمراضٍ نجسةٍ، يجاهدون في الوصول إلى المجمع، ولكن بما أنّ الطرقات كانت تسدّها الجموع المحتشدة، اضطرّوا إلى استخدام الأسطحة مجنّبين، بذلك، الجموع عدوى النجاسة الشرعيّة، ولا سيّما أنّ الجموع كانت تتجنّبهم. ولحظ الفرّيسيّون ذلك فاستنكروا تجاسر أولئك الخاطئين الدنسين على نشر عدواهم باختلاطهم بالشعب، باقترابهم منهم، وتلطيخ طهرهم. وتناقل الحاضرون أقوال الفرّيسيّين التي انتهت إلى مسامع أولئك البائسين الذين ساورتهم الخشية من أن يتأثّر بها يسوع ويحجم عن استقبالهم وشفائهم، ويخيّب بذلك الأحلام التي طالما داعبوها، والمنى التي طالما غذّوها في نفوسهم، فتهدر سدًى مشاعر التوبة التي كانت تحدوهم. وكان الربّ قد سمع تذمّر الفرّيسيّين، واستشفّ اصطخاب القلق في نفوس طالبي الشفاء التعساء، فالتفت إليهم بنظراتٍ تقطر عطفًا وحنانًا وحبًّا، وأعلن لهم جهارًا: "مغفورةٌ لكم خطاياكم!". وتفجّرت ينابيع دموع الفرح والعزاء من قلوب أولئك المساكين، في حين ثارت براكين الغيظ من نفوس الفرّيسيّين، الذين راحوا يتمتمون: "كيف يجرؤ على هذا القول؟ وأنّى له أن يغفر الخطايا؟".

وفاجأهم يسوع بقوله: "تعالوا واشهدوا ما سأفعل، وعلام تستنكرون تنفيذي لمشيئة أبي؟ إن كنتم تأبون الخلاص لأنفسكم، فلا يسوغ لكم حرمان التائبين منه. إنّكم تستنكرون إجرائي أشفيةً أيّام السبت، فهل يد القدير تحجم عن فعل الخير في أيّام السبت، وعن عقاب الشرّ، وعن إغداق الطعام، والشفاء، والبركة، وإرسال السُّقم والموت؟ فلا تستنكروا، إذن، تنفيذ الابن أفعال الآب ومشيئته. ثمّ دنا من

المرضى، وخاطب الفرّيسيّين، الذين لبثوا بعيدين عنهم: "إنّكم تتجنّبونهم لأنّهم، في نظركم، أنجاسٌ، ولكنّهم في نظري أطهارٌ، لأنّ خطاياهم قد غُفِرت. والآن قولوا لي ما الأسهل: أن أقول للخاطئ التائب: "لقد غُفرت خطاياك" أو أن أقول للمُقعد: "قم وامشِ؟" فحاروا بما يجيبون. وحينئذٍ دنا يسوع من المقعدين، ووضع يده على رأسهم الواحد تلوَ الآخر، وصلّى مدى لحظاتٍ، وأمسك بأيديهم، وأنهضهم، وأمرهم بتقديم الشكر لله، والإقلاع عن الخطيئة، وبحمل أسرّتهم والانصراف. وهبّ المقعدون الأربعة واقفين، وساعدهم الثمانية الذين جاؤوا بهم والذين شفوا هم أيضًا من عاهاتهم على لملمة أغطيتهم وطيّ أسرّتهم التي ألقوها على أكتافهم، ومضوا، جميعهم، يفيضون فرحًا وينشدون: "مباركٌ الربّ الذي صنع معجزاتٍ، الذي رأف بشعبه، وشفانا بيد نبيّه". وشاركتهم الجموع المذهولة صيحات البهجة.

وانسحب الفرّيسيّون مغتاظين، مستائين من سلوك يسوع، الذي لا يشاركهم آراءهم، ولا يقرّ ببرّهم وحكمتهم، واختيارهم، والذي يعاشر من يزدرونهم. وكانت مآخذهم عليه عديدةً جدًّا، إذ كانوا يتّهمونه بمخالفة فريضة الصوم، وبمباشرة الخطأة والوثنيّين والسامريّين، وشتّى أصحاب السيَر السيّئة. ويأخذون عليه منشأه الغامض، وإفساحه لتلاميذه حرّيّةً مفرطةً. وبالإجمال لم يكن أيٌّ من مواقفه يناسبهم، غير أنّهم، مع ذلك، كانوا عاجزين عن الردّ على أقواله، ولم يجدوا سبيلاً لإنكار حكمته وقدراته الخارقة ومعجزاته، فلم يبقَ لديهم حيلةٌ من أجل إرواء غليل حنقهم سوى الاستبحار في الافتراء عليه.

(تعلّق الرائية على ذلك بقولها: "من يراقب حياة يسوع في ذلك الزمن يجد أنّ شعب ذلك العهد وكهنته يشبهون كثيرًا قوم أيّامنا).

وفي الحال غادر يسوع وتلاميذه المدينة، ومحاذين الجبل، جاؤوا إلى بيت بطرس في ضواحي بيت صيدا، حيث استدعوه على عجلٍ، لظنّهم أنّ حماة بطرس تصارع الموت، وفي الواقع كانت قد انتابتها حمّى شديدةٌ، وتوجّه يسوع فورًا إلى مخدعها مع

حفنةٍ من ذويها، وأسمعها بضع كلماتٍ، ووضع يده على رأسها وصدرها، فهدأت واستعادت كامل وعيها، وحينئذٍ أمسكها بيدها وأنهضها، وأوعز بإسقائها ماءً، وبارك الماء الذي جيء به إليها في كأسٍ على شكل سفينةٍ، فنفضت عنها الأغطية التي كانت ملتفّةً بها، وهجرت سريرها، وهي تشكر الربّ وتمجّده، وشاركتها الأُسرة كلّها شكرها له. ومُدّت مائدة طعامٍ اشتركت حماة بطرس في خدمتها.

ثمّ توجّه يسوع، برفقة بطرس وأندراوس ويعقوب ويوحنّا وتلاميذ آخرين، إلى مركز صيد بطرس على ضفّة البحيرة. وفيما كان الربّ يثقّفهم أنذرهم بأنّ الأوان قد حان كي يهجروا اهتماماتهم الأرضيّة، وينصرفوا، كلّيّةً، إلى اتّباعه. فارتعب بطرس وارتمى عند قدمي يسوع راجيًا أن يأخذ بالحسبان ضعفه وجهله، وألاّ يطلب من رجلٍ غير مؤهّلٍ، ولا قدرة له على تعليم الآخرين، تولّي مهمّةٍ خطيرة الشأن. وأجابه يسوع بأنّ عليه التخلّي عن كلّ قلقٍ بشريٍّ، فالذي أعطى المرضى الصحّة سيعطيهم أيضًا الغذاء الروحيّ والقدرة الضروريّة على القيام برسالتهم. كان التلاميذ الآخرون سعداء، ولكنّ بطرس وحده، من جرّاء تواضعه وبساطته، لم يستطع تصوّر كيف يمكن لصيّادٍ أن يصبح معلّمًا. ولدى عودتهم إلى بيت بطرس كان عددٌ غفيرٌ من المرضى قد تجمهروا أمامه، فشفى يسوع كثيرين منهم، وعلّم، مجدّدًا، في المجمع. ولكن، عندما اشتدّ الازدحام تسلّل يسوع من باب حديقة المجمع، واختلى في مكانٍ منعزلٍ، مطلٍّ على طبيعةٍ رائعةٍ حافلةٍ بالنباتات والأزاهير والحيوانات الرائعة، وهناك قضى الليل مناجيًا أباه، فيما كان التلاميذ يجهلون مكانه.

ومرّ يسوع بسفوحٍ مطلّةٍ على البحيرة يقيم فيها قومٌ ميسورون، لا ينتمون إلى أحزابٍ ولا مدارس دينيّةٍ، أحسنوا وفادته، واستمعوا، بمتعةٍ وتأثّرٍ، إلى تعاليمه. وهناك انسجمت أقواله مع عذوبة الطبيعة السائدة. وكان بعض سيّئي النوايا قد اندسّوا بين الحضور، ولكن لم يرُقْ لهم سماعه ولا رؤية افتتان الناس بكلامه، فانسلّوا خارجًا. وعلى مقربةٍ من ذلك المكان كانت قريةٌ معظم سكّانها من

الهيرودسيّين، فأنفذوا من يراقبه ويدعوه إلى زيارتهم فيما هم كانوا يعدّون الشعب لمقاومة فتنته، ومقاطعة خطاباته بالتذمّر والاعتراض. واستشفّ يسوع نواياهم، فلم يلبِّ دعوتهم.

أمّا سكّان المكان الذي كان فيه فاعترفوا له: "يا ربّ، عندما تتكلّم، تتعذّر مقاومة فتنتك"، فأجابهم: "لقد سمعتموني أُعلِّم، وتنامى إليكم الكثير من الأقوال عنّي، فما رأيكم بي؟" وسارع بعضهم إلى القول: "إنّك نبيٌّ". وقال آخرون: "إنّك أكثر من نبيٍّ، فما من نبيٍّ فاه بمثل أقوالك، وما من نبيٍّ فعل أفعالك"، واعتصم آخرون بالصمت، فأشار إليهم وقال: "هؤلاء هم على حقٍّ". وسأله قومٌ هل هو من أقام من الموت ابنة يائير، فأكّد ذلك، وحينئذٍ سألوه علامَ يُقيم بين ظهراني قومٍ ضالّين، فقال لهم إنّ في الصحراء ينابيع مهمّتها إرواء العطاش، وإنّ الضعفاء الذين لا يقوون على السير بقدراتهم الخاصّة يحتاجون إلى دليلٍ ومساعدٍ.

وسئل عن التهمة المعزوّة إليه بإجراء أشفيةٍ يوم السبت، فأشار إلى رعاةٍ صغارٍ يرعون مواشيهم وحملانهم الصغيرة، وسأل: "ترى إذا انزلق أحد هؤلاء الحملان إلى وحل مستنقع، وعجز الرعاة الصغار عن إنقاذه، واتّفق مرور ابن صاحب القطيع بالمكان يوم سبتٍ، أفلا يهرع إلى انتشاله؟" فأكّد الجميع أنّه سيفعل. وتابع يسوع: "وإن لم يكن الواقع حملاً، بل كان أحد أبناء الآب السماوي، وقد زلّت قدماه، ألا يهرع هو إلى إنقاذه، يوم سبتٍ؟" فصاحوا بالإجماع: "بلى، بلى!". وأشار يسوع إلى مقعدين مطّرحين على ضفاف المغاطس، وقال: "انظروا إخوتكم المعتلّين، ألا يتوجّب عليّ غوثهم، إذا هم استغاثوا بي يوم سبتٍ، أوَلا يحقّ لهم غفران خطاياهم، إذا هم تابوا يوم سبتٍ، وأقرّوا بذنوبهم في ذلك اليوم، وابتهلوا إلى أبيهم السماوي؟" وأجمعت الأصوات على هتاف: "بلى، بلى!"

وحينئذٍ أشار يسوع إلى المقعدين الذين كانوا يجرّون أجسادهم بمشقّةٍ بين الجموع، وبعد أن حدّثهم عن ضرورة الإيمان، وبعد تلاوة صلاةٍ، قال لهم: "مدّوا

أذرعكم"، فمدّوا نحوه أذرعهم العليلة، فنفخ عليها، وفي الحال شعروا بسريان البرء فيها. وارتموا أمامه شاكرين، وغمره الحاضرون بالتمجيد.

ولّما همّ بالانصراف توسّلوه المكوث معهم فترةً أُخرى، وقد أَخذ بهم التأثّر كلّ مأخذٍ، فأوضح لهم أنّ عليه المضيّ لإتمام رسالته.

يسوع يواجه الهيرودسيّين، والمعمدان يواجه هيرودس

ودخل يسوع مدينةً معظم سكّانها من الهيرودسيّين، وطلب تلاميذه من رئيس المجمع مفتاحه، لأنّ معلّمهم راغبٌ في التعليم فيه. وسرعان ما غصّ المجمع بروّاده. وراود الكتبةَ والهيرودسيّين أملٌ باصطياد خطأٍ في كلام الربّ يدينونه به. فاستغرقوا في طرح الأسئلة عليه حول ملكوتَ السماوات، ومجيء المسيح، فاستشهد يسوع بجميع الدلائل التي تشير إلى هذا المجيء، وذكّر بنبوءات المعمدان، ومختلف الأنبياء القدامى. وتظاهر خصومه بالحرص على سلامته، ونصحوه بالتحفّظ في خطابه، وبالاتّعاظ من سجن المعمدان، وأضافوا أنّهم حيثما التفتوا لا يقعون على أثرٍ للمسيح، رغم تأكيد يسوع أنّ جميع النبوءات تشير إليه. لقد فهموا تلميحه هذا، ولكنّهم تظاهروا بعدم لحظه. فجاهرهم يسوع: "علامَ تُراؤون، وترتدّون عنّي، وتزدرونني؟ إنّكم تتربّصون بي، وتحيكون المؤامرة، مع الصدّوقيّين، للإيقاع بي. وعلامَ تنصحونني بتذكّر يوحنّا واتّقاء هيرودس؟". ثمّ استفاض في سرد جرائم هيرودس أنتيباتر، والمذبحة التي ألحقها بالأطفال بغية القضاء على ملك اليهود الوليد، وسفاح هيرودس أنتيباس، وسجن المعمدان. وانتهى إلى فضح رياء ملّة الهيرودسيّين المتواطئين، سرًّا، مع الصدّوقيّين وتصوّرهم الباطل للمسيح وللملكوت وفقًا لمطامعهم. وأكّد لهم أنّهم لن يقووا على النيل منه قبل أن ينجز رسالته، وأنّه سيجوب، من بعدُ، مرّتين السامرة واليهوديّة والجليل. وقال: "لقد أجريت معجزاتٍ خارقةً أمامكم، وستشهدون، بعدُ، أعظم منها، ولكنّكم ستتعامون عنها". وذكّرهم بأحكام الله التي تنزل بالمصمّمين على المضيّ في

عماهم ونواياهم الشرّيرة. وبما أنّ الهيرودسيّين كانوا يكوّنون بدعةً سرّيّةً، تتّقي العلن، فقد شحبت وجوههم، ووجفت أفئدهم، عندما كشف الناصريّ الغطاء عمّا كانوا حريصين على إخفائه، وكذلك كان موقف الصدّوقيّين. ولم يكن للفرّيسيّين وجودٌ في تلك البلدة.

وواصل يسوع تعليمه عقب انصراف مناوئيه، وكان معظم المستمعين يتأثّرون بتعليمه تأثّرًا بليغًا، ويشهدون بأنّ تعليمه يفوق كلّ ما سبق لهم سماعه من جميع المعلّمين الآخرين، وعزموا على إصلاح ذواهم، وأضحوا، لاحقًا، من أتباعه. في حين أنّ الواقعين تحت تأثير الهيرودسيّين، والمدفوعين بتحريضٍ منهم راحوا يتذمّرون ويضجّون.

غادر يسوع ذلك المكان، وتوقّف في حقولٍ كان الحصاد فيها قائمًا على قدمٍ وساقٍ، فجال بين العاملين مخاطبًا الحاصدين والحزّامين والمعفّرين (أي ملتقطي السنابل الواقعة والمهملة). وفي كلّ حقلٍ توقّف فيه أدلى بمثلٍ، مشيرًا إلى مصير البذار الذي يقع على أرض حجرةٍ فيداس أو تنقره الطيور، والذي يقع بين صخورٍ فينبت في الحال ولا يلبث أن يذبل، والذي يسقط في تربةٍ خصبةٍ محروثةٍ ومرويّةٍ فيؤتي غلالاً وفيرةً. وتكلّم عن الزؤان الذي ينبت بين القمح وقارن كلّ ذلك بما يحدث في ملكوت السماوات.

ومساء يوم الحصاد ذاك أسهب يسوع في التحدّث إلى العمّال الذين أخلدوا إلى راحةٍ مستحقّةٍ، فقال لهم إنّ حياهم الهادئة، التي تباركها السماء، تحاكي ساقيةً تنساب عبر الحقول، وتمثّل مياه النعمة التي تمرّ بنا والتي يتعيّن تحويل مجراها إلى قلوبنا.

وفي اليوم التالي دخل يسوع مزرعةً، فشكا له صاحبها من جاره الذي لا ينفكّ يغتصب أجزاءً من أرضه ويتعدّى على حقوقه. ودعا يسوع إلى التثبّت، بنفسه، من تلك التعدّيات، التي كانت، في الواقع جسيمةً. ولكنّ الربّ سأله: "وهل يبقى لك، مع ذلك، ما يكفيك للعيش مع أُسرتك؟" فأجاب الشاكي: "أجل، بلا شكّ!"، وحينئذٍ بيّن له المخلّص أنّه لم يتعرّض لخسارةٍ حقيقيّةٍ، فالإنسان لا يملك

لنفسه شيئًا، وعليه أن يكون راضيًا، عندما يضمن أوَده الضروريّ. فما عليه أن يكتئب بسبب تعدّي جاره على جزءٍ من حقله، بل يحسن به أن يرضي طمع جاره بالتنازل له طوعًا عن أكثر ممّا يطمع به، مؤكّدًا أنّ كلّ ما يهبه عن طيبة خاطرٍ، سيلقاه في ملكوت السماوات، موضحًا أنّ الجار الطامع يتصرّف بحكمةٍ وفقًا لمبادئه، فملكوته هو في هذه الدنيا، ولذلك يجهد في تنمية خيراته الأرضيّة، غير حافلٍ بأيّ مكسبٍ في ملكوت السماوات. فلنتمثّل به في سعينا إلى اكتساب خيرات ملكوت السماوات. هذا التعليم نفذ إلى قناعة صاحب المزرعة الذي أقلع عن الشكوى من تعدّيات جاره، ووهب لاحقًا كلّ مقتنياته وأملاكه للكنيسة الناشئة، وصار أبناؤه من تلاميذ يسوع.

لقد كان يسوع عليمًا بنَزعة اليهود إلى الكسب، ولطالما حرَّضهم على اكتساب الخيرات السماويّة بمثل حرصهم واندفاعهم تجاه اكتساب الخيرات الأرضيّة.

وكان في الجوار أكواخٌ مبعثرةٌ يقيم فيها مقعدون من جرّاء إنهاك أنفسهم بالعمل، فزارهم يسوع وشفاهم جميعًا، ودعاهم للاستماع إلى تعاليمه، فانطلقوا يُنشدون أناشيد الشكر.

في تلك الأثناء كان هيرودس وزوجته في ماخيرونت، فاستدعى المعمدان إلى قاعةٍ فسيحةٍ قريبةٍ من السجن، حيث جثم على عرشٍ محاطًا بحرسه وموظّفيه وبكتبةٍ وصدّوقيّين وهيرودسيّين. وجيء بيوحنّا إلى القاعة عبر رواقٍ، وأُوقف وسط الحرس أمام الباب الكبير المفتوح، الذي دخلت منه زوجة هيرودس، ملقيةً نظرة ازدراءٍ على المعمدان، وجثمت على مقعدٍ مرتفعٍ.

وطالب هيرودس المعمدان بأن يفصح، بصراحةٍ، عن هويّة يسوع التي دوّت شهرته في الجليل، وهل هو آتٍ كي ينتزع منه موقعه، متناسيًا ما كان المعمدان قد صرّح به بشأن يسوع. كان هيرودس توّاقًا إلى معرفة مرمى يسوع من خطاباته

غريبة اللهجة والمضمون، المتحدّثة عن ملكوتٍ يزمع تأسيسه، ومن ادّعائه أنّه ابن ملكٍ، وهو ابن نجّارٍ مسكينٍ. وانتهز المعمدان تلك السانحة لكي يعلن كلّ ما يعرف عن يسوع، فتكلّم، ولكأنّه أمام جموعٍ غفيرةٍ، بصوتٍ جهيرٍ، ولهجةٍ منتصرةٍ، فاعترف بأنّه هو قد مهّد له الطريق، وأنّه، شخصيًّا، لا شيء قياسًا ليسوع، وأنّ ما من إنسانٍ، ولا من نبيٍّ ضاهاه أو قد يضاهيه لأنّه ابن الآب السماويّ، المسيح، ملك الملوك، المخلّص، الفادي، حمل الله الذي يزيل خطايا العالم، الخ... وما المعمدان، إلاّ سابقه، وأصغر خدّامه. قال ذلك بحماسٍ مضطرمٍ، وقد ارتدى كلّ كيانه مظهرًا قدسيًّا فائقًا، ارتعدت له فرائص هيرودس، فسدّ أُذنيه لكيلا يسمع المزيد.

أخيرًا قال هيرودس ليوحنّا: "أنت تعلم كم أحترمك، ولكنّك تحرّض الشعب عليّ بإدانتك زواجي. أخفض حرارة اندفاعك الباطل، واعترف، علنًا، بشرعيّة قراني، فأعيد لك الحرّيّة، وسأطلق يدك في التعليم والتعميد". ولم يكن هذا التهديد المبطّن المقنّع بالإغراء، إلاّ ليضاعف من اندفاع المعمدان في إدانة سلوك هيرودس بمزيدٍ من الصرامة، معلنًا: "إنّي أعرف مشاعرك، وأنّك تميّز بين الصواب والضلال، وأنّك تخشى العقاب الذي يهدّدك، ومع ذلك تجرّ وراءك كلّ ألوان القيود، وتبقى أسير الفجور". ولدى سماع هذه الكلمات انتاب زوجة هيرودس غيظٌ هيستيريٌّ، أرعب حتّى هيرودس الذي أمر بإبعاد المعمدان في الحال. فاقتيد إلى سجنٍ آخر لا يسعه فيه التحدّث إلى أيٍّ كان، بسبب افتقاره إلى أيّة نافذةٍ تطلّ على الخارج.

كان هيرودس قد استدعى المعمدان واستجوبه بسبب الهواجس والضجيج التي أثارها تلاميذ يسوع الجدُد، وتقارير الهيرودسيّين بشأن معجزات يسوع. فقرّر أن يُنفذ إليه ثمانيةً من أزلامه الهيرودسيّين ليقنعوه، برقّةٍ، أن يحصر تعليمه ومعجزاته على الجليل الأعلى، بعيدًا عن منطقة نفوذ هيرودس، أي الجليل وجوار الأردنّ. وكان عليهم أن يذكّروه بما حلّ بيوحنّا، وينذروه بأنّ هيرودس قد يضطرّ إلى سجنه مثلما سجن سابقه.

في هذه الأثناء كان يسوع قد وصل إلى مدينة "جينّابريس" عند بدء السبت، وكان قد تجمّع فيها العديد من الفرّيسيّين والصدّوقيّين وخصوصًا الهيرودسيّين الذين حزموا أمرهم على الإيقاع بيسوع من خلال أسئلةٍ خدّاعةٍ. وكانوا يتداولون في ما بينهم بأنّ يسوع يستطيع التملّص في القرى الصغيرة المفتقرة إلى علماء يخزونه، ولكن سيتعذّر ذلك عليه معهم، وكانوا يمنّون أنفسهم مسبّقًا بإيقاعهم به، بعد أن اتّخذوا كلّ التدابير لكي يتمّ دخوله إلى المدينة بهدوءٍ شعبيٍّ خالٍ من أيّ ضجيجٍ.

وفي الواقع دخل بهدوء، وغسل له التلاميذ أرجله عند مدخل المجمع، حيث احتشد الكتبة والشعب. استُقبل باحترامٍ مقنّعٍ، بمنأًى عن التظاهرات الصاخبة. وسُمِح له بتلاوة الكتب، فتلا فصولاً من أشعيا وعلّق عليها، وطابقها مع الواقع الماثل مشبّهًا من كُلِّفوا بحراسة الشعب بكلابٍ صامتةٍ لا تهتمّ بالعواء لطرد الدخيل المعتدي بل تكتفي بملء بطونها. وبالإجمال اتّصف خطابه بقسوةٍ غير مألوفةٍ.

وبعد أن فرغ من الخطابة تقدّم منه أحد الهيرودسيّين متصنّعًا الخضوع والاحترام، طالبًا تبيان عدد الذين سيدخلون الملكوت، فقد ترسّخت لدى من أرسلوه قناعةٌ أنّ الملكوت وقفٌ على المختونين أجمعين، في حين كانوا واثقين من أنّ يسوع لا يستبعد الوثنيّين، لا بل إنّه يستثني من دخول الملكوت حتّى بعض اليهود. وبذلك كانوا يمنّون نفوسهم بإمساكه بمأخذٍ لا مهرب له منه. ولكنّ يسوع أجاب بأسلوبٍ جعل السؤال من أساسه باطلاً، فسأل بدوره: كم هم اليهود الذين اجتازوا الصحراء، وكم منهم دخلوا أرض كنعان؟ هل اجتازوا جميعهم الأُردنّ، وكم منهم استولوا على الأرض؟ وهل هم بسطوا كامل سلطتهم عليها يومًا، وهل ما زالوا يقتسمونها مع الوثنيّين؟ أوَلم يُطردوا منها قطُّ؟. وانتهى إلى القول بأنّ لا أحد يلج ملكوته إلاّ بسلوك الدرب الوعر، ومن باب العروس (تفسّر الرائية أنّ باب العروس هو مريم والكنيسة، بعد ولادةٍ جديدةٍ بالعماد).

خلاصة القول أنّ أعداء يسوع فشلوا في النيل منه، ذلك المساء، ومن المضحك أنّهم كانوا من قبل يتبجّحون، في ما بينهم بقدرتهم على إيقاعه بيُسرٍ في أخطاءٍ تمسّ الشريعة، ولكنّهم، في حضوره، أصيبوا بالعيّ. وكان ذلك يغيظهم ويزعجهم، ومع كلّ ما كانوا يضمرون له من حقدٍ، كانوا مضطرّين إلى الاعتراف بصواب رأيه.

صباح اليوم التالي علّم يسوع ثانيةً، في المجمع، ولكنّ أعداءَه لم يحاولوا معارضته، لأنّهم كانوا قد أرجأوا معركتهم معه إلى تعليم المساء. وكانوا قد زرعوا الرعب في قلوب المرضى، فلم يتجرّأ أحدٌ منهم على الاستغاثة به.

وأشار يسوع للذين كانوا يترصّدونه في المجمع إلى الوفد الذي أرسله هيرودس، وطلب منهم إعلام أولئك الثعالب طمأنة هيرودس، فما عليه سوى إتمام القضاء على المعمدان، أمّا هو فسيتابع تعليمه في طول البلاد وعرضها، وحيثما تدعوه رسالته، وحتّى في أورشليم عندما يتوجّب ذلك، فعليه إتمام الرسالة التي أوكلها إليه أبوه السماويّ. هذه الأقوال خضّت أولئك الذين وجهّها إليهم، وسعّرت نيران غيظهم.

قضيّة الشفاء يوم السبت

كان نحو اثني عشر عاملاً مياومًا قد أنهكهم الإفراط في العمل الذي أُكرهوا عليه، فاعتلّوا وأُقعدوا، وتنامى إلى مسامعهم شفاء يسوع لنظرائهم من العمّال، فاجتاحهم الأمل في الظفر بمثل حظوتهم. فجرّوا أنفسهم متهالكين وانتظموا أمام المجمع. ومرّ المخلّص بهم، فواساهم، وحثّهم على الصبر، فاستشاط غيظًا الكتبة المكلّفون بمراقبة يسوع، والذين كانوا قد طردوا المرضى بعيدًا عن المجمع، فنهروا العمّال بفظاظةٍ، مدّعين ورعًا كاذبًا وحرصهم على الهدوء أمام المجمع، وأنّ على يسوع معالجة أمورٍ هامّةٍ، ولا وقت لديه للاهتمام بالسقماء. ولّما تلكّأ أولئك البائسون في الانصراف، طردوهم بقسوةٍ.

وتحدّث يسوع عن تقديس السبت، ولكنّه أشار إلى حفرةٍ عميقةٍ في المدينة ترعى

الحمير من حولها، وسألهم ما الذي يتوجّب عليهم فعله، إذا هوى أحد حميرهم إلى تلك الحفرة يوم سبتٍ، أفلا ينتشلونه لكيلا ينفق؟ فالتزموا الصمت. واسترسل سائلاً: "ماذا لو سقط إنسانٌ في الحفرة، يوم سبتٍ؟" فظلّوا صامتين. وسألهم: هل سيمنعون هم عن أنفسهم أيّ عملٍ خلاصيٍّ ينقذ نفسهم وجسدهم يوم سبتٍ؟ فلم يجيبوا، فقال: "بما أنّكم تصمتون، أفترض أنّكم تفتقرون إلى جوابٍ. أين هم الآن المرضى البائسون الذين استغاثوا بي عند مدخل المجمع؟ ائتوني بهم". ولّما أحجموا عن الامتثال لطلبه، قال لهم: "إذا رفضتم الإتيان بهم، فسيأتي بهم تلاميذي إليّ"، فأذعنوا، وأتوا بالعمّال السقماء، الذين دخلوا المجمع بمشقّةٍ، ولكن بفرحٍ، عقب الخيبة المريرة التي تجرّعوها عندما أُكرهوا على البعاد عن يسوع.

وأمرهم الربّ بالانتظام في طابورٍ، فتراجع الأخفّ مرضًا، إفساحًا للأكثر عجزًا فرصةً لنيل الشفاء أوّلاً. وانحدر يسوع بضع درجاتٍ، واستدعى الواقفين في المقدّمة وكان معظمهم مصابين بشللٍ في أذرعهم، ورفع عينيه إلى السماء وصلّى، بضع لحظاتٍ، بصمتٍ، ثمّ مرّ بيده، مرورًا لطيفًا، على أذرعهم، وحرّك أيديهم، ثمّ دعاهم إلى الانصراف وتقديم الشكر لله على شفائهم. وعالج كلّ مرضٍ وفقًا لحالته، وأطلقهم جميعهم معافين.

وشارك أولئك المساكين فرحتهم وشكرهم عددٌ غفيرٌ من المرضى والفقراء، وقد غاظ عددهم الكتبة، فبدأوا بالانسحاب، واحدًا تلو الآخر، خاسئين، يلوكون خيبتهم، طاوين في أعماقهم الجيّاشة الأسئلة الماكرة التي كانوا قد أعدّوها للإيقاع بالربّ، عاجزين عن كلّ جوابٍ. أمّا يسوع فواصل تبشير الجمع باقتراب ملكوت السماوات، وداعيًا إلى التوبة والتحوّل.

وفي اختتام السبت دُعي يسوع وتلاميذه إلى مأدبةٍ أقامها فلاّحون احتفالاً بالحصاد. وخُصِّصت الأماكن الأولى ليسوع وتلاميذه، وإذ بفرّيسيٍّ كان قد سبق الجمع واحتلّ مكان الصدارة. فهمس يسوع في أذنه مستفسرًا عن داعي احتلاله ذلك المكان، فأجاب أنّ لدى أهل البلدة تقليدًا حميدًا يقضي بحجز أمكنة الصدارة

للعلماء والوجهاء. وأجابه يسوع أن مغتصبي الأماكن الأولى على الأرض لن يجدوا لهم أماكن في مملكة الآب. فانتقل ذلك الرجل إلى مكانٍ أدنى يجرّ أذيال الخزي، متظاهرًا بفعل ذلك طوعًا واختيارًا. وفي أثناء الطعام، تكلّم يسوع، من جديدٍ، عن يوم السبت واستشهد بقول أشعيا: "اقتسم رغيفك مع الجائع، واستقبل في منـــزلك من لا مأوى له". ثمّ تساءل أليس من الواجب، في مثل هذا الاحتفال دعوة الفقراء إلى المشاركة، وشكر الله على وفرة الغلال. وبما أنّ رأس المائدة قد خُصّص له فواجبه الاستفسار عمّن يحقّ لهم اقتسامها، وطلب بأن يدعى إليها جميع المرضى الذين شفاهم وكلّ الفقراء الآخرين. وبما أنّ الداعين إلى المأدبة لم يبادروا إلى تلبية طلبه، هبّ تلاميذه إلى دعوة الفقراء فسارعوا إلى التلبية، وتخلّى لهم يسوع وتلاميذه عن أماكنهم، أمّا الكتبة فانسحبوا واحدًا إثر آخر، فبادر يسوع وتلاميذه، وحفنةٌ من الأشخاص الطيّبين، إلى تقديم المتبقّي من أطعمة المأدبة على القادمين الجدُد الذين غمر العزاء نفوسهم.

في مسقط رأس إليشع

قام يسوع وتلاميذه بمسيرةٍ طويلةٍ صوب الجنوب، حتّى انتهوا إلى مسقط رأس النبيّ إليشع، الجاثم، على سفح حرمون. وعملاً بتقليدٍ كان، إذّاك، جاريًا، جلس يسوع وتلاميذه على مقاعد عند مدخل المدينة مخصّصةٍ للقادمين الغرباء، الذين ينتظرون هناك من يستضيفهم في بيته. وسرعان ما وافى مزارعٌ ثريٌّ مع خدّامه، ودعا يسوع وتلاميذه إلى منـــزله حيث أعدّ لهم وليمةً دعا إليها عددًا من أصدقائه الفرّيسيّين الذين سارعوا إلى الحضور. وقد أبدى المضيف الكثير من الاهتمام والكياسة، مقنّعًا بهما غايتيْن خبيثتيْن رمى من ورائهما إلى التباهي باستقبال النبيّ في بيته، وفي الآن عينه، إخضاع هذا النبيّ في بيته لمساءلة الفرّيسيّين، ظانًّا أنّ هذه المساءلة، في جوّ المائدة، وبعيدًا عن علنيّة المجمع، قد تكون أوفر جدوى، وتحقيقًا للغرض المرجوّ.

ولكن ما كادت المأدبة تجهز حتّى اجتاح فناء بيت المضيف والطريق المفضي إليه، موكبٌ حاشدٌ وصاخبٌ من المرضى، أثار حنق صاحب البيت ومدعوّيه الفرّيسيّين، الذين همّوا بطرد الدخلاء المساكين. ولكنّ يسوع هبّ واقفًا، معتذرًا عن المشاركة في الطعام، معلنًا جوعه وحاجته إلى طعامٍ من نوعٍ مختلفٍ، وخفّ صوب المرضى وعكف على إبرائهم من عللهم. وكان بين هؤلاء عددٌ ممّن تسكنهم أرواحٌ شرّيرةٌ يجأرون باسم يسوع، فحرّرهم بمجرّد نظرةٍ، وأمرٍ، وتوصيةٍ. وكان يمرّ بيده على الأذرع المتيبّسة المشلولة، ويحرّكها، فتعود إليها قواها وحركتها، ويشفي كلّ مرضٍ بأسلوبٍ. وعلى مسافةٍ، وقفت نساءٌ نازفاتٌ محجّباتٌ، كنّ، بين فينةٍ وأُخرى، يرفعنَ طرف حجابهنَّ علّ الربّ يرى وجوههنّ الممتقعة المرهقة، ويرأف بهنّ، وصار إليهنّ، فشفاهنّ، فسجدنَ له شاكراتٍ.

وألّف جميع الذين أُنعم عليهم بالشفاء جوقةً راحت تطلق أناشيد الشكر والتسبيح، ترجّعت لأنغامها أصداء غيظٍ وسخطٍ في نفوس الفرّيسيّين المتحلّقين حول المائدة، والذين أوصدوا دونهم الأبواب، خوفًا وحنقًا. ولمّا تمادى الوقت الذي أمضاه يسوع مع المرضى والفقراء، واضطرّ المدعوّون إلى العودة لبيوتهم، لم يكن لهم مفرٌّ من اختراق أمواج الضاجّين فرحًا، وممجّدي شافيهم، وتجرّع المزيد من مرارة الخزي والحنق. وكانت تلك الخوارق قد استدعت أفواجًا غفيرةً من سكّان المدينة، وما انفكّ التزاحم يتنامى حتّى اضطرّ الربّ إلى التواري داخل البيت، بغية إيقاف الزحف الشعبيّ.

وعند الغروب أقبل خمسة لاويّين ودعوا يسوع وتلاميذه للإقامة في بيتٍ يضمّ مدرسةً لهم. فاستجاب يسوع لدعوتهم بعد أن شكر المزارع الذي كان قد أعدّ له الوليمة، وأسدى له نصائح خلاصيّةً، وحذّره من الثعالب. وفي بيت اللاويّين أصاب يسوع وتلاميذه شيئًا من الطعام، والراحة.

وزار يسوع، في الصباح، مدرسة الصبيان الملحقة بتلك الدار، حيث كان

يُثقّف أيتامٌ يهودٌ وأولادٌ محرّرون من العبوديّة. وكان الطلاّب، حينذاك، يحاولون حلّ مسألةٍ حسابيّةٍ تتعلّق بسِفر أيّوب، وتعذّر عليهم حلّها، وساعدهم يسوع على حلّها، بخطّه بضعة أحرفٍ أمامهم. وتطرّق إلى صحّة رواية أيّوب التي كان رابّيّون يشكّكون بها، لمجرّد كونها تتعلّق برجلٍ إيدوميّ لا أحد يعرفه في إسرائيل، مدّعين أنّها قصّةٌ زائفةٌ، اختُرعت لإلهاء الإسرائيليّين أثناء تيههم في الصحراء. وسرد يسوع للطلاّب كلّ تفاصيل مسيرة أيّوب، ولكأنّه شاهد عيانٍ عليها، أو لكأنّ أيّوب نفسه رواها له، سردها سرد نبيٍّ ومعلّمٍ، ولكأنّها قصّته. ما جعل الطلاّب يتساءلون هل هو أحد ملائكة الله أو إنّه الله نفسه. وكان قد انتابهم شعورٌ، منذ دخوله إليهم، أنّه، في أدنى تقديرٌ، نبيٌّ.

ثمّ انتقل إلى مدرسة الفتيات اللائي كنّ، ساعتئذٍ، عاكفاتٍ على حساب الوقت الذي يُفرض فيه ظهور المسيح، وقد دلّتهن كلّ أبحاثهنّ على أنّ ذلك الوقت قد حان، وقد ملأهنّ دخول الربّ إلى مدرستهنّ، في تلك اللحظة بالذات، تأثّرًا عميقًا، وهو أوضح لهنّ كلّ ما له بظهور المسيح صلةٌ، وأكّد أنّ المسيح جاء، فعلاً، ولكنّه ما برح مجهولاً، وأنّ كلّ الإشارات المبشّرة به قد تحقّقت. ودعا مستمعاته إلى اعتبار ذواتهنّ سعيداتٍ ومحظيّاتٍ، لأنّهنّ وُلدْنَ في الحقبة التي صبا إليها الأجداد والآباء والأنبياء، على كرّ الأجيال. وتكلّم عن الاضطهادات والآلام التي سيعانيها المسيح، مفسّرًا ما ذكرته النبوءات بهذا الشأن.

ثمّ حدّثهنّ عن يوحنّا، واستفسرهنّ عن رغبتهنّ في العماد. وروى لهنّ مَثل الابن الشاطر والدرهم الذي فقدته أرملةٌ فقيرةٌ، وفي هذه الأثناء جاء معلّمو المدرسة وثلّةٌ من الفرّيسيّين، وغاظهم أن يعزو يسوع النبوءات لنفسه.

مساء ذلك اليوم تنـــزّه يسوع واللاويّون مضيفوه والطلاّب في أنحاء المدينة، وإذ كانت فتياتٌ صغيراتٌ تتبعنَ يسوع، تقودهنّ فتياتٌ كبيراتٌ، كان يسوع يتوقّف، بين فينةٍ وأخرى، عندما تتّسع المسافة بينهنّ وبينه، كي يتيح لهنّ اللحاق

به، ويدع الفتيات يسبقنَه، ولا يكفّ يثقّف الجميع مستخدمًا أمثالاً مُستَنبَطةً من الطبيعة، بأشجارها وأزهارها وثمارها، والنحل، والطيور، والشمس والأرض والسماء، والقطعان. وكان حديثه يقطر عذوبةً.

وصباح اليوم التالي تحلّق الأولاد حوله، وكانت الفتيات الصغيرات تتشبّثنَ بثيابه، وتُمْسِكْنَ بيده، وكان يعلّمهنّ ويحضّهنّ على إطاعة والديهنّ. هذه الألفة لم تَرُقْ لليهود ولا للتلاميذ الذين عدّوها غير لائقةٍ بنبيٍّ. ولكنّه لم يأبه لرأيهم، ولّما فرغ من تعليمه أوعز إلى تلاميذه بتقديم هباتٍ بسيطةٍ للأولاد، الذين باركهم، وانصرف شطر الأردنّ، شرقًا.

تنبّؤات يسوع

على امتداد مسيرته، بشّر يسوع جماعاتٍ من الفلاّحين والرعاة، الذين كانوا يتجمّعون حول أكواخهم المنتشرة في السهل، وانتهى بعد الظهر إلى قريةٍ على مقربةٍ من نهر الأردنّ، تشطرها إلى قسمين ساقيةٌ تصبّ في النهر. تلك البلدة كانت كثيرة التضاريس، بيوتها بعيدةٌ بعضها عن بعض، ومعظم سكّانها من الفلاّحين، يعيشون معزولين، ويستثمرون، بمشقّةٍ، أراضيهم القاحلة الحجرة.

عند مدخل القرية كانت النساء القدّيسات قد أعددن له وللتلاميذ استراحةً، مجهّزةً بكلّ ما يلزم من أجل إقامةٍ قصيرةٍ، تحت إشراف لعازر وشقيقته مرتا وبتمويلٍ منهما، وأقمنَ فيها رجلاً مسنًّا، رحّب بالمخلّص وبتلاميذه، وغسل أرجلهم، وقدّم لهم الطعام. ثمّ دخل يسوع البلدة حيث رحّب به معلّمو المدرسة، وزار عدّة أُسَرٍ، وشفى العديد من المرضى. وكان هناك أكثر من ثلاثين تلميذًا قادمين من أورشليم ومن الجوار، وعددٌ من تلاميذ يوحنّا، وقد جاؤوا من قِبَله برسالةٍ إلى يسوع يرجوه فيها أن يعلن أنّه المسيح، إعلانًا جهورًا، وواضحًا، وصريحًا.

وفي صباح اليوم التالي اعتلى يسوع تلّةً في وسط القرية، حيث أُعدّ له منبرٌ، فاستفاض في التبشير، وكان الجمهور الكثيف يضمّ عشرات الفرّيسيّين المكلّفين

بالتجسّس عليه والإيقاع به. وكان تعليمه، يومذاك، طافحًا بالعذوبة، معبّرًا عن محبّته لذلك الشعب المسكين الطيّب، والذي كان يوحنّا قد أصلحه بوعظه وعماده. وقد دعا يسوع مستمعيه إلى الرضى بما قُسم لهم، وإلى التزام النشاط والرحمة. وحدّثهم عن زمن النعمة وعن ملكوت الله، وعن المسيح وعن نفسه. وأسهب في الحديث عن يوحنّا وشهادته، وعن اعتقاله وسجنه واضطهاده، من جرّاء تنديده بفسق الزعماء، في حين فُرضت عقوباتٌ قاسيةٌ، في أورشليم، على أفرادٍ من الشعب ارتكبوا أفعال زنى أقلّ بشاعةً من أفعال الزعماء، ولم يتظاهروا بخطاياهم، كما تظاهر الزعماء الوقحون. تكلّم عن ذلك بحريّةٍ وجرأةٍ، وأسدى نصائح لكلّ جيلٍ وجنسٍ، ولمختلف الظروف. وتنطّح أحد الفرّيسيّين وسأله هل هو سيخلف المعمدان، أم هو من بشّر المعمدان به، فرَدّ بجوابٍ غامضٍ، وندّد بنيّة السائل الماكرة.

ثمّ توجّه بنصائحه إلى الشبيبة، فدعا الفتيان إلى ممارسة الصبر في تعامل بعضهم مع بعضٍ، وإلى عدم الانتقام ممّن يضربهم أو يرميهم أرضًا، بل إيثار الغفران والابتعاد، وإلى مقابلة الشرّ بالخير، فالمحبّة تفرض محبّة الأعداء، وإن اشتهى زميلٌ لهم غرضًا من أغراضهم، فليهبوه له، مؤكّدًا أنّ الصبورين والمحبّين والأسخياء، هم وحدهم يظفرون بمكانٍ في الملكوت. وكان يحاول أن يصوّر لهم حقيقة الملكوت، هذا المكان الفردوسيّ، وبهاءه.

وحذّر الفتيات من الحسد ومن حبّ المظاهر، وأوصى الجميع بالطاعة، وبالبرّ بالوالدين، وبالصبر ومخافة الله.

وأخيرًا توجّه إلى تلاميذه، بكلمةٍ تقطر عزاءً، وعذوبةً، ودعاهم إلى مشاركته كلّ ما سيعانيه، وإلى انتباذ كلّ قلقٍ وهمٍّ بشريٍّ، فأبوه يُعِدّ لهم، في السماء، مكافأةً رائعةً، وملكوتًا يقتسمونه معه. وأنبأهم بالاضطهادات التي ستنـزل به، والتي سيتحمّلونها هم أيضًا. وصارحهم بقوله إنّهم، إذا أحبّهم الفرّيسيّون، والصدّوقيّون والهيرودسيّون، أو إذا امتدحوهم، فسيكون ذلك دليلاً على حيادهم عن عقيدته، ولن يعودوا تلاميذ حقيقيّين له.

وتوافدت إليه من ضفّتيّ الأُردنّ جموعٌ غفيرةٌ، إذ إنّ جميع الذين كانوا قد استمعوا إلى المعمدان باتوا راغبين في الاستماع إليه. فقصد المجمع، وفيه أعلن أنّه هو المسيح، والذين آمنوا برسالة المعمدان آمنوا بالمخلّص. وقد عزا إلى ذاته ما جاء في نبوءات أشعيا، وقال إنّ المسيح سيلمّ شملهم، وسيكون مليئًا حكمةً، وسيكون عظيمًا وممجّدًا مثلما أنّ كثيرين ارتعبوا لرؤية أورشليم مهدّمةً، وتحت أقدام الوثنيّين، كذلك سيكون مخلّصهم، ظاهريًّا، بلا ألق بين البشر ومضطهَدًا ومحتقَرًا. وسيعمّد ويطهّر وثنيّين كُثُرًا، والملوك الذين سيتلقّون تعليمه، سيخرسون أمامه، وسيراه من لم يُبَشّروا به، وسيفهمه من لم يسمعوه. وذكّر بمعجزة قانا، وشفاء العميان، والبكم والصمّ، والعرج، وإقامة ابنة يائير. معلنًا: "هذه الأمور تمّت على مقربةٍ من هنا، فاذهبوا وتحقّقوا بأنفسكم... لقد عرفتم يوحنّا الذي أعلن لكم أنّه سابق المسيح، وأنّه مكلّفٌ بتمهيد الطريق له. فهل كان يوحنّا رجلاً مائعًا، مترفًا، مستسلمًا للبذخ، وهل كان يرتدي الثياب الفاخرة؟ ألم يكن ابن الصحراء؟ هل أقام في قصورٍ، وتغذّى بأطعمةٍ لذيذةٍ، فاخرةٍ، وهل كانت لهجته متأنّقةً، ممالقةً؟ قطعًا لا! فما الذي يمكن استخلاصه من قوله: "أنا سابق المسيح"؟ ألا يرتدي الخادم زيّ سيّده؟ وهل من شأن ملكٍ، سيّدٍ ثريٍّ ومتألّقٍ وجبّارٍ مثل المسيح كما توقّعتموه، أن يرسل أمامه سابقًا مبشّرًا مثل يوحنّا؟ إنّ المخلّص هو في ما بينكم وتأبون تعرّفه، لأنّه لا يداهن، ولا يفعل ما يرضي كبرياءكم".

كانت لأقواله هذه قوّةٌ لا تقاوَم، فلم يجرؤ أحدٌ على معارضة المخلّص الذي استأنف القول: "عاش يوحنّا في الصحراء، ولم يقصد أحدًا، فلم يَرُق لكم ذلك. وأنا أطوف من مدينةٍ إلى أُخرى معلّمًا، شافيًا الأمراض، وهذا أيضًا لم ينل رضاكم. فأيّ مسيحٍ تريدون؟ إنّكم تحاكون أولادًا في الشارع يعبثون، عازفين على مختلف الآلات لعلّ إحداها ترضيكم. ولكن، لكلٍّ منكم رغبةٌ مختلفةٌ، وكلٌّ منكم يزعم فرض ما يؤثره هو على الآخرين.

في بيت أُمّه

وعاد يسوع إلى بيت أُمّه في كفرناحوم حيث كان ينتظره لعازر، وعُبيد بن سمعان الشيخ، وأبناء أخي يوسف الأريماثيّ وعريس قانا وبعض التلاميذ، وحيث كانت سبع نساءٍ مع أُمّه. دخل يسوع وحيدًا، فانحنى له جميع الحاضرين إجلالاً واحترامًا، وبادر لعازر إلى غسل رجليه، ثمّ شدّ يسوع على يد أُمّه التي انحنت له بحنانٍ وتواضعٍ. إذ لم تكن رائجةً، حينذاك، عادة العناق، بل كان اللقاء يتمّ ببساطةٍ ورقّةٍ ووقارٍ، وكانت العواطف الصادقة تتجلّى على أسارير الوجوه، ومن خلال ألَق العيون. وجاء إلى حجرة النساء اللائي ركعنَ أمامه وقد أسدلنَ الحجاب على رؤوسهنَّ المحنيّة، فباركهنَّ كما أَلف كلّما غادر البيت أو عاد إليه.

في أثناء الطعام الذي قُدِّم بهذه المناسبة، دار الحديث عن اعتقال المعمدان، الذي أحزن جميع الحاضرين، ولكنّ موقف يسوع خالفهم، وقد أكّد أنّ كلّ ما يحدث إنّما هو تدبيرٌ إلهيٌّ، وأنّ اعتقال المعمدان هو إيذانٌ للمخلّص باستهلال رسالته العلنيّة.

ثمّ انتحى يسوع بأُمّه التي هصر قلبها القلق عليه، بعد ما تنامى إليها من الأخطار المحدقة به في أورشليم وجوارها. فواساها، ودعاها ألاّ تستسلم للهواجس، فقد حان له أن يؤدّي الرسالة التي جاء من أجلها، وأنّ زمن الحداد لم يئن بعد، فلتواظب على الصلاة. وأوعز إلى جميع الحاضرين أن يلتزموا الحذر، فلا يدينوا علنًا حبس المعمدان، ولا يندّدوا بسلوك الفرّيسيّين، لكيلا يضاعفوا الأخطار التي تتهدّده، مؤكّدًا أنّ كلّ ما يحدث إنّما يندرج في سياق التدبير الإلهيّ.

وتطرّقت "سيرافيا" (ڤـيرونيكا) إلى الحديث عن المجدليّة، فأجاب يسوع: "إنّما واجبكم هو الصلاة من أجلها، ومعاملتها برقّةٍ ومحبّةٍ، وهي مقبلةٌ على تحوّلٍ جذريٍّ يجعل منها قدوةً للكثيرين". وفي صباح اليوم التالي، يمّم يسوع شطر بيت عنيا برفقة لعازر وخمسةٍ من التلاميذ.

أيّام المعمدان الأخيرة

عقب تحريره من الاعتقال الذي دام ستّة أسابيع في سجن هيرودس، استأنف المعمدان تبشيره قرب بحيرةٍ في شرقيّ الأردنّ، وقد اكتسبت نبرته مزيدًا من القوّة والحرارة، وكان صوته الجهوريّ يهزّ مسامع وضمائر نحو ألفيْ شخص محتشدين لسماعه، وكانت أقواله الناريّة تلهب حتّى الواقفين على مسافةٍ بعيدةٍ منه.

ومع أنّ شخص يسوع ورسالته كانا يحتلاّن مركز تبشير المعمدان ولبّه، إلاّ أنّه لم يتخلَّ عن التنديد القاسي بالفضائح التي تسبّب العثرات، وكان اقتران هيرودس الآثم بزوجة أخيه أحد المواضيع التي ما انفكّ يتناولها بتواترٍ وحدّةٍ.

وكانت مطلّقة هيرودس، ابنة الملك العربيّ الحارث، وقد حدّثت والدها عن المعمدان وعن جرأته وتنديده بهيرودس، فتنكّر بزيٍّ زريٍّ، واندسّ بين تلاميذ يوحنّا، كي يتسنّى له سماعه ومعرفته. ونما الأمر إلى هيرودس فوافق مع زوجته اللاشرعيّة للاطّلاع، والتأكّد من أنّ الحارث لا يسعى إلى تأليب الشعب عليه، وإشعال ثورةٍ عليه. وكان هيرودس يكظم غيظه، خوفًا من الشعب. وكانت زوجته اللاشرعيّة تتظاهر بسلامة نواياها، في حين كانت تحيك الظروف المؤاتية للقضاء على النبيّ الذي يأبى لجم لسانه.

وتجلّت لدى يوحنّا الرغبة في طيّ صفحة رسالته كي تبدأ الرسالة العظمى التي جاء ممهّدًا لها، ولذلك لم يعد يخشىَ مواجهة هيرودس، وأوعز إلى تلاميذه بزيارته عندما سيعاد إلى السجن. وأمسى يعدّهم لهذه المحنة، بتنفيذه للمهمّة التي أُرسل من أجلها، ومحدّثًا بوضوحٍ عن هويّة يسوع المخلّص الذي كان مكلّفًا بإعداد السبيل له، محرّرًا التربة من الحجارة، شاقًّا الطرقات، مادًّا الجسور، حافرًا السواقي، وبانيًا مغاطس العماد، رغم مقاومة شعبٍ من قساة الرقاب والأذهان. وما انفكّ يؤكّد أنّ الوقت قد حان من أجل اتّباع المخلّص، ابن الآب وحبيبه، بغية الظفر بالخلاص. وفي تلك الفترة صام صومًا كاملاً مدى ثلاثة أيّام، منقطعًا كلّيّةً عن

الطعام والشراب، وغدا يُكثر الاعتزال للصلاة وحيدًا، وفي الليل كان يرقد على ظهره في العراء، ويقضي متأمّلاً السماء.

وعقب انصراف هيرودس أرسل يوحنّا تلاميذه حاملين رسائل إلى جهاتٍ عديدةٍ، وفي المساء، اختلى ليصلّي. وحينئذٍ حدث ما كان يتوقّعه، إذ اقتحم خلوته نحو عشرين من جنود هيرودس. فأكّد لهم أنّه لن يقاوم لأنّ ساعته قد حانت، وأنّه سيُخلي الساحة ليسوع، طالبًا منهم ألاّ يقيّدوه، وألاّ يحدثوا أيّة ضجّةٍ قد تسبّب احتجاجاتٍ وصدامًا، فأسرعوا في اقتياده والابتعاد به، وهو لا يرتدي سوى عباءته المصنوعة من وبر وبيده عصاه، واكتفى بإلقاء نظرة وداعٍ إلى التلاميذ الذين أيقظهم مجيء الجنود.

وسرعان ما ذاع نبأ اعتقال نبيّ الأردنّ فتجمهر تلاميذه وأفراد الشعب، وراحوا يجأرون بأعلى أصواتهم استنكارًا لسجنه، وينتحبون على بعاده، متحرّقين اندفاعًا للّحاق به وإنقاذه من براثن الظالم. ولكنّهم لم يعرفوا أيّ طريقٍ يسلكون، إذ إنّ الجنود كانوا قد حادوا عن الجادّة العامّة، وسلكوا دروبًا ملتويةً متّجهةً جنوبًا. وبلغت الفوضى ذروتها، وامتلأت الأجواء نحيبًا وصيحات استنكارٍ. وفرّ تلاميذ المعمدان مذعورين، مذيعين نبأ اعتقاله، حيثما توجّهوا.

أُودع يوحنّا، أوّلاً، في برج قصرٍ مهجورٍ، حيث ما لبث الشعب أن تجمهر لرؤيته وسماعه متحدّيًا الحرس الجاهد في إقصائهم. وظهر يوحنّا من خلال نافذةٍ، وخاطب الجمهور بصوتٍ جهوريٍّ، مؤكّدًا أنّه مهّد طريق المخلّص، وأزاح دونه العقبات، معالجًا أقسى الموادّ والعقول والنفوس، وانتهى به الأمر إلى السجن، وخلص إلى القول: "والآن اِذهبوا إلى من بشّرتُ به، القادم على الطريق الذي مهّدته له. لقد وصل الربّ، فعلى سابقه أن ينسحب، فأنا لا أستأهل حتّى ربط سير حذائه، لأنّه، هو، الحقيقة، والنور، وابن الآب السماويّ..." كان يتكلّم بجرأته المعهودة التي تحلّى بها أيّام كان طليقًا.

وفي المساء استأنف الجند مسيرهم، وكانوا قد أجلسوا يوحنّا في عربةٍ واطئةٍ يجرّها حميرٌ. وداخل ما يشبه قفصًا حديديًّا، محاطًا بعدّة عناصر، اقتادوه إلى سجن "ماخيرونت" الواقع في جبلٍ وعر المسالك، وجعلوه، أوّلاً، يتسلّق دربًا يدور حول الجبل، ثمّ أدخلوه سرًّا إلى قصرٍ من خلال ثغرة مخفيّة بالحشائش، وحينئذٍ انحدروا به حتّى باب نحاسيٍّ يُفضي إلى ممرٍّ طويلٍ يقود إلى كهفٍ يأتيه النور من كوّةٍ في سقف القنطرة. ذلك السجن كان نظيفًا، ولكنّه عارٍ تمامًا.

في هذه الأثناء كان هيرودُس يجوب كالمجنون قصور أسلافه الزاخرة بالمخازي، ويروح ويجيء مذعورًا، مرتعدًا.

مريم المجدليّة

كان جدّها أميرًا سوريًّا، سُلِبَت منه أملاكه، ولكنّ ابنه استفاد من ظروف الحرب فاكتسب أملاكًا كثيرةً قيّمةً في الجليل، وفي جوار أورشليم، واعتنق الدين اليهوديّ، واقترن بفتاةٍ من أُسرةٍ فرّيسيّةٍ من عليّة المجتمع. وكان ابنه لعازر يمتلك في بيت عنيا قصرًا فخمًا محاطًا بالبساتين والحدائق المزدانة بنوافير المياه. وقد اطّلعت أُسرة لعازر على نبوءات سمعان وحنّة بشأن يسوع وعقدت صداقةً مع مريم العذراء ويوسف، رغم تباين أوضاع الأسرتين الاجتماعيّة.

كانت المجدليّة صغرى أخوات لعازر، وتيتّمت في سنّ السابعة، ومنذ نعومة أظفارها اتّسمت بالجمال، ورشاقة القوام، وتوقّد الذهن، بحيث كانت توحي، وهي في عقدها الأوّل، انطباعًا بأنّها فتاةٌ ناضجةٌ. ولكنّها كانت متقلّبة الأطوار، كثيرة النـزوات، مغرورةً، مزهوّةً بذاتها، متعجرفةً، ولذلك نفرت من والديها وذويها الذين كانوا مسرفين في التقشّف والأصوام، في حين هي كانت كلفةً بالبذخ والمظاهر، ولكنّها ورثت من أُمّها طيبةً فطريّةً كانت تدفعها إلى الإغداق في الإحسان.

وقد أسرفت أُمّها وخالتها في تدليلها، وكانتا كلفَتَيْن دائمًا بإبراز جمالها وفتنتها، وكانتا تغاليان في إلباسها أجمل الثياب، وإظهارها في أمتع مظهرٍ، وتجلسانها معهما

عند النافذة، وبذلك مهّدتا لها سبيل التيه، وغالبًا ما كانت تجلس في أفخر زيٍّ، على مقاعد فاخرةٍ، كي يُعجب الناس بها. ومنذ سنّ التاسعة اتّسم سلوكها بالنـــزق والاستهتار.

وسرعان ما تجلّت مواهبها الذهنيّة، التي أخذت تتنامى يومًا فيومًا، جالبةً لها الإعجاب والشهرة. أوتيت موهبة الكتابة، فدأبت على تدبيج أقوالٍ تثير أهواء المعجبين بها، الذين كانت تهديهم إيّاها. وأمسى الجميع يمتدحون نباهتها.

ومع ذلك لم تحِبّ يومًا، ولم تُحَبّ، حبًّا حقيقيًّا، بل كلّ شيءٍ فيها كان عُجبًا بذاتها، وعبادةً ذاتيّةً، وشهوةً عابرةً. وبذلك كانت سبب عارٍ لأخيها وأختيها الذين كانت تزدريهم بسبب بساطة حياتهم.

ونتيجة اقتسام إرث والديها كان قصر مجدلا من نصيبها، وهي اختارته لأنّها كانت كلفةً به. وفي سنّ الحادية عشرة استقرّت فيه مع موكبٍ من الخدم، وفي جوٍّ من الفخفخة التي تليق بكبار القوم. ولحق بها عددٌ من المعجبين بها، ولكن سرعان ما ارتدّوا عنها بسبب نزواتها وخياناتها، وأمسوا من أشرس أعدائها وباثّي الافتراءات عنها.

روّاد قصر المجدليّة الأوائل كانوا من علّيّة القوم، ولكنّهم لّما لحظوا تردّي جوّ القصر إلى الفسق والفجور، نأى عنه كلّ من كان حريصًا على سمعته. وحتّى بناء القصر ذاته عانى من إهمال صاحبته التي، في حرصها على بهاء قاعات الاستقبال والإقامة، لم تولِ أيّة عنايةٍ بالحدائق التي ذبلت خضرتها، ويبس شجرها، وانتشر في القصر كلّه اليباس واليباب.

واعتلّت المجدليّة ذات مرّةٍ، ووقعت في ضائقةٍ ماليّةٍ، فازورّ عنها ندماؤها وازدروها، ولكنّها ما إن استعادت عافيتها حتّى عادت إلى سلوكها المشين العابث، الذي استمرّ أربع عشرة سنةً إلى أن أيقظها وحوّلها كلام يسوع وهي في سنّ الخامسة والعشرين.

كانت قد لمحت يسوع وفُتنت بأقواله، ولكنّ هذا التأثير لم يلبث أن تبخّر، وعادت مريم المجدليّة وانغمست في مستنقع المجون، غير أنّ نساءً قدّيساتٍ ظَلَلنَ يزرنَها، ويعاملنَها بمحبّةٍ واحترامٍ، رغم انحطاطها، وأبرزهنَّ "سيرافيا" (ڤـيرونيكا)، التي كانت تنتهز كلّ زيارةٍ تقوم بها إلى العذراء، كي تقضي برهةً مع المجدليّة، وتدعوها بإلحاحٍ إلى سماع تعليم يسوع الفريد.

وجديرٌ بالذكر أنّ زائريها ممّن يمتّون بصلةٍ إلى أسرتها وأسرة يسوع كانوا يلتقونها في جناحٍ من القصر بعيدٍ عن القاعات التي كانت مسرحًا للهوها ومجونها. وكانت هذه الزيارات تزعجها وتسعدها في آنٍ واحدٍ، فالزائرون كانوا غالبًا يعبّرون عن تمنّيهم عزوفها عن سلوكها الذي يجلب العار على أُسرتها، ولكنّها كانت تستمدّ عزاءً من تلك الزيارات التي تظهر لها أنّها ما زالت تحتلّ مكانةً في قلوب قومٍ يتمتّعون باحترام المجتمع.

ومن بين زائريها كان يعقوب الكبير الذي رئف لحالها، والذي كان يتحلّى بالوقار والحكمة، والحديث الرزين المقنع، والذي كان يمتدح ذكاء المجدليّة، وارتضى أن يبلّغها دعوات أختها الكبرى مرتا. وكانت هي ترتاح إليه وتطالبه بزيارتها كلّما كان في جوارها، وكانت تلتقيه على حدةٍ، بعيدًا عن أنظار معارفها وأسماعهم، وتحيط حوارها معه بالسرّ. ولطالما دعاها إلى الاستماع، ولو مرَّةً واحدةً، إلى تعليم يسوع الأسمى روحانيّة، والأشدّ فصاحةً، والأقوى نفاذًا إلى القلوب والأذهان. وكانت تعِد بالاستجابة لدعوته، في أوّل مناسبةٍ، ولكنّها تتلكّأ في تنفيذ وعدها، وكذلك كانت تفعل كلّما دعتها شقيقتها الكبرى شخصيًّا، للاستماع إلى يسوع.

وقد أُقيمت، ذات يومٍ، في قصرها مأدبةٌ كبرى، احتفالاً بذكرى مولد أحد عشّاقها، وهو ضابطٌ يهوديٌّ، وتألّف المدعوّون من يهودٍ ووثنيّين ورومانيّين، وفنّانين، ومغامرين، ومن نساءٍ وفتياتٍ ماجناتٍ، وجميعهنّ دون أسرة المجدليّة

مكانةً، ولكنّهنّ أسيرات هوى البذخ والفجور، ويموّهنَ دناءة سلوكهنّ بالثياب الفاخرة والمظاهر الجذّابة الزائفة.

وقد استُهلّ الاحتفال برقصٍ لم تشترك المجدليّة به، بل كانت تخطر بين الراقصين، غير الآبهين بها، وهي لم تكن تأبه بزيف مظهرهم وتؤثر مجتمع العلماء والأدباء والفنّانين، إذ كانت كلِفةً بنظم الشعر.

وعقب الرقص أقبل الجميع على المائدة ودارت الأحاديث حول مواضيع شتّى، وتحدّثت المجدليّة باحترامٍ واندفاعٍ مكتومٍ عن يسوع الذي لمحته وسمعته مرّةً، والذي طالما استفاضت صديقتها "سيرافيا" (ڤـيرونيكا) في سرد صفاته ومواهبه الفريدة. فعارضها معظم الحاضرين مستغربين اهتمامها بمثل ذلك المتشرّد الفقير وبأتباعه، متناسين حقيقة شخصيّاتهم الوضيعة القذرة. غير أنّ بعض الرومانيّين من الضيوف أقرّوا أنّ شهرة يسوع امتدّت إلى روما، وأنّ علماء وأشخاصًا رومانيّين بارزين يتابعون تعاليمه بشغَفٍ وإكبارٍ.

وفي أثناء المأدبة ذكر أحد الضيوف اعتقال يوحنّا من قِبَل هيرودس، فصفّق كثيرون لهذا النبأ تصفيقًا وقحًا أحزن المجدليّة، التي غادرت المائدة في الحال.

في عينون

وصل يسوع إلى "عينون" حيث كان يوحنّا يعمّد، ووجد حشدًا غفيرًا ينتظره، واستقبله الفرّيسيّون باحترامٍ وترحيبٍ، واقتادوه مع تلاميذه إلى خيمةٍ حيث غسلوا أرجلهم وثيابهم وقدّموا لهم خبزًا وعسلاً. وأسف يسوع لانتماء أولئك القوم الطيّبين إلى ملّة الفرّيسيّين ولكنّه مضى معهم إلى المدينة، حيث احتشد مَرضى في ساحةٍ، بعضهم من سكّان تلك المدينة، والبعض غرباء، فوضع يديه على جميعهم، وشفاهم، وأسدى لهم نصائح خلاصيّةً.

وبما أنّه كان بين فرّيسيّي تلك المدينة، قومٌ طيّبون، سليمو النوايا، تحفّظ يسوع

في التنديد بتلك الفئة، كما فعل سابقًا في أماكن أُخرى، وبذلك دحض زعمهم انحيازه للعشّارين والخطأة والمتسوّلين، وأكّد تقديره لكلّ خيّرٍ، سليم النوايا، حتّى من الفرّيسيّين.

وفيما كان يسوع عاكفًا على شفاء المرضى، دخلت امرأة في مقتبل العمر، في زيٍّ غريبٍ، مرتديةً ثوبًا أبيض من الصوف الناعم، يعلوه معطف أبيض. بدت عليها أمارات الخجل والألم والقلق، وقد انثالت الدموع على وجنتيها. ولكنّ كثافة الحشد حالت دون اقترابها من المعلّم، فرجت الذين سارعوا لمواجهتها أن يقتادوها إلى النبيّ، عسى أن يغفر لها خطاياها ويشفيها. ولكنّهم زجروها قائلين: "الأحرى بك أن تعودي إلى بيتك، فهو سيأبى مقابلتك، وكيف له أن يغفر خطاياك. أو أن يخاطب زانيةً مثلك؟". ولدى سماعها هذه الأقوال القاسية، اعترى وجهها شحوب الموت، فمزّقت معطفها وانتزعت حجابها، واطّرحت أرضًا، صائحةً: "أنا، إذن، هالكةٌ. ها هم يقبضون عليّ ويمزّقونني". وفي تخبّطها ذكرت أسماء خمسة أبالسة كانوا يدخلون فيها، إبليس زوجها، وأبالسة أربعة رجالٍ آخرين كانوا قد استدرجوها إلى الخطيئة. كان منظرها مريعًا. وأنهضتها أربع نساءٍ كنّ على مقربةٍ منها، وأعدنها إلى بيتها، منتحبةً، مطلقةً صرخاتٍ تمزّق الأكباد. لحظ يسوع ما كان يجري، ولكنّ ساعة تلك المرأة لم تكن قد حانت بعدُ، وهو لم يكن راغبًا، حينذاك، في التصادم مع الفرّيسيّين.

ثمّ غادر يسوع المدينة وفي إثره تلاميذه، وفرّيسيّون، وجمعٌ من الشعب، وصعد إلى حيث كان المعمدان يعلّم، وحيث اجتمع حشدٌ غفيرٌ للاستماع إليه، فحدّثهم طويلاً، عن رحمة الله حيال البشر. ثمّ تكلّم عن المعمدان، وسأل كثيرين عن سبب تخلّفهم عن العماد على يده، وعمّا دفعهم إلى طلب العماد الآن، وعن مفهومهم للعماد. وأجابه أحدهم أنّ يوحنّا طالما أعلن أنّ آخر أعظم منه سيأتي، فآثر انتظار هذا الآخر، كي ينعم بمزيدٍ من البركات. وحينئذٍ هتف كثيرون مؤكّدين أنّهم،

هم، أيضًا، انتظروا هذا الآخر. وحينئذٍ، بلّغهم الربّ ما يتوجّب عليهم، تأهّبًا للعماد، وموعد عمادهم.

وعصر ذلك اليوم توقّف يسوع عن الوعظ، وانحدر مع تلاميذه ومرافقيه إلى المدينة، حيث كانوا قد أعدّوا له مأدبةً، ولكنّه قال لهم إنّه جائعٌ إلى طعامٍ آخر، واستفسر عن بيت المرأة التي كانت قد جاءته مستغيثةً في الصباح، والتي ردّوها يائسةً، فدلّوه إلى بيتها، فانفصل عن مرافقيه ودخل فناء ذلك البيت. وفي تلك اللحظة اعترت المرأة رعدةٌ قاتلةٌ، وأخذ الشيطان الذي كان يسكنها يطوف بها من مكانٍ إلى آخر، وهي مذعورةٌ، مثل حيوانٍ مطاردٍ، لا رغبة لها سوى التواري عن العيان. وعندما دنا يسوع، فرّت إلى قبوٍ، وتقوقعت داخل جرّةٍ كبيرةٍ، تحطّمت في الحال وانتثرت شظايا، وصاح بها يسوع: "يا امرأة سوفان... آمرك باسم الله أن تأتي إليّ، وحينئذٍ تلفّعت بمعطفها، من رأسها حتّى قدميها، وزحفت حتّى قدمي يسوع، مثل كلبٍ يخاف الضرب، فقال لها يسوع: "انهضي". فنهضت، ولكنّها شدّت معطفها حول عنقها، وكأنّها تحاول خنق نفسها. وحينئذٍ أمرها يسوع: "أسفري عن وجهك!" فامتثلت، وكان وجهها شاحبًا يعبّر عن الذعر. وكانت تتعمّد الإشاحة بنظرها عن الربّ، ولكأنّ قدرةً داخليّةً كانت تجهد في إبعادها عنه. وأمال يسوع رأسه نحوها، وقال: "انظري إليّ". فنظرت، فنفخ فيها، فارتعدت كلّ فرائصها، وتصاعد منها سحابٌ أسود منتشرًا في كلّ جهةٍ، وهوت على ركبتيها أمام يسوع. وهرعت خادماتها عند سماعهنّ ضجّة وقوعها، فأمرهنّ الربّ بحملها إلى مخدعها، وتمديدها على سريرها، ثمّ لحق بها، فوجدها تسكب وابلاً من الدموع، ووضع يده على رأسها، وقال: "مغفورةٌ لك خطاياك". فنهضت وهي ما زالت تنتحب. واندفع نحوها ابنها البالغ اثني عشر عامًا، وشقيقتاه، اللتان كانتا إحداهما في التاسعة والأُخرى في السابعة من عمرهما، ووجّه يسوع لأولئك الأطفال كلمات إرشادٍ مفعمةً عطفًا. وقالت لهم والدتهم: "اشكروا النبيّ الذي شفاني". فسجدوا له، وباركهم، واقتادهم واحدًا واحدًا إلى والدتهم، ثمّ عزّى الوالدة، ودعاها إلى مصالحة

زوجها، وإلى سلوك حياة توبةٍ نظيفةٍ وتنبّأ لها بأنّ أبناءها سيسلكون سلوكًا صالحًا، وأنّها هي ستنضمّ إلى جماعة النساء التي ستؤسّسها مرتا لخدمة تلاميذه.

كان تنديد المعمدان الناريّ بزنى هيرودس قد هزّ كيان تلك المرأة، فتمنّت الانعتاق من شياطينها، ورأت في نبيّ الجليل منقذها الوحيد، ولمّا جاءت إليه، وزجرها الفرّيسيّون وأبعدوها عنه، انتابتها موجة يأسٍ قاتلةٌ.

وكان الفرّيسيّون قد استاؤوا لأنّ يسوع أرجأ تلبية دعوتهم إلى الطعام، كي يلبّي دعوة الرحمة، ويشفي تلك التي كانوا يعدّونها عاهرةً، ولكنّهم لم يتفوّهوا بأيّة كلمةٍ في هذا الشأن، خشية أن يُنحي عليهم باللوم، ويفضح مكامن نفوسهم. ولمّا عاد يسوع إلى المائدة بعد أن شفى تلك المرأة المسكينة، أظهر قدرًا كبيرًا من التحفّظ في أحاديثه مع الفرّيسيّين الذين كان يعلّمهم بأمثالٍ. ولكن في أثناء الطعام، أقبل أبناء المرأة التي شفاها، مرتدين أبهى ثيابهم، وفي يد كلٍّ منهم قارورة عطرٍ، وتبعتهم أمّهم حاملةً إناءً فاخرًا مليئًا عطرًا باهظ الثمن، ملفوفًا بأزهارٍ بهيّةٍ.

وامتعض الفرّيسيّون من جرّاء ظهور تلك المرأة، ولكنّ يسوع قال لها: "اقتربي، يا مريم"، فوقفت بتواضعٍ خلفه، ووضعت هي وأبناؤها على المائدة الهدايا التي جاؤوه بها. فيما كان الفرّيسيّون يتذمّرون، مدّعين أنّ هذا الإفراط في السخاء يناقض شريعة المحبّة. غير أنّ يسوع عبّر للمرأة ولأبنائها عن شكره وأعطى الأطفال شيئًا من الفواكه الموضوعة على المائدة، وقال للفرّيسيّين إنّ جميع الهبات تأتي من الله، وإنّ القلب المحبّ، يهب، لقاءَ الإحسان الذي يتلقّاه، أثمن ما لديه، فلا يسوغ وصف تلك الهدايا بالإسراف.

وقال إنّ على صانعي العطور، أيضًا، أن يسترزقوا. ثمّ أوعز إلى أحد تلاميذه أن يبيع تلك العطور ويوزّع ثمنها على الفقراء. وامتدح توبة تلك المرأة، ورمّم سمعتها في أذهان الجميع، وأهاب بسكّان عينون أن يعاملوها بمحبّةٍ ورفقٍ. وأخفت المرأة دموعها بحجابها، وجثت عند قدمي يسوع ثمّ انسحبت.

وفي تلك المناسبة، حدّث يسوع الحاضرين عن الزنى، وسألهم هل منهم أحدٌ يستطيع ادّعاء نزاهته من ميول زنى. وأضاف قائلاً إنّ المعمدان لم يُبرِئ هيرودس من زناه، في حين أنّ تلك المرأة برئت وتابت.

في راموت جلعاد

ومرّ يسوع بمدينة "راموت جلعاد"، وكان أحد التلاميذ قد سبق وأشاع نبأ مجيئه القريب، فاستعدّ لاويّو المدينة، ووجهاؤها لاستقباله، واحتشد مرضى، أملاً في نيل الشفاء على يده. ولّما انتهى إلى تلك المدينة سارع أهلها إلى غسل رجليه وأرجل مرافقيه، وقدّموا لهم طعامًا وشرابًا، وهو شفى العديد من مرضاهم.

وكان أهالي القرية وفتياتها يحتفلون، يومذاك، بذكرى التضحية بابنة يفتاح، احتفالاً طبعته مظاهر الحداد والوقار، ودعوا يسوع إلى المشاركة في تلك المناسبة، فألقى خطبةً ندّد، من خلالها، بزهو الفتيات الباطل، مشيرًا إلى أنّ هذا الزهو هو الذي كلّف ابنة يفتاح حياتها، وتلت الاحتفال مأدبةٌ، فجلس يسوع على مائدة الفقراء، وروى لهم مثلاً.

ثمّ زار حيًّا يقطنه وثنيّون رحّبوا به، فشفى عددًا من مرضاهم ومُقعَديهم. وكان بينهم علماء، وفلاسفةٌ، وفلكيّون أمثال ملوك المجوس، ينشدون النور، وجاءهم النور من خلال يسوع، وحدّثهم عن الثالوث، وعن الخطيئة الأولى، وعن الفادي الموعود، وأكّد لهم أنّ الملكوت ليس حكرًا على اليهود، وأنّه جاء كي يضمّهم إلى ملكوته، لا بالسيف، بل بالنعمة والمحبّة. وقد تأثّر كثيرون منهم بأقواله، فأوعز إليهم بالمضيّ إلى عينون وتلقّي العماد، غير أنّ تلاميذه عمّدوا، في الحال، سبعة شيوخٍ كانوا عاجزين عن القيام برحلةٍ طويلةٍ.

وبما أنّ أهالي تلك المدينة كانوا حريصين على نظافتهم، فقد دعاهم يسوع إلى الطهر في الزواج أيضًا. وكان اليهود قد استاؤوا من زيارته للوثنيّين، فلمّا عاد إلى منطقتهم وإلى مجمعهم، تكلّم عن رسالته لدى الوثنيّين، مؤكّدًا أنّ كثيرين منهم

سيتبوّأون مكانهم في ملكوته قبل بني إسرائيل، وأنّه سيضمّ إلى الشعب المختار أولئك الذين فشلوا هم في اجتذابهم إلى الإيمان بالله الواحد، ولكنّهم ظفروا بالنعمة والإيمان والمعموديّة.

وجاء يسوع وتلاميذه إلى مدينة "بيت هَرَمْفتا"، حيث كان قصرٌ منيفٌ تسكنه مطلّقة التتررك فيليب وبناتها الخمس، الوثنيّة المدعوّة "أبيغايل"، وكان القوم يحبّونها بسبب عطفها وإحسانها. ولمّا علمت بوصول يسوع إلى المدينة، أرسلت إلى اليهود هدايا كي يحسنوا استقباله واستقبال مرافقيه. فرحّبوا به، ومنذ صباح اليوم التالي شفى العديد من اليهود المرضى، ومساءً وعظ في المجمع.

وأوفدت "أبيغايل" من يدعو يسوع إلى بيتها لأنّها كانت مريضةً ومكتئبةً، وتحتاج إلى من يرشدها، ورجاه اليهود أن يلبّي دعوتها لأنّها كانت تحسن إليهم. ولمّا دخل يسوع بيتها ركعت أمامه، فأنهضها، وتحدّث معها عن تحقّق النبوءات، وعن دعوة الوثنيّين، وعن العماد. وكانت "أبيغايل" قد استقدمت خَدَمًا يهودًا كي يغسلوا قدمي يسوع ويقدّموا له طعام الترحيب. وبتواضعٍ استغفرت جرأتها في دعوته، إذ إنّها كانت توّاقةً إلى سماع تعاليمه، ثمّ دعته إلى احتفالٍ كانت قد أعدّته ترحيبًا به، وتكريمًا له، وإذ كانت تساورها هواجس بسبب انفصالها عن زوجها، أوضح لها يسوع أنّ توبتها العميقة وندمها يشفعان بها، وحرَّضها على المثابرة في أعمال المحبّة، والرجاء في الله والصلاة. وكان لأقواله تأثيرٌ بليغٌ على تلك المرأة.

ومن هناك انتقل إلى مدينة "أبيلا" التي انتهى إليها بعد مسيرة نحو ثلاث ساعاتٍ، واقتاده الأهالي إلى بناءٍ كان يؤوي نحو عشرين أبكم أصمّ، وأعمى التفّوا حول يسوع، وكان الصمّ البكم يُرُونه أفواههم للدلالة على عاهتهم وهم يضحكون، فشرع يرسم على الرمل إشاراتٍ، ولدى كلّ رسمٍ، كانوا يشيرون إلى شيءٍ قريبٍ منهم. ثمّ دنا منهم ووضع أصابعه في آذانهم ولمس ألسنتهم، فاجتاحتهم رجفةٌ، ونظر بعضهم إلى بعضٍ في دهشةٍ، وأجهشوا في البكاء، ثمّ انحنوا أمامه،

وانطلقوا ينشدون. بعدئذٍ دنا من فاقدي البصر الذين التزموا أماكنهم، فصلّى، ووضع إبهامه على عيونهم، فأبصروا ربّهم ومخلّصهم، وضمّوا أصواتهم إلى أصوات الذين كان قد شفاهم من البكم والصمم، الذين غدوا، هم أيضًا، يسمعون مخلّصهم، وما لبث أن اندفع نحو ذلك المأوى سكّان المدينة، ضاجّين فرحًا وتأثّرًا، وبلغ تأثّرهم ذروته عندما شاهدوا موكب أصحاب العاهات الذين برئوا يحيطون بالمسيح، وينشدون مجد الله.

وهرعت صوب يسوع ثلّةٌ من النساء، فاقدات العقل هاتفاتٍ: "يا يسوع الناصريّ، النبيّ، إنّك نبيّ، أنت المسيح..." فأمرهنّ بالصمت فامتثلن لأمره، ووضع يده على رؤوسهنّ، فركعنَ ساكباتٍ الدموع، واقتادهنّ ذووهنّ إلى بيوتهنّ بهدوء. واخترق الحشدُ جماعةً من المسكونين بالأرواح الشرّيرة الهائجين، فاكتفى يسوع بالتحديق إليهم، وإذ بهم يزحفون نحو قدميه متأوّهين. وأمر الشياطين بالخروج منهم، فهووا أرضًا، وتصاعدت من أجسادهم أبخرةٌ سوداء، وعاد بهم ذووهم إلى بيوتهم مذرّفين دموع الفرح.

وألقى يسوع خطبةً موجزةً مذكّرًا بالنبوءات التي قالت إنّ المسيح سيعيد للصمّ السمع، وللبكم قدرة الكلام، وللعميان البصر، وها قد تحقّقت النبوءات، ولكنّ معظم اليهود يأبون الإيمان.

في "غدارا"

وصل يسوع ورفاقه إلى "غدارا" حيث ثلاثة معابد للأصنام، في حين أنّ عدد اليهود لا يتخطّى الثلاث مئة. وفي الحال قصد يسوع المجمع للصلاة، فرأى عنده جمعًا من المرضى والمسكونين وكان الفرّيسيّون والصدّوقيّون يحاولون إبعادهم لكي لا يزعجوا الضيف، ولكنّ يسوع خاطبهم برقّةٍ، ودعاهم إلى المكوث في مكانهم، وشفى العديد منهم.

وفي المجمع تناول عدّة مقاطع من نبوءات أشعيا، وأشاد بوضوحٍ إلى أنّه هو

المعنيّ بها، واستفاض في بيان الآلام التي سيكابدها، وتأكيد تغلّبه على العالم. وعند ظهر ذلك اليوم قدمت امرأةٌ وثنيّةٌ ملهوفةٌ، خجلى، ودنت، من يسوع، وتوسّلته أن يشفي ابنها، فوافى إلى بيتها بعد الظهر، واستقبله زوجها باحترامٍ، وسجدت المرأة أمامه قائلةً: "سمعت عن معجزاتك، وابني الوحيد يحتضر، وقد أعلنت العرّافة عجزها عن شفائه، فارحمنا". كان الصبيّ، في الثالثة من العمر، وقد بدت عليه أمارات الموت. وطلب يسوع استدعاء اثنين من تلاميذه، يبقيان معه، وحدهما. ثمّ حمل الصبيّ على ذراعيه، وضمّه إلى صدره، وأدنى وجهه من وجنتيه، ونفخ فيه، وفي الحال فتح الصبيّ عينيه وبدأ يتحرّك، فرفعه يسوع عاليًا، وطلب من تلميذيه وضع يديهما على رأسه ومباركته، فامتثلا، وهبّ الصبيّ معافًى.

ذلك الشفاء حاكى شفاء النبيّ إليشع لصبيٍّ، في زمانه، ورمز إلى تواضع يسوع إلى مستوى البشريّة كي يعيد لها الحياة؛ فهو يدني قلبه من قلبنا ساكبًا فيه المحبّة، وشفتيه من شفاهنا لكي يعيد لها الكلام، ونفحة النعمة. أمّا التلميذان اللذان باركا الولد فقد مثّلا خدّام العهد الجديد، الذين يساهمون مع يسوع في إنهاض البشريّة من سقطتها.

وأعطى الربّ الصبيّ إلى والديه، اللذين سجدا باكيَين عند قدميه، وهتفت أُمّه: "عظيمٌ إله إسرائيل، إنّه يفوق كلّ الآلهة،... بعد اليوم لن أعبد سواه!". وتجمهر حشدٌ غفيرٌ حول المخلّص، وجيء إليه بالعديد من الأولاد المصابين بأسقامٍ، فشفى عددًا منهم من عللٍ مختلفةٍ. وشكت أُمّهات أولئك الأطفال من تواتر اعتلالهم، وعجز العرّافة عن شفائهم، فأمر أن يؤتى إليه بتلك العرّافة، فجاءت مكرهةً، متردّدةً، مقنّعةً. وأمرها الربّ بالتقدّم منه، فاقتربت مطرقةً، لا تجرؤ على رفع أبصارها نحوه. وحينئذٍ قال يسوع للوثنيّين ونسائهم: "سأريكم الحكمة التي تمجّدونها لدى هذه العرّافة، وسأُظهر لكم فنّها". وأمر الأرواح الساكنة فيها أن تغادرها، فتصاعدت منها أبخرةٌ سوداء، وشوهد في داخلها أفاعٍ، وضفادع، وجرذان، وتنانين، وشتّى أنواع الحيوانات المقزّزة، وحينئذٍ قال يسوع: "هذه هي

التعاليم التي تتلقّوها". وهوت المرأة راكعةً منتحبةً، خاضعةً، هادئةً، وأمرها يسوع بالإفصاح عن أساليب شفائها، فاعترفت، مكرهةً، وسط وابلٍ من الدموع ومشاعر الخجل بالخدع التي تلقّنتها، إذ كانت تجعل الأولاد يعتلّون بأساليب شرّيرة، لكي تشفيهم لاحقًا وتنسب الشفاء إلى آلهتها. وحينئذٍ أوعز إليها أن تواكبه إلى مكان صنم "مولوخ"، ولم يكن هناك معبدٌ بل تلّةٌ مليئةٌ بالقبور، وفي وسطها الصنم مخبّأٌ في قبوٍ ومغطّى. وأمر يسوع كهنة الصنم بإظهار إلههم، فعملوا على إصعاده بواسطة آلاتٍ، فقال لهم: "بئس الإله الذي لا قدرة له على العناية بنفسه". وأمر تلاميذه بإلقاء الصنم أرضًا، وقال لهم: "هذا هو الإله الذي تخدمونه، انظروا الأرواح التي تعبدونها". وفي الحال خرجت من الصنم جمهرةٌ من الأشكال الشيطانيّة مرتجفةً، زاحفةً، وما لبثت أن توارت داخل الأرض تحت القبور. واعترى الذهول والعار الوثنيّين، ولا سيّما كهنتهم، واستشاط معظمهم غيظًا، ولكنّ سواد الشعب أعلن ولاءه ليسوع، فبشّرهم، وردّ كثيرين منهم إلى الله الواحد، الذي وصفه بالآب الذي ينبغي أن نضحّي له بشهواتنا ورغباتنا الباطلة، والذي لا يطالبنا بتكريمٍ سوى تكريم قلوبنا، فهو لا يبتغي أضاحي أُخرى. وحرّضهم على الارتداد والتوبة، وعرفان الجميل، ومحبّة البائسين.

صباح اليوم التالي تابع تبشير الوثنيّين، وتقبّل شكر الآباء الذين شفى أبناءهم، ومضى مع تلاميذه إلى أماكن أُخرى حيث أبرأ أسقامًا كثيرةً، داعيًا إلى التكفير عن الخطايا، والعزوف عنها، وانتظم من نعِموا بالشفاء مع ذويهم في موكبٍ وقورٍ، هاتفٍ بأناشيد الشكر، وتطويب من وقف ذاته على غوث الفقير. وقصدوا المجمع من أجل تقديم الشكر لله.

ويوم السبت الذي كان يحتفل به اليهود بعيد التكفير، قال يسوع في المجمع إنّ لا طائل من الوضوء والاغتسال الجسديّ الذي لا تواكبه طهارة النفس والقلب والنوايا.

وشوهد رئيس الكهنة، يوم ذاك، يرتعد اضطرابًا، ويئنّ ندمًا، ولم يدخل قدس

الأقداس إلاّ بعد أن التمس من المصلّين الدعاء له، فقد كان يرين عليه وقر الندم من جرّاء إسهامه في قتل زكريّا والد المعمدان، وقد ورّث وازرة جريمته إلى صهره قيافا الذي سيدين يسوع ظلمًا.

في عينون

اجتاز يسوع وتلاميذه طريقًا حافلةً بقوافل طالبي العماد، تكتنفها سهولٌ مخضلّةٌ مزهرةٌ، وفي ضواحي زينون كانت مريم السوفانيّة التي حرّرها يسوع من شياطينها قد أعدّت خيمةً رائعةً من أجل الاحتفال بالمخلّص. وقد أحاق بها أولادها الثلاثة والكهنة ووجهاء المدينة. ولدى وصوله غسل رجالٌ قدميه وأقدام تلاميذه، وأحسنوا وفادهم، وسجدت أمامه النساء، محتجباتٍ، معفّراتٍ وجههنّ بالحضيض، فبارك يسوع الجميع، وكانت مريم المذكورة تذرّف دموع الفرح والعرفان بالجميل، وتوسّلت إليه أن يشرّف بيتها بزيارته، وكان ابنها وابنتاها وكوكبةٌ من أترابهم يسيرون من أمامه ومن ورائه حاملين باقات الزهور. وفي فناء دارها وقف يسوع تحت قنطرةٍ من الأغصان والأزاهير وركعت مريم أمامه تفيض دموع فرحٍ وشكرٍ، فيما كان أولادها يشاركونها دموعها وتعابير الشكر.

وروت مريم السوفانيّة للربّ أنّ "دينا" السامريّة قد زارتها، وأنّهما تشاركتا في تمجيده وشكره، وأنّ الرجل الذي كانت "دينا" تحيا معه قد نال العماد. وأرت مريمُ يسوعَ مهارتها في صنع أزياء كهنوتيّة كانت عازمةً على إهدائها للهيكل. وتحدّث يسوع إليها بعطفٍ جمٍّ، ودعاها للرجوع إلى زوجها، وعدم هجره بعدُ.

ومن بيت السوفانيّة، انتقل يسوع إلى موقع العماد، وعلّم الجموع. ويوم السبت انضمّ إليه لعازر، ويوسف الأريماثيّ، و"سيرافيا" (ڤـيرونيكا)، وأبناء سمعان الشيخ، وتلاميذ آخرون قادمون من أورشليم، وكان قد سبقهم الرسولان يوحنّا وأندراوس، وبعضٌ من تلاميذ المعمدان. أمّا المعمدان فكان قد ضاق ذرعًا بطول انتظار إعلان هويّة يسوع الحقيقيّة، التي لم يكن هو قادرًا على إعلانها، ويتحرّق إلى

إذاعتها على الملأ فتوسّل يسوع، بكثيرٍ من الإلحاح، أن يشخص إلى أورشليم، ويميط اللثام عن هويّته ورسالته.

وبعد السبت أقامت مريم السوفانيّة ليسوع مأدبةً، في موقعٍ عامٍّ مزيَّنٍ بالخضار والزهور والأضواء، ودعت إليها جميع الذين شفاهم يسوع من أمراضهم، وقدّمت، هي وأولادها، ليسوع عطورًا فاخرةً وهي واثقةٌ من أنّ أثمانها ستنفق على الفقراء. وفي هذه النوبة لم يلمها أحدٌ تقديرًا لسخائها. وكان يسوع، صباح ذلك اليوم، قد أَجرى أشفيةً عديدةً، وسرد، في المجمع، مَثَل الابن الضالّ، وكان سرده من الاندفاع والبساطة والعفويّة، بحيث خيّل إلى مستمعيه أنّه هو الأب الذي فرح بعودة ابنه الضالّ. وعندما تحدّث عن تضحية الأب بالعجل المسمّن المعدّ لمناسبةٍ فريدةٍ، وإغداق أثمن ما لديه احتفالاً بعودة ابنه، كان يلمّح إلى الآب السماويّ الذي ضحّى بوحيده لافتداء أبنائه الضالّين، تعبيرًا عن عظمة حبّه.

وكانت سيرة الابن الضالّ، قد خلّفت أعمق أثرٍ في النفوس، فبات القوم يتعاملون بفيضٍ من المودّة، ما بينهم.

في مدينة "سكّوت"

وشخص يسوع يواكبه تلاميذه وعددٌ من أهالي عينون إلى مدينةٍ جميلةٍ قريبةٍ، تدعى "سكّوت" حيث يوجد مجمعٌ رائعٌ مبنيٌّ على تلّةٍ. وفي ذلك اليوم، كان اليهود يحتفلون بعيد المظالّ، وبذكرى مصالحة يعقوب وعيسو، وقد قدمت إلى المدينة مواكب غفيرةٌ من مدنٍ مجاورةٍ للمشاركة في تلك الاحتفالات. واحتفل كثيرون بمصالحتهم مع الله، معلنين توبتهم على الملأ، أو سرًّا، ومقدّمين الكفّارات. وكان كثيرون ممّن تأثّروا بدعوة المعمدان إلى التوبة، وبأقوال يسوع قد اختاروا ذلك اليوم من أجل إعلان توبتهم.

وفي تلك المناسبة جرى حادثٌ ملفتٌ. فقد كان بين النساء التائبات سيّدةٌ من عليّة القوم، بدت عليها أَمارات القلق والاضطراب، والضيق من طول انتظار

دورها للاعتراف، ولمّا آن لها الدخول سبقتها خادمتها حاملةً تقادمها، وتقدّمت داخل الهيكل. فهرع الكهنة لردعها وردّها إلى الوراء، ولكنّ الخادمة قاومت بجرأةٍ صائحةً: "افسحوا المجال لسيّدتي الآتية بتقادمها والتوّاقة إلى التوبة وتطهير نفسها"، وارتمت المرأة أمام الكهنة الذين أمروها بالتراجع لأنّه لا يحقّ لها الاقتراب حتّى ذلك المكان، وبالعودة إلى ما وراء الحاجز المشبّك، غير أنّ كاهنًا شابًّا جريئًا خفّ إليها وقال لها: "لا يسوغ لك أن تكوني جسديًّا في هذا المكان، ولكنّ نفسك فيه بما أنّك راغبةٌ في التوبة". والتفت الكاهن إلى يسوع وقال: "يا معلّم، احكم أنت"! وسجدت المرأة أمام يسوع الذي أعلن: "أجل، إنّ نفسها في المكان الصحيح، فدعوها تقوم بطقوس التوبة". وفي الحال دخلت مع الكاهن إلى خيمة الاعتراف، وما لبثت أن خرجت منها، واطّرحت على الأرض، وأعلنت وسط سيلٍ من الدموع: "امسحوا أرجلكم بي، فأنا زانيةٌ!"، فلمسها الكهنة بأقدامهم، واستدعوا زوجها الذي لم يكن ملمًّا بشيءٍ ممّا يحدث، ولدى دخوله إلى الهيكل سمع يسوع الذي كان في تلك الساعة على المنبر يعلّم، وتأثّر أعمق تأثّر بأقواله. واطّرحت المرأة أرضًا أمام زوجها، متلفّعةً بقناعها، يرين عليها، بكلّ ثقله، وقر العار، واعترفت بخطيئتها، وهي تنشج وتنتحب. فقال لها يسوع: "مغفورةٌ لك خطيئتك. انهضي يا ابنة الله". وكاد زوجها يبكي تأثّرًا، ومدّ لها يده، وكأنّهما يجدّدان عهدهما. وبفضل هذه المصالحة طفحت المرأة فرحًا، وفيما كانت تقدّم كفّارتها أهابت بالمجمع: "صلّوا، بخّروا، ضحّوا لكي تُغفَر لي خطاياي". لم تعلن المرأة عن اسم شريكها في الخطيئة، ولم يطلب منها أحدٌ ذلك. وكان زوجها بارًّا، فعفا، وتصالح معها صلحًا كاملاً.

واستأنف يسوع تعليمه بعد ذلك، داعيًا المستمعين إلى تصحيح بعض آرائهم الخاطئة. وعقب المأدبة التي أُقيمت بتلك المناسبة، والتي نال منها الفقراء حصّةً وافيةً، قام يسوع بإبراء المرضى الذين جيء بهم إلى جوار المجمع.

وقبل مغادرته تلك المدينة زار يسوع المرأة السوفانيّة، التي كانت قد انقلبت

انقلابًا كاملاً، وكرّست حياتها وأموالها كلّها لغوث المرضى والفقراء. وكان يسوع قد أوفد إلى بيت عنيا رسولاً من أجل إطلاع النساء القدّيسات على هذا التحوّل، ويدعوهنّ إلى زيارتها، وفي الواقع ما عتّم أن شخصت إلى منـــزلها كلٌّ من "سيرافيا" (ڤـــيرونيكا)، وحنّة زوجة كوزا، ومرتا.

وكان يسوع قد تلقّى هدايا كثيرةً وثمينةً، فأوعز بتوزيعها، في الحال، على المحتاجين، ولدى مغادرته المدينة، كانت بيوتها كلّها قد زُيّنت تعبيرًا على فرح أهاليها بزيارته، وكان الجميع يُشيدون بمديحه. وقد شيّعه موكبٌ غفيرٌ من أهالي المدينة.

عيد المظالّ في "سيلو"

"سيلو" مدينة شبه مهجورةٍ، كان تابوت العهد قد أُودع على قمّتها قديمًا. وفيها منبرٌ حجريٌّ في الهواء الطلق استخدمه يسوع للتعليم، ولا سيّما أنّه كان يُسمح لأحد علماء الناموس، في ذلك اليوم، أن يلقي خطاباتٍ قاسيةً مليئةً بالتنديد والنُذر. وقد جاء يسوع لكي يلقي خطابًا من ذلك النسق.

واحتشد لسماعه سكّان الأكواخ المبعثرة على تلك التلال، وجاءت كلّ أُسرةٍ منهم مزدانةً بلونٍ وزيٍّ خاصٍّ من الزهور والنباتات. وقد امتدّ خطاب يسوع حتّى الظهر، وتحدّث عن رحمة الله بشعبه، وفساد هذا الشعب وضلاله، وعن دمار أورشليم وهيكلها، منذرًا اليهود، إن هم أعرضوا عن أيّام النعمة المفسوحة لهم في ذلك الوقت، بألاّ ينعموا، بعدُ بالنعمة، كشعبٍ، حتّى آخر الأزمنة، وبأنّ دمار هيكلهم سيكون أكمل وأعمّ من أيّ وقتٍ سبق... وقد أصغى إليه الحضور بتأثّرٍ، وصمتٍ وجزَعٍ. وكان يسوع بتطبيقه النبوءات على الواقع الراهن، أعلن بوضوحٍ أنّه هو من جاء لهم بالخلاص. وكان الفرّيسيّون قد استقبلوه باحترامٍ زائفٍ، ولم يردّوا على خطابه بكلمةٍ، مع ما اعتراهم من ذهولٍ وغيظٍ، في حين عبّر الشعب عن فرحه بإنشاد مدائح الربّ.

وفي المساء دعي إلى عشاءٍ تحت قناطر الأغصان، مع الفرّيسيّين، ولكنّه لم يطق

رفقتهم، ونأى عنهم، وجلس مع أفراد الشعب وأكمل تبشيرهم وتعزيتهم، واختار لذلك ناحيةً نائيةً بعيدةً عن أنظار الفرّيسيّين ومراقبتهم.

وقد جاءه كثيرون من البائسين كي يبوحوا له بهمومهم وهواجسهم ويعترفوا بخطاياهم. ولكن بما أنّ الفرّيسيّين كانوا قد منعوا المرضى من الاقتراب، لم يُجرِ يسوع أشفيةً هناك، في ذلك اليوم.

الأعمى التلميذ

كان في قريةٍ قريبةٍ من "سيلو" شابٌّ أعمى وسيم المحيّا، ابن أُسرةٍ أسّينيّةٍ كانت تحبّه، وتلبسه أبهى الثياب، وكان ذلك الشابّ قد أصغى إلى مواعظ المعمدان واعتمد على يديه، واكتسب نعمة النبوّة، وألِف أن يجمع من حوله ثلّةً من الشبّان، ويبشّرهم بقرب مجيء المسيح، متحدّثًا عنه بحميّةٍ واندفاعٍ. ولكنّ الفرّيسيّين كانوا يسخرون من نبوءاته. وقد جاؤوا به إلى يسوع وهم واثقون أنّه سيعجز عن منحه نعمة البصر. ولّما دنا يسوع، أذهل الأعمى الحضورَ بمبادرته إلى الجري نحوه، والركوع عند قدميه، بلا عونٍ من أحد. وأنهضه الربّ، وطرح عليه جملة أسئلةٍ حول الدين، والوصايا العشر، والإيمان، والنبوءات. وحلّ الروح على ذلك الشابّ، فأدلى بأجوبةٍ تخطّت، بحكمتها وصوابها، كلّ توقُّعٍ، مدهشًا الجمعَ المحتشد، وتنبّأ بالاضطهادات التي سيتعرّض لها يسوع، وتوسّل إليه ألاّ يخاطر بالمضيّ إلى أورشليم حيث يعتزمون القضاء عليه. وسأله يسوع: "هل ترغب في رؤية قناطر الأغصان الخضراء، والجبال، والأُردنّ، وذويك وأصحابك، والهيكل، والمدينة المقدّسة، وأنا الماثل أمامك؟" وأجاب الأعمى أنّه يرى الربّ ووصف قسماته وثيابه، موضحًا: "لقد رأيتك حالما وصلتَ، وإنّي راغبٌ في رؤية كلّ الأشياء الأُخرى. وأنّي لموقنٌ أنّك قادرٌ على منحي البصر، إن أنت شئت". حينئذٍ لمس يسوع جبينه، وصلّى، ورسم صليبًا على جفنيه المغمضين، وفتحهما بإبهامه، وقال له: "إنّي أهبك نورًا مزدوجًا، النور الخارجيّ والنور الداخليّ". وفي الحال أجال

الأعمى عينيه من حوله، وامتلكته الدهشة والفرح، وهتف: "ما أعظم أعمال العليّ!". وارتمى راكعًا أمام يسوع الذي باركه. وأُرتجَ على الفرّيسيّين، فخرسوا، فيما أحاط ذوو الشابّ به، وانطلق هو ينشد أناشيد ملهمةً عن يسوع وعن تحقيق الوعد الإلهيّ. ولكي يفحم الفرّيسيّين حدّد الطرق التي سلكها الربّ في طريقه إلى ذلك المكان، وعن عماده في الأردنّ، وحلول الروح عليه، وصوت السماء الذي أكّد ألوهته. ثمّ طاف في كلّ أرجاء المدينة، مسبّحًا الله، ومنشدًا مجده. وقد أصبح، لاحقًا، أحد تلاميذ الربّ. ورجا يسوع أن يشرّف ذويه بزيارة منــزلهم، فلبّى طلبه، واستقبله ذوو الشابّ بالترحيب، والبهجة والشكر، وقال له والده: "إنّي أضعه في خدمتك، وأرجوك أن تتقبّله، وكأنّه آخر خدّامك، وآخر رسل تلاميذك، وليسبقك في أسفارك، كي يعدّ لك مقامًا". وتقبّله يسوع، بطيبة خاطرٍ، وأوفده في الحال، مع أحد تلاميذه، إلى بيت عنيا، كي يسعد لعازر الذي كان قد عرف الشابّ وهو أعمى، ويفرح بشفائه.

أمّا الفرّيسيّون، فتمويهًا لغيظهم وخيبتهم، وفي محاولةٍ لتخفيف وقع ذلك الشفاء العجيب على الناس، أشاعوا أنّ ذلك الشابّ لم يكن قطّ أعمى، وأنّه، بصفته أسّينيًّا، إنّما كان قد نذر التظاهر بالعمى...

تعاليم صارمةٌ وأشفيةٌ

وجاء يسوع إلى مدينة "أروما" حيث استقبله الفرّيسيّون بمظاهر الاحترام، ودعوه إلى التعليم في مدينتهم، على ألاّ يثير أيّ اضطرابٍ في الشعب، فأجابهم حازمًا، أنّه لا يعلّم إلاّ الحقيقة الموجودة في كتبهم.

وفي المساء علّم في المجمع، مستقريًا تاريخ اليهود، ودعوة موسى، وإقامته في مصر. ثمّ دُعي إلى وليمةٍ عامرةٍ امتدّت ساعاتٍ، ولكنّه لم يتناول من الطعام سوى الزهيد، وفيما كان الجميع منهمكين في التهام الأطايب، كان هو لا يني يتنقّل من مائدةٍ إلى أُخرى، معلّمًا وساردًا الأمثال.

تكلّم عن ظهور الله لسليمان ووعده بحماية الشعب اليهوديّ، إن هو ظلّ له وفيًّا، أمّا إذا زاغ عنه فسيهجر الهيكل ويدمّره. وقال لمستمعيه: "لقد مضيتم بعيدًا في الضلال، وما لم ترعووا وتتوبوا، فهيكلكم سيُدَمَّر". وردّ الفرّيسيّون بأنّ الله لم يتلفّظ بمثل هذه الأقوال، وأنّها من ابتكار خياله. واحتدمت المواجهة، ولكنّ الوقار الذي كان يتجلّى في سلوكه حطّم عنجهيّتهم، فخافوا أن ينظروا إليه. ومضى هو في تعداد ما أحدثوه من تشويهٍ للحقائق الأبديّة، وتزويرٍ لتاريخ سائر الشعوب، مثل تاريخ مصر، متسائلاً كيف يخطر لهم أن يلوموا شعوبًا وثنيّةً، في حين هم أمعنوا في تشويه كلام العليّ، بما يلائم أهواءهم وغاياتهم. مؤكّدًا لهم أنّه بقدر ما يتراخى إيمانهم ويفسد، تتخلخل أساسات الهيكل، وسيكونون هم مدمّريه. وكان يسوع يتكلّم عن الهيكل باندفاعٍ وكأنّه يتكلّم عن جسده الذي سيدمّره اليهود.

وعبّر الفرّيسيّون عن امتعاضهم بتذمّرٍ خافتٍ، لم يُلقِ إليه يسوع بالاً، وتابع خطبته بسلطةٍ علويّةٍ، لا سبيل إلى مقاومتها. ولدى خروجهم من المجمع صافحه الفرّيسيّون مصافحةً مرائيةً، وعرضوا عليه سلامًا كاذبًا، واستصفحوا عن معارضتهم لأقواله، واكتفى يسوع بتأنيبهم تأنيبًا رقيقًا، وغادر المكان.

وكان المرضى، في تلك المدينة، قد بقوا في منأى عن يسوع خوفًا من الفرّيسيّين، ولكنّهم بلّغوا تلاميذه رغبتهم في مقابلته وظفرهم بشفائه لهم، وحدّدوا لهم مكان إقامتهم، فطاف يسوع بهم ليلاً بكتمانٍ، وشفى كثيرين ممّن كانوا يؤمنون بقدراته.

وفي صباح اليوم التالي أخذ على الفرّيسيّين تشبّثهم بتقاليد، أُفرغت من العبادة الصحيحة، وشبّهها بقشور محارٍ أُفرغت من محتواها.

ثمّ انتقل إلى مدينةٍ في السامرة، حيث كان لعازر قد أعدّ مكان إقامةٍ له ولتلاميذه، فقضى ليلته هناك. وفي صباح الغد شفى جمعًا من المرضى المصابين بشتّى الأمراض، إذ ما كاد سكّان تلك المدينة وسكّان القرى المجاورة يسمعون بحضوره

حتّى جاؤوا بمرضاهم إليه. وكانت أساليب شفائه متعدّدةً، وكأنّه كان يلقّن تلاميذه أساليب شفاءٍ تلائم كلّ الحالات. فكان يشفي، أحيانًا بنظرةٍ أو بكلمةٍ، أو بوضع أيديه على المريض، أو بالنفخ عليهم ومباركتهم... وكان بعضهم يبرأ لمجرّد لمسه، وبعضهم يبرأون عن بعدٍ، وحتّى إن لم يرَهم. كان هو سيّد الشفاء غير الملزَم بأسلوبٍ أو طقسٍ. وكان يطرد الشياطين بأشكالٍ مختلفةٍ. لم يكن يدمّر نظام الطبيعة بل كان يحرّرها من قيودها، ولم يكن يقطع العقَد بل كان يفكّكها إذ كان العليم بكلّ الأسرار، بصفته إنسانًا وإلهًا معًا. وكان يستخدم الوسائل البشريّة ويقدّسها. وفي أثناء تجواله انتهى، مساءً، إلى قريةٍ مؤلّفةٍ من صفّ بيوتٍ يسكنها أناسٌ طيّبون، تنافسوا على استضافته، ووقع خياره على بيت أُسرةٍ يدعى ربّها "عبيد" رحّب به وبتلاميذه أجمل ترحيبٍ، وكان "عبيد" ملتزمًا بالخصال الحميدة، سخيًّا في الإحسان، عطوفًا على بناته، وكان له ابنٌ في السابعة من العمر، يرافق أخاه الأكبر إلى الحقل ويساعده في العمل، وكان شديد الورع، وحريصًا على الركوع للصلاة، ليلاً، في الحقل، ولكنّ هذا السلوك لم يكن يروق لأخيه الأكبر. ولكنّ الوالد كان مستاءً من موقف الأخ الأكبر، وفخورًا بورع ابنه الأصغر، واستشار يسوع في الأمر، فأيّد موقف الأخ الأصغر، وكلّمه بعطفٍ جمٍّ، وباركه. ولاحقًا انضمّ ذلك الفتى إلى تلاميذ المخلّص.

بشّر يسوع في حقول تلك القرية، وبين الرعاة، وممّا قاله أنّ ملكوت الله سيُنـــزع من اليهود وسيُعطى للوثنيّين. ولكنّ "عبيد" اعترف قائلاً إنّه لو سمع الوثنيّون هذه الأقوال لتولاّهم الغرور، ولكنّ يسوع ردّ عليه أنّهم إنّما سيُختارون بسبب تواضعهم. وحذّره هو وأفراد أسرته من ادّعاء الصلاح والفضيلة، والرضى عن أنفسهم، إذ إنّهم كانوا راضين عن ثمار حياتهم البسيطة، المكتفية، والمنظّمة، فحذّرهم من أن ينقلب هذا الرضى كبرياءً. وفي هذا السياق سرد لهم مثل الوزنات.

انضمام يهوذا الإسخريوطيّ إلى جماعة يسوع

بعدئذٍ، مرّ يسوع بقريةٍ شرقيّ السامرة تدعى "ميروز" يقطنها قومٌ، كان اليهود يعدّونهم سلالة زلفا خادمة ليا، وبالتالي نبذوهم وهمّشوهم، فاستولى عليهم الجبن والتخاذل في الحروب التي خاضها اليهود مع شعوبٍ أُخرى، فلم ينجزوا أيّ عملٍ مجيدٍ، ولم يتعرَّضوا لسوءٍ، ولكنّهم تردّوا إلى الانحطاط. ولّما تنامى إليهم نبأ مجيء يسوع خفّوا للقائه خارج القرية، وجاؤوه بثيابٍ وأحذيةٍ نظيفةٍ، وتطوّعوا لغسل ثيابه ورجليه، فشكرهم، ولكنّه آثر مواصلة السير مع تلاميذه إلى نزلٍ، حيث غُسلت أرجلُهم، وتناولوا طعامًا. وقدم فرّيسيّون للترحيب به ولدعوته إلى التعليم، مساءً في المجمع. فتكلّم عن الخادم الكسول والوزنة التي طمرها في التراب عوضًا عن استثمارها. وأخذ على الفرّيسيّين الكسالى تمويه كسلهم، بمبادرات اللحظة الأخيرة، وأخذ عليهم افتقارهم إلى المحبّة، وكراهيّتهم لجيرانهم السامريّين، فامتعض الفرّيسيّون، وسُرَّ الشعب.

بعدئذٍ حلّ يسوع في نزلٍ قريبٍ من حقلٍ يخصّ لعازر، كان هذا الأخير قد أعدّه لاستقبال الربّ ورفاقه، وحيث كان قد سبَقَه عددٌ من التلاميذ، وانتحى برثلماوس وسمعان الغيور بيسوع، وكلّماه عن يهوذا الاسخريوطيّ. وكان هذا الأخير قد طلب منهما أن يزكّياه لدى يسوع ويقنعاه بقبوله بين تلاميذه. وقد أكّدا معرفتهما له، ووصفاه بالمثقّف، الأرِب، الخدوم، والراغب في الانضمام إلى الرسل. تنهّد يسوع لسماعهما، وتجلّت عليه أمارات الحزن، ولّما سألاه عن سبب حزنه أجاب: "لم يحنْ، بعدُ، وقت الحديث عن ذلك، ولا بدّ من إخضاع هذا الأمر للتفكير".

كان يهوذا، حينذاك، في نحو الخامسة والعشرين، ربع القامة، على شيءٍ من الوسامة، أسود الشعر، يفوق معظم اليهود في أناقة ملبسه، طَلِق اللسان، مولعًا بالمظاهر التي توحي بعظمة شأنه. كان يوحي للجميع أنّه على علاقاتٍ وثيقةٍ مع العظماء وأصحاب الجاه. وحيث لم يكن معروفًا كان يغالي في تعظيم ذاته. كان طموحًا، كَلِفًا بالمال والأمجاد، وطالما طمح إلى احتلال مركزٍ مرموقٍ، وإلى التكريم،

وإلى الثروة. وكانت حياة يسوع العلنيّة قد استولت على اهتمامه، إذ كان يشهد تلاميذه مكتفين مادّيًّا، ولعازر الثريّ يوفّر ليسوع بسخاءٍ كلّ ما يحتاج إليه، وكان يظنّ، مثل كثيرين، أنّ يسوع سيؤسّس مملكةً، فقد كان يُقال عنه أنّه ملك اليهود، والمسيح الموعود، ونبيّ الناصرة، وكانت معجزاته وحكمته على كلّ لسان. ومن ثمّ تمنّى أن يكون أحد تلاميذه، ويظفر بالتالي بحصّةٍ من مجده الذي كان يظنّه، عالميًّا، مادّيًّا، أرضيًّا. وتمهيدًا لذلك كان ينشر مديحه حيثما حلّ، وتعرّف على عددٍ من تلاميذه. وها قد أمسى على خطواتٍ منه، والتهب رغبةً في الالتحاق بجماعته، ولا سيّما أنّه كان قد طرق باب التجارة، وفقد فيها كلّ ماله، واضطرّ إلى امتهان أعمال السمسرة لحساب أشخاصٍ عديدين، باذلاً كلّ جهده لإرضائهم، ولإبراز مواهبه.

كان ذووه رحّلاً، وقد أقاموا، فترةً، في قرية إسقريوط، المؤلّفة من عشرين بيتًا، وكان أبوه قد توفّي، فلبث مع أُمّه واستثمر أرض العيلة الزراعيّة، ولبث في تلك القرية، إثر وفاة جميع ذويه، وبذلك اكتسب نسبته إلى إسقريوط.

كانت أُمّه راقصةً ومغنّيةً تنظمُ أغاني وتُنشدها. وكان زوجها مسافرًا عندما حبلت بيهوذا سفاحًا، وتخلّصت منه عقب وضعها له، في أشكالون، وتركته على ضفّة نهرٍ، فالتقطه زوجان غنيّان حُرِما من الأبناء، ووفّرا له تعليمًا جيّدًا. ولكنّه انزلق إلى درب الشرّ، وإثر عمليّة احتيالٍ، أُودع في الإقامة الجبريّة عند أُمّه بالتبنّي. أمّا والده فقد لعنه وتبرّأ منه عندما أحاط علمًا بمنشئه الأثيم.

لم يكن قد فسد فسادًا كلّيًّا، ولم يكن ماجنًا ولا ملحدًا، لا بل كان ملتزمًا بكلّ مقتضيات الشريعة، وفي الواقع كان مؤهّلاً ليكون صالحًا بارًّا، أو شرّيرًا مجرمًا. غير أنّه رغم كلّ قدرته على التظاهر بغير حقيقته، كانت تتجلّى عليه أمارات السهوم والحزن الناجمة عن أطماعه، ورغباته الفاسدة، وحسده لفضائل الآخرين.

ووافى يهوذا إلى يسوع برفقة برثلماوس وسمعان الغيور اللذين قدّماه ليسوع قائلين: "هوذا يهوذا الذي حدّثناك عنه". ورمقه يسوع بنظرة عطفٍ، مليئةٍ، مع

ذلك، بكآبةٍ تندّ عن الوصف. وانحنى يهوذا أمامه قائلاً: "أرجوك، يا معلّم، أن تأذن لي بالمشاركة في تعليمك". وأجابه، بعذوبةٍ، وبلهجةٍ بنويّةٍ: "تستطيع ذلك، ما لم ترغب في إفساح المكان لآخر". (والمعنيّ بالآخر هو ماتياس، الذي حلّ محلّ يهوذا عقب خيانته).

وكان في تلك القرية العديد من المصابين بشتّى الأسقام منذ سنواتٍ طويلةٍ، فشفى يسوع عددًا كبيرًا منهم بحضور فرّيسيّين وغرباء، أخذهم الغيظ والدهشة من جرّاء هذه الأشفية. إذ كان بين هؤلاء من رفضوا، بعنادٍ، تصديق ما كان يقال عن يسوع، واستمعوا إليه وهم يهزّون رؤوسهم وأكتافهم، هازئين به. وكانوا موقنين أنّ يسوع سيعجز عن شفاء تلك الأسقام المزمنة، فأُسقط بيدهم لمّا شهدوا بأمّ عيونهم السقماء يهبّون معافين، حاملين الأسرّة التي طالما التصقوا بها، وهم ينشدون ويسبّحون الربّ. أمّا يسوع فعزّى المرضى، وهنّأهم، وبشّرهم، وحرَّضهم على الإيمان والاستقامة، غير مكترثٍ بموقف الفرّيسيّين.

واستمرّ يسوع في التعليم وهو يرتقي سفح تلّةٍ كان قد احتشد على قمّتها جمعٌ غفيرٌ من سكّان القرى المجاورة، ومن فرّيسيها الذين تنامى إليهم مجيء يسوع إلى ذلك المكان. وكان بين الحضور سامريّون مرتدّون، وفئةٌ ممّن كان اليهود يزدرونهم ويعدّونهم أبناء خادمة "ليا"، فاغتنم يسوع تلك المناسبة لمساءلة الفرّيسيّين عن سبب مقتهم لهؤلاء المساكين، وعن إحجامهم عن تلقينهم العقيدة الصحيحة. واستشاط الفرّيسيّون غيظًا، وانطلقوا يعدّدون مآخذهم على يسوع الذي لا يحسن ضبط تلاميذه، الذين لا يلتزمون بمقتضيات الأصوام، والوضوء، والتطهّر، والابتعاد عن العشّارين... ولا يسلكون سلوك تلاميذ الأنبياء وعلماء الشريعة.

وردّ الربّ عليهم: "بل اذكروا أنتم وصيّة حبّ الله والقريب، التي تفوق كلّ الوصايا"، موضحًا أنّه يدعو تلاميذه إلى الالتزام بهذه الوصيّة، عوضًا عن تمويه رذائل قلوبهم بمظاهر خارجيّةٍ، وطقوسٍ كاذبةٍ. وحينئذٍ عبّر فيليبّس وتدّاوس عن شكّهم في

أن يكون الفرّيسيّون قد أحسنوا فَهْمَ مقاصده، ففسّروها بوضوحٍ. وأكّد يسوع إشفاقه على ذلك الشعب المسكين، الجاهل والخاطئ، الذي أسهم الفرّيسيّون المهووسون بطقوسٍ خارجيّةٍ، في إهماله وفي جعله يتردّى إلى أسفل دركات الانحطاط، مشدّدًا على تأكيد أنّ من يسلكون هذا السلوك لا مكان لهم في ملكوته.

شفاء ابنتيّ أرملةٍ وثنيّةٍ

انحدر يسوع من التلّة عائدًا إلى النــــزل. وفي الطريق كان العديد من المرضى ينتظرونه تحت خيامٍ، وقد جيء بهم على محفّاتٍ وأسرّةٍ، من مختلف أماكن الجوار. فعزّاهم، وبشّرهم وشفاهم. وكانت أرملةٌ وثنيّةٌ قد جاءت من مدينة "نعيم"، كي تلتمس شفاء ابنتيها "سابيا" و"أتاليا" اللتين كانتا محجورتين في غرفتين في بيتها، تحت حراسةٍ صارمةٍ، لأنّهما كانتا مسكونتيْن بشياطين شرسةٍ وتقعان في نوبات جنونٍ وعنفٍ، وهيجانٍ مريعٍ فتعضّان وتضربان كلّ من يدنو منهما. وأحيانًا تنهاران وتهويان أرضًا شاحبتَيْن كالأموات، عرضةً لاختلاجاتٍ مخيفةٍ. هاتان الفتاتان كانتا ثمرة زنى، وكان أبناء الأرملة الشرعيّون قد هجروها، فاستولت على كلّ ما يخصّهم من إرث والدهم، كي تتمتّع وحدها بالثروة والملذّات والخلاعة.

ووافت تلك الأرملة إلى حيث يسوع يبشّر ويشفي، ووقفت بعيدًا، على حدةٍ، منتظرةً أن يلتفت الربُّ إليها. ولكنّه ظلّ مشيحًا عنها بصره. وضاقت ذرعًا بالانتظار إلى أن اغتنمت فرصة اقترابه منها، فصاحت: "يا ربّ، ارأف بي؟". ولكنّ يسوع تظاهر بعدم سماعها. ونصحتها مرافقاتها بأن تسأله الرأفة بابنتيها بما أنّها هي ليست عليلةً، ولكنّها ردّت: "إنّهما لحمي، وإن أشفق عليّ، فهو يشفق عليهما". وعادت تهتف بتوسّلٍ ونفاد صبرٍ: "ارأف بي". والتفت يسوع إليها، وأجاب: "عليّ أن أُطعم أهل بيتي، قبل إطعام الغرباء"، فردّت بقولها: "هذا حقٌّ، يا ربّ، وسأنتظر راضيةً، وسأسعد بالعودة في موعدٍ آخر، إن لم تكن راغبًا في إنقاذي اليوم، فأنا لا أستأهل غوثك". وكان يسوع قد فرغ من شفاء المرضى الذين انطلقوا ينشدون

ويسبّحون الربّ. وفيما ظلّ متظاهرًا بعدم اكتراثه بتلك المرأة، أبدى عزمه على مغادرة المكان، فهتفت بحزنٍ: "إنّه يأبى عوني". وفي تلك اللحظة التفت نحوها وسألها: "ما تطلبين منّي يا امرأة؟" فارتمت عند قدميه، وأجابت: "أنقذني، يا ربّ، فابنتاي في "نعيم" يسكنهما أبالسةٌ، وأنا موقنةٌ بأنّك قادرٌ على تحريرهما، إذا شئت، فلا شيء يستعصي على قدراتك"، وأجابها يسوع: "عودي إلى بيتك، فابنتاك قادمتان لملاقاتك". وقال لها على انفرادٍ، بينه وبينها: "ولكن عليك أن تتطهّري، فهاتان الفتاتان تحملان خطايا والديهما". فسألت: "منذ زمنٍ أنا أبكي خطاياي، فما تأمرني بفعله؟" فأوصاها بإعادة المال المغتصب، وبالتقشّف، والتضحية، والصوم، والصلاة، والإحسان، والعناية بالمرضى. فذرّفت وابلاً من الدموع، ووعدت بفعل كلّ ما طلبه منها، وانطلقت تضجّ فرحًا.

في هذه الأثناء، وفيما كان يسوع يكلّمها، انهارت الفتاتان حيث كانتا مسجونتيْن، وخرج منهما إبليس، طيّ غمامةٍ قاتمةٍ. وفاضت دموعهما واستقدمتا حارستيهما، وزفّتا لهما بشرى تحريرهما. ولّما علمتا أنّ أُمّهما قد قصدت النبيّ الناصريّ، خفّتا إلى لقائها، في موكبٍ ضمّ العديد من الحرّاس المعارف، والتقيتا بأُمّهما على مسافة فرسخٍ من "نعيم"، ورويتا لها ما جرى لهما. وفيما عادت الوالدة إلى منـــزلها واصلت الفتاتان ومرافقوهما المسيرة كي تقدّما ليسوع آيات الشكر.

وكان الفرّيسيّون قد دعوا يسوع إلى مأدبةٍ، واستوضحوه هل هو راغبٌ في استصحاب تلاميذه، إذ كانوا يرون فيهم شبّانًا أغرارًا يفتقرون إلى المعرفة والخبرة، ولا مكان لهم في مجلس علماء. وأجابهم يسوع: "من يدعوني يدعُ أيضًا أهل بيتي، ومن لا يريد أهل بيتي لا يريدني". فرجوه أن يستصحب تلاميذه. وأثناء المأدبة كان يسوع يعلّم بأمثلةٍ.

وعندما انحدر من التلّة وجد في أسفلها جماعةً من المرضى ينتظرونه فشفاهم، وكان هناك أيضًا الفتاتان "سابيا" و "أتاليا" اللتان حرّرهما من الأبالسة، استجابةً

لتوسّل أُمّهما، وكانتا تنتظرانه في المكان عينه الذي جرى فيه لقاء أمّهما به وحيث أصدر أمره بشفائهما، وارتمتا أرضًا وقالتا له: "يا ربّ، لسنا جديرتيْن بالاستماع إلى تعاليمك، وقد انتظرناك في هذا الموقع عينه حيث حرّرتنا من سلطان العدوّ، كي نقدّم لك آيات الشكر. فأنهضهما يسوع، وامتدح إيمان أُمّهما، وصبرها وتواضعها وارتضاءها انتظار فراغه من إطعام أهل البيت، قبل أن يلتفت لها، وبذلك استأهلت أن تصبح من أهل البيت بفضل إيمانها بالله الحقّ وبالذي أرسلته رحمته، لكي يطعم جميع الذين يؤمنون به، ويتوبون.

صدامٌ مع الفرّيسيّين في مدينة "دوثان"

"دوثان" مدينةٌ متّكئةٌ على سلسلة جبال، وأمامها ينفسح سهل "إسدريلون". جاء إليها يسوع تلبيةً لدعوة نثنائيل الذي كان مقيمًا، آنذاك، في منــزل رجلٍ ثريٍّ، ولكنّه سقيمٌ ومقعدٌ، في نحو الخمسين من عمره واسمه "ايساكر"، كان قد تزوّج حديثًا أرملة أخيه، الذي لم يخلّف نسلاً، عملاً بمقتضيات الشريعة. وكان هذا الزواج قد أصبح موضوع لغط المجتمع، فالعروس الأرملة المدعوّة "صالومة"، لم تتعدَّ الخامسة والعشرين من عمرها، والعريس مقعدٌ.

وجديرٌ بالذكر أنّ مريم العذراء عندما كانت في طريقها إلى عين كارم من أجل زيارة إليصابات ومساعدتها، كانت قد توقّفت في ذلك المنــزل، لأنّ أصحابه يمتّون بصلة قربى إلى يوسف، وكانوا قد أحسنوا وفادة العيلة المقدّسة. وبما أنّ يسوع كان، آنذاك، جنينًا، فقد عدّ نفسه مدينًا لتلك الأسرة. فصالومة كانت ابنة تلك الأسرة، وزوجها كان أرمل شقيقتها.

استقبلت صالومة العروسُ يسوعَ أمام بيتها، ومعها خدمها وخادماتها، واطّرحت عند قدميه متوسّلةً شفاء زوجها، فواكبها إلى غرفة زوجها طريح الفراش، وحيّاه بأرقّ العبارات التي كان لها أطيب أثرٍ عليه، وبذل المريض جهودًا مضنيةً كي يعبّر له عن شكره، ولكنّه عجز. فصلّى يسوع، وأمسك بيده، وفي

الحال استقام، ونهض من سريره، وارتدى ثيابه، وركع هو وزوجته أمام المخلّص، فحرّضهما على الصلاح، وباركهما، ووعدهما أن يخلّفا نسلاً قبل أن يقضيا نحبهما. وسادت الدهشة والبهجة في كلّ أرجاء المنـــزل عندما خرج يسوع محاطًا بالزوجين. ولكنّ شفاء الرجل بقي مكتومًا في ذلك اليوم.

ودعا "إيساكر" يسوع وتلاميذه إلى عشاءٍ، عقب الصلاة في المجمع، وإلى قضاء تلك الليلة في منـــزله. وقبل يسوع دعوته ومضى إلى المجمع، حيث ألقى عظةً، تناول في سياقها قضيّة الزواج، فناقشه الفرّيسيّون والصدّوقيّون، وانتقدوا بحدّةٍ زواج "إيساكر" الخمسينيّ المقعد بامرأةٍ في الخامسة والعشرين، واصفينه باللامنطقيّ واللامقبول. وردّ عليهم يسوع أنّهما تزوّجا تنفيذًا للشريعة، فعليهم هم الذين يدّعون حماية الشريعة أن يهنّئوهما لا أن يلوموهما. وفاجأهم يسوع بقوله إنّ إيمان "إيساكر" المقعد قد استحقّ له إنجاب نسل، فهو لم يتزوّج لإرضاء شهوةٍ، بل إرضاءً للشريعة، فيما هم يضعون حدودًا لقدرة الله ولرحمته، وأوضح حقيقة دافعهم إلى استنكار هذا الزواج المتمثّل في رغبتهم الكمينة بأن يتوفّى أفراد تلك الأسرة بلا وريثٍ، فتعود كلّ الثروة إلى مدّعي خدمة الهيكل. ثمّ سرد حالات العديد من الأبرار الذين منّ عليهم العليّ بسلالةٍ بعد أن بلغوا من العمر عتيًّا. فكاد أعداء يسوع يختنقون غيظًا، ولكنّهم لم يجدوا إلى الاعتراض سبيلاً.

في اليوم التالي، وفيما كان يسوع يتنـــزّه في البساتين المحيقة بالمدينة، بادره توما، والتمس منه أن يقبله تلميذًا، مؤكّدًا أُهبته للقيام بكلّ ما يطلبه منه، فهو كان قد سمع تعليمه، وشاهد معجزاته، واقتنع بكلّ ما كان المعمدان قد قاله عنه. وأجابه يسوع أنّه يعرفه خير معرفةٍ، وأنّه كان موقنًا بمجيئه إليه. ولكنّ توما اعترض بأنّ فكرة هجر العالم والالتحاق بيسوع لم تكن قد راودته قطّ، غير أنّ معجزات يسوع هي التي دفعته إليه، وأنّه قد وطّن العزم على ذلك، منذ وقتٍ قريبٍ جدًّا، فردّ عليه يسوع: "أنت تتحدّث مثل نثنائيل، وتدلي بأقوالٍ لا معنى لها، مدّعيًا

الحكمة والفهم. ألا يتوجّب على البستانيّ أن يحيط علمًا بأشجاره في كلّ وقتٍ، وعلى الكرّام أن يحسن دائمًا معرفة كرمه، وإلاّ فكيف له أن يحسن استثمار كرمه، إن لم تكن لديه معرفةٌ دقيقةٌ بالعاملين فيه؟".

وكان اثنان من تلاميذ المعمدان، يحدوهما، حياله، وفاءٌ لا ثغرة فيه ولا تحفّظ، ومكرّسان للإقامة قريبًا من سجنه وتلقّي تعليماته، ولكنّهما لم يكونا قد اطّلعا، بعدُ، على تعليم يسوع وعلى معجزاته، فأرسلهما يوحنّا إلى حيث كان يسوع حينذاك، كي يسمعا ويشهدا، ويتوسّلاه ألاّ يرجئ إعلان هويّته على الملأ، وتأسيس مملكته. وجاءا وسمعا وشهدا، نماذج من عجائب الربّ، وتعاليمه. وحرصا على محاورة يسوع قبل عودهما إلى ماخيرونت، وقالا له: "لقد اقتنعنا، الآن، بكلّ ما قال يوحنّا عنك. ولكن ألن تأتي لكي تحرّر يوحنّا من سجنه، فهو ينتظر منك هذا التحرير، ونعتقد أنّ هذا الإنقاذ سيكون أجدى، وأكثر إقناعًا من أيّة معجزة شفاءٍ تجريها؟ نتوسّل إليك، إذن، أن تحرّر يوحنّا، وتؤسّس ملكوتك". وردّ يسوع عليهما: "أعلم أنّ يوحنّا يرغب في تحريره من السجن، وسيتحرّر منه فعلاً، ولكنّه، وهو الذي مهّد لي الطريق، لا يرجو أن أشخص إلى ماخيرونت لكي أطلق سراحه. فعودا وأطلعا يوحنّا على ما شاهدتما، وأكّدا له أنّني سأنفّذ رسالتي".

ربّما لم يكن يوحنّا يعلم أنّ يسوع سيُصلب، وأنّ مملكته ليست في هذا العالم. ولكنّه كان يدرك أنّه سيردّ الشعب إلى الله، ويحرّره، ويؤسّس على الأرض مملكة قدّيسين.

وعاد يسوع ظهرًا إلى منـــزل "إيساكر" وبعد الغداء، خرج إلى فناءٍ رحبٍ خلف المنـــزل، في وسطه نافورة ماءٍ، ومن حواليه أبنيةٌ وأشجارٌ كثيفةٌ وارفة الظلال، ومنبرٌ صخريٌّ، وكان القوم يجتمعون هناك لسماع تعاليم العلماء. وكان "إيساكر" وتلاميذ يسوع قد دعوا إلى اجتماعٍ في ذلك المكان لسماع تعليم يسوع. وتكلّم الربّ عن تحقيق وعد الله، وعن اقتراب ملكوت الله، وعن واجب

الارتداد والتوبة، وعن طريقة التماس رحمة الله ونِعمَه. وخلص إلى الكلام عن الصلاة الصادقة فروى مثل الفرّيسيّ والعشّار، وحرّض الصائمين على عدم إظهار صيامهم بمظاهر التقشّف والكآبة.

هذه الأقوال أثلجت صدور الشعب المسكين الذي كان الفرّيسيّون والصدّوقيّون يزدرونه. ولكنّها سعّرت نيران السخط في قلوب الفرّيسيّين والصدّوقيّين، وزادها استعارًا تهليل الشعب لأقوال يسوع، ثمّ ظهور "إيساكر" وخدّامه الذين جاؤوا يوزّعون الطعام والشراب على الحضور، وكادوا ينقضّون على يسوع والقضاء عليه، غير أنّهم اكتفوا بلومه لإجراء شفاءاتٍ أيّام السبت، ولكنّه فضح رياءهم سائلاً: "هل منكم إذا وقع في بئرٍ، يوم سبتٍ، لا يستنجد بمنقذين، وهل يلوم منقذيه، لعملهم يوم سبتٍ؟".

أمّا "إيساكر" فراح يغدق إحساناته بسخاءٍ على الشعب، ويرسل المؤن إلى كلّ نزلٍ قد يحلّ فيه يسوع وتلاميذه، في الجوار.

وما إن غادر يسوع تلك المدينة حتّى انطلق الفرّيسيّون يروون غلّ غيظهم بنشر الأراجيف واختلاق الأكاذيب حول يسوع، قائلين: "ها قد ظهرت حقيقته. لقد غرف من أموال "إيساكر". وهو يجرّ في إثره شذّاذ آفاقٍ، يأكلون ويسوقون حياة لهوٍ على حساب الأغنياء. ولو هو كان شريفًا ومستقيمًا لاهتمّ بأوَد أمّه. أبوه كان نجّارًا، أمّا هو فلا يمارس أيّة مهنةٍ شريفةٍ، مؤثرًا التشرّد، وإثارة البلابل حيثما مرّ".

يسوع يتابع تثقيف تلاميذه

واصل يسوع وتلاميذه تطوافهم في أراضي فلسطين. وكان يسوع يغتنم كلّ سانحةٍ لإكمال تثقيف تلاميذه الجُدُد، أمثال توما، والفتى كليوبا وسواهما. مردّدًا على مسامعهم أنّ على من يبتغي اتّباعه التخلّي عن كلّ شيءٍ، بلا أسفٍ، وبلا التفاتٍ إلى الوراء، وفي قناعةٍ راسخةٍ ببطلان الخيرات الأرضيّة. وكان يؤكّد لهم أنّ كلّ من يتخلّى، من أجله، عن خيراتٍ أرضيّةٍ سيعوَّض عنها مئات الأضعاف في

ملكوته السماويّ. ونصح كلّ راغبٍ في هذا التخلّي، أن يمتحن نفسه، ويروزَ قدرات إرادته على الالتزام بهذا الخيار.

وكان بعض التلاميذ قد أبدوا تحفّظًا حول سلوك يهوذا الإسخريوطيّ وميوله، وكان الأكثر تحفّظًا توما الذي فاتح الربّ بهذا الشأن، وسأله علامَ كان صارمًا في اختيار وقبول كلّ التلاميذ ما عداه، فأجابه أنّ الجميع، وهو نفسه منهم، خاضعون لمرامي الله الأبديّة. ولّما أخلد جميع التلاميذ للنوم، صعد يسوع إلى جبلٍ، وحيدًا، وأنفق الليل مناجيًا أباه السماويّ.

وفيما كان يسوع وتلاميذه متّجهين شمالاً، توقّفوا في محلّةٍ احتشد فيها كثيرون لسماع تعليم المخلّص، وتوسّل إليه بعضهم أن يزور بيوهم ويشفي مرضاهم. وكان بين هؤلاء صبيٌّ في السابعة، يسكنه شيطانٌ أخرس كان أحيانًا يجمح به بحيث يتعذّر لجمه، وقد أمسكه أبوه بيده ودنا من يسوع، وفي الحال هاج الصبيّ، وأفلت من يد أبيه، وفرّ إلى جبلٍ حيث اختبأ في مغارةٍ. واطّرح الوالد عند قدميْ يسوع، وباح له بكل ما يعانيه وبيأسه. وانطلق يسوع في إثر الصبيّ وعند باب المغارة أمره بالمثول أمام ربّه، وأذعن الولد، وجاء وركع أمام يسوع الذي لمسه وأمر إبليس بمغادرته، فانهار الولد مغميًّا عليه، وخرجت منه غمامةٌ قاتمةٌ، وبعد لحظاتٍ هبّ واقفًا وجرى نحو أبيه، وخاطبه بحبٍّ. فقبّل الرجل ابنه، وركع أمام يسوع شاكرًا، وعزّاه يسوع، وزوّده بنصائح، وأوعز إليه بالشخوص إلى بيت عبرا لنيل العماد.

وفي أثناء الطريق دخل يسوع إلى نزلٍ حيث كان ينتظره تسعة رجالٍ وستّ نساءٍ معظمهم مسنّون ويمتّون إليه بصلات قربى. فبعضهم أقرباء لجدّته حنّة، وبعضهم ليواكيم، وبعضهم ليوسف، وكان بينهم أخٌ غير شقيقٍ ليوسف، أصغر منه سنًّا، وهو والد عروس قانا. وقد وافوا مع أولادهم وخدمهم، بعد أن توافقوا على الطلب منه أن يستقرّ في مكانٍ واحدٍ، عوضًا عن ذرع الدروب بلا هوادةٍ. وعرضوا له أماكن آمنةً يسعه التعليم فيها بأمانٍ، وبمنأًى عن الفرّيسيّين وأصحابهم، وعن مؤامراتهم وعن الفخاخ التي ينصبونها له، في كلّ مكانٍ.

كان يدفعهم إلى هذا الخطاب وهذه المبادرة، حبّهم له، وخوفهم عليه، وامتعاضهم من الأقاويل المسيئة إليه التي كان يبثّها مناوئوه، والفئات التي فضح أضاليلها ورياءها وكذبها.

واستفاض يسوع في إيضاح موقفه، متكلّمًا معهم بهدوءٍ وعذوبةٍ، وأوضح لهم أنّ عليه تنفيذ مشيئة أبيه السماويّ، فهو لم يأتِ كي يعيش بهدوءٍ وهناءٍ، ولا من أجل ذويه، وعددٍ محدودٍ من الناس، بل من أجل الناس أجمعين، فجميع البشر هم له إخوةٌ وأقرباء. وقال إنّ المحبّة لا تفيء إلى الراحة والتواني، وأنّ من أُوكلت إليه مهمّة الغوث تتعيّن عليه زيارة الفقراء. وأنّ عليه، هو، العزوف عن رفاه الحياة، فملكوته ليس من هذا العالم.

لقد بذل الكثير من الجهد من أجل طمأنة أولئك القوم الطيّبين، الذين ما انفكّوا يدهشون من أقواله. وشيئًا فشيئًا، كانوا يفهمونها، وكان تعلّقهم به واستيعابهم لتعليمه ينموان باطّرادٍ. وقد قام بنـــزهةٍ مع بعضٍ منهم في شعاب الجبل، فثقّفهم وعزّاهم، فردًا فردًا، وهكذا أمضوا ذلك النهار.

وفي المساء جاءه التلاميذ بابن معلّم مدرسةٍ، راغبٍ في أن يعيّنه يسوع معلّمًا في جماعته، وكان الشابّ واثقًا أنّه، بفضل ما أصابه من علمٍ، لن يتوانى يسوع عن ضمّه إلى مدرسته، بلا تلكّؤ. ولكنّ يسوع قال له: "لا يمكنني تلبية طلبك، فعلمك هو غير علمي، ومقصدك هو خيراتٌ أرضيّةٌ لا أملكها"، وردّه.

في الغداة واصل تثقيف أقربائه، ثمّ غادرهم ظهرًا، فتفرّقوا ومضى كلٌّ منهم نحو منـــزله وأهله، بعد أن أنارهم، وعزّاهم، ومع أنّهم لم يستوعبوا كلّ أقواله، غير أنّه كان قد هدّأ هواجسهم، وهم اقتنعوا بأنّ الله هو من ألهمه أقواله تلك، وأنّه يؤدّي رسالةً سماويّةً، وهو أدرى بما عليه فعله. وكان وداعهم مؤثّرًا مبلّلاً بالدموع، مصبوغًا بالاحترام وأمارات المودّة.

عطف يسوع على مستقيمي القلوب وصرامته حيال رياء الفرّيسيّين

توقّف يسوع ومرافقوه عند نبع ماءٍ، كان قد تحلّق حوله عددٌ من النساء اللائي جئنَ يَمتحنَ ماءً، وما إن رأينَه حتّى هرعت كثيراتٌ منهنّ إلى بيوتهنّ وعدنَ بجمعٍ غفيرٍ من الرجال والنساء، وقد جاؤوا بما توفّر لديهم من طعامٍ وشرابٍ، قدّموه ليسوع وتلاميذه، وغسلوا أرجلهم، وما لبث الجمع أن تضخّم، فبشّرهم الربّ، ثمّ اقتادوه إلى المدينة، فاندفعت نحوه أسرابٌ من الفتيان والفتيات والأطفال بباقات الزهور. وخشي التلاميذ على يسوع من شدّة الزحام، فحاولوا درء القادمين إليه، فزجرهم يسوع، آمرًا أن يدَعوهم يقتربون منه وحيّاهم، وباركهم، وحمل الأطفال، وقبّلهم، وضمّهم إلى صدره. ثمّ قصد المجمع كي يبشّر، وفي طريقه إليه دنت منه نساءٌ مصاباتٌ بنـــزفٍ، وقبّلن أطراف ثوبه خلسةً، فشُفينَ من دائهنّ.

وجاء يسوع إلى مدينة "دبرات" ودخل بيتًا جميلاً، فتسابق ساكنوه للترحيب به، وكان بينهم ابن أخٍ للقدّيس يوسف، وقد رجا يسوع أن يقبل ابنيه في عداد تلاميذه، وكان ذانك الولدان ورِعَيْن يصعدان كلّ يومٍ إلى جبل طابور للصلاة. ووعد يسوع بتلبية طلبه في الوقت المناسب.

تشاور فرّيسيّو تلك المدينة وصدّوقيّوها على طريقةٍ لمعارضة يسوع. ومساءً صعّد يسوع وتلاميذه صوب جبل طابور، حيث احتشد جمعٌ غفيرٌ راغبٌ في الاستماع إلى النبيّ الناصريّ، فحدّثهم، على ضوء القمر، حتّى ساعاتٍ متأخّرةٍ من الليل.

وفي اليوم التالي كان قد احتشد أمام المجمع العديد من مرضى المدينة وجوارها، فشفاهم مسعّرًا غيظ الفرّيسيّين.

وكانت في المدينة، امرأةٌ غنيّةٌ تدعى "نعيمة" (ناعومي) سبق لها أن خدعت زوجها فقضى نحبه أسًى، ثمّ أقامت علاقاتٍ مع وكيل أُسرتها الماليّ بعد أن وعدته بالزواج، وخدعته هو أيضًا، ومضت قُدُمًا في سلوكها الخلاعيّ. واتّفق أن سمعت

وعظ يسوع فانقلبت انقلابًا جذريًّا، وتابت، ورغبت رغبةً عارمةً في مقابلة الربّ والتماس غفران خطاياها، والتكفير عنها، وجهدت في الاقتراب من المخلّص، ولكنّه كان دائبًا على تفادي النظر إليها. وشاهدها فرّيسيّون فيما كانت تجهد في اختراق الجموع، وانهالوا عليها شتمًا، وتعييرًا، قائلين إنّ الأولى بها العودة إلى بيتها، ولكنّ رغبتها في نيل الغفران أولاها جرأةً على مواصلة جهادها في الاقتراب من الربّ، ولمّا تمّ لها ذلك خرّت أمامه هاتفةً: "يا ربّ هل يمكنني التجرّؤ على التماس نعمة الله وغفرانه، فأنا لا أستطيع مواصلة سلوك الضلال؟" وهدّأ يسوع روعها، فاستأنفت القول: "لقد أخطأت خطأً مميتًا بحقّ زوجي، ثمّ خدعت الرجل الذي يدير الآن شؤون بيتي". واعترفت بخطاياها على الملأ، ولكن لم يسمعها الجميع بسبب اللغط السائد، وابتعاد يسوع عن الحشود. وحينئذٍ قال لها يسوع: "امضي، قد غُفِرَت خطاياكِ". والتمست منه أن يفرض عليها كفّارةً، غير أنّه آثر إرجاء الأمر إلى وقتٍ آخر، فنــزعت كلّ حلاها وجواهرها وقلاداتها وأساورها، وأعطتها للفرّيسيّين لكي يوزّعوها على الفقراء، ثمّ أسبلت على وجهها حجابًا.

وكان الفرّيسيّون يفتقرون إلى حججٍ يقارعون يسوع بها، فلجأوا إلى النميمة واختلاق الأكاذيب مدّعين أنّه يُعِدُّ لنفسه أماكن إقامةٍ واستراحةٍ في كلّ المدن، ويستولي على أموال الأغنياء والأرامل التي كان المجمع وعلماء الشريعة هم الأولى بها، واتّهموه، أيضًا، باستلاب أموال المرأة الخاطئة "نعيمة"، غير أنّ أكثر ما كان يضايقهم، هو إقدامه على غفران خطاياها.

وعادت "نعيمة" هذه، إلى يسوع مع وكيلها، فحدّث كلاًّ منهما على حدةٍ، ثمّ حدّثهما معًا. وبمثابة كفّارةٍ عن خطاياها الماضية تنازلت المرأة عن جزءٍ من أملاكها للوكيل، ووزّعت معظم ما بقي لها على الفقراء، غير محتفظةٍ إلاّ بما يساعدها على العيش.

وقبل أن يشخص يسوع إلى المجمع من أجل اختتام طقوس السبت، جاءه وفدٌ

من قِبل هيرودسيّين، ودعوه إلى الالتقاء بهم في مكانٍ محدّدٍ من المدينة، لأنّهم راغبون في مناقشته، وردّ يسوع على رسل الهيرودسيّين بقوله: "قولوا لأولئك المرائين أن يأتوا إلى المجمع، ويظهروا للجميع رياءهم، وهناك سأردّ عليهم وعلى جميع الآخرين...".

وفي أثناء خطبته في المجمع لم يتوانَ عن فضح رياء الفرّيسيّين والصدّوقيّين والهيرودسيّين، وأورد نبوءاتٍ تشير إليه بصفته المسيح الموعود المخلّص. وعندما همّ بمغادرة المجمع مع الشعب، أقام خصومه سدًّا في وجهه، وراحوا يطرحون عليه أسئلةً ظنّوها محرجةً له، مقنّعين نواياهم الخبيثة بمظاهر الاحترام، ولكنّه ردّ خبثهم إلى نحرهم وأفحمهم. وحينئذٍ طلبوا منه، بعباراتٍ امتزج فيها التهديد بالمداهنة، أن يكفّ عن ذرع الطرقات مع تلاميذه، وعن التعليم وإجراء الأشفية، وإلاّ لشكوه، ولاحقوه بتهمة التحريض على الشعب، والإخلال بالأمن العامّ. فأجابهم، حازمًا: "حتّى النهاية ستجدون إلى جانبي، تلاميذي، والشعب الجاهل، والفقراء، والمرضى، هؤلاء الذين تحرصون على بقائهم غارقين في جهلهم، وأسقامهم، وخطاياهم". وإذ لم يكن لديهم ما يردّون به، انصرفوا وهم يتميّزون غيظًا.

وفي المساء، مضى يسوع وتلاميذه وآخرون إلى سفح جبل طابور، حيث احتشد خلقٌ غفيرٌ للاستماع إليه، جالسين على العشب أمامه، ناعمين بالطراوة وبسجوّ الليل المضاء بالقمر والمتلألئ بالنجوم، وبسيادة السكون، وبكلّ ما يساعد على الإصغاء لكلام الحياة ولا سيّما أنّ معظم المستمعين كانوا من الفلاّحين والعمّال الذي يتحرّرون، ليلاً، من عناء العمل، ويتفرّغون لتغذية نفوسهم بخشوعٍ، فيصغون، طوعًا، إلى دعوة الخير، ويضحون أشدّ نزوعًا إلى التوبة عن أخطائهم، والتصميم على إصلاحها.

وكان بين المستمعين رجلٌ قبرصيٌّ، وثنيٌّ، ولكنّه نبيلٌ ومنفتح الذهن، واسمه "سيرينُس"، وكان حتّئذٍ، قد ألِف أن يستمع إلى يسوع وهو منتحٍ جانبًا، مأخوذٌ بسموّ أقواله، غير أنّه في ذلك اليوم، إذ كان يسوع وحيدًا، جاءه مستزيدًا من

تعاليمه، طارحًا، بتواضعٍ ورغبةٍ عارمةٍ في التعليم، أسئلةً حول كلّ ما استغلق عليه فهمه، وما كان يطمع إلى معرفته. وقد باح للربّ أنّه، منذ زمنٍ طويلٍ، كان قد اقتنع ببطلان عبادة الأوثان، وأنّه يصبو إلى اعتناق الإيمان بالإله الواحد، ولكنّ الحاجز الذي يحول دون إقدامه على تلك الخطوة الحاسمة، هو الختان الذي يمقته. وسأل، بلهفةٍ، هل تلك الممارسة هي شرطٌ لا غنى عنه للظفر بالخلاص. وأجابه يسوع بأنّ ختان القلب واللسان والحواسّ، والتحرّر من الرغبات الجسديّة هي الشرط الوحيد للظفر بالخلاص. فمتى يتحقّق له ذلك فليحصل على العماد. وحينئذٍ تمنّى سيرينُس أن يعلن يسوع رأيه هذا على الملأ لأنّ وثنيّين كُثُرًا يصبون إلى اعتناق الإيمان بالله الواحد، ويصطدمون بعقبة الختان. وأوضح له الربّ أنّه إذا أعلن رأيه أمام شعبٍ أعماه التعصّب، والتشبّث بالتقاليد لقتلوه. واعترف سيرينُس أنّ العديد من مواطنيه القبرصيّين راغبون في رؤية يسوع، ولكنّ ابنيه يمقتان اليهوديّة أشدّ مقتٍ. فعزّاه يسوع، وهدّأ روعه، وأكّد له أنّ ابنيه سيصبحان عاملين غيورين في كرم الربّ، وفي الواقع غدا ذانك الشابّان من أكثر معاوني التلاميذ ورسل يسوع نشاطًا واندفاعًا.

وقد تمادى الحوار بين يسوع وسيرينُس حتّى الصباح، في جوٍّ مفعمٍ ودًّا وتفاهمًا.

في مدينة جيسكالا

فيما كان يسوع وتلاميذه ميمّمين شطر مدينة "جيسكالا"، أعلن يسوع أنّ تربة تلك المدينة هي منبت ثلاثة مناضلين، أوّلهم مؤسّس جماعة الصدّوقيّين، وثانيهم شرّيرٌ عتيٌّ، هو المعروف بيوحنّا الجيسكاليّ الذي ارتكب جرائم مريعةً، أمّا ثالثهم فهو من أبناء جيل يسوع وستتحوّل لديه الضراوة إلى حبٍّ، وسيعلّم في هذا المكان بالذات، مكفّرًا عن الأذى الذي سبّبه. وكان يعني بهذا الثالث بولس الذي ولد في جيسكالا حيث كان ذووه يملكون مصنع نسيجٍ، ولكنّهم هاجروا إلى طرسوس. وكان يسكن بيت ذوي بولس حينذاك، ضابطٌ وثنيٌّ، له ابنٌ معتلٌّ في السابعة من

عمره، أطلق عليه اسم البطل اليهوديّ "يفتاح"، وكان ذلك الضابط طيّب القلب، وراغبًا في شفاء يسوع ولكنّه لم يعثر على مَن يبلّغ الربّ رغبته هذه، فتلاميذ يسوع كانوا منهمكين بأعمال الرسالة، وسكّان المدينة لم يأبهوا لا به ولا بيسوع، فراح يبحث بنفسه عن يسوع ويقتفي خطاه، حتّى لقيه وجهًا لوجه، فانحنى أمامه وقال: "يا معلّم لا تزدرِ خادمك، وارأف بابني المعتلّ وطريح الفراش". وردّ يسوع، ممتحنًا إيمانه: "يحسن إطعام أهل البيت قبل تقديم الطعام للغرباء". فأجاب الضابط: "يا معلّم، إنّي أومن أنّك مرسل الله، من أجل تحقيق وعده، وأنّك قادرٌ على غوثي، وأعلم أنّك قلت إنّ من يؤمنون بذلك هم أبناء وليسوا غرباء. أتوسّل إليك، يا ربّ، أن ترأف بابني". فقال له يسوع: "إيمانك خلّصك"، ومضى مع تلاميذه إلى البيت الذي وُلد فيه بولس، وحيث كان يسكن الضابط الوثني.

بدأ يسوع بتبشير ذوي الصبيّ العليل ومعاونيهم عن دعوة الأمم والوثنيّين، وعن اقتراب ملكوت السماوات، وعن ولوج بيت الآب من خلال العماد. ثمّ صلّى وأخذ الصبيّ بين يديه، وضمّه إلى قلبه، ووضع أصابعه تحت لسانه، ثمّ وضعه واقفًا على الأرض وجاء به إلى والده الضابط، الذي خفّ إليه وزوجته يضجّان فرحًا، وقبّلاه وسط وابل الدموع، ووثب نحوهما الصبيّ، وعانقهما هاتفًا: "يا بابا ويا ماما، إنّي أمشي، إنّي أتكلّم!" وقال لهما يسوع: "هوذا ابنكما. إنّكما تجهلان أيّ كنزٍ قد أُعطي لكما من خلاله. لقد أُعيد لكما، ولكنّه سيُطلب منكما". حينئذٍ، جثا الوالدان وابنهما أمام يسوع شاكرين مذرّفين دموع الفرح. وبارك يسوع الصبيّ، وكلّمه بعطفٍ جمٍّ، ثمّ تحدّث إلى الضابط، وأوعز إليه بالشخوص إلى كفرناحوم، لتلقّي العماد، وما لبث أن تعمّد الضابط وجميع أهل بيته، ولاحقًا أمسى ابنه "يفتاح" من أكثر معاوني الرسول توما غيرةً واندفاعًا. وعند مغادرة الربّ لذلك المنـــزل قال لتلاميذه إنّ ذلك الصبيّ سيؤتي ثمارًا يانعةً، عندما يحين الوقت لذلك، وأنّ هذا البيت أنجب ابنًا سيحقّق عظائم في ملكوت الله.

يسوع في بيت عنيا

كان كثيرون من أصدقاء يسوع وأتباعه ينتظرونه في قصر لعازر، حيث وصل بعد الظهر، فاستقبله لعازر وغسل قدميه، وثيابه، وزوّده بحذاءٍ جديدٍ، وقدّم له طعامًا، اقتسمه مع جميع الحاضرين، وكان بينهم نيقودمس التوّاق إلى سماع المخلّص، ويوسف الأريماثيّ وأبناء أخيه، ومرقس، وكُثُرٌ آخرون. وكانت المرارة تفعم نفوسهم جميعًا بسبب اعتقال المعمدان، ولكنّ يسوع أوضح لهم أنّ ذلك يندرج في إطار مخطّطات الله، قائلاً: "لا بدّ من تساقط بتلات الزهر لكي تنمو الثمرة". وبعد ساعاتٍ قضاها يسوع في محادثة الرجال وفي تعليمهم، أَخلد الجميع إلى النوم، ولكنّ يسوع ما لبث أن انسلّ خارجًا، وحيدًا، خلسةً، ومضى إلى مغارةٍ في بستان الزيتون حيث أنفق الليل يخاطب أباه السماويّ، ملتمسًا مساعدته على تنفيذ رسالته. وعند انبلاج الفجر عاد إلى فراشه، لم يلحظ أحدٌ غيابه وعودته. وفي الليلة التالية أعاد الكرّة، وأمضى ساعاتٍ في مغارة بستان الزيتون، مضطربًا، ولكأنّه ولدٌ يرتمي بين ذراعي أبيه، ناشدًا العزيمة والعزاء.

وفي بيت عنيا توافق أصدقاء يسوع الذين أحزنهم ما تنامى إليهم من عَوَزٍ واكب رحلته إلى صور وصيدون، على إعداد أماكن حيث كان يعتزم التعليم فيها، في الجليل واليهوديّة وفينيقيا، وتجهيزها بكلّ ما يلزمه ويلزم مرافقيه، وتقاسم مهمّات شؤونه فيما بينهم.

وتكلّم يسوع عن رحمة الله تجاه شعبه الجاحد العاقّ، ودعم أقواله بمثل الملك الذي أوكل كرمه لكرّامين، ولّما حان موسم الجنى أرسل عبيده للإتيان به، فقتلهم الكرّامون الخونة، فأتبع بالعبيد ابنه علّهم يرهبونه، فألقوه المصير عينه. فنـــزع الكرم منهم وسلّمه إلى آخرين أكثر وفاءً.

وفي هذه الأثناء سقطت من إحدى النساء جوهرةٌ ثمينةٌ، بحثنَ عنها طويلاً قلقاتٍ، إلى أن عثرنَ عليها بعد لأيٍ، فسرد لهنّ يسوع مثل المرأة التي فقدت درهمًا

وبحث عنه طويلاً، ووصف فرحها الغامر بعثورها عليه، وشبّه الجوهرة التي فُقدت وعُثر عليها، بمريم المجدليّة التي هبطت من يد الحبّ الإلهيّ، وتاهت، وأضاف: "كم سيكون فرحكم طافحًا عندما سيتمّ انتشالها". ولكنّه أوضح أنّ هذا الانتشال يتطلّب جهدًا وعنايةً أكثر ممّا بذلت المرأة التي فقدت درهمها، وجهدًا أقسى ممّا بذله الراعي الذي أضاع نعجته.

تبشير في ضواحي أورشليم

مضى يسوع، ليلاً، برفقة لعازر وأحد تلاميذه، إلى مدينةٍ تبعد نحو ستّة فراسخ عن بيت عنيا تدعى "بيت هارون". وبلغاها بُعَيْد منتصف الليل. وفي الصباح قصد تلميذان آخران كانا قد سبقا المخلّص إلى تلك المدينة، رئيس المجمع طالبين فتحه لأنّ يسوع يعتزم التعليم فيه. ثمّ جابا الشوارع داعين القوم إلى سماعه. وما لبث أن أقبل يسوع، وامتلأ المجمع بالمستمعين، فألقى عليهم، بنبرةٍ عاليةٍ، مَثَل الملك الذي سلّم كرمه لكرّامين خوَنةٍ، وانتهى إلى القول بأنّ شعبهم، مثلما اضطهد الأنبياء وسجن المعمدان، سيُقبض عليه. وتكلّم عن الدينونة وعن الكوارث التي ستنـزل بأورشليم. فاتّعظ كثيرون بتعليمه، ولكنّ آخرين امتعضوا، متسائلين من أين يأتي هذا الغريب منددًا بهم، وقصد بعضهم النـزل الذي كان قد حلّ فيه مستوضحين هويّته ومقاصده ومخطّطاته. ثمّ انطلق يسوع إلى القرى المجاورة معلّمًا، لا في المجامع فحسب، بل في الهواء الطلق، والساحات، والتلال، وسط الجموع. وكان تلاميذه يجوبون الوديان ويدعون الأهالي وسكّان الأكواخ، إلى الاستماع للمعلّم حيث كان يبشّر. وقد أصابهم، من جرّاء ذلك الكثير من النَصَب والإعياء. وكان يسوع، حيثما يمرّ، يشفي المرضى الذين يؤتى بهم إليه، ويواسي اللائذين به. وكان المسكونون بأرواحٍ يسعون وراءه مطلقين صيحاتٍ هوجاء، فيُخرسهم.

وفي معظم الأماكن التي كان يعلّم فيها، كان عليه مواجهة مواقف عدائيّةً

يسعّرها الفرّيسيّون، وتؤجّجها خطاباته المذكّرة بدماء الأنبياء الزكيّة التي سفكها شعبهم، والداعية إلى عدم هدر فرصة الرحمة الأَخيرة، ومنذرًا بالويل لرافضي الملكوت، والعازفين عن التوبة.

وهكذا كان يجوب المنطقة لا يتوقّف عن التبشير إلاّ لكي يجري الأشفية، ويغيث المستغيثين.

وكان على تلاميذه معاناة الكثير من الإهانات وابتلاع الكثير من الشتائم ممّن لم يرتاحوا إلى أقوال معلّمهم الصارمة. وحتّى الذين كانوا يكظمون غيظهم أمامه وهو يعلّم، كانوا يصبّون جام غضبهم على تلاميذه. وكان بعضهم يستفسرون منهم عمّا غمض عليهم فهمه من تعاليمه. وكان عزاء التلاميذ الوحيد صيحات الفرح المتصاعدة من قلوب مَنْ أتاهم الشفاء عن يد يسوع ومن قلوب ذويهم، ولكنَّ هذه الصيحات كانت تزيد مناوئيه غيظًا.

وفضلاً عن كلّ ذلك كان على التلاميذ معاناة تعب الجري المتواصل بلا هوادةٍ، ولا راحةٍ، ولا نقاهةٍ. ولا سيّما أنّهم كانوا ما برحوا غير مؤهَّلين لهذا الاختبار الصعب، وكانوا، أحيانًا، يتساءلون في ما بينهم: "لقد تخلّينا عن كلّ شيءٍ من أجله وها هو يوقعنا في المضايق والهواجس. فما هو هذا الملكوت الذي يبشّر به، وهل سيتسنّى له إحلاله حقًّا؟"، ولا ريب أنّ هذه التساؤلات كانت تموّه لديهم تردّدًا، وتخاذلاً، ولكأنّهم لم يشهدوا المعجزات التي كان يجريها كلّ يومٍ أمام عيونهم. وحده يوحنّا، بين تلاميذ المخلّص، كان يثق به ثقةً مطلقةً، ثقة طفلٍ.

أمّا يسوع فمع علمه بما كان يعتمل في نفوس أولئك التلاميذ، وما كان يراود خواطرهم وعزائمهم، كان، دائمًا، حانيًا عليهم، رفيقًا بهم، رقيقًا ودودًا، متابعًا تنفيذ عمل أبيه، غير حافلٍ بتردّدهم، محتفظًا بجدّه، ووقاره، وبسكونٍ لا يعكّره شيءٌ.

عند بئر يعقوب: دينا السامريّة

في اليوم التالي يمّم يسوع شطر سيخار برفقة أندراوس ويعقوب الصغير، وتلميذٍ آخر، وتوقّف عند بئر يعقوب المحاطة ببناءٍ بقناطر، ثمانيّ الزوايا، يُصار إليه عبر طرقاتٍ عديدةٍ محفورةٍ في الصخر، تتلوّى حول جبل السامرة.

وصل يسوع إلى البئر ساعة الظهر، وكان جائعًا، فأرسل التلاميذ المرافقين له لابتياع طعامٍ. وكان الهجير قائظًا، وقد اشتدّ بالربّ الظمأ والنَصَب، فارتقى تلّةً، وجلس على حافّة طريق سيخار، غير بعيدٍ عن البئر، وأسند رأسه على إحدى يديه، واستسلم للتأمّل، ولكأنّه كان ينتظر من يأتي مستقيًا، فيجود عليه بما يروي عطشه. وإذ بامرأةٍ ثلاثينيّةٍ، ممشوقة القدّ، على ذراعها اليمنى جَرَّةٌ تتسلّق التلّة بغية الاستقاء. كانت رشيقة الحركات، حسنة الهندام في شيءٍ من التصنّع، ترتدي ثوبًا أزرق تتخلّله خطوطٌ حمراء، وتزيّنه زهور صفراء. وكان شالها المصنوع من صوفٍ ناعمٍ يغطّي كتفيها وظهرها. وقد لفّت جرّتها بمئزرٍ بنّي اللون، مصنوعٍ من وبرٍ، يحول دون تبلّل ثيابها، ويحافظ على برودة الماء، وكانت تتجلّى عليها أمارات النباهة والصراحة والطيبة. كانت تنتمي إلى طائفة السامريّين، وكانت قد جاءت من بلدٍ غريب واستقرّت مع زوجها في سيخار، حيث عُرفت باسم "سالومي"، بدلاً عن اسمها السابق "دينا"؛ ولم يعرف أهل سيخار عن ماضيها شيئًا، ولكنّهم رحّبوا بها لأنّها وزوجها كانا يتّصفان بالصراحة والدماثة.

تعرُّجات الطريق الجبليّ حجبت يسوع عن أنظارها حتّى وقفت أمامه، حيث كان وحيدًا، يلهب الظمأ أحشاءه، مرتديًا ثوبًا أبيض مثل ثوب الأنبياء، ذلك الثوب الذي كان يرتديه كلّما وقف معلّمًا. اضطربت المرأة لرؤية ذلك الرجل اليهوديّ في ذلك المكان، فأسبلت قناعها على وجهها، وتردّدت في العبور إذ كان يسوع مادًّا رجليه على الطريق. وألقى المخلّص عليها نظرةً هادئةً ودودةً، وسحب رجليه مفسحًا لها ممرًّا، وقال لها: "مرّي واسقيني". هذا الطلب أدهشها، فاليهود والسامريّون يمقت بعضهم بعضًا. وسألته: "لَمَ أنت وحيدٌ هنا، في هذه الساعة؟ إذا

رآنا أحدٌ معًا لأثار فضيحةً". وسارع يسوع إلى طمأنتها قائلاً إنّ مرافقيه مضوا إلى المدينة لابتياع طعامٍ، وكانت هي قد التقتهم في الطريق، فحذّرته بأنّه قد يتعذّر عليهم ابتياع أيّ طعامٍ، فذلك اليوم كان يوم عيدٍ في سيخار، ولن يتخلّى أحدٌ من الأهالي أو من الباعة عمّا لديه من أطعمةٍ... وذكرت له مدينةً أُخرى حيث سيمكنهم التزوّد بما يحتاجون إليه.

واتّجهت المرأة نحو البئر، ولحق بها يسوع، طلبًا لرشفة ماء، فسألته: "عجبًا، فأنت اليهوديّ تطلب منّي، أنا السامريّة، أن أسقيك؟". وأجابها يسوع: "لو كنتِ تعلمين عطيّة الله ومَنْ هو الذي يطلب منكِ أن تسقيه ماءً، لربّما كنتِ أنتِ طلبتِ منه أن يسقيَكِ، ولكان رواكِ بماءٍ حيٍّ!". وكانا قد وصلا إلى البئر، وفيما كانت السامريّة تنـــزع غطاء البئر استوضحته: "يا سيّد، ليس لديك ما تستقي به، والبئر عميقةٌ، فمن أين يكون لك الماء الحيّ؟ هل أنتَ أعظم من أبينا يعقوب الذي أعطانا هذه البئر، واستقى منها هو وأبناؤه ومواشيه؟". كانت تتحدّث عن ماء النبع، ودلّت الدلو في البئر، ثمّ سحبته، وملأت به جرّها، وسكبت شيئًا من الماء في قدح خشبيّ وقدّمته ليسوع، الذي، بعد أن شرب، قال لها: "كلّ من يشرب من هذا الماء يعطش ثانيةً، ولكنّ من يشرب الماء الذي أعطيه أنا، لن يعرف العطش من بعدُ، فهذا الماء سيتحوّل نبعًا متفجّرًا حتّى الحياة الأبديّة". هذا القول دفع "دينا" السامريّة الصريحة والجريئة إلى هذا الطلب: "إذن أعطِني من مائك هذا لكيلا أعطش من بعدُ، ولكيلا أضطرّ إلى ارتياد البئر للاستقاء. ولكنّها، في سريرة نفسها، كانت موقنةً أنّ يسوع يعني هبةً روحيّةً ساميةً. وفي الآن عينه كان يسوع يرى في تلك المرأة ممثّلةً لطائفة السامريّين، التي أقصاها اليهود عن شركة إيمانهم، وأنّ عليه أن يرويها بالإيمان الحقيقيّ.

وردّ يسوع على التماسها الماء الحيّ: "إمضي، وادعي زوجك وعودا إليّ"، فهو لم يأتِ لأجل شخصٍ بمفرده، بل لأجل الجموع. ولكنّ المرأة أجابت: "ليس لي زوجٌ"،

فأثنى يسوع على جوابها بقوله: "حسنًا قلتِ إنّه ليس لديك زوجٌ. فقد كان لك خمسة أزواجٍ، وهذا الذي تعيشين معه ليس زوجك. وبهذا صدقتِ". فطأطأت "دينا" رأسها، وخفضت عينيها، واعترفت: "يا ربّ، أرى أنّك نبيٌّ، حقًّا"، وأسدلت الحجاب على وجهها. وشعرت المرأة أنّ يسوع يخاطب من خلالها السامرة التي عبدت خمسة أصنامٍ، وهي الآن تحيا حياةً روحيّةً ضالّةً. فتوغّلت في الاستفسار، وأشارت إلى جبل جرزّيم وقالت: "لقد أقام آباؤنا عبادتهم على هذا الجبل، وأنتم تقولون إنّ أورشليم هي مكان العبادة الصحيح". فأوضح لها الربّ: "يا امرأة صدّقيني أنّ الساعة قادمةٌ حيث لن تكون عبادة الآب وقفًا لا على هذا الجبل ولا على أورشليم...، ستأتي الساعة ــ وهي قد أتت ــ حيث العابدون الحقيقيّون يعبدون الآب بالروح الحقّ، فمثل هؤلاء يريد الآب عابديه، والله روحٌ وينبغي لعابديه أن يعبدوه بالروح والحقّ". وقالت المرأة: "أعلم أنّ المسيح آتٍ، وعندئذٍ سيعلّمنا كلّ شيءٍ". وفاجأها يسوع بإعلانه: "أنا هو (المسيح)، أنا الذي يكلّمك".

وبذلك أعطى يسوع، من خلال السامريّة، للعالم أجمع، ماء الحقيقة الزلال، الذي يروي كلّ ظمأٍ.

وهبّت المرأة واقفةً مذهولةً، وتركت جرّتها، وانحدرت بسرعةٍ عن التلّة، كي تخبر رجلها وجميع أهل سيخار، بما حدث لها. كان الماء الحيّ قد تفجّر في نفسها، ولم تعد تعبأ إلاّ بمشاركة الجميع السعادة التي غمرتها.

في هذه الأثناء كان التلاميذ قد عادوا بالطعام من المدينة، ودهشوا لرؤية يسوع يخاطب امرأةً سامريّةً، فآثروا المكوث خارج بناء البئر حتّى ذهبت، وحينئذٍ قدّموا للمعلّم ما جاؤوا به من طعامٍ حصلوا عليه بمشقّةٍ، فأجابهم: "أنتم لا تعرفون ما هو الطعام الذي أتغذّى به". فتساءلوا في ما بينهم هل جاءه أحدٌ بطعامٍ، ولكنّه سارع إلى إيضاح: "طعامي هو تنفيذ مشيئة الذي أرسلني، وإتمام عمله". أجل، فخلاص النفوس هو طعامه.

كانت السامريّة قد وُلدت في ريف دمشق من أب وثنيٍّ وأُمٍّ يهوديّةٍ، وكانت أُسرها ميسورة الحال. ولكنّها تيتّمت باكرًا، وتولّت تنشئتها مربّيةٌ فاسقةٌ، أرضعتها حليب الفسق، فتزوّجت خمسة رجالٍ على التوالي ودفعتهم جميعًا إلى هجرها بسوء سلوكها.

وكان يسوع ما برح يحادث أهالي سيخار عندما انضمّ إليه بطرس وسائر التلاميذ، الذين كانوا في مهمّةٍ في الخارج. فدهشوا، وربّما امتعضوا لرؤيته يستفيض في محاورة سامريّين، فهم قد نشأوا على مقت هذه الطائفة الخارجة عن اليهوديّة الصحيحة، وكادوا يثيرون فضيحةً، مستخلصين أنّ كلّ ما يلقونه من إهاناتٍ وشتائم من قِبَل اليهود إنّما هو ناجمٌ عن إزراء معلّمهم بالتقاليد الدهريّة. وبما أنّهم كانوا ما زالوا يحلمون بملكوتٍ أرضيٍّ يوفّره لهم يسوع بقدراته الخارقة، فقد خشوا أن تذهب كلّ أحلامهم في مهبّ الرياح. وكان يسوع يقرأ كلّ ما يجول في رؤوسهم من أفكارٍ، فسار معهم مسافة نصف فرسخٍ، ثمّ استراحوا في ظلّ أشجارٍ، وأخذ يبدّد أوهامهم بأمثالٍ: "ألستم تقولون: أربعة أشهر أيضًا، ويأتي الحصاد؟ وأنا أقول لكم إنّ الكسالى يرغبون في إرجاء كلّ شيءٍ إلى الغد، أمّا أنتم فارفعوا عيونكم وانظروا، فالحقول قد ابيضّت، وحان أوان الحصاد". (وكان يعني أنّ زمن ارتداد السامريّين والوثنيّين قد دنا). "أنا قد أرسلتكم للحصاد حيث لم تزرعوا، وحيث آخرون قد عملوا: كالأنبياء، ويوحنّا وأنا. والحاصد ينال أُجرةً، ويجمع ثمرًا للحياة الأبديّة، فيفرح الزارع والحاصد معًا، ويصدق المثل القائل: "الواحد يزرع والآخر يحصد". وها إنّ غيركم قد حرثوا الأرض وزرعوا، وأنتم تدخلون على تعبهم".

بعد استراحةٍ قصيرةٍ توزّع التلاميذ مجدّدًا، فتلبّث مع يسوع أندراوس وفيليبّس ويوحنّا وأحد الاثنين وسبعين تلميذًا، فيما توجّه سائر التلاميذ نحو الجليل، وقصد يسوع وصحبه سهلاً يمتّد جنوبيّ شرقيّ سيخار، حيث انتشرت نحو عشرين خيمةً يقيم فيها رعاةٌ. وفي إحدى تلك الخيام كانت تنتظره أُمّه وثلّةٌ من النساء المرافقات لها، وكنّ قد انتهينَ إلى ذلك المكان منذ الصباح، آتياتٍ بأطعمةٍ، أعددنها ليسوع ورفاقه.

في الحال طلبت العذراء من يسوع أن يشفي صبيًّا أعرج، كان الرعاة قد جاؤوا به متوسّلين شفاءه. كان الصبيّ في نحو التاسعة من عمره، راقدًا على محفّةٍ قرب الخيمة، وكان ذووه قد وقفوا بعيدًا عنه حياءً. فجاءهم يسوع، وهدّأ روعهم، وواساهم، ثمّ انحنى على الصبيّ وتمتم في أُذنه بضع كلماتٍ، وأمسك بيده وأنهضه، فهبّ واقفًا وجرى وارتمى بين ذراعي والديه، اللذين سجدا للربّ. فدعى المخلّص جميع الحاضرين الضاجّين فرحًا إلى تقديم الشكر للأب السماويّ. وبعد أن وجّه للرعاة كلمةً وجيزةً، تناول طعامًا مع تلاميذه تحت قنطرةٍ من النباتات.

وفيما كانوا هكذا مجموعين حول المائدة، وافى وفدٌ من السامريّين ومعهم "دينا" التي كشف يسوع النقاب عن ماضيها، ولكنّهم وقفوا بعيدًا، غير متجرّئين على الاقتراب من الرعاة اليهود، إلى أن بادرت "دينا" فتقدّمت وحيّت العذراء وتحدّثت إلى النسوة المرافقات لها، وحينئذٍ تشجّع السامريّون الآخرون وحذوا حذوها.

وبعد الغداء ودّعت العذراء ومرافقاتها يسوع عائداتٍ إلى الجليل، على أن يلتحق بهنّ يسوع وتلاميذه في اليوم التالي، إذ إنّه عاد، يومذاك، إلى سيخار تلبيةً لدعوة وفدها. لم تكن سيخار كبيرة الرقعة، ولكنّ لها ساحاتها وشوارع عريضةً وحسنة التنسيق، ومجمعها أفضل بناءً من مجامع البلدات اليهوديّة. وما كاد المخلّص يطأ أرضها حتّى احتشد القوم من حوله، لا في المجمع، بل في الساحة، فراح يعلّمهم في الهواء الطلق، وهم يصغون إليه باهتمامٍ وسعادةٍ، وفخرٍ، لأنّ المسيح حلّ عليهم ضيفًا، معترفين بفضل "دينا" التي أرشدتهم إليه. وبناءً على إلحاحها تقدّم الرجل الذي كان يعيش معها من يسوع الذي حرَّضه على إصلاح سيرته، والصدوف عن الخطيئة. ولم يَطُل بيسوع المقام في سيخار، ولكنّه، على امتداد الطريق الذي سلكه قاصدًا الجليل، استمرّ يتوقّف في الساحات والبساتين زارعًا بذور الخلاص. وكان كلّ من يسمع بوجوده في مكانٍ قريبٍ يهرع لسماعه، وفي كلّ مكانٍ كانت "دينا" تنضمّ إلى الجموع، وتجهد في الإقامة على أقرب مسافةٍ من يسوع، مصغيةً إليه بكلّ

جوارحها، ومتأثّرةً بعمقٍ، معلنةً عن ندمها وعزمها على تغيير سلوكها والتبرّع بكلّ ما تملك للفقراء، وانتهاج الدرب الذي يرشدها إليه المخلّص.

وتناول يسوع، في كلّ خطاباته التي وجّهها للسامريّين قضيّة اعتقال المعمدان، وما لقيه من اضطهادٍ على غرار جميع الأنبياء، وكرّر مَثَل ابن الملك الذي قتله الكرّامون الجاحدون، بعد قتلهم خدّامه، فطُرِدوا وأُوكِل الكرم إلى سواهم. وأعلن بوضوحٍ أنّه مرسل الآب وأكّد ما كان قد قاله للمرأة "دينا" عن الماء الحيّ، وعن العبادة بالروح والحقّ، وعن اقتراب ملكوت الله.

لم يرُقْ هذا التعليم لعلماء الشريعة السامريّين، وفي الآن عينه استمرّ الفرّيسيّون يترصّدونه، ويبثّون عيونهم في إثره، ويقابلون تعاليمه بالاستنكار والسخريّة، ولكنّهم لم يجرؤوا على مواجهته علنًا، ولا على استجوابه، وهو أيضًا لم يُعِرهم اهتمامًا.

في هذه الأثناء كان تلاميذ يوحنّا يزورونه في سجنه، ولكن لم يكن يُسمَح لهم بالدنوّ منه، بل كانوا يحدّثونه من خلال حاجزٍ مشبّكٍ، فيطلعونه على ما يحدث، ويتلقّون تعليماته. وكان يوحنّا، في سجنه، يرقد على مقعدٍ من حجرٍ، وكانت تتجلّى عليه مخايل الوقار والجدّ، ومحيّاه يعكس حزنًا دفينًا، وتبحّرًا في التأمّل، ولا سيّما بعد أن رأى حمل الله وأحبّه، وشهد له، وبات موقنًا أنّ زعماء اليهود يُعدّون الخطّة لقتله.

سجال مع الصدّوقيّين والفرّيسيّين

من سيخار انتقل يسوع وتلاميذه إلى مدينةٍ يهوديّةٍ. وبما أنّه كان يوم سبتٍ فقد قصد المجمع، حيث تليت نصوصٌ تتحدّث عن ضرب الإسرائيليّين في الصحراء، وعن اقتسام أرض كنعان. فتكلّم يسوع عن اقتراب ملكوت السماوات، مؤكّدًا أنّه ليس ملكوتًا أرضيًّا مثل أرض كنعان. فعارضه، بعنفٍ وعنادٍ، اثنا عشر فرّيسيًّا، ولكنّه أنذرهم بأنّهم سيتيهون، ثانيةً، في الصحراء، وأنّ رفضهم لملكوت الله الذي تحدّث عنه سيفضي إلى هلاكهم.

وأنذرهم أنّ الله يرسل إليهم ملكًا حقيقيًّا، ولكنّهم سيقتلونه مثلما قتل الكرّامون الجاحدون ابن صاحب الكرم، وأكّد أنّ الإسرائيليّين تاهوا في الصحراء، لأنّ الخطايا أعمت بصيرتهم، وها إنّ ملكوت الله يقترب، برحمةٍ أخيرةٍ من الله، والدرب واضحٌ أمامهم، فما عليهم إلاّ انتهاجه لكيلا يتيهوا، مرَّةً أُخرى.

وراح الفرّيسيّون يطرحون عليه أسئلةً ماكرةً، فاستفسروا كيف استطاع يونان المكوث ثلاثة أيّام في بطن الحوت والخروج حيًّا، فأجابهم بما يستطيعون فهمه، وأنبأهم بأنّ ابن البشر، على غرار يونان، سيمكث ثلاثة أيّامٍ وثلاثة ليالٍ في جوف الأرض، ثمّ سيقوم، فأغرقوا في الضحك ساخرين من قوله.

وتقدّم منه ثلاثة فرّيسيّين، متصنّعين الاحترام، وقالوا: "أيّها المعلّم الجليل، إنّك تتكلّم عن أقصر سبيلٍ إلى الملكوت، فأرشدنا إليه؟" فأجابهم: "نفّذوا أولى وصايا موسى، وأحبّوا القريب مثل حبّكم لأنفسكم، ولا تلقوا على كواهل الناس أحمالاً باهظةً لا تقوَوْن أنتم أنفسكم على زحزحتها. هذا هو الطريق الأقصر". أجابوا: "إنّنا نعرف هذا". فردّ قائلاً: "لأنّكم تعرفونه ولا تفعلون به فلا عذر لكم، وسيكون عقابكم قاسيًا". وأنحى باللوم على الفرّيسيّين الذين استنبطوا طائفةً من الأوامر النافلة، وأهملوا الشريعة. فأخذ بهم الغيظ كلّ مأخذٍ، ولكنّهم لم يجدوا إلى لومه سبيلاً، وكانوا، في ما بينهم، يزدرونه ويسمّونه استهزاءً: "نبيّ الناصرة، ابن النجّار".

ودعاه أكثر الفرّيسيّين سلامة نيّةٍ إلى الغداء مع تلاميذه، ثمّ استدعوه إلى المجمع، حيث كانوا قد حشدوا عددًا من المرضى وطلبوا منه أن يشفيهم، وكان الفرّيسيّون يتمنّون أن يشفيهم لكي يأخذوا عليه العمل في يوم سبتٍ، فأجابهم أنّه غير راغبٍ في الاستجابة لطلب من يأبون الإيمان.

بعد انتهاء السبت عاد بعض التلاميذ إلى ذويهم، فيما قصد يسوع مع واحدٍ من الاثنين والسبعين كان دائم المواكبة له، وبعض أقربائه إلى مزرعةٍ تخصّ لعازر. وكم كان مؤثّرًا مشهد يسوع في البستان محاطًا بأبناء الناطور يحدّثهم! وبين حينٍ وحينٍ،

كان يأخذ اثنين من الصغار بين ذراعيه ويعلّمهم إطاعة والديهم، وتكريم المسنّين. ثمّ أشار إلى الزهور والثمار الجميلة، وحدّثهم عن جمال ملكوت الله الموعود لمن ينفّذون وصايا الله، والذي، بإزائه، ليسَت الأرض، مع كلّ جمالاتها، إلاّ صحراء قاحلة. وأوصاهم بتحمّل كلّ المِحَن التي تمتحنهم بها العناية الإلهيّة بلا تذمّرٍ، إذا هم كانوا راغبين في ملكوت السماء، وحرّضهم على إبقاء ملكوت الله في أذهانهم وفي رغبات قلوبهم، وأن يستحقّوه باحتمال كلّ أصناف المِحَن والجهود.

ومن هناك انتقل يسوع وصحبه إلى بلدة تُعدّ معقل الصدّوقيّين، وكان بعض هؤلاء قد استمعوا إلى أقواله في ديار السامريّين، وامتعضوا من تنديده بقسوة الفرّيسيّين والصدّوقيّين حيال السامريّين، فوطّنوا العزم على إيقاعه في حبائلهم. فطلبوا منه شفاء مريضٍ يوم سبتٍ، واستشفّ الربّ أعماق ضمائرهم، وهجر ذلك المكان، فأنفذوا في إثره رسالةً تقول: "أنت تفوّهت بأقوالٍ رائعةٍ عن محبّة القريب، فلا يسوغ أن ترفض شفاء عليلٍ. وإذا وافقت على إجراء هذه المعجزة، لآمنّا نحن والفرّيسيّون بك، ولساعدناك على نشر رسالتك في منطقتنا"، وكان المريض المزعوم قد توفّي منذ عدّة أيّام، فحنّطوه خلسةً، وادّعوا أنّه في سباتٍ عميقٍ، وأقنعوا حتّى زوجته بهذه الخدعة. وكان يسوع يعلم أنّه لو شفاه لأذاعوا أنّه كان مريضًا حقًّا، لا ميّتًا. ومضوا بيسوع إلى بيت ذلك الرجل الذي كان زعيمًا صدّوقيًّا معاديًا للتلاميذ بشراسةٍ. وعند اقتراب يسوع أخرجوا جثّة الميت إلى الشارع على سريرٍ، واحتشد القوم من حولهم. وبدت الجثّة في حالة حفظٍ جيّدةٍ بفضل التحنيط. وسارع يسوع إلى إعلان: "لن يعود هذا الرجل إلى الحياة. فهو ميتٌ". فأكّدوا أنّه في غيبوبةٍ أو أنّه مات منذ لحظاتٍ فقط. فقال الربّ لهم: "هذا الرجل أنكر القيامة، ولذلك لن يقوم إلاّ للدينونة العامّة. انظروا كم من الأطياب حشوتموه، اكشفوا عن صدره". وحينئذٍ كشف أحد المحنّطين الجلد في المكان الذي تمّ فيه تحنيطه، فخرجت منه كوكبة من الديدان البشعة المريعة. فعلّق

يسوع: "هذه هي ديدان ضميره الفاسد التي أحسن إخفاءها، والتي تنهش قلبه الآن!". ثمّ أَنحى باللوم على خداع الصدّوقيّين، وأنذرهم، هم وجميع الرافضين انتهاج درب الخلاص، بالويل الذي سيحلّ بأورشليم. فأسرعوا في إدخال الجثّة إلى المنـــزل خاسئين، صابّين الشتائم على الربّ الذي أخزاهم، ومحدثين ضجيجًا مريعًا. وغادر يسوع وتلاميذه البلدة وانطلق في إثرهم أهلها الذين هيّجهم الصدّوقيّون، راجمينهم بالحجارة.

شفاء ابن قائد مئة كفرناحوم

قضى يسوع ليلةً في مخيّمٍ جاثمٍ على تلّةٍ. وكان بصحبته أندراوس ونثنائيل، وعريس قانا، وقد انضمّ إليهم اثنان من خدم قائد المئة في كفرناحوم، جاءا يتوسّلان المخلّص مرافقتهما، سريعًا، إلى سيّدهما لأنّ ابنه كان يعاني علّةً خطيرةً. وكان المخلّص قد قال لهما إنّه سيلبّي طلب قائد المئة، ولكن في الوقت المناسب.

قائد المئة ذاك كان قد كُلِّف بحكم جزءٍ من الجليل، وكان قد ذاد عن حياض تلاميذ يسوع، وحماهم من اضطهادات الفرّيسيّين. كان مؤمنًا بقدرات يسوع، ولكنّ إيمانه كان مهزوزًا، وكانت تراوده رغبةٌ مضطرمةٌ بأن يُجري له الربّ معجزةً، لمصلحة ابنٍ له معتلّ، في المقام الأوّل، وأيضًا من أجل إخزاء الفرّيسيّين، وكان تلاميذ يسوع يشاطرونه هذه الرغبة لكي يظهروا للفرّيسيّين حقيقة معلّمهم، وبهذا القصد، وبهذا الدافع قدّم أندراوس ونثنائيل خادمي قائد المئة ليسوع. وكان يسوع عليمًا بنواياهم الكمينة.

مع ذلك، أمضى يسوع معظم فترة ما قبل الظهيرة في تبشير الجموع، وإذ بضابطٍ يوافي، ناهبًا بفرسه الأرض نهبًا، ومتلظّيًا رغبةً في رؤية يسوع. ولكنّ كثافة الجموع حالت دون اقترابه منه، فراح يجأر بأعلى صوته: "أيّها المعلّم الجليل، اسمح لخادمك أن يأتي إليك، فأنا مرسلٌ من قبل سيّدي في كفرناحوم، وأنا أتكلّم باسمه، وبصفتي والد ابنه، وأتوسّل إليك أن تأتي معي في الحال لأنّ ابني يحتضر". وتظاهر

يسوع بعدم سماعه. وكانت صيحاته قد لفتت انتباه الجموع فحاول اختراقها، ولكنّه لم يفلح في الوصول إلى الربّ، وانطلق يصيح ثانيةً: "إنّ ابني يحتضر فهيّا تعالَ معي". وإذ لم يكن يكفّ عن الصياح التفت إليه يسوع، وقال له على مسمع الجمع: "إن لم تشهدوا معجزاتٍ وخوارق فلا تؤمنون. إنّي عليمٌ بسرّ قلوبكم، ورغبتكم في إهانة الفرّيسيّين كي تفتخروا، مع أنّكم لستم خيرًا منهم. وأنا لم آتِ لأصنع معجزاتٍ، وأُرضي غروركم، ولست بحاجةٍ إلى شهادتكم. وعندما يشاء أبي، ستشهد أعمالي لي، وسأحقّق معجزاتٍ عندما تقتضي رسالتي ذلك... عليكم أن تؤمنوا وتتوبوا، لا التماس عجائب لتتباهوا بها".

هذا اللوم العلنيّ لم ينل من عزيمة الضابط، الذي استمرّ محاولاً الاقتراب من المخلّص، وهاتفًا: "دعك من هذا الآن، وهيّا معي، فقد يكون ابني قد لفظ أنفاسه"، وطمأنه يسوع: "إذهب فابنك حيٌّ"، وصاح الضابط: "أحقًّا؟"، وردّ عليه يسوع: "صدّقني في هذه اللحظة تعافى ابنك"، وفي الحال قفل الضابط عائدًا مطمئنًّا.

ولا بدّ من التنويه بأنّ هذا الضابط كان معاونًا لحاكم كفرناحوم السابق الذي اقترن بزوجته عقب طلاقها منه، وتبنّى ابنه منها، لأنّه لم يرزق أبناءً من صلبه، وأحبّه حبّ أبٍ حقيقيٍّ، وأصبح لذلك الولد أبوان يحبّانه حبًّا جمًّا. وهذا ما يفسّر قول الضابط المرسل إلى يسوع بأنّ المعتلّ هو ابنه، ويفسّر أيضًا لهفته وحرارة توسّلاته.

وكان الفتى البالغ ثلاثة عشر ربيعًا قد عبّر عن رغبته في رؤية يسوع ونيل الشفاء عن يده، في حين كانت تحدو ذويه الرغبة في الظفر بعون يسوع فقط من أجل التباهي أمام الفرّيسيّين. ولكن، لمّا تفاقمت حال الفتى سوءًا، وألحّت نذُر الخطر، وأثبتت جميع العلاجات إخفاقها في تحقيق أيّ تحسّنٍ، هتف الفتى العليل: "لا نفع من كلّ علاجاتكم. ولا أحد يقوى على شفائي سوى نبيّ الناصرة". فهرع ذووه يستغيثون بيسوع، الذي حرص على إصلاح نفوسهم أوّلاً.

وفيما كان والد الفتى عائدًا، التقى اثنين من خدم الحاكم مرسلين كي يزفّوا إليه بشرى شفاء الفتى، الذي كانت الحمّى قد فارقته في اللحظة ذاتها التي قال له الربّ إنّ ابنه نال الشفاء. وقد وجد الضابط سيّده وابنه واقفين عند باب البيت ينتظرانه، فأطلعهما وأطلع الجمع الحاضر على كلّ ما قاله يسوع.

ثمّ، لمّا تنامى نبأ قدوم يسوع إلى كفرناحوم أُقيمت خيمةٌ كبيرةٌ للاحتفال باستقباله، وكان الحاكم ومعاونه والفتى الذي نال الشفاء في مقدّمة مستقبليه، ويتبعهم موكبٌ ضخمٌ يضمّ جميع أفراد الأُسرة والخدم، وقد سجدوا جميعهم له شاكرين، وركع الفتى أمامه، فوضع يديه على رأسه وباركه وأسدى إليه بضع نصائح. ودعا الحاكم يسوع إلى مأدبةٍ في بيته، فرفض وكرّر على مسامعه ما قاله لوكيله بشأن ابتغائه معجزةً يتباهى بها أمام خصومه، وأكّد أنّه إنّما شفى الفتى مكافأةً لإيمان رسوله الصلب. ثمّ مضى في سبيله.

وحينئذٍ، دعا قائد المئة كلّ خدمه والعاملين لديه إلى مأدبةٍ، وأغدق الصدقات على الفقراء، فآمنوا بيسوع، وعقدوا حلقة إنشادٍ لشكر الربّ.

وكان الحاكم قد بلّغ أُمّ يسوع بمكرمة ابنها عليه، وسرعان ما ذاع نبؤها في تلك المنطقة وتنامى رجاء الشفاء في نفس حماة بطرس التي كانت هي أيضًا تصارع الحمّى.

يسوع يبشّر في كفرناحوم

طاف يسوع في المدينة متوجّهًا إلى بيت أُمّه، حيث كان بطرس وأندراوس ويعقوب ويوحنّا وخمس نساءٍ قدّيساتٍ ينتظرونه. وخفّوا جميعهم للترحيب به، وقد تجلّت على وجوههم أمارات الفرح بعودته، وبما أجراه من معجزاتٍ حيثما مرّ.

ثمّ قصد المجمع مع تلاميذه للاحتفال بالسبت حيث احتشد جمعٌ غفيرٌ يضمّ العديد من المرضى. وفي المجمع تولّى يسوع قراءة الأسفار بنفسه، فتلا النصوص المتعلّقة بتذمّر اليهود من الله، واستفاض في التنديد بجحود آبائهم، وفي الإشادة برحمة الله حيالهم. وفي إعلان اقتراب ملكوت الله، وفي تحذيرهم من تكرار أخطاء آبائهم،

مقارنًا تيه الإسرائيليّين بضلال يهود عهده. ثمّ تلا الفصل الأوّل من أشعيا وقارنه بالحاضر، فبيّن خطايا اليهود والكوارث التي كانت عقابًا لها، وذكّرهم بسوء معاملتهم للنبيّ الذي طالما انتظروه، قائلاً إنّ الحيوانات العجماوات نفسها تتعرّف أصحابها، وهم لا يتعرّفون سيّدهم، بل سينكّلون بمن جاءهم مخلّصًا، والذي ستتجلّى هويّته من خلال ما سيوسعونه من إهاناتٍ، موضحًا أنّ جماعته ستكون في البدء قليلة العديد، ولكنّ الربّ سينمّيها، في حين أنّ أعداءها سيُبادون. وحرّضهم على الارتداد إلى الله، والتوجّه إليه كي يطهّرهم من آثامهم، لأنّ أياديهم ملطّخةٌ بالدماء.

وقد استاء الفرّيسيّون وفئةٌ من الكفرناحوميّين من صرامة يسوع في التنديد بجحودهم، ولا سيّما أنّهم كانوا يتوقّعون منه شكرهم لترحيبهم به. وأسهب في تعليمهم، ولّما خرج من المجمع، كان عددٌ غفيرٌ من المرضى قد انتظموا في الطرقات فتساءل الفرّيسيّون سرًّا: "هل سيجرؤ على شفائهم في يوم سبتٍ؟" وفي الواقع أبرأ بعضًا منهم، وحرّر من كانت تسكنهم أرواحٌ شرّيرةٌ.

وكان الليل قد خيّم عندما عاد إلى بيت أُمّه. وفي أثناء الطريق كان تلاميذه يشكون من سوء أحوالهم، فكان بطرس يشكو من أنّ غيابه الطويل أفقده فرص صيدٍ ثمينةً تساعده على القيام بأوَد أُسرته وحماته، وقال يوحنّا إنّ عليه وعلى أخيه يعقوب العناية بوالديهما. ولم يكن أولئك التلاميذ يتحرَّجون من التفكّه ببعض المزاح، وطمأنهم الربّ بقوله: "سيأتي وقتٌ ستتخلّون عن الصيد، من أجل اصطياد أسماكٍ من نوعٍ آخر".

وكان يوحنّا يتميّز عن الآخرين، بثقةٍ بنويّةٍ، أكثر حميميّةً من الآخرين، وبتفانيه اللامحدود، وتحرّره من القلق، وعزوفه عن كلّ اعتراضٍ.

يوم السبت عاد يسوع إلى كفرناحوم قاطعًا مسافة نحو أربعة فراسخ من بيت أُمّه إليها، وكان بانتظاره، أمام المجمع، عددٌ من المرضى، فشفا بعضًا منهم ثمّ علّم في المجمع، ولّما خرج منه سجدت أمامه ثلّةٌ من المعترفين بخطاياهم، طالبين الغفران، وبينهم

نساءٌ طُردْنَ من بيوتهنّ بسبب ارتكابهنّ الزنى، راغباتٍ في الاعتراف أمام الجميع، فأجابهنّ أنّ قضيّة الاعتراف العلنيّ سيحين وقتها، أمّا في الوقت الحاضر، فمن شأنها إثارة الشكوك والفضائح. ونصحهنّ بالتوبة وتوطين العزم على العزوف عن الخطيئة.

وسأله آخرون راغبون في الاعتماد هل عليهم انتظار أن يشرع تلاميذه بالتعميد، فنصحهم بالاعتماد على يد تلاميذ يوحنّا.

واعترض الفرّيسيّون الحاضرون على تجرّئه غفران الخطايا، فأفحمهم بقوله إنّه أيسر عليه غفران الخطايا للراغبين حقًّا في التوبة، والابتعاد عنها، ما يساعدهم على اجتنابها في المستقبل، فذلك أحبّ عليه من شفاء أجساد من تبقى نفوسهم مريضةً، ويستخدمون أجسامهم للخطيئة. وأخذوا عليه إجراء أشفيةٍ أيّام السبت، فسألهم هل فيهم من إذا وقعت له دابّةٌ في بئرٍ، يوم سبتٍ، لا يسارع إلى انتشالها؟

وإثر ذلك اجتمع الفرّيسيّون وشيوخ كفرناحوم، بحضور مندوب الملك، للتباحث بشأن سلوكه وتعليمه، وإيجاد سبيلٍ للحدّ من الفوضى التي يحدثها. فمن كلّ مكانٍ يُهمل القوم أعمالهم ويتهافتون للاستماع إليه. فضلاً عن أنّ انتقاداته للوضع القائم وللمعلّمين الشرعيّين كانت تزرع الاضطراب. وهو ليس سوى ابن نجّارٍ من الناصرة، فمن أين له كلّ هذا الادّعاء المتعجرف، وبأيّ حقٍّ يفعل ذلك؟ إنّه لا يتحرّج من إجراء أشفيةٍ أيّام السبت ويغفر الخطايا، فهل فُوِّض بذلك من قِبَل قدرةٍ عليا؟ ومن أين يستنبط تفسيراته للكتب، أليس خرّيج مدارس الناصرة البدائيّة؟. وهل هو يمارس السحر، أو إنّه يتآمر مع قوى غريبةٍ؟ إنّه لا يكفّ يبشّر باقتراب ملكوت السماوات، وبمجيء المسيح، وبالعقاب الذي سيحلّ بأورشليم. أفلا يمكن أن يكون، في الواقع، ابن إنسانٍ مجهولٍ ذي نفوذٍ، يسعى إلى إنشاء حزبٍ، واغتصاب مملكة إسرائيل؟ لا ريب أنّه يعتمد على سندٍ سرّيٍّ، وعلى وسائل خفيّةٍ، توحي بأنّه يعمل بسلطةٍ كاملةٍ. وتُرى مع من يتآمر، في أثناء رحلاته التي لا تنتهي؟ وكيف ينبغي مقاومته؟

استمع مندوب الملك إلى هواجس الفرّيسيّين بهدوء، ولكنّه هدّأ روعهم بقوله: "إن كانت سلطته من الله، فلن تقووا على مقاومتها. وإلاّ فهو سيدمّر نفسه بنفسه، وعلى أيّ حالٍ، فطالما أنّه يشفي مرضانا، ويحسن إلينا، فعلينا أن نحبّ مَن أرسله ونحبّه".

أمضى يسوع تلك الليلة مع تلاميذه في بيت أُمّه. وفي الغداة شخص معهم إلى البحيرة. وكان ذلك اليوم يوم صومٍ، فانتهز هذه السانحة لكي يثقّفهم ويكمل إعدادهم، وكانوا، في كلّ مكانٍ تتجلّى فيه جمالات الطبيعة، يتوقّفون ويواصل يسوع تعليمهم. وسأله تلاميذه عن العُشر، والمظالم المرتكبة بحجّة تحصيله. فأوضح لهم أنّ العُشر إنّما فُرض، تذكيرًا للناس بأنّهم ليسوا ملاّكين للأرض، بل هم مجرّد مستثمرين لها، ونصح بدفع العُشر حتّى عن البقول.

وذكر التلاميذ قصّة الذي اعتدى عليه لصوصٌ وسلبوه ماله وتركوه يصارع الموت إلى أن أنقذه سامريّ. فضرب يسوع لهم مثل رجلٍ صرعته الخطيئة، فرئف الله به، وأرسل له شريعةً تحميه، وكهنةً وأنبياء يأخذون بيده ويقتادونه إلى سواء السبيل، ولكنّهم مرّوا به ولم يأبهوا بشفائه وإرشاده. وأخيرًا أرسل الله ابنه، الذي جاء فقيرًا معدمًا لا نطاق على حقويه، ولا غطاء على رأسه، فحنّ على الصريع، وسكب على جروحه خمرًا وزيتًا، فاغتاظ الذين كُلّفوا، أصلاً، بشفاء الجرحى، وإرشاد التائهين، وانقضّوا عليه وقتلوه. وأدرك تلاميذه أنّه يعني ذاته، ولكنّهم تساءلوا من قد يكون أبوه الذي يتكلّم دائمًا عنه. وعن قلقهم بشأن معيشتهم ومعيشة ذويهم، ضرب لهم مثلاً ابن الربّ الذي تخلّى عن كلّ شيءٍ لكي يواسي الجرحى والمرضى ويغيث المعوزين، لأنّ الأغنياء والمقتدرين قد صدفوا عن تلك المهمّة التي تُلزمهم، وأضاف: "لن يتخلّى أبي عن خدّام ابنه، بل سيتلقّون كلّ شيءٍ بوفرةٍ عندما سيلتفّون حوله في ملكوته".

وفيما كان يحدّثهم انتهوا إلى صيدا حيث رست مراكب صيد بطرس، وابنَي زبدى، فقصدوا بيت بطرس حيث كانت قد اجتمعت النساء القدّيسات، من تلك

البلدة ومن جوارها، ومن قانا. وبما أنّ أولئك النسوة كنّ عازماتٍ على خدمته وخدمة تلاميذه، في تلك المنطقة حيث اعتزم المكوث طويلاً، فقد أوصاهنّ بالتقتير في النفقات، والتحاشي عن كلّ نافلٍ، فهو لا يحتاج إلاّ إلى الزهيد الأساسيّ، والحريّ بهنّ إيلاء الأولويّة للعناية بالفقراء وغوثهم.

ثمّ مضى إلى بيت أُمّه مع تلاميذه الذين تابع إكمال تثقيفهم، وبعدئذٍ راح يبحث عن مكانٍ منعزلٍ، كي يختلي فيه وينصرف إلى الصلاة، ومناجاة أبيه.

يسوع يكشف عن هويّته ويخزي الفرّيسيّين

في مجمع بيت صيدا تحدّث يسوع عن اقتراب ملكوت السماوات، وأدهش الجميع حتّى تلاميذه بإعلانه أنّه سيكون هو ملك هذا الملكوت. بعدئذٍ، قصد مع تلاميذه بيت أندراوس حيث كان قد أُعدّ غداءٌ، ولكنّه لم يشارك به قائلاً إنّ له طعامًا آخر. وشخص برفقة اثنين من التلاميذ إلى مأوًى للمصابين بالبرص، حيث احتشد الكثيرون منهم مع مجانين ومبتلين بعللٍ مختلفةٍ، يعانون إهمالاً كاملاً، وفقرًا مدقعًا. وكان بعضهم عراةً، لافتقارهم إلى ما يسترون به أجسادهم. ولم يجرؤ أحدٌ من سكّان البلدة على مواكبة يسوع وتلميذيه، خوفًا من النجاسة. وكان حرّاس المأوى أنفسهم لا يمسّون أحدًا من المعتلّين، ويقدّمون لهم الطعام من خلال كوًى في أبواب حجراتهم. فأوعز يسوع إلى تلميذيه، أن يأتوا لأولئك البؤساء بأغطيةٍ وألبسةٍ، وطلب من الحرّاس إخراج أولئك البؤساء إلى الهواء الطلق وواساهم ونصحهم أن يثقوا برحمة الله. ثمّ طاف بهم، واحدًا واحدًا، ووضع يديه عليهم وأبرأ كثيرين، ولكنّه مرّ ببعضٍ منهم بلا توقّفٍ، وأمر آخرين بالاستحمام. وجثا أمامه الذين ظفروا بالشفاء، مذرّفين دموع الفرح والشكر، وأقبل ذووهم الذين نما إليهم نبأ شفائهم آتين بألبسةٍ جديدةٍ لهم.

ثمّ مرّ يسوع بقريةٍ خرج من حقولها رجلان تسكنهما الأبالسة من وقتٍ إلى وقتٍ، ويعانيان من علّةٍ في المعدة، والتمسا الشفاء، ولكنّ يسوع الذي استشفّ

دوافعهما الحقيقيّة ألا وهي التمكّن من إرواء نقيصة الشراهة، لم يستجب لطلبهما، وتابع سيره.

وفي قرية "صفّورية" زار يسوع أنسباء لجدّته حنّة، لهم ثلاثة أبناء، كان أحدهم قد انضمّ إلى تلاميذ يسوع الاثنين والسبعين، وسألته أُمّهم أن يضمّ إليه الاثنين الآخرين. وعلّم يسوع في مجمع القرية، ثمّ طاف في البلدة برفقة أقربائه وعلّم الجموع التي كانت تتقاطر لسماعه. وفي أثناء عودته، شفى أمام المجمع عددًا من المرضى، وندّد بالكتبة الذين أضافوا بنودًا إلى شريعة الزواج والطلاق وشوّهوها.

ثمّ زار بيتًا كان يخصّ أجداد القدّيسة حنّة، وحيث كانت ما تزال تقيم عجوزٌ من أقاربها مصابةٌ بالاستسقاء، طريحة فراشها، ويقيم إلى جانبها صبيٌّ أعمى وأصمّ في الثامنة من عمره، فشفاهما كليهما، وكان أوّل ما وقع عليه بصر الصبيّ في عالمه الجديد وجه مخلّصه، وقد أوصاه الربّ بأن يظلّ مطيعًا لوالديه وبارًّا بهما، وأن يخضع لله الذي أعاد له البصر، وألاّ يستخدم عينيه لإهانته، وسرعان ما أقبل ذووه طافحين فرحًا وشكرًا، ممجّدين الربّ.

طُرُق شفاء يسوع كانت تختلف من فردٍ إلى آخر، وكانت لها رموزٌ ودلالاتٌ، فكان يستخدم لكلّ علّةٍ طريقةً تناسبها، يمسّ المقعدين فتنبسط أعضاؤهم المنكمشة، وتستعيد عضلاتهم قوّتها، وعندما كان يلمس أبرص كانت تتساقط قشور البرص عنه مسفرةً عن بقع حمراء تستعيد لون البشرة الطبيعيّ، شيئًا فشيئًا. ولكنّه كان، عمومًا، يتجنّب الأشفية الفوريّة الباهرة، فلم تشاهد الرائية، قطّ، حدَبَةً انبسطت وزالت فجأةً، إذ كان يؤثر أن ترتدي أشفيته شكل الرحمة الإلهيّة التي تعمل برفقٍ وصبرٍ أكثر من ارتدائها شكل خوارق، ولا سيّما عندما كان يشفي يهودًا يبتغي، في المقام الأوّل، إيقاظهم على الثقة والإيمان بالله. ولكنّه مع الوثنيّين لم يكن يحجم عن الأشفية الباهرة لأنّه كان يريد منها إحداث صدمةٍ وانقلابٍ جذريٍّ، وتحوّلٍ جوهريٍّ. وكان يبتغي أن يشارك المريض في شفاء نفسه بالإيمان والرجاء، والثقة والمحبّة، والتوبة، والارتداد إلى الله.

ومع ذلك كان يعمد أحيانًا إلى الشفاء عن بعدٍ، مثل شفاء النساء النازفات اللواتي تعدّ الشريعة مجرّد وجودهنّ في مجتمعٍ نجاسةً، ولطالما شوهدت نساءٌ نازفاتٌ يقبّلن آثار قدميه على الأرض فينلنَ البرء. وكان، أحيانًا، يشفي بنظرةٍ أو بكلمةٍ، وحتّى عبر مسافاتٍ بعيدةٍ.

وجاء فرّيسيّون يجادلونه في تنديده بالإضافات التي أُدخلت على الشريعة بشأن الزواج والطلاق. وفي حين أنّ الذي كان موحيها قد اعتذر ووعد بالتزام نصّ الشريعة، استفاض آخرون في الدفاع عن صحّة التأويلات الدخيلة، وأفحمهم يسوع بفضح كونهم يتّخذون هذا الموقف إرضاءً لنـــزواتهم وشهواتهم الخاصّة.

تعليم يسوع في الناصرة، ومحاولة قتله

ووافى يسوع إلى الناصرة، حيث حلّ ضيفًا على أقرباء لصديقه المتوفّى "إيليود" الأسّينيّ، يتّصفون بالطيبة والمحبّة، وقد سارعوا إلى غسل قدميه، وتقديم الطعام له، مؤكّدين أنّ مجيئه سيكون مبعث فرحٍ للناصريّين. ولكنّه سارع إلى إيضاح أنّ هذا الفرح لن يطول أمدًا، لأنّ ما سيقوله لن يروق لهم سماعه.

كان كثيرون من منتظريه عند مدخل المدينة، وما إن وطأت قدماه عتبتها أقبل عددٌ غفيرٌ من الفرّيسيّين والوجهاء، وحشدٌ شعبيٌّ، للترحيب به، ودعوه إلى نَزْلٍ عامٍّ حيث أعدّوا مأدبةً فاخرةً تكريمًا له، ولكنّه رفض الدعوة، لأنّ عليه، أوّلاً، مهمّةً أُخرى. وشخص مباشرةً إلى المجمع، الذي لم يلبث أن ضاق بالجموع.

وفي الحال شرع يبشّر بدنوّ ملكوت السماوات وبتحقيق النبوءات. ثمّ أُعطي سفر نبوءات أشعيا، حيث جاء: "روح الربّ عليّ لأنّه مسحني لأُبشّر الفقراء، وأرسلني لأُنادي للمأسورين بالتخلية، وللعميان بالبصر، ولأُطلق المرهقين أحرارًا، وأُنادي بسنة قبولٍ للربّ". تلفّظ بهذه الأقوال بطريقةٍ أدرك، من خلالها، جميع الشاخصين إليه بأبصارهم أنّه هو من قصده أشعيا بنبوءته، وأنّ عليه، هو، حلّ روح الله، وأنّه هو الذي أُرسل كي يبشّر الفقراء، ويصلح الاعوجاج والمظالم،

ويشفي المرضى، ويغفر للخطأة. كان ذلك واضحًا من خلال النصّ، ومن خلال تعليقه عليه. واستأنف قائلاً: "اليوم تحقّقت النبوءة التي سمعتموها".

أقواله هذه ملأت الكثيرين من مواطنيه فرحًا وفخرًا بأنّ المسيح قد جاء من بلدهم. وأسرّوا له أنّ هناك العديد من المرضى الآملين بنيل الشفاء عن يده، ولكنّه لم يُعِرْ بالاً لرغبتهم هذه، فلم يلحّوا إذ كانوا واثقين بأنّه سيشفيهم في اليوم التالي. ثمّ انطلق إلى أصدقائه الأسّينيّين الذين عبّروا عن سرورهم للترحيب الذي لقيه يسوع في الناصرة، ولكنّه أنذرهم بأنّ الأمور ستتغيّر في الغد.

وبالفعل، في اليوم التالي، علّم ثانيةً في المجمع، حيث طلب أن يقرأ بنفسه الأسفار المقدّسة، فدعا إلى واجب الخضوع لوصايا الله، والتزامها، وتجنّب إدخال أيّ تعديلٍ أو تحويرٍ عليها، مذكّرًا بأنّ الإسرائيليّين طالما خالفوا الوصايا. وبعد أن عدّد الوصايا توقّف عند وصيّة حبّ الله والقريب، وأخذ على الفرّيسيّين فرض أعباءٍ على الشعب يتهرّبون هم من حملها، وإدخالهم إضافاتٍ نافلةً هم أوائل مخالفيها. هذه التنديدات أثارت غيظ الفرّيسيّين الشديد، ولا سيّما أنّ ضمائرهم كانت تؤكّد لهم صحّة أقواله، ولكنّهم ما انفكّوا يتساءلون: كيف له أن يتكلّم، فجأةً، بهذه الجرأة؟ لقد توارى مدى سنواتٍ، وها هو ذا يظهر وكأنّه معجزةٌ، ويتحدّث بسلطانٍ ولكأنّه هو المسيح عينه. أوَليس هو ابن النجّار المسكين يوسف؟ ومن أين استمدّ كلّ علمه؟ لا ريب أنّه شديد الاعتداد بذاته، لكي يتجرّأ على الإدلاء بكلّ هذه الأقوال! كان إفحامه لهم أمام الشعب إهانةً لم يقووا على ابتلاعها، ملأهم غيظًا، لم يكونوا، بعدُ، يجرؤون على إعلانه. وبعد أن تابع تعليمه بهدوءٍ، عاد إلى الأسّينيّين كي يتناول شيئًا من الطعام، ولحق به الشبّان الأغنياء الذين كانوا قد توسّلوه، مرّة تلو مرّةٍ، ضمّهم إلى جماعة تلاميذه، بقصد التباهي واكتساب مكانةٍ مرموقةٍ في المجتمع، وأكّدوا له أنّهم قد نفّذوا كلّ ما طلب منهم، ولم يبقَ حائلٌ دون انخراطهم في جماعته، ولكنّه إذ لم تخفَ عليه نواياهم الخفيّة، ردّ

عليهم قائلاً: "إن كانت الحال كما تصفونها، فقد أصبحتم أسياد ذواتكم، ولا تحتاجون إلى الانضمام لجماعتي".

وتشاور الفرّيسيّون، في ما بينهم، حول طريقة مقاومة الناصريّ، وحرَّضوا بعضهم بعضًا على ذلك، واتّفقوا على مصارحته بأنّ لا سلطان له على قول ما يقوله بجرأةٍ وقحةٍ، وعلى تنفيذ الخطّة التي كانت قد أُعدّت له، آنفًا، في أورشليم. غير أنّهم كانوا ما برحوا يأملون أنّه سيحفظ لهم بعض الودّ ويحقّق معجزاتٍ، إكرامًا لهم.

وعندما وصل الربّ إلى المجمع من أجل اختتام يوم السبت، كانوا قد وضعوا له، أمام الباب، عددًا من المرضى وأصحاب العاهات، ولكنّه اجتاز ولم يشفِ أحدًا. وتكلّم، ثانيةً، عن رسالته وعن حلول الأوان، وعن عقاب الذين يرفضون التوبة والارتداد عن غيّهم، وعن مهمّة التبشير بالإنجيل وشفاء الأمراض، وخلاص النفوس المسندة إليه. وكان، كلّما استفاض في كلامه، يتفاقم جيَشان الغضب لدى مناوئيه، الذين شرعوا يتذمّرون ويتململون، فقال لهم: "لا ريب أنّكم تطبّقون عليّ المثل القائل: "يا طبيب، طبّب نفسك" وستطلبون منّي أن أفعل هنا مثل المعجزات التي أجريتها في كفرناحوم". وفي الحقيقة، أنا أقول لكم: "لا أحد نبيٌّ في وطنه". فازدادوا غيظًا، وتعالى ضجيج تذمّرهم، فقال لهم: "في أيّام إيليّا، عندما اشتدّت المجاعة، كانت أرامل كثيراتٌ في إسرائيل، ولكنّ النبيّ لم يرسل إلى أيّةٍ منهنّ، بل إلى أرملة صرفت صيدون. وفي حقبة إليشاع كان في إسرائيل عددٌ جمٌّ من البرص، ولكنّ النبيّ الذي لم يشفِ أحدًا منهم، شفى نعمان السوريّ". هذه المقارنة ألهبت الفرّيسيّين غيظًا، فهمّوا بالانقضاض على يسوع الذي قال لهم: "التزموا بتعاليمكم، ولا تخرقوا حرمة السبت، وسيتسنّى لكم، في مقبل الأيّام، تنفيذ ما يجول الآن بخاطركم". فتركوه يكمل عظته، ولكنّهم هجروا مجالسهم، وتجمّعوا عند الباب وهم يتقيّأون الشتائم واللعنات.

وما إن خرج يسوع من المجمع حتّى انقضّ عليه نحو عشرين فرّيسيًّا، وقبضوا عليه مهدّدين: "إذن، اتبعنا إلى مكان الشرف، حيث ستستطيع بسط تعليمك، وهناك سنردّ عليك الردّ الملائم". فقال لهم: "لا داعي للعنف، فأنا سأمضي معكم إلى حيث تشاؤون"، فرفعوا أيديهم عنه، واكتفوا بالإحاطة به من كلّ جانب، يواكبهم جمعٌ غفيرٌ. ومع انتهاء السبت، تحلّلوا من كلّ واجبٍ، وكلّ رادعٍ، وكلّ خُلُقٍ، وصبّوا على يسوع أقذع السباب وأقذر الشتائم، قائلين سنردّ عليك: "هيّا أغث أرملة صرفت صيدون، واشفِ نعمان السوريّ. وإن كنت إيليّا فطرْ إلى السماء، حيث سنريك مكانًا لائقًا. من أنت؟ وأين هم أتباعك؟ أخشيت أن تأتي بهم إلى هنا؟ أبوك الذي أطعمك ألم يكسب خبزه بين ظهرانينا؟ والآن وقد اكتفيت، تأتي لتشتمنا؟ نحن لم نرفض الاستماع إليك، وسندعك تتكلّم في الهواء الطلق أمام الشعب كلّه، وهنا سنردّ عليك". وكان الشعب المواكب يدعم هذه الإهانات بصيحاتٍ رعناء، حتّى بلغ الموكب قمّة التلّة. وبقي الربّ ساجيًا، ساكنًا، لا يردّ إلاّ بنصوصٍ من الكتاب المقدّس، أو بنصائح تفيض حكمةً، وبذلك كان يفتّ من عضد مناوئيه، ويسعّر غضبهم.

وخيّم الليل فأشعلوا فوانيس، وعند أرفع قمّةٍ كان سفحان أحدهما من ناحية الشمال ينحدر برقّةٍ حتّى مستنقعاتٍ، في حين كان الآخر من ناحية الجنوب يشرف على هوّةٍ سحيقةٍ، حيث جرت عادة دفع مرتكبي الجرائم الجسيمة إلى الهوّة. وهم كانوا يبتغون استجوابه للمرّة الأخيرة قبل دفعه إلى الهوّة. وعلى مقربةٍ من القمّة استمرّ مناوِئوه سيرهم مردّدين الشتائم والتهديدات في حين توقّف يسوع وإذ بجسمين نيّرين يحيطان به، ويعودان به إلى باب المدينة الذي كان قد ولجه بالأمس، ومضى إلى الأسّينيّين الذين كانوا ينتظرونه مطمئنّين إلى قدراته الإلهيّة، فروى لهم كلّ ما جرى له، وما كان قد تنبّأ به على مسامعهم بالأمس. فنصحهم بالتواري في كفرناحوم، ويمّم هو شطر قانا.

وسادت فوضى عارمةٌ عندما اتّضح غياب يسوع، فراحوا يتّهمون أحدهم

الآخر، ويجرون في كلّ اتّجاهٍ فبعضهم يجري إلى الأمام، وآخرون إلى الوراء بحثًا عنه، فيصدمون بعضهم بعضًا، ويوقعون بعضهم بعضًا، وجميعهم يصيحون ويشتمون. وقبل عودهم إلى منازلهم زرعوا حرّاسًا على جنبات الجبل، علّهم يقبضون عليه محاولين تبرير فشلهم بوصفه ساحرًا يحرسه شيطانٌ.

عودةٌ إلى كفرناحوم

سار يسوع طيلة الليل، وعند الصباح التقى ثلاثةً من التلاميذ كان طلب منهم انتظاره، بعد انتهاء السبت، في مكانٍ محدّدٍ. فروى لهم ما حدث في الناصرة، ونصحهم بالتزام الهدوء والطاعة لكيلا يعيقوا رسالته، ولكيلا يلفتوا إليهم الأنظار. وعمد هو إلى سلوك دروبٍ بعيدةٍ عن المدن، دروبٍ معزولةٍ عبر الوديان، حتّى مصبّ نهر الأردنّ في بحر الجليل. على طرف ذلك البحر كانت تجثم مدينة "تاريكيا"، يفصلها عن البحيرة منبسطٌ أخضر، فسارع يسوع محاذيًا أسوارها نحو أكواخٍ مخصّصةٍ لإقامة البُرص. وكان الوقت عصرًا، فأوعز إلى تلاميذه أن ينادوا البرص من بعيدٍ ويدعوهم إلى المجيء إليه كي يشفيهم، وأوصاهم بألاّ يخبروا أحدًا بما فعل لكيلا يسعّر غيظ اليهود، ولا سيّما بعد ما أثارته أقواله في الناصرة من توتّرٍ. ومضى يسوع إلى ناحية الأردنّ، فيما كان تلاميذه ينادون البُرص، قائلين: "أخرجوا واقتربوا من نبيّ الناصرة، الذي سيشفيكم". وما إن قاموا بهذه المهمّة حتّى ابتعدوا عن المكان اجتنابًا للنجاسة. وخرج من الأكواخ خمسة مجذومين وتوجّهوا، الواحد تلو الآخر، صوب يسوع، مرتدين ألبسةً بيضاء طويلةً بلا أحزمةٍ، ومعتمرين أغطيةً تخفي كامل وجوههم ما خلا أعينهم. ولّما انتهوا إلى قرب المخلّص سجد الذي كان يسير في المقدّمة، معفّرًا وجهه بالتراب، وقبّل طرف ثوب الربّ. فحطّ يسوع نظره عليه، ووضع يده على رأسه، وصلّى، ثمّ أمره بإفساح مكانٍ للتالي، وهكذا فعل مع المجذومين الخمسة، الذين ما لبثوا أن شعروا بزوال البرص عنهم، فأسفروا عن وجوههم وأيديهم. وحينئذٍ حذّرهم يسوع من العودة

إلى الخطيئة، وأوصاهم بألاّ يخبروا أحدًا بمن شفاهم. فأجابوا: "يا ربّ، لطالما وضعنا فيك رجاءنا، وتُقْنا إلى لقياك. ولم نجد من يطلعك على بؤسنا، أو يقتادنا إليك. وها أنت تظهر بغتةً في ما بيننا. فأنّى لنا أن نكتم فرحتنا ومعجزاتك!". ومن جديدٍ، نهاهم عن إخبار أيّ شيءٍ لأيٍّ كان قبل أن يُظهروا ذاتهم للكهنة، وقبل أن يعلن هؤلاء طهرهم التامّ. فركعوا أمامه ثانيةً، وعادوا إلى حجرهم.

وواصل يسوع طريقه نحو الأردنّ برفقة تلاميذه، خلال مناطق بهيّة المنظر، عبر طرُقٍ تظلّلها الأشجار. وتوقّفوا في زاويةٍ منعزلةٍ، حيث أصابوا بعض الراحة والزهيد من الطعام. وهناك عكف يسوع على تثقيفهم، جريًا على عادته، في أثناء أسفاره، مستنبطًا أمثالاً وعِبَرًا من كلّ ما يقع عليه بصره من أشجارٍ ونباتاتٍ وحجارةٍ، وكان التلاميذ يستفسرون عمّا استغمض عليهم فهمه ممّا رأوا وسمعوا. واستوضحوا عن سبب امتناعه عن إجراء أشفية في الناصرة، وإغضاب أهلها مع أنّهم يجب أن يُعَدّوا أقرب الأقربين، وهو الداعي دائمًا إلى محبّة القريب، ففسّر بأمثالٍ ما هي محبّة القريب، ومن هو القريب الحقّ.

واستنبط من مختلف المِهَن أمثالاً وعِبَرًا، وندّد بتباهي أهالي الناصرة وزهوهم الباطل، قائلاً: "إنّني لا أعبأ بتكريم البشر، فما هو إلاّ مثل الأحذية المزركشة المعروضة في حوانيت الإسكافيّين، التي تلتمع لحظاتٍ بألقٍ رائعٍ ولكنّها لا تلبث أن تتلطّخ بالحمأة".

ومرّة أُخرى نهى تلاميذه من التحدّث عن شفائه للبرص لكيلا يتعرّضوا لحنق الناصريّين وانتقامهم. وأوضح لهم أنّه قاصدٌ كفرناحوم، وهناك سيبيّن لهم مفهوم حبّ القريب، ومعرفة سرائر البشر، إذ إنّهم سيشهدون استقبالاً مختلفًا عن ذاك الذي كانوا عليه شهودًا يوم شفى ابن قائد المئة.

وأخبروه أنّ في الجوار رجلاً، كان له رؤًى عديدةٌ حول يسوع، وأنّه كان قد تنبّأ بأحداثٍ عديدةٍ تتعلّق به، فأوضح أنّ هذا الرجل – الذي أصبح لاحقًا من

تلاميذ يسوع – ينحدر من أُسرةٍ هيروديسيّةٍ كانت قد أطلعته على أسرار بدعتها، ولكنّه انفصل عنها. وشبّه البدَع بالقبور التي يروق منظرها الخارجيّ الرائع للناظرين، في حين أنّ داخلها يعجّ بالتعفّن. وكان للفرّيسيّين جماعةٌ سرّيّةٌ يعين أعضاؤها بعضهم بعضًا، ويحمون الفقراء الذين ينضمّون إليهم. يتظاهرون بالسعي إلى تحرير اليهود من سلطة الرومان، ويقيمون علاقاتٍ سرّيّةٍ مع هيرودس. وهم مع مظهر القداسة، والكرم الذي يجهدون في إبرازه، ليسوا إلاّ مرائين.

والتقوا في طريقهم قوافل تجّارٍ قادمين من سوريّة وقاصدين مصر، وقد انضمّت إليهم جماهير راغبةٌ في رؤية النبيّ. وقد استفسر بعضٌ منهم هل النبيّ في كفرناحوم، وأجابهم أحدهم أنّهم إذا كانوا راغبين في الاستماع إليه، فعليهم التوجّه إلى سفح الجبل المطلّ على "جيرازا" من ناحية الشمال. وقد أثّرت مهابته وأقواله فيهم. ولكنّ بعضًا منهم ارتابوا في كونه هو النبيّ الذي يبحثون عنه.

كانت القوافل الوثنيّة قد ضربت خيامها على سفح الجبل، وهناك تجمّع الكثيرون من أهالي "جيرازا" منهم وثنيّون وآخرون يهودٌ، ولكنّهم انتحوا جانبًا. وشخص يسوع إلى ذلك المكان متسلّقًا سفح الجبل، متوقّفًا عند جماعات المسافرين طارحًا عليهم الأسئلة ومجيبًا عليها، مستوضحًا عمّا يتوقّعون من النبيّ، ومرشدًا إيّاهم إلى سبل الخلاص، قائلاً: "هنيئًا لمن يقومون برحلةٍ طويلةٍ نشدانًا للخلاص، والويل لمن ينصرفون عنه عندما يحلّ هو وسطَهم". وفسّر لهم النبوءات المتعلّقة بالمسيح، ودعوة الوثنيّين، وروى لهم زيارة المجوس لبيت لحم. ولكنّه لم يُجرِ أيّة معجزةٍ هناك، وكان معظم المسافرين طيّبي النوايا، غير أنّ قلّةً منهم أعربت عن خيبة أملٍ، وعدّوا أنّ ما احتملوه من عناء السفر، لم يكافأ برؤية ما يدهش من قبل النبيّ.

نحو وقت الظهر، شخص يسوع مع تلاميذه الثلاثة إلى منـــزل فرّيسيٍّ، عالم شريعةٍ، كان قد دعاهم إلى الغداء، وقد التفّ حول مائدته العديد من فرّيسيّي البلدة الذين رحّبوا جميعهم بيسوع ترحيبًا ماكرًا زائفًا مرائيًا، فلم يتحرّج المخلّص من أن

يبيّن لهم حقيقتهم، بصراحةٍ عاريةٍ. وقد تسنّت السانحة لذلك عندما جاء عبدٌ بطبقٍ فاخرٍ مزيّنٍ بشتّى الألوان، وعليه حلوى نفيسةٌ، على شكل طيورٍ وزهورٍ. ولحظ أحد المدعوّين آثار قذارةٍ على الطبق، فنهر العبد بقسوةٍ وفظاظةٍ، وصبّ عليه الشتائم. فتولّى يسوع الذود عنه قائلاً: "ليست القذارة في الطبق، بل في محتواه"، فاعترض ربّ البيت قائلاً: "أنت مخطئٌ، فهذه الحلوة لذيذةٌ ونفيسةٌ وثمينةٌ"، وردّ عليه يسوع: "بل إنّها طعام فسقٍ ملطّخٌ بعرق اليتامى والأرامل والفقراء وبدمهم ودموعهم". ثمّ أخذ على الحاضرين مؤامراتهم، وبذخهم، وطمعهم، ورياءهم. فبلغ غيظهم ذروته، ولكنّهم، إذ لم يجدوا إلى الردّ عليه سبيلاً، ارفضّوا جميعهم منصرفين، ما خلا ربّ البيت، الذي واصل محادثة يسوع باحترامٍ مصطنعٍ، وهو يأمل أن يأخذ عليه أيّ خطأٍ، يشكو به أمام الفرّيسيّين المجتمعين في كفرناحوم.

في هذه الأثناء كانت مرتا، شقيقة لعازر، قد جاءت إلى مريم العذراء بأرملةٍ يسكنها روحٌ شرّيرٌ صامتٌ، فأنفذت العذراء إلى ابنها رسولاً تدعوه إلى المجيء لشفاء المسكينة التي كانت حفيدة إحدى أخوات القدّيسة حنّة، وكانت أواصر وثيقةٌ تربط أباها بلعازر، وكانت تلك المرأة قد ساقت حياة عهرٍ، وقتلت بالسمّ أحد عشّاقها، وبقيت جريمتها هذه خفيّةً. وتنامت إلى مسامعها رحمة يسوع حيال الخطأة، وأحدث فيها ذلك تأثيرًا بليغًا، ومنذئذٍ، باتت رغبتها الوحيدة التوبة والحصول على الغفران، فقصدت مرتا، وأقرّت لها بخطاياها متوسّلةً أن تشفع بها أمام أُمّ يسوع. وقد جاءت بجزءٍ من ثروتها، من أجل توزيعه على الفقراء، عازمةً على توزيع كلّ ما تبقّى لها. وقد سهرت عليها مريم والنساء القدّيسات، مرافقات العذراء، لأنّ الروح الذي يسكنها كان يلقيها في النار والماء. وكانت كلّما استعادت روعها تنتحي زاويةً وحيدةً، مذرّفةً الدموع. وكانت مرتا قد جاءت بها إلى العذراء متوسّلةً أن تستشفع بها يسوع، فألقت العذراء عليها نظرةً صارمةً، وأبقتها، فترةً من الزمن مبعدَةً، فألهب موقف أُمّ الطهر هذا نيران التوبة لدى الخاطئة، واستدرّ منها سيول الدموع، وهتفت: "يا أُمّ النبيّ، إسألي ابنك أن يرأف

بي، لعلّه يغفر لي خطاياي". وتأثّرت العذراء بمشاعر التوبة هذه، وأنفذت دعوةً إلى ابنها، الذي أكّد لها، عبر الرسول الذي أرسلته إليه، أنّ تلك المريضة قد تحرّرت، وأنّه، هو، سيوافي في الوقت المناسب. وفي اللحظة التي أعلن فيها يسوع تحرير المرأة، ارتمت أرضًا، ولكأنّها ميتةٌ، ومدّدها النساء في فراشها، وما إن استعادت وعيها، حتّى غمرها شعورٌ بالتحرّر. كان الربّ قد شفاها من بعيدٍ، وعادت بها مرتا إلى بيت عنيا قبل عودة يسوع إلى كفرناحوم، وضمّتها إلى جماعةٍ من النساء اللائي كنّ يصنعنَ ملابس للفقراء، ولتلاميذ يسوع. وهناك كرّست حياتها لأعمال التوبة والمحبّة، بعد أن تخلّت عن كلّ أموالها لمشاريع الخير.

يسوع يبشّر في "غابارا" وارتداد المجدليّة

وتوجّه يسوع مع تلاميذه إلى مدينة "غابارا"، الجاثمة عند أقدام جبلٍ شاهقٍ. في هذه الأثناء، كانت مرتا وڤيرونيكا، وحنّة زوجة كوزا، وحنّة ابنة كليوبا قد عُدْنَ من بيت عنيا إلى كفرناحوم، وانضمّت إليهنّ دينا السامريّة، ومريم السوفانيّة، وفي أثناء الطريق انفصلت عنهنّ مرتا التي قصدت مجدلا لزيارة أُختها، كي تدعوها للاستماع إلى عظة يسوع بعد يومين في "غابارا".

استقبلت المجدليّة شقيقتها بمودّةٍ، ولكن في حرجٍ، فحضور تلك الشقيقة البسيطة، الورعة، التي تزدري المظاهر، والتي انضمّت إلى أصدقاء يسوع، فيما ينظر إليها شزرًا أصدقاء المجدليّة، وشركاؤها في المجون، كان يوقظ عند الأخت الصغرى مشاعر الخجل، وقد آثرت استقبال شقيقتها في حجرةٍ مهجورةٍ من قصرها، بعيدةٍ عن مطارح المجون حيث تتجلّى مظاهر البذخ والعربدة.

كانت المجدليّة، حينذاك، محطّمة النفس، بعد أن خضّتها، ذات يومٍ، أقوال يسوع، وكان الأسى والندم يلتهمانها، ولا سيّما أنّ وضعها المادّيّ والاجتماعيّ كان قد خبا ألقه، وأنّ الرجل الذي كانت تعيش معه، في تلك الفترة، كان يفتقر إلى الثقافة وإلى رهافة المشاعر. ومع ذلك كانت ما زالت متردّدة في التحرّر من نير

الرذيلة الذي يرين عليها. غير أنّ شقيقتها الكبرى كلّمتها في كثيرٍ من الرقّة، والتمييز، والفهم، والمودّة، وقالت لها: "إنّ دينا السامريّة، ومريم السوفانيّة (وكلتاهما كانتا قد ارتدّتا عن دروب الضلال بتأثير يسوع)، هاتين المرأتين اللطيفتين تدعوانك لمرافقتهما وسماع تعليم يسوع على الجبل. فالمكان قريبٌ، وهما ستكونان سعيدتين برفقتك. وليس فيهما ما يحرجك أمام المجتمع، فهما أنيقتان، ورهيفتا السلوك. وستوفّر كثافة الجمع، وفصاحة النبيّ منقطعة النظر، والأشفية المعجزة التي سيجريها أروع مشهدٍ، ولا يشكّ أحدٌ منّا، أنا وڤـيرونيكا، وحنّة كوزا، وأُمّ يسوع التي تريد لك كلّ خيرٍ، بأنّك لن تندمي على قبول دعوتنا، وأنّك ستروّحين عن نفسك، فأنت تبدين الآن وحيدةً، ولا يوجد إلى جانبك من يقدّر قلبك ومواهبك. وليتك تقضين بعض الوقت معنا في بيت عنيا، حيث يتسنّى لنا سماع أقوالٍ رائعةٍ، وحيث يتّسع حقل فعل الخير. وأنت تمتلكين قلبًا رقيقًا محبًّا. وعلى الأقل تعالي معنا إلى النـزل في "دمنا" حيث سيكون لك جناحٌ خاصٌّ، لا تستقبلين فيه إلاّ من ترغبين في استقباله، وتعرفينه..." بالإجمال تفادت مرتا كلّ كلمةٍ جارحةٍ، وكلّ تلميحٍ مزعجٍ. وكانت الكآبة الممسكة بالمجدليّة تؤهّلها لتلبية دعوة شقيقتها، فقبلتها، بعد تلكّؤٍ، ووعدت بالمجيء إلى "دمنا" في اليوم التالي. وما انفكّت مرتا تختلف لتفقّد أُختها ليلاً، والاستفسار عن رغباتها، ثمّ قضت ساعاتٍ طويلةً مع حنّة كليوبا تصلّيان ملتمستَيْن أن يحمل مجيء المجدليّة أسباب الخلاص لها.

كان التلاميذ قد أعلنوا عن العظة التي سيلقيها يسوع على جبل "غابارا"، فتوافد خلقٌ غفيرٌ من كلّ أرجاء المنطقة المحيطة، ونصبوا خيامهم على سفح الجبل، وقدم أيضًا وثنيّون توّاقون إلى سماع أقوال نبيّ الجليل. وعلى غرار اليهود، جاؤوا بمرضاهم الذين لم يجدوا إلى شفائهم سبيلاً. وكان قد انضمّ إلى يسوع، هناك، بطرس وأندراوس، ويوحنّا، ويعقوب، ومعظم التلاميذ، بحيث أمسى عدد تلاميذ المخلّص وأقربائه وأصدقائه يناهز الستّين شخصًا. وكان، كلّما قدم أحدٌ منهم، يستقبله يسوع بحرارةٍ ويقبّله قبلةً أخويّةً.

وفي اليوم التالي وافت المجدليّة، أنيقةً بلا مغالاةٍ، واحتلّت جناحًا خاصًّا في النـــزل الذي كانت النساء القدّيسات يُقمْنَ فيه، لم تسعَ لزيارة العذراء ولا فـــيرونيكا، ولكنّها استقبلت على التوالي مريم السوفانيّة ودينا السامريّة، اللتين عقدتا معها أحاديث اتّسمت بالألفة والتهذيب، وبلّلتها الدموع أحيانًا.

في نحو الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي وافى يسوع إلى الجبل، وجاء، أيضًا، فرّيسيّون وصدّيقيّون وهيرودسيّون. ووقف الربّ وراء منبرٍ حجريٍّ، واستفاض في التعليم، متوقّفًا، بين فينةٍ وفينةٍ، متيحًا لبعض المستمعين تناول طعامٍ أو شرابٍ، والتنازل عن مجالسهم لآخرين.

كانت عظة الربّ، يومذاك، من أقسى عظاته. وكان قد طلب من مستمعيه قبل الصلاة، ألاّ يستنكروا تسمية الله أباه، فكلّ من ينفّذ مشيئة الأب السماويّ هو ابنه وإنّما كان يسوع ينفّذ مشيئة الله أبيه، الذي صلّى له، ثمّ دعا إلى التوبة، بلهجة الأنبياء الصارمة، مذكّرًا بنُذُر الأنبياء، وانطباقها على الأيّام الحاضرة. وذكّر بيوحنّا المعمدان الذي جاء ممهّدًا لطريق المسيح، ونفّذ رسالته، ولكنّ زعماء اليهود ظلّوا سادرين في غيّهم، مغلقي القلوب. وباندفاعٍ، تكلّم عن غضب الله، وعن الدينونة القريبة، وعن دمار الهيكل وأورشليم، وعن الكوارث التي ستحلّ باليهود، وعن المجيء الثاني، في اليوم الأخير، وعن الثقة التي ستغمر قلوب خائفي الله، والعزاء الذي سينعمون به، وعن النعمة التي ستُنتَزع من اليهود وتُعطى للوثنيّين.

وأهاب بتلاميذه أن يتمرّسوا بالوفاء والمثابرة، لأنّه سيرسلهم إلى كلّ مكانٍ كي يرشدوا إلى درب الخلاص، ونصحهم بالابتعاد عن طريق الفرّيسيّين والصدّوقيّين والهيرودسيّين.

وبعد أن حذّر خصومه، إذا هم أبوا التوبة والتحوّل، بعقابٍ أشدّ من عقوبة صادوم وعامورة، عاد فأظهر كلّ رقّة قلبه وحنانه، ودعا إليه، بالدموع، كلّ الخطأة، سائلاً أباه أن يمسّ قلوبهم، فيعودون إليه تائبين، حتّى لو كانوا أقلّيّةً، وحتّى لو عاد واحدٌ فقط، ومهما كان مثقلاً بالخطايا، فهو توّاقٌ إلى منحه كلّ شيءٍ،

وحتّى إلى التضحية بحياته في سبيل خلاصه. وفتح ذراعيه ونادى: "تعالوا إليّ يا جميع الرازحين تحت وقر المِحَن، تعالوا أيّها الخطأة، توبوا وآمنوا، واقتسموا معي ملكوت السماوات!". ومدّ ذراعيه أيضًا لخصومه، متمنّيًا أن يلبّي، ولو واحدٌ منهم، نداءه.

وكانت المجدليّة قد اتّخذت مجلسًا وسط النساء، مزهوّةً بجمالها، ومقامها الاجتماعيّ، وادّعائها قدرة السيطرة على الآخرين وعلى ذاتها، ولكن كانت تشوب تلك المظاهر مشاعر خجلٍ كمينةٌ، كاويةٌ. وبعد أن كانت قد أجالت على الحضور نظراتها الواثقة، فما إن شرع يسوع يتكلّم حتّى التصقت به عيناها ونفسها، وما عادت تطيق عنهما فكاكًا. وقد أثّرت فيها، بعمقٍ، دعوته إلى التوبة، وأوصافه للعقاب الرهيب الذي سيحلّ بمن يرفض التوبة، فارتعدت فرائصها، وانسابت دموعها من تحت قناعها. ولمّا دعا إليه الخطأة التائبين بعباراتٍ تقطر عطفًا وتوسّلاً، سرت في الجموع موجة اندفاعٍ صوبه. ولكنّه لمّا عبّر عن تمنّيه أن تأتي إليه ولو نفسٌ تائبةٌ واحدةٌ، كادت المجدليّة تجري نحوه، لو لم تمسكها النساء والمحيطات بها، خشية حدوث بلبلةٍ، وهنّ يهمسنَ لها: "في ما بعد، في ما بعد!". وخفي اندفاعها عن الجمهور، إذ إنّ كلّ العيون كانت شاخصةً إلى شفاه النبيّ، ولكنّ اندفاعها وخلجاتها لم تخفَ عن أنظار الربّ الذي عزّاها بهذه العبارات: "لو إنّ قبس توبةٍ وندمٍ وإيمانٍ ورجاءٍ وحبٍّ، سقط مع هذه الكلمات في قلب مسكينٍ ضالٍّ، فهذا القبس لن ينطفئ، بل إنّه سيهبّ، ثانيةً، وسيلهب نارًا كان هو يودّ إشعالها وإضرامها ورفعها إلى الآب السماويّ". هذه العبارات سكبت العزاء والسلام في قلب المجدليّة، فاستقرّت بهدوءٍ في مكانها وسط النساء.

شارفت الساعة السادسة مساءً، وشرعت الشمس تهوي وراء قمّة الجبل. وكان يسوع، في أثناء خطبته، متوجّهًا نحو الغرب. وحينئذٍ صلّى وبارك الجمع وصرفه وأوعز إلى تلاميذه أن يبتاعوا طعامًا ممّن جاؤوا بطعامٍ للبيع، وبتوزيعه على

الفقراء والمعوزين، وتبرّع بعض الحضور بقسمٍ من زادهم، وفيما انصرف قسمٌ من التلاميذ لهذه المهمّة، رافق آخرون المعلّم إلى حنيّةٍ في الجبل حيث كان قد اجتمع المرضى وطالبو الشفاء.

وذكّر رئيس المجمع يسوع بدعوته إيّاه إلى العشاء، فوعده بتلبية دعوته، أمّا عموم الفرّيسيّين فقد عادوا إلى "غابارا" وهم يتميّزون غيظًا ونقمةً. كانوا يحاولون إخفاء مشاعرهم أمام الشعب، أمّا في ما بينهم فكانوا ينتقدون، بعنفٍ، تعاليم يسوع ومواقفه، وشيئًا فشيئًا كانوا يستعيدون عنجهيّتهم وعُجبهم بأنفسهم.

واقتفت المجدليّة، مع أربع نساءٍ أُخريات خطى يسوع إلى حيث كان المرضى ينتظرون شافيهم. كانت أقوال يسوع قد أخذت بنفسها كلّ مأخذٍ، وضاعف تأثّرها مشهد مآسي أولئك البائسين، وجهدت المجدليّة في تقديم ما تستطيعه من خدمةٍ، وفي مقابلة يسوع والاقتراب منه. ولكنّه كان لا ينفكّ ينظر في اتّجاهٍ آخر.

بدأ يسوع بشفاء العديد من الرجال الذين عادوا مع ذويهم يُنشدون أمجاد الله، ثمّ عكف على شفاء نساءٍ. وكانت أصعب الحالات حالة ستّ نساءٍ مقيّداتٍ ثلاثًا فثلاثًا، تجرّهن فتياتٌ شديداتٌ منيعاتٌ. كنّ هادئاتٍ، فيما كان يسوع يعلّم، ولكنّهنّ عندما جيء بهنّ إلى الربّ، هاجت شياطينهنّ التي كانت تخشى يسوع وأخذنَ يتلوّينَ ويتمرّغنَ على الأرض، ويُطلقنَ صيحاتٍ مريعةً. فدنا منهنّ يسوع، وأمرهنّ بالركوع، والهدوء، والصمت، وفكّ قيودهنّ، ثمّ صلّى ووضع يديه عليهنّ، فأُغمي عليهنّ إغماءً قصيرًا، وخرجت منهنّ الأرواح الشرّيرة وسط غمامٍ قاتمٍ. فأنهضهنّ ذووهنّ مذرّفين الدموع، وحينئذٍ سجدنَ عند قدمي الربّ شاكراتٍ. فحرَّضهنّ على التوبة والتطهّر والتكفير عن خطاياهنّ، لكيلا يقعنَ، ثانيةً، في براثن الأرواح الشرّيرة.

وفي المساء قفل يسوع عائدًا إلى المدينة وسط موكبٍ كثيفٍ انضمّ إليه العديد من الفرّيسيّين. وانضمّت إليه، أيضًا، المجدليّة التي تخلّت عن كلّ تحفّظٍ اجتماعيّ،

واندسّت وسط الجمع والتلاميذ، فاضطرّت مرافقاها إلى حذو حذوها، متخطّياتٍ مقتضيات التقليد التي تفرض عليهنّ عدم الاختلاط بالرجال. ولفت التلاميذ نظر يسوع إلى ذلك، فأجابهم: "ما تفعل تلك النسوة ليس من شأنكم، فدعوهنّ".

ولّما انتهى إلى النـــزل حيث كان رئيس المجمع قد أعدّ له الوليمة، وجد في الفناء المنبسط أمام النـــزل حشدًا من المرضى والفقراء وملتمسي غوثه، فأقبل عليهم معزّيًا، شافيًا، مغيثًا. وفيما كان منهمكًا معهم، ضاق رئيس المجمع ذرعًا بتلكّئه عن الحضور، فجاء ترافقه ثلّةٌ من الفرّيسيّين، وذكّره بأنّ كثيرين ينتظرونه للشروع بتناول الطعام، ورجاه ألاّ يتأخّر في الحضور، قائلاً له إنّه حقّق ما يكفي من الأشفية والخدمات في ذلك اليوم، وإنّ بوسع ملتمسي خدماته أن يرجئوا مطلبهم إلى موعدٍ آخر. ولكنّ يسوع أجابه: "هؤلاء هم ضيوفي، أنا دعوتهم، وواجبي أن أؤدّي لهم ما يحتاجون إليه من غوثٍ. وأنت، إذ دعوتني دعوتهم هم، أيضًا، ولن آتي إلى الوليمة إلاّ بعد أن أقدّم لهم المعونة، وسآتي بهم معي".

ولم يكن لدى رئيس المجمع مفرٌّ من إعداد موائد لأولئك المعوزين غير المتوقَّعين. وكانت الوليمة حافلةً بالأطايب، فأوعز يسوع إلى تلاميذه بحمل بعضها إلى موائد الفقراء، مدعوّيه، وتقديمها لهم، ومشاركتهم إيّاها. فيما هو انهمك في الردّ على أسئلة الفرّيسيّين ودحض اعتراضاتهم وادّعاءاتهم.

وكانت المجدليّة ومرافقاها قد توقّفنَ عند مدخل النـــزل الذي أُقيمت فيه المأدبة، وما انفككْنَ تتقدّمنَ خطوةً خطوةً. ثمّ، بغتةً، أقبلت المجدليّة إلى الداخل مقنّعةً، محنيّة الرأس، ممسكةً قارورةً بيضاء اللون، مسدودةً بباقة أعشابٍ، وبسرعةٍ وقفت وراء يسوع وسكبت محتوى القارورة على رأسه، ثمّ أمسكت طرفي حجابها بيديها كلتيهما ومسّدت به شعره ماسحةً الطيب الذي كان يتهاطل منه. فعلت ذلك، بغتةً، وبسرعةٍ فائقةٍ، وتراجعت خطواتٍ إلى الوراء. في الحال توقّف الجدال، وشخصت الأنظار كلّها إلى يسوع وتلك المرأة، فيما كان فوح العطر يملأ الجوّ.

كان يسوع هادئًا، ساكنًا. ولكنّ مدعوّين كُثُرًا كانوا يحدجون المجدليّة استنكارًا، ويتبادلون الهمسات. وبدا الغيظ، خاصّةً، على رئيس المجمع، فقال له يسوع: "إنّي أعلم جيّدًا ما تجيله في خاطرك، يا سمعان. إنّك تقول إنّه كان الأجدر بي أن أمنع تلك المرأة التي تصفها بالخاطئة، من تطييب رأسي، ولكنّك مخطئٌ، فقد عبّرت عن حبّها الجمّ، وهذا ما أحجمتَ عنه أنت، فلم تقدّم لي التكريم الذي يليق بضيفٍ". ثمّ التفت إلى المجدليّة الواقفة خلفه، وقال لها: "امضي بسلامٍ. فقد غُفِرت لك خطايا كثيرة". وحينئذٍ غادرت المجدليّة ومرافقاها المكان.

وتحدّث يسوع عنها إلى المدعوّين، واصفًا إيّاها بصاحبة قلبٍ طيّبٍ عطوفٍ. وندّد بإدانة الأخطاء العامّة المعروفة إدانةً صارمةً، في حين غالبًا ما تخفى في أعماق القلوب أخطاءٌ أعظم وأخطر. واستفاض في التعليم، قبل أن يعود، مع تلاميذه، إلى النـــزل الذي كان يحلّ فيه.

ما رأته المجدليّة، وسمعته، كان قد هزّها حتّى أغوار كيانها، وتحرّقت نفسها المتفانية السخيّة توقًا إلى تكريم يسوع، والتعبير له عن عواطفها. كان قد شقّ عليها أن ترى إحجام الفرّيسيّين عن تقديم أيّ تكريمٍ له لا أثناء دخوله إلى الوليمة، ولا أثناء الطعام، مع أنّه أحقّ الناس بتكريم سموّه، وقداسته، وقدراته الخارقة. فحداها دافعٌ لا يُقاوَم إلى التعويض عن تقصير الآخرين أجمعين، ولا سيّما بعد أن اخترق قلبها قول يسوع: "ليت نفسًا واحدةً تأتي إليّ!" وكانت، على غرار معظم نساء المجمع، رفيعات الشأن، تحمل معها قارورة عطرٍ بحجم اليد. وكان حجابها الكبير الملتفّ، عادةً، حول عنقها، يغطّي كامل جسمها وشعرها الكثيف الطويل.

ورجت المجدليّةَ رفيقاتُها أن تمكث معهنّ، أو، على الأقلّ، أن تقضي بعض الوقت معهنّ في بيت عنيا. ولكنّها كانت راغبةً في العودة فورًا إلى مجدلا لإنهاء بعض أمورها. ولم تكن تكفّ عن الاعتراف بما أحدث فيها جلال يسوع، وتأثير كلامه، ورقّته، ومعجزاته، من تحوّلٍ جذريٍّ، مؤكّدةً: "يتولاّني شعورٌ بواجب

اتّباعه، فإنّي أسوق حياةً غير لائقةٍ، ولا بدّ من الانضمام إلى النسوة المحيطات به لخدمته". وقد تبدّى عليها السهوم والخشوع، فيما نعم قلبها بالسكون والعزاء.

كانت المجدليّة تفوق بجمالها سائر النسوة المحيطات بيسوع، وكانت دينا السامريّة الأوفر نشاطًا وبراعةً ومحبّةً، وذكاءً وتواضعًا. أمّا العذراء مريم فكانت تفوقهنّ جميعًا، وبلا قياسٍ، جمالاً. وربّما ساواها بعضهنّ في تناغم قسماتهنّ، وكان لدى المجدليّة جاذبٌ مميّزٌ. غير أنّ العذراء كانت تفوق جميعهنّ ألَقًا بتعابير السموّ والبراءة، والطهر، والبساطة، والوقار، والعذوبة، وسجوّ النفس المتجلّية عليها. لقد اجتمعت فيها كلّ الفضائل على تناغمٍ أظهرها وكأنّها صورة الله في طبيعةٍ بشريّةٍ، ولم يكن لها أيّ مثيلٍ سوى ابنها. كان جمالها يطمس كلّ جمالٍ آخر، وكلّ شيءٍ فيها كان يعكس فتنةً لا قِبَل لأيّ كلامٍ على التعبير عنه. كانت تقرن إلى جلالٍ فريدٍ، بساطة طفلٍ. وكانت تتجلّى عليها أمارات الجدّ، والسكون، التي قد يشوبها، أحيانًا، شيءٌ من الحزن، وتنثال الدموع برقّةٍ على محيّاها السامي، ولكنّها لم تكن يومًا، قانطةً، أو مضطربةً.

تعليمٌ وأشفيةٌ في كفرناحوم

وفيما عاد التلاميذ لزيارة أُسَرهم وذويهم، عاد يسوع إلى بيت أُمّه في وادي كفرناحوم حيث كانت النسوة القدّيسات تنتظرنَه، وفرحنَ فرحًا جمًّا بمجيئه، وشاركهنَّ بطرس غداء الترحيب بالمعلّم. ورجت يسوعَ أُمُّه، ورجاه جميع الآخرين أن يمضي، في الغداة، إلى الجانب الآخر من البحيرة، تفاديًا لسخط الفرّيسيّين. ولكنّه هدّأ روعهم، وطرد مخاوفهم. وأوصته مريم أُمّه خيرًا بقائد المئة كورنيليوس، الذي، مع كونه وثنيًّا، كان يعقد علاقات مودّةٍ مع اليهود، وقد بنى لهم مجمعًا ومدرسةً.

وصباح اليوم التالي توجّه يسوع مع ثلّةٍ من تلاميذه إلى بيت قائد المئة، وعند مدخل المدينة، حيث يقع بيت بطرس، التقى رسولَيْن، أوفدهما إليه قائد المئة،

وأكّدا دعوة سيّدهم، فكلّفهما إبلاغه استجابته لدعوته وقدومه إليه. وفي طريقه مرّ قرب مسكن رجلٍ أبرص محفورٍ في صخر الجبل. ولّما أمسى يسوع على مرأى من منـــزل كورنيليوس، شاهد القائد راكعًا أمام منـــزله، وكان قد أنفذ إليه رسولاً قال له: "يقول لك سيّدي: لا تحمّل نفسك عناءً، يا ربّ، فأنا لا أستأهل أن تدخل تحت سقف بيتي، بل حسبك كلمةٌ لكي يبرأ خادمي. فأنا خاضعٌ لسلطة آخر، ولي جندٌ خاضعون لسلطتي، أقول لهذا اِمضِ فيمضي، وأقول لآخر تعالَ فيأتي. وما أسهل عليك أن تأمر خادمي بالشفاء، وبعمل ما يوفّر له الشفاء!". وأُعجب يسوع بهذا القول، فالتفت إلى الجمع الحاضر معلنًا: "حقيقةً أقول لكم، لم أجد قطّ، حتّى في إسرائيل، مثل هذا الإيمان. وإنّي أقول لكم إنّ كثيرين سيأتون من المشرق ومن المغرب، وسيحتلّون أماكنهم في ملكوت السماوات مع إبراهيم وإسحق ويعقوب، في حين سيُلقى أبناء الملكوت في الظلمة الخارجيّة حيث البكاء وصرير الأسنان!". ثمّ التفت صوب قائد المئة قائلاً: "سيكون لك ما آمنت به".

وهرع الرسول كي يبلّغ أقوال الربّ للقائد، الذي انحنى حتّى لامس رأسه الحضيض، ثمّ نهض عائدًا إلى منـــزله، فإذ بخادمه المعتلّ يخفّ نحوه، وهو ما زال ملفوفًا بغطاءٍ من رأسه حتّى قدميه.

ثمّ عاد يسوع إلى مسكن الرجل الأبرص، الذي خرج واطّرح عند قدميه قائلاً: "يا ربّ، إن شئت، فبوسعك شفائي". فأجابه يسوع: "مدّ يديك". ثمّ مسّه وقال: "لقد شئتُ فابرأ". وفي الحال هوت منه قشور البرص. فأوعز إليه يسوع أن يُري نفسه للكهنة، ويقدّم ما تقتضيه الشريعة شهادةً لهم، وألاّ يخبر سواهم بشأن شفائه. وكان ذلك الأبرص معروفًا في المدينة. فمَثُل بين أيدي الفرّيسيّين لكي يتحقّقوا من شفائه، فأخضعوه لفحصٍ دقيقٍ، وهم يجيشون غيظًا، ولم يكن بوسعهم إلاّ الاعتراف بشفائه، ومع ذلك أنّبوه، وأهانوه وصرفوه بازدراءٍ.

ثمّ اتّجه يسوع صوب وسط المدينة، حيث كان ينتظره العديد من المرضى والمسكونين بأرواحٍ شرّيرةٍ، فأمضى ساعةً كاملةً عاكفًا على شفائهم وتحريرهم.

وحينئذٍ وافت الأرملة "ماروني"، التي تمتّ بصلة قُربى إلى الرسول بطرس، وهي طيّبة القلب بقدر ما هي ميسورة الحال، وكانت قد جاءت بزادٍ وفيرٍ ليسوع وتلاميذه، ودعت الربّ أن يزور بيتها ويشفي ابنها البالغ اثني عشرة سنةً، والذي كانت تخشى ألاّ تجده على قيد الحياة عند عودتها إلى منــزلها، فهدّأ الربّ روعها، وأوعز إليها بالعودة إلى ابنها مطمئنّةً، واعدًا بزيارتها في موعدٍ لم يحدّده.

ووافى يسوع إلى المجمع، حيث كان قد سبقه رسله العتيدون، وعددٌ غفيرٌ من تلاميذه وأتباعه، ورهطٌ من النساء المنقطعات لخدمة رسالته. وكان قد تواطأ الفرّيسيّون والصدّوقيّون، يومذاك، على مواجهته مواجهةً عنيفةً، ورشوا قومًا كي يفتعلوا بلبالاً يتيح لهم طرده من الهيكل، أو القبض عليه. ولكنّ الأمور سارت خلافًا لما اشتهوا و خطّطوا. وشرع يسوع بخطبةٍ قاسية العبارات، بلا تحفّظٍ، خطبة من يتكلّم بسلطةٍ مطلقةٍ. وبلغ سخط خصومه حدّ انفجار غضبهم، عندما تعالت، في المجمع، ضجّةٌ مدويّةٌ، إذ كان أحد سكّان المدينة، مسكونٌ بأرواحٍ نجسةٍ هوجاء، قد حطّم القيود التي كُبّل بها وقايةً للناس من هياجه، في أثناء انشغال حرّاسه بسماع عظة يسوع، واندفع كالجنّيّ مخترقًا الجمع، مطلقًا صيحاتٍ مريعةً، مثيرًا صيحات هلع الجمهور، وتقدّم إلى حيث كان يسوع يعظ، وهتف: "ما الذي بيننا وبينك، يا يسوع الناصريّ؟ هل جئت تطردنا؟ أنا أعلم أنّك قدّوس الله". ولم يأبه به يسوع، بل التفت إليه نصف التفاتةٍ، وهدّده: "اخرس، واخرج من هذا الرجل". وفي الحال هدأ الرجل ولكنّ الشرّير ألقاه أرضًا، وأوسعه تمزيقًا، وانسلّ في شكل غمامٍ كثيفٍ. وحينئذٍ عفّر الرجل وجهه بالحضيض، وقد اعتراه شحوبٌ مريعٌ، وهدوءٌ مفاجئٌ، وأطلق لدموعه العنان. وقد شهد الجميع ذلك الحدث الذي قام مصداقًا رائعًا على قدرات يسوع الخارقة. وسرعان ما حلّت عبارات الإعجاب محلّ الهلع، وفقد الفرّيسيّون كلّ جرأتهم وقحتهم، وراحوا يتهامسون:

"ما هذا؟ إنّه يأمر بسلطةٍ الأرواح الشرّيرة فتذعن لأمره!". وتابع يسوع تعليمه بلا توقّفٍ. وأُعيد الرجل المحرَّر، الذي كان قد انتهى إلى أدنى دركات الوهن والهزال إلى بيته، تعاونه زوجته وذوو قرباه الموجودون في المجمع. ولّما انتهت طقوس المجمع جاء إلى يسوع، فشكره، واستوضحه عمّا يتعيّن عليه فعله. وحرّضه الربّ على إصلاح عيوبه، لكيلا يصيبه الأسوأ، ودعاه إلى التوبة، ثمّ إلى نيل العماد. وسرعان ما استعاد عافيته، وسلامه، وعمله. وتلاحظ الرائية، في هذا السياق أنّ "أرواحًا نجسةً من هذا النوع، تستحوذ غالبًا على من يسترسلون بلا كابحٍ في إرضاء شهواتهم الجسديّة".

وكان الفرّيسيّون قد قرّروا في ما بينهم: "لا يسعنا أن نفعل له شيئًا، في الوقت الراهن، فأنصاره كُثُرٌ. فلنقتصر على معارضته بين حينٍ وآخر، ولنبلّغ أورشليم بكلّ ما يحدث هنا، ولننتظر شخوصه إلى الهيكل من أجل الفصح".

في هذه الأثناء كان قد احتشد في الطرقات عددٌ غفيرٌ من المرضى، بعضهم كانوا قد وصلوا في الأمس مع حلول السبت، وآخرون متشكّكون كانوا قد عزموا على المجيء، إثر المعجزات التي أجراها الربّ، من كلّ أرجاء المنطقة. وكان بعضهم قد جاؤوا آنفًا، وأصابوا راحةً مؤقّتةً، وعادوا يلتمسون المزيد. وكانت الرائية قد تلقّت لهذا الواقع التفسير التالي: لم يأتِ يسوع لكي يشفي الأجساد ويمكّنها من الخطيئة، بل من أجل شفاء النفوس وتحريرها. وكان بين طالبي الشفاء نفوسٌ فاترةٌ، واهنةٌ، كسلى، غير مستعدّةٍ لتغيير سلوكها، على نقيض خطأةٍ كبارٍ تحدوهم أهواءٌ مضطرمةٌ. فالمجدليّة لم تبرأ إلاّ بفضل صراعاتٍ طويلةٍ وكبواتٍ عديدةٍ، ولكنّ تحوّلها كان جذريًّا. وتحوُّل "دينا" السامريّة كان مباغتًا. ومريم السوفانيّة كانت تتحرّق، منذ زمنٍ بعيدٍ، وقامت في الحال. إنّ ارتداد معظم الخاطئات الكبيرات كان فوريًّا وكاملاً. وحتّى بولس المنيع أصيب بمثل صاعقةٍ. أمّا يهوذا، الذي كان مترجرجًا فقد انتهى إلى الهلاك.

وقد أَلِفَ يسوع أن يشفي في الحال عللاً خطيرةً عنيفةً، لأنّ المبتلين بها كانوا فاقدي الإرادة، مثل المسكونين بأرواحٍ شرّيرةٍ، أو من شلّتهم الأمراض. أمّا العليلون الذين كانت عللهم تحول دون ارتكابهم الخطايا، والذين ما كانوا راغبين في التوبة، فكان يكتفي بدعوتهم إلى تغيير سيرتهم. وبالإجمال كان يولي الأولويّة لإبراء المؤمنين التائبين، ولا يتوانى عن شفاء أمراضٍ طفيفةٍ عندما كان ذلك الشفاء يسهم في خلاص النفوس. ويبقى كلّ شفاءٍ نعمةً ورحمةً إلهيّةً، ويبقى الصبر والفرح بالمصائب التي تصيبنا من عناصر الكمال الأساسيّة.

بعد ظهر ذلك اليوم، قام يسوع بنـــزهةٍ على ضفاف البحيرة، مع تلاميذه الذين كان يُكمل تثقيفهم، فيما مضت أُمّه العذراء وكوكبةٌ من النساء القدّيسات إلى جوار بيت صيدا، حيث كان وثنيّون قد نصبوا خيمةً لنسائهم، وجاءتهم العذراء فاستمعت إلى هواجسهنّ وهمومهنّ فعزّتهنّ، وردّت على استفساراتهنّ.

وتابع يسوع تعليم الجموع مستخدمًا الأمثال. وعندما انفرد بتلاميذه استفسروه عنها واستوضحوا سبب استخدامه الأمثال في تعليمه، وتفسيرها لهم وحدهم، فأوضح لهم أنّ أسرار الملكوت يصعب إدراكها على ضعفاء النفوس والغرباء، ولذلك يغرس بذارها في نفوسهم من خلال أمثالٍ تقرّبها إلى أذهانهم، حتّى تنضج وتنبت وتؤتي ثمارًا.

وفي المساء عاد إلى المجمع كي ينهي تعليم السبت، وكان الفرّيسيّون قد استعادوا شيئًا من قواهم وقحتهم، وعزموا على معارضته بضراوةٍ، وقد انصبّ جوهر اعتراضهم على غفران الخطايا الموقوف على الله، محاولين دفعه إلى إعلان ألوهته. ولكنّه خيّب كلّ مؤامرتهم، ومزّق شباكهم، وأجابهم بما لا يقوون على معارضته، فشرعوا يوغرون صدور الرعاع عليه، ويسعّرون نيران الشغب، فانسلّ من بينهم، وسلك دروبًا متعرّجةً حتّى انتهى إلى بيت أُمّه، حيث تذوّق الراحة والعزاء.

إقامة ابن أرملة "نعيم"

"نعيم" (أو "نائيين") مدينةٌ جميلةٌ جاثمةٌ على تلّةٍ مخضوضلةٍ. وكان فيها أرملةٌ محبوبةٌ من السكّان بفضل ما كانت تجود به على الفقراء والأيتام من إحسانٍ. وكان لها ابنٌ وحيدٌ شابٌّ، وقد توفّي.

في ذلك الصباح يمّم يسوع وتلاميذه شطر تلك المدينة عبر سهل إسدريلون، معلّمًا كلّما توقّف الموكب للاستراحة في حقلٍ، وكلّما التقى جمعًا من الناس. وفيما كان التلاميذ يجتازون طريقًا ضيّقًا في المدينة، فُتِح باب بيت الأرملة، وخرج منه رجالٌ متلفّعين بمعاطف الحداد، مهرولين، وفق عادهم في مسيرة الجنازات، وقد حملت ثلّةٌ منهم نعشًا. فانتظم تلاميذ يسوع في صفّين متقابلين مفسحين ممرًّا للموكب، وانبرى يسوع متقدّمًا صوب حاملي النعش، وأمرهم بالتوقّف، ووضع يده على النعش وأمرهم بوضعه أرضًا. وفي تلك اللحظة كانت الأرملة الثكلى تجتاز باب بيتها ووقع نظرها على يسوع، فصاحت: "وا أسفاه، لقد تأخّر في المجيء!" وردّ عليها الربّ بعطفٍ ووقار: "لا تبكي يا امرأة!" وكان الحزن المنتشر على جميع الوجوه قد أثّر في الربّ أبلغ أثرٍ. وطلب أن يؤتى إليه بغصنٍ وبإناء ماءٍ، وأمر حاملي النعش بفتحه، وبفكّ الأربطة التي كان الميت مربّطًا بها، وفيما كانوا هم دائبين على تنفيذ أمره، رفع هو عينيه إلى السماء، وقال: "يا أبتِ، ربّ السماء والأرض، أمجّدك لأنّك أخفيت أسرارك عن الحكماء والدهاة، وكشفتها للمتواضعين. أجل، يا أبتِ، هكذا ارتأيت. أعطيتني كلّ شيء، ولا أحد يعرف الآب إلاّ ابنه، والذين يشاء الابن أن يكشف لهم. تعالوا إليّ يا جميع المعانين، والمثقلين بالأعباء الباهظة، وأنا أُخفّف عنكم وطأة حملكم، تقلّدوا نيري، واعلموا أنّي وديعٌ ومتواضع القلب، فتجد نفوسكم الراحة، فنيري ليّنٌ، وحملي خفيفٌ". ونُزِعت الأربطة عن الميّت، وكُشف وجهه ويداه. حينئذٍ بارك يسوع الماء، وغطّس فيه الغصن ورشّ الحاضرين.

(تقول الرائية إنّها رأت، حينذاك، أسرابًا من الحشرات السوداء تتطاير من كثيرين، وران على الجميع شعور طهرٍ وسكونٍ).

ثمّ رشّ يسوع الشابّ الميّت بالماء راسمًا بيده إشارة صليب، وصاح: إنّي آمرك فانهض". فجلس الشابّ، وأجال النظر في ما حواليه، دهشًا. فقال يسوع: "ألبسوه ثوبًا" فلُفّ بمعطفٍ، وحينئذٍ هبّ واقفًا، سائلاً: "ما الذي يجري؟ أين أنا؟" وأُعطي حذاءً، فمشى، وجرت أُمّه نحوه، وأمسك يسوع بيده، وسلّمه لها قائلاً: "ها إنّي أعيد لك ابنكِ، وسأطلبه منك عندما سيتجدّد بالعماد". وكان قد استحوذ على المرأة من الفرح، والدهشة، والرعدة والتجلّة، ما أنساها شكر الربّ، إذ كانت مسترسلةً في سكب الدموع وشدّ ابنها إلى قلبها. وواكبها يسوع وتلاميذه إلى بيتها الرحب، الذي سرعان ما اكتظّ بالأقرباء والجيران والفضوليّين الراغبين في رؤية العائد من الموت. وفيما انهمك أهل البيت في توزيع العطايا على الفقراء الذين ملأوا البيت، انتهز يسوع تلك الفرصة كي يبشّر الجموع. وكان الشابّ الذي ارتدى ثوبًا أبيض يجول فرحًا بين الجمهور، مشاركًا في توزيع العطايا. ولّما أقبل أترابه من المدرسة أخذ الرعب ببعضٍ منهم، ولكأنّهم أمام روحٍ هائم، وكان هو، لكي يطمئنهم بأنّه حيٌّ، يصيح بأعلى صوته، فيزدادون رعبًا، فيما آخرون أثبت جأشًا عانقوا رفيقهم عناقًا حارًّا.

أُعدّت وليمةٌ عامرةٌ في فناء الدار، وانبرى بطرس للإشراف عليها، ممثّلاً ربّ الأسرة، إذ كانت الأرملة، أُمّ الشابّ الناهض من الموت، ابنة أخي حميه. وقد تبادل يسوع الحديث مع الشابّ، مرّاتٍ عديدةً، على مسمعٍ من الجميع، وممّا سمعه هؤلاء أنّ قداسة الآباء والأجداد تشفع غالبًا بالأبناء والأحفاد، وتقيهم من الهلاك، مثلما نجا الإسرائيليّون من الهلاك بفضل الأجداد الأبرار، ولكنّهم قد أضحوا اليوم على حافّة الهلاك، لسلوكهم سلوكًا لا يرضي الله. وبالإجمال كان يسوع بانتزاعه ميتًا من براثن الفناء، يحاول فتح عيون الأحياء على حقيقة مصيرهم، فيما هم مقيمون بعنادٍ

على الالتفاف بكفن عمى بصائرهم. وقال لمستمعيه تصوّروا ما الذي كان سيحدث لو رفض حاملو النعش وضعه أرضًا، وفكّ أربطة الميّت، وأصرّوا على دفن الشابّ، وإذن لكانوا، مثل علماء الشريعة الزائفين الذين يرفضون فكّ قيود تعاليمهم الباطلة التي نأت عن تعاليم الله، عن نفوسٍ يقودونها، بجريرتهم، إلى الهلاك الأبديّ من جرّاء إبعادها عن دروب التوبة. ومن ثمَّ ناشد مستمعيه تلقّي مبادرات الأب السماويّ الخلاصيّة، والإسراع إلى ممارسة أعمال التوبة، ونيل العماد.

وكان نبأ تلك المعجزة الكبرى قد اجتذب من كلّ الأنحاء أفواج المرضى الذين توافدوا ليلاً، أملاً بحظوة رحمة النبيّ القدير. وقد شفى كثيرين منهم في اليوم التالي.

غير أنّ الفرّيسيّين الذين كانت إقامة يسوع لميتٍ قد هدّت كبرياءهم، وسنّت أسلحة حقدهم، راحوا ينصبون فخاخًا جديدةً، فجنّدوا عشراتٍ من النساء وأقنعوهنّ بأن يطلبنَ من يسوع إعطاءهنّ كتب طلاق من أزواجهنّ الذين يسيئون معاملتهنّ، معلّلين النفس بإمساكه بجرم خرق شريعة موسى ومقاضاته بمخالفة الشريعة. ونفذّت بعضٌ منهنّ ما لقّنهنّ إيّاه الفرّيسيّون، ولكنّ يسوع طلب منهنّ أن يأتينه بأوعيةٍ فيها ماءٌ وأوعيةٍ فيها حليب، ولمّا جئن بها، قال لهنّ اخلطنَ الماء بالحليب ففعلنَ، وحينئذٍ قال لهنّ افصلنَ الماء عن الحليب كي أفصلكنّ عن أزواجكنّ. فأجبنَ أنّ ذلك محالٌ، فأجابهنّ كذلك هو زواجكنّ، فقد أصبحتنّ مع أزواجكنّ واحدًا، ولا يمكن فصلكنّ. ثمّ جاء إلى بيوتهنّ فخاطب الأزواج والزوجات على حدةٍ، أوّلاً، ثمّ خاطبهم معًا، وصالح المتخاصمين، وأعاد لأسرهم السلام والوفاق. وتغيّرت حياة الكثيرين. وخسئ الفرّيسيّون.

وعندما غادر يسوع المدينة واكبته جموعٌ غفيرةٌ مسافاتٍ طويلةٍ، وودّعته بالأهازيج والأناشيد والتسابيح.

يسوع يجيب على تلميذي المعمدان

فيما كان يسوع وتلاميذه قاصدين مدينة "ماجدّو"، متوقّفًا في الحقول، مبشّرًا الفلاّحين، جاء أربعةٌ من تلاميذ يوحنّا القدامى، وحيّوا تلاميذ يسوع وانضمّوا إليهم مصغين إلى تعاليم الربّ، وكان هؤلاء قد انفصلوا عن المعمدان، وتواطأوا، سرًّا، مع الهيرودسيّين الذين كلّفوهم بترصّد ما يعلّمه يسوع عن ملكوته. وكانوا يفاخرون بالتفوّق على تلاميذ يسوع تقشّفًا. ثمّ وافى اثنا عشر تلميذًا من تلاميذ يوحنّا، كان المعمدان قد كلّف اثنين منهم بمهمّةٍ لدى يسوع، ورافقهم عشرةٌ آخرون. وكان بعضهم قد شهدوا معجزات يسوع وأحاطوا يوحنّا علمًا بها. وكانت فئةٌ منهم قد شهدت إقامة ابن أرملة "نعيم"، وهرعوا يستفسرون يوحنّا: "ما معنى هذا، وما يجب علينا أن نؤمن به؟ أجل نحن شاهدناه وسمعناه، ولكنّ تلاميذه هم أكثر حرّيّةً في سلوكهم منّا، وأقلّ صرامةً في التزام مقتضيات الصيام، وسائر بنود الشريعة. فمن هو يسوع؟ وعلامَ يشفي، ويعزّي، ويغيث الجميع، حتّى الغرباء، ويحجم عن تحريرك أنت؟"

في الواقع، كان يوحنّا غالبًا ما يحرّض تلاميذه على تعرّف يسوع عن كثبٍ، والتتلمذ على يديه، ولكنّ كثيرين منهم كانوا يؤثرون التباهي بكونهم تلاميذ المعمدان، وهذا ما كان يحدو المعمدان إلى الإلحاح في دعوة يسوع إلى إعلان هويّته الإلهيّة، بلا تلكّؤٍ، لكي يكون الولاء له وحده. ولهذه الغاية كان قد أوفد إلى يسوع اثنين من تلاميذه، حامليْن أمنيّته هذه، واستعجاله إيّاه في إعلان كونه المسيح وابن الله.

كان مقصد يسوع الأوّل في مدينة "ماجدّو" الساحة المستديرة التي تجمّع فيها مصابون بشتّى أشكال الأمراض، فطاف بهم شافيًا، وكان المسكونون بأرواحٍ يغمى عليهم لدى مروره بهم، ولا يلبثون أن ينهضوا هادئين معافين.

وفيما كان يسوع يطوف بأصحاب العلل والعاهات، لاحقه مبعوثا المعمدان، جاهديْن في لفت نظره والانفراد به من أجل تبليغه رسالة يوحنّا. ولكنّ يسوع واصل مهمّته الشفائيّة، متجاهلهما، ما سرّب إلى نفسهما شعورًا مريرًا بالمهانة. وفي الواقع، كان معظم تلاميذ المعمدان ضيّقي الفكر، ويُداخلهم شعورُ حسدٍ كمينٍ. فمع أنّهم كانوا يعجبون بمعجزات يسوع وتعاليمه، وإفحامه للفرّيسيّين، كانوا يتأثّرون بأقوال الناس: "من عسى يكون هذا الرجل؟ وألسنا نعرف ذويه الفقراء المساكين؟" ولم يكونوا يدركون معنًى للملكوت الذي يبشّر به، والذي لا يشهدون له على الأرض أثرًا أو علامةً، ولا استعدادًا لإقامته. وكان يُخيّل إليهم أنّ الشهرة التي ينعم بها يوحنّا، والاحترام الذي يُحاط به هما اللذان يدفعان يسوع إلى التواني عن كلّ مبادرةٍ لإخراجه من السجن، إفساحًا لتنامي فُرَص شهرته. وأمّا المديح الذي كان المعمدان لا يكفّ يكيله ليسوع ورسائله الملحّة إليه لكي يعلن هويّته، فكانوا يعزونها إلى تواضع المعمدان السحيق.

وعندما فرغ يسوع من شفاء من شاء شفاءهم، أقبل عليه تلميذا يوحنّا، وهما مذهولان بالخوارق التي كانا عليها شاهديْن، وقالا له: "لقد أرسلنا يوحنّا المعمدان لنستوضحك: "هل أنت من وُعدنا بمجيئه، أم هل علينا انتظار آخر؟" فأجابهما: "اذهبا وبلّغا يوحنّا ما شهدتما وسمعتما: عميان يبصرون، وعرجٌ يسيرون سيرًا سويًّا، وبرصٌ يطهرون، وصمٌّ يسمعون، وأمواتٌ يقومون، وفقراء يبشّرون، والمعوجّ يستقيم، وطوبى لمن لا يشكّ فيّ". لم يكن بوسع يسوع، في تلك المرحلة، أن يكون أكثر إيضاحًا حول هويّته، وإلاّ لما فهمه أحدٌ، أو لَفُسِّرت أقواله تفسيرًا خاطئًا. فتلاميذه كانوا بسطاء طيّبين وورعين، ولكنّهم لم يكونوا بعد مؤهّلين لاستيعاب سرّه. وكذلك كان أمرُ أقربائه بالجسد، والشعب لم يكن قد بلغ من النضج ما يمكّنه من استيعاب الحقيقة، ويسوع كان محاطًا بالجواسيس الراغبين في القضاء عليه، وكان الفرّيسيّون والهيرودسيّون قد جنّدوا حتّى فئةً من تلاميذ يوحنّا القدامى لهذه الغاية.

ثمّ عكف يسوع على تبشير المرضى الذين شفاهم، داعيًا إيّاهم إلى التوبة وانتهاج حياةٍ قويمةٍ. وكان بين جمهور المستمعين عددٌ من الفرّيسيّين، الذين تظاهروا بمشاركة تلاميذ المعمدان نقمتهم بسبب إحجام يسوع عن إطلاق سراح يوحنّا السجين. فخاطبهم قائلاً: "ماذا ابتغيتم مشاهدته في الصحراء لدى يوحنّا. أقصبةً تعبث بها الرّيح؟ أم إنسانًا باذخ الملبس؟ إنّ أصحاب الملابس الفاخرة هم في قصور الملوك. من ابتغيتم مشاهدته، إذن؟ أنبيٌّ؟ أجل، بل أكثر من نبيٍّ، فيوحنّا هو من كُتِب عنه: ها أنا مرسلٌ ملاكي أمام وجهك، وهو يمهّد الطريق أمامك". وفي الحقيقة أقول لكم: "لم يقم بين أبناء النساء أعظم من يوحنّا المعمدان. ولكنّ الأصغر في ملكوت السماوات هو أعظم منه. ومنذ أيّام يوحنّا المعمدان حتّى الآن، ملكوت السماوات يؤخذ عنوةً، والغاصبون يغنمونه. فجميع الأنبياء تنبّأوا حتّى يوحنّا. وإن شئتم أن تفهموا من هو، فهو إيليّا الذي عليه أن يعود. ومن له أُذنان تسمعان، فليسمع!".

واجتاح المستمعين التأثّر والرغبة في العماد، ما خلا علماء الشريعة الذين استنكروا علاقات الربّ الطيّبة مع العشّارين الذين قدموا للاستماع إلى يسوع. وأعاد يسوع تأكيده عطفه على العشّارين والخطأة ودحض التهم المساقة بحقّه وحقّ المعمدان.

في كفرناحوم

وما لبث أن عاد يسوع إلى كفرناحوم يرافقه أربعةٌ وعشرون من التلاميذ، وثلّةٌ من عشّاري "ماجدّو" الراغبين في نيل العماد. كان يسوع الدائب على إعداد التلاميذ لرسالتهم العتيدة، لا يني يعلّمهم وهو يسير، متوقّفًا مع مرافقيه في كلّ موقعٍ جميلٍ، مستوحيًا من كلّ مشهدٍ عبرةً للآخرين. وكان قد اقتطف زهرةً لقيها في الطريق ودعا مرافقيه إلى تأمّلها، ملاحظًا: "هذه الزهرة لا تمتلك شيئًا، ولكن تأمّلوا ألوانها، ورقّة تكوينها. إنّ سليمان، في كلّ مجده، لم يلبس قطّ أجمل منها". وبذلك كان يحضّ التلاميذ على العزوف عن كلّ مطمعٍ أرضيٍّ، وعن كلّ خيرات الأرض. وكانت أقواله تقطر عذوبةً تستعصي على الوصف.

وكلّمهم عن ملكوته، وحذّرهم من تصوّره محاكيًا لملكوت الأرض، والطمع في مناصبه وأمجاده. وبما أنّ الهيرودسيّين كانوا قد دسّوا بينهم تلاميذ قدامى ليوحنّا، كلّفوهم بترصّد أقوال الربّ وأفعاله، فقد حذّرهم ممّن يرتدون جلود خرافٍ ويتمنطقون بأحزمةٍ طويلةٍ، ويتجنّبون مواجهة الآخرين وجهًا لوجهٍ، وينفرون من كلّ قولٍ كفيلٍ بسكب الفرح والعزيمة في قلوب التلاميذ. ثمّ التقط غصنًا شائكًا وسأل: "انظروا هل عليه ثمرٌ... أيُقطَف من العوسج عنبٌ، ومن الأشواك تينٌ؟".

وعند المساء انتهى الموكب إلى دسكرةٍ مؤلّفةٍ من نحو عشرين بيتًا، قابعةٍ عند أقدام طابور، أهلها من الرعاة الطيّبين الذين كانوا يعرفون يسوع. فخفّوا إلى الترحيب به، حاسري الرؤوس. ولم يكن ثمّة مجمعٌ بل مدرسةٌ دخلها يسوع وبشّر سكّان القرية.

وكان صاحب تلك الدسكرة رجلٌ غنيٌّ، يسكن مع زوجته بيتًا كبيرًا معزولاً عن سائر السكّان. وسبق له أن ارتكب العديد من الموبقات، ثمّ أُصيب بالبرص، فنأت عنه زوجته، وغدت تقطن في الطبقة العليا من البيت، ولبث هو في الطبقة السفلى، وحرص على إبقاء مرضه مكتومًا لكيلا يُرغَم على الحجر. ولكن سكّان القرية غدوا يتحاشون عن الاقتراب من بيته، وكان عقب إصابته بذلك الداء، قد تاب عن ذنوب ماضيه، وغدا يتحرّق توقًا إلى مجيء يسوع لعلّه يشفيه. ولّما علم بوجود يسوع في القرية، كلّف صبيًّا في الثامنة من عمره، كان يخدمه، أن يقصد المعلّم ويقول له: "يا ربّ، إنّ سيّدي مريضٌ، ويؤمن أنّك قادرٌ على شفائه، وسيتمّ له الشفاء إذا ارتضيت، فقط، المرور قرب بيته، سالكًا الدرب الذي يتجنّبه الآخرون. وهو يتوسّل إليك أن ترحمه، وتسلك هذا الطريق، فينال الشفاء". وفيما كان يسوع عائدًا من المدرسة إلى النـــزل، شعر أنّ هناك من يأتي إليه سرًّا، فتخلّف قليلاً عن التلاميذ، وحينئذٍ دنا منه الصبيّ، وبلّغ يسوع رسالة سيّده بأمانةٍ. فأجابه الربّ: "قل لسيّدك إنّي سأمرّ غدًا". ثمّ أمسك بيده، ووضع يده الأُخرى على رأسه، وامتدحه.

وفي صباح اليوم التالي خرج يسوع مع تلاميذه وسلك الطريق الذي يفضي إلى بيت الأبرص، وكان سكّان القرية قد حذّروا التلاميذ من سلوكه، فرجوا يسوع أن يسلك دربًا آخر، ولكنّه واصل سيره، غير عابئٍ بطلبهم، ودعاهم إلى اتّباعه، فأذعنوا على مضضٍ، خوفًا من أن يعلم أهل كفرناحوم بذلك.

وكان الصبيّ قد راقب خروج يسوع، فأعلم سيّده الذي خرج إلى دربٍ صغيرٍ يقود إلى بيته، ووقف على مسافةٍ قريبةٍ من الطريق العامّ. ولّما دنا منه يسوع صاح: "يا ربّ، لا تأتِ إليّ، فحسبك أن تريد شفائي كي أُشفى". وتوقّف التلاميذ، أمّا يسوع فقال له: "لقد أردت شفاءك". ودنا منه، ولمسه، وكلّمه، فجثا الأبرص وكان قد أُبرئ من برصه. وباح بكلّ أموره للربّ الذي أوعز إليه أن يستعيد زوجته، ويعود إلى الظهور، شيئًا فشيئًا، على الملأ، وأوصاه بالتوبة والعماد، والإحسان. ثمّ عاد إلى تلاميذه، مؤكّدًا لهم: "من آمن بي وطهّر قلبه، يسعه مسّ حتّى البُرص ويغيثهم".

وسارع الرجل الذي أُعتق من البرص إلى الاستحمام، وارتداء ثيابٍ لائقة، وزفّ بشرى معجزة شفائه إلى زوجته. وفي ذلك اليوم نفسه هرع قومٌ ضعاف النفوس إلى إبلاغ الفرّيسيّين وكهنة الجوار بما حدث. ومع أنّ هؤلاء كانوا على علمٍ بإصابة الرجل الغنيّ بالبرص، وسكتوا عنها لقاء رشوةٍ، إلاّ أنّهم تظاهروا بالاستنكار، وألّفوا لجنة تحقيقٍ، وأخضعوا الرجل لفحصٍ دقيقٍ، وبدافع بُغضهم ليسوع عدّوا كتمانه لإصابته جرمًا جسيمًا.

وواصل يسوع التبشير وتعليم تلاميذه مؤكّدًا على واجب الزهد بكلّ متاعٍ أرضيٍّ والتماس الملكوت، وأنّ التعاليم التي يستغمض عليهم فهمها اليوم، ستتّضح لهم لاحقًا. وحذّرهم من الاهتمام القلِق بالمأكل والملبس، مثلما يهتمّ ويقلق الوثنيّون، وإذ كان يشير إلى أماكنهم في الملكوت التي ينبغي اكتسابها بالكفاح والتضحيات، أوصاهم أن يبنوا بيوهم على صخرٍ. ولكنّ بعضهم فهموا فهمًا ماديًّا، وأوّلهم يهوذا الذي أخذه الاندفاع، وحينئذٍ، أيقظهم يسوع من أحلامٍ باطلةٍ، محذّرًا: "لم نبلغْ،

بعدُ، غاية المطاف، ولن تكون الأحوال، دائمًا، كما هي الآن، فالآن تلقون وفادةً حسنةً، وتنالون كفايتكم من الطعام، وتنعمون بالوفرة. ولكن ستأتي أيّام تضطّهدون فيها وتُطْرَدون، ولن يكون لكم مأوًى، ولا خبزٌ، ولا ثوبٌ ولا حذاءٌ". فعليهم أن يتأهّبوا لكلّ ظرفٍ، ويستعدّوا للتخلّي عن كلّ شيءٍ، كي يحظوا بمصيرٍ عظيمٍ. وحدّثهم عن ملكوتين متعارضَين: فليس من يستطيع خدمة سيّدين، بل على الراغب في خدمة ملكوتٍ أن يتخلّى عن أيّ ملكوتٍ آخر. وأخذ على الفرّيسيّين وأعوانهم حرصَهم على القشور والظواهر، وإهمالهم الجوهريّ: المحبّة والرحمة والغفران. وحذّر من التظاهر بالصلاة، عوضًا عن الصلاة في أعماق النفس.

وفي مسيرته مع تلاميذه كان يعيد تعليمهم ما علّمه للجماهير، بحيث يحسنون فهمه فهمًا كاملاً، ويستطيعون تفسيره وتبليغه للآخرين.

وكان لا يني يحذّر تلاميذه من المندسّين الذين يرتدون لباس الحملان، ويتصنّعون الأمانة بغية صرفهم عن رسالتهم.

شفاء عالمَيْ شريعةٍ

مرّ يسوع بقرب دسكرةٍ تخصّ قائد المئة، وبما أنّ السبت كان يقترب، فقد كان يغذّ السير، وكان في حديقة قصر قائد المئة عالِما شريعة في الخامسة والعشرين من العمر، توغّلا في أفعال الفسق، فأُصيبا بأمراضٍ قبيحةٍ وبالبرص، وأُجبرا على ارتداء زيّ البرص، وقد انتشرت القروح والدمامل المقزّزة على جسديهما، وأصبحا محطّ نفور الجميع، وازدرائهم ونبذهم. وأشفق عليهما قائد المئة، وسمح لهما بالاختباء في حديقة قصره. وكانا، حتّئذٍ، قد أحجما عن التماس غوث يسوع خجلاً، واتّقاءً للفضيحة. ولكن، بعد أن ذاعت شهرة الناصريّ، وقدراته الخارقة، لم يجدا بدًّا من الاستعانة به، فوقفا على حافّة الطريق الذي كان سيسلكه. ومرّ يسوع بهما ولم يلتفت إليهما، إلى أن جاءه اثنان من خَدَم قائد المئة، والتمسا رأفته بذينك البائسيْن، فأجابهما: "خذاهما إلى مجمع كفرناحوم، وأصعداهما إلى علّيّة البناء الملحق

بالمجمع، والموازية لطبقة المجمع الأولى، كي يسمعا تعليمي، ثمّ عليهما الصلاة والتوبة والتكفير عن ذنوبهما، حتّى يستدعيهما المخلّص.

في المجمع، كان أقرباء يسوع وأصدقاؤه وتلاميذه والنسوة القدّيسات قد احتلّوا أماكنهم وكان عالم شريعةٍ قد تبوّأ المنبر، وشرع في تلاوة الكتب، ولكنّه عندما شاهد يسوع قادمًا نهض وأحلّه محلّه، مثيرًا الغضب في نفوس الفرّيسيّين الذين عدّوا هذا الفعل مخالفًا للكياسة وآداب السلوك، ولا سيّما أنّ نفوسهم كانت تجيش نقمةً على الناصريّ بعد إقامته لابن أرملة "نعيم" من الموت، وبعد الأشفية المعجزة التي أجراها في "ماجدّو" وفي كلّ مكانٍ مرّ به.

ولدى خروج يسوع من المجمع هرع الفرّيسيّون إلى فنائه بغية مناقشته، ولكنّه باغتهم بشخوصه إلى القاعة التي كان الأبرصان جالسيْن فيها، ودعاهما إلى النـــزول، غير أنّهما بسبب مشاعر الخجل والعار والخوف التي كانت ترين عليهما تلكّآ في النـــزول، فأمرهما ثانيةً بالنـــزول، وإذ بقوّةٍ خفيّةٍ تمكّنهما من هبوط السلّم بمفردهما وبلا عون أحد. وكم كانت دهشة الفرّيسيّين عندما تعرّفوا الأبرصين الممقوتين من خلال معطفيهما الأحمرين. وهوى الرجلان راكعين أمام يسوع الذي وضع يديه عليهما، ونفخ في وجههما، قائلاً: "خطاياكما مغفورةٌ لكما". وحضّهما على ممارسة العفّة، وعلى نيل معموديّة التوبة، وأهاب بهما الكفّ عن تأويل الشريعة، واعدًا باقتيادهما على درب الحقيقة. ولّما نهضا تبيّن أنّ كلّ آثار العلّة القبيحة قد تلاشت، وأنّ قروحهما نشفت، وتساقطت عنهما قشور البرص. فشكرا مخلّصهما بعيونٍ أغرقتها الدموع، ومضيا في سبيلهما. وأقبل عليهما القوم مهنّئينهما بما حظيا به من شفاءٍ وتوبةٍ.

وبالمقابل كان الفرّيسيّون لا يكفّون يستشيطون غيظًا، وانطلقوا يندّدون بالربّ، آخذين عليه إجراء أشفيةٍ في يوم سبتٍ، وغفرانٍ للخطايا، متخطّيًا حدوده، ومغتصبًا حقوق الله. ومدّعين أنّ فيه شيطانًا يساعده، ومتّهمينه بالجنون،

وبذرعه الطرقات بلا هوادةٍ، زارعًا الفضائح في "نعيم" و"ماجدّو" وفي كلّ مكانٍ، وواصفينه بالافتقار إلى البرّ والعقل، ومتوعّدينه بعقاب هيرودس حالما يفرغ هذا الأخير من معاقبة المعمدان.

ولكنّ يسوع لم يعبأ لا بنقدهم ولا بتهديدهم، ومرّ وسطهم هادئًا، فيما كان هياج الفرّيسيّين يُسيل الخوف على يسوع، في نفوس أصدقائه والنسوة القدّيسات الحاضرات.

وفي طريقه، توقّف يسوع في الأجمات والمغاور حيث ناجى أباه، ثم جاء إلى بيت أمّه، وهدّأ روع النسوة، وبدّد مخاوفهنّ، ثمّ انتحى ثانيةً للصلاة.

إقامة ابنة يائير

منذ الصباح الباكر وافى بطرس إلى بيت العذراء، مستوضحًا عن مكان يسوع، ثمّ هرع إليه يخبره أنّ يائير، رئيس مجمع كفرناحوم، جاءه باكرًا مستنجدًا من أجل إنقاذ ابنته التي تصارع الموت. فأجابه يسوع: "هدّئ روعه، ولينبذ كلّ قلقٍ وخوفٍ، فسآتي قريبًا". ثمّ وافى يسوع وتلاميذه إلى كفرناحوم، وفي الساحة الممتدّة أمام المجمع أبرأ عددًا من المرضى، وفي هذه الأثناء جاء يائير، وارتمى عند قدمي يسوع ورجاه أن يأتي وينقذ ابنته. ولكنّ المرضى الذين كانوا ما زالوا ينتظرون الشفاء، حاولوا منعه من الذهاب، فطمأنهم ووعدهم بالعودة إليهم. وفي هذه الأثناء، وصل من أبلغ يائير: "ابنتك ماتت، فلا تزعج الربّ" وسمع يسوع ذلك، ولكنّه قال ليائير: "لا تخف، وآمن فقط، فتخلص ابنتك"، وانطلقا معًا إلى بيت يائير، الذي ازدحم بالنائحين والنائحات. وأدخل يسوع معه ثلاثةً، فقط، من تلاميذه: بطرس، ويعقوب، ويوحنّا. وفي فناء الدار خاطب الجمع: "علامَ النوح والنحيب؟، ابتعدوا، فالفتاة نائمةٌ فحسب، وليست ميتةً!" فسخروا منه، لأنّهم كانوا موقنين بموتها. ولكنّ يسوع أمر بإبعادهم، فأُبعدوا. وحينئذٍ دخل إلى الحجرة حيث كان والدا الفتاة المفجوعان والخادمات يعدّون الأكفان، ثمّ جاء يسوع

وتلاميذه ووالدا الفتاة إلى الحجرة التي كانت مسجّاةً فيها، واقترب من وسادها، وأخذها بين يديه ونفخ فيها، ثمّ ألقاها على سريرها، وأمسك بيدها، وقال لها: "يا صبيّة قومي". فقعدت، وظلّ يسوع ممسكًا بمعصمها، وإذ بها تفتح عينيها، وتهبّ واقفةً. وإذ كانت ما زالت مترنّحةً من جرّاء المرض الطويل والهزال الشديد، سلّمها لوالديها، وأوصاهما بإطعامها، وبكتمان ما حدث لها.

وجديرٌ بالتنويه أنّ والدة الفتاة بدت لدى مجيء يسوع مرتابةً متحفّظةً، وظلّت على هذه الحال حتّى وقفت الفتاة بين يديها. والوالد أيضًا لم يكن من أصدقاء يسوع، ولا من مواليه، وكان يخشى الصدام مع الفرّيسيّين، ولكنّ شبح الموت الذي خيّم على ابنته دفعه إلى انتباذ كلّ خوفٍ وتحفّظٍ، ولا سيّما إثر شفاء يسوع لخادم قائد المئة، الذي أوحاه ثقةً في نبيّ الناصرة. وعلى كلّ حالٍ، كان يحدّث نفسه بمصادقة يسوع إذا نجح في شفاء ابنته، وإلاّ فيقدّم فشل يسوع هديّةً للفرّيسيّين.

وكاد الفرح يذهب بروع الوالدين عندما وقفت ابنتهما بينهما، وقد أرتج على أُمّها، فلم تفُهْ بحرفٍ، فيما شكر الوالد يسوع باكيًا. وسرى نبأ قيامة الفتاة مذهلاً النائحات اللائي كنّ قد هزئن من يسوع، فجئنَ خجلاتٍ، حائراتٍ، للتأكّد، ودهشنَ لرؤية الفتاة مكبّةً على الطعام، تضجّ فرحًا.

ولا بدّ من التنويه أنّ يسوع كان، في أشفيته يلجأ إلى أساليب بشريّةٍ، كي يتمكّن تلاميذه من بعده، التمثّل به.

وفي طريق عودته علّق يسوع على الحدث قائلاً لتلاميذه: "إنّ والدي الفتاة يفتقران إلى الإيمان الحيّ، وإلى الصدق، وقد شفيت الفتاة، من أجلها ومن أجل مجد الله، ومع أنّ موتها لم يكن عقابًا، فعليها التحرّز من موت النفس". ثمّ عاد إلى المرضى الذين ما برحوا ينتظرونه أمام المجمع، فشفى العديد منهم، وأكمل تعليمه في المجمع، وكان الفرّيسيّون في حالٍ من الغيظ العارم، بحيث كانوا يتمنّون القضاء عليه، ولكنّه تحاشى عن مجادلتهم، وتوارى وسط الجموع، وتفرّق تلاميذه. وأنفق يسوع معظم تلك الليلة مصلّيًا. لا ريب أنّ صلواته تلك كانت تسهم في توبة

خطأةٍ، وفي تفشيل مكائد الفرّيسيّين على منعه من التعليم، وإذ لم يكن بوسعهم سوى اتّهامه بالمروق والتجديف، ولم يكن لديهم على هذا الاتّهام دليلٌ. أمّا العماد الذي كان يدعو إليه، فلم يكن يعني لهم شيئًا، ولم يسعوا، يومًا، إلى مراقبته.

دعوة متّى

عادت النساء القدّيسات إلى منازلهنّ، وعادت المجدليّة إلى "مجدلا"، وكادت تتردّى، ثانيةً، إلى تيهها السابق، إذ كان قد تنامى إلى رفاق السوء المحيطين بها، تأثّرها بيسوع الكفيل بتغير سيرها، فراحوا يسخرون من يسوع ومن مستوى القوم الذين يعاشرهم، ويغرون المجدليّة بالإشاحة عنه، والاستغراق في متع الفسق.

ومن جانبٍ آخر كان قائد المئة، إثر شفاء خادمه، قد وعد يسوع بتقديم ضحايا كثيرةٍ للهيكل، ولكنّ يسوع أفهمه أنّ الله لا يستسيغ الأضاحي وأنّ الأجدر به المصالحة مع أعدائه، وتوجيههم نحو الخير، وإشباع الفقراء. وبالفعل أقام الضابط كورنيليوس عيدًا حافلاً دعا إليه العديد من الوثنيّين والفقراء. وعقب الاحتفال اجتمع هؤلاء جميعهم عند ضفاف البحيرة، وجاء يسوع فبشّرهم. وبما أنّ الجمع كان غفيرًا، ولكي يمكّن الجميع من الاستماع إليه، استقلّ مركبًا يخصّ تلاميذه في البحيرة، ومن على متنه علّمهم، وسرد لهم مثل الزارع، والقمح والزؤان. ولّما أنهى عظته واصل الإبحار مع تلاميذه في البحيرة، واستجابةً لطلب تلاميذه فسّر لهم الأمثال التي كان قد رواها. ولّما أَرسوا ونزلوا إلى اليابسة، سلك يسوع دربًا يؤدّي إلى بيت متّى العشّار والمركز الذي كان يستوفي فيه المكوس، وتبعه التلاميذ متردّدين. وشاهده متّى من قمّة تلّةٍ، يقترب من مركزه، فاستحى، وتوارى داخل مقرّه. وسبق يسوع تلاميذه، وناداه من الطريق، فخرج متّى، واطّرح أرضًا وقال له: "يا سيّدي، لم أعدّ نفسي أهلاً لأن تكلّمني". وردّ عليه يسوع: "يا متّى انهض واتبعني!". ونهض متّى وأعلن أهبته للتخلّي عن كلّ شيءٍ، واتّباع يسوع في الحال. وتبعه إلى حيث كان التلاميذ قد توقّفوا فحيّاهم، ورحّبوا هم به. وكان أسعدهم

به، تدّاوس، وسمعان ويعقوب الكبير، فقد كانوا إخوته من أبيه ألفي، الذي أنجبه من زوجته الأولى قبل اقترانه بمريم ابنة كليوبا. ودعاهم متّى جميعهم، إلى بيته، فوعده يسوع بعودتهم جميعًا، في الغد، وتناولهم الغداء في منـــزله.

وسارع متّى بالعودة إلى منـــزله، بعد أن أوكل إلى أحد رجال سفينة بطرس الاهتمام بشؤون مركزه. وزفّ إلى زوجته بشرى ما حدث له، وعزمه على هجر كلّ شيءٍ والانضمام إلى جماعة يسوع. فشاركته فرحه بهذا الحدث. وأوعز إليها البدء بإعداد مأدبة الغد، متولّيًا هو أمر الدعوات. كان متّى مجايلاً لبطرس، متين الجسم، مفتول العضلات، أسود الشعر واللحية. وكان مذ التقى يسوع على طريق صيدون، قد تلقّى العماد على يد يوحنّا، وسلك باستقامةٍ.

وظُهر اليوم التالي أقبل يسوع وتلاميذه إلى بيت متّى حيث كان قد سبقهم عدد من العشّارين. وكان العديد من الفرّيسيّين ومن تلاميذ المعمدان قد التقوا تلاميذ يسوع في الطريق، وواكبوهم إلى منـــزل متّى، وطافوا معهم في حديقته ولكنّهم لم يدخلوا إليه ولم يشاركوا في المأدبة. وكانوا قد استغربوا واستنكروا علاقات يسوع الودّيّة مع خطأةٍ وعشّارين، فأجابوهم: "اسألوه أنتم بأنفسكم". ولكنّهم أجابوا: "لا يمكننا مكالمة رجلٍ يريد أن يكون هو دائمًا على حقٍّ".

رحّب متّى بيسوع وتلاميذه باحترامٍ وتواضعٍ، وقبّل إخوته غير الأشقّاء بحرارةٍ، وعرّف يسوع بأسرته، فبارك أبناءه ووجّه لزوجته عباراتٍ طيّبةً. وما إن جلس يسوع حتّى جثا متّى أمامه، فوضع يده على رأسه، وزوّده بوصايا. ومذّاك غيّر اسمه من لاوي إلى متّى.

وإذ تمّت المأدبة في الهواء الطلق، كان كلّ مسافرٍ يدنو من التلاميذ ينال حصّته من الطعام. وحينئذٍ تبادل الفرّيسيّون والتلاميذ الحوار الذي أورده لوقا: (٥: ٣٠ –٣٩). وشدّد الفرّيسيّون على واجب الصيام، وأخذوا على يسوع سماحه لتلاميذه اقتطاف ثمارٍ على الطرق، خلافًا لتقاليد اليهود.

في تلك الأيّام كانت كفرناحوم تعجّ بجموع الغرباء القادمين لرؤية يسوع، وبالوثنيّين القادمين لتهنئة قائدي المئة كورنيليوس (الذي أُقيمت ابنته) وزوروبابل (الذي شفى خادمه).

دعوة بطرس وأندراوس، وتهدئة العاصفة

انحدر يسوع باكرًا من بيت متّى حيث كان قد قضى ليلته، إلى ضفّة البحيرة، فرأى الأخوين بطرس وأندراوس يلقيان شباكهما في البحيرة فدعاهما: "تعاليا واتبعاني فأجعل منكما صيّادي بشر"، وفي الحال تركا شباكهما وتبعاه. وتابع يسوع معهما مسيرته على ضفّة البحيرة، ودعا أيضًا يعقوب ويوحنّا اللذين كانا يصلحان شباكهما مع أبيهما زبدى، فتركا، هما أيضًا، الشباك وأباهما، وتبعاه.

وأوعز يسوع إلى مدعوّيه الجدد توقّل الجبل ومنح العماد لطالبيه من الوثنيّين فيما اتّجه هو والتلميذ "ساتُرنان" وتلاميذ آخرين إلى الجانب الآخر، وكانوا قد اتّفقوا جميعهم على الالتقاء مساءً في بيت متّى.

وروى الرسل والتلاميذ للوثنيّين الأمثال التي سمعوها من يسوع، وتحدّثوا عنه وعن تعليمه، ومعجزاته، وفسّروا لليهود أنفسهم ما استغلق عليهم من النبوءات والوعد الإلهيّ. وقد تميّز تبشير بطرس بالاندفاع، في حين اتّصف تبشير يوحنّا ويعقوب بعمق التأثير. فيما كان يسوع يعلّم الجموع في أحد الوديان، وإلى جانبه "ساترنان" يعمّد.

وفي المساء التقوا جميعهم قرب بيت متّى، حيث كان احتشد جمهورٌ غفيرٌ، فصعد يسوع إلى سفينة بطرس، برفقة رسله العتيدين والتلميذ "ساتُرنان" وطلب منهم الإبحار إلى طبريّا في الجانب الآخر من البحيرة. وكان التعب قد نال منه، فاستلقى على سطح المركب واستسلم لإغفاءةٍ مريحةٍ. وكان الطقس جميلاً، عندما أبحروا، وماء البحيرة ساكنًا، والريح هادئةً، ولكن ما أن بلغوا منتصف البحيرة حتّى هبّت عاصفةٌ هوجاء، وتعالت الأمواج فوق السفينة، ومزّقت البروق السماء

من طرف إلى آخر، وأخذ الرعب بالتلاميذ كلّ مأخذٍ، فهرعوا إلى يسوع الذي كان ما زال مستسلمًا إلى إغفاءةٍ مطمئنّةٍ، وأيقظوه بلهفةٍ قائلين: "ألا تشفق علينا، ونحن نكاد نهلك؟"، ونهض الربّ، وبهدوءٍ ووقارٍ، أمر الريح أن تصمت، والعاصفة أن تسكن. فهوت الأمواج وساد السكون. واستولى الوجل على التلاميذ، فتهامسوا: "من عسى أن يكون هذا الرجل الذي يأمر الريح والبحر، فيذعنان لأمره؟" والتفت يسوع إليهم: "علامَ خفتم، يا قليلي الإيمان؟" وأمرهم بالعودة إلى مقرّ متّى، حيث كان رسُلٌ قد قدموا يدعون يسوع إلى الشخوص سريعًا لإغاثة مريم ابنة كليوبا، التي انتابها مرضٌ شديدٌ.

رسالة الخلاص تنتشر

وجود يسوع في كفرناحوم كان قد استقطب إليها جماهير غفيرةٌ فازدهرت، وضجّت بالحركة، ونهضت فيها حركة العمران.

وذات يومٍ طلب يسوع من تلاميذه أن يعلنوا عن اعتزامه التبشير في مكانٍ بضواحي المدينة، حيث يوجد منبرٌ حجريٌّ وفسحةٌ متّسعةٌ، فأخذت المواكب تتوافد إلى ذلك المكان. وكان عدد الوافدين في اليوم الواحد يتخطّى الألفين، وكان كثيرٌ من القادمين يأتون بمرضاهم ومعاقيهم، من عميانٍ، ومقعدين، وبُكمٍ، وبرصٍ، وكان معظمهم ينعمون بالشفاء. وبعضهم كانوا يأتون بأقرباء لهم تسكنهم أرواحٌ شرّيرةٌ، فما إن يشرع يسوع بالتعليم، حتّى يملأوا المكان صياحًا وضجيجًا، فكان يسوع يأمرهم بالصمت، فيطّرحون أرضًا مثل كلابٍ خائفةٍ، إلى أن يفرغ الربّ من عظته، ويأتي إليهم ويحرّرهم.

وكان بين القادمين العديد من النساء والأطفال، وكان يسوع يستدعي إليه من بين الحضور، الأطفال، فيباركهم، ويعلّمهم مسمِعًا أقواله لجميع الحاضرين. وكان أحيانًا يمسك بيد ولدٍ، ويطوف معه من جانبٍ إلى آخر، داعيًا الكبار إلى الانقياد لله، مثل انقياد هذا الولد، بلا مقاومةٍ، وبصبرٍ، وتسليمٍ.

وكان الحضور يتألّف من وثنيّين، وأيضًا من يهودٍ قادمين من سورية والمدن العشر، تنامت إليهم شهرة يسوع، فأتوا مع أفراد أسرهم، ومرضاهم، كي يستفيدوا من تعليمه، وينال مرضاهم الشفاء، والحصول على العماد. وكان يسوع قد قصد التقاءهم في ذلك المكان تفاديًا لاشتداد الزحام داخل كفرناحوم. وكان عمله هذا يطفح بالغيرة والمحبّة المثابرة التي لا تكلّ. وكان جوار ذلك المكان قد ازدحم بالخيام، وقُدّر مجموع أعداد الذين قدموا إلى ذلك المكان بأكثر من اثني عشر ألفًا.

أمّا عن التلاميذ، فكان يسوع، بعد دعوته متّى، قد أكمل عدد رسله، ووجّه الدعوة الثانية والنهائيّة للذين دعاهم سابقًا. وكان يهوذا، حتّئذٍ مندفعًا، خدومًا، مشرفًا على النفقات وتوزيع المعونات. وكان بطرس أكثر التلاميذ ضيقًا بدعوته، إذ إنّه فضلاً عن الصيد، كان يملك أراضي ومواشي، وكان له أُسرةٌ يتعيّن عليه إعالتها، وإلى ذلك كان يبهظه شعوره بعدم كفاءته للمهمّة التي شاء الربّ انتدابه لها. وكان التلاميذ الصيّادون الأربعة، منذ دعوتهم الأولى، قد أسدوا للمعلّم خدماتٍ جلّى، غير أنّهم كانوا كلّما تبيّنوا أنّ يسوع لم يكن بحاجةٍ إليهم في تعليمه، وقبل تكليفهم شخصيًّا بالتبشير والتعليم، يعودون مؤقّتًا لسفنهم وشباكهم. وبما أنّه سبق لأندراوس أن كان تلميذًا ليوحنّا، وأقلّ التزامًا بمهنته من أخيه بطرس، فقد أوكل إليه يسوع مهمّة التعميد. وكان يعقوب ويوحنّا يلبّيان غالبًا رغبة أبيهما زبدى ويعودان لمساعدته، وكان والداهما يتخيّلان أنّ يسوع سيؤسّس مملكةً أرضيّةً، ويطمحان في أن يتبوّأ فيها ابناهما مراكز مرموقةً، ولا سيّما أنّ أواصر قربى كانت تربط أُمّهما بالعذراء مريم.

غير أنّ هؤلاء الصيّادين الأربعة بعد تلقّيهم الدعوة النهائيّة، أدركوا أنّ عليهم الالتصاق بالمعلّم بلا فكاكٍ، عقب الفصح الأخير، وفيما كان يسوع قد لجأ إلى صيدون وصور، قد تولّوا مهمّة التبشير، وأجروا بعض الأشفية. ولكن كان يسوع قد اكتفى بمباركتهم ولم يمسحهم بعد، وكان إيمانهم ما برح ضعيفًا، والنجاح الذي أحرزوه كان ضئيلاً، وكانوا قد تعرّضوا للاضطهاد والقيود والمثول أمام الفرّيسيّين.

شهادة المعمدان الأخيرة

بعد أن عاد التلميذان اللذان أوفدهما المعمدان إلى يسوع كي ينقلا إليه رجاءه بأن يعلن الربّ هويّته على الملأ، وبلّغاه جواب يسوع الذي أكّد عدم استعجاله إعلان ألوهته، وبعد أن وصفا للمعمدان المعجزات التي كانا شاهدين عليها، والتي تتوافق مع الإشارات التي كان الأنبياء قد أوردوها دليلاً على مجيء المسيح، ارتأى المعمدان أنّ من واجبه القيام بهذا الإعلان بنفسه، فالتمس من هيرودس السماح له بإبلاغ تلاميذه وأتباعه وجميع الراغبين في سماع شهادته الأخيرة بيسوع، واعدًا بالصمت النهائيّ بعد الإدلاء بهذه الشهادة. واستجاب هيرودس لرغبته، وسمح لتلاميذ يوحنّا ولعدد من سكّان مدينة "ماخيرونت"، بالدخول إلى فناء القصر، حيث جلس هيرودس وامرأته الشرّيرة على منصّةٍ، محاطين بالجند، وكان هيرودس، من خلال هذه المبادرة، يأمل إيهام الشعب بأنّ سجن يوحنّا ليس صارمًا، وبذلك إطفاء النقمة الشعبيّة على ظلمه.

وتكلّم المعمدان بكثيرٍ من الاندفاع عن يسوع، وأكّد أنّه هو نفسه لم يُرسل إلاّ لكي يمهّد له الدرب، وأنّه لم يبشّر قطّ إلاّ بيسوع مسيحًا، ولكنّ اليهود أقاموا على عنادهم بعدم الاعتراف به، وأكّد رغبته في التذكير بما سبق له قوله في يسوع، وبعباراتٍ واضحةٍ، لأنّه يشعر بأنّ نهايته قد دنت. وقد أثّرت أقواله هذه تأثيرًا بليغًا في نفوس مستمعيه، واستقطرت دموع تلاميذه، كما أنّها أشاعت الاضطراب في نفس هيرودس في حين جهدت عشيقته في تمويه مشاعرها. ومضى يوحنّا قدُمًا، وبحرارةٍ كبرى في امتداح يسوع، معيدًا إلى الأذهان المعجزة التي حدثت أثناء عماده، وهتف: "أجل، يسوع هو ابن الله الحبيب الذي بشّر به الأنبياء، وما تعليمه سوى تعليم الله أبيه، وما أفعاله إلاّ أفعال أبيه، ولا أحد يستطيع المجيء إلى الآب إلاّ من خلاله...". ثمّ أسهب في دحض اتّهامات الفرّيسيّين له، مثل مخالفته فريضة السبت، مؤكّدًا أنّ الفرّيسيّين هم الذين يخالفون الشريعة برفضهم اتّباع تعاليم ابن

الله الذي من أجله فرض السبت... وأهاب بجميع تلاميذه أن يلتحقوا بيسوع، ولا يمكثوا معميّين إلى جانبه هو، عند العتبة، في حين يسعهم الولوج إلى صلب المحراب.

وكان يوحنّا قد طلب من تلاميذه أن يدوّنوا خطبته هذه ويحملوا نسخة عنها إلى مجمع كفرناحوم ويتلوها على الملأ، لعلّ الفرّيسيّين يؤمنون أنّ يسوع هو ابن الله، والمسيح الموعود، وأنّ تعاليمه وأفعاله صحيحةٌ ومقدّسةٌ. وكان على تلاميذ يوحنّا أن يعلنوا فحوى تلك الرسالة، أيضًا، لعموم الشعب، ولمّا فعلوا تعالت صيحات الاندفاع والتهليل من صدور الذين كانوا قد شاهدوا أعمال يسوع العجيبة، وسمعوا تعاليمه المتباينة عن تعاليم الفرّيسيّين وعلماء الشريعة. ومع امتعاض الفرّيسيّين، إلاّ أنّهم، اتّقاءً من إثارة الجموع عليهم، ولكي يظهروا أنّهم ما زالوا ممسكين بمقاليد السلطة الدينيّة، أعلموا تلاميذ يوحنّا أنّهم لن يقيموا عقباتٍ في وجه مواعظ يسوع، شرط ألاّ يخالف الشريعة، ولا يبلبل النظام العامّ، معترفين، مع ذلك، بواسع علمه، ورسوخ مواهبه. وأضافوا أنّهم لا يشكّون في استقامة المعمدان، غير أنّ المعمدان، في سجنه، غير مطّلعٍ على ما يجري على الأرض، وأنّ علاقاته بيسوع سطحيّةٌ، ولا تمكّنه من معرفته عن كثبٍ.

وحلّ السبت، فشخص يسوع إلى الهيكل، وتحدّث عن بيع أبناء يعقوب لأخيهم الأصغر، يوسف الذي أنقذهم، وعن إنذارات الله التي جاءت على لسان النبيّ عاموص، والتي هدّدت اليهود بأقسى العقوبات على خطاياهم. وقابل الشعب خطاب يسوع بالإعجاب والاندفاع، ولم يستطع الفرّيسيّون سوى التظاهر بمثل إعجاب الشعب، ولا سيّما بعد سماعهم شهادة المعمدان فيه.

وعقب انتهاء طقوس السبت جاء يسوع وتلاميذه إلى بيت بطرس حيث نعموا بلحظات هدوءٍ، وتناولوا بعض الطعام، ثمّ انتحى يسوع خارجًا لمناجاة أبيه. وفي هذه الأثناء أكبّ الفرّيسيّون على أسفار النبوءات، وتبيّنوا كم يسوع متمكّنٌ منها، ومع ذلك أقاموا على رفضهم لتعليمه.

أشفيةٌ وصيدٌ عجيبٌ

وفي اليوم التالي، فيما كان يسوع يعلّم جمعًا غفيرًا في المجمع، جاء رسولٌ من قِبَل أُمّه ترجوه أن يترك كلّ شيءٍ، ويسارع إلى إغاثة ابنة أُختها مريم من كليوبا، التي كادت الحمّى تقضي عليها. وكانت راقدةً في بيت بطرس، وإلى جانبها العذراء، و"ماروني" أرملة "نعيم" وأُخوة المريضة وأبناؤها، وكان أكثرهم خوفًا وقلقًا ابنها الأصغر سمعان البالغ من العمر ثماني سنواتٍ. أمّا أبناؤها الآخرون فكان بعضهم من تلاميذ يسوع، وآخرون من تلاميذ المعمدان. ودنا منها يسوع، وصلّى، ووضع يديه عليها، وبشّرها بأنّ الحمّى فارقتها. وأمر بأن تُعطى طعامًا وشرابًا، ولمّا جيء بهما باركهما فأقبلت عليهما، بشهيّةٍ، معافاةً. وكان فرح أبنائها، ولا سيّما أصغرهم، غامرًا، وما لبثت أن قامت المريضة وأكبّت على العناية بالنساء المريضات، إذ كان قد تحلّق حول البيت أعدادٌ من المرضى القادمين من مختلف جهات الجوار. وكان معظمهم من الذين أعلن الأطبّاء والمداوون عجزهم عن غوثهم بشيءٍ. لا بل كان بعضهم في حالة احتضارٍ، وقد جيء بهم على متن الرواحل أو على أكتاف أقربائهم. ونال معظم هؤلاء الشفاء.

وكان قد وصل إلى ذلك المكان، عشيّة اليوم السابق ثلّةٌ من تلاميذ يوحنّا، الذين كانوا قد عبّروا عن نقمتهم على يسوع لإحجامه عن محاولة إخراج يوحنّا من سجنه، وكانوا قد فرضوا على أنفسهم أصوامًا قاسيةً لكي يدفعه الله إلى إنقاذ معلّمهم. فواساهم يسوع، وأعاد تأكيده أنّ يوحنّا هو من أقدس البشر. ثمّ استوضحوا تلاميذ يسوع عن سبب امتناع معلّمهم عن التعميد، في حين لم يكلّ يوحنّا، يومًا، عن العماد، فأجابوهم أنّ يوحنّا مارس العماد لأنّ العماد هو دعوته ورسالته، ولم يُجْرِ أيّ شفاء، في حين أجرى يسوع أشفيةً لأنّه المخلّص.

وجاء إلى يسوع كتبةٌ من الناصرة ودعوه بإلحاحٍ أن يقوم بزيارةٍ أُخرى إلى موطنه، ولكأنّهم كانوا يبتغون محو ذكرى زيارته الأخيرة إلى الناصرة، فأجابهم أنّ ما من نبيٍّ يلقى التكريم في موطنه.

بعد ظهر ذلك اليوم علّم يسوع جمعًا كثيفًا كان قد تألّب على مقربةٍ من مركز صيد بطرس. وعندما اشتدّ الزحام على الضفّة الضيّقة والمحاطة بالصخور الحادّة أوعز يسوع إلى تلاميذه الصيّادين أن يأتوه بقارب. وفي هذه الأثناء دنا كاتبٌ من يسوع قائلاً: "يا معلّم، سأتبعك حيثما تذهب". فحذّره الربّ: "لبنات آوى جحورها، ولطيور السماء أوكارها، أمّا ابن البشر فليس له ما يسند إليه رأسه".

ثمّ اعتلى القارب، وانطلق تلاميذه يطوفون به على امتداد الضفّة، حيث انتشر المستمعون فروى لهم أمثال ملكوت السماوات.

ولّما حلّ الليل قال الربّ لبطرس: "تقدّم في البحيرة وارمِ شباكك"، فأجابه الرسول: "يا معلّم، لقد جهدنا الليل الماضي كلّه ولم نُصِبْ شيئًا، ولكنّني، نزولاً عند رغبتك ألقي الشباك". وامتطى بطرس مركبه، فيما واكبه يسوع على متن القارب، وهو ما انفكّ يروي للتلاميذ أمثال الملكوت، وعندما اجتازوا مسافةً بعيدةً عن عمق اليمّ دلّهم الربّ إلى حيث ينبغي إلقاء الشباك، ولّما صاروا على مقربةٍ من بيت متّى، توقّف عنده قارب يسوع، فيما واصل التلاميذ حملة الصيد، التي لم يكونوا يرجون منها أيّة فائدةٍ. غير أنّهم، خلافًا لما توقّعوا، عندما حاولوا التقدّم في البحيرة أخذت الشباك تقاومهم، من جرّاء ثقل ما امتلأت به، فبذلوا جهودًا مضنيةً من أجل جرّها إلى المياه الضحلة، وحينئذٍ تبيّنوا أنّها من الامتلاء بحيث كانت الشباك قد تمزّقت في نواحٍ كثيرة، فاستعانوا بزوارق الإنقاذ حيث أفرغوا فيها بعضًا من صيدهم، كما أنّهم استعانوا بشركائهم، أي زبدى وأبنائه الذين ساعدوهم في جرّ الشباك إلى الضفّة، بعد أن أفرغوا قسمًا منها في صناديق ملصقةٍ بمراكبهم.

هذا الصيد العجيب زلزل نفس التلاميذ وضمائرهم، ولا سيّما نفس بطرس وضميره، فقد أدرك، بغتةً، أنّه لم يكن قد فهم هويّة يسوع فهمًا كافيًا، وراز بطلان جهده، إذ إنّ كلمةً واحدةً من الربّ قد آتته، في لحظةٍ، أكثر ممّا أثمرت جهود شهورٍ عديدةٍ. وبعد أن خُفِّف المركب من حمولته، جُرّت الشباك إلى اليابسة، ودهش الجميع بكمّيّة الأسماك التي كانت ما تزال تملؤها. وكان يسوع واقفًا

يتفرّج، فهبط بطرس من مركبه، وخرَّ عند قدميه هاتفًا: "ابعد عنّي يا ربّ، فأنا رجلٌ خاطئٌ". ولكنّ يسوع هدّأ روعه بقوله: "لا تخف يا بطرس، فبعد الآن سأجعلك صيّاد بشرٍ". ولكنّ بطرس كان ما زال رازحًا تحت وقر عدم كفاءته، وندمه على اهتمامه المفرط بمستلزمات العيش. وكان النهار قد شرع ينبلج.

وفيما استسلم الرسل لنومٍ هانئ، استصحب يسوع التلميذ "ساتُرنان" وابن فـيرونيكا، ويمّموا شرقًا متوقّلين جبلاً تجثم على سفحه الجنوبيّ مدينة "جمالا"، وفي الطريق لقّن يسوع رفيقيه أسلوب الصلاة والتأمّل، ثمّ غادرهما معتزلاً للصلاة، فيما تابعا مسيرهما مصلّيَيْن ومتحدّثين، معًا. وعكف الرسل في ذلك اليوم على نقل أسماكهم، وتوزيع قسمٍ كبيرٍ منها على الفقراء، راوين للجميع قصّة صيدهم العجيب. وقد رسخ في أذهان الجميع بطلان الاهتمام المفرط والقلق بشؤون الحياة، إذ حسب كلمةٍ واحدةٍ من الربّ كي تمتلئ الشباك بالأسماك، وكي تهدأ العاصفة.

التطويبات

في الصباح اعتلى يسوع مع ثلّةٍ من تلاميذه، مركبًا، قاصدًا مرتفعًا شرقيّ بيت صيدا، حيث كان قد احتشد جمعٌ غفيرٌ، استقطبهم نبأ عزم يسوع التعليم في ذلك المكان. وفي أثناء قدومه إلى ذلك المكان، حرص الربّ على تثقيف تلاميذه حول المواضيع التي سيعلّمها للشعب، فهو كان يرى في رسله وتلاميذه نور العالم، وملح الأرض، وكان يريد أن يكونوا دائمًا ناصعي السلوك، متألّقي الفضائل، لكي يرى الناس نورهم، ويمجّدوا الله، ويؤمنوا بأقوال معلّمهم. وفي سبيل تقريب تعليمه من أذهانهم ومداركهم كان يلجأ إلى الأمثال.

وكان سواد الجمع المحتشد على التلّة يتألّف من وثنيّين نالوا العماد حديثًا، ومن بعض يهودٍ لم يتحرّجوا من مجاورة الوثنيّين. وكان كثيرون قد توقّعوا تمادي وقت تعليم الربّ، فجاؤوا بزادٍ يمكّنهم من المكوث مهما طال الوقت. وقد أسهب يسوع، في ذلك اليوم، في تفسير التطويبة الأولى مستعينًا بأمثال.

في اليوم التالي أعلن التطويبة الثانية وفسّرها، وكان بين الحاضرين أُمّه العذراء، وابنة أُختها، وأرملة "نعيم" التي أقام ابنها من الموت، ونساءٌ أخرياتٌ وجميع الرسل. ثمّ عاد معهم إلى ضفّة البحيرة، وتركهم يبحرون، فيما تريّث هو مع تلميذين غير معروفين عكف على تعليمهما. كما أنّه استفاض في محادثة أُمّه العذراء والنسوة المرافقات لها، واللواتي كنّ عازماتٍ على قصد قانا في اليوم التالي. وقد عبّرن جميعهنّ عن أساهنّ من جرّاء عودة انغماس المجدليّة في مستنقعات الرذيلة، ولكأنّ إبليس توقّع تحرّرها منه، فغدا يمعن في إحكام سيطرته عليها، ويدفعها إلى اختلاجاتٍ وتشنّجاتٍ مريعةٍ. ولكنّ يسوع الواثق من قرب تحرّرها كان يدعوهنّ إلى الصبر والتشبّث بالرّجاء.

ثمّ جاء يسوع إلى بيتٍ في كفرناحوم، كان بطرس قد استأجره ليكون مركزًا لتعليم يسوع، وترك بيته مفتوحًا كي يدخله المرضى بحرّيّةٍ. وما إن أُذيع نبأ حضوره إلى ذلك البيت حتّى داهمته الجموع التي اندسّ بينها فرّيسيّون وكتبةٌ، فجلس يسوع وسط رسله وتلاميذه وعلّمهم. ومن المواضيع التي تناولها الوصايا العشر، آخذًا على الفرّيسيّين تفسيرها تفسيرًا حرفيًّا محضًا، وداعيًا الجميع للولوج إلى روح الوصايا، قائلاً: "سمعتم ما قيل قديمًا: لا تقتل". موضحًا أنّ تتميم هذه الوصيّة يقتضي مسامحة الأعداء ومحبّتهم.

وفيما كان يتحدّث، ضجّ المكان بجلبةٍ على سطح المكان الذي كانوا يجلسون تحته. إذ كان أربعة رجالٍ قد جاؤوا بمُقعدٍ طالبين شفاءَه، ولكنّ كثافة الجمع حالت دون وصولهم إلى الربّ، فصعدوا به إلى السطح، وأحدثوا فيه ثغرةً، ودلّوا المُقعد من خلالها إلى أمام الربّ، خاطفين أنظار الجميع، ومثيرين سخط الفرّيسيّين. غير أنّ يسوع أكبرَ إيمانهم، فنهض ودنا من المُقعد، وقال له: "يا بنيّ، مغفورةٌ لك خطاياك". وتنامى سخط الفرّيسيّين الذين جال في أذهانهم الضيّقة، وفي نفوسهم المفعمة حقدًا: "يا له من مجدّفٍ! فمن يستطيع غفران الخطايا سوى الله؟". واخترق يسوع مكامن خواطرهم الشرّيرة، وفضحها بقوله: "علامَ تجيلون هذه الأفكار في

سرائركم؟ ترى ما الأسهل أن يُقال للمُقعد: "خطاياك مغفورةٌ"، أو: "انهض، واحمل فراشك وامضِ معافًى"؟". ولكي توقنوا أنّ لدى ابن البشر سلطة غفران الخطايا ها أنا أقول لهذا المُقعد: "انهض وخذ فراشك، وعُدْ إلى بيتك!" ونهض المقعد لساعته، ولفّ فراشه، وألقاه على كتفه، وجمع العصيّ التي كانت تحمل الفراش ووضعها تحت إبطه، وقفل عائدًا إلى بيته، ممجّدًا الله. وواكبه الرجال الذين جاؤوا به وتعالت صيحات فرح الشعب وتمجيده للربّ، فيما تسلّل الفرّيسيّون خاسئين، الواحد تلو الآخر.

ثمّ قصد يسوع المجمع في موكبٍ ضمّ رسله وتلاميذه، ومعظم الشعب الذي كان حاضرًا.

إقامة ثانية لابنة يائير

كان يائير رئيس المجمع، الذي سبق ليسوع أن أقام ابنته من الموت، في مقدّمة المصلّين، وقد ارتسمت على ملامحه عبارات الحزن والندم. فعندما غادر منـــزله كانت ابنته ذاتها تصارع الموت، وكان موقنًا أنّ ما تعانيه هو من مغبّات خطاياه وخطايا أهل بيته، الذين كانوا قد استخفّوا بإقامتها الأولى من الموت، ولم يكن لهذه المعجزة أيّ تأثيرٍ على سلوكهم، لا بل إنّ زوجته، وأُمّه، وحماته، وابنته ذاتها قد سخروا من يسوع عوضًا عن شكره، وأمعنَّ في ممارسة حياةٍ ماجنةٍ، والتباهي بمظاهر وثنيّةٍ باطلةٍ، وجررنَ الفتاة التي كانت في مرحلة البلوغ، إلى الشهوات الدنسة. ولكن، مذ ظهرت أمارات العلّة، ثانيةً، على الفتاة، خامر كلاًّ من ذويها، أنّ ما يحدث لها إنّما هو عقابٌ على سلوكهم المشين، وقالت أُمّها، في ذروة اضطرابها وخجلها، لزوجها: "هل تأمل بأن يشفق علينا يسوع مرّةً أُخرى؟" وألحّت في دفعه إلى التماس غوثه، بكلّ تواضعٍ. وشقّ على يائير المثول أمام يسوع، مرّةً ثانيةً في وضح النهار، وعلى مرأى الشعب، فانتظر السبت الذي يوفّر له سانحةً ملائمةً. كان موقنًا أنّ بوسع يسوع، إذا شاء، أن يغيثه. ولمّا حان وقت

خروج يسوع من المجمع، وقد أحاط به جمعٌ غفيرٌ من المرضى ومن الراغبين في التحدّث إليه، دنا منه يائير، مفجوعًا، وارتمى عند قدميه، وتوسّله أن يرأف، مرّةً أُخرى، بابنته المحتضرة، فأوعز إليه أن يسبقه إلى البيت واعدًا باللحاق به، وداعيًا إيّاه إلى الثقة بالله.

وكانت ظلمة الليل قد سادت، وأحاط بيسوع أصدقاؤه وتلاميذه ورسله، وفرّيسيّون يترصّدونه، وكانت امرأةٌ مصابةٌ بنـــزيفٍ، تسكن على مقربةٍ من المجمع، وتنامت إليها أنباء الأشفية التي كان يجريها الربّ، والتي نعمت بها مثيلاتٌ لها، فنما الإيمان والرجاء في قلبها، وارتأت أن تغتنم الظلمة والازدحام، وتقترب، خلسةً، من يسوع وتلمس طرف ثوبه، لعلّها تحظى بالشفاء. وعلم الربّ بمسعاها، فأبطأ سيره، وهو متابعٌ تعليمه، فتمكّنت من الدنوّ منه، وجثت، ولمست طرف ثوبه، وفي الحال سرى الشفاء في جسدها. وتوقّف يسوع، والتفت، وسأل: "من لمسني؟" سؤالٌ استغربه بطرس وسائر التلاميذ، الذين قالوا له: "الجمع يزحمك من كلّ جانبٍ، وأنت تسأل من لمسك!" ولكنّه فاجأهم بقوله: "إنّ شخصًا قد لمسني، قاصدًا. وقد شعرتُ بقوّةٍ شفائيّةٍ تخرج منّي". وأجال نظرةً من حوله، حيث حدث انفراجٌ، وتبيّن للمرأة استحالة إخفاء أمرها، فأقبلت مرتعدةً، واطّرحت أمامه، معلنةً اعترافها بما فعلت، وبالشفاء الفوريّ الذي حظيت به، ملتمسةً صفح يسوع. فرمقها بعطفٍ وقال: "ثقي يا ابنتي فقد خلّصك إيمانك. امضي بسلامٍ".

ثمّ حثّ يسوع الخطى إلى بيت يائير، يرافقه بطرس ويعقوب ويوحنّا ومتّى والتلميذ "ساترنان". كانت النوّاحات واقفاتٍ في دهليز البيت صامتاتٍ، ولم يسخرن من الربّ كما فعلنَ آنفًا. واقتربت منه أمّ يائير وزوجته وحماته مرتدياتٍ ثياب الحداد، باكياتٍ، نادماتٍ. ثمّ دخل يسوع إلى مخدع الفتاة برفقة بطرس ويعقوب ويوحنّا وأبي الفتاة وأُمّها وجدّتها، وطلب أن يؤتى إليه بغصنٍ صغيرٍ وبماءٍ في وعاءٍ، فباركها جميعها. وكان جسد الفتاة متجمّدًا وأشدّ تشويهًا من المرّة

الفائتة. فقد كانت قد ماتت حقًّا، ولم تكن مجرّد نائمة. وصلّى يسوع ورشّها بالماء وأمسك بيدها، وصاح: "أيّتها الفتاة انهضي!" ففتحت عينيها، وهبّت من سريرها واقفةً، وسلّمها يسوع لذويها الذين خرّوا ساجدين، شاكرين، مذرّفين الدموع، وأمر الربّ بإطعامها فجاؤوها بخبزٍ وعنبٍ، فأكلت وتكلّمت. وحينئذٍ حرّض يسوع ذويها على تلقّي النعمة التي منّت عليهم بها الرحمة الإلهيّة، بعرفان الجميل، وبالتخلّي الكلّي عن المظاهر العالميّة الباطلة، وعلى ممارسة التوبة، والتحاشي عن تربية ابنتهم تربيةً تفضي بها إلى الهلاك. وندّد بسلوكهم، وبالطريقة التي واجهوا بها النعمة في المرّة السابقة، وبالأحاديث الماجنة التي أفضت بابنتهم إلى موتٍ أدهى، وهو موت النفس. وكان تأثّر الفتاة من العمق بحيث فاضت دموعها. وحذّرها الربّ من شهوات الجسد والنظر، وفيما كانت تتناول طعامها، حذّرها من العيش بعدئذٍ وفق الحواسّ، بل، بالحريّ أن تتغذّى بخبز الحياة، أي بكلام الله، وأن تتمرّس بالتوبة، والإيمان والصلاة، وممارسة أعمال الرحمة. وكان تأثّر ذويها عميقًا، وكان تحوّلهم جذريًّا. ووطّن يائير العزم على هجر كلّ شيءٍ واتّباع يسوع، وفي الحال وزّع قسمًا كبيرًا من ثروته على الفقراء،وعزم سائر أفراد أسرته على إصلاح ذواتهم وسلوكهم.

وكان قد تجمّع خلقٌ كثيرٌ حول المنـــزل، فأوصى يسوع يائير بعدم إذاعة تلك المعجزة. هذه التوصية التي أَلِف أن يقدّمها لكثيرين، كان يستهدف منها غاياتٍ عديدةً: اجتناب الثرثرة، والتباهي بالنعمة الممنوحة، ولكيلا يطغى التأثّر على التأمّل في عظمة رحمة الله. فقد كان يسوع يبتغي أن تعيد نعمةُ الشفاء الناسَ إلى ذواتهم، وإلى السعي لخلاصهم، عوضًا عن الاستفادة من الصحّة المستعادة من أجل العودة إلى الخطيئة. وفضلاً عن كلّ ذلك كان يسوع يبتغي إقناع تلاميذه بالزهد في كلّ مجدٍ باطلٍ، وأداء عمل الخير بدافع المحبّة وتمجيد الله فحسب. وفوق كلّ ذلك كان يجهد في إبعاد الفضوليّين والمفتقرين إلى الإيمان الذين يلتمسون الشفاء، امتحانًا لقدرات الربّ، أو يستخدمونه من أجل الإمعان في الخطيئة.

أشفيةٌ في كفرناحوم وتطويبٌ لأمّ يسوع

غادر يسوع من بابٍ جانبيٍّ تفاديًا للزحام، وكان أعميان ومرافقوهما يترصّدان مروره. فانطلقا يصيحان: "يا ابن داود ارأف بنا!". ولكنّ يسوع كان قد اقترب من بيت أحد أتباعه فدخله، وما لبث أن لحق به الأعميان وهما ما انفكّا يهتفان: "يا ابن داود ارحمنا" وسألهما يسوع، ممتحنًا إيمانهما: "هل تؤمنان أنّي قادرٌ على تلبية رغبتكما؟" فقالا "أجل، يا ربّ!" حينئذٍ سكب في كفّه مزيجًا من بلسمٍ وزيتٍ وخلطهما بقليل من التراب، ثمّ دهن بهذا المزيج عيونهما قائلاً: "ليكن لكما ما رغبتما فيه". وفي الحال رأيا. فسجدا أمامه شاكرين، ولكنّه حذّرهما من إذاعة نبأ شفائهما، تفاديًا للزحام الشعبيّ ولإثارة غيظ الفرّيسيّين. غير أنّ كثيرين كانوا قد سمعوهما يسعيان وراءه، مستغيثين، واستدلّوا على مكانه، ومن جانبهما لم يستطع الأعميان كتمان سعادتهما باستعادة النظر لهما، فرويا ما جرى لكلّ من صادفهما، فتدافعت الجموع نحو صانع المعجزات.

وما كاد يسوع ينعم بلحظات راحةٍ، حتّى وافى وفدٌ من أقربائه المقيمين في الجوار، يجرّون رجلاً يسكنه شيطانٌ أخرس، ويدفعه إلى هياجٍ مريعٍ، وإلى تظاهراتٍ بذيئةٍ، فاضطرّوا إلى تقييد يديه، وجرّوه بحبالٍ حول عنقه. وكان ذلك الرجل فرّيسيًّا، وعضوًا في لجنةٍ كُلِّفت بترصّد يسوع وإشاعة التخرّصات عنه بغية تشويه سمعته، وكان قد سبق له أن جادل يسوع، وإذعانًا لأوامر رؤسائه الفرّيسيّين أشاع أنّه فاقد العقل، وأنّه يستغيث بشياطين للقيام بأعمالٍ خارقةٍ، وفضلاً عن كلّ ذلك كان الرجل عبدًا للفسق.

ولّما شاهد يسوع داخلاً انتابته نوبة عنفٍ، فثار، وهمّ بالبصق في وجه الربّ، ولكنّ يسوع بإيماءةٍ من يده، جمّده في مكانه، ثمّ أمر الشيطان بالخروج منه. فاختلج الرجل، وخرج من فمه بخارٌ أسود، ثمّ هوى على ركبتيه، واعترف ليسوع بكلّ أخطائه، سائلاً الغفران، فصفح الربّ عنه، وفرض عليه كفّارة الصوم والصدقات، والامتناع، وقتًا محدّدًا، عن بعض الأطعمة، مثل الثوم، الذي كان اليهود كلفين به.

وكان لهذا التحرير وقعٌ مدوٍّ، إذ كان سائدًا الاعتقاد أنّ الشياطين الخرساء هي الأخطر، والأشدّ استعصاءً، وكانت ثلّةٌ من الفرّيسيّين قد جهدت سدًى في تحرير الرجل من شيطانه، ولم يقوَ على تحريره سوى خصمهم. وزاد من غيظهم أنّ ذلك المسكون، وهو أحد أزلامهم، اعترف له بكلّ مؤامراتهم الخسيسة. وسرعان ما انتشر نبأ ذلك الشفاء الخارق في كلّ كفرناحوم، فانطلقت كلّ الألسنة تعترف: "لم يُشاهَد قطّ مثل هذا في إسرائيل". غير أنّ الفرّيسيّين في عنجهيّتهم وعنادهم الأعمى، وحنقهم القاتل ما انفكّوا يدّعون أنّ يسوع يطرد الشياطين مستعينًا برئيس الأبالسة.

واغتنم يسوع سانحة وجوده في كفرناحوم كي يزور قائد المئة كورنيليُس، ويبشّر كلّ أهل بيته وخدمه ويثبتهم في إيمانهم. وزار أيضًا بيت يائير معزّيًا، مشدّدًا الجميع، ولا سيّما الابنة التي أعادها إلى الحياة، والتي أوصاها بالخلوة، والصلاة، والطاعة، والعفّة. وقد تبيّن للربّ أنّ جميع أفراد تلك الأسرة قد ارتدّوا إلى السراط القويم.

شخص يسوع إلى بيتٍ على مقربةٍ من باب المدينة، وتحدّث عن المعمدان، مسهبًا في مديحه أكثر ممّا كان يفعل سابقًا، مؤكّدًا أنّه طاهرٌ طهر ملاكٍ، وأنّ لا دنس دخل يومًا فمه أو خرج منه، ولم يرتكب قطّ خطيئةً. واستفسر منه التلاميذ هل سيبقى يوحنّا طويلاً على قيد الحياة؟ فأجابهم أنّه سيموت حين ستأزف ساعته، وأنّ هذه الساعة باتت قريبةً، فاغتمّ التلاميذ لذلك.

وبعد أن علّم في المجمع، انفرد بتلاميذه كي يثقّفهم حول ما جاء في تطويباته، ولا سيّما حول الزنى والقَسَم الباطل، والصراحة، والاقتصار على قول نعم أو لا.

ولكنّ حقد الفرّيسيّين لم يكن يدع لخبثهم هدنةً، فعادوا يحيكون المؤامرات للإيقاع بيسوع، وكان رجلٌ متيبّس اليد قد اقترب من المجمع آملاً في نيل الشفاء، ولكنّ الفرّيسيّين حذّروه من التماس غوث يسوع، فظلّ بعيدًا، حتّى بعد انصرافهم. ولكنّهم عادوا، بعد فترةٍ وجيزةٍ، وقالوا ليسوع: "ههنا رجلٌ به علّةٌ، قد تكون راغبًا في شفائه". وكانوا ينظرون إلى الرجل على أنّه ضالٌّ وسيّء

السمعة، وقالوا عنه علنًا: "إنّ اعتلال يده وتيبّسها لم يردعاه عن الخطيئة"، ولكنّ يسوع قال للرجل: "انهض وقف وسط المجمع". ثمّ قال له، متحدّيًا الفرّيسيّين: "مغفورةٌ لك خطاياك". ثمّ أمسك بيده، وقوّم أصابعه، وقال له: "مدّ يدك". فمدّها، وكانت قد برئت. فشكر يسوع ومضى. وحرّض يسوع على إنصافه فأعلن أنّه، مع ضعفه وهفواته، طيّب القلب.

وازداد الفرّيسيّون حنقًا وخزيًا، فاستفاضوا في وصف يسوع بمدنّس السبت، وهدّدوا بالادّعاء عليه، ومضوا إلى جماعةٍ من الهيرودسيّين كي يتّفقوا على خطّةٍ للقضاء عليه في أورشليم، بمناسبة الفصح.

وفي يومٍ آخر كان يسوع يثقّف تلاميذه حول التطويبات، وكان بين الحضور عددٌ من النساء، ومنهنّ المدعوّة "ليا"، وهي قريبةٌ للنازفة التي شفيت من جرّاء لمس طرف ثوب يسوع، ومع أنّ زوجها الفرّيسيّ كان من أكثر خصوم يسوع ضراوةً، إلاّ أنّ أقوال يسوع كانت قد نفذت إلى أغوار نفسها، وكانت تتحرّق رغبةً في إظهار تقديرها للربّ، وفي هذه الأثناء دخلت إلى الساحة التي كان يعلّم فيها يسوع أُمّه العذراء مصحوبةً بمرافقاتها، عائداتٍ من السفر، وما أن رأتها "ليا" حتّى لم تتمالك نفسها عن الهتاف، على الملأ، بكلّ اندفاع قلبها، معلّقةً على قول يسوع: "طوبى لأنقياء القلوب...": "بل أكثر جدارةً بالطوبى البطن الذي حملك، والثديان اللذان أرضعاك". فرمقها يسوع بعطفٍ، وقال: "بل أجدر بالطوبى من يُصغون إلى كلمة الله ويحفظونها". وهل أكثر من العذراء إصغاءً إلى كلمة الله التي سكنت فيها، نجيّةً لها؟ وحينئذٍ دنت "ليا" من العذراء التي لم تكن قد سمعت هتافها وتطويبها لها، وروت لها، وهي تفيض فرحًا، كيف شفيت أرملة أخيها، بمجرّد لمسها طرف ثوب يسوع، وباحت لها بقرارها التبرّع بكلّ ما تملك لجماعة يسوع، ثمّ التمست من العذراء أن تطلب من ابنها ردّ زوجها إلى دروب الحقيقة. وأجابتها العذراء بعذوبةٍ وهدوءٍ، وما لبثت أن انسحبت مع مرافقاتها.

كانت مريم العذراء تسوق حياةً فائقة البساطة، والسكون، والعذوبة والعطف. ولم تكن تندفع إلاّ لخدمة المرضى والمهمّشين، وكانت تحظى باحترام الجميع، حتّى خصوم ابنها، ولكنّها كانت تؤثر العزلة والصمت، والنأي عن الجموع.

المقتضى من أتباع يسوع، والسلطات الرومانيّة تراقب يسوع

العديد من الكتبة التمسوا اتّباع يسوع، فحذّر أحدهم من أنّه لا يملك ما يسند إليه رأسه. وكان آخر قد استعجله في الجلوس على عرش داود، وإرساء مملكته بعد أن ثبّت رسالته، فأطلعه الربّ على حقيقة ملكوته ودعاه إلى اتّباعه، فاستمهل الكاتب ريثما يودّع أهل بيته، فأجابه يسوع: "إنّ من يلتفت إلى الوراء، بعد أن يكون قد أمسك بالمحراث، ليس جديرًا بملكوت الله". ودعا يسوع آخر، فاستمهل ريثما يدفن أباه، وربّما كي يسويّ قضيّة الإرث، فأجابه يسوع: "دع الموتى يدفنون موتاهم".

وفي اليوم التالي توقّل في الجبل، حيث ألف التعليم، وفسّر لتلاميذه التطويبة الرابعة وقول النبيّ أشعيا: "هوذا خادمي الذي اخترته، حبيبي الذي رضيتْ عنه نفسي. سأضع روحي عليه، فيعلن الحقّ للأمم". كان الجمع على الجبل غفيرًا، وقد اندسّ بينه جندٌ مكلّفون بمراقبة أفعال نبيّ الناصرة وأقواله، وبتدبيج تقارير بها.

وبعد الظهر وافى مع فئةٍ من تلاميذه إلى وادٍ، حيث كان تلاميذ آخرون قد أعدّوا، بمساعدة مرتا وسوسن، وزوجتي بطرس وأندراوس وأُخريات، مائدةً قوامها الخبز والسمك، مودعَيْن في سلالٍ، منشورةٍ في جميع الجهات، وجاء يسوع فبارك السلال وأمر بتوزيعها على الراغبين، وكان الجمع المنتشر على التلال يتناول منها ما يشاء. ومع إنّ كمّيّة الطعام لم تكن كافية لإشباع كلّ تلك الجماهير، غير أنّ كلّ من طلب منه كان يحصل على أكثر ممّا يبتغي، ما جعل الشعب يتهامس: "ألا ترون أنّ الطعام يتكاثر بين يدي يسوع؟".

وقد طلب الجنود الشاهدين على ذلك بعضًا من الخبز والسمك الذي باركه يسوع، فتناولوا منه كفايتهم، ووضّبوا قسمًا منه كي يرسلوه إلى السلطات الرومانيّة، شهادةً على ما رأوا وسمعوا، ودعمًا لتقاريرهم.

يسوع في موطن الجرجسيّين

يومًا فيومًا، كان يسوع يُعدّ تلاميذه لرسالتهم العتيدة، وقال لهم: "الحصاد وفيرٌ، ولكن قليلون هم العاملون في الكرم، وأنا أريد أن أُرسلكم للعمل فيه". واختلى بالاثني عشر في مكانٍ مخضوضلٍ، وبدّل اسم سمعان إلى صخر، لأنّه كان عازمًا على جعله حجر أساس كنيسته، وأطلق على يوحنّا ويعقوب ابني زبدى لقب "أبناء الرعد"، بسبب اندفاعهما. وأوصى الجميع بالتزام جملةٍ من الفضائل، لأنّه كان عازمًا على منحهم قدرة إجراء أشفيةٍ معجزةٍ، وطرد الأرواح الشرّيرة باسمه. ولكي يوطّد فيهم الثقة، ويحرّرهم من كلّ خوفٍ، وعدهم بأن يكون دائمًا إلى جانبهم، وأن يقاسمهم كلّ شيءٍ. وأوعز إلى سائر الرسل أن يعمّدوا ويكرّسوا بوضع اليد، وفيما كان يُرفق منحهم هذه السلطات بمباركتهم، وكانوا هم يبكون تأثّرًا، وينقلون إليه عدوى تأثّرهم. وبغيةَ إعدادهم للمستقبل القاسي أنبأهم أنّ زمن تحقيق رسالته قد دنا، فعليهم الشخوص إلى أورشليم. وإذ كانوا يضجّون اندفاعًا، ويؤكّدون أُهبتهم للوفاء في كلّ أمرٍ، وكلّ ظرفٍ، حذّرهم من الأيّام العصيبة المقبلة، ومن تسرّب روح الشرّ إلى بعضٍ منهم، مشيرًا إلى يهوذا. وفيما هم يتحدّثون انتهوا إلى السفينة فامتطوها، وكان إلى جانب الربّ والإثني عشر، خمسةٌ من التلاميذ، أحدهم هو "ساتُرنان". وأرسوا سفينتهم في منطقة الجرجسيّين، على مقربةٍ من قرية مجدلا.

وما إن انحدروا إلى اليابسة حتّى تدافعت إليهم ثلّةٌ من المسكونين بأرواحٍ شرّيرةٍ يصيحون، ويتساءلون عن سبب مجيء يسوع إليهم، ويرجونه أن يدعهم وشأنهم. فحرّرهم يسوع، وعادوا ساكنين إلى القرية، يزفّون بشرى خلاصهم لذويهم،

ويمجّدون الربّ. وبيّن يسوع لتلاميذه أنّ كثرة عدد المسكونين بأرواحٍ شرّيرةٍ في تلك القرية، يعود إلى أنّ سكّانها هم عبيد أهوائهم ورذائلهم. وكان كثيرون منهم يجوسون حقول الجوار، أو يتوارون في الكهوف والمغاور والمقابر.

وجاب القريةَ كلٌّ من بطرس واندراوس ويعقوب ويوحنّا، وآخرون فشفوا مرضى، وحرّروا مسكونين بأرواحٍ شرّيرة، ونساءً مصاباتٍ بتشنّجاتٍ هستيريّةٍ، وطردوا شياطين باسم يسوع الناصريّ الذي تخضع لأوامره العواصف والبحار، وتفرّ أمام اسمه الأبالسة. وفيما كان الرسل عاكفين على هذه المهامّ الخلاصيّة، جاء يسوع إلى مدخل قرية مجدلا، وشفى العديد من أصحاب العلل. ثمّ توقّل في الجبل، شرقًا، فقابله شابّان مبتليان بمسٍّ شيطانيٍّ، وتعتريهما، بين حينٍ، وآخر، نوبات هياجٍ، وكانا لا يكفّان يجوبان البراري مضطربين. وكانا قد سبق لهما أن التمسا من يسوع أن يضمّهما إلى جماعته، ولكنّه ردّهما آنذاك. وأخبراه أنّ المسكونَيْن بأرواح اللذين كانا قد استدعياه لشفائهما، فأرجأ تلبية طلبهما، اضطرّ السكّان إلى تقييدهما، ولكنّهما كانا يحطّمان قيودهما، وهما دائما الهياج، ويذرعان المنطقة ناشريْن الرعب في القلوب. وادّعيا أنّه لو استجاب لطلبهما لما صارا إلى هذه النهاية البائسة. ولكنّ يسوع دحض ادّعاءهما، قائلاً: "لو لم ترتكبا الخطايا، مستسلمين للفسق لما تردّيتما إلى هذا الدرك". ثمّ حرّضهما على التوبة، والارتداد عن الشرّ، والعودة إلى مجتمعهما، وإعلان شفائهما وتحوّلهما. وفيما كان يسوع يواصل مسيرته بين الأكواخ والحظائر، كان العديد من المسكونين يطلّون من خلف الأسيجة، ويصيحون مطالبين بعدم الاقتراب منهم، وتركهم وشأنهم. ولكنّه كان يحرّرهم من شياطينهم، رغم توسّلات شياطينهم ألاّ يلقي بهم في الهاوية.

وبعد ظهر ذلك اليوم علّم جمعًا غفيرًا، وكان محاطًا برسله وتلاميذه، ودعا القوم إلى التوبة، وبشّر باقتراب حلول ملكوت الله، وآخذًا عليهم تشبّثهم بالخيرات الأرضيّة، مؤكّدًا أنّ لنفس الإنسان في نظر الله قيمةً أسمى من كلّ ما قد يستطيع البشر امتلاكه على الأرض.

وحذّره أهل القرية من المرور بالوادي في أثناء عودته، لأنّ هناك مسكونَيْن بشياطين، عنيفَيْن، قد حطّما قيودهما، يطوفان عاريين على الطرقات، وقد سبق لهما القيام بالعديد من جرائم القتل. ولكنّ يسوع أجابهم أنّه، من أجلهما، بالتحديد، سيسلك ذلك الطريق، في الوقت المحدّد، لأنّه إنّما جاء لغوث البائسين. وعندما همّ بمغادرة القرية رجاه أهلها المكوث معهم، لأنّهم لم يسمعوا، قطّ، كلامًا مؤثّرًا مثل كلامه، ولكأنّ شمسًا ساطعةً أضاءت قريتهم الغائمة المعتمة. وحاولوا إقناعه بالبقاء معهم بحجّة أنّ الليل سيخيّم قريبًا. ولكنّ يسوع ردّ بأنّ ظلمة الليل لا تخيفه، بل إنّ عليهم أن يخشوا الإقامة في ظلماتٍ أبديّةٍ، بعد أن جاء إليهم نور كلام الله.

انحطاط أهالي تلك المنطقة كان يعود إلى عاملَيْن أساسيّين: الإدمان على مخدّراتٍ ناتجةٍ عن عشبةٍ كانت تنبت في حقولهم، وكان تعاطيها يوقظ غرائز الفسق، ويحدث تشنّجاتٍ واختلاجاتٍ وبيلةً، أمّا السبب الثاني فتمثّل في انتشار أعمال السحر وشيوعها.

وفيما كان عددٌ من الرسل دائبين على شفاء المرضى، امتطى يسوع وعددٌ آخر من التلاميذ قاربًا، اجتاز بهم النهر إلى الضفّة الأُخرى وتوقّلوا في الجبل، وإذ برجلَيْن هائجَيْن، عاريَيْن، مشعّثي الشعر، يجريان في كلّ اتّجاهٍ، ويتقاذفان بالحجارة، ولا يكفّان يدخلان إلى القبور حاملين عظامًا يتراشقان بها، مرسلين صيحاتٍ حادّةً. ولمّا دنا منهما يسوع بدا وكأنّ سحرًا لجمهما، فلبثا في مكانهما، وراء صخورٍ وأسيجةٍ. ورأياه فانطلقا يصرخان: "أيّتها القوّات، أيّتها السلطات، أغيثينا، فها هوذا من هو أقوى منكنّ". ومدّ يسوع يده نحوهما وأمرهما بالانبطاح، فارتميا معفّرين وجهيهما بالتراب، ساترين عريهما. ثمّ رفعا رأسهما وأخذا يصرخان: "ما لنا ولك يا يسوع ابن الله العليّ. وهل جئت قبل الأوان لكي تعذّبنا؟ نستحلفك ألاّ تعذّبنا!". وعندما دنا منهما يسوع وتلاميذه اعترتهما الرجفة، وارتعدت فرائصهما. وأوعز يسوع إلى تلاميذه بإلباسهما ثيابًا، وأمر

المسكونين بارتدائها، فرمى لهما التلاميذ أنسجةً كانوا يلفّونها على أكتافهم أو يغطّون بها رؤوسهم، فاتّزرا بها، بحركاتٍ هستيريّةٍ تنمّ عن امتعاضهما. ثمّ وقفا، وعادا يتوسّلان يسوع ألاّ يعذّبهما، فسألهما: "كم عددكم؟" فأجابوا: "جوقة". وبذلك كان الشياطين يعترفون، بلسان الرجلين، أنّ طوائف من الرغبات الشرّيرة تكمن داخلهما. وفي الواقع كان ذانك الرجلان يمارسان منذ سنواتٍ، أكثر أنواع السحر خبثًا، ويرتكبان أقبح الجرائم.

وكان في المكان دنٌّ خشبيٌّ ضخمٌ يعصر فيه الجرجسيّون العنب، ويخلطون عصيره بعشبةٍ مخدّرةٍ، وكان ذلك المزيج يذهب بعقول شاربيه، ويحدث فيهم نوبات صرعٍ، وانخطافاتٍ شيطانيّةً. وكان تصنيع هذا الشراب يتمّ في الهواء الطلق، وينشر أبخرةً خطيرةً. ويومذاك كان العصّارون قد حضروا للشروع بعملهم فأمر يسوع جوقة الأبالسة بطرح الدنّ ومحتواه أرضًا، فانقضّوا عليه، وألقوه، وأتلفوا كلّ محتواه على الأرض، فلاذ العصّارون بالفرار، مطلقين صيحات الرعب. وارتعب تلاميذ يسوع، أيضًا، وهم يرون الرجلين الممسوسين يقتربان منهم وهما ما برحا متشنّجين، مرتعشين، والأبالسة تصيح من فمهما، متوسّلين الربّ ألاّ يرميهما في الهاوية، بعيدًا عن تلك المنطقة، بل الاكتفاء بإدخالهما إلى قطيع الخنازير المنتشر هناك. فأجابهم: "ادخلوا فيها". وحينئذٍ اطّرح الرجلان المسكونان أرضًا، وهما يختلجان اختلاجاتٍ عنيفةً مريعةً، وخرجت من فميهما أبخرة وأشكال حيواناتٍ مقزّزةٍ.

وما هي سوى لحظاتٍ حتّى أخذت قطعان الخنازير تتراكض في كلّ اتّجاه، بسرعةٍ فائقةٍ، مطلقةً نخيرًا مريعًا، ورعاتها يلاحقونها بصيحاتٍ مجنونةٍ، محاولين إيقافها. وكانت آلاف الخنازير تخرج من كلّ الزوايا، وترتمي في البحيرة متصادمةً، متبادلةً العضّ، عاكسةً صورةً للفظائع والأرجاس، والفوضى، والكراهيّة التي يهوي إلى مستنقعها المجتمع الذي يسيطر عليه روح الشرّ، والبعاد

عن الله. ولكأنّ قصف رعودٍ كان يمتزج بخوار حيواناتٍ هائجةٍ، وقد استمرّت تلك الجلبة ساعتين.

وألقى حرّاس الخنازير تبعة الخسارة الجسيمة التي حلّت بأسيادهم على يسوع الذي ردّ عليهم بقوله: "ليس لكلّ خنازير الدنيا أيّة قيمة مقابل خلاص نفسيْن. إذهبوا وأخبروا أسيادكم أنّي أنا من طرد الشياطين وأرسلها إلى الخنازير، بعد أن سيطرت الشياطين على أبناء هذه البلدة من جرّاء زندقتهم. ثمّ أمر المسكونَيْن المحرّريْن بارتداء ملابس، ودخل مع تلاميذه إلى القرية، حيث كان احتشد أصحاب قطعان الخنازير وخلقٌ غفيرٌ، تقاطروا من كلّ صوب. وحضر، أيضًا، أصحاب معصرة العنب الذين كانوا يمزجون عصيرها بمخدّر ينشر الشرور والويلات، شاكين انقطاع رزقهم الحرام راجين إنقاذ شيءٍ منه، وامتدّت جلبتهم حتّى الليل. ولكنّ يهود المنطقة وفئةً من وثنيّيها أحاطوا بيسوع، فبشّرهم من فوق تلّةٍ. غير أنّ أسياد القرية وكهنتها جهدوا في إبعاد القوم عن يسوع، مدّعين أنّه ساحرٌ خطيرٌ، وأنّ وجوده سيكون مدعاة وبالٍ، وكوارث جمّةٍ. وبعد التداول أنفذوا إلى يسوع وفدًا يعترف له بقدراته، وفي الآن عينه يدعوه إلى مغادرة بلدهم. لقد شقّ عليهم فقدان ثروة خنازيرهم واندلاق خمرهم، ولكنّ رؤيتهم للرجليْن المحرّريْن، لابسيْن، ساكنيْن، بعد أن كانا ينشران الرعب في كلّ أرجاء المنطقة، كان يدخل إلى نفوسهم الخشية والوجل. وطمأنهم يسوع بأنّ أمد إقامته بين ظهرانيهم لن يطول، ولكنّه لم يتوانَ عن التنديد بسلوكهم المشين، وأفعالهم الشيطانيّة الإجراميّة، وفسقهم، ورباهم، وعبادتهم للأبالسة. وشجب سلوك نسائهم اللواتي يمارسنَ شتّى الموبقات سرًّا. وقدّم لمن شاء فرصة خلاصٍ من خلال التوبة والعماد. ولكن كلّ ما كان يعنيهم، في تلك اللحظة، هو الخسائر التي منيوا بها، فاكتفوا بدعوته، مرتعدين، إلى النأي عنهم.

وكان الأشدّ تأثّرًا بهذا الحدث وتعاطفًا مع الجرجسيّين يهوذا الإسخريوطيّ الذي سبقت له الإقامة مع أُمّه في تلك القرية، وحيث كان قد عقد أواصر صداقةٍ مع المسكونين اللذين حرَّرهما الربّ. وقد ثقَّف يسوع الذين شفاهم وحرَّرهم، فنالوا

العماد على يد تلاميذه، ورجوا يسوع أن يضمّهم إلى جماعته. وحينئذٍ أوعز الربّ إلى المسكونيْن المحرَّرين أن يطوفا كلّ قرى الجرجسيّين، ويرويا ما حدث لهما، وما شاهدا وسمعا، ويدعوا القوم إلى التوبة والعماد، ويرسلاهم إليه. فإن هم أدّيا هذه المهمّة سيهبهما روح النبوّة لكي يعلمهما، في كلّ لحظةٍ، مكان وجوده، وقدرة شفاء المرضى باسمه. فخفّا، في الحال، لأداء المهمّة، وأصبحا لاحقًا من تلاميذه.

وعندما انفرد مع تلاميذه أكّد لهم أنّ إتلاف الخمرة الشرّيرة، والقضاء على الخنازير إنّما كانا من أجل إيقاظ الوثنيّين على ضلالهم، وتحذيرهم من مغبّات شرورهم، ولكي يفطنوا إلى خلاص نفوسهم.

يسوع يسير على الموّج ويفحم الفرّيسيّين

أوعز يسوع إلى تلاميذه أن يبحروا نحو بيت صيدا، واعتكف ليصلّي، وعند منتصف الليل غادر الجبل سائرًا بين صخوره الحادّة، وركب الموج وانطلق يسير عليه، كأنّه يسير على اليابسة، في هذه الأثناء كان تلاميذه يصارعون الريح المعاكسة، وقد هدّهم التعب، وأخذ بهم الخوف، وتنامى خوفهم عندما رأوا فوق الأمواج طيفًا يشبهه، فارتعبوا وأخذوا يصرخون.

وسارع يسوع إلى تهدئة روعهم هاتفًا: "اطمئنّوا، هذا أنا لا تخافوا". وانبرى بطرس قائلاً: "إن كان هذا أنت، فمرني أن آتي إليك ماشيًا فوق الماء"، وأجابه يسوع: "تعال". واندفع بطرس منحدرًا، وسار مدى لحظاتٍ فوق الأمواج المتحرّكة وكأنّه فوق أرضٍ صلبةٍ، ولا يتعثّر مع ارتفاع الأمواج وهبوطها. ولكن فكره سرعان ما مال عن كلمة يسوع، وانصبّ على عنف الريح والموج، فارتعب، وأخذ يغرق فصاح مستغيثًا: "أنقذني، يا ربّ!"، وكانت المياه قد غمرته حتّى عنقه، ومدّ الربّ يده، وانتشله، معاتبًا: "يا قليل الإيمان، لمَ شكّيت؟" وفي الحال وصلا إلى السفينة واعتلياها، وأنحى يسوع بالملامة على بطرس وسائر التلاميذ بسبب استسلامهم للخوف. وفورًا هدأت الريح، واتّجهت السفينة إلى بيت صيدا.

وكان قد ذاع في بيت صيدا خبر تحرير المسكونيْن الجرجسيّين الخطيريْن، ونبأ قدوم يسوع، فما إن وطئ اليابسة حتّى هرع إليه أعميان، متعاونيْن، مستغيثيْن، فشفاهما وشفى العديد من العرج والصمّ، وحيثما اتّجه كان الشعب يحاصره ويأتيه بمرضاه، وكان كثيرون ينعمون بالشفاء بمجرّد لمس طرف ثوبه. وفي هذه الأثناء عكف التلاميذ على تعميد من كانوا قد نالوا الشفاء.

وبما أنّ الربّ لم يكن يمنح نفسه فسحةً للراحة أو لتناول الطعام، فقد أقبل التلاميذ يرجونه أن يُعطي ذاته قسطًا من راحةٍ وغذاءٍ.

ثمّ يمّموا شطر كفرناحوم، فجيء إلى يسوع برجلٍ يسكنه شيطانٌ أبكم وأعمى، وما كاد يشعر بدنوّ يسوع منه حتّى انطلق لسانه فهتف: "يا يسوع ابن داود ارحمني". فشفاه في الحال. وكان ذلك المسكين قد عاشر سحرة الجرجسيّين، فاستولوا عليه، وباتوا يجرّونه بحبلٍ، كي يُروا الناس أنّهم قادرون على جعله يقوم بكلّ ما يأمرونه بفعله، ويستوفون بعض مالٍ لقاء هذه الفرجة. ومع ذلك كانوا يُخضعونه لشتّى ضروب المهانة، ولا يحيطونه بأيّ اهتمام، ويستغلّونه بلا رحمةٍ، ولم يكن له من مأوى سوى الحُفَر والقبور. وكان قد وصل قبل أيّامٍ معدوداتٍ إلى كفرناحوم، ولكن لم يرضَ أحدٌ أن يقوده إلى يسوع، فجاء إليه بنفسه، ونعم بالشفاء والتحرُّر. هكذا يتعامل إبليس مع أتباعه بازدراءٍ ولامبالاةٍ، على نقيض يسوع الذي تدفعه رحمته إلى غوث كلّ بائسٍ ومنبوذٍ.

وفيما كان يسوع يعلّم مع بدء السبت، قامت في المدينة جلبةٌ، إذ كانت قد وصلت عدّة سفنٍ تقلّ يهودًا شهدوا معجزات يسوع وجاؤوا يروونها، ولكنّ فرّيسيّين كانوا يحاولون إقناع الشعب أنّ يسوع يُخرج الأرواح الشرّيرة بمساعدة أمير الشياطين. ولكنّ هذا القول أغضب الشعب الذي احتشد احتجاجًا أمام المجمع.

وكان كثيرون قد شاهدوا الرجل المسكون، وهو يجري كالمجنون، عبر الأحياء، مذ وطئ يسوع أرض كفرناحوم، باحثًا عنه، وكان كثيرون قد تبعوه وشهدوا

معجزة تحرّره الفوريّ من شياطينه وعاهاته، وأكبروها. ومن ثمّ لم يقووا على تقبّل ادّعاءات الفرّيسيّين الباطلة والمغرضة. وقد احتشدوا أمام المجمع، وأنذروا الفرّيسيّين بالكفّ عن تلفيق اتّهاماتٍ للنيل من يسوع، ومؤكّدين أنّ ما من نبيٍّ في كلّ تاريخ إسرائيل فعل ما فعله نبيّ الناصرة، وأنّ ادّعاءات الفرّيسيّين ليست سوى تخرّصاتٍ، ومجرّد تجديفٍ.

وأخذ الفرّيسيّون هذا الهجوم عليهم برحابة صدرٍ ماكرةٍ. وانبرى أحدهم، وهو مكتنـــز الجسم، ممعنٌ في السمنة، ولكنّه بارعٌ في تزويق الكلام وتشويه الحقائق، وابتدأ بالإقرار أنّ إسرائيل لم تشهد، قطّ، مثل أعمال يسوع، ثمّ شرع يدسّ السمّ في العقول، وأسهب في وصف فئات الشياطين وقدراتها، وتساءَل لَمَ لم يشفِ الناصريّ هذا الرجل الذي يقيم علاقات مع سحرة الجرجسيّين قبل زيارته أديار الجرجسيّين، وفسّر ذلك بادّعاء أنّ يسوع، بزيارته للجرجسيّين، عقد عهدًا مع أمير الأبالسة السائدين هناك، ورشاه بتسليمه قطيع الخنازير، وحينئذٍ، استطاع بمساعدة رئيس الشياطين "بعلزبوب"، تحرير الرجل.

ذلك الفرّيسيّ الماكر ألقى خطابه فارغ المحتوى، والمحشوّ نفاقًا وكذبًا بمهارةٍ، ثمّ أخذ على الشعب إهماله أعمالهم، في أيّام العمل، كي يسعوا وراء النبيّ ومعجزاته، وجعلهم من السبت مناسبةً للغط والضجيج. وكان الحريّ بهم أن يهدأوا ويستعدّوا للأعياد. وكان لخطابه تأثيرٌ على قلّةٍ من ضعفاء العقول.

وجاء يسوع إلى المجمع وعلّم، وأحجم الفرّيسيّون عن أيّ اعتراضٍ أو مقاومةٍ، خوفًا من الشعب. ولكنّه، إذ كان عالمًا بأكاذيب الفرّيسيّين حرص على دحضها بقوله: "كلّ مملكةٍ تنقسم على نفسها تتهدّم. وإن كان إبليس يهزم إبليسًا، فهو منقسمٌ على نفسه، فكيف لمملكته أن تقوم؟ وإن كنت أنا أطرد الشياطين بسلطة بعلزبوب، ترى بأيّ سلطةٍ يطردها أبناؤكم وعلماؤكم؟".

وخرج من المجمع بهدوءٍ.

يسوع يشدّد إيمان مرتدّين وأُسرهم، وانحطاط المجدليّة

قام يسوع، برفقة ثلّةٍ من تلاميذه بزيارة يائير وأسرته، واتّضح له التطوّر الجوهريّ الذي حدث في ذلك البيت، فقد غدا سكّانه مغرقين في التواضع، وقد شطروا ثروتهم إلى ثلاث حصصٍ، إحداها وُهبت للفقراء، وأُخرى وُقفت للكنيسة العتيدة، واكتفت الأسرة بالثلث الأخير. وبدت على أمّ يائير أمارات التوغّل في الطيبة والوداعة. أمّا الفتاة التي أعادها يسوع إلى الحياة، فلم تظهر إلاّ بعد أن دُعيت، محجّبةً، شديدة الخَفَر والحشمة والبساطة، وقد استعادت عافيتها.

ثمّ زار يسوع قائد المئة كورنيليوس، وثقّف أهل بيته وخَدَمَه، وبرفقته شَخَص إلى قائد مئة كفرناحوم، زرُبابل، وتطرّق الحديث إلى يوحنّا المعمدان، وإلى الاحتفال بذكرى مولد هيرودس، ودعوته وجوه المجتمع إليه، فسأل الضابطان يسوع هل يتعيّن عليهما تلبية تلك الدعوة التي تلقّياها، فأجاب يسوع أنّ بوسعهما قبولها إذا كانا واثقيْن من عدم مشاركتهما الشرّ الذي سيُقتَرف في هذه المناسبة، وإلاّ فالأجدر بهما الاعتذار، وقد أجمع ثلاثتهم على التنديد بالعلاقة الآثمة بين هيرودس وامرأة أخيه التي اتّخذها لنفسه زوجةً، وباعتقاله للمعمدان، غير أنّ الضابطين كانا يأملان أن تكون مناسبة الاحتفال سانحةً للإفراج عن المعمدان.

وكم كانت مؤثّرةً رؤية يسوع وهو يذرع الطرقات، بهدوءٍ ووقارٍ، ولكن ببساطةٍ وطبيعيّةٍ، وبمنأى عن كلّ تصنّعٍ وتظاهرٍ، وتمايُلٍ، وكلّ حركةٍ أو نظرةٍ نافلةٍ. فكان يخيّل لناظريه أنّه يحلّق فوق الأرض.

ثمّ عرّج يسوع على بيت أُمّه العذراء حيث كانت ثلّةٌ من النساء القدّيسات، ومنهنّ مرتا التي كانت قلقةً وحزينةً بسبب انتكاسة أختها المجدليّة، التي عادت فريسة إبليس الذي يوسعها انحطاطًا، ونوبات صَرَعٍ وتشنّجاتٍ، وسورات غضبٍ وجنونٍ، تجعلها تشتم وتضرب المحيطين بها، ولا سيّما خادماتها، كما تدفعها إلى ارتداء أزياء فاضحةٍ ومفرطةٍ في البذخ. وكانت تهوي أحيانًا إلى أعمق دركات

الكآبة والحزن، فتطوف بقصرها الشاسع منتحبةً، لاطمةً نفسها، باحثةً عن يسوع، شاكيةً: "أين هو المعلّم؟ لقد نبذني!" ثمّ لا تلبث أن تتردّى إلى أبشع مستنقعات الفجور، وتقيم المآدب الصاخبة، التي يتهافت إليها عشّاقها بتشجيعٍ من الرجل الذي كان يساكنها، والذي كان يبتزّ أموالهم.

كان الشرّير قد سيطر عليها وأخضعها للكبرياء، وحبّ التباهي، والغضب، والفسق، وشتّى أصناف الرذائل، ما جعل مرتا ترجو يسوع أن يمضي إليها ويحرّرها. ولكنّه ارتأى أنّ الأوان لم يحنْ بعد.

يسوع يثقّف تلاميذه قبل إرسالهم

لم يستبْقِ يسوع جميع التلاميذ الراغبين في الانضمام إليه. وكان بين هؤلاء العديد من الجرجسيّين المشرّدين، الذي رجوا، من خلال اتّباعه، الحظوة بما يقيم أودهم، ويضمن لهم شيئًا من الاحترام. ولا سيّما أنّهم كانوا يتوهّمون أنّ يسوع سيتربّع على عرش مملكةٍ أرضيّةٍ، وأنّهم سينعمون في بلاطه بالعزّ والرفاه. ولكنّه بيّن لهم أنّه لم يأتِ لإقامةِ مملكةٍ من هذا النوع، والأجدر بهم أن يعودوا إلى ديارهم وبيوتهم، ويتوبوا عن خطاياهم، ويلتزموا بوصايا الله. إذ لا مكان في ملكوته للخطأة. وعزف عن المكوث في كفرناحوم، بعد أن اشتدّ الازدحام وحماس الجموع من حوله. فاعتزم أن يأخذ معه ستّة رسلٍ واثني عشر تلميذًا، وأن يرسل إلى الجليل الأعلى الرسل الستّة الآخرين، مصحوبين بثمانية عشر تلميذًا، بعد أن باركهم، وكلّفهم بالتعليم، وأولاهم قدرة الشفاء، وطرد الشياطين.

غادر إذن كفرناحوم واتّجه شمالاً، يواكبه الرسل الاثنا عشر، وثلاثون تلميذًا، وجمعٌ غفيرٌ، وانضمّت إلى الموكب، في الطريق، جموعٌ أُخرى، فكان يتوقّف ويبشّرهم جميعًا، قبل أن يعيدهم إلى بيوتهم. وبعد أن صرف الجموع، توقّل في تلّةٍ مع رسله وتلاميذه، وزوّدهم بتعليماته، قائلاً: "ما كشفته لكم على انفرادٍ، أعلنوه على الملأ، مبشّرين باقتراب ملكوت السماوات، وبحلول الفرصة الأخيرة للتوبة، وبدنوّ أجل

يوحنّا المعمدان. عمّدوا، كرّسوا بوضع الأيدي، واطردوا الشياطين". وأرشدهم إلى أسلوب التصرّف حيال فضّ الخصومات، وطريقة تمييز الموالين المدفوعين بمصلحةٍ خاصّةٍ، والأصدقاء الزائفين، موضحًا: "في الوقت الراهن ليس فيكم من يفوق الآخرين، وحيثما حللتم، أقيموا لدى أبرار القوم، واكتفوا في عيشكم على الزهيد، ولا تكونوا عالةً على أحدٍ...". ومن جملة ما أوصاهم به أن ينطلقوا اثنين اثنين، مستصحبين عددًا من التلاميذ، بعد إرسالهم تلاميذ أمامهم يُعلِمون بقدومهم، ويدعون الأهالي للاستماع إليهم، وحذّرهم قائلاً: "الآن سيرحّبون بكم في كلّ مكانٍ، ولكن سيأتي وقتٌ ستتعرّضون فيه للاضطهاد". حينئذٍ جثوا أمامه، فصلّى ووضع يديه على الرسل مكتفيًا بمباركة التلاميذ. ثمّ قبّل بعضهم بعضًا، وافترقوا.

ولمّا انحدر عن الجبل وجد جمعًا غفيرًا يرحّبون به وبمرافقيه، فرحين. وعلى مقربةٍ من ذلك المكان كانت بئرٌ، وقد اجتمع حولها أعمى، وعُرجٌ كُثُرٌ يتوقّعون غوثه. وكانت عينا الأعمى قذرتين فأمره بغسلهما، ثمّ دهنهما بزيتٍ كان يحمل معه قارورةً منه، ثمّ انتزع غصنًا من شجرةٍ ووضعه أمام عينيه واستوضحه هل يرى شيئًا، فأجاب أنّه يرى شجرةً كبيرةً. وفرك يسوع ثانية جفنيه، واستوضحه عمّا يرى، فارتمى الرجل عند قدمي يسوع، يضجّ فرحًا، هاتفًا: "يا ربّ، إنّي أرى جبالاً، وأشجارًا، وبشرًا، أرى كلّ شيءٍ". وعادت الجموع بالأعمى إلى المدينة مطلقةً أهازيج الفرح. وشفى يسوع أيضًا سائر العرج والمقعدين الموجودين هناك.

شفاء الأعمى استولى على أذهان أهالي المدينة، ومنهم رؤساء المجمع، ومعلّمو المدرسة وطلاّبها. ووافى يسوع إلى المدرسة، وبإثره جمعٌ غفيرٌ، وروى أمثلةً كثيرةً، وعلّم التطويبات الثماني، وحرَّض مستمعيه على التوبة، وأشبع مُثُله تفسيرًا وإيضاحًا. وكان قد أوصى تلاميذه بالإصغاء اليقظ لكلّ كلمةٍ يتفوّه بها، لكي يستطيعوا نقل تعاليمه بدقّةٍ إلى القرى والبيوت. وكان الرسل ينتشرون برفقة تلاميذ في الجوار، فيعلّمون ويجرون الأشفية، وفي المساء يلتمّ شملهم حيث يكون يسوع، فيزيدهم علمًا.

في المجمع علّم يسوع عن الصلاة وعن المسيح. عن الصلاة بسَط وصفه للعبادة بالروح الحقّ. أمّا عن المسيح، فأكّد أنّه قد جاء، وأنّه مواطنٌ لهم، وأنّه هو يلقّن تعليمه. فألحّ عليه المستمعون كي يكشف عن حقيقته ويصرّح أنّه، حقًّا المسيح ابن الله، ومن أين أتى، وأنّ من يشاع أنّهم والداه ليسا كذلك في الواقع، فتملّص من الإجابة الصريحة قائلاً: "إن قلت لكم إنّي المسيح، أنا من يكلّمكم، لما صدّقتموني، متذرّعين بأنّي ابن أُناس تعرفونهم. وعلى أيّ حالٍ، فما عليكم سبر محتدي، بل تمعّن تعليمي وتقييم أعمالي: فمن ينفّذ مشيئة الآب هو ابنه، لأنّ الابن في الآب، والآب في الابن، ومن ينفّذ مشيئة الابن ينفّذ مشيئة الآب". وتكلّم عن ذلك الموضوع بأسلوبٍ ممعنٍ في الإقناع بحيث أعلن كثيرون: "أجل، يا ربّ، أنت المسيح! وأنت الحقيقة". وسجدوا أمامه عابدين. فقال لهم: "اعبدوا الآب بالروح والحقيقة".

صباح اليوم التالي، ردّ أيضًا على أسئلتهم، وروى مثل الزارع ومصير البذار الذي ينثره، ومثل الراعي الصالح، الساعي وراء النعجة الضالّة، وأكّد أنّ الراعي سيمضي قدمًا في أداء مهمّته حتّى يقضي أعداؤه عليه. وبعباراتٍ مفعمةٍ تأثّرًا وتأثيرًا أكّد أنّ فرح الحبّ يكمن في إنقاذ ولو نعجةٍ واحدةٍ.

وفيما كان سائرًا شاهد أعمى مسنًّا يقوده طفلان ابنا لاويّين، أعلماه بغتةً أنّ يسوع قادمٌ، فراح يصرخ من بعيدٍ: "يا يسوع ابن داود، ارأف بي وأغثني!" ولمّا انتهى الربّ إليه، خرّ أمامه، وقال: "يا ربّ، أنا موقنٌ أنّك ستعيد إليّ النظر. فلطالما انتظرتك، ولطالما آمنت أنّك ستأتي وتشفيني!". فردّ الربّ: "أنت تؤمن، فليكن لك بحسب إيمانك!". ثمّ جاء معه إلى أجمةٍ توجد فيها بركةٌ، فأمره بغسل عينيه. وكانت عيناه وأجفانه وجبينه مكسوّةً بقروحٍ وقشورٍ، فسقطت لمّا اغتسل. وحينئذٍ دهن يسوع عينيه وجبينه وصدغيه، فأبصر، وشكر يسوع الذي باركه وبارك الصبيّين المرافقين له، وتنبّأ لهما بأنّهما سيبشّران، يومًا، بكلمة الله. وعمّ الفرح كلّ أبناء المدينة.

صدامٌ في اليهوديّة

أخطر يسوع تلاميذه بعزمه على المضيّ إلى اليهوديّة، وكان أشدّ المتحمّسين لهذا المشروع يهوذا، الذي كان مؤمنًا بأنّ فرّيسيّي اليهوديّة هم أكثر توغّلاً في علم الشريعة، ومن ثمّ سيرتدي جدالهم قسطًا أوفر من العمق والصدام، ومن تأكيد تفوّق يسوع. غير أنّ سائر التلاميذ لم يشاركوه هذا الاندفاع، والربّ نفسه أنحى عليه باللائمة، قائلاً: "سيأتي يوم سترفض أنت ذاتك الإيمان بي".

عند مدخل مدينة "صفد" استقبله سكّانها، الذين أُعلِموا بقدومه، استقبالاً حافلاً وهم يُنشدون المزامير ويلوّحون بالأغصان. وغسلوا رجليه وأرجل تلاميذه، وقدّموا لهم طعامًا، ثمّ شخص إلى المجمع الغاصّ بالجموع، إذ كان يُحتَفَل بالسبت وبعيد الأنوار.

وكان في تلك المدينة العديد من الفرّيسيّين والصدّوقيّين والكتبة واللاويّين، وكانت هناك مدرسة شريعةٍ، يؤمّها العديد من الطلاّب، وكان قد سبق ليهوذا أن درس فيها، مدى سنتين. وقد اغتنم تلك السانحة لزيارة مدرّسٍ سابقٍ له، استغرب انتماءه لجماعة الناصريّ، غير أنّ يهوذا أسهب في الإشادة بيسوع وبتعاليمه وبأعماله المعجزة، بحيث أكره مدرّسه الفرّيسيّ على الصمت.

وكان قد اندسّ إلى تلك المدرسة فرّيسيّون من أورشليم، وتعاملوا مع أصحابها، من مدرّسين ودارسين بفوقيّةٍ وعنجهيّةٍ، ومع أنّ الاستقبال الحافل الذي لقيه يسوع في تلك المدينة قد راق لهم، وأشادوا بشهرته ومعجزاته، غير أنّهم حذّروه من تسبّب الفوضى والجلبة. ولكنّ يسوع ردّ اتّهامهم، وقال إنّهم هم الذين يزرعون البلبال ويشيعون الفضائح، وتحدّاهم في إثبات خرقه للشريعة، التي أرسله أبوه من أجل تنفيذها. وفيما كان يكلّمهم جاء سبعة رجالٍ كان يسوع قد أبرأهم من داء البرص، وطلب منهم أن يعرضوا شفاءهم على الكهنة، وقال يسوع للفرّيسيّين:

"هؤلاء قد شفوا من برصهم، فورًا، وفي لحظةٍ، وبمشيئةٍ إلهيّةٍ، وليس بفضل طبٍّ بشريٍّ، لم يكونوا ملزمين بالتماس شهادتكم، ومع ذلك، احترامًا للشريعة طلبتُ منهم أن يقدّموا لكم ولحماة الشريعة الدليل على شفائهم". هذا القول أثار غيظ الفرّيسيّين وحنقهم، مثلما أثار شفاء البرص نقمتهم وإحباطهم، ولكنّهم كتموا كلّ ذلك، وأكبّوا على معاينة الذين حرّرهم يسوع من البرص بدقّة، واضطرّوا مكرهين على إعطائهم شهادة شفاء.

وكان قد جيء منذ الصباح إلى البيت الذي حلّ فيه، بأعدادٍ من المصابين بمختلف العلل والعاهات، وكان الفرّيسيّون متذرّعين بحجّة أنّ مجيئهم هو انتهاك لحرمة السبت، قد جهدوا عبثًا في ردّهم، ومنع توافدهم الذي لم يفتر، وطاف يسوع بجميعهم وشفاهم، واحدًا، واحدًا، مستخدمًا لكلّ علّة وسيلة شفاءٍ تلائمها، وزوّد كلاًّ منهم بالنصح الذي يحتاج إليه من أجل خلاصه، وداعيًا تلاميذه إلى مراقبة أفعاله، وانتهاج أساليبها في المستقبل.

وانفجر غيظ الفرّيسيّين، وعلت صيحات احتجاجهم، آخذين على يسوع دأبه على التكلّم عن أبيه السماوي، مع أنّهم يعرفون جدًّا من هو أبوه، بيد أنّ يسوع لم يحِدْ عمّا ألفه قائلاً: "من يعمل مشيئة الآب هو ابن الآب، أمّا الذين ينتهكون الوصايا، فلا حقّ لهم بأن يدينوا سواهم، وليعدّوا أنفسهم مخطئين طالما لم يُطردوا من البيت طرد الغرباء والدخلاء".

غير أنّ الفرّيسيّين مضوا قدمًا في انتقاد شفاءاته يوم السبت، وإحجامه عن غسل يديه قبل الطعام، منـــزّهين أنفسهم من أيّة مخالفةٍ للشريعة. وحينئذٍ راح يسوع يخطّ على الجدار بأحرفٍ لا يفقهها إلاّ كلّ واحدٍ منهم دون سواه، خطاياهم السرّيّة، واختلاساتهم، واستخدامهم أموال الهيكل لمنافع شخصيّةٍ، وسألهم هل هم راغبون في أن تبقى هذه الكتابات، وأن تعلن على الملأ، وإلاّ فعليهم أن يدَعوه يتابع شفاءاته بهدوء، وينصرفوا، فارتعدت فرائصهم، وارتجفت قلوبهم جزعًا، وسارعوا إلى محو ما كتب، وفرّوا خاسئين.

وتابع يسوع وصحبه المسيرة شمال غرب زبولون، معلّمًا، شافيًا الأسقام، مصالحًا المتخاصمين ناشرًا السلام والوئام، ومرسّخًا تعليمه بخصوص التطويبات. ودعاه شبّانٌ وشابّاتٌ إلى مباركة خطبتهم وزواجهم، فكانت تلك مناسبة له كي يوضّح تعليمه المتعلّق بالزواج، وممّا قاله أنّ على الرجال أن يكرّموا في نسائهم الوعد بنسلٍ أنثويّ يسحق رأس أفعى الشرّ. وأكّد أنّ الوقت قد حان لكي تحلّ النعمة مكان الشريعة، وأنّ على النساء أن يخضعنَ لأزواجهنّ باحترامٍ وتواضعٍ، وعلى الرجال أن يأمروا بمودّةٍ وتروٍّ، مبيّنًا أنّ الخطيئة دخلت إلى العالم من باب العصيان، وأنّ الخلاص يتحقّق بالطاعة والإيمان، وأكّد على وحدة الزواج الأبديّة، موضحًا أنّ انفصال الزوجين قد يصبح متاحًا عندما تكون مساكنتهما سببًا للخطيئة، على أنّه لا يحقّ لأيٍّ منهما أن يتزوّج ثانيةً. وأكّد أنّ الشريعة التي أتاحت الطلاق كانت قد أُعطيت في عهد طفولة البشريّة، أمّا وقد بلغت سنّ النضج، فعليها التزام تعليمٍ جديدٍ.

ولكنّ الفرّيسيّين حملوا، في المجمع، على هذا التعليم، عادّين دعوته المرأة إلى الطاعة مفرطًا في اللين وحظره للطلاق مغاليًا في الصرامة.

واغتنم شبّانٌ مخطوبون سانحة وجود يسوع لكي يقيموا أعراسهم بحضوره، ولكي يحظوا ببركته، دعوا شبّانًا وشابّاتٍ فقراء راغبين في الزواج إلى مشاركتهم احتفالاً، آخذين على عاتقهم كلّ نفقات العرس، ومخفّفين عنهم عبئها.

ارتداد المجدليّة الحاسم، وتحريرها من شياطينها

كانت المجدليّة، عقب تكريمها العلنيّ ليسوع في "جبارا"، قد عادت إلى "مجدلا"، وعادت إلى سابق عهدها، بل إلى أدهى منه، في المجون والخلاعة، وتنامى من حولها عديد رفاق الشرّ. وبالمقابل أمعنت النساء القدّيسات، ولا سيّما مريم العذراء، في الصلاة صلاةً حارّةً التماسًا لهدايتها. زارتها يومًا أُختها مرتا، برفقة رفيقةٍ لها، فأُسيء استقبالها، وأُخبرت أنّ أُختها منهمكةٌ في التبرّج، ومن ثمّ لا تستطيع

مقابلتها، فعليها الانتظار، وانتظرت صابرةً، حزينةً، مصلّيةً، وداعيةً لأختها بالهداية. ولكنّها طلبت أن تُعطى زاويةً تستريح فيها من عناء السفر، فاقتيدت مع مرافقتها إلى حجرةٍ خَرِبةٍ مهجورةٍ ملحقةٍ بالقصر، حيث لم يهتمّ أحدٌ بشأنها.

وبعد لأيٍ قدمت المجدليّة بكلّ عجرفتها، ونظرة ازدرائها، وحرجها من أن يلحظ ضيوفها بساطة زيّ أختها، ولم تتحرّج من دعوتها إلى الانصراف، والعودة من حيث أتت. ولا سيّما أنّ ثلّةً من نساء طبريّا الماجنات كنّ قد وصلنَ لساعتهنّ، للاشتراك في مأدبةٍ دعتهنّ إليها المجدليّة.

بعد المأدبة جاءتها المجدليّة ببعض طعامٍ، وكلّمتها بلهجة ازدراءٍ وغضبٍ، ولكن من خلال قناع العجرفة والوقاحة التي اتّسمت بها، كانت توحي بما كان يمزّق نفسها من جزعٍ وندمٍ. وتوسّلتها مرتا، بكثيرٍ من الودّ والتواضع أن تحضر العظة التي سيلقيها يسوع في الجوار، حيث ستلتقي قومًا كانت قد التقتهم آنفًا في مناسبةٍ مماثلةٍ، وارتاحت لهم، وسيسعدون برؤيتها ثانيةً، كما ستسعد هي أختها وأخوها لعازر بمشاركتهما الإصغاء إلى النبيّ منقطع النظير الذي لن يُقيَّض لها، ثانيةً، فرصة الاستماع إليه، في مكانٍ قريبٍ، ومقابلة ذويه الذين أحبّتهم، وذكّرتها بتطييبها رأسه بجرأةٍ وسخاءٍ فريدين، في مناسبةٍ سابقةٍ كانت قد برهنت عن تقديرها الخصال السامية حيثما تلقاها، فعليها أن تكرّمه أيضًا بحضورها.

كانت مرتا رائعةً وجديرةً بالإعجاب لبراعتها في استخدام أبلغ أسلوبٍ لإقناع شقيقتها، وفي صبرها وقوّة شكيمتها في تحمّل كبريائها وعنجهيّتها. وأخيرًا أجابت المجدليّة: "حسنًا، سأحضر، ولكن ليس برفقتك، فأنتِ حريصةٌ على زيّك الفقير، فيما أنا حريصةٌ على التباهي بملبسي الفاخر وتبرّجي، وسترافقني رفيقاتٌ".

وجهد الشرّير في صرف عزيمة المجدليّة عن حضور خطاب النبيّ، ولكان أفلح في مهمّته لو لم تكن رفيقاتها قد وعدنَ بمواكبتها من أجل حضور ما كنّ يصفنه بالمشهد المسلّي. وقد وافين ممتطياتٍ رواحل وتواكبهنّ خادماتهنّ، ودوابٌّ مثقلات

بأمتعتهنّ الفاخرة، وبالسجّاد والوسائد والمقاعد الفاخرة التي أَلِفْنَ الجلوس عليها.

وبعد أن ارتدين أفخر ملابسهنّ، وتزينّ بأبهى تبرّجهنّ، شخصنَ إلى مكان الوعظ لافتاتٍ أنظار الجميع بأحاديثهنّ الصاخبة، وبالنظرات الوقحة التي كنّ يُجِلْنها في كلّ اتّجاهٍ. وكانت تلك الفاجرات المتأنّقات قد أقمنَ خيمةً في واجهة المجلس ونثرنَ فيها السجّاد والأرائك والوسائد ومقاعدهنّ الفارهة، وتصدرتهنّ المجدليّة المتميّزة بقحتها وزهوها بذاتها، وقد أثار حضورها همسات الاستنكار إذ إنّ الذين شهدوا تحوّلها في "غابارا"، ثمّ أحاطوا علمًا بانحطاطها المذهل، استنكروا وجودها في ذلك المكان.

وبعد أن قام يسوع بعدّة أشفيةٍ، استهلّ خطابًا مسهبًا اتّسم بالصرامة، وفيه جاء قوله: "وافت ملكة سبأ من أقاصي الأرض لتستمع إلى حكمة سليمان، وها إنّ ههنا أعظم من سليمان"، فهتف أطفالٌ رضّعٌ لاطون على أذرعة أمّهاتهم وأبائهم: "إنّه يسوع الناصريّ، النبيّ القدّوس، ابن داود، ابن الله". ذهلت المجدليّة، مثلما ذهل سائر الجمع. ولكنّها ما لبثت أن ذعرت عندما سمعت يسوع يقول: "عندما يطهّر بيتٌ ويطرد منه الروح الشرّير، يعود بستّة أرواحٍ أُخرى، ويعيث شرًّا أدهى من السابق". وأجال يسوع أنظاره في كلّ الجهات آمرًا إبليس بالخروج من الراغبين في الانعتاق منه. آمرًا الراغبين في الحفاظ على قيود الشرّير أن يخرجوا ويأخذوه معهم. فصاح مسكونون بأرواحٍ: "يا يسوع، ابن الله..." وأُغمي على كثيرين.

وهوت المجدليّة من مقعدها الفاخر، وهي فريسةٌ لتشنّجاتٍ عنيفةٍ. وحاولت مرافقاتها اللواتي كنّ حريصاتٍ على البقاء في أسر شياطينهنّ إيقاظها برشّ العطور عليها، وساعياتٍ إلى الفرار بها من المكان، ولكنّ بعض الحاضرين توجّهوا إلى يسوع برجاء: "توقّف، يا ربّ، فهذه المرأة تحتضر". وردّ يسوع قائلاً: "أجلسوها على مقعدها. فالموت الذي انتابها الآن هو موتٌ خلاصيٌّ يعيدها إلى الحياة". وبعد لحظاتٍ، تلفّظ يسوع بكلماتٍ أُخرى أحدثت في المجدليّة اختلاجاتٍ جديدةً، وشوهدت أشكالٌ قاتمةٌ تخرج منها، ومن مسكونين آخرين. وساد اللجب والفوضى، إذ حاول

المحيطون بها إغاثتها، فاستعادت رشدها وجلست على مقعدها قائلةً: "لا بأس إنّه مجرّد إغماء"، ولكن سرعان ما هزّتها التشنّجات مجدّدًا، وبلغ اللجب ذروته. وهرعت مرتا إلى أُختها، التي بعد أن استعادت رشدها، بدت منهارةً، يائسةً، مذرّفةً وابلاً من الدموع، وراغبةً في الانضمام إلى النسوة القدّيسات. وجهدت رفيقاتها في ردعها عن ارتكاب ما وصفته بالحماقة، وجررنها عنوةً إلى الخارج. ولكن لعازر أخاها وأختها مرتا وآخرين خفّوا في إثرها، وعادوا بها إلى النـــزل الذي كانت فيه النساء القدّيسات مجتمعاتٍ، وتوارى أصدقاؤها وصديقاتها الزائفون.

ثمّ شخص يسوع إلى مجمعٍ للتعليم، وحضرت المجدليّة، وقد تخلّت عن بذخها، وزينتها النافلة، وكانت قد اهتزّت حتّى أعماقها، ولكنّها لم تبرأ كلّيّةً. وتلفّظ يسوع بعدّة عبارات تعنيها، وما إن رمقها بنظرةٍ ثاقبةٍ، حتّى اعتراها إغماءٌ جديدٌ، وغادرها روحٌ شرّيرٌ. فحملتها خادماتها إلى خارج المجمع، حيث أخذتها مرتا إلى النـــزل. كانت في حالة ذهولٍ وهذيانٍ، تذرع الطرقات منتحبةً وصائحةً: "إنّني خاطئةٌ، امرأةٌ ضالّةٌ، وحثالة الجنس البشريّ". ولم تضنّ النساء القدّيسات بجهدٍ في سبيل تهدئة روعها، ولكنّهنّ لم يقوينَ على الحؤول دون تمزيقها حلاها، واقتلاعها شعرها. وأخيرًا لفّت ذاتها بكلّ ما وقعت عليه يداها من أغطية، كي تتوارى عن الأنظار. ولّما قدم يسوع، أخيرًا، أفلتت المجدليّة من حراسة النساء القدّيسات واندفعت نحوه باكيةً، مشعّثة الشعر، وارتمت عند قدميه، مستفسرةً هل ما زال لديها فرصةٌ للخلاص. فاستشاط الفرّيسيّون وبعض التلاميذ غيظًا، وطالبوا يسوع بمنعها عن نشر الفوضى في كلّ مكان، وبطردها طردًا لا رجعة عنه. ولكنّه أجابهم: "دعوها تبكي وتنتحب. إنّكم لا تعرفون ما يحدث في داخلها". ثمّ التفت نحوها وعزّاها، ودعاها إلى التوبة، والإيمان، والرجاء بكلّ قلبها، مؤكّدًا لها أنّها ستنعم قريبًا بالسكون، وأنّ بوسعها الانطلاق واثقةً.

وفي تلك اللحظات وافت شقيقتها مرتا وخادماتها واقتدنها إلى النـــزل، ولكنّها كانت لا تكفّ عن لطم نفسها والانتحاب، إذ لم تكن قد نعمت بعد بتحرّرٍ

حاسمٍ، وكان إبليس يبذل كلّ جهوده لكيلا تفلت من براثنه، فيمزّقها بذكرياتٍ بشعةٍ مريعةٍ، ويوهمها بأنّها هالكةٌ لا محالة، ويدفعها إلى القنوط والتخلّي عن كلّ رجاء، لكيلا تعرف إلى السكون سبيلاً.

ولكنّها التمست من أخيها لعازر أن يسارع إلى مجدلا ويضع يده على كلّ ما تمتلكه هناك ويقطع كلّ صلاتها بكلّ ذلك المكان، وكان لعازر، من قبل، ومن باب الاحتياط قد حجز الحقول والكروم التي كانت تمتلكها في تلك المنطقة.

وكان الازدحام حول يسوع قد بلغ، في ذلك اليوم، ذروةً فريدةً، ما جعل الربّ ينسحب، ليلاً وخلسةً، إلى جبلٍ حيث تابع تعليمه. وما عتّم أن مضت في إثره جموعٌ غفيرةٌ من الراغبين في الاستماع إليه، ومن ملتمسي غوثه. وقد انضمّت إليه النساء القدّيسات منذ الصباح الباكر مع المجدليّة، التي كانت قد انتهت إلى حالةٍ من الانهيار تثير الرثاء.

وتناول في عظته خطايا الدنس التي أدانها بصرامةٍ، قائلاً إنّ مَن يدمنون عليها يُبتلون بكلّ أنواع الرذائل والموبقات التي استحقّت عنها صدوم وعمورة نيران السماء. وفي الآن عينه تحدّث عن الرحمة الإلهيّة، مؤكّدًا أنّ ذلك الوقت الراهن هو وقت نعمةٍ، مهيبًا بالجميع إلى اغتنامها. وفي أثناء خطابه ألقى يسوع نظره ثلاث مرّاتٍ على المجدليّة، وفي كلّ مرّةٍ كانت ترتمي أرضًا، وتخرج منها أبخرةٌ قاتمةٌ. وقد اضطرّت النساء القدّيسات، عقب سقطتها الثالثة إلى الابتعاد بها عن المكان، وهي في حالةٍ مريعةٍ من الشحوب، والانهيار، وتشوّه الملامح. لقد كانت توبتها كاملةً، ودموعها تنساب بلا انقطاعٍ، وقد تملّكتها رغبةٌ ساطيةٌ في الاعتراف بخطاياها ونيل الغفران. وجاء إليها يسوع في عزلةٍ كانت العذراء وأختها مرتا قد اقتادتاها إليها، فاطّرحت عند قدميه، معفّرةً وجهها بالتراب، مشعّثة الشعر، والدموع تغسل كلّ وجهها. فهدّأ يسوع روعها، وعندما ابتعدت أمّه وأختها اعترفت له بخطاياها الغزيرة ملتمسةً الصفح، هاتفةً، وهي لا تنفكّ تتساءل ملهوفةً: "يا ربّ، هل سيُقيَّض لي، بعدُ، الخلاص؟" ومنّ عليها بمنحها هذه النعمة، وحدّثها عن فضيلة الطهارة، وأخبرها

عن أُمّه العذراء المنـــزّهة من كلّ دنس، وأسهب في الإشادة بها، بعباراتٍ لم يُسمع قطّ لها مثيل. موصيًا الخاطئة التائبة أن تتعلّق بأُمّه تعلّقًا كلّيًا، وأن تلتمس منها كلّ ما قد تحتاج إليه من نصحٍ وعزاءٍ. ثمّ جاء بها إلى النساء القدّيسات معلنًا: "لقد أوغلت المجدليّة في الخطيئة، ولكنّها ستكون لجميع الأجيال نموذج التائبة الأمثل".

كانت الخضّات المتعاقبة، ووقر التوبة، وسيول الدموع قد هدّت المجدليّة، وحوّلتها إلى خيال ذاها. ومع عجزها عن كفكفة دموعها، إلاّ أنّها كانت تنعم بالهدوء، وكانت محاطةً بعطف المحيقين بها الذين كانت لا تني تلتمس صفحهم. ولم تقوَ، في ذلك اليوم، على مواكبة عددٍ من النساء القدّيسات اللواتي قصدنَ مدينة "نعيم"، بل آثرت أن تنال قسط راحةٍ برفقة أُختها مرتا، واثنتين من النساء، على أن تلتحقنَ بالأُخريات، في الغد.

صديق الأطفال

انتهى يسوع إلى مدينةٍ جاثمةٍ على تلّةٍ بين قانا وصفوريّة، وتقدّم لاستقباله رؤساء المدارس الشرعيّة والفرّيسيّون، قارنين الترحيب بالتحذير، طالبين منه تفادي الإخلال بالنظام، ومنع النساء والأولاد من التحلّق حوله. لم يمانعوا في أن يعلّم في المجمع بهدوءٍ، على ألاّ يثير الشعب. وردّ، يسوع، بصرامةٍ ووقارٍ، ملاحظاهم هذه المنطوية على رياءٍ سمجٍ، مؤكّدًا أنّه إنّما جاء تلبيةً للمستغيثين به، والمطالبين جهارًا بمجيئه. وكان الفرّيسيّون، مذ تنامى إليهم نبأ قدوم يسوع، قد حظروا على النساء التظاهر مع أطفالهم في الطرقات، وإطلاق هتافات الترحيب بيسوع، بصفته ابن الله، والمسيح، نافين عنه هذه الصفة الكاذبة، بما أنّهم يعرفون أبويه وجميع من يمتّون إليه بوشائج قرابةٍ. وكانوا قد سمحوا لأصحاب العلل والعاهات التجمّع أمام المجمع لنيل الشفاء، بشرط مراعاة الهدوء والانتظام. وكانوا قد نظّموا وضع هؤلاء على هواهم ولكأنّهم يفرضون على يسوع أسلوب عمله.

غير أنّ الأمور جرت على نقيض ما توخّوا وخطّطوا، فلدى دخولهم معه إلى المدينة فوجئوا بالنساء يملأن الطرقات حاملاتٍ أطفالهنّ على أيديهنّ، وأولادهنّ أمامهنّ يمدّون أيديهم إلى الربّ هاتفين: "يا يسوع الناصريّ، ابن داود، ابن الله، النبيّ القدّوس!". وعبثًا حاول الفرّيسيّون طرد النساء وأولادهنّ، ولا سيّما أنّ مواكب ضخمةً من نساءٍ وأولادٍ، كانت لا تكفّ تتقاطر إلى المدينة، هاتفةً ليسوع. فاضطرّ الفرّيسيّون إلى الانسحاب يجرّون ذيول حنقهم وخيبتهم.

وكان حتّى تلاميذ يسوع، خشية الصدام مع الفرّيسيّين، وتفاديًا للفوضى، قد جهدوا في إبعاد الأولاد عن يسوع. ولكنّ الربّ ندّد بجبنهم وصغارهم، وأبعدهم، واستدعى إليه الأولاد وكلّمهم بعطفٍ ورقّة. وهكذا وصل إلى المجمع في موكبٍ لجبٍ من أولادٍ وأطفالٍ يهتفون: "يسوع الناصريّ، النبيّ كلّيّ القداسة!..." لا بل إنّ أطفالاً رضّعًا شاركوا إخوتهم هذه الهتافات، فكان لهتافهم أبلغ وقعٍ على الجماهير، التي استذكرت المزمور الثامن القائل: "أيّها الربّ سيّدنا... بأفواه الأطفال والرضّع أعددت لك حصنًا.. كي تخزي خصومك..." (٨: ١–٣)

أمام المجمع انتظم الجمع إذ اصطفّ الصبيان في جانبٍ، والفتيات في جانبٍ آخر، ومن ورائهم وقفت الأمّهات حاملاتٍ أطفالهنّ. فباركهم يسوع وعلّمهم، واصفًا جميع مستمعيه بأنّهم "أبناؤه". وأكّد لتلاميذه كم الصغار هم ثمينون في نظر الله، وأغضب تصرّفه هذا الفرّيسيّين غضبًا شديدًا. فشرعوا يتذمّرون من الجلبة التي أثارها لقاء يسوع بالأولاد، فركّزت عظته في المجمع على كرامة أولئك الصغار السميا.

ولدى خروجه من المجمع طلبت ثلاث نساءٍ التحدّث إليه على انفرادٍ، والتمسنَ غوثه، شاكياتٍ من أرواحٍ تسكن أزواجهنّ، وتعذّبهنّ، وتمنّينَ أن ينقذهنّ كما أنقذ المجدليّة، فوعد بزيارة بيوتهنّ بعد أن يقوم بزيارة رجلٍ أسينيٍّ بسيطٍ ومستقيمٍ.

يسوع في الناصرة ثانيةً

في اليوم التالي جاءه فرّيسيّون من الناصرة، ورجوه العودة إلى موطنه، مؤكّدين أنّ الفرّيسيّين الذين حاولوا، بمناسبة زيارةٍ سابقةٍ له، أن يرموه من قمّة تلّةٍ، لم يعد لهم وجود، وأنّ مواطنيه توّاقون إلى زيارته وسماع تعليمه، وأنّ مرضاهم راغبون في نيل الشفاء عن يده. ولكنّهم رجوه ألاّ يُجري أشفية يوم سبتٍ. فوعدهم بقضاء يوم السبت معهم، مؤكّدًا أنّهم سيتنكّرون لتعليمه. وعند الظهر يمّم شطر الناصرة مثقّفًا تلاميذه في أثناء مسيرهم.

وقد احتفى به أشخاصٌ طيّبون فغسلوا رجليه وأرجل تلاميذه، وقدّموا لهم طعامًا، ثمّ زار مرضى كانوا قد التمسوا شفاءه لهم، لأنّه لمس إيمانهم به، ولكنّه رفض شفاء آخرين كانوا يبتغون مجرّد اختباره.

وعلّم في المجمع، ولم يجرِ أيّ شفاء، وعاد إليه شابّان كانا قد التمسا الانضمام إلى جماعته، طمعًا في مغانم اجتماعيّةٍ، فأجابهما أنّه سيلبّي طلبهما إن ارتضيا هجر بيوتهما وذويهما، وتوزيع كلّ ممتلكاتهما على الفقراء، والخضوع له بلا نقاشٍ، واحتمال الاضطهادات من أجله، فنأيا عنه.

وجاء بيت ذويه الذي كان خاليًا، ولكن كان نظيفًا مرتّبًا بفضل خالته مريم، شقيقة أُمّه الكبرى، التي زارها، قبل أن يعود إلى المجمع حيث علّم بحزمٍ وصرامةٍ، داعيًا الله أباه السماويّ، ومنذرًا أورشليم، وجميع رافضي الإنصات إليه، بالعقاب. وخاطب تلاميذه، منبئًا إيّاهم بالاضطهادات التي سيعانونها ودعاهم إلى الصمود والوفاء.

وعندما تنامى إلى الفرّيسيّين أنّه ينوي مغادرة الناصرة، ممتنعًا عن إجراء أشفيةٍ، أفرغوا جعبة حنقهم وحقدهم الدفين، وانطلقوا يردّدون: "من يدّعي أنّه هو، ومن أين جاء بعلمه، أليس من هنا، حيث كان أبوه نجّارًا، وإخوته وأَخواته ما زالوا بين ظهرانينا؟" مشيرين بذلك إلى خالته مريم وأبنائها وأحفادها (متّى ١٣: ٥٧، مرقس ٦: ٣). وبلغت القحة بأحد الفرّيسيّين، وكان قدم من مدينةٍ مجاورةٍ أن سأله بحدّةٍ:

"من تعدّ نفسك؟ هل نسيت أنّك، لبضع سنواتٍ خلت، وقبل وفاة أبيك صنعت حواجز خشبيّة في بيتي؟" وإذ لزم يسوع الصمت، صاح مرافقو الفرّيسيّ: "تكلّم! فهل يسوغ عدم الردّ على القوم المحترمين!". فقال يسوع للفرّيسيّ الوقح: "أجل، صنعت، آنفًا، خشب بيتك، ونظرت إليك، وحزنت لأنّني لم أستطِع حينذاك تحريرك من قسوة القلب التي تظهرها الآن. لقد ساهمت في بناء بيتك الأرضيّ، ولكن لن يكون لك نصيبٌ في ملكوتي".

وتفاقمت نقمة الفرّيسيّين لّما سمعوه يقول لتلاميذه: "أرسلكم مثل حملانٍ وسط ذئابٍ. وسيحلّ بمن سيرفضون استقبالكم أكثر ممّا حلّ بسدوم وعمّورة. أنا لم آتكم بالسكينة بل بالسيف".

وبما أنّ يسوع أبى شفاء عددٍ من ملتمسي الشفاء، حذا بعضهم حذو الفرّيسيّ الوقح وقالوا له بفظاظةٍ: "هل تذكر هذا المكان وذاك؟" مشيرين إلى أماكن وضيعةٍ كان يرتادها، وعيّره الفرّيسيّون بالعلاقة التي تربطه بالأسّينيّين، الذين كانوا يمتنعون عن الاستماع إلى تعاليمه العلنيّة، تفاديًا للصدام مع الفرّيسيّين، ولكنّ المثقّفين منهم كانوا يعترفون به ابن الله، ولا يعارضون تعاليمه، وقد أمسوا من أركان الكنيسة الوليدة.

أشفيةٌ متعدّدةٌ

غادر يسوع وتلاميذه الناصرة ليلاً، وعرَّجوا على قريةٍ كان قد سبق ليسوع أن أبرأ فيها أبرص، إثر إقامته ابن أرملة "نعيم" من الموت. وسارع ذلك الرجل مكرّرًا له شكره، وعارضًا نصف ماله مساهمةً في أسفار يسوع ورفاقه وملتمسًا منه شفاء عددٍ من البرص الذين كان قد أقام لهم خيمةً على مقربةٍ من القرية.

مع انبلاج النهار خرج يسوع وهو عالمٌ أنّ خطأةً ينتظرونه على الدرب خجلين. كانوا خمسة رجالٍ ونساءٍ يلتمسون غوثه، وقد بادروه بالقول: "يا سيّد، نحن قادمون من طبريّا، ولَم نجرؤ، قبل اليوم، على المجيء إليك لأنّ الفرّيسيّين

حذّرونا من أنّك صارمٌ وقاسٍ حيال الخطأة. ولكن علمنا أنّك أشفقت حتّى على المجدليّة، وأنّك حرّرتها، وغفرت لها خطاياها، فتشجّعنا وقدمنا. فارحمنا يا ربّ، إذ بوسعك أن تشفينا وتطهّرنا، وتغفر لنا خطايانا، نحن أيضًا". كانوا قد أصيبوا بالبرص وبأمراضٍ أُخرى من جرّاء علاقاتٍ خلاعيّةٍ، وكانت إحدى النساء مسكونةً بروحٍ شرّيرٍ، وضحيّةً لتشنّجاتٍ واختلاجاتٍ. هدّأ يسوع روعهم، وانتحى بأفرادٍ منهم لكي يتيح لهم سرد خطاياهم بالتفصيل، ويضرم فيهم حرارة التوبة والندم. ثمّ شفاهم وغفر لهم، فاستغرقوا في سكب دموع التوبة وفرح التحرّر، وفاضوا شكرًا للمخلّص. واستفسروا عمّا ينبغي عليهم فعله، فنصحهم بعدم العودة إلى طبريّا، وغدوا، منذئذٍ، من المثابرين على سماع تعاليمه.

ثمّ زار خيمة البرص فشفاهم، وعلّمهم، وأرشدهم وحرّضهم على سلوك دروب الفضيلة، ودعاهم إلى عرض ذواتهم على كهنة الناصرة.

كان يسوع يجري أشفيته بسرعةٍ، ولكن بلا استعجالٍ. كان يعمل بوقارٍ، ورزانةٍ ودقّةٍ، وبمنأًى عن كلّ عبارةٍ نافلةٍ، وكان لكلّ حركةٍ منه فعلها وتأثيرها، إذ كان يمزج بالقسطاس الإرشاد والرقّة والصرامة، والتهدئة. وكان فيض صبره ومحبّته يبلغ غايته مباشرةً. كان أحيانًا يسعى وراء البائسين، مثل منقذٍ يسعى وراء أخٍ في خطر، ويحيد عن درب آخرين كي يضرم فيهم الرغبة في لقائه. عند الظهر جمع يسوع رسله وتلاميذه عند أسفل الجبل، وأرسلهم اثنين اثنين إلى ثلاث جهاتٍ مختلفةٍ، مستبقيًا معه بطرس ويوحنّا وثلّةً من التلاميذ. وأوصى الذين أرسلهم ألاّ يعيقوا مسيرهم بأيّ متاعٍ نافلٍ، وبأيّة خشيةٍ، غير مستصحبين لا مالاً، ولا زادًا، ولا أمتعةً، ولا ثوبًا إضافيًّا، إذ كان لعازر قد أعدّ في كلّ الأماكن التي قد يقصدونها أمكنةً لاستضافتهم وتزويدهم باحتياجاتهم الأساسيّة. أمّا الذين أوفدهم إلى أماكن آهلةٍ بخصومه، وحيث كان يتوقّع تعرّضهم للاضطهادات في أعقاب مقتل يوحنّا الوشيك، فأرشدهم إلى وسيلة التعامل مع من سيستضيفونهم.

قبل انطلاقهم باركهم الربّ، وذكّرهم بأساليب الشفاء التي يتعيّن عليهم اتّباعها، وحدّد لهم الأماكن التي بوسعهم التقاؤه فيها بعد أداء مهامّهم، أو في حالاتٍ طارئةٍ.

ثمّ شخص الربّ ومرافقوه إلى بلدةٍ تدعى "سونام"، استجابةً لدعوة رجلٍ له أبناءٌ مصابون بعللٍ خطيرةٍ. فأحد أبنائه، وهو مديد الجسم، في السادسة عشرة من العمر أصمّ وأبكم، كان مطّرحًا دائمًا على الأرض، عرضةً لتشنّجاتٍ مريعةٍ تجعل كلّ جسده يتكوّر على ذاته، وفضلاً عن ذلك كان مشلولاً لا يقوى على السير. وله أخٌ، واهن العقل، يرتعب من كلّ شيء، وأُختان أسوأ حالاً. في ذلك المساء عينه شفى يسوع الولد الأكبر الأَصمّ والأبكم، ثمّ دخل إلى حجرته مع والديه وجثا أمام فراشه، ومال صوب وجهه، ونفخ فيه، ثمّ أمسك بيده وأنهضه، فانتصب واقفًا في الحال. وجعله يخطو بضع خطواتٍ إلى الأمام ثمّ إلى الوراء، ثمّ اقتاده إلى حجرةٍ أُخرى، حيث جبل من لعابه طينًا، دهن به داخل أذنيه، وأَدخل إلى تحت لسانه الأبكم إِصبعين من يده اليمنى، فصاح الشابّ: "إنّي أسمع، وأستطيع أن أتكلّم!" فاندفع نحوه جميع أهل البيت مذرّفين دموع الفرح، وممجّدين الله. وارتمى الشابّ ووالداه أمام يسوع. فأوصى الربّ والد الشابّ ألاّ يخطئ، بعدُ، لكيلا يصيب ذريّته سقمٌ.

وفي اليوم التالي شفى يسوع الأخ الأصغر وشقيقتيه، وأعاد لهم سلامة أذهانهم. وخلافًا لعادته طلب من الأخ الأكبر الذي حرّره من بكمه وصممه ومن الأرواح الشرّيرة، أن يذيع شفاءه على الملأ. وتهافت صوب الربّ جموع طالبي الشفاء من مختلف الأسقام، ومن شتّى الأعمار. وطاف يسوع بين الجموع مباركًا، معلّمًا، شافيًا.

ثمّ جال يسوع برفقة بطرس ويوحنّا مناطق سهل إسدريلون، منبئًا بدنوّ أجل المعمدان، وبالشباك التي تُنصب له شخصيًّا. ولمّا استراح على مقربةٍ من بئرٍ، تحلّق مزارعون من حوله، فروى لهم مثل الكنــز المدفون في حقلٍ، والمرأة التي أضاعت

درهمًا، فكنست كلّ غرفتها، وقلبت كلّ أثاثها، بحثًا عن الدرهم المفقود، فأغرق بعضهم في الضحك، لأنّهم طالما فقدوا أكثر من درهم، ولكنّهم لم يغتمّوا مثلما اغتمّت امرأة المثَل، ولا اهتمّوا مثل اهتمامها. فأخذ عليهم سطحيّة تفكيرهم، وفسّر لهم مغزى المثل، فخجلوا من سخافتهم.

ذكرى ميلاد هيرودس، ومقتل المعمدان

طيلة الأسبوعين السابقين لموعد الاحتفال بذكرى مولد هيرودس، ما انفكّت مواكب المدعوّين تتوافد على قصره في "ماخيرونت"، وكان معظم المدعوّين يتنافسون في البذخ وانحلال الأخلاق، ولا سيّما النساء المرتبطات بعلاقات صداقةٍ مع هيروديا زوجة هيرودس غير الشرعيّة. وضجّ قصر هيرودس بليالي القصوف والعربدة. وكان قائدا المئة زُروبابل وكورنيليُس قد اختلقا حججًا لكيلا يلبّيا دعوة الوالي، عملاً بنصح يسوع.

قُبَيْل ذلك، كان هيرودس قد ليّن قيود المعمدان، وأتاح له التحرّك داخل القصر، ومقابلة تلاميذه بحرّيّة، لا بل سمح له أن يعلّم بحضوره، ووعده بالإفراج عنه، بمناسبة ذكرى ميلاده، إن هو أيّد زواجه من هيروديا، أو، على الأقلّ، امتنع عن التنديد به تنديدًا علنيًّا. ولكنّ هذا الوعد لم ينل بشيءٍ من عناد المعمدان وصموده، ومضيّه قدُمًا في إدانة زواجٍ آثمٍ غير شرعيٍّ. في حين كان هيرودس راغبًا في ظهور المعمدان علنًا، لكي يثبت للجميع لين معاملته لذلك النبيّ الذي يجلّه سواد الشعب، كانت هيروديا التي تكنّ حقدًا مميتًا للمعمدان، توغل في إعداد خطط القضاء على معكّر صفو تمتّعها برذائلها.

وما إن بدأ قصر ماخيرونت يضجّ بالمآدب الماجنة، وبليالي العربدة، حتّى التزم المعمدان سجنه، وأبى وطء القصر الموبوء بالرذائل. وأمر تلاميذه بالبعاد عنه، والعودة إلى مسقط رأسهم في الخليل.

وكان لهيروديا، من زواجٍ سابق، ابنةٌ شابّةٌ تدعى صالومة، تنافسها انحلال

أخلاق، وجمالاً، وقحةً شيطانيّةً، وقد تلقّنت، باكرًا، على يد أُمّها كلّ أساليب المجون والإغراء، وكانت قد أثارت شهوات هيرودس، ولحظت أُمّها ذلك، فوطّنت العزم على استغلال هذه النـــزوة من أجل تحقيق مخطّطاتها الإجراميّة.

وحان يوم الاحتفال، فجاء هيرودس إلى القاعة المزدانة بالزهور، والمضاءة بآلاف المشاعل التي تعكس نورها مرايا جسيمةٌ منتشرةٌ على الجدران، يواكبه كبار مدعوّيه المزدانين بأفخم الأزياء، فاجتازوا ممرًّا يكسوه سجّادٌ فاخرٌ حتّى انتهوا إلى قوس النصر، الذي وقفت فوقه أجواق فتيانٍ وفتياتٍ شبه عراةٍ، مكلّلين بالزهور، يعزفون على العديد من الآلات وينشدون.

وعندما همّ هيرودس بارتقاء درجات قوس النصر رحّبت به صالومة مع جوق من فتيانٍ وفتياتٍ في ملابس فاضحةٍ، وقدّمت له باقةً بهيّةً، ورقصت أمامه رقصةً أخذت بلبّه ولبّ ضيوفه، فشكرها وانتزع منها وعدًا بأن تمتّعه برقصةٍ ثانيةٍ. وجاءت هيروديا وضيفاتها، متّشحاتٍ بأكثر الثياب بذخًا وفخامةً، واتّخذنَ مجلسًا لهنّ في رواقٍ عالٍ مشرفٍ على القاعة، يمكّنهنّ من مراقبة كلّ شيءٍ.

في هذه الأثناء رأت الأُخت الرائية المعمدان في سجنه راكعًا باسطًا ذراعيه، وناظراه شاخصان إلى السماء، يلفّه نورٌ سماويٌّ شفّافٌ، شديد الاختلاف عن أنوار القصر الحمراء الشيطانيّة.

في ذلك اليوم عينه كان يسوع قد وعظ في المجمع، وسرد مَثَل الملك الذي أقام مأدبةً، وروى له القادمون من أورشليم ما حدث لبناءٍ ضخمٍ كان يقيمه بيلاطس، وانهار على عمّاله، وقضى على ثمانية عشر مهندسًا، فبيّن لهم الربّ أنّ موت أولئك المهندسين لم يكن عقابًا لهم، فهم ليسوا أكثر خطأً من الفرّيسيّين والصدّوقيّين الذين يقاومون ملكوت السماوات، والذين سيهلكون تحت ركام تعليمهم الخاطئ. وكان المشرفون على البناء المنهار قد افتعلوا انهياره عمدًا بقصد القضاء على العمّال، لأنّ معظمهم كانوا من أتباع المعمدان، وممّن نالوا الشفاء على يد يسوع، وبغية إحراج بيلاطس.

قدّم إذن هيرودس لضيوفه مأدبةً سادها البذخ، وعبق جوّها بالروائح العطرة، وأطاحت خمرها بالعقول، فرجا الندامى صاحب الحفل أن يمتّعهم برقصةٍ ثانيةٍ تقدّمها صالومة. فجلس الوالي على عرشه محاطًا بمواليه، وظهرت صالومة محاطةً بعددٍ من الراقصات، شبه عاريةٍ، تضجّ قحةً وإغراءً، وقد عقدت ضفائرها بالجواهر وألقتها على كتفيها حيث كانت تتموّج مع تموّجات رقصها، واستغرقت في التمايل، وفي رسم حركاتٍ تثير الغرائز والشهوات، وما إن فرغت من مهمّتها الفاسقة حتّى مثلت بين يدي هيرودس الذي كان الثمل والشهوة والفتنة قد ذهبت بكلّ صوابه، فقال لها لاهثًا بصوتٍ خافتٍ، لم يسمعه معظم ندماه الذين ما برحوا منهمكين في مراقبة الراقصات اللواتي رافقن صالومة: "سليني ما تشائين، أُعطِكِ إيّاه، أُقسم لك حتّى ولو طلبت نصف مملكتي سأهبكِ إيّاها". فاستمهلت كي تستشير أمّها، وهرعت إلى الجناح الذي كانت فيه أُمّها ورفيقاتها، مستسلماتٍ للأكل والسكر والرقص والغناء، واستوضحت منها ما يتوجّب عليها طلبه، فأمرتها بطلب رأس يوحنّا المعمدان في الحال. فسارعت إلى هيرودس وأجابت: "أريد أن تأتيني، فورًا، برأس يوحنّا، على طبقٍ". هذا الطلب نزل على هيرودس نزول الصاعقة، وأذهله، ولكنّ الفتاة الشرّيرة لم تفسح له مهلةً لتقليب الرأي، فسارعت إلى تذكيره بقسمه، وأُسقط بيده، فأمر باستدعاء جلاّده وأمره بالمجيء برأس المعمدان على طبقٍ، وتسليمه لصالومة. ولكنّ الصدمة كانت من شدّة الوطء عليه بحيث غادر القاعة، برفقة حفنةٍ من ندماه، كانوا قد أحاطوا علمًا بما حدث. وإزاء الحزن الذي استولى عليه، حاولوا إقناعه بأنّه غير ملزمٍ بقسمه الباطل، ووعدوه بكتمان سرّه، ولكنّه لم يصغِ إليهم وظلّ يجوب قصره كالمجنون، في حين مضى ندماه قدُمًا في سكرهم ومجونهم.

قال الجلاّد ليوحنّا: "أمرني الملك هيرودس أن أُعطي رأسك لابنته صالومة على هذا الطبق". كان يوحنّا راكعًا يصلّي، فلم يدعه يكمل خطابه، وقال له: "إنّي عالمٌ بسبب مجيئك، وكنت أنتظر زيارتك منذ زمنٍ طويلٍ. وأعلم أنّك لو علمت حقيقة

ما أنت مقدمٌ عليه لما رضيت به. ها أنذا جاهزٌ. ثمّ التفت نحو الزاوية التي ألف الصلاة والتأمّل فيها، وراح يصلّي. فقطع الجلاّد رأسه، الذي تدحرج على الأرض، فيما ظلّ جسده راكعًا. وتفجّرت منه ثلاث منابع دم، وعمّدته بدمه ذاته. أمسك أحد الخدم رأس المعمدان من شعره، وأهانه، ووضعه في الطبق الذي سلّمه الجلاّد لصالومة، فتسلّمته بفرحٍ ممزوجٍ بشيءٍ من تقزّزٍ أثاره فيها منظر الدم. ومضت برفقة خادمةٍ كانت تضيء لها الطريق بمشعلٍ، عبر ممرّاتٍ سفلى، مبعدةً عنها الطبق ما استطاعت، ومبعدةً عنه رأسها المرصّع بالجواهر إلى أن انتهت إلى مطبخٍ قائمٍ تحت جناح أُمّها التي ما لبثت أن حضرت، فرفعت الغطاء عن رأس النبيّ وأوسعته لطمًا وشتيمةً، ثمّ انتزعت سكّينًا حادّة من جدارٍ، وأعملت في لسانه ووجهه ثقبًا، وفقأت عينيه، ثمّ رمت الرأس أرضًا، ودفعته بقدمها إلى حفرة كانت تقذف منها القمامة إلى الخارج. ثمّ عادت هيروديا وصالومة إلى قاعة الاحتفال كي تحتفلا بجريمتهما.

ومدّد حارسا السجن جسد يوحنّا على الصخرة التي كان يرقد فوقها، وقد أخذ بهما الأسى كلّ مأخذٍ. ولكن سرعان ما أُبعدا عن قصر هيرودس وسُجِنا، وفُرض الكتمان على ندامى هيرودس وعلى جميع من اطّلعوا على الجريمة.

استحوذ الحزن على هيرودس الذي غدا يذرع حديقة قصره، وحيدًا أو بصحبة حفنةٍ ضئيلةٍ من ندامائه. وواصل ضيوفه، مدى أيّامٍ، الاستمتاع بالمآدب، والقصوف، وكذلك واصلت هيروديا وضيفاتها عربدتهنّ.

شفاء مقعدةٍ في مدينة "انتيباتريس"

جاء يسوع بصحبة بطرس ويوحنّا وبضعة تلاميذ إلى مدينة "انتيباتريس" الجميلة، التي بناها هيرودس تخليدًا لذكرى أبيه "انتيباتر". فقد كان قاضٍ في تلك المدينة يدعى "أوزياس"، قد أوفد إليه رسولاً يتوسّل إليه المجيء لشفاء ابنةٍ له انتهت إلى وضعٍ صحّيٍّ خطيرٍ ومقلقٍ جدًّا. وأشفق الربّ على حزن ذلك الأب، فلبّى نداءه. واستقبله القاضي باحترامٍ وحفاوةٍ، وأمر بغسل قدميه وأقدام تلاميذه، وفي

الحال شخص يسوع إلى مخدع الفتاة البالغة نحو أربعة عشر عامًا، فوجدها مغرقةً في الشحوب والنحول، عاجزةً عن تحريك أيٍّ من أعضائها. كانت أُمّها التي اعتادت قضاء الليل راقدةً على فراشٍ قرب ابنتها كي تلبّي كلّ احتياجاتها، واقفةً إلى جانبها، محجّبةً، فانحنت أمام الربّ حتّى لامس رأسها الحضيض. وجثا يسوع أمام سرير الفتاة، ووقف والداها في جانب السرير الآخر. وكلّم يسوع الفتاة، وصلّى، ونفخ في وجهها ثمّ سكب في قعر يدها قليلاً من الزيت الذي كان دائمًا يحمله في أسفاره، ودهن صدغي الفتاة وجبينها، ومفاصل يدها، وطلب من والدتها الكشف عن مكان معدة الفتاة ودهنه، ودهن قدميها أيضًا، ثمّ قال لها: "يا ميشول (هذا هو اسمها) أعطيني يدكِ اليمنى، وأعطي يدك اليسرى لأُمّك". وأمرها بالنهوض، وانتصب هو واقفًا، ووقفت أُمّها أيضًا من الجانب الآخر، فجلست الفتاة، فوق فراشها، ثمّ هبّت واقفةً، مترجرجةً، مترنّحةً، وخفّ والدها إليها وضمّها بين ذراعيه، ثمّ ركعت الفتاة ووالداها أمام يسوع يذرّفون دموع فرح الخلاص، ويشكرون الربّ. وسرعان ما انضمّ إليهم أهل البيت والخدم، مهلّلين ممجّدين الله. وأوعز يسوع أن يؤتى إلى الفتاة بخبزٍ وعصير عنب، فباركهما، وأهاب بها أن تتناول بعض لقماتٍ من الخبز، وترتشف جرعاتٍ قليلةً متعاقبةً من العصير. وشيئًا فشيئًا استعادت الفتاة قدرة استخدام أعضائها المشلولة، وسرعان ما ذاع نبأ شفائها فتدافعت رفيقاتها للتأكّد من المعجزة، وهنّأنها ومجّدنَ الربّ، واستسنح الربّ وجودهنّ، كي يسدي إليهنّ بنصائح خلاصيّةٍ.

وقد علّقت الرائية على ذلك الحدث بأنّ الحكمة الإلهيّة قد تستخدم ما يظنّه البشر شرًّا لهم، من أجل خيرهم وخلاصهم، فاعتلال تلك الفتاة قد وقاها من الكبوات، التي غالبًا ما تتردّى إليها فتياتٌ في مثل سنّها، كما دفعت والديها إلى التوبة، والتماس غوث الله، والإحسان. ومن جانبٍ آخر، رأت أنّ يسوع، مع قدرته على الشفاء عن بعدٍ، وبمجرّد كلمةٍ، كان غالبًا ما يلجأ إلى أساليب بسيطةٍ وطبيعيّةٍ، ورائجةٍ، مثل الدهن بالزيت، وسيلةً للشفاء.

في هذه الأثناء كان بطرس ويوحنّا قد طافا بالمدينة معلنين وصول يسوع واعتزامه التعليم في المجمع، وعادا بالعديد من المرضى، فشفاهم يسوع، قبل شخوصه إلى المجمع حيث احتشدت الجموع والفرّيسيّون. وتكلّم عن الراعي الساهر على قطيعه، والذي لا يضنّ بحياته من أجل خلاصه، مؤكّدًا أنّ حزنه الأكبر يتمثّل في فقدان خروفٍ واحدٍ أو نعجةٍ واحدةٍ. ثمّ تكلّم عن رسالته، من خلال مَثَلٍ استهلّه بقوله: "لدى أبي كرمٌ". فراح الفرّيسيّون يتمتمون مستهزئين به، ولكنّه مضى قدمًا في سرد المثل وروى كيف أهان الكرّامون الأشرار مرسلي صاحب الكرم، فأتبع بهم ابنه علّهم يهابونه، فقتلوه. وحينئذٍ لم يتمالك الفرّيسيّون عن الجهر بسخريّتهم مردّدين في ما بينهم: "أيّة شخصيّةٍ يدّعي هذا المجنون؟ وأنّى لأبيه كرمٌ وكرّامون وخدمٌ؟ لا ريب أنّه فاقد الصواب!" ولم يكفّوا عن صبّ الشتائم والتهم حتّى بعد مغادرته المجمع.

نحو بيت عنيا

بعد "انتيباتريس" توجّه يسوع وصحبه إلى بيت عنيا، وتوقّف في مدينة "بيتهارون"، حيث شفى العديد من المرضى، ودخل المجمع، وفسّر قراءة ذلك السبت، فقاطعه الفرّيسيّون مرارًا باعتراضاتهم، ودعوه إلى مائدتهم كي يواصلوا جدالهم معه. ولكنّه قبل تلبية دعوتهم جاء إلى بيتٍ كان قد امتلأ بسقماء منتظرين شفاءه لهم، فشفاهم وبارك أبناءهم. واستبطأ الفرّيسيّون وصوله، فجاء وفدٌ منهم يستعجله، قائلين إنّ للشفاء وقتًا وللطعام وقتًا، وقد أجريتَ ما يكفي من الأشفية في ذلك اليوم المخصّص لله لا للمرضى، فأجابهم: "أنا لا أعرف وقتًا غير وقت أبي السماويّ، ولا مشيئةً غير مشيئته". ومضى قُدُمًا في إتمام أشفية المرضى قبل إقباله على المائدة.

وفي أثناء الطعام انهال الفرّيسيّون على يسوع بمآخذهم، وقد تمثّل أحدها بضمّه إلى الجماعة المحيطة به نساءً سيّئات السمعة مثل المجدليّة، والسامريّة وسواهما، فأجابهم أنّ اتّهامهم هذا يدلّ على ريائهم وجهلهم لكُنْه رسالته، فهو إنّما جاء كي

يردّ الخطأة، مقارنًا بين القروح الخارجيّة المرئيّة التي يطهّر شفاؤها الإنسان، والقروح الداخليّة السرّيّة التي، مع تدنيسها النفس، تبقي على مظهر طهارةٍ زائفةٍ.

وأخذ الفرّيسيّون على تلاميذه إحجامهم عن غسل أيديهم قبل الطعام، فردّ عليهم بعباراتٍ قاسيةٍ مدينًا تظاهرهم بقداسةٍ كاذبةٍ. وسألهم من هو الأفضل: المدين الذي يلتمس بتواضعٍ إعفاءه من دينٍ ثقيلٍ، ولكنّه، في الآن عينه، يجهد في وفائه، أو المدين بمبلغ أضأل ولكنّه لا يرتدع عن طيشه وتبذيره، ويشتم مدينًا آخر يجهد في إيفاء دينه. ثمّ روى مثَلَي الراعي الصالح والكرّامين المجرمين. ولكنّ أقواله هذه لم تلقَ من الفرّيسيّين سوى الاستهتار واللامبالاة.

وتابع يسوع مسيرته إلى بيت عنيا، معلّمًا وشافيًا في طريقه جميع مَن يستوقفونه ويستغيثون به.

كان لعازر قد عاد من مجدلا، عقب تسوية أمر ممتلكات شقيقته. وكانت المجدليّة، فور وصولها إلى بيت عنيا، قد أقامت في جناح أُختها المتوفّاة مريم الصامتة، وأنفقت الليل منتحبةً، نادمةً. ووجدتها مرتا في الصباح، دامعةً، مبعثرة الشعر، مشوّهة المعالم، متهالكةً فوق ضريح أُختها. وكانت رغم اعتلالها والتأثيرات التي هدّتها، قد حرصت على مواكبة النساء القدّيسات سيرًا على الأقدام، سيرًا لم تألفه قطّ، فتورّمت قدماها وتضرّجتا بالدماء. وبذلت النساء المرافقات كلّ كنوز عطفهنّ لمساندتها وغوثها والتخفيف عنها. وما إن تنامى إليها نبأ قدوم يسوع حتّى تحدّت أوجاعها وهبّت للقائه، خلسةً مستصحبةً خادمتها، وركضت نحو مسافة فرسخ وارتمت عند قدميه، وبلّلتهما بدموع ندمها وشكرها. ومدّ لها يسوع يده وأنهضها، وممّا أوصاها به اقتفاء خطى أُختها المتوفّاة مريم الصامتة، والتوبة على غرارها، مع أنّ أختها ظلّت طاهرةً منـــزّهةً عن الدنس.

عند مدخل بيت عنيا، انفصل يسوع عن تلاميذه المتوجّهين إلى أورشليم، ودخل مع بطرس ويوحنّا إلى حديقة لعازر الذي سارع إلى الترحيب بهم، وأمر

بغسل أرجلهم، والاحتفاء بهم. وكان برفقة لعازر يوسف الأريماثيّ. وفي ذلك اليوم مكث يسوع في بيت لعازر، مكتفيًا بالتحدّث إلى أهل البيت والنساء القدّيسات. وأطلع أُمّه، على انفرادٍ، على مقتل المعمدان، وطلب منها أن تعود إلى الجليل قبل أن يحين موعد عودة ضيوف هيرودس وندماه من ماخيرونت، وتفاديًا لما قد يسبّبون لها من إزعاجٍ.

يسوع يعزّي ويشفي عمّالاً، ويزور أبناء رعاة بيت لحم

في طريقه إلى أورشليم زار الربّ قريةً يسكنها عمّال بناءٍ، وعبيدٌ يضطلعون بأعمال العمار الجارية في أورشليم وجوارها. وكان هؤلاء ما برحوا رازحين تحت صدمة انهيار البناء الذي كان يشيّده بيلاطس، والذي قضى على ثلاثة وتسعين عاملاً، وثمانية عشر مهندسًا، وأصاب الكثيرين بجراحٍ خطيرةٍ، وكسورٍ، وبتر أعضاءٍ. وقد طاف يسوع بهؤلاء المساكين شافيًا الجراح، جابرًا الكسور، مضمّدًا القروح، ناشرًا العزاء.

وشكا بعضٌ منهم عجزهم عن دفع الضرائب المفروضة عليهم، فأوصاهم بالاستعانة بلعازر الذي لن يتردّد في تسديد كلّ ما يترتّب عليهم.

ولدى مروره ببستان الزيتون، حذّر اللاويّين من مصيبةٍ أدهى من تلك التي سبّبها انهيار بناء بيلاطس، وقال: "ما لم تتقبّل هذه المدينة رسالة الخلاص، سينهار الهيكل أيضًا، مثلما انهار ذلك البناء، وسيدفن كثيرون تحت أنقاضه".

وعند الظهر انتهى إلى البيت الذي استراحت فيه العائلة المقدّسة، يوم تقدمته إلى الهيكل، والذي لجأ إليه هو في الثانية عشرة يوم انفصل عن موكب الحجّ، وعاد إلى الهيكل كي يجادل أحباره. وكان ذلك البيت قد تحوّل إلى نزلٍ يديره أسينيّون وقومٌ أتقياء، ولم يبقَ من أصحابه الأصليّين سوى شيخٍ واحدٍ، ما زال يذكر كلّ شيءٍ عن مرور يسوع طفلاً وفتىً بذلك البيت. ولكن لم يعرف أحدٌ في ذلك اليوم

أنّ الضيف الذي حلّ عليهم إنّما هو يسوع نفسه. غير أنّ أحد أبناء الرعاة الذين بُشِّروا بولادة المخلّص، كان قد تزوّج بإحدى بنات ذلك البيت، وكان جميع أهله يفخرون بما أضفاه مرور يسوع عليهم من بركةٍ، وقد حرصوا على تخليد ذكرى ذلك المرور. ولمّا علموا أنّ زائرهم هو المخلّص نفسه، طافوا معه بكلّ أرجاء البيت حيث توقّفت مريم وأُمّها حنّة ويوسف، وطبعوا فيها آثار قداستهم.

ولا ريب أنّ هذه الذكريات أثلجت قلب الربّ.

يسوع ينعى ذوي المعمدان بمقتله

مرّ يسوع بالعديد من القرى قبل وصوله إلى مسقط رأس المعمدان، وإلى بيت زكريّا المبنيّ على تلّةٍ، والمحاط ببساتينٍ وكرومٍ، كان يُعنى بها ابن عمٍّ ليوحنّا، وهو لاويٌّ مستقيمٌ، صديقٌ للأسّينيّين. وكان قد عقد حديثًا أواصر صداقةٍ مع الإنجيليّ لوقا، وزوّده بأخبار العيلة المقدّسة. وقد استقبل يسوع، لدى وصوله، بالترحيب وأحاطه ورفاقه بأرقّ واجبات الضيافة.

وكان قد سبق يسوع إلى ذلك البيت أمّه مريم، وڤيرونيكا، وسوسن، وحنّة زوجة كوزا، ومريم أُمّ مرقس، ولعازر ويوسف الأريماثيّ، وعددٌ من التلاميذ. حيّاهم يسوع جميعًا ثمّ مضى إلى المجمع. وكان ذلك اليوم يوم صومٍ يُحتَفل فيه بانتصار داود على ابنه العاقّ المتمرّد أبشالون. بعد عظته، لبّى يسوع دعوةً إلى الطعام وجّهها إليه لاويّون أحاطوه بالتكريم والاحترام.

وكانت العذراء في طريقها إلى بيت زكريّا قد شاركت مرافقاتها ذكرياتها عن زيارتها إلى إليصابات، وعن القلق الذي ساورها من الشكوك التي ستداخل يوسف عندما سيتبيّن علامات حبلها، لدى عودتها إلى الناصرة، وعن ارتعاش جنين إليصابات لمجرّد تحيّتها لها، وعن النشيد الذي ألهمه إيّاها الروح، والذي غدت تنشده يوميًّا مع نسيبتها إليصابات، وروت لهنّ البكم الذي أُصيب به زكريّا من جرّاء عدم تصديقه بشرى الملاك، والذي لم يتحرّر منه إلاّ يوم أطلق اسم يوحنّا

على وليده، ابن المعجزة. كانت النسوة المستمعات تذرّفن دموع التأثّر وهنّ تستمعنَ إلى رواية العذراء، وكانت هي تبكي حزنًا على سابق ابنها الذي أُحيطت علمًا بمقتله، في حين كانت مرافقاها ما زلنَ تجهلنَه.

وفي المساء ولجت العذراء، مع بطرس ويوحنّا وثلاثةٍ من تلاميذ المعمدان الحجرة التي رأى فيها السابق النور، وكانت أرض الحجرة مفروشةً بغطاءٍ كبيرٍ كان المعمدان قد رأى النور فوقه، وقد اشتركت العذراء وإليصابات في حياكته، وهو من صوفٍ ضاربٍ إلى الصفار، حيكت فيه رسوم أزهار، ومقاطع من النبوءات، وحيك على أطرافه نصّ "تمجيدة العذراء". وذكرت العذراء أنّها كانت قد تنبّأت لإليصابات بأنّ ابنيهما لن يلتقيا إلاّ ثلاث مرّات، وهذا ما حدث: فكان لقاؤهما الأوّل أثناء هروب العيلة المقدّسة إلى مصر، وفي أثناء مرورهم بالصحراء، حيث كانت إليصابات قد أخفت ابنها كي تقيه من جرائم هيرودس السفّاح، ومرّ الطفل يوحنّا على بعد خطواتٍ منهم، وكان لقاؤهما الثاني يوم عماد يسوع على يد سابقه، واللقاء الثالث عندما شاهد المعمدان يسوع على ضفّة الأردنّ فأعلن للملأ: "هذا هو حمل الله حامل خطايا العالم".

ولمّا فرغت العذراء من سرد ذكرياها عن المعمدان وقف يسوع وأعلن مقتله على يد هيرودس، فاغتمّ جميع مستمعيه، وعفّر يوحنّا الإنجيليّ وجهه بالتراب الذي رواه بدموع حزنه. فألقى يسوع كلماتٍ مفعمةً وقارًا وعزاءً، وتأهّبًا لمحنٍ أشدّ دهاءً، ودعا الجميع إلى التزام الكتمان لذلك الحدث الأليم الذي حرص مرتكبوه على إخفائه.

وفي الطريق إلى الخليل توقّف يسوع وصحبه عند مدفن إبراهيم، وألقى كلماتٍ موجزةً، تشير إلى أنّ العهد القديم قد انتهى مع المعمدان. وكانت كلّ مداخل مجمع الخليل مفتوحةً، وقد افترشت فناء المجمع أفواج المرضى الراقدين على أسرّة أو على حصرٍ، ومن حولهم خلقٌ غفيرٌ. وقد علّق يسوع على نصوص ذلك السبت المتعلّقة بمحن مصر، وبالفصح، وبافتداء الأبكار، وكان تعليقه عميقًا، وقد دار

حول صراع الظلمة والنور، وأصغى إليه الجميع باهتمامٍ وصمتٍ، ولم يعترض أحدٌ على أقواله. وبعد أن أشاد بإيمان إبراهيم، تكلّم عن زكريّا وابنه يوحنّا، واستفاض في الحديث عن سابقه ورسالته، وعن سرّ ولادته، واعتكافه في الصحراء، ودعوته إلى التوبة، وعماده، وتفانيه في إعداد سُبُل الخلاص، وعن اعتقاله. وتحدّث عن الاضطهادات التي تعرّض لها معظم الأنبياء، ومنهم زكريّا الأوّل، رئيس الكهنة الذي قُتل بين المقدس والهيكل، وكأنّه يشير إلى أنّ مقتل المعمدان قد تمّ بين زمن الهيكل وزمن المذبح، بين ولادة يسوع وصلبه.

هذا الحديث عن الأنبياء هزّ قلوب المستمعين، واستمطر دموع الكثيرين منهم، فساد صمتٌ عميقٌ، وتأثّر الفرّيسيّون أنفسهم، وأُغمي على أقرباء المعمدان وأصدقائه، ولكأنّ حدسًا بمقتله قد خطر ببالهم.

ومساء ذلك اليوم، اختلى أقرباء المعمدان مع يسوع وأمّه وتلاميذه في بيت ابنة أُختٍ لإليصابات، في جوٍّ خيّم عليه الأسى والوجوم، وسأل أقرباء يوحنّا بخفرٍ: "يا ربّ، ألن نرى، بعدُ، يوحنّا؟" فأجابهم باكيًا: "لا، أبدًا". ثمّ تحدّث عن مقتله بعباراتٍ تقطر تأثيرًا وعزاءً. ولّما عبّر ذوو المعمدان عن خشيتهم من أن يتعرّض جثمانه، أيضًا، للتدنيس، هدّأ من روعهم مؤكّدًا أنّ ذلك الجثمان ما زال مصانًا، وأنّ رأسه الذي نُجّس وانتُهكت حرمته وأُلقي في حفرة نفاياتٍ، سيظهر ذات يومٍ وسيحفظ. وأردف قائلاً إنّ مقتل المعمدان لن يلبث أن يُذاع، وسيضطرّ هيرودس إلى مغادرة "ماخيرونت"، وسيتمكّن تلاميذ يوحنّا من خطف جثمانه. كان يتكلّم ودموعه تمتزج بدموع مستمعيه.

وقد أسهم يسوع في إعداد حفرةٍ يُودع فيها جثمان المعمدان، في الكهف الذي كان يحتوي لحد زكريّا الأوّل، فيما كان يتأهّب تلاميذه للإتيان بذلك الجثمان بأيّ ثمنٍ.

أمّا إليصابات فكانت قد دُفنت في الصحراء على مقربةٍ من المغارة التي اعتكف فيها ابنها قبل انطلاقه لرسالته.

خطف جثمان المعمدان

وسرعان ما تألّفت كتيبةٌ من ستّة متطوّعين ضمّت ثلّةً من تلاميذ المعمدان، وأخذت على عاتقها مهمّة الإتيان بجثمان المعمدان، فأعدّوا أكفانًا، وأربطةً وطيوبًا، ومحفّةً جلديّةً، وألقوها جميعها على متن حمارٍ، وانطلقوا صوب "ماخيرونت"، حيث كان الجثمان ما زال مسجّى فوق صخرة سجنه. (تقول الرائية أنّها رأته هناك مغمورًا بالنور، وإلى جانبه ملاكٌ ممتشقٌ سيفًا).

عقب مسيرة يومين انتهوا، مساءً، إلى "ماخيرونت". فأودعوا الحمار لدى مزارع وأخذوا المعدّات، وارتقوا تلّة القصر، وكان بينهم من ألفوا زيارة المعمدان في سجنه، وباتوا معروفين من حرّاس القصر، فرجوهم أن يأذنوا لهم بالدخول، ولكنّ الحرّاس رغم تعاطفهم معهم، لم يجسروا على تلبية مطلبهم، فانسحبوا، وطافوا حول سور القصر. وأمام سجن يوحنّا، صعد تلاميذ يوحنّا، بعضهم على أكتاف بعضٍ، وتمكّنوا من اجتياز ثلاثة جدران وحفرتين، بلا عائق، وانحدروا إلى مكان السجن من خلال كوّةٍ في السطح، وتقدّموا حاملين المشاعل من جنديّين مكلّفين بالحراسة، وبجرأةٍ قالوا لهما: "نحن تلاميذ يوحنّا المعمدان الذي قتله هيرودس، وقد جئنا لاستلام جثمانه". ولم يقاوم الجنديّان، وخفّا لفتح باب السجن، ربّما استنكارًا لفعلة هيرودس الشنيعة، وتضامنًا مع تلاميذ النبيّ، أو خوفًا من عدم تكافؤ عددهم مع عدد التلاميذ، ولا سيّما أنّ عددًا من الجنود كانوا قد فرّوا، في الأيّام السابقة، استنكارًا للجريمة.

انطفأت المشاعل، فور دخول التلاميذ السجن، ولكنّ نورًا ساطعًا سماويًّا ملأ المكان ولكأنّه ضوء النهار. فهرع التلاميذ نحو الجثمان فانحنوا عليه منتحبين. وتروي الأخت الرائية أنّها رأت طيف امرأةٍ تشبه أمّ الله منحنيًا على الجثمان. ولكنّها أُعلِمت لاحقًا أنّه طيف إليصابات.

وبسرعةٍ قام التلاميذ بغسل الجثمان وتطييبه ولفّه بالأكفان. وساعد طيف أُمّه

بكلّ تلك الإجراءات، بعنايةٍ واندفاع. وجمع التلاميذ الدماء الغزيرة التي كانت قد انثالت إثر قطع رأسه وأودعوها في القوارير التي أُفرغت من الطيوب. ثمّ أُودع الجثمان في كيسٍ من جلدٍ ولُفَّ بجلد الخراف الذي كان المعمدان يتلفّع به، وحمله اثنان منهم، فيما عُني آخرون بنقل قوارير الدم والأوعية التي احتوت أحشاءه، ورافقهم الجنديّان اللذان كانا يحرسان السجن، وأخرجاهم من القصر عبر ممرٍّ سفليٍّ ضيّقٍ كان يوحنّا قد أُدخل منه. وقد تمّ كلّ شيءٍ بسرعةٍ فائقةٍ، واعترى الجميع تأثّرٌ يستعصي على الوصف.

واجتازت أطيافهم عتمة الليل وصمته، وقد ران عليهم شعورٌ فريدٌ امتزجت فيه الرهبة التي كانت توحيها قداسة الجثمان الذي أنقذوه، بفرح إنقاذه. وعقب مسيرةٍ طويلةٍ، وعند انبلاج الفجر انتهوا إلى عبر الأردنّ، حيث كان يوحنّا يعمّد، وحيث انضمّوا هم إلى جماعته، وفجأةً تحطّمت كلّ سدود المشاعر التي كانوا يكتمونها، وفاضت مآقيهم بدموعٍ اختلجت فيها كلّ ألوان التأثّرات.

شفاء مقعد بيت حسدا

إثر زيارته إلى بيت عنيا، قصد يسوع مع بعض أتباعه بركة بيت حسدا، وتوجّه صوب باب جانبيٍّ كان يُبقى مغلقًا، وغير مستخدمٍ، إذ كان يحشر في ذلك الجانب البائسون الأشدّ فقرًا وإهمالاً وتهميشًا. وفي زاوية ذلك المكان كان يرقد رجلٌ مشلولٌ منذ ثمانيةٍ وثلاثين سنة.

طرق يسوع الباب المغلق، فانفتح في الحال، وطاف بالمرضى، ومضى إلى الأروقة الأكثر ملاصقةً للبركة، حيث كان مصابون بأسقامٍ من كلّ لونٍ جالسين أو راقدين، فألقى عليهم أقوالاً خلاصيّةً، ووزّع التلاميذ على الأشدّ عوزًا خبزًا وثيابًا، وأغطية كانت النساء القدّيسات قد أعددنَها لهم، زارعين الفرح والعزاء في تلك القلوب التي طالما عانت الإهمال واللامبالاة.

وبعد أن تفقّد أحوال الكثيرين هناك وعزّاهم وثقّفهم، سألهم هل يؤمنون أنّ الله قادرٌ على غوثهم، وهل لديهم رغبةٌ في الشفاء، واستعدادٌ للتوبة عمّا اقترفوه من خطايا، ولنيل المعموديّة. وذكّر بعضًا منهم بما كانوا قد ارتكبوا من ذنوبٍ، فاضطربوا وهتفوا: "يا معلّم، أنت نبيٌّ..." وأبرأ عددًا منهم، ولا سيّما من المبتلين بعمًى، ودعاهم إلى غسل عيونهم بماء البركة حيث سكب قطرات من زيته الشافي. وأهاب بهم أن يعودوا إلى بيوتهم، ويكتموا أمر شفائهم حتّى انتهاء السبت. وفي هذه الأثناء كان تلاميذه يجرون أشفيةً في الأروقة الأُخرى، وقد أحدثت هذه الأشفية وإقبال مَن نالوها على الاغتسال في البركة، جلبةً لافتةً.

بعدئذٍ عاد يسوع إلى الباب المغلق وإلى المُقعد الراقد وراءه، منذ ٣٨ سنةً. وكان قد سبق لذلك الرجل أن عمل بستانيًّا، ولكنّ علّته المتمادية حوّلته إلى مستعطٍ، وإلى الاكتفاء ببقايا الطعام الذي يؤتى به لرفاقه البائسين، إذ كانت أُسرته قد تخلّت عنه، واستحقّ له تمادي علّته لقب العليل الذي لا أمل له في شفاءٍ. وبادره يسوع بسؤال: "هل تريد أن تشفى؟"، ولكنّ الرجل لم يجرؤ على ترجّي أن يمدّ له الربّ يد العون، وخُيّل إليه أنّ ذلك السؤال كان استفسارًا عن سبب طول بقائه في ذلك المكان، فأجاب: "يا سيّد، ليس لي من يلقيني في البركة حين يتحرّك ماؤها. وكلّما جرّبت أن أجرّ نفسي إليها يسبقني آخرون". غير أنّ يسوع بسط أمام عينيه خطاياه السالفة، ساعيًا إلى تفجير ندمه وتوبته، وحرّضه على التخلّي عن الأفكار الفاسقة وعن التجديف، لكي يتحرّر من بلواه، وأكّد له أنّ الله يتقبّل ويساعد من يتوسّلونه بتوبةٍ صادقةٍ. هذه الأقوال الطافحة رحمةً وعطفًا خضّت أعماق ذلك الإنسان الذي طالما شكا من إهمال الجميع له. وقال له الربّ: "انهض، واحمل فراشك وامضِ". وأوصاه، قبل ذلك، أن يغتسل في البركة، ثمّ أوعز لأحد تلاميذه أن يقتاده إلى أحد المساكن التي كان أصدقاؤه قد أعدّوها للمفتقرين إلى مأوًى، في جبل صهيون، على مقربةٍ من محترف نحت يوسف الأريماثيّ.

اغتسل، إذن، ذلك البائس، وهمّ بحمل فراشه، وشاهده اليهود الذين اعتادوا رؤيته مطروحًا في ذلك المكان وظنّوا أنّ قدرة مياه البركة الشفائيّة هي التي أبرأته، فاعترضوا قائلين: "لا يحقّ لك حمل فراشك يوم السبت". فأجاب: "ولكن الذي شفاني هو الذي أمرني أن أحمله وأمضي"، فسألوه: "ومن هو ذاك الذي شفاك؟" ولكنّه لم يكن يعلم أنّ اسمه يسوع، وكان الربّ قد غادر المكان مع تلاميذه.

تعلّق الأخت الرائية على هذا الحدث بقولها إنّ سؤال الربّ: "هل تريد أن تشفى؟" كان يعني "هل تريد أن تتصالح مع الله، وتصطلح؟ هل تريد الاعتراف بأنّك خاطئٌ؟". أمّا جواب الرجل بأنّ ليس له من يلقيه في البركة، فيعني أنّ لا أحد يهتمّ بنفسه، وأن ليس له مرشدٌ ولا دليلٌ. وقوله أنّه كلّما همّ بالوصول إلى البركة يسبقه إليها آخر، يعني أنّ أفعاله أيضًا مصابةٌ بالشلل، وهي عاجزةٌ عن إيصاله إلى بركة النعمة. وتقول الأخت الرائية أيضًا أنّها رأت المُقعد يهمس في أذن الربّ ويبوح له بالعائق الحقيقيّ الذي يبقيه أسير الخطيئة والشلل، وندمه على ذلك، وحينئذٍ قال له الربّ: "قم واحمل فراشك وامضِ فقد أُعيدت لك صحّتك بعد اعترافك، وندمك، وإيمانك".

هذا الشفاء الذي نعم به عليلٌ تمادى مرضه، وعدّه الجميع متعذّر الشفاء، أحدث دويًّا لم يعهد مثيلاً له أيّ شفاءٍ آخر.

يسوع في أورشليم، ورأي بيلاطس فيه

وجاء إلى أورشليم وقصد مع ثلّةٍ من التلاميذ الهيكل، حيث كان يُحتَفل باختتام السنة الشرعيّة وكان اللاويّون دائبين على إعداد المشاعل، فواكبهم يسوع إلى المكان المخصّص للكهنة، وحدّثهم في أمورٍ خطيرةٍ، فأصغوا إليه فترةً، ولكن سرعان ما أخذ عليه بعضٌ منهم جرأته في اقتحام أمكنةٍ مخصّصةٍ للكهنة، وخاطبوه تهكّمًا بصفته جليليًّا... فأجابهم، بوقار، أنّه يحقّ له الإقامة في بيت أبيه، وانسحب. قوله هذا أثار سخريّتهم، ولكنّ حضوره كان أحدث فيهم رهبةً قدسيّةً.

وفي نوبةٍ أُخرى، اعتلى المنبر وطلب أن يُعطى لفائف الكتب المقدّسة، وعلّق على النصّ الذي تلاه تعليقًا أدهش مستمعيه، ولم يجرؤ أحد على معارضته. غير أنّ فئةً من الفرّيسيّين دنوا منه في نهاية طقوس السبت، مستفسرين عن مكان دراسته، وعمّن أعطاه حقّ التعليم، وعن جرأته في اغتصاب هذا الحقّ. فانطوى جوابه على قدرٍ من الجلال والوقار، أفحمهم. فغادر الهيكل إلى بيت عنيا مع صحبه. ولم يُلحظ وجود يسوع في أورشليم في هذه النوبة، من جرّاء غياب خصومه الشرسين. ولم تُعرف هويّته إلاّ عندما اختتم تعليمه، فراحوا يتندّرون عن ذلك الجليليّ.

عشيّة سفر بيلاطس إلى روما تشاور مع أعوانه، وورد ذكر الناصريّ ومعجزاته المدهشة. فسأل بيلاطس هل أتباعه كُثُرٌ، وهل هم مسلّحون، فأُجيب أنّهم حفنةٌ ممّن لا شأن لهم، والمسالمين، وأنّه غالبًا ما يتجوّل وحيدًا، ويعظ في المجامع وعلى قمم الجبال، ويشفي المرضى، ويحسن إلى الفقراء، وكثيرًا ما يحتشد آلافٌ لسماع مواعظه. وسأل بيلاطس: "هل يهاجم الإمبراطور؟" فقيل له أنّه لم يُسمع قطّ يقول عنه سوى واجب إعطاء القيصر ما هو له وإعطاء الله ما هو له، وهو يبشّر بملكوته الوشيك، داعيًا إلى التوبة والرحمة. واستخلص بيلاطس ممّا سمع أنّه طالما اقتصر على صنع المعجزات، ولا يجرّ في إثره محاربين أو عصاباتٍ مسلّحةً، فلا داعي للقلق بشأنه. فهو حالما يغادر مكانًا ينساه القوم وقد يشتمونه، مثلما يفعل حاليًّا كهنة اليهود. أمّا عندما يحيط نفسه بمسلّحين، فحينئذٍ يهتمّ بأمره.

وبالمقابل، كان القلق يساور هيرودس بشأن الناصريّ، فيسعى إلى مقابلته زاعمًا أنّه المعمدان الذي قام من الموت.

وفي ساعةٍ متأخّرةٍ من الليل، عاد المتطوّعون الذين عادوا بجثمان المعمدان وورووا كيف دفنوه إلى جانب أبيه زكريّا. وهنّأ يسوع الجنديّين اللذين سهّلا مهمّة تلاميذه وواكباهم، وتعهّد لعازر بتوفير ملجأٍ لهما وبالعناية بهما.

ودعا يسوع تلاميذه إلى مكانٍ منعزلٍ، عسى أن يتيسّر لهم بعض راحةٍ، والبكاء لا على المعمدان بل على الظروف التي أفضت إلى مقتله.

ومن المؤكّد أنّ الراحة لن تتوفّر، يومًا، ليسوع، ففي ذلك اليوم عينه كان الرسل وعددٌ من التلاميذ قد شخصوا إلى كفرناحوم، وسرعان ما ازدحم بيت مريم بحشودٍ جاءت من كلّ أنحاء فلسطين ومن سوريّة، وغطّت جبل التطويبات وجواره جموع المتوافدين لسماع يسوع.

محرّر المساجين

جاء الربّ مع ستّةٍ من رسله ونحو عشرين تلميذًا إلى محلّة تدعى "ثيرذا"، حيث يجثم وسط أرضٍ قاحلةٍ بناءٌ منيفٌ له جدرانٌ صفيقةٌ وأبراجٌ عديدةٌ، وتتوسّطه فسحاتٌ رحبةٌ. وقد سبق لهذا المكان أن كان قصر ملوك إسرائيل. أمّا ما تبقّى منه، إثر دماره، فقد حُوِّل سجنًا ومشفًى. دخل يسوع واستأذن مديره بعيادة المرضى، وطاف بأجنحتهم وحجرهم، معلّمًا، معزّيًا، شافيًا، وفيما كان يرافقه عددٌ من تلاميذه ويؤازرونه في رفع المرضى ومساندهم والعناية بهم، كان رسله يطوفون في أجنحةٍ أُخرى ويُجرون أشفية، ويعدّون نزلاءها لزيارة الربّ.

وفي فناءٍ معزولٍ من البناء كان يقبع مسكونون بأرواحٍ مُقيَّدون بسلاسل، فأطلقوا صيحاتٍ مريعةً، عندما دخل يسوع البناء، ولكنّه أمرهم بالسكون، ثمّ عاد إليهم وحرّرهم من شياطينهم وشفاهم.

وفي جانبٍ قصيٍّ من البناء كان محجرٌ للبرص، فزارهم الربّ وطهّرهم من علّتهم. وعاد الذين نعموا بالشفاء من أهل تلك المدينة إلى ذويهم، أمّا الذين كانوا قد جاؤوا من أماكن نائية فقد أُعطوا طعامًا ولباسًا وأغطيةً زوّدت بها النساء القدّيسات تلاميذ يسوع.

ثمّ شخص الربّ إلى برج النساء، حيث تكدّست نساءٌ مصابات بشتّى العلل، فشفى كثيراتٍ. وكان أحد أجنحة البرج قد حُوّل إلى سجنٍ للنساء، عقابًا لفئةٍ

منهنّ على سلوكهنّ الفاسق، وانتقامًا لأُخرياتٍ بسبب ميولهنّ السياسيّة، فيما سُجنت كثيراتٌ بهتانًا، بلا علّةٍ تبرّر سجنهنّ.

وكان هناك أيضًا زنزاناتٌ لرجالٍ أودع بعضهم فيها لتخلّفهم عن سداد ديونٍ، أو عقابًا على تمرّدٍ، أو انتقامًا من خصومٍ راغبين في التخلّص منهم. وكان معظمهم، بعد أن أُدخلوا السجن، وكفَّنهم النسيان، وتعفّنوا، ولم يعبأ أحدٌ بأمرهم.

شكا العديد من المرضى والمسجونين للربّ معاناتهم الظلم والإهمال، وكان هو عليمًا ببؤسهم الذي دفعه إلى المجيء لتلك المطارح الكئيبة.

كان حرّاس السجون رومانيّين تحت إمرة رومانيٍّ، وسُمح ليسوع بالتحدّث إلى فئةٍ منهم، فاستمع إلى شكاواهم، وعزّاهم، ووزّع عليهم ما يكفل التخفيف من وطأة محنتهم، ووعد مسجونين بسبب تخلّفهم عن وفاء دينٍ، بتسديد ديونهم عنهم. وزفّ لهم ولآخرين بشرى إطلاق سراحهم القريب، فيما وعد آخرين بتخفيف معاناتهم.

وقابل الربّ مدير السجن الذي كان يتحلّى بشيءٍ من رقّة المشاعر، وحدّثه بعباراتٍ حازمةٍ ومؤثّرةٍ عن أحوال السجناء، وبإثبات براءة الموقوفين ظلمًا واعتباطًا، وباصطلاح أحوال آخرين. ثمّ استأذن بمقابلة المودعين في زنزاناتٍ موصدةٍ، سوداء، المعزولين عن العالم، فأوضح المسؤول عن السجن أنّ جميع هؤلاء هم يهودٌ، وأنّه لا يحقّ له السماح بمقابلتهم إلاّ بموافقة القضاة والفرّيسيّين. فوعده يسوع بالعودة مع القضاة عقب تعليمه في المجمع.

ذلك اليوم الذي نعم فيه السكّان اليهود بمباهج العيد، أنفقه يسوع منذ الصباح حتّى العصر في ذلك المكان الكئيب، ساعيًا إلى تسريب شيءٍ من العزاء والرجاء، إلى قلوب نزلائه، هو وحده اهتمّ بمصيرهم، وفيما أوكل إلى بعض تلاميذه إيصال مساعداتٍ إلى السجناء، أَمّ المجمع. وكانت أخبار إحساناته قد

ذاعت، فسبقه إلى المجمع عددٌ ممّن نعموا بشفاءٍ على يده، وتجمّع مرضى آخرون أمام المجمع طمعًا في نيل الشفاء، وحقّق لهم يسوع ورسله رجاء معظمهم. وقد ضمّ المجمع، يومئذٍ، فرّيسيّين وصدّوقيّين وهيرودسيّين، وغصّ بالمستمعين، وتكلّم الربّ عن فرحة إسعاد الآخرين في أيّام الأعياد، وعن التطويبات، ولا سيّما تطويبة الرحماء، وروى مثل الابن الضالّ التائب، وعن بؤس السجناء والمرضى القابعين في المشفى، والذين يعانون العوز، فضلاً عن الإهمال والنسيان والتخلّي، في حين يغتني آخرون ظلمًا بما كان معدًّا لتخفيف معاناة المظلومين المحرومين، مندّدًا، تنديدًا صارمًا، بالمسؤولين عن ذلك الخلل. أدرك فرّيسيّون أنّ التنديد يطالهم فاستشاطوا غيظًا. وفي هذا المنحى، أيضًا، روى مثل السيّد الذي أعفى أحد عبيده من دينٍ جسيمٍ، في حين لم يرحم هذا العبد زميلاً له كان مدينًا له بمبلغٍ ضئيلٍ. وأحسّ عددٌ من المستمعين أنّهم المعنيّون بهذا المثل. ورجا يسوع أن يسرّب مَثَل الابن الضالّ دفق حنانٍ إلى من أدّت أخطاء أبنائهم إلى السجن.

وأعلن يسوع أمام المجمع أنّه سيسدّد ديون المسجونين بسبب تخلّفهم عن وفائهم دينًا، والذين أودعوا السجن ظلمًا وأُهملوا، وطالب قضاةً بمرافقته إلى المسؤول عن السجن لهذه الغاية، وبما أنّ إعلانه كان على مسمع الشعب لم يجسر الفرّيسيّون على الاعتراض، ولكنّ الشرّ المعشّش في نفوسهم جعلهم يطالبون بأضعاف ما كان يحقّ لهم من ديونٍ، وإزاء تضخّم المبالغ المطلوبة، اضطرّ يسوع إلى توقيع تعهّدٍ بأداء المطلوب في غضون مهلةٍ محدّدةٍ، معتمدًا على وعد لعازر له ببيع ممتلكات المجدليّة لهذا الغرض. وقد واكب يسوعَ والقضاةَ إلى السجن موكبٌ لجبٌ يشيد، جهارًا، بمكارم يسوع ويمجّده. وأمر مدير السجن بالإفراج عن المساجين، فخفّ يسوع وتلاميذه إلى استلامهم. ولم يكن لبعض هؤلاء من لباسٍ سوى شعورهم الطويلة وأسمالٍ رثّةٍ، وكان الخَوَر قد بلغ ببعضهم أن عجزوا عن الحركة. فأمر يسوع بغسلهم وإطعامهم، وإلباسهم ثيابًا لائقةً، وتوفير مساكن مؤقّتةٍ لمن

أُفرج عنهم إفراجًا مشروطًا بتسديد كامل ديونهم. في ذلك اليوم تحوّلت كآبة السجن والمشفى إلى طوفان فرحٍ.

وتنامى ذلك الأمر إلى مسامع هيرودس الذي ما انفكّ يؤكّد له حدْسه بأنّ يسوع ليس سوى المعمدان الذي بُعث من الموت. كان هيرودس، من قبلُ، يسمع عن الناصريّ من خلال أحاديث الناس، وعظات المعمدان، ولا يحفل به، أمّا وقد استبدّ به وجع الضمير في أعقاب قتله المعمدان، فقد غدا كلّ ما يسمعه عن الناصريّ يهيّج هواجسه.

يسوع في كفرناحوم - سجالٌ مع الفرّيسيّين

عاد يسوع إلى كفرناحوم. وعند ساعة الظهر، توقّف في نزل حيث كانت تنتظره أُمّه، ومن حولها جوقة النساء القدّيسات وستّةٌ من رسله، وثلّةٌ من التلاميذ. وقد غمر جميعهم فرح التلاقي. غير أنّ هذا الفرح سرعان ما تلاشى أمام الحزن العميق الذي خيّم على الحضور لدى إطلاعهم على ظروف مقتل المعمدان، واستمطر من مآقيهم سيول الدموع الحرّى.

ثمّ عبّر التلاميذ عن شديد قلقهم من ازدحام كفرناحوم بجموعٍ توافدت من كلّ صوب، ومن التهديدات التي كان يلوّح بها أربعةٌ وستّون فرّيسيًّا، كانوا قد قدموا من كلّ جهات فلسطين. وكانوا في أثناء مسيرهم قد أجروا تحقيقًا دقيقًا حول أكثر شفاءات يسوع إبهارًا وإعجازًا، فاستنطقوا أرملة نعيم وابنها وشهود بعثه من الموت، وأخضعوا قائد مئة جيسكالا إلى تحقيقٍ صارمٍ، وكذلك قائد المئة زروبابل وابنه، وكورنيليوس وخادمه، ويائير وابنته، وطائفةً من العميان الذين أعاد لهم يسوع النظر، والمَقعدين الذين أعاد لهم القدرة على الحركة، واستمعوا إلى مئات الشهود، ولم يؤتهم ذلك إلاّ مزيدًا من حَنَقٍ وخيبةٍ، ومن تأكيد حقيقة هذه الأشفية المعجزة. ولم يجدوا سبيلاً إلى مواجهة هذا الواقع الراهن الصادم سوى اختلاق الأكاذيب وإشاعة المثالب ، مدّعين أنّ يسوع يجري هذه الأشفية مستعينًا برئيس

الشياطين، آخذين على الجليليّ إحاطة نفسه بثلّةٍ من النساء الفاسقات، وبإثارته الشغب، وباستلابه تقادم الهيكل، وتدنيسه حرمة السبت... ومعلنين عزمهم على القضاء عليه قضاءً مبرمًا.

هذه التهديدات والأكاذيب، وكثافة الجموع، مضافةً إلى قطع رأس المعمدان، زرعت الخوف في قلوب أقرباء يسوع وأصدقائه ورسله وتلاميذه، الذين توسّلوه النأي عن كفرناحوم، والإقامة في أماكن أوفر أمانًا مثل نعيم أو الخليل. ولكنّ يسوع هدّأ روعهم، وأكّد عزمه على دخول كفرناحوم، حيث سيَخرس خصومه وأعداؤه حالما يمثل أمامهم.

وفي المساء توجّه يسوع وأمّه والنساء القدّيسات إلى بيت العذراء في وادي كفرناحوم، جماعاتٍ صغيرةً متفرّقةً. ولحق بهم الرسل والتلاميذ عبر دروبٍ مختلفةٍ. وتحت غطاء الليل جاء يائير، وأحاط يسوع علمًا بالاضطهادات التي نالت من ذويه ومريديه، وبإعفائه من وظيفته، وأكّد له أنّه سيكرّس ذاته، منذئذٍ، لخدمة يسوع، الذي عزّاه وطمأنه.

كانت كفرناحوم غاصّةً بالغرباء، يهودٍ ووثنيّين، مرضى وأصحّاء، وقد غطّت خيامهم التلال والوديان المجاورة، وسرحت في سهولها وهضابها الجمال والحمير، واختلط في تلك المنطقة أقوامٌ، تهافتوا لرؤية نبيّ الناصرة ولسماعه من كلّ صوبٍ، من جميع مناطق اليهوديّة، ومن سوريّة وبلاد العرب، وفينيقيا وحتّى من جزيرة قبرص.

صباح اليوم التالي زار يسوع كلاًّ من زُروبابل وكورنيليوس، ويائير. وكانت أُسرة هذا الأخير قد تحوّلت تحوّلاً كلّيًّا، وقد استعادت ابنته عافيتها، وأضحت متواضعةً، محتشمةً، تقيّةً.

ثمّ شخص يسوع إلى مشفى المدينة الذي غصّ بمرضى يهودٍ ووثنيّين، كما لم يحدث قطّ، وكانت أعدادهم من الجسامة بحيث اضطرّ التلاميذ إلى إجلاسهم على أدراجٍ متراتبةٍ. ولم يكن أولئك المساكين يستدعون يسوع فقط، بل يستغيثون

بالرسل قائلين: "ألستم تلاميذ النبيّ، ارأفوا بنا، أغيثونا، اقتادونا إليه!" وقد أنفق يسوع ورسله وأربعةٌ وعشرون تلميذًا ساعاتٍ طويلةً في العناية والشفاء والتعليم.

ثمّ وقف يسوع في بهو المشفى فلحق به العديد ممّن نعموا بالشفاء، ومن آخرين، فثقّفهم متناولاً عدّة مواضيع، مؤكّدًا على الصلاة التي ينبغي أن تستمرّ بلا كللٍ ولا مللٍ. وروى، في هذا السياق، مثل القاضي الظالم الذي اضطرّ إلى إنصاف أرملةٍ كي ينجو بنفسه من إلحاحها، مستخلصًا أنّه إن استسلم قاضٍ ظالمٌ لهذا الإلحاح، فكيف لا يستجيب إله الرحمة للمستغيثين به! وعلّمهم الصلاة، وفسّر لهم مقاطع الصلاة التي لقّنهم التوجّه بها إلى الآب السماويّ. وقال إن كان أبٌ بشريٌّ لا يعطي حجرًا لابنه الذي يطلب منه خبزًا، فبالأحرى لا يعطي الأب السماويّ عقربًا أو حيّةً لمن يطلب منه سمكةً.

هذا الانهماك الدائب أنسى يسوع وصحبه حتّى حاجتهم إلى طعام. وكان أقرباء للعذراء وليوسف قد أعدّوا في بيتٍ ملاصقٍ للمستشفى مائدةً ليسوع وصحبه الذين أهملوا الطعام منذ أيّامٍ، فاستصحبت العذراء ثلّةً من أقربائها وجاءت تذكّر يسوع بموعد الطعام وضرورته. وكان يسوع يعلّم جمعًا كثيفًا، وإذ تعذّر عليها الوصول إليه، كلّفت واحدًا من الحضور بإبلاغه رسالتها، وهذا كلّف آخر، إلى أن وصلت الرسالة إلى الأقرب من يسوع، وكان هذا من العيون التي دسّها الفرّيسيّون كي يترصّدوا يسوع، فقال له مستهزئًا، منوّهًا بادّعائه أنّه ابن الله الآب: "ها إنّ أُمّك وإخوتك، يبحثون عنك في الخارج". فحدّق إليه يسوع وأجابه: "من هي أُمّي ومن هم إخوتي؟" وأشار بيده إلى رسله وقال: "هؤلاء هم أُمّي". فهم الكنيسة أمّ جميع المؤمنين به. وأشار إلى التلاميذ وقال : "هؤلاء إخوتي" فهم يصغون إلى كلمة الله ويعملون بها، ولكنّه أوعز إلى رسله وتلاميذه بالمضيّ لتناول الطعام فوجًا إثر فوجٍ.

ثمّ شخص إلى المجمع ثانيةً، حيث استغاث به معتلّون وشفاهم. وعند بدء

السبت دنا منه، في فناء المجمع، رجل وأراه يده التي تيبّست، والتوَتْ وضمرت، وسأله أن يشفيه، فدعاه إلى الانتظار. واستغاث به قومٌ كانوا يقتادون مسكونًا بأرواحٍ شرّيرةٍ، مقيّدًا بحبالٍ، كان يتخبّط تخبّطًا مريعًا. فأمره يسوع بالجلوس هادئًا عند مدخل المجمع، فجلس مسندًا رأسه على ركبتيه مختلسًا النظر إلى يسوع، وظلّ هادئًا طيلة عظة يسوع.

كان المجمع وفناؤه غاصَّيْن بالمستمعين، وقد اندسّ بينهم عددٌ غفيرٌ من الفرّيسيّين والهيرودسيّين، يصغون ونفوسهم تجيش سخطًا ومرارةً. غير أنّ سواد المستمعين كان يتألّف ممّن نعموا بالشفاء على يد يسوع، ومن تلاميذه وذوي قرباه. وقد أصغى إليه أهالي كفرناحوم ومعظم الغرباء بالكثير من الإعجاب والاحترام.

لهذه الأسباب كلّها أحجم الفرّيسيّون عن مقارعة المخلّص، بسبب افتقارهم إلى حجّةٍ دامغةٍ، وكان قد تبيّن لهم أنّ سجالهم العلنيّ معه لا يفضي إلاّ إلى إخزائهم أمام الشعب، فأحجموا عن مهاجمته، مؤثرين إشاعة الأكاذيب بشأنه بعد ابتعاده، وتيقّنهم من غياب من يفنّد تخرّصاتهم، ويفضح مساوئهم.

غير أنّهم كانوا قد علموا أنّ الرجل ذا اليد المتيبّسة ما زال أمام المجمع منتظرًا شفاء يسوع له فأملوا أن يتّخذوا من هذا الشفاء، في يوم سبتٍ، حجّةً لإدانته، وكان الفرّيسيّون القادمون من أورشليم هم الأكثر رغبةً في العودة إلى السنهدرين بعلّة إدانة الناصريّ. وكان يسوع لا يكفّ يفسّر لهم معنى السبت الحقّ، وإيثار الله للرحمة على الضحيّة، وروح الشريعة على نصّها. واستوضحه بعضٌ منهم عن جواز إجراء أشفيةٍ يوم السبت، فأجابهم بالمنطق البدهيّ الواقعيّ المُفحِم، فسألهم: "ما المسموح فعله يوم السبت: الشرّ أم الخير؟ خلاص إنسانٍ أم إهلاكه؟" ولمّا لم يحيروا جوابًا واجههم بسؤالٍ أكثر إحراجًا: "من منكم إذا سقطت له نعجةٌ في حفرةٍ، يوم سبتٍ، لا يهرع لانتشالها؟ وأَوَليس الإنسان أثمن من النعجة؟ ألا يسوغ فعل الخير يوم السبت؟". كان انغلاق قلوب الفرّيسيّين وأذهانهم يحزنه، فرمقهم

بنظرة غضبٍ اخترقت ضمائرهم، ثمّ أخذ يد الرجل، فمسّدها، وحرّك أصابعها المتيبّسة، وقال له: "مدّ يدك!" فمدّها وحرّكها، وإذ بها سليمةٌ كاليد الأُخرى. ولم يستغرق شفاؤها سوى ثوانٍ. وخرّ الرجل أمام الربّ شاكرًا، وأطلقت الجموع صيحات التهليل وتمجيد الله، فيما تشاور الفرّيسيّون، الذين كانت نفوسهم تجيش غيظًا، في ما يتوجّب عليهم فعله. ثمّ التفت الربّ إلى الرجل المسكون بالأرواح فحرّره منها، وأعاد له ملكات النطق والسمع. ومن جديدٍ، تعالت أهازيج الجموع. أمّا الفرّيسيّون، الذين أُسقط في أيديهم، فراحوا يردّدون: "إنّ شيطانًا يسكنه، وهو بمعونة رئيس الشياطين يطرد الشياطين". فالتفت إليهم يسوع وقال: "من يأخذ عليّ خطيئة، فليعلنها!" وأردف قائلاً: "ما من شجرةٍ فاسدةٍ تؤتي ثمارًا صالحةً، والشجرة التي تؤتي ثمارًا صالحةً ليست فاسدةً. الشجرة تُعرف من ثمارها. يا أولاد الأفاعي، كيف لكم أن تفعلوا خيرًا وأنتم أشرارٌ؟ إنّما الفم يتكلّم من فيض القلب".

ولم يجد الفرّيسيّين من جوابٍ سوى قولهم: "كفى!" وبلغت القحة بأحدهم أن قال لهم: "ألا تعلم أنّ بوسعنا طردك من المجمع؟"

وتبدّد الجمع، ومعهم مضى يسوع وتلاميذه، وقصد، أوّلاً، بيت أُمّه العذراء حيث تناول العشاء، وزرع العزاء في قلوب النساء القدّيسات، ثمّ أمضى الليل في بيت بطرس حيث كان رسله مجتمعين.

إكمال تثقيف الرسل والتلاميذ، وتكليفهم

في اليوم التالي اعتكف يسوع، في بيت بطرس، مع الرسل والتلاميذ، الذين كانوا قد عادوا من حيث أرسلهم كي يطلعوه على ما حدث لهم، ويستأنسوا بإرشاداته، ويستفسروا عمّا استغلق عليهم.

وكان الرسل الستّة الذين عملوا في الجليل الأعلى قد لقوا وفادةً حسنةً، ونوايا طيّبةً، واستجابةً سمحاء، فاستطاعوا أن يعمّدوا الكثيرين، على نقيض الذين عملوا

في اليهوديّة والذين ووجهوا بالمقاومة في أماكن عديدةٍ، وقد أمضوا السبت يشكون أمرهم للربّ، ويلتمسون توجيهاته. وعند انتهاء السبت احتشد أمام بيت بطرس جمعٌ غفيرٌ، ولكنّ البيت ظلّ موصدًا.

وتفاقمت محاصرة البيت ليلاً، بعد أن تثبّت القوم من وجود يسوع فيه. فنأى الربّ وتلاميذه، خلسةً، ممتطين سفينة بطرس. ولكنّ غيابهم لم يخفَ طويلاً، فجهد كلٌّ من المحاصرين إلى إيجاد وسيلةٍ للانتقال إلى ضفّة البحيرة الأُخرى. وتمكّن بعضهم من سبق موكب المخلّص، ورأوا يسوع وصحبه عندما أرسوا وترجّلوا، وأقبلوا إليه مع إشراقة الشمس. كان يسوع ينوي الاعتكاف في مكانٍ منعزلٍ كي يكمل تثقيف رسله وتلاميذه، غير أنّ تحلّق القوم من حوله جعله يرتقي سفحًا مؤاتيًا للتعليم، وسارع التلاميذ إلى إجلاس الجمع وتنظيمهم، فحدّثهم المعلّم عن التطويبات والصلاة. وفسّر لهم مطلع الصلاة التي كان قد لقّنهم إيّاها. وما هي إلاّ ساعاتٌ معدوداتٌ حتّى وافت وفودٌ من المدن المجاورة مع مرضاها وممسوسيها، فشفى يسوع ورسله كثيرين منهم. وما عتّم أن انضمّ إلى الجمع التلاميذ الذين تريّثوا في كفرناحوم والذين وصلوا إليها بعد السبت.

وبعد ظهر ذلك اليوم صرف يسوع الجموع واعدًا بتعليمهم، في الغد، حيث كان قد ألقى عظة الجبل، ثمّ نشد مكانًا منعزلاً ظليلاً حيث انفرد برسله وتلاميذه. وأوضح لهم المِحَن التي سيواجهونها، وأكمل إرشاده لهم في ما يتعلّق برسالتهم المستقبليّة، وذكّرهم بجوهر عظة الجبل، مؤكّدًا أنّه يرى فيهم ملح الأرض ونور العالم. وحدّد مهمّات كلٍّ من فئة الرسل وفئة التلاميذ، وطريقة علاقاتهم المتبادلة، وكلّف بطرس ويوحنّا بترؤّس أتباعه، ثمّ وضع يديه على الرسل، ومنحهم السلطات الرسوليّة، مكتفيًا بمباركة التلاميذ. وكانوا عميقي التأثّر، ولم يصدر من أيٍّ منهم اعتراضٌ أو تذمّرٌ.

وعندما خيّم الليل استصحب أندراوس وفيليبس ويوحنّا ويعقوب الصغير، وتوغّل معهم في شعاب الجبل، ولكنّه لم ينعم إلاّ بلحظات راحةٍ زهيدةٍ، إذ إنّه قضى ساعاتٍ يصلّي، شاخصًا ببصره إلى السماء، باسطًا ذراعيه. وعند منتصف الليل التمّ شمل جميع الرسل والتلاميذ، فوجّه لهم المعلّم خطابًا موجزًا، ثمّ صلّوا معًا، وتفرّقوا، وراح كلٌّ منهم يبحث عن مرقدٍ، على متن السفينة أو على أعشاب الحقول.

تكثير الخبز

شخص يسوع مع إشراقة الشمس، إلى التلّة التي طالما ، من منبرها، علّم وأعلن تطوبياته. وكان جمعٌ غفيرٌ ينتظره هناك. ودأب الرسل والتلاميذ على وضع المرضى في أماكن ظليلةٍ ومريحةٍ، وأكبّوا مع يسوع على شفائهم، وعمّد التلاميذ، رشًّا، الموعوظين الجدد، ثلاثةً فثلاثةً.

وجاءت العذراء والنساء المرافقات لها، وأنفقنَ ساعات الصباح في العناية بالنساء المعتلاّت وبالأطفال المرضى، وقفلنَ عائداتٍ إلى كفرناحوم، عند الظهر.

وفسّر يسوع، يومذاك، للجموع تطوبيته السادسة، وأكمل ما كان قد علّمه عن الصلاة في مشفى كفرناحوم، وفسّر صلاة "أبانا" التي كان قد لقّنها.

وشارف الوقت الغروب، والقوم بلا طعامٍ، إذ كانوا قد قدموا منذ يومين، واستهلكوا في هذه الأثناء الزاد الذي جاؤوا به، وأخذت قوى بعضهم تخور، وشرع الأولاد يبكون طالبين طعامًا. فدنا الرسل من يسوع ورجوه أن يوقف تعليمه ويصرف القوم علّهم يجدون في القرى المجاورة ما يشبعهم، ويعثروا على أمكنةٍ يرقدون فيها قبل حلول الليل. وفاجأهم الربّ بقوله: "علامَ هم يمضون يبحثون عن طعامٍ؟ ولِمَ لا تقدّمون لهم أنتم ما يأكلونه؟" فردّ فليبّس بلهجة استغرابٍ: "أنمضي ونبتاع بأكثر من مئتي دينارٍ خبزًا، كي ينال كلٌّ من الموجودين لقمةً؟!" وأجاب يسوع بهدوءٍ: "امضِ وابحث كم من الأرغفة لديكم"، وواصل تعليمه.

وكان هناك صبيٌّ قد أرسل سيّده معه، غداءً للتلاميذ، قوامه خمسة أرغفةٍ،

وسمكتان كبيرتان مشويّتان. وأطلع أندراوس على ذلك المعلّم، الذي أوعز بأن يؤتى إليه بالأرغفة والسمكتين وإيداعها أمامه على العشب، واستأنف تعليمه متطرّقًا إلى الخبز اليوميّ. ثمّ أوعز لتلاميذه أن يُجلسوا الجموع، بدءًا بالأكثر جوعًا، مجموعاتٍ من خمسين شخصًا، ثمّ الآخرين مجموعاتٍ من مئة نفرٍ، وطلب أن يأتوه بقفف الخبز. وامتثل الرسل والتلاميذ لمشيئة المعلّم، وأجلسوا الجموع وفقًا لتعليماته، ومُدّ سماطٌ فوق العشب، ووُضعت فوقه الأرغفة والسمكتان المشويّتان. وفيما كان التلاميذ والرسل دائبين على إجلاس الجموع كسر يسوع الخبز، وقسم لحم السمكتين، ثمّ أمسك بأحد الأرغفة وصلّى، وكذلك فعل بالأسماك، وباركها جميعًا، وراح يقسّم الخبز إلى قطعٍ صغيرةٍ، وكانت القطع الصغيرة تكبر بين يديه وتتحوّل أرغفة يكفي كلّ منها لإشباع إنسانٍ، وكان تلميذٌ يضع فوق كلّ رغيفٍ شيئًا من السمك، وآخر يملأ القفف التي تقدّم، أوّلاً، للأشدّ جوعًا. وكلّما فرغت قفّةٌ تعاد ويستعاض عنها بأُخرى ملأى وقد استغرق التوزيع نحو ساعتين. وتمّ الأمر بسرعةٍ وانتظامٍ، وكانت الجماهير مذهولةً وهي تشهد هذا التكاثر وهذه الوفرة.

ولمّا شبع الجمع، أوعز يسوع لتلاميذه أن يجمعوا البقايا لكيلا يهدر شيء. فملأوا منها اثنتي عشر قفّةً. غير أنّ بعض الأشخاص التمسوا أخذ بعض قطع الخبز والسمك، ذكرى ثمينةً.

حيال هذه المعجزة هتف كثيرون: "هذا الإنسان هو النبيّ الذي يحتاج إليه العالم!" ولكنّ يسوع طلب من رسله وتلاميذه أن يركبوا السفينة، ويسبقوه إلى الضفّة الأُخرى. ثمّ ألقى على الجموع عظةً وجيزةً، دارت حول المعجزة التي حدثت أمامهم، وتلا صلاة شكرٍ، وصرفهم. ولكن سرعان ما تعالت صيحات: "هذا هو ملكنا! إنّنا نريده ملكًا علينا". وجروا نحوه لإكراهه على تولّي الملك، ولكن عبثًا، إذ كان هو أسرع منهم، وتوارى في عباب الجبل، حيث أنفق ساعاتٍ يناجي أباه السماويّ.

يسوع يسير فوق الأمواج

فيما كانت سفينة بطرس عائدةً بالرسل والتلاميذ إلى بيت صيدا وكفرناحوم صدّها ريحٌ عتيّةٌ، وحالت دون تقدّمها، وبينما كان القبطان والبحّارة يصارعون الريح بكلّ قواهم ومهاراتهم ومناوراتهم، بلا جدوى، رأوا بغتةً، طيّ غمامةٍ، طيفًا مضيئًا، يطوف فوق الأمواج، ويجتازها اجتيازًا سريعًا، وحيثما يمرّ كانت الأمواج تتهاوى وتسكن، فارتعبوا وأطلقوا صيحات استغاثةٍ. وخطر لبطرس مرّةً أُخرى، أن يثبت صلابة إيمانه، فهتف باندفاعٍ: "يا ربّ، إن كان هذا الطيف أنت فمرني أن آتيك على متن الموج". وقال له الربّ: "تعالَ". وفي هذه النوبة سار بطرس فوق المياه مسافةً أطول من تلك التي اجتازها في نوبةٍ سابقةٍ. ولكن، ولّما أوشك على بلوغ يسوع، اهتزّ إيمانه وجال الخطر في باله، وشرع يغرق، فصاح: "أنقذني، يا ربّ!". وعاتبه يسوع، ثانيةً، لوهن إيمانه. وشكّه، واعتلى معه السفينة، فهرع إليه جميع ركّابها، ساجدين، ومعلنين: "إنّك، حقًّا، ابن الله". ولكنّهم نالوا هم أيضًا، نصيبهم من اللوم بسبب وهن إيمانهم وجبنهم. وما إن ساد الهدوء، حتّى عاد يسوع يُفسّر لهم صلاة "أبانا".

بسيره فوق الأمواج أثبت يسوع لتلاميذه، أنّه، مع سيطرته على قوى الطبيعة، وكونه ملك الكون، يزدري ممالك الأرض وأمجادها الزائفة. وكان عالمًا باندفاع بطرس، وباضطرام إيمانه، واهتزازه في آنٍ معًا، فأراد أن يزيده ثباتًا ويجعل من كبوته حائلاً يقيه من الغرور والكبرياء. في هذه الأثناء استغلق على القوم، الذين دفعهم الحماس إلى المناداة به ملكًا، إثر تكثيره الخبز، غياب يسوع الذي بحثوا عنه سدًى، مع علمهم بأنّ مركب بطرس هو الوحيد الذي كان موجودًا، وشاهدوه يبحر بالرسل والتلاميذ. غير أنّ فئةً صغيرةً منهم تمكّنت من الوصول إلى ضفّة البحيرة الأُخرى، وانطلقت تبحث عنه. وقد التقى يسوع، فعلاً، عددًا منهم، حيث أرست سفينة بطرس في مكانٍ منعزلٍ، فألقى فيهم عظةً موجزةً، لأنّه كان راغبًا في إخماد اندفاعهم واغتنام لحظات عزلةٍ مع رسله وتلاميذه. وعند الظهر

أبحر، ثانيةً، إلى كفرناحوم وحرص على ألاّ يلاحظ أحدٌ وصوله، ووجد فيها لعازر القادم من الخليل مع ابن ڤـــيرونيكا.

وبعد ظهر ذلك اليوم ارتقى يسوع تلّةً قائمةً خلف بيت بطرس حيث كان الغرباء قد ضربوا خيامهم، واحتلّ مع رسله مكانًا يصلح للتعليم، ولحقه إليه جمعٌ غفيرٌ، تألّف، في سواده، ممّن شهدوا معجزة تكثير الخبز والسمك، والذين بادروه بالسؤال: "يا معلّم، كيف جئت إلى هنا، فلطالما بحثنا عنك في كلّ مكان؟" فأجابهم: "في الحقيقة، أقول لكم، أنتم لا تبحثون عنّي بسبب المعجزة التي شهدتموها، بل لأنّكم أكلتم وشبعتم. فاسعوا لا في سبيل غذاءٍ فانٍ، بل في سبيل غذاءٍ باقٍ لحياةٍ أبديّةٍ يعطيكموه ابن البشر، الذي طبعه الله بخاتمه". واستفاض في تفسير قوله هذا، والردّ على استفساراتهم، غير أنّهم ما انفكّوا يتساءلون عمّا يعنيه بوصف نفسه "ابن البشر"، إذ إنّهم جميعهم أبناء بشرٍ.

ودعاهم إلى أن يعملوا عمل الله، فاستوضحوا عمّا يتعيّن عليهم فعله في هذا المجال، فأوضح لهم: "عمل الله هو أن تؤمنوا بالذي أرسله الله: وأسهب في التحدّث إليهم عن الإيمان. فسألوه: "أيّة معجزةٍ ستجريها لكي نؤمن بك؟. فآباؤنا أكلوا في الصحراء، المنّ، أي خبز السماء الذي أعطاه إيّاهم موسى كي يؤمنوا. فما الذي ستعطينا؟" فأجابهم: "الحقّ أقول لكم لم يعطِكم موسى خبز السماء، بل أبي هو الذي يعطي خبز السماء الحقيقيّ. وخبز الله هو الذي يهبط من السماء ويهب العالم الحياة". واستفاض يسوع في تفسير هذا التعليم، فقال له بعضهم: "يا ربّ، أعطِنا دائمًا من هذا الخبز". ولكنّ آخرين كانوا يتهامسون متسائلين: "ماذا يعني أنّ أباه يعطينا خبز السماء؟ ألم يمُتْ أبوه يوسف؟" وسمعهم يسوع، وراح يوضح لهم تعليمه هذا، ولكنّ أقلّيّةً فقط فهمت أقواله. وحتّى تلاميذه ورسله لم يدركوا، في العمق، تعليمه هذا، ولكنّهم لم يطرحوا أسئلةً، بل راحوا يقلّبون أقواله في أذهانهم.

وفي اليوم التالي عاد يسوع إلى التلّة عينها، وأعاد تعليم الأمس. وقد ناهز عدد المستمعين الألفين، فكانوا يتبادلون الجلوس فوجًا إثر فوجٍ، وكان يسوع لا يني ينتقل من جانبٍ إلى آخر كي يسمعه الجميع، ويكرّر أقواله، وقد يضطرّ إلى أن يكرّر أجوبته على الأسئلة المكرّرة، مظهرًا صبرًا وعطفًا بلا حدودٍ. وفي هذه الأثناء كان الفرّيسيّون لا يكفّون يروحون ويجيئون، طارحين الأسئلة المفخّخة، وباثّين الشكوك في الأذهان والنفوس.

وإكمالاً لتعليم الأمس، أعلن يسوع: "أنا هو خبز الحياة. من يأتِ إليّ لن يجوع، ومن يؤمن بي لن يعطش أبدًا. جميع الذين يعطينيهم أبي يستطيعون المجيء إليّ، ولن أردّهم، لأنّني لم أنزل من السماء كي أحقّق مشيئتي، بل مشيئة الذي أرسلني. ومشيئة أبي الذي أرسلني، هي ألّا يهلك أحدٌ ممّن أعطانيهم. مشيئة أبي هي أن ينعم بالحياة الأبديّة كلّ من يرى الابن ويؤمن به، وأن يبعث إلى الحياة، في اليوم الأخير".

ولم يكفّ الفرّيسيّون عن الاستهزاء به وإيغار الصدور عليه، وإبراز ما يعدّونه تناقضًا في أقواله فهو، تارةً، يقول إنّه ابن الله، وتارةً ابن الإنسان، مع أنّ أباه وأُمّه معروفان وكذلك أنسباؤه. أمّا عن قوله إنّه خبز الحياة، فكانوا يؤكّدون أنّ خبز السماء الوحيد الذي يعرفونه هو المنّ الذي أنزله الله على آبائهم استجابةً لدعاء موسى. ولكنّ يسوع ردّ عليهم أنّ آباءهم الذين أكلوا المنّ ماتوا. أمّا من يتناول الخبز الذي يعطيه هو فينال معه الحياة الأبديّة التي لا تنتهي بالموت، مستشهدًا بالنبوءات. ولكنّهم أبوا الفهم، وصعب حتّى على بعضٍ من تلاميذ يوحنّا، وعلى ذوي الأذهان المحدودة والسطحيّة، فهم ما عناه بخبز الحياة.

واستفسر بعضهم عن الزمن الذي سيهبهم فيه غذاء جسده ودمه، فقال إنّه سيفعل ذلك، في أوانه.

وفي اليوم التالي علّم في المجمع، صباحًا ومساءً، مفسّرًا أدعية صلاة "أبانا"،

والتطويبة القائلة: "طوبى لفقراء الروح"، داعيًا من نالوا علمًا ألاّ يزدهوا بعلمهم، ومن أصابوا مالاً ألاّ يفخروا بمالهم، إذ إنّ كلّ علمٍ وكلّ خيرٍ هو من الله. غير أنّ الموضوع الذي كان محطّ تساؤلات القوم ما انفكّ يدور حول خبز الحياة، وحول تناول جسد الربّ وارتشاف دمه، وتمتم حتّى بعضٌ من تلاميذه: "هذا كلامٌ صعبٌ. من يستطيع سماعه؟" ولكنّه حذّرهم من أن تعثّرهم هذه الأقوال، فسيحدث ما هو أشدّ مدعاةً للتعثّر، إذ إنّه سيتعرّض للاضطهاد والتنكيل، فسيهجره أكثر أتباعه وفاءً، ويلوذون بالفرار، في حين هو سيستسلم لأعدائه الذين سيميتونه، ولكنّه لن يتخلّى عمّن هجروه وفرّوا، وأنّ روحه سيظلّ مواكبًا لهم. وأوضح لهم أنّ الروح هو الذي يحيي، وأنّ أقواله هي روحٌ وحياة. ولكنّ بعضهم لا يؤمنون، لأنّ لا أحد يستطيع أن يأتي إليه ما لم يعطِه الآب ذلك.

وفيما كان يعلّم في المجمع تعالت أصوات تذمّرٍ وشتيمةٍ، وانضمّ نحو ثلاثين من التلاميذ الجدد، ومعظمهم من أتباع المعمدان، ومن ذوي الأذهان السطحيّة والمحدودة، وشاركوهم التذمّر، في حين ازداد رسل يسوع وتلاميذه التصاقًا به، فعبّر لهم عن سروره لأنّ أولئك المنشقّين أسفروا عن دخيلة نفوسهم قبل أن يعيثوا فسادًا.

وعندما همّ بمغادرة المجمع، حاول الفرّيسيّون والذين انضمّوا إليهم حديثًا، منعه من ذلك مدّعين أنّ عليه قبل ذلك أن يجيب على الكثير من اعتراضاتهم ومساءلاتهم. ولكنّه تملّص من عدوانهم بفضل رسله وتلاميذه وأصدقائه الكثر، فراح خصومه يجأرون: "لقد اتّضح لكلّ عاقلٍ أنّه فاقد العقل، فهو يطرح أُمورًا خرقاء ومقزّزةً، داعيًا إلى أكل جسده وشرب دمه، مدّعيًا أنّه جاء من السماء وسيصعد إلى السماء".

تفرّق يسوع ورسله وتلاميذه، ونهجوا دروبًا مختلفة على التلال المطلّة على المدينة، ثمّ التقوا في مكانٍ كانوا قد اتّفقوا عليه، فأثار يسوع الموضوع الذي أثار

الشقاق والخصام واستوضح تلاميذه: "وماذا عنكم؟ هل تريدون أنتم أيضًا الانفصال عنّي؟" فأجاب بطرس بلسان الجميع: "إلى من نذهب يا ربّ؟ فأقوالك هي أقوال الحياة الأبديّة. نحن آمنّا وعرفنا أنّك المسيح ابن الله!" وممّا جاء في جواب يسوع: "ألست أنا من اخترتكم أنتم الاثني عشر؟ غير أنّ أحدكم إبليس!".

بعدئذ ارتاحوا في بيت بطرس، وقام يسوع بزيارة أُمّه التي كانت قد استمعت إلى عظته في المجمع، ومع أنّها كانت ملمّةً بكلّ الأسرار التي طرحها ابنها، لكنّها لم تكن قد أدركتها بمثل الوضوح الذي أدركتها به في ذلك اليوم. فحتّئذٍ، كان تجسُّد ثاني أقانيم الثالوث فيها، وصيرورته بشرًا وابنَها، وجميع المعارف السامية الأخرى المتعلّقة به وبالثالوث، مغلّفةً بحبّها المتواضع والخاشع له. غير أنّ هذه الأسرار قد استولت على ذهنها، إثر سماعها إماطته اللثام عن منشئه، ومجيئه إلى الأرض وعودته إلى موطنه السماويّ، فاستغرقت في تأمّلها. وفي تلك الليلة، فيما كانت تصلّي في حجرتها، اتّضحت لها، بوحيٍ داخليٍّ، أسرار بشرى الملاك، وولادة يسوع، وطفولته، وحقيقة أُمومتها التي أتاحت لها التعامل مع ابن الله تعاملها مع ابنٍ لها. وترسّخ يقينها بكون ابنها ابن الله حقًّا، واستنارت لها أكثر الأسرار استعصاءً على الإدراك، وبهظتها مشاعر التواضع والخشوع والعبادة، واستمطرت من مآقيها ونفسها دموعًا حرّى. ولكن مثلما شاء ابنها التواري تحت أشكال الخبز والخمر، عادت العذراء فغلّفت هذه المشاعر السامية بحبّها الأُموميّ لابنها السماويّ.

يسوع يهب رسله وتلاميذه سلطات شفاءٍ

علّم الربّ رسله وتلاميذه إجراء الأشفية على غراره بوضع الأيدي والدهن بالزيت المقدّس. وحينئذٍ أقرّوا أنّهم، لدى سماعه، شعروا بقدرةٍ جديدةٍ تسري فيهم، معلنين: "أقوالك هي حقيقةٌ وحياةٌ". ومنذئذٍ بات كلٌّ منهم يعلم تلقائيًّا ما يتعيّن عليه فعله، في كلّ ظرفٍ.

وتابعوا مسيرهم حتّى مدينةٍ قائمةٍ شمال كفرناحوم، فعلّم في المجمع، ثمّ دُعي إلى مائدة طعامٍ، وأخذ الفرّيسيّون على تلاميذه إهمالهم غسل أيديهم قبل الطعام، حسب ما تقتضي تقاليد الأقدمين. فردّ عليهم يسوع بلومهم على تعلّقهم بالطقوس الخارجيّة، وإغفالهم واجب تكريم الوالدين الذي تفرضه الشريعة. ولمّا خرج من المأدبة استدعى الجموع وأعلن لهم بصوتٍ جهوريٍّ كي يسمعه المراؤون: "ليس ما يدخل الفم هو الذي يدنّس الإنسان، بل ما ينبعث من داخله. اسمعوا وعوا!" ولمّا عاد إلى النــزل، قال له تلاميذه إنّ أقواله قد أثارت امتعاض الفرّيسيّين. فقال لهم: "كلّ شجرةٍ لم يغرسها أبي، ستقتلع. دعوهم: إنّهم عميانٌ يقودون عميانًا، وعندما يقود أعمى أعمًى آخر يقعان كلاهما في الحفرة". فطلب منه بطرس تفسيرًا لهذا القول، ولكنّ الربّ قال له: "هل أنتم أيضًا تفتقرون إلى الفهم؟".

وفي اليوم التالي علّم في المجمع، فأخذ الفرّيسيّون على تلاميذه إهمالهم فرائض الصوم، وردّ يسوع، آخذًا عليهم بخلهم، وافتقارهم إلى الرحمة. وأوضح لهم أنّ تلاميذه يأكلون كي يرحموا أجسادهم التي أنهكها العمل، ولكنّهم لا يتردّدون في حرمان أنفسهم من الطعام لكي يطعموا الفقراء، مستمطرين بذلك بركات الله. وسأل يسوع الفرّيسيّين هل هم يجودون بطعامهم للمحتاجين، كما فعل تلاميذه بالخبز والسمك الذي كثّره.

وفيما كان يواصل سيره مع تلاميذه أخذ عليهم جهلهم بما يتعيّن عليهم أن يسألوا الله، فهم، مثل عيسو يسألون دسم الأرض، فيما عليهم أن يسألوا، على غرار يعقوب، ندى السماء. طلباتهم ليست مستوحاةً من إرادة الله، أي الخيرات الروحيّة، والنعمة وملكوت السماوات، بل يطلبون ما توحيه رغباتهم من خيراتٍ أرضيّةٍ. وبذلك لا يختلفون عن الوثنيّين.

شفاء ابنة الكنعانيّة

انتهى يسوع ونحو عشرين من رسله وتلاميذه إلى مدينةٍ تدعى "لاييش دان"، مكوّنة من بيوتٍ متباعدةٍ وإلى جانب كلّ بيتٍ بستانٌ، فعلّم في نزلٍ كان قد أُعدّ لاستقباله، وشفى المرضى الذين كانوا التمّوا فيه، ثمّ قصد بيوتًا وشفى مرضاها الذين لم يكونوا قادرين على المجيء إليه. وكان قد تكاثر في تلك المدينة نوعٌ من الذباب الذي يصيب بالعمى من يلسعه. فأرشد الربّ سكّان المدينة إلى نبتةٍ يسهل الحصول عليها في مدينتهم، وعلّمهم أن يدهنوا عيونهم بعصارتها، فتبعد عنها الذباب الضارّ. وكان جوّ تلك المدينة، أيضًا، عاجًّا بحشراتٍ بشعةٍ، يسقطها الهواء من الأشجار، فتتسلّل داخل الجلد وتحدث فيها ورمًا. فأرشد يسوع إلى حشرةٍ أُخرى، يكفي وضعها على الورم حتّى تزيله. وكان كلّما خرج من بيتٍ، يلحق به سكّان البيت المجاور، ويتضخّم موكبه باستمرارٍ.

وفيما كان يسوع دائبًا على هذه الأشفية، كانت عجوزٌ محنيّةٌ، سوريّةٌ فينيقيّة الأصل، قادمةٌ من مدينة "أورنيثوبولس"، تقف جانبًا، متواضعةً، ملتمسةٌ غوث الربّ بصوتٍ خافتٍ، فقد كان لها ابنةٌ تسكنها أرواحٌ شرّيرةٌ، ولم ترَ رجاءً في شفائها إلاّ لدى النبيّ الناصريّ. كانت تنتظره منذ أيّامٍ عديدةٍ. وكان الرسل قد حدّثوا الربّ عنها، ولكنّ يسوع كان، حتّئذٍ، يتجنّب شفاء الوثنيّين لكيلا يهيج عنصريّة اليهود.

عصرًا، قصد يسوع بصحبة بطرس ويعقوب ويوحنّا، أحد وجهاء اليهود الذي كان مُقعَدًا، غنيًّا، وبارًّا، تربطه أواصر صداقةٍ بلعازر ونيقودمس، ويدين سرًّا بالولاء ليسوع وأتباعه، يجود عليهم بأموال كي يوزّعوها على المعوزين، ويزوّد أماكن إقامتهم أثناء أسفارهم الرسوليّة بمساعداتٍ. وكانت أسرته تتألّف من شابّين وثلاث شابّاتٍ، مرتبطين بنذور العفّة، يطلقون شعورهم ولحاهم، ويرتدون ثيابًا بيضاء، وقد بادر الشابّان، بعد أن اقتادا أباهما الشيخ العاجز إلى يسوع، إلى غسل قدمي الربّ وأقدام مرافقيه، وقدّموا لهم طعامًا وشرابًا. وحدّثهم يسوع بأطيب

الأقوال وأطلعهم على عزمه الشخوص إلى أورشليم من أجل الفصح ولكن سرًّا.. ولم يتسنَّ ليسوع المكوث طويلاً في ذلك البيت، إذ سرعان ما غصّ فناؤه وجواره بالمرضى. وقضى الربّ الساعات في إبراء المعتلّين، وفي هذه الأثناء لبثت المرأة الوثنيّة منتحيةً، تنتظر أن يلتفت إليها، ولا تجسر على الاقتراب منه، ولكنّها تصرخ بين فينةٍ وفينةٍ: "يا سيّد، ابن داود ارأف بي. فالشيطان ينـــزل بابنتي آلامًا مبرّحةً". وانضمّ الرسل إلى استغاثتها وتوسّلوا المعلّم أن يستجيب لاستغاثتها. فأجابهم: "إنّما أنا أُرسلت لإنقاذ خراف إسرائيل الضالّة". وسمعت المرأة قوله، فدنت وسجدت له، وقالت: "يا ربّ، أغثني!" فأجابها: "دعي أولاد البيت يشبعون، أوّلاً، فلا يسوغ أن يؤخذ خبز الأبناء ويرمى للكلاب". فردّت: "صحيحٌ يا ربّ، ولكنّ جراء الكلاب تأكل أيضًا من الفتات الذي يسقط من المائدة". لدى سماعه هذا القول قال لها الربّ: "يا امرأة، ما أعظم إيمانك! بسبب قولك هذا فلتنعم ابنتك بالشفاء!". ثمّ سألها يسوع هل ترغب هي أيضًا، في الشفاء من انحنائها، ولكنّها كانت تعدّ ذاتها غير جديرةٍ بهذه النعمة، وترى أنّ شفاء ابنتها هو حسبها. ولكنّ الربّ وضع إحدى يديه على رأسها والأُخرى على جنبها، فانتصبت بكلّ قوامها.

وفي اليوم التالي أجرى الربّ أشفيةً عديدةً في مكان سوقٍ عتيقٍ، حيث انتحت جانبًا المرأة التي حرّر ابنتها وشفاها هي من انحنائها بالأمس، يحيط بها رهطٌ من أقربائها وأبناء بلدها وكان بينهم قريبٌ لها مسنٌّ، مشلول الذراع وأصمّ وأبكم، فتوسّلت المرأة شفاءه، فأخذه الربّ جانبًا ووضع يده على ذراعه المشلولة وصلّى، فاستعادت الذراع قدرتها على الحركة، ثمّ دهن بلعابه داخل أذنه، وقال له ضع يدك التي برئت على لسانك، فسمعه وامتثل لطلبه، وحينئذٍ رفع يسوع ناظريه إلى السماء وصلّى، وفي الحال تكلّم الرجل واستفاض في شكر الربّ. وعاد يسوع به إلى حيث كان الشعب محتشدًا، وحشده يتكثّف باستمرارٍ، فانطلق الرجل يخطب مدليًا بأقوالٍ نبويّةٍ، وموجّهًا لليهود إنذاراتٍ مريعةً، مذكّرًا إيّاهم بالعجائب الغزيرة

التي أجراها يسوع على مرأى منهم، والتي لم تنلْ من انغلاق قلوبهم وتصلّبها وممّا قاله: "إنّ الطعام الذي تزدرونه أنتم، يا أبناء البيت، نلتقطه نحن الذين كانوا منبوذين، وسنجعل منه غذاءنا شاكرين، وسنضيف إلى الفتات الذي نلتقطه كلّ الخبز السماويّ الذي تهدرونه أنتم". تكلّم باندفاعٍ وبعباراتٍ من الروعة ما خلّف أثرًا عميقًا في المستمعين.

وقد دعاه كلٌّ من المرأة التي نالت هي وابنتها الشفاء، والرجل الذي برئ من شلَل يده وصممه وبكمه إلى زيارة مدينتهما، كي يشكره جميع أهاليها، ويطّلعوا على تعاليمه.

بمشقّةٍ انتزع يسوع ذاته من إطباق الشعب عليه، وسارع إلى الالتحاق برسله وتلاميذه على قمّة جبلٍ، منعزلةٍ، حيث اجتمعوا داخل كهفٍ فسيحٍ، نظيفٍ، مجهّزٍ بمقاعد صخريّةٍ منحوتةٍ في داخله. وتابع تثقيفهم حول طرق إجراء الأشفية، بعد أن استوضحوه عن سبب التنحّي بالرجل الأصمّ الأبكم، والإيعاز إليه بوضع يده على لسانه. وبعد أن أجابهم على ما رغبوا في الاطّلاع عليه، حدّثهم، ثانيةً، عن الصلاة، وامتدح المرأة الوثنيّة التي طالما صلّت كي تعرف الحقيقة، غير مهتمّةٍ بالحصول على مغانم مادّيّةٍ. وفي تلك الليلة نهض يسوع وصحبه، النوبة تلو النوبة، كي يصلّوا.

زوّد يسوع رسله وتلاميذه، إذن، بإرشاداته المتعلّقة برسالتهم العتيدة، وأبرزها أن يمضوا للرسالة اثنين اثنين، مخفّفين من كلّ حملٍ، وأن يبشّروا بالتعاليم التي تلقّوها، وأن يتناولوا جميعهم الموضوع أو المواضيع ذاتها كلّ يومٍ، وأن يكثروا اللقاءات ما بينهم من أجل تبادل الخبرات، وإقامة صلواتٍ مشتركةٍ، وقصر أحاديثهم على مواضيع تبشيرهم. وأخيرًا بلّغ يسوع صحبه عزمه على قضاء عيد الفصح، سرًّا، في أورشليم، على أن يلتحقوا هم به. غير أنّ معظم التلاميذ كانوا يتوجّسون خشيةً من أورشليم.

ثمّ يمّم يسوع شطر "أورنيثوبوليس"، تلبيةً لدعوة بنيها الوثنيّين الذين شفاهم، وكان يعلو تلك المدينةَ الصغيرة المزدانة بأبنيةٍ جميلةٍ، معبدٌ وثنيٌّ جاثمٌ على تلّةٍ. وقد

أحسنت تلك المدينة وفادة الربّ، وغمرته بفيضٍ من التكريم. فقد كانت المرأة التي حرّر ابنتها، وشفاها، من وجهاء المدينة وأثريائها وأنفقت بسخاءٍ لكي تضفي على زيارة يسوع جوًّا لائقًا، وبحسٍّ مرهفٍ، كانت قد أوكلت إعداد الطعام وسائر تدابير الزيارة لأُسرٍ يهوديّةٍ فقيرةٍ. وكانت المدينة كلّها قد اطّلعت على شفاء تلك المرأة وتحرير ابنتها من أَسر الأرواح الشرّيرة، كما أنّ قريبها الذي شفي من تيبّس يده ومن بكمه وصممه، قد تكلّم عن يسوع بعباراتٍ نبويّةٍ مؤثّرةٍ، فوقف جميع أهالي المدينة أمام أبواب بيوتهم كي يرحّبوا بيسوع، لدى مروره، ولم يقتربوا منه احترامًا لمشاعر اليهود ولكنّهم زوّدوا موكبه بأغصانٍ خضراء.

استقبل رجال المدينة اليهود، وعددهم نحو عشرين نفرًا، يسوع وصحبه، ومدير المدرسة وتلاميذه، فيما سارت من خلفهم النساء والفتيات، متلفّعاتٍ بأحجبةٍ طويلةٍ. وكانوا قد أعدّوا بيتًا لإقامة يسوع وصحبه، وزيّنته المرأة السوريّة الفينيقيّة بالسجّاد الفاخر والمصابيح الرائعة. وغسل اليهود قدمي الضيف الرفيع، وأقدام مرافقيه، ثمّ قدّموا لهم طعامًا لذيذًا، وأعطوهم ثيابًا نظيفةً، وأحذيةً جديدةً، ريثما تُغسل ثيابهم المغبرّة وتنظّف أحذيتهم وتصلح. فألقى فيهم يسوع خطابًا موجزًا، وتحدّث مع معلّمي المدرسة.

ثمّ أقامت المرأة السوريّة الفينيقيّة مأدبةً، تميّزت الآنية المستخدمة فيها بالطابع الوثنيّ، إذ رسمت عليها صور حيوانات ونباتات، وجبالٍ، وكانت موائدها أكثر ارتفاعًا من موائد اليهود، وأُعدّت الأطعمة بأشكالٍ غريبةٍ، فقدّمت الأسماك على أشكال طيورٍ، واللحوم على أشكال أسماكٍ، وحشيت الحملان بالثمار والتوابل والعسل، وارتدت الحلوى أشكال زهورٍ. وفي أثناء المأدبة جاءت المرأة وابنتها وقريبها كي يشكروا للربّ شفاءه لهم، ومن حولهم طائفةٌ من الخدم حاملين، فوق سجّادٍ، هدايا مودعةً في صناديق جميلةٍ. ووقفت الفتاة المحرّرة وراء يسوع، متلفّعةً بحجابٍ طويلٍ، وسكبت على رأسه قارورة عطرٍ غالي الثمن، وانسحبت بتواضعٍ،

وقدّم الخدم هداياها للتلاميذ. ورحّبت المرأة بيسوع في مدينتها معلنةً رغبتها، مع عدم جدارتها، بأن تثبت للربّ حسن نيّتها ورغبتها في التكفير عن الأذى الذي ألحقه بيسوع مواطنوها. تكلّمت بإيجازٍ وتواضعٍ، وهي واقفةٌ على مسافةٍ من المخلّص. وسارع يسوع إلى توزيع المال الذي أُهديه على الفقراء، كما وزّع قسمًا وافيًا من طعام المأدبة. وبعد أن نأت المرأة وابنتها ألقى يسوع في الحاضرين تعليمًا موجزًا وروى لهم أمثالاً.

كانت تلك المرأة تنعم بتقديرٍ جمٍّ في مدينتها، وكان اليهود الفقراء يعيشون بفضل الإحسانات التي تغدقها عليهم. كانت تتميّز بالذكاء والعطف والسخاء، وبفكرٍ مستنيرٍ، وبنفسٍ ورِعةٍ، رغم وثنيّتها. وكانت ابنتها في الرابعة والعشرين، فارعة القدّ، جميلةً، متناسقة القوام، وكان شبّانٌ كُثُرٌ يتمنّون الاقتران بها، وإذ بروحٍ شرّيرٍ يسكنها، ويُخضعها لاختلاجاتٍ مريعةٍ، وكانت في نوبات هذيانٍ ولا وعيٍ تقفز من سريرها وتسعى إلى الفرار وذرع الطرقات، فكان لا بدّ من مراقبتها عن كثبٍ، وحتّى تقييدها. ولكن ما أن تعبر النوبة حتّى تستعيد دماثتها وورعها. واضطرّت أمّها إلى إخفائها طيلة سنواتٍ. ولّما عادت أمّها إلى البيت، إثر التقائها بيسوع، روت لها كيف شفيت بغتةً، وحدّدت لها ساعة شفائها، وإذ بها تتوافق مع الساعة التي زفّ إليها يسوع بشرى تحرّر ابنتها.

وكم غمر الفتاةَ الفرحُ عندما شاهدت أُمّها، التي كانت قد غادرتها منحنيةً وعادت منتصبة القوام، رشيقة الحركات، وعندما سمعت قريب الأسرة الذي غادر مشلول اليد، أبكم وأصمّ، يحيّيها بصوتٍ يقطر فرحًا! هذه التحوّلات المذهلة ملأتها شكرًا ليسوع وتقديرًا له، فأسهمت، بحماسٍ، في إعداد الاحتفاء بزيارته.

أمّا يهود تلك المدينة فكانوا فقراء ومهملين، فزارهم يسوع يوم السبت، بيتًا بيتًا، وأغدق عليهم الإحسان والأشفية، ثمّ دعاهم إلى المجمع، وعزّاهم وكلّمهم بعباراتٍ تقطر عطفًا وتأثيرًا، ولا سيّما أنّهم كانوا يُعَدّون حثالة الأمّة، وغير

جديرين بحمل اسم أبناء إسرائيل. وأعدّ كثيرين منهم للعماد، وعند المساء عمّد نحو عشرين شخصًا، كان الرجل الذي شفاه من شلله وبكمه وصممه أحدهم.

وكان قد حلّ، ظهرًا، ضيفًا على المرأة السوريّة الكنعانيّة، التي استقبلته بحفاوةٍ، وسجدت أمامه مع ابنتها، وهما متلفّعتان بأحجبةٍ طويلةٍ، وقريبها الذي شفي معهما. وقدّم الخدم ليسوع ولصحبه أكثر الفاكهة والحلوى ندرةً وعذوبةً. وكانت قد اجتمعت في إحدى قاعات البيت فتياتٌ وثنيّاتٌ من صديقات الأسرة وخدمها، فخاطبهنّ يسوع بعطفٍ. واغتنمت المرأة هذه السانحة كي تلتمس من يسوع إغاثة مدينة "صرفة"، قائلةً: "إنّ صرفة حيث اقتسمت أرملةٌ طعامها الأساسيّ مع النبيّ إيليّا، هي أيضًا، مدينة أرملةٍ تكاد تموت جوعًا فارأف بها، يا أعظم الأنبياء، واصفح عن أرملةٍ أعدت لها كلّ شيء، فتجرّأت والتمست منك غوث "صرفة". فوعد يسوع بتلبية مطلبها. وحينئذٍ أعلمته أنّها تعتزم بناء مجمعٍ لليهود، والتمست منه أن يرشدها إلى المكان الملائم لهذا المشروع.

وقبل حلول طقوس السبت بشّر يسوع عدّة جماعاتٍ وثنيّةٍ، في فناء بيت المرأة السوريّة الفينيقيّة. ثمّ احتفل بالسبت في المدرسة اليهوديّة التي كانت تلك المرأة قد زوّدتها بأجمل زينةٍ. وألقى تعليمًا مؤثّرًا، استمطر دموعًا مدرارةً، وأشاع عزاءً وسعادةً. فقد كان أولئك اليهود يعتقدون أنّهم نفوا إلى تلك المدينة تكفيرًا عن أخطاء آبائهم، وكان ذلك يخزيهم ويسرّب إلى نفوسهم مشاعر النبذ والمهانة. فبشّرهم، أثناء تعليمه في المجمع، ببطلان المثل القائل: "الآباء أكلوا الحصرم، وأبناؤهم ضرسوا"، مؤكّدًا لهم أنّ كلّ من يرحّب بكلمة الله، ويتوب، ويتعمّد، يتحرّر من أخطاء آبائه. فأفعمهم تأكيده هذا عزاءً وفرحًا.

ولمّا همّ يسوع بتوديع المرأة السوريّة الفينيقيّة، أصرّت هي وابنتها وقريبها على إهدائه تماثيل ذهبيّةٍ صغيرةٍ. أمّا هو فقد حرص على إرشادهم، موصيًا إيّاهم على

نحوٍ خاصٍّ، بالسعي إلى خلاص نفوسهم، وباليهود الفقراء. ولدى خروجه من البيت سجدوا له جميعهم بتواضعٍ، وذرّفوا دموعًا غزيرةً.

وكانت تلك الأرملة كلِفةً بالأنوار وبنشدان الحقيقة، فقرّرت الإحجام عن الشخوص إلى المعبد الوثنيّ، والالتزام بتعاليم يسوع. وغدت تسعى إلى أن يحذوا الآخرون حذوها.

وتابع يسوع تثقيف الرسل والتلاميذ حول شؤون رسالتهم، وأرسلهم في اتجاهاتٍ مختلفةٍ، فيما توجّه هو وثلاثةٌ من التلاميذ صوب "صرفة".

لم يدخل يسوع وصحبه إلى مدينة "صرفة"، بل توقّف عند مدخلها في المكان التي كانت الأرملة تجمع فيه حطبًا حين التقاها إيليّا. وكانت المرأة السوريّة الفينيقيّة قد أعدّت له ولصحبه مكان استراحةٍ، وأرسلت هدايا للفقراء، الذين كانوا أشدّ إملاقًا من يهود "أورنيثوبوليس". وقد سعدوا جدًّا بزيارة المخلّص، فتوافدوا إليه مع نسائهم وأبنائهم، وغسلوا قدميه وأقدام رفاقه. فبشّرهم، وعزّاهم، ووزّع عليهم مالاً وطعامًا، وأغذيةً.

في قيصريّة فيليبّس

قوبل يسوع بالترحاب عند وصوله إلى قيصريّة فيليبّس، ولا سيّما أنّ قوافل مسافرةً كانت قد أذاعت نبأ مجيئه، وأنّ المرأة النازفة التي شفيت بمجرّد لمسها طرف ثوبه، كانت تسكن تلك المدينة، فتسابق السكّان للترحيب به. فعلّمهم على تلّةٍ حيث كانوا قد احتشدوا لسماعه، وأجرى هو وتلاميذه العديد من الأشفية.

والتحق به، في تلك المدينة، ثلاثةٌ من رسله وثلّةٌ من التلاميذ الذين كان قد أرسلهم إلى جهاتٍ مختلفةٍ، ولكم كان مؤثّرًا منظرهم عندما التقوا زملاءهم المرافقين ليسوع، فقبّل بعضهم بعضًا بفيضٍ من الفرح. وغسل المقيمون أقدام القادمين، واشتركوا جميعهم في إجراء الأشفية وتوزيع الحسنات على الفقراء، حسناتٍ كان يجود بها أصدقاء ليسوع كي توهب للمحتاجين.

عند الظهر شخص يسوع مع رسله وتلاميذه إلى منـــزل عمّ المرأة التي كان قد شفاها من النـــزف، فاستُقبلوا بحفاوةٍ، وفق الطريقة الوثنيّة، في بيتٍ فُرش بالسجّاد وزُيّن بالزهور، وجاءت المرأة وابنتها فاطّرحتا أمام الربّ. وكان عمّ المرأة هو الذي دعا الربّ إلى تلك الزيارة، فقد كان راغبًا في تلقّي العماد، ولكنّه كان ينفر من الختان، فكاشف يسوع بهذا الأمر، الذي كان الربّ يتحاشى عن تداوله علنًا، فلا يفرضه على طالبي العماد من الوثنيّين، ولا يعلن دعوته إلى التخلّي عنه، لكيلا يسيء إلى مسار رسالته قبل الأوان. وكان، كلّما صارحه وثنيّون ورعون بمعارضته للختان، يوافق على عمادهم، من غير إخضاعهم لهذه الفريضة، مؤكّدًا لهم أنّه حسبهم أن يؤمنوا ويمارسوا ما تعلّموه منه. وكان هؤلاء يعزفون عن الوثنيّة وممارساتها وينهجون النهج المسيحيّ، من غير حاجةٍ إلى العبور من خلال اليهوديّة. لم يكن يجهر بموقفه هذا أمام تلاميذه تجنّبًا لتعثيرهم، ولم يستطع الفريسيّون، يومًا، مواجهته بهذه التهمة، رغم ترصّدهم الدائم واليقظ له.

وقد تلقّى العمّ وعددٌ من الموعوظين عمادهم في إحدى قاعات البيت التي زُيّنت لهذه الغاية، بعد أن ألقى يسوع عليهم عظةً جماعيّةً، ثمّ تحدّث إلى كلٍّ منهم على انفرادٍ، وسمع اعترافاتهم، وإعلان إيمانهم، وتولّى التلميذ "ساترنان" تعميدهم بماءٍ باركه الربّ. وعقب العماد أُقيمت مأدبةٌ شارك بها يسوع ورسله وتلاميذه وجميع أهل البيت. وفي أثناء الطعام انسحبت المرأة التي كانت قد برئت بمسّها طرف ثوب يسوع مع ابنتها الشابّة، وما لبثتا أن عادتا وقد اتّشحت الفتاة بحجابٍ طويلٍ وفي يدها قارورة عطرٍ، ووقفت خلف يسوع وسكبتها على رأسه، ثمّ مسحت رأسه بحجابها، واختتمت المأدبة بتوزيع الإحسانات على الفقراء الذين تجمّعوا حول البيت.

ثمّ أكره الفرّيسيّون يسوع على مرافقتهم إلى المجمع كي يطرحوا عليه طائفةً من الأسئلة الماكرة المتعلّقة بالطلاق، إذ كان الجدال محتدمًا بهذا الشأن، في المدينة،ولا سيّما أنّ يسوع كان قد صالح عدّة أزواجٍ وذكّرهم بواجباتهم المتبادلة. كما إنّهم استوضحوه عن المقتضيات الصارمة التي يفرضها على أتباعه، فقد كان شابٌّ غنيٌّ

ومثقّفٌ قد التمس من يسوع أن يضمّه إلى تلاميذه، فشرط يسوع قبول طلبه بما لا قِبَل للشابّ عليه، مثل ترك أبويه، والتبرّع بكلّ ما يملك للفقراء. ولّما وافى يسوع إلى قيصريّة فيليبّس كرّر الشابّ طلبه، على أن يسمح له الربّ بالاحتفاظ بممتلكاته وإدارتها، فرفض طلبه ثانيةً. وقد رافق ذلك الشابُّ الفريسيّين إلى المجمع، وأورد عدّة مقاطع من خطابات يسوع التي لم يجد إلى فهمها سبيلاً، وطلب من تلاميذ يسوع الذين سمعوا، هم أيضًا، هذه الأقوال، أن يفسّروها له، وأُخذ التلاميذ على حين غرّةٍ، فالتزموا الصمت، واستغلّ الفرّيسيّون صمتهم كي يأخذوا على يسوع حرصه على اتّخاذ أشخاصٍ جاهلين تلاميذ له، ورفضه طلب ذلك الشابّ المثقّف الغنيّ بسبب ثقافته. فردّ عليهم يسوع بقسوةٍ، جابهها الفرّيسيّون بالشتيمة. وغادر يسوع المدينة.

ولكنّ الصدام بين يسوع والفرّيسيّين لم ينتهِ عند ذلك. بل كان يتجدّد أينما حلّ الربّ وذهب. ففي مدينةٍ تُدعى "أرغول" في الجليل الأعلى، دُعيَ إلى غداءٍ عقب عظته في المجمع، وعاد الفرّيسيّون يتّهمونه بإخراج الشياطين بمساعدة بعلزبوب، فردّ عليهم أنّ أباهم هو أبو الكذب. وأثار سخطهم عندما أعلن أنّ الله ليس همّه إلى لحوم الضحايا التي يدّعون تقدمتها له، التماسًا لرضاه، وأنذرهم بأنّ هذه العبادة الباطلة آيلةٌ إلى زوال. ومرّةً أُخرى لقّبوه بالسامريّ، تعبيرًا عن ازدرائهم له مثل ازدرائهم للسامريّين عامّةً. ادّعوا أنّه رفض قبول الشابّ الغنيّ تلميذًا له، لأنّه يفوقه ويفوق تلاميذه ثقافةً ومعرفةً. وعندما احتدم النقاش، وتفاديًا لعواقب وخيمةٍ، هجر يسوع المكان وغاص في الصحراء، فأتبع الفرّيسيّون في رسله "زعرانهم" مسلّحين بالهراوات، وغدا يسوع يحذّر أتباعه من جرائم الفرّيسيّين، لأنّه كان يتوقّع تخطّيهم سفك دم الضحايا من الكباش والعجول، إلى سفك دم البشر الأبرياء.

وفي الغد وافى يسوع وتلاميذه إلى "جاروزيم"، وفي طريقه إليها أوضح لتلاميذه سبب رفضه التحاق الشابّ الغنيّ به. وهنا أيضًا كان جمعٌ غفيرٌ ينتظره، وقد

فرشت الطرقات والساحات بأسرَّة المرضى متوسّلي الشفاء، فشفى كثيرين منهم وهو في طريقه إلى المجمع، حيث أعلن، بعباراتٍ نبويّةٍ، عن آلامه القادمة. وحذّر الفرّيسيّين وأتباعهم من أنّهم، مهما سخوا في تقديم الأضاحي سيظلّون مثقلين بالخطايا والأرجاس. وألمح إلى كبش الفداء الذي يُلبِسونه خطاياهم، ويطردونه خارج أورشليم إلى الصحراء، في ضجيجٍ مدوٍّ ويقتلونه، كي يشبعوا قرمهم إلى الدماء، وأنبأ، بعباراتٍ لم يفهموها، أنّ زمنًا يقترب، حيث يطردون ويقتلون، في مشهدٍ مشينٍ، بريئًا أحبّهم، وفعل كلّ شيءٍ من أجلهم، وهو يحمل، حقًّا، خطاياهم. فتعالى صراخهم وأوسعوه شتيمةً، ولكنّه غادر المجمع فتعقّبوه وطالبوه بشرح ما عناه بقوله، فقال لهم إنّهم ما زالوا عاجزين عن فهمه.

وفيما كان الفرّيسيّون يحاصرونه، جيء إليه بأصمّ أخرس، راعٍ مقيمٍ في الجوار، عُهد عنه الورع والطيبة، والتمس ذووه من يسوع أن يشفيه، فأخرجه من وسط الجمع، ولكنّ الفرّيسيّين أحاطوا به، فشفاه تحت أنظارهم ومراقبتهم، حريصًا على أن يشهدوا إجراءه الشفاء بقدراته الذاتيّة وبقدرة الصلاة والإيمان بالآب السماويّ، لا بمساعدة الأبالسة. فقد وضع أصابعه في أُذنيه وعلى لسانه، ورفع ناظريه إلى السماء، وهتف "افتح"، ففتحت أُذناه، وانحلّت عقدة لسانه، وتكلّم الرجل بوضوح. وشكر الربّ مطلقًا صيحات الفرح التي شاركها بها ذووه.

إكمال عظة الجبل وتكثيرٌ ثانٍ للخبز والسمك

منذ الفجر عبر يسوع ومرافقوه البحيرة، وارتقوا تلّةً مطلّةً على مركز متّى، حيث كان قد احتشد جمعٌ غفيرٌ، ضمّ في صفوفه العديد من الوثنيّين والغرباء ومن مواكب المسافرين، ومن المرضى الذي جيء بهم على متن حميرٍ، أو على محفّاتٍ، فشفاهم يسوع.

ثمّ تناول، في عظته، الصلاة التي ينبغي أن تكون متواصلةً، مثابرةً، ملحاحًا، فقال إن كان الآب البشريّ لا يعطي حجرًا لابنه الذي يطلب خبزًا ولا يعطيه حيّةً

عندما يطلب سمكةً، ولا يعطيه عقربًا عندما يطلب بيضةً، فكيف لا يهب الآب السماويّ أبناءه ما يعود عليهم بالنفع؟ وإذ كان قد لحظ ثقةً مطلقةً بالله، لدى وثنيّين لا يطلبون منه شيئًا، ويشكرونه على كلّ ما يتلقّونه، تساءل: "إن كان لدى غرباء مثل هذه الثقة، فكم بالأحرى يجب أن تكون ثقة أبناء الله أكبر!". وأوضح أنّ على من ينالون الشفاء أن يعبّروا عن شكرهم لله بإصلاح سلوكهم وذواتهم، أمّا الذين، بفضل شفائهم، يتردّون إلى الرذائل فعقابهم شديدٌ. ولمّا اشتدّ الزحام اضطرّ يسوع إلى الابتعاد، واللجوء إلى بيت متّى حيث أمضى ليلته.

وفي الغد، تسلّق مع أتباعه جبلاً يقع خلف الجبل الذي كان كثّر فيه الخبز والسمك، وأكثر ارتفاعًا منه، حيث التأم جمعٌ كثيفٌ لا يني يتضخّم بأفواجٍ متلاحقةٍ من القادمين، فأكمل يسوع إعلان التطويبات، والتعاليم المتعلّقة بها، والتي عُرِفَت بعظة الجبل. وكان تعليمه عميق التأثير، بعيد الأثر، وقد تخطّى عدد المستمعين أربعة آلاف رجلٍ، ما عدا النساء والأطفال، ومنهم الكثير من الوثنيّين والغرباء.

عند المساء توقّف يسوع عن التعليم وقال ليوحنّا إنّ الشعب يلازمه منذ ثلاثة أيّامٍ، ولا يسوغ أن يدعه مقيمًا على الطوى، ولا سيّما أنّه، في غضون مهلةٍ قصيرةٍ، سيغيب عنهم إلى الأبد. وأجاب يوحنّا: "نحن في قلب الصحراء، فهل علينا أن نقطع مسافاتٍ شاسعةً كي نأتيهم بخبزٍ، أَو هل علينا أن نقتطف لهم ثمارًا بريّةً، أو ما تبقّى من ثمارٍ على الأشجار التي تمّ قطافها في البساتين القريبة؟". فأوعز إليه يسوع أن يستوضح من التلاميذ الآخرين عمّا تبقّى لهم من طعام. فعاد وأخبره أنّ المتبقّي هو سبعة أرغفةٍ، وسبع سمكاتٍ صغارٍ. فطلب منه يسوع أن يأتوه بقففٍ فارغةٍ، وأن يضعوا على صخرةٍ ما لديهم من خبزٍ وسمكٍ.

وفيما كان التلاميذ يقومون بهذه الاستعدادات، استأنف يسوع تعليمه مدّة نحو نصف ساعةٍ، معلنًا بوضوح، وبلا لَبْس أنّه هو المسيح، ومتنبّئًا بما سيتعرّض له من اضطهاداتٍ، وبصلبه الوشيك، معلّقًا على ذلك بقوله: "في ذلك اليوم ستهتزّ هذه الجبال، وتتحطّم هذه الصخور، لأنّ الحقيقة التي أُعلِنَت هنا رُفضت. الويل

لكفرناحوم، الويل لجرزّيم!" ثمّ عدّد مدنًا أُخرى مجاورة قائلاً: "سيدركون يوم أُغادر الأرض أنّهم رفضوا الخلاص الذي جئتهم به!". وتحدّث عن النعم التي منّ بها على تلك البلاد حيث كسر خبز الحياة، وأشار إلى أنّ الغرباء، وعابري السبيل هم الذين التقطوا هذه النعم، وفي حين يرمي أبناء البيت الخبز تحت المائدة، يلمّ الفتات وثنيّون، جراءٌ صغارٌ حسب وصف المرأة السوريّة الفينيقيّة، وسيستخدمونه من أجل غوث مدنٍ وقرى بكاملها.

وقبل أن يودّع يسوع مستمعيه، رجاهم ثانيةً أن يتوبوا ويقوّموا سلوكهم، منذرًا بأنّه لن يعلّم ثانيةً في ذلك المكان، ومع أنّ مستمعيه لم يدركوا إدراكًا كاملاً ما عناه، إلاّ أنّهم امتلأوا دهشةً وحزنًا.

ثمّ أمرهم بالانتشار على سفح الجبل حيث سيتولّى رسله وتلاميذه إجلاسهم على غرار ما فعلوا، في نوبةٍ سابقةٍ، وشرعوا يوزّعون عليهم قففًا كان يملؤها خبزًا وسمكًا، وبعد أن شبعوا جميعهم، مُلِئت سبع قففٍ بالبقايا ووزّعت على الأشدّ فقرًا بين الموجودين.

ثمّ انصرف الشعب، باكيًا، شاكرًا، ممجّدًا الله. وبمشقّةٍ استطاع المخلّص الإفلات من وسطهم، واتّجه مع رسله وتلاميذه نحو تخوم مجدلا و"دلمانوثا". ولكن قبل بلوغه ضفّة البحيرة، أوقفه وفدٌ من الفرّيسيّين الذين كان قد أفزعهم تنبّؤه بحدوث زلازل، وظواهر طبيعيّةٍ غريبةٍ، وطالبوه بإثبات ذلك من خلال معجزةٍ سماويّة. فذكر عدد الأسابيع التي سبقت حدوث معجزة يونان، وتابع مسيرته إلى السفينة.

تعليمٌ في بيت صيدا

وفي اليوم التالي اجتاز يسوع، مع رسله وتلاميذه البحيرة، وهو يثقّفهم بشأن أُمورٍ كثيرةٍ، معلنًا لهم، بوضوحٍ، أنّه هو المسيح. وحدّثهم عن آلامه القادمة وعمّا سيليها من تمجيدٍ، وعن الاضطهادات التي سيكونون هم ضحيّتها. كانوا يسمعونه

فيؤمنون بأقواله، ولكنّهم سرعان ما يذهلون عنها، لعجزهم عن توفيقها مع رؤاهم وآرائهم الضيّقة والمحدودة، ولعودهم الدائمة إلى مفاهيمهم السابقة، فيقحمون أقواله في إطار النبوءات التي يكتنفها السرّ، والتي لا يرغبون في تمعّنها. وأنبأهم بشخوصه إلى أورشليم ومعاناته الآلام فيها، التي ستثير الريب بشأنه، والتي قد تفضي إلى رجمه. إلاّ أنّه أكّد أنّ من لا يتخلّى عن كلّ ممتلكاته وعن ذويه، ولا يتبعه، بثقةٍ، على درب آلامه، لا يسعه أن يكون له تلميذًا. وحدّثهم عن الأعمال التي يتعيّن عليه إنجازها قبل صعوده، وأكّد أنّ الكثيرين ممّن هجروه سيعودون إليه. فاستفسر تلاميذه هل هذا سيكون، أيضًا، شأن الشابّ الذي طلب أن يقوم، أوّلاً، بدفن أبيه قبل اللحاق بالمخلّص، لأنّهم كانوا يرونه جديرًا بالانضمام إلى جماعتهم. ولكنّ يسوع أوضح لهم أنّ قلب ذلك الشابّ كان متعلّقًا بالخيرات الأرضيّة وأنّ تحدّثه عن دفن أبيه كان تعبيرًا عن رغبته في تسوية شؤون إرث أبيه وتولّي ممتلكاته.

واتّفق، عندما تحدّث يسوع عن كَلَف ذلك الشابّ بالخيرات الأرضيّة، أن هتف بطرس دائم الاندفاع: "الحمد لله، لم تساورني، أنا، مثل هذه المشاعر عندما تبعتك". غير أنّ الربّ لامه إذ كان عليه أن يدع أمر تمجيده لمعلّمه، لا أن يزدهي هو بنفسه.

ووافى يسوع مع رسله وتلاميذه إلى بيت صيدا ـــ يوليوس، فاستقبله وثنيّو المدينة بفرحٍ واحترامٍ، في حين اغتنم كتبةٌ سانحةَ وجوده كي يناقشوا المعلّم الذي ذاعت شهرته، ويظهروا للقوم علمهم وعظمة شأنهم، فطرحوا مواضيع عديدةً، متصنّعين الاستبحار في العلم، بمنأًى عن نوايا سيّئةٍ، وبدافع التباهي لا غير.

ثمّ زار يسوع المدارس، وجال في المدينة: فتبعه جمعٌ غفيرٌ من أهل المدينة، واستوضحوه عن التعليم الصحيح، وعن السلوك الذي يتعيّن عليهم انتهاجه. فسألهم عن دوافع استفساراتهم، إذ إنّ تعليمه قد بات معروفًا، ولطالما أدلى به في كلّ مكانٍ. وعندما انتهوا إلى ورشة بناء، أشادوا بهندسة أبنيتهم، فحذّرهم من البناء على الرمل الذي يؤدّي إلى الانهيار، وحدّثهم عن حجر الزاوية الذي رذله البنّاؤون.

بطرس يعلن ألوهة يسوع

صباح اليوم التالي غادر يسوع بيت صيدا برفقة رسله ونحو ثلاثين تلميذًا، وتابع تثقيفهم طيلة المسيرة، متوقّفًا، بين فينةٍ وأُخرى، من أجل إيضاح أمرٍ هامٍّ. وعند المساء انتهوا إلى تلّةٍ، فاستراحوا، وأخذ أتباعه يروون له ما عملوا ورأوا وسمعوا، وأطلعوه على الآثار التي كان هو قد خلّفها في كلّ مكانٍ علّم فيه وأجرى أشفيةً. ففسّر لهم الربّ ما استعصى على فهمهم وإدراكهم، ولامهم على أخطائهم، وأرشدهم إلى السلوك القويم، وأمرهم بالتزام مبادئ لا يحيدون عنها. ثمّ حرّضهم على الاستبحار في الصلاة، وعلى التأهّب لاستيعاب أمورٍ خطيرةٍ سينبئهم بها. وفيما أخلدوا هم للنوم، أنفق هو الليل في الصلاة ومناجاة أبيه السماويّ.

وتحلّق الجميع من حوله في الصباح الباكر، فصلّوا معًا، ثمّ أشبعوا المواضيع التي كانوا قد تداولوها بالأمس نقاشًا وشرحًا، فسألهم يسوع: "ما الذي يقال أنّني هو؟" فأخذ كلٌّ منهم يسرد ما يسمعه من أقوال الناس فيه. إذ يرى البعض أنّه المعمدان، وآخرون أنّه إيليّا أو إرميّا، أو أحد الأنبياء الآخرين.

أفرغ الجميع جعبهم من الإجابات، ويسوع صامتٌ، وقد ارتسمت عليه أمارات جدٍّ ووقورٍ، تنبئ بعزمه على إعلان أُمورٍ خطيرةٍ، فشخصت إليه عيونهم وأذهانهم مشحوذةً توّاقةً إلى ما سيقوله، فسألهم: "وأنتم من تقولون إنّي هو؟" وأرتج على جميعهم، وحاروا في ما يجيبون، وبغتةً ضجّ بطرس اندفاعًا، فتقدّم خطوةً، ورفع ذراعه بوقارٍ، وأعلن بصوتٍ جهورٍ، وكأنّه لسان حال الجميع: "أنت المسيح، ابن الله الحيّ". وردّ الربّ على بطرس بوقارٍ، وبصوتٍ يتدفّق سلطةً وقدرةً ونبوءةً، والنور يشعّ من كلّ كيانه، ولكأنه قد سما فوق الأرض: "هنيئًا لك يا سمعان بن يونا، فلا لحم ولا دم أوحيا إليك ذلك، بل أبي القائم في السماء هو من أوحاه. وها أنذا أقول لك: أنت الصخرة التي سأبني عليها كنيستي، التي لن تقوى عليها أبواب الجحيم. سأوليك مفاتيح السماء. فما تربطه على الأرض يكون مربوطًا في السماء، وما تفكّه على الأرض يُفَكّ أيضًا في السماء". وأدرك بطرس

قول الربّ بقدرة من ألهمه إعلانه ألوهة يسوع، الإعلان الذي خصّ جميع التلاميذ الآخرين وأدهشهم، فأخذوا يتبادلون نظرات الذهول ويرمقون يسوع وبطرس برعدةٍ وتجلّةٍ، حتّى إنّ الرعدة قد أخذت بيوحنّا نفسه كلّ مأخذٍ، فاستحقّ عليها لوم المعلّم، عندما أصبحا بمنأًى عن الآخرين.

حدث ذلك مع إشراقة الشمس فكان أثره أعمق غورًا، وأبلغ وقارًا، ولا سيّما أنّهم كانوا في عزلةٍ على جبلٍ، وكان يسوع قد أوعز إليهم التأهّب لصلاةٍ جماعيّةٍ. غير أنّ بطرس وحده هو الذي اكتنه مغزى نبوءة يسوع، فيما فسّرها زملاؤه تفسيراتٍ متباينةً.

ويومها صرّح يسوع لرسله أنّه هو المسيح الموعود، وذكّر بالنبوءات المتعلّقة به، والتي تنطبق عليه انطباقًا تامًّا، وأنبأهم بأنّ عليهم الشخوص إلى أورشليم من أجل الفصح. وكان بطرس ما انفكّ يجيل في خلده قول المعلّم حول مفاتيح السماء. فدنا منه، على انفرادٍ، واستفسر عن تفاصيل عديدةٍ لم يكن قد استوعبها استيعابًا كاملاً، مستوضحًا هل عليه أن يمارس سلطاته في الحال، فأوضح له الربّ أنّ الأوان لم يحِنْ بعدُ، فعلى يسوع أوّلاً أن يتألّم ويُصلب ويقوم، وأنّ على بطرس وزملائه انتظار حلول الروح القدس، وحينئذٍ لن يبقى للقضايا التي تقلقه الآن، سببٌ، فسيحدث ما لا يتوقّعه، وسيسود تعليمٌ جديدٌ.

كان يسوع يسير تارةً، ويتوقّف تارةً أُخرى، وسط تلاميذه، ويكشف اللثام عن الأحداث وشيكة الحدوث، فعليهم أوّلاً أن يتناولوا معًا حمل الفصح لدى لعازر، ثمّ عليهم أن يواجهوا معاناةً جمّةً، ومِحَنًا واضطهاداتٍ، وأنبأهم، بعباراتٍ نبويّةٍ، عن أحداثٍ كثيرةٍ، وعن أعمالٍ سيقوم بها، وأنّه سيقيم من الموت أحد أعزّ أصدقائه، وأنّ هذا الحدث سيذكي نار الحنق والحفيظة عليه، فيضطرّ إلى التواري، وأنّه سيعود معهم في العام المقبل إلى أورشليم، بمناسبة الفصح، وأنّ أحدهم سيخونه فيُشتم، ويهزأ به، ويُجلد، ويُحكَم عليه بالقتل، ويموت طائعًا، تكفيرًا عن

خطايا البشر، ويقوم في اليوم الثالث، موضحًا أنّ كلّ ذلك سيتمّ وفقًا لما سبق للأنبياء أن تنبّأوا به. كان يحدّثهم بلهجةٍ مفعمةٍ وقارًا وودًّا. ولكنّ بطرس، لدى سماعه أنّ معلّمه سيتعرّض للإهانة والقتل، انتابه من الحزن ما جعله يأخذ يسوع جانبًا ويقول له: "معاذ الله أن يحدث ما تقول. أنا لا أستطيع تقبّله. وأوثر الموت على أن أشهد ذلك". فالتفت إليه يسوع بقسوةٍ وقال له: "ابعد عنّي يا إبليس! أنت لي حجر عثرةٍ، لأنّك لا تستسيغ أمور الله بل تستسيغ أمور البشر!" ونأى عنه، تاركًا إيّاه ضحيّة الإرباك والإحباط والوحدة.

وراح بطرس يقلّب في ذهنه أقوال يسوع المتباينة، فقد هنّأه عندما أعلن ألوهته موضحًا أنّ هذا الإعلان قد أوحي إليه من قبل الآب السماويّ، ثمّ نهره بقسوةٍ ووصفه بإبليس، وبالانسياق للمشاعر البشريّة عندما عارض فكرة آلام الربّ. وقد ملأه هذا التحوّل تواضعًا ومرارةً، وفي الآن عينه، أوحى إليه أحرّ مشاعر الإيمان بيسوع رسوخًا وأعمقها تقديرًا واحترامًا. ولكنّه زاده أسًى، إذ اقتنع بأنّ مأساة يسوع محتومةٌ، وآلامه لا مفرّ منها.

وتابع يسوع وصحبه رحلتهم صوب طرف كفرناحوم الغربيّ، بلا توقّفٍ، حتّى بلغوا استراحةً قرب بحيرة جنّيصارات، حيث كان ينتظرهم لعازر وثلّةٌ من التلاميذ الذين قدموا من أورشليم.

كان لعازر قد سبق يسوع إلى ذلك المكان لأنّه كان محيطًا بعزم المعلّم على التوجّه إلى أورشليم عقب تناول الفصح مع رسله لدى لعازر في بيت عنيا. وكان توتّر الأوضاع في أورشليم قد سرّب الخوف على يسوع إلى صدر لعازر، فسارع كي يقنعه بتلافي الأخطار والعزوف عن المجيء إلى العاصمة المضطربة. وكان التوتّر ناجمًا عن نيّة بيلاطس فرض ضرائب على الهيكل من أجل إقامة تمثالٍ للإمبراطور، فضلاً عن تقديم الأضاحي له، وتكريمه بالعديد من ألقاب التفخيم. فرأى اليهود استنفار ثورةٍ لمناهضة هذه المشاريع، والحؤول دون تنفيذها، وكان

ثائرٌ جليليٌّ، يدعى "يهوذا الغولونيّ" قد ألّف حزبًا لهذه الغاية، وانطلق يهاجم، بعنفٍ، السيطرة الرومانيّة، والضرائب التي تفرضها على اليهود. ولكنّ هذا الوضع المتأزّم لم يُخِف المخلّص، فهدّأ روع لعازر مؤكّدًا أنّ ساعته لم تأزف بعد، ولن يحدث له أيّ مكروهٍ، بمناسبة هذا العيد، وأنّ الثورة المتوقّعة ليست سوى نموذجٍ للثورة الكبرى التي ستنشب بعد سنةٍ، عندما ستحين ساعة ابن البشر، وزمن تسليمه لأيدي الخطأة.

صباح اليوم التالي يمّم الربّ شطر بيت عنيا، عبر الصحراء، برفقة أربعةٍ من الرسل. وكانت لهم محطّةٌ في بيتٍ منعزلٍ يقع على مسافة ثلاثة فراسخ من بيت عنيا، يسكنه رعاةٌ يعتمدون في معيشتهم على سخاء لعازر، وحيث كانت المجدليّة وامرأةٌ أُخرى قد وافتا وأعدّتا طعامًا ليسوع وصحبه. ولّما شعرت المجدليّة بدنوّ وصول الربّ، جرت نحوه وقبّلت قدميه. ولم يستغرق توقّف يسوع في تلك الاستراحة سوى لحظاتٍ تحدّث، في أثنائها، مع المجدليّة ورفيقتها، واستأنف رحلته إلى بيت عنيا، فيما عادت المرأتان عبر طريقٍ آخر.

سلك يسوع ورفاقه دربًا جانبيًّا، لكيلا يمرّوا داخل المدينة، وفي النــزل الذي كان قد أعدّه لعازر التقى المخلّص فئةً من التلاميذ الذين كان قد أوفدهم في مهمّاتٍ، ثمّ انضمّ إليهم آخرون. وكان لعازر قد اختار من قطيعه أربعة حملانٍ من أجل الفصح، وقلّدهم العذراء والمجدليّة أطواق زهور. وما إن بدأ السبت، احتفلوا جميعهم به، وألقى يسوع، بوقارٍ، عباراتٍ مؤثّرةً، ثمّ في أثناء العشاء، استأنف الحديث عن حمل الفصح وعن آلامه القادمة.

السنة الثالثة

أمضى يسوع نهار السبت في بيت لعازر، متجوّلاً في حديقته مع رسله وتلاميذه، مكمّلاً تثقيفهم. كان يبدو أشدّ وقارًا من قبل، وتواترت أحاديثه عن آلامه القادمة، وعن إعلان كونه المسيح. وكان ما يوحيه من احترامٍ وتجلّةٍ يتعاظم يومًا فيومًا.

في نفس المجدليّة كانت التوبة والحبّ قد بلغا ذروتهما، فكانت تقتفي خطى المخلّص، حيثما ذهب، وتجلس عند قدميه، لا رجاءَ لها إلاّ فيه، ولا يجول في خاطرها سوى خطاياها الماضية والفادي الذي أنقذها منها. كان مظهرها ما انفكّ يُوحي بالنبل والرفعة ولكنّ رونق جمالها كان قد غاض بفعل الدموع والإماتات. كانت تُمضي معظم وقتها وحيدةً في حجرتها، متوغّلةً في التوبة، أو تطوف بالفقراء والمرضى وتُسدي لهم أكثر الخدمات وضاعةً.

وفي الغد شخص يسوع مع أتباعه إلى الهيكل، وبما أنّ نبأ وصوله إلى أورشليم كان قد شاع، فكان العديد من المرضى قابعين ينتظرونه في فناء الهيكل، فشفى كثيرين، وسرعان ما تراصّ القوم من حوله. وفيما كان يدخل إلى الهيكل صدف المخلّع الذي سبق له أن شفاه عند بركة بيت حسدا. وكان كثيرون قد استفسروا ذلك الرجل، من قبل، عن اسم من شفاه، فلم يستطع الإجابة لأنّه لم يكن له علمٌ باسمه، فرآها سانحةً كي يدلّ الجميع عمّن أعاد إليه القدرة على الحركة والعمل. وقد أيقظت هذه الذكرى لدى الفرّيسيّين إرادة اتّهامه بخرق حرمة السبت، فتحلّقوا حول منبره ورشقوه بهذه التهمة التي لم تحرّك في الجموع ردّة الفعل التي توقّعوها.

وأمضى يسوع في التعليم أكثر من ساعتين، وتناول قضيّة الأضاحي، معلنًا أنّ أباه السماويّ لا يقتضي أضاحي دمويّةً، بل يقتضي قلوبًا تائبةً، وأنّ الحمل الفصحيّ

إن هو إلاّ رمزٌ للتضحية القصوى التي ستتمّ قريبًا. فأقبل عليه طغمةٌ من أعدائه اللدودين ورشقوه بالشتائم، وسأله بعضهم ساخرين هل سيشرّفهم النبيّ بتناول الفصح لديهم، فأجابهم أنّ ابن الإنسان هو نفسه قربانٌ يقدَّم تكفيرًا عن خطاياهم.

وحضر الشابّ الذي كان قد التمس منه، آنفًا، الالتحاق بتلاميذه، مستمهلاً أن يفرغ من مراسم دفن أبيه، وذكر جواب يسوع له: "دع الأموات يدفنون موتاهم"، فأعلن الفرّيسيّون استهجانهم لهذه الإجابة إذ كيف لأمواتٍ أن يقوموا بدفن أمواتٍ. ففسّر لهم يسوع موضحًا أنّ كلّ من لا يتبع تعليمه ولا يؤمن به، لا حياة له، وهو بمثابة ميتٍ. وكلّ من يتعلّق بمتاع الأرض، مثل هذا الشابّ، ويؤثره على خلاص نفسه، لا يتّبع تعليمه، ولا يؤمن به، وهو بالتالي فاقد الحياة. وأوضح أنّ ذلك الشابّ كان، في الواقع، يعتزم العودة إلى أبيه كي يكرهه على التنازل عن ممتلكاته لقاء دخلٍ منتظمٍ يوفّره له. وإذن كان شديد التعلّق بإرثٍ ماديٍّ فانٍ، وغير مستحقٍّ لوراثة ملكوت الحياة السماويّة. وفي هذا السياق أنحى يسوع باللائمة على جشع الفرّيسيّين، وحذّر تلاميذه من خميرهم، وسعّر حفيظتهم بسرده مثل الغنيّ المتعجرف ولعازر الفقير المتسوّل، فاستشاطوا غيظًا، ولولا مسارعة يسوع إلى التواري لكانوا قضوا عليه.

الفصح الثاني

الحملان الأربعة التي كانت تُغسَل وتُزَيَّن كلّ يومٍ أُرسلَت إلى أورشليم، وقد عُلِّقَت في عنق كلّ منها بطاقةٌ تحمل اسم وشعار ربّ عائلةٍ، فغُسلت ثانيةً، ثمّ ذُبحَت، عصرًا، على يد كلّ ربّ أسرةٍ: لعازر، وهيلي قريب المعمدان، ويهوذا بارسابا، وإلياشيم ابن خالة يسوع. ثمّ جيء بالحملان المذبوحة إلى بيت عنيا التي كانت تُعَدّ من ملحقات أورشليم.

ومساء الخامس عشر من نيسان، التهم المجتمعون في بيت لعازر، وكان بينهم ستّةٌ وثلاثون تلميذًا، الحملان الفصحيّة، وقد شدّوا أثوابهم إلى وسطهم، وحزموا

أحقاءهم، وانتعلوا أحذيةً جديدةً، وبيدهم عصا، وأنشدوا الصلوات الطقسيّة، وباركوا الربّ. ثمّ تقدّموا، اثنين اثنين، رافعين أيديهم نحو السماء. وترأّس المائدة التي جلس عليها يسوع والرسل "هيلي" ابن عمّ المعمدان ممثّلاً العيلة، وترأّس لعازر مائدة أصدقائه، وإلياشيم ترأّس مائدة التلاميذ، فيما ترأّس المائدة الرابعة يهوذا بارسابا.

واندرج الفصح وفقًا للطقوس التقليديّة، وتناول الجميع لحم الحملان وتوابلها على عجلٍ، وهم يتلون، بين فينةٍ وفينةٍ، صلاةً أو مقطعًا من الكتب المقدّسة. وبعد أن التُهمت الحملان بأكملها وجُرّدت عظامها تجريدًا كاملاً بسكاكين من عظمٍ، غُسلت وأُحرقت. ثمّ قُدِّم عشاءٌ، في جوٍّ تسوده البهجة.

وفي هذه الأثناء لم يكفّ يسوع عن التعليم، بل سرد أمثلةً، وتناول، على نحوٍ خاصٍّ، العناية بالكرمة، وتشذيبها، وشبّه ابن الإنسان بالكرمة، والرسل والتلاميذ بأغصانها، فعلى الأغصان أن تظلّ ملتصقةً بالكرمة مستمدّةً منها نسغ الحياة والخصب. وحتّى عندما تُعصر ثمارها، عليهم ألاّ يتوقّفوا عن نشر الكرمة الحقيقيّة، أي يسوع، وعن غرسه في كلّ الكروم. وامتدّت جلستهم حتّى ساعةٍ متأخّرةٍ من الليل، في جوٍّ مشبعٍ بالفرح والتأثّر.

عظةٌ علنيّةٌ في الهيكل

صباح الفصح، فُتح الهيكل باكرًا، وشرعت أفواج المؤمنين تؤمّه، آتيةً بتقادمها المعبّرة عن شكر الربّ. وكان كلّ فوجٍ يُدخَل إلى الهيكل، ويقفل الباب في إثره، ريثما ينهي أداء الطقوس، منعًا للازدحام والتصادم، ثمّ يفسح المجال لفوجٍ آخر. وانطلق يسوع ورسله وتلاميذه، ولعازر وضيوفه، والنساء القدّيسات إلى الهيكل، منذ الفجر، وانتظموا وسط الجموع، حتّى حان دورهم فدخلوا ورتّلوا المزامير، وأنشدوا الصلوات على عزف الأدوات، وقدّموا الأضاحي، وتلقّوا البركة راكعين. وبعد أن فُرِغ من تقديم الأضاحي، أدّت جميع الأفواج طقوسها، اعتلى

يسوع المنبر الكبير، فأحاق به جمعٌ غفيرٌ، وطغمةٌ من الفرّيسيّين. وكان الرجل المُقعد الذي شفاه الربّ عند بركة بيت حسدا لا يغيب أبدًا عن الجموع المحيقة بيسوع، مشيدًا بما منّ عليه به، ومردّدًا أنّ من يقوم بهذه الأعمال هو، بلا ريبٍ، ابن الله، متحدّيًا الفرّيسيّين الذين طالما هدّدوه بالامتناع عن مثل هذه الأقوال.

ولم يغرب عن بال الفرّيسيّين أنّ يسوع قد علّم بجرأةٍ ليومين مضيا، وخشوا أن يهينهم أمام الشعب. فتضافروا على حشد حجج إدانته، بالتعاون مع الفرّيسيّين الذين قدموا من مختلف الأنحاء، والذي كانوا، على غرارهم، يجيشون حفيظةً على الناصريّ الصريح الذي لا يهاب. وجاؤوا بجعبٍ طافحةٍ بأكداس الشكاوى والتخرّصات التي توهّموا إدانته بها، وجميعهم عازمون على مهاجمته، منذ السانحة الأولى. وما إن شرع يعلّم حتّى أحاقوا به وراحوا يرشقونه بالاعتراضات والتنديد، بدءًا بالاستفسار حول إحجامه عن تناول الفصح معهم في الهيكل، وعن قيامه بتقادم الشكر، فدعاهم إلى استفسار أرباب الأُسر الذين أدّوا مقتضيات الشريعة عنه. فاستعادوا تعداد مآخذهم على تلاميذه الذين يخالفون طقوس غسل اليدين قبل الطعام، واقتطافهم سنابل قمحٍ يوم السبت، وإحجامهم عن تقديم الأضاحي. ثمّ أخذوا على يسوع إجراءه أشفيةً يوم السبت، خلافًا للوصايا.

وردّ يسوع عليهم بلهجةٍ صارمةٍ، وبمنطقٍ لا سبيل إلى دحضه، فقال لهم إنّ ابن البشر قد جاء ليقدّم نفسه ضحيّةً، أمّا هم فيدنّسون أضاحيهم بجشعهم وباغتياب الآخرين، مذكّرًا أنّ الله لا يقتضي سفك دماء الأضاحي بل يقتضي قلوبًا تائبةً، وأنّ زمن ذبح الأضاحي قد ولّى، أمّا السبت فعليه أن يبقى، لأنّه وُجد لتقديس الإنسان، وفعل الخير، وأنّ الإنسان لم يخلق من أجل السبت.

ثمّ سألوه عن مثل الغنيّ ولعازر الفقير، وجعلوا منه موضع سخريّةٍ، فكيف له أن يعرف ماذا قالا في دنيا الآخرة، أَكان هو في أحضان إبراهيم أو في الجحيم وسمع أحاديثهما؟ واستخلصوا أنّ من العار عليه سرد مثل هذه الترّهات، وإلهاء الشعب

بها. وكانت تلك سانحةً ليسوع كي يُنحي بالتنديد على جشعهم، وقسوتهم على الفقراء، وتباهيهم الباطل بالوفاء لوصايا من وَضْع البشر، في حين هم يهملون واجبات المحبّة التي أمر بها الله. وأعاد تأكيده بأنّ هذا المثل هو وصفٌ صادقٌ لسلوكهم المعوجّ المشين، وأثبت أنّ ما حدث للعازر الفقير وللغنيّ الذي كان يتنعّم كلّ يومٍ، ولا يفطن إلى المسكين الملقى أمام باب قصره، هو حدثٌ راهنٌ ضجّت به البلاد. وقد اطّلع يسوع عليه في صباه، وأفاد أنّ الغنيّ المذكور كان موضع تقدير مجتمعه، لأنّه كان فرّيسيًّا، خاضعًا بدقّةٍ للشريعة، ولكن خالي القلب من كلّ رأفةٍ بالفقراء. كان قاضيًا في مدينته، فكان البائسون يستغيثون به، ولكنّه كان يردّهم بفظاظةٍ وصَلَفٍ. وكان في مدينته فقيرٌ معتلٌّ انتشرت الدمامل والقروح على كلّ جسمه، ومن جرّاء عجزه عن العمل عضّه الجوع، فطلب أن يُحمَل ويُلقى عند باب قصر الغنيّ، لعلّ منظره يوقظ فيه مشاعر الرأفة والإنسانيّة، ولكنّ قلب الغنيّ ظلّ موصدًا، لا بل زاد قسوةً، فعدّ الفقير دنسًا ينبغي توقّيه، فغدا حتّى ضيوف الغنيّ ينفرون منه. ومات الفقير موت أبرارٍ، في حين كان موت الغنيّ مريعًا، رغم تمويهه بمظاهر الأبّهة، وشاع بين الشعب أنّ أصوات آلامه كانت تتصاعد من قبره.

ثمّ قال يسوع إنّ لا شيء في السماء أو على الأرض يخفى على علمه، وأنّ من لا يصغي إليه لا يصغي في الواقع لا لموسى ولا للأنبياء، الذين تنبّأوا عنه. وأكّد أنّ كلّ ما يفعله هو إنّما فعل أبيه السماويّ، ولكنّهم هم لا يعرفون الآب. يدّعون القدرة على الخلاص بفضل الكتب المقدّسة، في حين لا يلتزمون بالوصايا التي جاءت في الكتب. وأنّ ليس هو من يدينهم بل موسى والأنبياء الذين كتبوا عنه، ومع ذلك أبوا الإيمان به.

ومع كلّ ما كان خطابه يُجابَه به من مقاطعةٍ، تابع يسوع عظته طويلاً، وضاق الفرّيسيّون صبرًا، فأحاطوا به عن كثبٍ، مطلقين صرخات سخطهم، واستدعوا الحرس من أجل القبض عليه. وبغتةً اتّشحت السماء بغيومٍ قاتمةٍ حجبت نور الشمس، ورفع يسوع عينيه إلى السماء، ووسط الصخب المدوّي هتف: "يا أبتِ،

اشهد لابنك!" وحينئذٍ خيّم القتام، وأعتمت السماء، ودوّى ما يشبه رعدًا، وسُمع صوتٌ يقول: "هذا هو ابني الحبيب، الذي رضيت عنه". وراح أعداء يسوع يجيلون أنظارهم في كلّ صوبٍ مستطلعين مصدر الصوت، فيما شقّ يسوع وأتباعه طريقًا لهم بين الجموع، نحو زاوية الهيكل الغربيّة. وفي ذلك اليوم عينه جاؤوا إلى راما.

سمع الجميع صوت الرعد أمّا جواب الآب فلم ينفذ إلاّ إلى آذان الفرّيسيّين، غير أنّهم صمتوا عنه، عند تبدّد الظلمة، ولا سيّما أنّهم فوجئوا بتواري يسوع فأرسلوا حرَسًا في إثره، ولكن تعذّر عليهم العثور عليه، وأُسقِط في يدهم من جرّاء عجزهم عن وضع أيديهم على النبيّ الناصريّ المزعج.

وكان يسوع، في ذلك اليوم وفي الأيّام السابقة، ومن خلال العظات العديدة التي ألقاها، قد حدّد السبيل إلى اتّباعه، وهو سبيل الصليب، مشدّدًا على أنّ "من ابتغى خلاص نفسه فليضحِّ بها، ومن ضحّى بنفسه من أجل يسوع يخلّصها. ولن يجدي الإنسان نفعًا إن هو كسب العالم كلّه وخسر نفسه. وكلّ من يخجل بيسوع وبأقواله وسط جيل الزناة والخطأة، سيخجل به ابن الإنسان عندما سيأتي إلى مجد الآب، وسيُكافئ كلاًّ وفقًا لأفعاله.

وتوضح الرائية أنّ العديد من أقوال الربّ التي يوردها الإنجيل بإيجازٍ شديدٍ، كان يسوع يقضي ساعاتٍ في توضيحها.

شفاء امرأةٍ حدباء

علّم يسوع على مقربةٍ من مدينة "عطاروت"، ولم يدخل المدينة مباشرةً، فقد كان الفرّيسيّون والصدّوقيّون فيها يجيشون غيظًا عليه. ولكنّ أرتالاً من المرضى والنساء والأطفال توافدوا إلى حيث كان، مستغيثين به، فعلّم بحزمٍ، ولكن بكثيرٍ من العطف. وحذّرهم من خبث الفرّيسيّين، وصارحهم بشأن هويّته ورسالته، وأبيه السماويّ، والاضطهادات المعدّة للقضاء عليه، وعن واجب الإيمان به والتزام تعليمه، وشفى المصابين بشتّى أنواع العلل.

وكان التلاميذ قد أعدّوا لإقامته مع صحبه مسكنًا لدى معلّم مدرسةٍ، شيخٍ ورعٍ، ثمّ قصد يسوع وصحبه إلى المجمع الاحتفال بطقوس السبت، حيث كان قد احتشدت طغمةٌ من المعتلّين، قادمين من الجوار فشفاهم. وكان رئيس المجمع فرّيسيًّا محدودبًا ماكرًا، يجهد في تمويه عاهته بمظاهر الأبّهة والسلطة، فيجعل من نفسه موضع سخريّة المجتمع.

وبعد أن علّق يسوع تعليقًا موجزًا عن قراءات ذلك اليوم التفت إلى زاوية النساء، واستدعى أرملةً عجوزًا، كانت مطويّةً على ذاتها بحيث كانت يداها تلامسان الأرض. وكانت قد منيت بهذه العاهة منذ ثماني عشرة سنةً، وألِفتها، ولم يساورها، يومًا، أملٌ في التحرّر منها. فاقتادتها بناتها إلى يسوع الذي وضع يدها على ظهرها وقال: "يا امرأة، فلتبرئي من عاهتك!" وما إن سمعت هذه الكلمات حتّى انتصبت بملء قامتها، ومجّدت الله، وخرّت ساجدةً أمام الربّ، وشاركها الجمع تمجيدًا للعليّ القدير.

واستنكر الفرّيسيّ الماكر هذا الشفاء في يوم سبتٍ، ولكنّه لم يجرؤ على لوم يسوع خشية أن يناله منه ما لا يرضيه، فتصنّع السلطة وخاطب الجمع قائلاً: "لديكم ستّة أيّامٍ يمكنكم الاستشفاء فيها، ولكن حذارِ من خرق حرمة السبت بطلب الشفاء والحصول عليه". ولم يطِقْ يسوع هذا القول فخاطبه: "أيّها المرائي، ألا يحلّ كلٌّ منكم ثوره أو حماره يوم السبت، ويجرّه إلى منهلٍ للاستقاء؟ أفلا يصحّ أن تُحلّ ابنة إبراهيم هذه يوم سبتٍ، من العاهة التي قُيّدت بها منذ ثماني عشرة سنةً؟". فخسئ الفرّيسيّ المرائي، وغمرت فرحةُ المعجزة جميعَ الحاضرين. وبما أنّ تلك الأرملة العجوز كانت تحسن إلى الجميع، وتنعم بحبّ مجتمعها، سرعان ما تألّفت من حولها وحول بناتها وأحفادها تظاهرةٌ تضجّ فرحًا، وزفّتها إلى بيتها. وكانوا جميعهم يستنكرون موقف الفرّيسيّ الذي اغتاظ لشفاء امرأةٍ ورعةٍ محسنةٍ، في حين كان الأولى به أن يلتمس الشفاء لنفسه من عاهته.

وفي كلّ مناسبةٍ كان الربّ يذود، بحزمٍ، عن واجب إجراء أشفيةٍ في يوم السبت.

التجلّي

وصل موكب يسوع إلى مدينةٍ راقدةٍ عند أقدام جبل طابور. وهناك أرسل المخلّص رسله وتلاميذه إلى وجهاتٍ مختلفةٍ، ولم يستبْقِ إلى جانبه سوى بطرس ويوحنّا ويعقوب، ومعهم تسلّق الجبل، عبر دروبٍ ملتويةٍ وعرةٍ، وكانوا يتوقّفون للصلاة في الأماكن والمغاور التي سبق لأنبياء الإقامة فيها، وبالتالي استغرق بلوغهم قمّة الجبل نحو ساعتين. وكان يسوع قد أوعز للرسل ألاّ يأخذوا معهم طعامًا أو شرابًا، إذ إنّهم سيجدون على الجبل ما يشبعهم ويروي عطشهم. كان المنظر على القمّة خلاّبًا، مفروشًا بالعشب وبأشجارٍ وارفة الظلال، وكان خزّانٌ صخريٌّ يضخّ ماءً زلالاً كلّما انتزع سدّه. وبعد أن اغتسل يسوع وصحبه توغّلوا في جوف مغارةٍ عميقةٍ.

واسترسل يسوع في تلقين رسله الصلاة الخاشعة، التي تتمّ ركوعًا، والأيدي مصوّبةٌ إلى السماء، وبحرارةٍ متّقدةٍ. وعلى هذا النحو تلوا معًا الصلاة للآب السماويّ التي كان قد لقّنهم إيّاها. ثمّ حدّثهم عن الخلق والفداء، بعباراتٍ مثقلةٍ عمقًا، وتقطر عذوبةً، وسحرهم بفيض حنانه واندفاعه.

وكان، منذ البدء، قد أنبأهم عن رغبته في إطلاعهم على حقيقة هويّته، وفي أن يشهدوا مجده، لكيلا يضطربوا ويهتزّوا حين تنهال عليهم الإهانات، ويُذَّل، ويُسلَّم للموت المشين. ولم يلحظ التلاميذ غروب الشمس، وبدء انتشار العتمة وهو يكلّمهم، فقد كانوا مأخوذين بسحر كلامه، وبسموّه الفائق. وبغتةً، أخذ شخصه يشعّ نورًا لا يفتأ يسطع أكثر فأكثر، وأخذت أرواحٌ سماويّةٌ تحيق به، وما إن لمحها بطرس حتّى هتف: "يا معلّم، ما معنى هذا؟" فأجابه يسوع: "إنّهم يخدمونني"، فأخذت الحميّة ببطرس كلَّ مأخذٍ، وقال: "ها نحن ذا، متأهّبون لخدمتك في كلّ أمرٍ". وكان الجوّ قد عبق، لدى ظهور الملائكة، بتيّارات عطرٍ ارتوت بها نفوس التلاميذ، وأفعمتها امتلاءً سماويًّا. وما لبث الربّ أن أصبح من شدّة النور شفّافًا، وأشاع من حول ذاته ضوءًا يزري بضوء النهار. فارتمى الرسل أرضًا، مذهولين، وجمدوا في أماكنهم.

وفي هوّة ذهولهم، شهد الرسل موسى وإيليّا على جانبَيْ يسوع ينصتان إليه، وهو يحدّثهم عن الفداء والآلام. كانا يبدوان وقد خلعا عنهما آثار الشيخوخة واستعادا ميعة الشباب. كان موسى يبدو أكثر حزمًا، وحيويّةً، وسرورًا بفادي شعبه، في حين انبعثت من إيليّا معالم الرقّة والدماثة والخشوع.

وقد أطلع الربّ النبيّين على كلّ ما عانى وما سيعاني، فأبديا تعاطفهما وإجلالهما، واحترامهما، ومجّدا الله، شاكرين له رحمته لشعبه.

وأفاق الرسل من ذهولهم فرأوا مجد الله والنبيّين المحيقين بالمعلّم، وشهدوه يبسط ذراعيه للدلالة على صلبه، وعلى صعوده، ورأوه يسطع سطوع الشمس، وثيابه تتألّق بياضًا، وفي هذه الأثناء، رأته الأخت الرائية والنبيّين والتلاميذ يحلّقون فوق الأرض.

وهتف بطرس، في غمرة فرحه واندفاعه: "ما أجمل أن نقيم ههنا! فلنصنع ثلاث خيامٍ، واحدةً لك، وواحدةً لموسى وواحدةً لإيليّا!". لم يعد بطرس بحاجةٍ إلى أيّ فردوسٍ آخر، فقد انتهى إلى أقصى ما تطاولت إليه أحلامه، وتذوّق أكثر ممّا تمنّاه من سعادةٍ. وكان يعني بالخيام أماكن راحةٍ ومجدٍ، ومسكن الطوباويّين. كان يتكلّم وهو مخطوفٌ بالروح، ولا يعي ما يقول.

ولفّت يسوع والرسل غمامةٌ بيضاء نيّرةٌ، وتدفّق سيل نورٍ على يسوع، وانبعث من مطاوي الغمامة صوتٌ يحاكي همس النسيم قائلاً: "هذا هو ابني الحبيب الذي به سُررت. له اسمعوا!" عند سماعهم هذا الصوت، أَخذت الرعدة بالرسل فارتموا أرضًا معفّرين وجوههم بالرغام، وحينئذٍ فقط، بدأوا يدركون معنى ما كانوا شهودًا عليه. فران عليهم شعور إجلال يسوع، بعد أن سمعوا شهادة الآب السماويّ فيه فرأوا يسوع وحده، ولكنّهم ما برحوا تحت تأثير الذهول، وكان الفجر قد بدأ يبزغ. وهدّأ المعلّم روعهم، وأكّد لهم أنّه ابتغى أن يريهم تجلّي ابن الإنسان، لكي يوطّد إيمانهم، ولكي لا يهتزّوا عندما سيقع بين أيدي الأشرار، ولكي لا يُعثّرهم ما سيلحق به من ضيمٍ وإذلالٍ، ولكي يشدّدوا، حينئذٍ، من يضعف من رفاقهم. ومع إشراقة

الشمس انحدروا من الجبل. وفي الطريق أوعز إليهم المعلّم أن يكتموا ما شاهدوا، إلى أن يقوم ابن الإنسان من الموت، فازدادوا له إجلالاً، ولا سيّما أنّهم، عقب سماعهم شهادة الآب فيه، رازوا فداحة كلّ ما كان قد داخلهم من شكوكٍ، ومن وهن إيمانٍ. ثمّ راحوا يتساءلون عن معنى قوله "إلى أن يقوم ابن الإنسان من الموت!" غير أنّهم لم يملكوا جرأة استفسار المعلّم عن ذلك.

شفاء طفلٍ مسكونٍ بروحٍ شرّيرٍ

ما كاد يسوع يطأ أسفل الجبل حتّى احتشد من حوله خلقٌ غزيرٌ، كانوا قد جاؤوه بمرضاهم فعزّاهم وشفاهم. واستولت التجلّة على جميع الذين هرعوا لملاقاة يسوع، والذين لحظوا فيه أماراتٍ توحي بسموٍّ نورانيٍّ فائق الطبيعة. وعلى مسافةٍ غير بعيدةٍ من هذا الحشد لمح يسوع جمعًا ضمّ عددًا من تلاميذه ومن الكتبة، وممّن كانوا عائدين من الفصح، وما إن لمحوا يسوع حتّى خفّوا لتحيّته، وذهلوا لرؤية انعكاس آثار التجلّي على كلّ كيانه، كما أنّهم عجبوا ممّا كان يرتسم على وجوه رسله من وجلٍ ووجومٍ، واستخلص الجميع أنّ أمرًا غير طبيعيٍّ كان قد حدث، وخلّف آثاره في نفوسهم.

وسأل يسوع الجمع عمّا كانوا يتباحثون فيه، فدنا منه رجلٌ، وارتمى عند قدميه، متوسّلاً أن يرأف بابنه الوحيد، الذي لم يتخطَّ العاشرة من العمر، والمصاب بالصرع، وبروحٍ شرّيرٍ أبكم، غالبًا ما يلقيه في النار وفي الماء، ويمزّقه ويوسعه آلامًا مضنيةً، تنتزع منه صيحاتٍ تفتّت الأكباد. وكان الوالد المسكين قد التمس من تلاميذ يسوع شفاءه لدى زيارتهم لقريته، فعجزوا عن ذلك، وكان هذا الأمر هو موضع نقاشهم. وحينئذٍ ضاق صدر يسوع فهتف: "أيّها الجنس اللامؤمن الفاسد، حتّى متى أكون معكم، وحتّى متى أحتملكم؟ إليّ به إلى ههنا!" فهرع الرجل شاقًّا الجمع، وجاء بابنه الذي كان قد حمله على كتفيه طيلة سفره. ومذ وقع نظر الطفل على الربّ انهال عليه الروح الشرّير تنكيلاً، فراح يتلوّى تلوّيًا مريعًا، وهوى أرضًا، مزبدًا. وكان حسب يسوع التلفّظ بكلمةٍ واحدةٍ حتّى يهدأ ويسكن.

حينئذٍ استفسر يسوع والده منذ متى يعاني الطفل هذه الآلام، فأجابه: "منذ طفولته"، وهتف الوالد ملتهفًا: "إن كان باستطاعتك، ارأف بنا، وأغِثنا". فأجاب يسوع: "أجل، إن أنت آمنت، فكلّ شيءٍ مستطاعٌ لمن يؤمن". فأقرّ الرجل مذرّفًا الدموع: "إنّي أومن، يا ربّ، فادعم ضعف إيماني".

حتّئذٍ، كان القوم قد انتحوا جانبًا، وجلاً وخشيةً، ولكنّهم لدى سماعهم هذا الحوار دنوا من يسوع ومن أبي الصبيّ، وحينئذٍ رفع يسوع يده، وحذّر الروح الدنس، قائلاً: "أيّها الروح الأبكم القذر، آمرك أن تخرج من هذا الولد وألاّ تعود إليه أبدًا". فانطلقت من فم الولد صيحةٌ حادّةٌ، وانتابه تمزّقٌ مريعٌ، وخرج منه الروح. وبدا الولد شاحبًا، جامدًا، بلا حراكٍ، وكأنّه ميتٌ. لا بل، فيما كان أبوه وآخرون يجهدوه في إيقاظ وعيه أعلن كثيرون: "لقد مات، مات حقًّا!". غير أنّ يسوع أمسكه من يده، وأنهضه فإذ به يضجّ عافيةً، وسلّمه لوالده، وأسدى له نصائح خلاصيّةً. فقدّم الوالد للربّ آيات الشكر المضمّخة بدموعه، وأنشد مع الجمع ممجّدين عظمة الله.

وبعد أن أبرأ يسوع بعض المرضى، غادر المكان بصحبة رسله وتلاميذه، في مجموعاتٍ متفرّقةٍ، وعبر دروبٍ جانبيّةٍ مختلفةٍ، تفاديًا للصدام مع جموع العائدين من أورشليم على الطريق العامّ. وكان المخلّص لا يني يطوف بين تلك المجموعات. ولّما جاء إلى رسله الذين كانوا شهود تجلّيه، تجرّأوا فاستفسروا عن قوله: "إلى أن يقوم ابن الإنسان من بين الأموات"، فهذا القول ما انفكّ يقضّ مضاجعهم. ثمّ استفسروه عن قول الكتبة إنّ على إيليّا أن يأتي أوّلاً"، فأوضح لهم المعلّم: "في الواقع ينبغي أن يأتي إيليّا ويعيد كلّ أمرٍ إلى نصابه. ولكنّي أقول لكم: لقد جاء إيليّا، ولكنّهم لم يتعرّفوه، وفعلوا به كلّ ما أرادوا. وعلى هذا النحو أيضًا سيعاملون ابن الإنسان". وقال أمورًا أُخرى استخلص منها الرسل أنّه كان يقصد المعمدان.

ثمّ استوضحوه عن سبب عجزهم عن شفاء الولد المبتلى بعلّةٍ، والمسكون بالروح الأبكم، فأجابهم، صراحةً: "بسبب عدم إيمانكم. فلو كان لديكم من

الإيمان قدر حبّة خردل، لكنتم قلتم لهذا الجبل: تحرّك، فيتحرّك، ولما استحال عليكم شيءٌ. ولكنّ هذا الصنف من الأبالسة لا يُطرد إلاّ بالصلاة والصوم". واستبحر في إطلاعهم عمّا ينبغي فعله من أجل قهر مقاومة إبليس، فقال لهم إنّ الإيمان يهب لأعمالنا قوّةً وحيويّةً، وأنّ الإيمان عينه يُدعَّم بالصلاة والصوم اللذين ينتزعان من العدوّ الذي ينبغي طرده من الآخرين، كلّ سطوةٍ علينا. واستفاض في شرح مختلف وسائل شفاء شتّى أصناف السكنى الشيطانيّة.

تعاليم حول التجرّد، والبساطة، والتواضع، والعفّة في الزواج

علّم يسوع في منطقة تُدعى "دوتائيم" حيث انضمّ إليه العديد من التلاميذ. وأقام فرّيسيّون وليمةً دعوه إليها مع تلاميذه، وعندما همّوا بالجلوس إلى المائدة دخل تلميذٌ برفقة عالم شريعةٍ من أريحا كان يعرفه، كان قد التمس، آنفًا، الانضمام إلى جماعة تلاميذ يسوع، لكنّ المخلّص أبى الاستجابة لطلبه، لأنّه كان يمتلك عقاراتٍ واسعة في السامرة، واقتضى منه الربّ أن يتخلّى عن كلّ شيء. وها قد عاد، في هذه النوبة، بعد أن سوّى أموره المادّيّة، واقتسمها مع ذويه، محتفظًا بعقار يضمن له أسباب العيش. وبسبب ذلك رفض يسوع طلبه ثانيةً، فانسحب غاضبًا، فاستنكر الفرّيسيّون موقف يسوع، لأنّهم كانوا يحملون مودّةً لذلك الشابّ المثقّف، واتّهموا يسوع بأنّه لا يكفّ يدعو إلى المحبّة، وهو خلوٌ منها، ويدين الفرّيسيّين لفرضهم أحمالاً باهظةً على الآخرين، في حين هو يفرض أثقل منها، وما لا قدرة على احتماله. وادّعوا أيضًا أن يسوع رفض طلب الشابّ لأنّه مثقّفٌ وعالمٌ، ويسوع حريصٌ على إحاطة نفسه بالجهلة، ومن مآخذهم عليه أنّه منع عن الشابّ مقوّمات العيش الأساسيّة، وسمح له بخرق تقاليد الأقدمين، وذكّروا بخرقه المتواتر لحرمة السبت وقدسيّته. ولكن يسوع دحض كلّ تلك التهم والادّعاءات وأفحمهم بأجوبته المنطقيّة المعهودة.

وفي اليوم التالي إذ كان يسوع في بيت بطرس المطلّ على البحيرة، مرّ جابي

مكوس للهيكل وسأل بطرس إن كان معلّمه يؤدّي ضريبة الدرهمين. فوعد بطرس بدفعها، وأطلع المعلّم على ذلك، فسأله يسوع: "ماذا تُرى، يا سمعان؟ على مَن يفرض ملوك الأرض الضرائب، على أبنائهم أم على الغرباء؟" وأجاب بطرس: "على الغرباء". فاستخلص يسوع: "الأبناء، إذن، معفيّون منها. ومع ذلك، ولكي لا نعثّر هؤلاء، امضِ إلى البحر، وارمِ الشصّ، فتصطاد مع السمكة "ستارًا"، وبه ستؤدّي ما يترتّب عليّ وعليك". وبكلّ بساطةٍ، امتثل بطرس، وقصد الشطّ، وأخذ شصًّا، ورماه في البحر، فأخذ سمكة كبيرة، مدّ يده إلى فمها وانتزع منه قطعة نقدٍ صفراء بيضاويّة الشكل، وأعطاها للجابي عن نفسه وعن معلّمه. وكانت السمكة من الكِبَر بحيث كفتهم غداءً.

ثمّ استوضح المعلّم التلاميذ عمّا كانوا يتباحثون بشأنه بالأمس. فلم يجرؤوا على الإجابة إذ إنّهم كانوا يتناقشون في مَنْ هو الأعظم بينهم. ولكنّ يسوع الذي كان يقرأ مكنونات أفكارهم، أوضح لهم: "من ابتغى أن يكون الأوّل، فليرتضِ أن يكون الأخير، وخادمًا للجميع". واستفاض في هذا السياق، ثمّ أوضح لهم علّة رفضه للشابّ الذي تقدّم بالأمس.

وعقب العشاء، قصد يسوع ورسله وتلاميذه كفرناحوم حيث كانوا يحتفلون بعودة الحجّاج من أورشليم، وقد ازدانت الشوارع والبيوت بالزهور، وأغصان الأشجار، وانطلقت مظاهرات شيوخٍ ونساءٍ وأولادٍ، وانضمّت إلى تطوافات الحجّاج الذين كانوا يطوفون الشوارع، ويزورون أصدقاءهم والوجهاء. وطاف يسوع وأتباعه أرجاء المدينة، وواكبهم الفرّيسيّون فترة من الزمن بمظاهر المودّة.

وزار يسوع الفقراء وأشخاصًا مخلصين له. وفي السوق حيث كان المجمع، حيّاه طلاّب المدارس، وجاءته نساءٌ بأطفالهنّ كي يباركهم، وتوقّف يسوع عن التعليم الذي كان يتابعه أثناء سيره، وبارك الأولاد، وعلّمهم، ثمّ وزّع على الجميع هدايا كانت النساء القدّيسات قد أعددنَها.

واتّفق أن استفسر التلاميذ عمّن هو الأعظم في ملكوت السماوات، فاستدعى

يسوع امرأةً كانت تقف جانبًا مع ابنها البالغ نحو أربع سنواتٍ، فأسبلت قناعها، ودنت مع ابنها وسلّمته ليسوع، وتراجعت، فقبّل يسوع الصبيّ، وأقامه وسط التلاميذ، فتحلّق من حوله عددٌ من الأطفال، وحينئذٍ أعلن الربّ: "إن لم تصبحوا مثل هؤلاء الأولاد، فلن تلجوا ملكوت السماوات. إنّ من يستقبل ولدًا باسمي يستقبلني. ومن يستقبلني يستقبل من أرسلني. وكلّ من يتصاغر مثل طفلٍ، هذا هو الأعظم في ملكوت السماوات".

وبعد أن أشاد الربّ بفضائل البساطة وبراءة الطفولة، بارك الطفل الماثل أمامه، وقبّله، وأعطاه فاكهةً وثوبًا صغيرًا، ثمّ استدعى أُمّه وأعاده لها بعد أن وجّه لها عباراتٍ نبويّةً حول مصير ابنها، والتي لم تفهمها إلاّ لاحقًا، عندما أصبح ذلك الصغير تلميذًا للرسل، ثمّ أسقفًا وشهيدًا، معتنقًا اسم أغناطيُس.

وفيما كان يسوع يعلّم كانت امرأةٌ محجّبةٌ منتحيةً جانبًا، مأخوذةً، طافحةً تأثّرًا وفرحًا، ولا تني تردّد، بصوتٍ خافتٍ: "طوبى للحشا الذي حملك وللثديين اللذين أرضعاك! وطوبى، خاصّةً، لمن يسمعون كلمة الله ويحفظونها!". وكلّما توقّف يسوع عن الكلام كانت تعيد هذه العبارات، وعيونها تفيض دمعًا، ويداها مضمومتان، معبّرةً بذلك عن حبّها وإعجابها. كان حضور المخلّص، وتعليمه يملآنها اندفاعًا تعبّر عنه ببساطة طفلٍ. كان اسمها "ليا" وهي زوجة فرّيسيٍّ لئيمٍ في قيصريّة فيليبّس، وسلفة المرأة النازفة التي شفيت بمجرّد لمسها طرف ثوب المخلّص، وهي التي كانت قد هتفت مرّةً، وهي تسمع يسوع يعظ: "طوبى للبطن الذي حملك..." وأجابها يسوع: "بل طوبى لمن يسمعون كلمة الله ويحفظونها!" ومنذ ذلك اليوم ألّفت من هتافها ومن جواب الربّ صلاةً واحدةً لا تكفّ عن تردادها بتأثّرٍ آخذٍ بكلّ كيانها. وكانت قد زارت النساء القدّيسات في كفرناحوم، وتبرّعت بجزءٍ وافٍ من ثروتها إسهامًا في رسالة يسوع ورسله وتلاميذه.

وذات يومٍ، إذ كان يسوع في بيت صيدا، عاد إليه تلاميذ كان قد أوفدهم في مهمّةٍ رسوليّةٍ، منهكين، مجرّدين من كلّ شيءٍ، فاستقبلهم المخلّص وذووه بمحبّةٍ جمّةٍ، وأحاطوهم بعنايةٍ يقظةٍ حارّةٍ، وقادوهم إلى بيت أندراوس حيث غُسلت

أقدامهم، واستحمّوا، وزُوِّدوا بثيابٍ نظيفةٍ، وأُعدّ لهم طعامٌ، وانبرى يسوع بنفسه لخدمتهم باندفاعٍ. وأخذت الحميّة ببطرس فقال للمعلّم: "علامَ تخدمهم أنت بنفسك، دع لنا هذه المهمّة". وأجابه يسوع أنّه جاء كي يخدم، وأنّ كلّ ما يُفعل للرسل والتلاميذ إنّما يُعمل لله الآب. وأعاد على مسامعهم تعاليم التواضع، مشدّدًا على أنّ الأصغر فيهم وخادم الجميع سيكون أعظمهم. ولكن من يتصنّع التواضع لا بدافع المحبّة، بل طمعًا في تبوّء المركز الأعلى فهو مراءٍ، وخادمٌ زائفٌ، وأنّه قد نال مكافأته، لأنّه يخدم ذاته لا أخاه. وكان عدد التلاميذ الملازمين يسوع، حينذاك، يناهز السبعين، عدا عن آخرين في أورشليم وجوارها.

وألقى يسوع على رسله وتلاميذه عظةً تميّزت بعمقٍ ووضوحٍ فريديْن، مفصحًا عن كونه لم يولد من رجلٍ بل من الروح القدس. وتكلّم عن أمّه باحترامٍ فائقٍ، فوصفها بالإناء الطاهر، بالغ القداسة، الذي طالما صبا إليه الأبرار، والذي استدعته أفواه الأنبياء منذ ألوف السنين. وأشار إلى شهادة أبيه بمناسبة عماده، مغفلاً شهادته فيه على جبل طابور التي آثر كتمانها مؤقّتًا، ووصف زمن مولده بالسعيد المقدّس، فبه أُعيدت الحياة إلى العهد بين الله والبشر. وتحدّث عن سقطة الإنسان، وانفصاله عن الآب السماويّ، وعن قدرات إبليس والأرواح الشرّيرة. مؤكّدًا أنّ ولادته من عذراء منـــزّهةٍ من الدنس، بقدرةٍ إلهيّةٍ قد أعادت الله إلى الأرض. وأنّه هو جاء لكي يوثّق الصلة بين الطبيعيّ وفائق الطبيعة، ويكون الجسر بين الله والإنسان، فعلى مَن يبتغي اجتيازه أن يمرّ عبره وبمساعدته، زاهدًا في كلّ متاعٍ أرضيٍّ، وفي ملذّات العالم. وأعلن أيضًا قهره لسطوة الأرواح الشرّيرة وسلطانها على العالم والبشر، مؤكّدًا أنّ بوسع البشر أن يتحرّروا باسمه، وبالاتّحاد الحميم به في الإيمان والمحبّة، من العبوديّة التي كانت قد أخضعتهم لها تلك السلطات.

لقد اتّسمت أقواله هذه بأكبر قدرٍ من الجدّ والعلنيّة، ولم يدرك معناها رسله وتلاميذه إدراكًا كاملاً، غير أنّهم حزنوا عندما جاء على ذكر آلامه. أمّا الرسل الثلاثة الذين شهدوا تجلّيه، فما انفكّوا، منذئذٍ، غارقين في أفكارهم وتأمّلاتهم.

ومرّ يسوع بحصّادين فحدّثهم عن الزرع والحصاد، وعمّا يشوبهما من عناصر دخيلةٍ ينبغي إزاحتها في الوقت المناسب، وعن الخصب. ثمّ التفت إلى تلاميذه، فحدّثهم عن الزرع والحصاد الروحيّين، وسمّاهم زرّاعًا وحاصدين، وذكّرهم بواجب جمع البذار الجيّد، كي يستحصلوا منه، مستقبلاً، على غلالٍ وفيرةٍ.

ثمّ مرّ بالرعاة وخاطبهم بأقوالٍ مماثلةٍ، وروى لهم مَثَل النعجة الضالّة، والراعي الصالح. والتفت إلى تلاميذه، وأهاب بهم أن يتّعظوا بهذه الأمثال، التي طبّقها على نفسه، معلنًا أنّه سيبذل نفسه وحياته إنقاذًا لخرافه، وخلاصًا لها. وأرشد تلاميذه إلى السبيل الذي يتعيّن عليهم انتهاجه في سياق رحلاتهم الرسوليّة، داعيًا إيّاهم إلى مخاطبة الأشخاص المنتشرين في الحقول والبراري، والمهمّشين المهملين، ونثر البذار الطيّب بينهم. وكان لحديثه هذا المفعم عطفًا وعذوبةً، في أجواءٍ هادئةٍ، وقعٌ بعيد الغور، نفذ إلى أغوار قلوب مستمعيه.

ومرّ موكب يسوع بقريةٍ قريبةٍ من نهر الأردنّ كانت تحتفل بعودة حجّاج أورشليم، فزار شيوخًا عاجزين، وأبرأ مرضى، وعلّم تلاميذ مدرسةٍ كانوا قد خرجوا مع معلّميهم لاستقبال الحجّاج. ثمّ ألقى على رجالٍ ونساءٍ محتشدين عظةً تناول بها الزواج. وممّا جاء في عظته أنّ في الطبيعة البشريّة ميولاً شرّيرة لا بدّ من كبحها وقهرها بالصلاة والتضحيات. فمن يطلق العنان لأهواءٍ بهيميّةٍ، يزرع أهواءً وحشيّةً، وأنّ أعمال الإنسان تواكبه، وستدينه، وأنّ أجسادنا صُنعت على صورة الله، ولكنّ إبليس جاهدٌ في تدمير هذه الصورة فينا، وأنّ الإفراط في تلبية الشهوات يجرّ وراءه مواكب الأمراض والخطيئة، وشتّى ألوان الرّجس. وبالتالي حرّض يسوع مستمعيه على التزام العفّة، والتقشّف، والصلاة، مذكّرًا بأنّ هذه الفضائل ونقاء سلوك الأقدمين هي التي جاءت للعالم بالقدّيسين والأنبياء. وقد دعم تعاليمه هذه بشواهد مستلهمةٍ من بَذر القمح، واقتلاع الأعشاب الضارّة الرامزة إلى الشهوات الدنسة، والرذائل، والعقم النفسيّ. واستشهد بالأرض التي ينبغي إفساح الراحة لها كي تخصب، وإلى البركة التي يفيضها الله على الحقول المقتناة مقتنًى شرعيًّا.

واستفاض المخلّص في الحديث عن الكرمة، وعن واجب تشذيب أغصانها النافلة الضارّة التي تمثّل ميولنا الجامحة، والتي لا بدّ من اجتثاثها لكي تؤتي عنبًا عذبًا، ولا يقتصر إنتاجها على الأوراق والحطب، وعنى، بذلك، أولادًا أشرارًا، لا فائدة منهم، والذين عوضًا عن استمطار البركة، يحاكون الأعشاب الضارّة التي تخنق البذار الطيّب. وتحدّث أيضًا عن كرماتٍ رفيعة الصفات، رمز بها إلى الأُسَر الورعة، وعن كرماتٍ محسّنةٍ قصد بها نفوسًا ارتدّت عن الضلال، وتحوّلت ووُلدت ثانيةً.

وأشار إلى انحطاط نسل ابراهيم من جرّاء انغماسه في الممارسات الوثنيّة، وسرد مثل ربّ الكرمة، الذي خانه العمّال الذين أوكل إليهم كرمه، فأرسل ابنه كي يستعيد الكرم فقتلوه.

كان تأثّر المستمعين بخطابه بالغًا، واستدرّ دموع الكثيرين، ومع أنّهم لم يستوعبوا كلّ فحواه، إلاّ أنّهم كانوا يشعرون بانسياقهم إلى الخير والتوبة.

وكلّمهم عن التجرّد وعن التعاون مع النعمة. ودعاهم، كلّما جادوا بإحسانٍ أو فرضوا على ذواتهم حرمانًا من أكل أو شرب، أن يضعوا هذه التضحيات بين يدي الله، سائلين أن يحوّلها غوثًا للرعاة الفقراء ساكني القفار، ولعموم المعوزين، مؤكّدًا لهم أنّ الآب السماويّ، الوكيل الأمين سيستجيب لدعائهم، إذا هم، بصفتهم خدّامًا أمينين، سعوا بدافع المحبّة صوب الفقراء كي يشركوهم بفائضهم. وبذلك يضحون أعوان الله الذي يعمل مع المؤمنين به.

ومساءً عاد يسوع وصحبه إلى كفرناحوم حيث دعاهم فرّيسيٌّ إلى العشاء، ودعا أيضًا أقرباءه، وفرّيسيّين أصدقاء له. ولحظ يسوع أنّ الفرّيسيّين المدعوّين كانوا حريصين على الاستئثار بالمطارح الفضلى على المائدة، فأسدى للمدعوّين هذه النصيحة: "إذا دُعيتم إلى وليمة، فاحذروا من احتلال المكان الأوّل، الذي قد يكون معدًّا لمدعوٍّ رفيع الشأن، فيضطرّ ربّ البيت إلى إخجالكم، وإكراهكم على التنازل عن ذلك المكان للمدعوّ الآخر عندما يحضر. والأحرى بك أن تحتلّ المكان الأخير، فيقول لك ربّ البيت: "يا صديق، اصعد إلى أعلى!" فتكون دعوته تكريمًا

لك. إذ إنّ كلّ من يتعالى يُهان، وكلّ من يتواضع يرقّى ويكرّم". والتفت إلى ربّ البيت ونصحه: "من يدعو أقرباءه، وأصدقاءه، وجيرانه الأغنياء، الذين يتوقّع منهم دعوةً مماثلةً، يكون قد نال مكافأته. ولكن من يدعو فقراءً، ومخلّعين وعرجًا وعميانًا، لا يملكون ما يقابلونه به، فطوبى له، فما يعطيه يعاد له يوم قيامة الأبرار.

وكان الربّ قد أوعز لتلاميذه أن يجمعوا، على مقربةٍ من بيت الفرّيسيّ، من يصدفونهم ويعرفونهم من الفقراء، ولمّا شبع المدعوّون، سأل يسوع ربّ البيت: "أمن أجلي أقمت هذه المأدبة؟" فردّ إيجابًا، وحينئذٍ أوعز إلى تلاميذه أن يحملوا كلّ ما تبقّى من طعام ويوزّعوه على الفقراء المنتظرين.

وفيما كان خارجًا تبعه جمعٌ غفيرٌ، فتوقّف وقال لهم إنّ على الراغب في اتّباعه أن يؤثره على والديه وأقربائه، وحتّى على ذاته، وعليه أن يحمل صليبه ويسير في إثره، وأن يروز كلّ قدراته قبل الإقدام على طلب الالتحاق به، كما أنّ على من يبتغي بناء برجٍ أن يجري حسابًا دقيقًا للنفقات، وإلاّ لعجز عن إكماله، ولأضحى أضحوكةً للناس؛ وعلى من ابتغى شنّ حربٍ أن يقارن جيشه بجيش عدوّه، فإن كان هو الأضعف فأولى به عقد صلحٍ. وعلى كلّ من يريد أن يكون ليسوع تلميذًا أن يزهد بكلّ ما يملك.

خطبةٌ وداعيّةٌ على تلّة "غابارا"

أوفد يسوع أربعين من تلاميذه كي يدعوا الشعب إلى الاجتماع على تلّة "غابارا"، حيث سيلقي تعليمًا هامًّا، إذ لم يبقَ له متّسعٌ من وقتٍ يقيم فيه معهم. وسرعان ما شرعت مواكب القادمين تتوافد صوب غابارا، وأكبّ التلاميذ على إعداد أماكن لجلوس القادمين، وتنظيم فتراتٍ محدّدةٍ لكلّ جماعة، إذ بدا متعذّرًا استقبال جميع القادمين، دفعةً واحدةً.

واستوقف فرّيسيّون يسوع في الطريق واستفسروا عن سبب هذا الغزو للجبل، في سيلٍ بشريٍّ مخيفٍ. وتساءلوا بمكرٍ: "أهو إعدادٌ لثورةٍ شعبيّةٍ؟" وهدّأ الربّ

روعهم، موضحًا أنّ زمان بقائه معهم قد شرع يتقلّص ومازال لديه ما يقوله، ودعاهم، إن هم رغبوا، إلى الحضور والاستماع إليه.

ونصبت خيامٌ فسيحةٌ تضمّ كلٌّ منها، أو كلّ عددٍ منها، القادمين من مدينةٍ أو قريةٍ واحدةٍ، وكانت كلّ جماعةٍ قد ميّزت ذاتها بقوسٍ مزيّنٍ بالأغصان والأزهار، وعلّقت عليه المنتجات التي تختصّ بإنتاجها منطقتهم.

وحضر عددٌ غفيرٌ من الفرّيسيّين والصدّوقيّين والكتبة والقضاة، ولكنّهم استأثروا بالأماكن الأماميّة، وحرص كثيرون منهم على التميّز عن عامّة الناس، فجاؤوا بمقاعد وثيرةٍ، ولكنّهم استاؤوا لأنّ يسوع قدّم رسله وتلاميذه عليهم وأوعز إليهم الجلوس إلى جانبه.

استُهلّ النهار بالصلاة، وبالدعوة إلى التزام الهدوء والنظام، ثمّ أعلن يسوع عن عزمه الإدلاء بأقوالٍ خلاصيّةٍ لم يسمعها الشعب، قطّ، من قبل، ونوّه بأنّ ما سيستغلق على فهمهم في الحال، سيتولّى رسله وتلاميذه تفسيره لهم لاحقًا، إذ لم يبقَ له هو متّسعٌ من وقتٍ للإقامة بين ظهرانيهم. وبصوتٍ عالٍ، حذّر يسوع تلاميذه من الفرّيسيّين ومن الأنبياء الزائفين. وأسهب في تلقين الشعب الصلاة، والدعوة إلى الثقة بعطف الله ورحمته، وإلى محبّة القريب. وفي هذه الأثناء كان التلاميذ دائبين على تشييع فئةٍ من المستمعين، وعلى استقبال فئةٍ أُخرى.

وتواترت محاولات الفرّيسيّين لمقاطعة تعليم المخلّص باعتراضاتٍ وتُهمٍ غدت ممجوجةً بسبب تكرارها ودحضها من قِبَل الفادي، وهدّدوه برفع شكواهم على تعاليمه المثيرة للاضطرابات، إلى هيرودس، ملمّحين إلى أنّ هذا الأخير لن يلبث أن يلقي القبض عليه ويخرسه. ولكنّ يسوع أجابهم، بجرأةٍ وثبات جأشٍ، أنّه سيواصل تعليمه حتّى يُتمّ رسالته. وضاق الفرّيسيّون ذرعًا، ففاضوا قحةً وفظاظةً، ولكنّ الشعب هبّ في وجههم، فخسئوا وتسلّلوا، وهم يتقيّأون الشتائم واللعنات.

واستمرّ تعليم الربّ حتّى المساء، وإلى أن تفرّق آخر المستمعين، وكان صوت يسوع قد بُحَّ.

العثور على هامة المعمدان

بعد هجر هيرودس لماخيرونت، شرع الرومان يدمّرون مكان إقامته في تلك المدينة، ويحوّلونه إلى ثكنةٍ عسكريّةٍ. وسارعت أفواجٌ من الفقراء لاغتنام أجزاء من الردم قد تفيدهم في أماكن إقامتهم، واندسّت بينهم ستّ نساءٍ متنكّراتٍ، هنّ بنات عمّ المعمدان، وخادمة حنّة زوجة قيّم هيرودس، وأُخرياتٌ، ومعهنّ خادمان. وكان قد أوحي إليهنّ بأنّ هامة المعمدان موجودةٌ في حفرة تحت مطبخ القصر. ولمّا انتهت الأعمال إلى تلك الحفرة قضينَ ليلةً، صائماتٍ، داعياتٍ، متوسّلاتٍ العثور على تلك الهامة المقدّسة. وفي الواقع كانت تلك الهامة في أعلى الحفرة وسط العديد من الرؤوس المقطوعة، وأكداس النفايات، عالقةً على حجرٍ بارزٍ. وقد ميّزنَها عن سائر الرؤوس من عينين كانتا تبعثان أشعّة نور. وكان منظر الرأس مريعًا، فالوجه ملطّخ بالدماء، ومن خلال الفم الفاغر، ظهر اللسان الذي أوسعته هيروديا طعنًا؛ وشعر الرأس الذي أمسكه به الجلاّدون ما زال مشعّثًا. وسارعت النسوة إلى لفّه بأقمشةٍ، ثمّ أخفينه في قربةٍ، وبخطواتٍ سريعةٍ يدفعها الخوف، غادرنَ المكان مزوّداتٍ بكنـــزهنّ.

وما كدنَ يبتعدنَ خطواتٍ حتّى شاهدنَ فوجًا من الجند قادمًا للحلول مكان آخرين انتهت نوبة خدمتهم، فاختبأنَ في مغارةٍ. ولمّا استأنفنَ مسيرهنّ عبر الجبال، صدفنَ جنديًّا مصابًا بجرحٍ بليغٍ، أفقده الوعي. وفي ذلك الآن عينه، انضمّ إليهنّ اللاويّ زكريّا، ابن أَخي زكريّا والد المعمدان واثنان من الأسّينيّين. وحاولوا جميعهم إسعاف الجنديّ، ولكنّهم عبثًا جهدوا في إعادة وعيه إليه، فوضعوا بقربه القربة التي تحتوي رأس المعمدان، وفي الحال فتح عينيه وأعلن: "لقد رأيت يوحنّا المعمدان وهو الذي أنقذني". فكان تأثّرهم بليغًا، وغسلوا جرحه ودهنوه بزيتٍ وخمرٍ ونقلوه إلى نزلٍ مجاورٍ، ولكنّهم لم يأتوا على ذكر رأس المعمدان. ثمّ تابعوا مسيرهم، جماعاتٍ متفرّقةً، منتهجين دروبًا مختلفةً، تحسّبًا لكلّ طارئٍ. وفي اليوم

التالي جاؤوا بالرأس إلى الخليل، حيث برئ كثيرون بمجرّد لمسه. وغسله الأسينيّون، وحنّطوه، وأودعوه إلى جانب جسده.

وبهذه المناسبة لاحظت الأخت الرائية أنّ الأسينيّين، وفئةً من اليهود الورعين لا يشاركون الفرّيسيّين اعتبارهم الجثث وأعضاءها رجسًا وعلّة نجاسةٍ.

يسوع يرسل تلاميذه ويتّجه صوب صور

كان قد التمّ حول يسوع نحو مئة تلميذٍ، ولكنّ بعضهم لم يكن لهم سوى اطلاعٍ سطحيٍّ على تعليمه، فألقى سلسلةً من الإيضاحات عمّا طالما علّم، بأسلوبٍ ممعنٍ في البساطة، ثمّ توقّل معهم في جبلٍ، تغشاه أشجارٌ متشابكة الأغصان، اتّخذوا من فيئها ملاذًا للصلاة وللتزوّد بالمزيد من تعليم المعلّم، ولا سيّما في ما يتعلّق بالرسالة المسندة إليهم، وقد بثّ فيهم يسوع الثقة في مواكبته لهم الدائمة. وبعد إنفاقهم الليلة على هذا النحو، أرسل كلّ جماعةٍ منهم في جهةٍ، بعد أن وضع يديه على الرسل والتلاميذ القدامى، مكتفيًا بمباركة الآخرين.

وكان قد أوصاهم ألاّ يحملوا معهم مالاً، على أن يُعنى رئيس كلّ جماعةٍ بالإنفاق على الآخرين، ولكنّه استثنى يهوذا الإسخريوطيّ الذي كان عليمًا بجشعه، ولكي يقيه من تجربة اختلاس مال الآخرين، سمح له بامتلاك مبلغٍ لاستخدامه الخاصّ، وتظاهر يهوذا بتبرير ذاته، فاستفسر عمّا يستطيع إنفاقه كلّ يومٍ، فأجابه الربّ إنّ الإنسان المعتدل المتّزن لا يحتاج إلى حدودٍ، بل يحمل حدوده في ذاته.

وفي أثناء مسيرته انتهى يسوع إلى نزلٍ كان غاصًّا بأفراد عشيرةٍ يهوديّةٍ منبوذةٍ كان قد زارها في "أورنيثوبوليس"، وأسبغ على أفرادها العزاء. وكانت فئةٌ منهم قد نزحت إلى تلك الديرة، وابتنت لها مجمعًا. كان أولئك القوم شديدي التواضع، ويعدّون ذواتهم غير جديرين بالإقامة على أرض فلسطين. وقد استقبلوا يسوع بكثيرٍ من الحفاوة؛ وأقاموا، إكرامًا له، مأدبةً كلّفتهم الكثير، فقد كانوا يعدّونه

نصيرًا لهم، إذ إنّه بإزاء ازدراء اليهود أبدى لهم فيضًا من الودّ، ولم يتوانَ عن الاعتراف بهم. ولمّا بسطوا بين يديه نسبَهم، أكّد لهم أنّه ينتسب إليه أيضًا. وفسّر لهم النبوءات المتعلّقة بالمسيح، ووعدهم بإعادتهم إلى أراضي اليهوديّة، وقد أضحوا لاحقًا سكّان الخليل وغزّة.

وتابع يسوع وصحبه مسيرهم شمالاً حتّى انتهوا إلى القرية التي تقيم فيها المرأة السوريّة الفينيقيّة التي كان قد أبرأ ابنتها، والتي كانت قد دعته بواسطة قريبٍ لها نال، هو أيضًا، شفاء يسوع. فاستقبلته هي وأهل بيتها وخدمها بحفاوةٍ بالغةٍ. ولمّا جلس إلى المائدة سكبت ابنتها على رأسه قارورة عطرٍ. ولكنّه لم يُطِل الجلوس على المائدة، بل دأب على الطواف بين المدعوّين، وعلى تعزية الفقراء فيهم، وتزويدهم بحسناتٍ وهدايا، وشفاء مرضاهم.

يسوع يبحر إلى قبرص

كان يهودٌ قبرصيّون كُثُرٌ يحبّون يسوع، وإذ كان بعضٌ منهم قد حجّوا إلى أورشليم بمناسبة الفصح ويعتزمون العودة، انضمّ يسوع إليهم، تلبيةً لدعوة رجلٍ وثنيٍّ قبرصيٍّ يدعى "سيرينوس". وتألّف موكبٌ من عشرة قوارب. قبل الإبحار بارك يسوع الأرض والبحر وجلس عند صارية الزورق الذي استقلّه، وانطلق يبشّر. وكانت أفواجٌ من الأسماك، تواكب ذلك الزورق وكأنّها راغبةٌ في الإصغاء إلى تعليم الربّ. انصبّ معظم تبشير يسوع على إعلان الله الأوحد، كلّيّ القدرة، متوجّهًا به، خاصّةً، إلى الوثنيّين. وكان دوارٌ أصاب بعض المسافرين، فسارع يسوع إلى تحرير المصابين به، في زورقه، فأخذ ركّاب الزوارق الآخرون يستغيثون به، فأسعفهم عن بعد. وما خلا هذا العارض، اندرجت الرحلة في هدوءٍ وسلامٍ وسرعةٍ لم يُعهد لها مثيلٌ، فتعالت الأصوات من كلّ جانبٍ، هاتفةً: "إنّما هذا بفضلك أيّها النبيّ". ولكنّ يسوع دعاهم، بالأحرى، إلى تمجيد الله.

كان ركّاب الزوارق من اليهود الحجّاج، قد أرجأوا عودتهم كي يستمعوا إلى

تعليم يسوع على تلّة "غابارا". وقد انضمّ إلى يسوع في رحلته هذه يعقوب الصغير، وبرنابا القبرصيّ، وثلاثةٌ، آخرون كان ابنا "سيرينوس" قد عرّفاهم على يسوع، وانتظم أحدهم يدعى "يونان" في فريق تلاميذ يسوع.

وصلت الزوارق، مساءً، إلى مرفأ "سلامينا"، وكان الشاطئ مزدحمًا بيهودٍ مرتدين ثياب العيد، وافوا لاستقبال أقربائهم وأصدقائهم العائدين من أورشليم. وكان في استقبال يسوع "سيرينوس"، وثلاثة إخوةٍ لبرنابا، وبضعة يهودٍ مسنّين، كانوا قد أعدّوا له مائدةً صغيرةً، وطستًا مليئًا ماءً، استُخدم لغسل أقدام المسافرين. واطّرح عند قدمَي يسوع شيخٌ وقورٌ، وهو يضجّ قلقًا على مصير ابنه الذي تلكّأ في العودة من حجّه إلى أورشليم. واتّضح أنّه والد "يونان" تلميذ يسوع الجديد. وكان شأنه شأن العديد من آباء حجّاجٍ، تنامت إلى سمعهم أنباء ثورةٍ نشبت في الهيكل، وأوقع قمعها ضحايا كثيرة، فعصفت بهم مشاعر القلق. وقد أحاط اليهود العائدون من أورشليم المخلّص بالكثير من التبجيل والتكريم، وفي "سلامينا" كان اليهود يقطنون حيّين، ويملكون مجمعًا جميلاً، سارع خدّامه ورابيّوه إلى اقتياد يسوع إلى منـــزل محاذٍ له، حيث باتوا تلك الليلة.

وفي الغداة قدم شيخٌ جليلٌ بصحبة رابيّين، واقتادوا يسوع إلى مشفًى حيث أبرأ مرضى مبتلين بشتّى أصناف العلل، ثمّ جاؤوا به إلى ساحةٍ عامّةٍ حيث احتشد جمعٌ غفيرٌ لسماعه، فتكلّم عن المنّ الذي أطعم به الله اليهود في الصحراء، مشيرًا إلى أنّ زمنًا جديدًا قد حان حيث ينبغي جني منّ الإرشاد والارتداد، وأنّ السماء ستمنّ بخبزٍ جديدٍ (فسّرته الرائية بالإفخارستيّا).

وعند الظهر، انسحب الرجال وحلّت النساء محلّهم، وبينهنّ وثنيّاتٌ انتحين جانبًا، فبشّرهنّ يسوع بعباراتٍ عامّةٍ بسيطةٍ، مشيدًا بالله الواحد، كلّيّ القدرة، الآب، خالق السماء والأرض، ومحبّته للبشر، وندّد بحماقة تعدّد الآلهة.

ثمّ قدم الشيخ الذي كان اقتاد يسوع إلى المشفى، صباحًا وبرفقته رابيّون ومعلّمو شريعة، واستصحبه إلى بيته حيث كان قد أعدّ له وليمةً، وفي ذلك البيت

الفسيح كانت قد مُدّت موائد عديدةٌ مزيّنةٌ بالزهور وبأقواس خضراء، تكريمًا ليسوع وللحجّاج العائدين. واقتاد الشيخ ضيفه إلى بناءٍ جانبيٍّ، حيث كانت زوجته، ورهطٌ من صديقاتها، وجميعهنّ محجّبات، فانحنين عميقًا أمام الربّ الذي وجّه لهنّ عباراتٍ رقيقةً. وما لبث أن قدم فوجٌ من الأطفال مكلّلين بالزهور، عازفين بالمزامير، وكان بينهم عميانٌ وذوو عاهاتٍ، ودعوا يسوع إلى المائدة، المزدانة بأروع زينةٍ. وكان الطبق الرئيس خروفًا قطّعه يسوع، ثمّ وُزّعت أجزاءٌ منه على أرغفةٍ مستديرةٍ. وجاء، أيضًا، موكب فتياتٍ، تتراوح أعمارهنّ بين ثماني وعشر سنواتٍ، مكلّلاتٍ، أيضًا، بالزهور، مرتدياتٍ ثيابًا بيضاء لمّاعةً. وكان بينهنّ بناتٌ وحفيداتٌ لربّ البيت. وقد جئنَ بباقات زهورٍ، زيّنّ بها مجلس يسوع، وبآنيةٍ مليئةٍ عطرًا وضعنَها أمامه. وقد سكبت إحدى فتيات البيت قارورة عطرٍ فوق رأسه، ومسحته بمنشفةٍ. قمنَ بذلك وهنّ مغضياتٌ، صامتاتٌ، مشيحاتٌ بأبصارهنّ عن الضيوف، ثمّ انسحبنَ بهدوءٍ وسكوتٍ. ووفقًا لعادته، لم يُطل يسوع الجلوس إلى المائدة، بل راح يطوف على المدعوّين، زارعًا الكلمات الطيّبة، والنصائح الخلاصيّة، فيما انصرف رسله وتلاميذه إلى توزيع الطعام والشراب على الفقراء.

واقترب السبت فمضى يسوع وصحبه إلى المجمع الذي كان فسيحًا، جميلاً، مضيئًا، مليئًا بالحضور. وتوالى رابيّون ومعلّمون على تلاوة نصوص ذلك السبت، ثمّ فسّرها يسوع، وتحدّث عن رسالته، وعن نهايته الوشيكة، وكان تأثير خطابه نافذًا إلى أعماق مستمعيه. وتبيّن للمستمعين، أوّلاً، أنّه حقًّا نبيٌّ، وسرعان ما أدركوا أنّه أكثر من نبيٍّ، وقد يكون سابق المسيح. ولكنّ يسوع أكّد لهم أنّ المعمدان كان هو سابق المسيح، وأرشدهم إلى ما يشير إلى المسيح، معرضًا عن إعلانه، صراحةً، أنّه هو المسيح، فأدركوا ذلك، وأحاطوه بإجلالٍ جمٍّ مشوبٍ برهبةٍ قدسيّةٍ.

وأظهر له الجميع، هناك، التجلّة والتكريم، في جوٍّ خلا من المناكفات والمؤامرات.

مقابلة الحاكم الرومانيّ

استيقظ يسوع باكرًا وفق مألوفه، وانتحى مكانًا منعزلاً كي يناجي أباه السماويّ، ثمّ غشى المجمع الذي امتلأ باليهود، فيما وقف وثنيّون خارجًا، رغبةً في الاستماع إليه. فتحدّث عن تحقّق النبوءات، بعباراتٍ استمطرت دموع مستمعيه. وتمادت عظته نحو أربع ساعاتٍ.

ثمّ انطلق مع تلاميذه، وثلّةٍ من علماء الشريعة إلى منـــزل "سيرينوس" الذي كان قد دعاه إلى غداءٍ. وإذ كانوا يجتازون حيًّا يقطنه وثنيّون. وقف سكّان ذلك الحيّ عند أبواب منازلهم كي يحيّوه. ولمّا دنا من بيت "سيرينوس" خرجت زوجة هذا الأخير وبناتها الخمس، وبنات إخوتها وأخواتها، وانحنينَ انحناءةً سحيقةً أمامه، وألقينَ أمامه الهدايا التي جئنَه بها. وكان البيت قد زُيِّن بأبهى زينةٍ، تكريمًا للضيف الرفيع.

وعقب الغداء، دعا التلميذ الجديد "يونان" يسوع وصحبه إلى منـــزل والده، وهو مزارعٌ شيخٌ، منتمٍ إلى جماعة الأسينيّين، يتميّز بالتواضع وبفرح الأبرار الطفوليّ. وكان قد استقبل في بيته الفسيح عددًا من النساء العجائز والأرامل، وأقارب له لا معين لهم، وأحاطهم جميعهم بعنايته، وكانت النسوة والفتيات قد تحجّبن لتلك المناسبة، وارتدين ثيابًا بيضاء.

وبما أنّ ذلك الشيخ لم يكن يملك أيّ متاعٍ ثمينٍ يقدّمه للربّ، فقد قال له: "يا ربّ، كلّ ما لنا هو لك. نحن أنفسنا لك. ولك أغلى ما لديّ: ابني هذا". ثمّ دعاه إلى الغداء في اليوم التالي.

وفيما كان عائدًا إلى المجمع استوقفه العديد من اليهود والوثنيّين المحتشدين في الطريق، فألقى فيهم عظةً وجيزةً ووعدهم بالعودة في الغداة لتعليم الراغبين في تلقّي العماد. وبارك الأولاد، وحمل بعضًا منهم وقبّلهم. وتبعه جمعٌ غفيرٌ إلى المجمع حيث تحدّث عن تحقّق النبوءات، وأكّد أنّ الله لا يستطيب كثرة الأضاحي، وأنّ آلافها لا تجدي فتيلاً، فالله يؤثر تطهير النفس والتضحية بالأهواء. لم ينقض أيّةً من

الوصايا، ولكن فسّرها التفسير الصحيح الأصيل، وأبرز سموّها وروعتها. ودعا الجميع إلى التوبة. وكانت ألفاظه وجرس صوته مثل أشعّةٍ محييةٍ تنفذ إلى أعماق القلوب وتنعشها. وكانت أقواله تقرن الهدوء والحيويّة، ولكنّ نبرتها كانت تعلو عندما يندّد بالفرّيسيّين والمرائين. وحينئذٍ كانت أقواله تتحوّل سهامًا، وترتدي لهجته ثوب الصرامة. وبالإجمال كانت نبرة صوته عذبةً، نقيّةً، فريدة الروعة، ولا يصعب تمييزها عن آلاف الأصوات، حتّى في غمرة الضجيج.

وتلاه في التعليم شيخٌ ورعٌ، غريبٌ عن المدينة، كان قد ألِف التنقّل بين أرجاء الجزيرة، عائدًا المرضى، مغيثًا الفقراء، معزّيًا المساجين، معلّمًا الجهلة. فشهد ليسوع شهادةً لم يتفوّه بمثلها أيّ رابيٍّ قطّ، وقد ناشد الجمع تقديم الشكر لله لما أغدقه على آبائهم من آلائه، ولأنّه أرسل لهم، في أيّامهم، نبيًّا دفعته رحمته إلى زيارتهم خارج الديار المقدّسة، وحرّضهم على الارتداد والتوبة. وقال عن يسوع: "إنّي أرى فيه أكثر من نبيّ. ولست أجرؤ على إعلان هويّته. ومن المحقّق أنّ وعد الله يتحقّق الآن. وعليكم، جميعًا، الإيمان بأنّكم محظيّون إذ قد سمعتم مثل هذا التعليم، من هذا الفم، وشهدتم تحقيق الوعد والعزاء". وطافت على المستمعين موجة تأثّرٍ بليغٍ، استدرّت دموع فرحٍ غزيرةً.

في هذه الأثناء، كان يسوع قد انتحى جانبًا، مستمعًا، وسط تلاميذه. ولّما فرغ الشيخ من عظته، يمّموا جميعهم إلى بيت والد "يونان". وفي أثناء العشاء احتدم النقاش، فكثيرون من المدعوّين كانوا مطّلعين على النبوءات التي تفصّل الاضطهادات والعذابات التي ستنـــزل بالمسيح، ورجوا ألاّ يكون ضيفهم ضحيّتها، وألحّوا عليه كي يمكث بين ظهرانيهم، فينجو منها، ولكنّه بيّن لهم استحالة الاستجابة لطلبهم.

وفي اليوم التالي، إذ كان يسوع تحت خيمةٍ يعلّم، وافى موفدٌ رسميٌّ، وبلّغ رئيس المجمع رغبة حاكم الجزيرة الرومانيّ باستضافة العالم الغريب، وعبّرت قسوة لهجته

على امتعاض الحاكم لأنّ مسؤولي المجمع لم يأتوه بيسوع منذ وصوله. واستنح الرابيّون فترة توقّفٍ في خطاب يسوع، كي يبلّغوه رغبة الحاكم، فأجاب: "سأمضي إليه"، واستأنف تعليمه، حتّى فرغ منه، وحينئذٍ رافق رسول الحاكم مع تلاميذه. وفي أثناء الطريق كان الأهالي ينتظرون مروره، وينحنون له، وكان بعضهم يتجاسرون فيدنون منه كي يقدّموا له ولتلاميذه هدايا متواضعةً، بمثابة ترحيبٍ. فكان يتوقّف، لحظاتٍ، كي يشكرهم ويباركهم. وكان، كلّما تقدّم في مسيرته، يتضخّم الموكب المرافق له. ولمّا انتهوا إلى الساحة العامّة تهافت القوم نحوه من كلّ صوبٍ.

كان الحاكم على شرفةٍ ينتظره، فانحدر، وشدّ على يد يسوع وانحنى أمامه، مثيرًا دهشة الوثنيّين، بلفتة احترامه هذه. وصعدا معًا إلى الشرفة حيث تجاذبا أطراف حديثٍ ودّيٍّ تخلّلته طائفةٌ من الأسئلة التي طرحها الحاكم، الذي كان على علمٍ بمعجزات يسوع في وطنه، وعن الشائعات القائلة أنّه المسيح الموعود، فاستفسر عن كيّفيّة تأسيس مملكته، وهل لديه جيشٌ، وهل هو وافى قبرص لاستنفار جنودٍ من اليهود، وعن زمن إعلان مملكته. كان الحاكم يطرح أسئلته بجدٍّ، واحترامٍ، وتأثّرٍ، وكان يسوع يجيبه في ما يخصّ النبوءات بعباراتٍ عامّةٍ، ولكنّه لمّا تناول بأسئلته قضيّة المملكة أوضح له أنّ مملكته ليست أرضيّةً، وأنّه، خلافًا لملوك الأرض لن يشنّ حربًا، ولن يكون له جيشٌ مسلّحٌ محاربٌ، فمبتغاه هو نفوسٌ يرشدها إلى ملكوت الآب كلّيّ القدرة، خالق السماء والأرض، وقد أرفق أجوبته بتعاليم كثيفة المعاني. فأدهشت أقواله ومسلكه الحاكم.

ثمّ انحدرا معًا إلى الساحة العامّة، حيث كان الحاكم قد وفّر طعامًا وشرابًا لضيوفه، وفي سياق حديثه أنحى الحاكم بأشدّ اللائمة على سلوك بيلاطس، وقسوته، وتناولت أحاديثهما قضايا عديدة، وقد تجلّى على الحاكم إعجابه الشديد بحكمة ضيفه وفطنته. وشهد الوثنيّون ذلك، فازدادوا احترامًا ليسوع.

بعدئذ جاء يسوع وتلاميذه إلى بيت والد "يونان"، بيتٍ بسيطٍ، خالٍ من مظاهر

البذخ، فصاحبه من فئة الأسينيّين الذين يتزوّجون، ولكنّهم يعيشون في عفّةٍ، وتقشّفٍ، وبساطةٍ. واندرج الغداء في جوٍّ من البساطة، وتمتّع الحاضرون بالاستماع إلى يسوع أكثر من تمتّعهم بمستساغ الطعام.

تعليمٌ عن الوثنيّة، وحديثٌ مع الكاهنة "مركوريا"

وذات يومٍ، علّم يسوع اليهود والوثنيّين معًا، وتناول قضيّة تكاثر محصول حبّة القمح المبذورة، وعقوق البشر حيال مكرمات الله التي يفيضها عليهم، والفتور الذي يقابلونه به. وتوجّه إلى الوثنيّين بالقول: "كلّ شيءٍ يأتي من الله الواحد، خالق السماء والأرض، أبي البشر أجمعين، الذي يغذّيهم ويكافئهم ويعاقبهم. وأنتم، بدلاً من الابتهال إلى الله الآب، تتوجّهون بأدعيتكم إلى مخلوقاتٍ بشريّةٍ وكتلٍ خشبيّةٍ خاليةٍ من الحياة؛ تمرّون بروائع الله لا مبالين، ويأخذكم الذهول أمام إبداعات البشر، التي، رغم روعتها، تظلّ زريّةً، وتتعلّقون بجميع الدجّالين والسحرة. واستفاض في دحض المعتقدات الوثنيّة وخزعبلاتها، وفي فضح فظائعها وعباداتها المريعة، وتناقضاتها وحماقاتها، مؤكّدًا أنّ ذلك لا يمكن أن ينتج إلاّ عن أبي الكذب.

هذه الأقوال، مع صرامتها وقسوتها، نفذت إلى أغوار نفوسٍ كثيرةٍ، وأيقظت فيها تساؤلاتٍ مصيريّةً. ثمّ استأنف يسوع خطابه حول العماد والصلاة، والحصاد والخبز اليوميّ، فكان لخطابه أصداءٌ خلاصيّةٌ في نفوس معظم مستمعيه، في حين انسحب الذين لم يستسيغوا أقواله.

ثمّ وافى المخلّص إلى مدينةٍ يهوديّةٍ استقبله في مجمعها، كبير الحاخامين بتهذيبٍ، ولكن بتحفّظٍ وفتورٍ. وكان الأهالي قد أُحيطوا علمًا بقدومه، فتفتّح الأمل في قلوب مرضى عجز الطبّ عن شفائهم، وزار يسوع بيوتهم بيتًا بيتًا، وشفى كثيرين، وكان الذين ينعمون بالشفاء وذووهم يخرجون لمواكبته، منشدين تسابيح الله، ولكنّه أوعز إليهم أن يكفّوا عن تلك التظاهرات. وقدّمت له النساء أولادهنّ، فباركهم وشفى مرضاهم.

ومساءً دعاه الرابيّون إلى عشاءٍ، تكريمًا له، واحتفالاً بافتتاح موسم الحصاد، وبهذه المناسبة كانت قد درجت عادة تقديم الطعام على العمّال والفقراء. فأشاد يسوع بهذا التقليد الحميد، وواكب الذين أمّوا الحقول لدعوة العمّال إلى العشاء، وأسمعهم أمثالاً ونصائح موجزةً. وعلى العشاء التأم العديد من معلّمي الشريعة والرابيّين، ولكنّهم، بالإجمال، كانوا أقلّ تعاطفًا وصراحةً من يهود مدُنٍ أُخرى. فقد كانوا قد مُنيوا بعدوى الفرّيسيّة وريائها، وعندما احتدم النقاش بينهم وبين ضيفهم راحوا يردّدون الاعتراضات والمآخذ التي اعتاد عليها فرّيسيّو فلسطين، والربّ ردّ عليها بمثل ما أَلِفَ أن يردّ، بحزمٍ ورقّةٍ. وبعد أن امتدح عطفهم على العمّال والفقراء ندّد بريائهم. وكان الليل قد تقدّم عندما غادر يسوع وصحبه المكان.

وما كاد يصل إلى النـــزل، حتّى جاءه رسولٌ قائلاً إنّ شخصًا في محنةٍ، يستغيث به، وهو في بستانٍ قريبٍ، فهرع إلى المكان، وإذ بالمستغيث امرأةٌ وثنيّةٌ مستندةٌ إلى جدار، انحنت له عندما لمحته فاستوضحها عمّا بها وعمّا تبتغي. كانت امرأةً أُمّيّةً، غارقةً في ظلمات الوثنيّة، ومستسلمةً لطقوس عبادة الأوثان المشينة. وكان مرأى يسوع قد هزّ كيانها، فأدركت ضلالها، ولكنّها كانت تفتقر إلى مبادئ الإيمان، وقد بادرته بالقول: "علمتُ أنّك أبرأت المجدليّة، وأنّ امرأةً نازفةً قد شفيت بمجرّد لمس طرف ثوبك. فأغثني، إذ لم أَعُدْ أُطيق احتمال عبادة أصنامٍ، وأعترف أنّ عبادتي لها إن هي إلاّ فسقٌ حرامٌ. أتوسّل إليك أن تتنازل وتشفيني وترشدني. قد يتعذّر عليك شفائي لأنّ علّتي ليست جسديّةً. فأنا متزوّجةٌ ولي ثلاثة أبناء، أحدهم هو ابن سفاحٍ، يجهله زوجي. وإنّي على علاقةٍ بالحاكم الرومانيّ، ولمّا قمتَ أنت بزيارته، أمس، رأيت هالةً محيطةً برأسك، فاستحوذ عليّ تأثّرٌ شديدٌ، خلته، بادئ الأمر، شعور حبٍّ. ولكن ما كادت تخطر تلك الفكرة ببالي حتّى انتابتني اختلاجاتٌ قاتلةٌ، وأغمي عليّ. ولمّا استعدتُ رشدي، قرفت من ذاتي ومن حياتي. ومنذ تلك الساعة، لم أعهد لحظة سكونٍ. وقد استشرت نساءً يهوديّاتٍ، فأحطنَني علمًا بشفائك للمجدليّة، وللمرأة النازفة. وها أنذا أتوسّلك أن تشفيني أيضًا، إن كان شفائي ممكنًا. وأوضح

لها الربّ: "إنّ المرأة النازفة آمنت إيمانًا صافيًا. لم تتردّد ولم تبحث عن تفسيراتٍ، بل آمنت إيمانًا راسخًا بأنّها ستشفى إن استطاعت لمس ثوبي، وشفاها إيمانها".

وبحماقةٍ سألت تلك المرأة: "كيف عرفت أنت أنّها لمستك وأنّها شفيت؟"، فقد كانت تجهل هويّته وقدرته، غير أنّ رغبتها في نيل غوثه كانت شديدةً جدًّا. ولكنّه لم يستجب لها في الحال، بل أمرها بالعزوف عن سلوكها المشين، وحدّثها عن الله، كلّي القدرة، وعن منعه للزنى، وبيّن لها كلّ بشاعة الفسق. وكانت هي نفسها ثائرةً على عبادة آلهة زائفةٍ عبادةً دنسةً. وكان لأقوال الربّ التي قرنت الحزم بالرحمة تأثيرٌ بليغٌ عليها، فارتدّت وهي برفقة مستقبليه تضجّ توبةً، وتذرف وابل الدموع.

كان اسمها "ميركوريا"، وهي في نحو الخامسة والعشرين من العمر، وكانت متلفّعةً بمعطفٍ أبيض طويلٍ.

نقاشٌ مع فلاسفةٍ وثنيّين، وزيارةٌ تعليميّةٌ للجزيرة

كان فلاسفةٌ وثنيّون قد استمعوا إلى خطابه بالأمس، فاستفسروا عمّا استغلق عليهم فهمه، وحدّثوه عن آلهتهم، فأظهر لهم ضلالهم، وبشّرهم بمخلّصٍ آتٍ، وحدّثهم عن الأنبياء، وعن تحقّق نبوءاتهم.

ودعاه الحاكم الرومانيّ، ثانيةً، ولكنّه لم يلبِّ دعوته، مؤثرًا تعليم الفلاّحين والعمّال والقوم البسطاء، فجال في المزارع، حيث نشطت أعمال الحصاد، وكان الحصّادون، حالما يلمحونه، يلقون مناجلهم أرضًا، ويهرعون إلى استقباله ساجدين، فكان يحيّيهم، ويباركهم، ثمّ يعودون إلى استئناف عملهم.

وعندما دنا من المدرسة، خرج المعلّم برفقة وجهاء البلدة لاستقباله، واقتادوه إلى نبع ماءٍ حيث غُسلت قدماه. ونُفِض الغبار عن ردائه، ثمّ طاف برفقة مستقبليه من حقلٍ إلى آخر، مرشدًا الحاصدين، راويًا لهم أمثلة الزارع، وفصل الزؤان عن القمح.

ثمّ زار البيوت التي تؤوي مرضى وشفى كثيرين منهم. واقتاده مرافقوه إلى كوخٍ كانت تقبع فيه امرأةٌ مصابةٌ باستسقاءٍ، فسألها: يا امرأة، هل تريدين أن

تبرئي؟" فأجابت بتواضعٍ: "أُريد ما يأمر به النبيّ". فقال لها: "امضي، إيمانك شفاك"، فهبّت واقفةً، وأعلنت: "يا ربّ أعترف الآن بقدرتك. فكثيرون حاولوا شفائي وأخفقوا". وانطلقت تمجّد الله. وقد أدهش شفاؤها جميع عارفيها. وفي المساء عاد يسوع إلى البيت الملحق بالمدرسة فعلّم، ثمّ قضى الليل يصلّي.

وذات مساءٍ وصلت قافلة بدوٍ عربٍ، واستأذنوا أن يستمعوا إلى تعليم يسوع، فرحّب بهم. كانوا قد قايضوا البضائع التي جاؤوا بها، بنحاسٍ ومعادن أُخرى، وتأهّبوا للعودة إلى ديارهم. وقد بارك الربّ نشاطهم، ولكنّه استوضحهم عن المستفيدين من ثمار جهودهم، وحدّثهم عن خالق كلّ شيءٍ، وعن سخاء الله وكرمه، وعن رحمته حيال الخطأة والخراف الضالّة. كانت أقواله تقطر عذوبةً وعطفًا، فنفذت إلى أغوار نفوسهم، وأرادوا أن يقدّموا له هدايا، فرفضها، واكتفى بمباركة أبنائهم ومضى.

وبالإجمال لم تؤتِ زيارة المخلّص إلى قبرص سوى الضئيل من الثمار، وعندما زار بولس وبرنابا الجزيرة بعد اثني عشر عامًا لم يعثرا على أثرٍ ذي شأنٍ لها. غير "ميركوريا" الخاطئة التائبة، ما لبثت أن لحقت بيسوع في فلسطين مع أبنائها، وثروةٍ جسيمةٍ وقفت معظمها على مساعدة الكنيسة الوليدة. وعلى غرارها هاجر إلى فلسطين العديد من القبرصيّين اليهود والوثنيّين، مستصحبين أموالهم، فأثاروا حفيظة ذويهم الذين عزوا هذه الهجرة إلى تأثير يسوع الذي وصفوه بالدجّال، وقد تضافر، في هذه الحملة على الربّ، اليهود والوثنيّون الذين تأذّوا ماديًّا. واستُدعي إلى روما الحاكم الروماني الذي استقبل يسوع وتعاطف معه، وأُعفي من وظيفته، وعقب صلب يسوع رشقه القبرصيّون بأكثر الأوصاف مهانةً، وامّحى ذكره في الجزيرة.

اجتاز يسوع وصحبه بمنطقة مناجم، فألقى في العمّال عظةً وجيزةً مستوحاةً من مهنتهم، وتابع مسيرته إلى محلّة "شيتروس"، حيث رحّب به الشيوخ وعلماء الشريعة اليهود، وفيلسوفان من "سلامينا" كانا قد تأثّرا بتعليمه، ورغبا في الاستزادة من

سماعه. ثمّ اقتادوه إلى حيّ اليهود حيث كان قد تمدّد نحو عشرين مريضًا أمام البيوت فشفاهم، وانطلق الذين نالوا الشفاء وذووهم في تظاهرةٍ، يمجّدونه، وينشدون المزامير فرجاهم التلاميذ الكفّ عن هذا التظاهر الذي لا يلقى رضى الربّ.

ثمّ شخص يسوع إلى بيت رئيس المجمع حيث التأم عددٌ من علماء اليهود، فناقشهم ودعاه رئيس المجمع إلى تناول الطعام في بيته بعد طقوس السبت، وأجابه يسوع أنّ والد برنابا ينتظره على العشاء، ودعا الحاضرين إلى مرافقته ومشاركته العشاء، موعزًا إلى رئيس المجمع بتوزيع الطعام الذي أعدّه له، على عمّال المناجم وعلى الفقراء.

كان المجمع غاصًّا بالمستمعين، في حين كان العديد من الوثنيّين يستمعون، من الخارج إلى عظته التي تناولت الأضاحي، والمسيح الموعود، وتناولت أيضًا، تطويباته الثماني. وكان في المجمع رابّي شيخٌ مصابٌ باستسقاءٍ منذ زمنٍ طويلٍ، وقد جيء به محمولاً إلى مكانه المعهود. ولّما شرع العلماء يناقشون يسوع، صاح: "اخرسوا ودعوني أتكلّم!". فساد الصمت، وقال: "يا ربّ، لقد رحمت الآخرين، فارحمني، أنا أيضًا، ومرْني أن آتي إليك". وأجابه يسوع: "إذا كنت مؤمنًا، فانهض وتعال إليّ!"، وفي الحال هبّ الرجل واقفًا قائلاً: "إنّي أومن، يا ربّ". لقد شفي، وجاء إلى يسوع شاكرًا وتعالت صيحات الفرح من كلّ صوبٍ. ولّما انطلق يسوع إلى بيت والد برنابا، دعي الفقراء والعمّال إلى تناول الطعام الذي كان قد أعدّه رئيس المجمع ليسوع وصحبه.

أثناء العشاء في بيت والد برنابا، وافت جماعاتٌ من أولادٍ فقراء تتراوح أعمارهم بين الرابعة والخامسة، يرتدون ثيابًا مهلهلةً، ويحملون سلالاً بدائيّة الصنع ملأوها أعشابًا صالحةً للأكل، وقدّموها للضيوف مقابل بعض طعامٍ، وكانوا أكثر التصاقًا بيسوع وتلاميذه. فنهض يسوع وأفرغ سلالهم من محتواها، وملأها طعامًا.

في الغداة بشّر يسوع على تلّةٍ قابعةٍ خلف بيت برنابا، وتعاقب على سماع تعليمه عمّال مناجم، ووثنيّون، ويهودٌ موالون للوثنيّين. وكان مرضى وثنيّون قد التمسوا

غوثه والإذن بالاستماع إليه، وهم مطّرحون على أسرّتهم أمام منبر تعليمه. وقد تناول في عظته إلى العمّال الصلاة الموجّهة إلى الآب السماويّ، وتصفية المعادن بالنار، وبشّر الوثنيّين بالله الواحد وبأبناء الله، وبدعوة الأمم إلى الملكوت.

بعدئذٍ انطلق يسوع وصحبه إلى مكانٍ لتربية النحل حيث انتشرت مئات الخلايا على تلال، وانبسطت أمامها مساكب الزهور. وقد قصد يسوع هذا المكان المنعزل كي يتمكّن من تعليم اليهود والوثنيّين على السواء، بمنأًى عن الزحام، فواصل تعليمهم حتّى غروب الشمس. وبيّن للوثنيّين ضلال عبادتهم، وزيف آلهتهم. وقرنت أقواله الرقّة والوضوح بالحزم. ولكنّ بعض الوثنيّين المتشدّدين استنكروا هذا التعليم ومضوا يدمدمون، فعلّق يسوع على ردّ فعلهم قائلاً إنّ انصرافهم خيرٌ من بقائهم فقط من أجل اختلاق آلهةٍ جديدةٍ من بنات أفكارهم. وتكلّم بعباراتٍ نبويّةٍ عن دمار هيكل أورشليم، وعن حكم الله على الأرض جمعاء، وعن العقابات التي ستنـــزل باليهود، وعن زوال الوثنيّة عندما سيبلغ الرجس ذروته. وبالإجمال كان الوثنيّون أكثر تقبّلاً لأقواله من اليهود الذين كانوا يثيرون الاعتراضات متذرّعين بالوعود. فاسترجع الربّ معهم النبوءات واحدةً فواحدةً، وفسّر كلّ المقاطع المتعلّقة بالمسيح، مؤكّدًا أنّ الساعة قد حانت كي يظهر لليهود الذين سينكرونه، ويشتمونه، ويهزأون به، ويقبضون عليه ويعدمونه. وذكّر بما فعل اليهود بأنبيائهم مؤكّدًا أنّهم سيعاملون المسيح مثلما عاملوا الذين بشّروا به.

ولّما عاد إلى بيت والد برنابا كانت مجموعاتٌ ضمّت نحو أربعين فتاةً وثنيّاتٍ، وعشر فتياتٍ يهوديّاتٍ، ينتظرنَ عودته، منذ بضع ساعاتٍ، أمام بيوتهنّ. فعزفنَ له بالمزامير، وأنشدنَ التسابيح، حاملاتٍ طاقات الزهور، وفارشاتٍ بالأزاهير والحصر الطريقَ الذي سيمرّ به، وتوقّف يسوع فشكرهنّ وحدّثهنّ، ثمّ واكبنَه إلى بيت والد برنابا الذي كنّ قد زيّنه بأكاليل الزهور، وهناك ألقين أمامه هداياهنّ البسيطة التي توفّرت لهنّ. هذا الاستقبال بدا بمثابة أحد شعانين بسيطٍ وريفيٍّ.

يسوع يعلّم في قرية "مالّلف"

غادر يسوع محلّة "شيتروس"، في مثل موكب حجٍّ، صوب قرية "مالّلف" الجاثمة على سفح جبلٍ والمطلّة على مناظر نضرةٍ خلاّبةٍ. ولّما غدا على مقربةٍ منها خرج لاستقباله موكبٌ من علماء المجمع، وتلاميذ المدرسة، وجمعٍ شعبيٍّ، متّشحين بثياب العيد، ومصحوبين بأولادٍ يعزفون بالناي، ويصدحون بالأناشيد، ويلوّحون بأغصان النخيل. فشكرهم يسوع وبارك الأولاد، واقتاد علماء الشريعة يسوع وموكبه المؤلّف من نحو ثلاثين نفرًا إلى ردهةٍ فسيحةٍ حيث غسلوا أقدامهم. وكان نحو عشرين مريضًا قد جيء بهم إلى خارج البيت فخرج يسوع وشفاهم، ودعاهم لاتّباعه إلى النبع، فاتّبعوه هم وذووهم جاهرين بفرحهم، فعلّمهم وعلّم الشعب عن الخبز اليوميّ وعمّا يتوجّب من شكرٍ للربّ.

ثمّ شخص إلى المجمع، حيث تناول، في عظته، دعاء "ليأتِ ملكوتُك"، وتحدّث عن ملكوت الله الثاوي في داخلنا، بمتناول جميع من يبتغون امتلاكه، مبيّنًا أنّه ملكوتٌ روحيٌّ، لا زمنيٌّ، موضحًا أنّ من ينبذونه إنّما ينبذون ذواتهم. وعقب طقوس المجمع، اقتاده الرابّيّون إلى قاعةٍ كانوا قد أعدّوها لإقامته مع تلاميذه. ولكنّه ما إن استسلم رفاقه للكرى حتّى خرج للصلاة.

في اليوم التالي تناول الطعام مع تلاميذه لدى رؤساء المجمع، حيث جيء بثلاثة أولادٍ عميانٍ تتراوح أعمارهم بين عشرةٍ واثني عشر عامًا، يقودهم أولادٌ آخرون. وقد عزفوا بالناي والمزمار عزفًا عذبًا. وسألهم يسوع هل يرغبون، رغبةً شديدةً، في استعادة النظر، وهل هم متأهّبون للسير على دروب الخير بحميّةٍ وورعٍ، فأجابوا بفرحٍ: "أجل، يا ربّ، إذا شئت أن تغيثنا. أسعفنا يا ربّ وسنعمل بما تأمرنا". فقال لهم يسوع: "ضعوا مزاميركم جانبًا". ثمّ أوقفهم أمامه، ولمس فمه بإبهاميه، ومرّ بهما، على التوالي، بعيني كلٍّ منهم، من زاوية العينين حتّى الصدغين. ثمّ تناول كوبًا مليئًا فاكهةً، ورفعه وسألهم: "هل ترون هذا؟" وباركهم ووزّع عليهم الفاكهة. فأجالوا من حولهم نظراتٍ دهشةً وهم يضجّون فرحًا، وخرّوا أمامه مذرّفين الدموع. وأخذ التأثّر

والدهشة والفرح بالحضور. وجرى الأولاد إلى ذويهم وما لبثوا أن عادوا معهم ومع حشودٍ غفيرةٍ، وراحوا يعزفون وينشدون أمام القاعة التي شفاهم فيها يسوع، فألقى فيهم يسوع عظةً حول الشكر الذي وصفه بصلاةٍ تستمطر نِعَم الآب السماويّ.

وفي اليوم التالي طاف يسوع وتلاميذه بعدّة بيوتٍ، شافيًا المرضى، مغدقًا العزاء والنصائح والإحسانات. وزار أيضًا بيوت الأولاد الذين حرّرهم من العمى، والذين كان ذووهم يتحدّرون من أصلٍ عربيٍّ، قادمين أصلاً من مسقط رأس موسى، وكانوا قد نالوا العماد في كفرناحوم. كانوا تجّارًا رحّلاً، وكان أبناؤهم يساعدونهم بعزفهم وإنشادهم، حيثما يتوقّفون للمتاجرة. فنصح يسوع آباءهم بالكفّ عن استصحابهم في جولاتهم، كي يفسحوا لهم فرصةً للتعلّم والدراسة.

يُطلع الفلاسفة على حقيقة الوثنيّة، ويُرشد أزواجًا جدُدًا

جال يسوع وصحبه وسبعةٌ من الفلاسفة الوثنيّين الذين نالوا العماد، وفي أثناء مسيرهم توجّه بكلامه إلى الفلاسفة فحدّثهم عن الانحلال الأخلاقيّ الذي تفشّى قبل الطوفان، وبعده، وعن دعوة إبراهيم وذرّيّته، إعدادًا لمجيء المخلّص الموعود. واستفسر الفلاسفة عن الأعمال الخارقة المنسوبة إلى آلهتهم، فأوضح لهم أنّ البشر يتلقّون من كرم الله مواهب يستخدمونها لإبداع إنجازاتٍ مفيدةٍ وجميلةٍ، غير أنّ هذه الإبداعات تتمخّض، أحيانًا، عن رذائل وأرجاسٍ. وبيّن لهم كيف انحطّ المجتمع الوثنيّ انحطاطًا فادحًا، وعن السخافة التي أشاعتها أساطير آلهتهم، وعن اتّخاذهم من المشورات الشيطانيّة والخزعبلات السحريّة حقائق راهنةً.

وفي اليوم التالي تكلّم عن تقديس الزواج بالوفاء لوصايا الله، وبالعفّة، ووصف الزواج بسرٍّ قدسيٍّ، ودعا إلى التوبة والعماد، وقدرتهما على التطهير وغفران الخطايا، والتقرّب من الله.

ثمّ انتحى جانبًا كي يسمع اعترافات موعوظين، وغفر لهم خطاياهم وحضّهم على مكافحة الشهوات، وعلى الإحسان، وفي هذه الأثناء عكف كلٌّ من يعقوب

الصغير وبرنابا على تعميد شيوخٍ ووثنيّين، والأولاد الثلاثة الذين كان قد أعاد يسوع لهم النظر.

وفي سياق حوارٍ مع الفلاسفة قال يسوع إنّ الكبرياء هي التي أودت بالملائكة إلى غياهب الظلمة، ودفعت بالبشر إلى العصيان، فعلى الإنسان، اليوم، أن يستنـــزل ملكوت الله على الأرض، لكي يهبه الله هذا الملكوت. فتمادي البشر في الفساد قد دفع الله إلى إرسال ابنه كي يصالحهم معه، واستبحارهم في لجج الظلمات استوجب وسائل فائقةً من أجل إقرار ملكوت الله على الأرض، وهو ليس سلطانًا أرضيًّا محاطًا بالأمجاد، بل هو تجدّدٌ إنسانيٌّ، ومصالحةٌ مع الآب، واتّحاد جميع الأبرار في جسدٍ واحدٍ.

ثمّ علّم مجموعةً من العرسان ومن خاطبين يتأهّبون للزواج، فبيّن لهم الواجبات المتبادلة، وحضّ على الطاعة، والتواضع، والعفّة، والكلَف بالعمل، وإحسان تربية الأبناء. وبعد أن نأت النساء من أجل إعداد الطعام، أعدّ يسوع الرجال للعماد. وذكّر بالجفاف الذي ساد، في أيّام إيليّا، وبالغمامة التي ظهرت استجابةً لصلاته، وجادت بغيثها على الأرض، وشبّه ذلك الغيث بالعماد، وناشد مستمعيه أن يرتدّوا إلى سبُل الله، ويتحرّروا من الخطيئة ومن جفاف القلوب، بعد أن يتطهّروا بالعماد، وحذّر من جفاف النفوس والقلوب الذي يطرد النعمة والبركة.

وأقام العرسان الجُدد وليمةً، استأنف يسوع، في خلالها، تعليمه، داعيًا إلى الاكتفاء بزوجةٍ واحدةٍ، وندّد باستسهال الطلاق. وعملاً بنصحه خرج أصدقاء العرسان إلى الطريق فدعوا إلى المأدبة كلّ عابرٍ، وأطعموا الفقراء الذين أقبل يسوع فحدّثهم وعلّمهم.

وواكبه العديد من المتزوّجين حديثًا إلى مكان إقامتهم للاستزادة من تعليمه، فتمنّى ألاّ تكون الشهوة هي دافعهم إلى الزواج، وحرّضهم على نشدان خلاص أبنائهم، بتنشئتهم على مخافة الله، وعلى التزام الحشمة والعفّة، فكان لتعليمه تأثيرٌ عميقٌ في نفوس مستمعيه.

يسوع يحمل حملةً شعواء على الزنى ويصالح أزواجًا

عقب عيد العنصرة، جاءته عدّة نساءٍ شاكياتٍ خيانة أزواجهنّ، ومعبّراتٍ عن رغبتهنّ في الانفصال عنهم. فهدّأ من روعهنّ، ودعاهنّ إلى الصبر، وعرض وساطته، أو وساطة تلاميذه لإصلاح ذات البين بينهنّ وبين أزواجهنّ.

ثمّ غشى المجمع وتحدّث عن عصيان وصايا الله، بعباراتٍ استدرّت دموعًا غزيرةً. وندّد بالحرص المفرط على المتاع الأرضيّ، وبالاعتماد على المخلوقات في سبيل نيل العون والسعادة. وندّد بالأهواء الجامحة والشيطانيّة، وبالزنى، وبما تجرّه العلاقات الآثمة على الأبناء اللاشرعيّين من اللعنات. وأخذت الرعدة ببعض من استمعوا إليه فغمغموا: "إنّ هذا يتكلّم وكأنّ يوم الدينونة قد حان".

وأنحى يسوع باللائمة على التعلّق الأحمق بمتاع الدنيا وبأمجاد العالم، وعلى كبرياء العلماء والفلاسفة، وعلى الثقة المفرطة بالمعارف البشريّة. وختم خطابه بدعوة الراغبين في نصحٍ إلى لقائه في اليوم التالي، وقضى تلك الليلة في الصلاة.

وفي الغد غشت مكان إقامته أفواجٌ ممّن هزّهم تعليمه، منهم علماء وطلبةٌ، ومنهم من كانوا يعانون تبكيت ضميرٍ، من جرّاء تعاملهم التجاريّ مع الوثنيّين. وزاره، أيضًا، أزواج النساء اللواتي كنّ قد شكَون له خياناتهم، وزناةٌ آخرون، فاعترفوا بخطاياهم والتمسوا الغفران. وكان أشدّهم اضطرابًا من خشوا أن تصيب اللعنة الأبناء الذين كانوا ثمرة زناهم. وتساءلوا عن وسيلةٍ لدرء تلك اللعنة. فجهد في عقد مصالحاتٍ بين رجالٍ زناةٍ ونسائهم وبين نساءٍ زانياتٍ ورجالهنَّ.

وفي اليوم التالي، علّم، أيضًا، في المجمع، ولكنّ لهجته كانت أدنى صرامةً، وأكّد أنّ الله لا يتخلّى عمّن يضعون فيه ثقتهم، ويعتمدون عليه. ثمّ ناشدهم بالعزوف عن التعلّق المفرط بممتلكاتهم، وبالعزوف عن منـــزلقات الخطيئة الناشئة عن معاشرتهم للوثنيّين، معلنًا: "خيرٌ لكم التخلّي عن كلّ شيءٍ في سبيل خلاص نفوسكم، فتعلّقكم المفرط ببيوتكم الجميلة، وممتلكاتكم، ومراكزكم إن هو إلاّ عبادة وثنٍ. لكي يأتيكم ملكوت الله، عليكم أن تسعوا إليه. احذروا من التباهي

بمنازلكم المتينة الفاخرة، القائمة على أراضٍ زاهية، فليس صعبًا على يد الله أن تطالكم فيها... أنا لا أجهل أنّ فضيلتكم ليست سوى رياءٍ، وفتورٍ، وميوعةٍ. فأنتم تشتهون ممتلكات الوثنيّين، وتسعون إلى الاستيلاء عليها بالربا، والتجارة، والزواج...".

وأمضى يسوع اليوم التالي في زيارة بيوتٍ مواسيًا، مصالحًا. واستمع إلى شكوى بعض اليهود الذين شقّ عليهم العمل بنصحه، فهم يمتلكون مدينةً خاصّةً بهم، يمارسون فيها تجارةً مزدهرةً، وصناعةً منتجةً، حيث يغتنون على حساب الوثنيّين بمنأًى عن مضايقات الفرّيسيّين، وعن قمع بيلاطس. وبالإجمال كان وضعهم مريحًا، وإن هو كان على اتّصالٍ وثيقٍ بالوثنيّين وبفتياتهم اللواتي تتودّدن إليهم وتغرينَهم بكلّ وسيلةٍ. ولكنّه ذكّرهم بأنّ آباءهم وأجدادهم كانوا، أيضًا، يمتلكون بيوتًا وحقولاً في مصر، وتخلّوا عنها طوعًا.

تبلّغ أخبار فلسطين ويشارك عمّالاً احتفالهم

توجّه يسوع وتلاميذه وأبناء "سيرينوس" القادمون من "سلامينا" نحو قرية عمّال مناجم، حيث كان سيحتفل بعيدٍ تكريمًا لهؤلاء العمّال، يُمنَحون في أثنائه هدايا وقسمًا من غلّة الحصاد. وكانت أسرة برنابا هي التي دعته إلى المشاركة في هذا الاحتفال. وقد آثر انتهاج دروبٍ جانبيّةٍ كي يتسنّى له تثقيف تلاميذه بمنأًى عن الجموع وعن مواكب الطريق العامّ، ولكي يتوافق وصوله إلى القرية مع بدء الاحتفال، كانت له محطّاتٌ في كلّ مكانٍ يؤوي عمّالاً فيشدّ أزرهم ويدعوهم إلى انتهاج دروب الخير. وكان بين مرافقيه نسيبٌ لأرملة "نعيم" قدم حديثًا من فلسطين كي يطلع يسوع على ما جرى فيها حديثًا، وعلى أخبار ذويه وأصدقائه. وكان يسوع على علمٍ وثيق بكلّ شيءٍ، ولكنّه كان يكتمه ولا يفصح عنه، اتّقاءً لإحراج مرافقيه. وسرد ذلك الشابّ تفاصيل المجزرة التي ارتكبها بيلاطس إثر ثورة اليهود على إجراءاته القاضية بتحويل تقادم الهيكل إليه من أجل بناء قناةٍ،

وكان قد وضع في الهيكل صناديق تودع فيها التقادم لهذه الغاية وألصق صورًا للإمبراطور على أعمدة الهيكل، فثارت ثائرة اليهود المتشدّدين، فحطّموا الصناديق، ومزّقوا صور الإمبراطور، فتحيّن بيلاطس احتفالاً بعيد العنصرة، وطوّق الهيكل بالجند، وعندما شرع المصلّون بالخروج انقضّ عليهم الجند وأوسعوهم ضربًا وقتلاً. وكان صديقان ليسوع موظّفان في الهيكل، ويمتّان بأواصر قربى لزكريّا، من ضحايا تلك المجزرة. وبلّغ الشابّ القادم من فلسطين يسوع برغبة أمّه ورسله في أن يرجئ عودته إلى موطنه، ريثما تهدأ النفوس، ويخمد غضب بيلاطس واليهود المتشدّدين، لا سيّما وأنّ شائعةً راجت حول نيّة هيرودس نصب شباكٍ ليسوع في سبيل القبض عليه وسجنه.

وصل يسوع وصحبه، مساءً، إلى قرية عمّال المناجم المزيّنة احتفالاً بالمناسبة، فاستُقبِل ورفاقه بفرحٍ دافقٍ، واقتيدوا إلى بيتٍ حيث غُسلت قدماه وأقدام رفاقه، ثمّ توقّل في تلّةٍ، حيث تحلّق الشعب من حوله، فحدّثهم عن السعادة التي يؤتيها الفقر والجهد، وأكّد لهم: "أنتم أوفر سعادةً من يهود "سلامينا" الأغنياء، فأنتم أقلّ تعرّضًا لمغريات الخطيئة، وليس غنيًّا في عين الله إلاّ الإنسان الفاضل. وأنا قد وافيت لزيارتكم كي أُثبت لكم ليس فقط أنّني لا أستصغر شأنكم، بل لكي أُظهر لكم أنّني أُحبّكم. وروى لهم أمثالاً، وتمادى حديثه معهم حتّى الليل.

في اليوم التالي دعا والد برنابا وأخوه ووجهاء مدينة "شيتروس" يسوع لحضور توزيع الهدايا على العمّال، الذين نالوا كميّاتٍ وافيةً من الحنطة والخبز والعسل، والثمار، وقُرَب الشراب، وألبسةً لهم ولنسائهم. ثمّ، من فوق مرتفعٍ، ألقى يسوع على المجتمعين عظةً تناول فيها عمّال الكرم، والسامريّ العطوف، وعرفان الفقراء للجميل، والبركة التي تحلّ عليهم. وآسى الربّ العمّال الذين كانوا قد أُصيبوا بجراحٍ.

وفي المساء تنـــزّه مع رهطٍ من أطفالٍ تتراوح أعمارهم بين السابعة والثامنة، كانت السعادة تشعّ من وجوههم، ورووا للربّ كلّ ما اكتنـــزوه من معارف، فثقّفهم بعطفٍ جمٍّ، وطرح عليهم ألغازًا كي يحلّوها، وروى لهم أمثالاً.

عودةٌ إلى فلسطين

طاف يسوع بالأماكن التي كان قد علّم فيها داخل الجزيرة، مذكّرًا بكلّ ما كان قد علّمه، مشدّدًا عليه وعلى واجب العمل به، شافيًا المرضى، مباركًا الأطفال والصغار، ملمّحًا إلى قرب انتهاء مسيرته الأرضيّة. وكان حاكم الجزيرة قد أنفذ إليه رسولاً يبلّغه رغبته في التقائه قبل رحيله، فلبّى رغبته، وقدّم له الحاكم شابّين وثنيّين التمسا الموعظة والعماد، فتحدّث إليهما معًا، ثمّ إلى كلٍّ منهما على حدةٍ، واستمع لاعترافاتهما، وغفر لهما خطاياهما، ثمّ عمّدهما تلاميذه مساءً.

وجاءه الحاكم برواحل امتطاها يسوع وتلاميذه، وواكبهم الحاكم حتّى مكانٍ قريبٍ من المرفأ، حيث ترجّل، وسجد أمام الربّ، وحاول تقبيل قدميه، ولكنّ الربّ اكتفى بمصافحته ومباركته.

على مقربةٍ من المرفأ كانت تنتشر أكواخٌ تؤوي فقراء، فطاف بها يسوع كوخًا كوخًا، زارعًا العزاء، موزّعًا الإحسان، شافيًا المرضى.

وعند الغروب أبحر مرافقوه وكان عددهم سبعةً وعشرين، توزَّعوا على متن ثلاثة مراكب، وامتطى يسوع مع أربعةٍ من تلاميذه أصغر المراكب، الذي كان يقوده أربعة مجذّفين. وانطلق المركبان الآخران في اتّجاه مختلفٍ عن مركب يسوع. وفي عتمة الليل شوهدت مصابيح استغاثة تتأرجح فوق المركبين الآخرين اللذين كانا عالقين في كثبان من الرمال، من جرّاء ادّعاء بحّاريهما السيطرة على الأنواء بقدرتهما الذاتيّة، فأمر يسوع بحّارته بالعودة إلى الوراء صوب المركبين، ورموا لكلٍّ منهما حبلاً وانتشلوهما. وقطروهما حتّى الشاطئ، حيث كان ينتظرهم عددٌ من الرسل ومن أقرباء العذراء ويوسف، الذين استقبلوا يسوع وصحبه بفرحٍ غامرٍ.

واستمع يسوع إلى روايات رسله عمّا حدث في غيابه، مع أنّه كان أكثر منهم إلمامًا بكلّ وقائعه. ولّما أظهر أحدهم نزعةً إلى الشماتة بهيرودس الذي كان يعتزم إلقاء القبض على المعلّم، أنحى عليه يسوع باللائمة، وحذّره هو وجميع مستمعيه من إضمار أيّة ضغينةٍ حيال أيّ إنسانٍ.

ثمّ روى لهم مَثَل صيّادٍ ساهرٍ انتزع خمس مئةٍ وسبعين سمكةً من مياهٍ قذرةٍ، حيث كانت معرّضةً للالتهام من قِبَل أسماكٍ مفترسةٍ، ووفّر لها الأمان في مياهٍ نقيّةٍ. وعندئذٍ انفجر بالبكاء القبرصيّون الذين رافقوه، لأنّهم تعرّفوا، من خلال هذا المثل، عدد الذين انتشلهم الربّ في الجزيرة من براثن الخطيئة والضلال، ومن مخاطر الوثنيّة.

يسوع يشفي فرّيسيًّا عدوًّا له، ويفحم فرّيسيّي "نعيم"

وجاء يسوع إلى مدينة (طاناش) حيث كان الفرّيسيّون يكتمون عداءهم له، وكانوا يراقبونه ويتحدّثون عنه بسخريّةٍ. وقد رجوه أن يولي عنايةً خاصّةً بأحد زملائهم، كان قد أقام، سابقًا، في كفرناحوم، وانتهى إلى حالةٍ صحّيّةٍ تدعو للشفقة. كانوا يتوقّعون رفض يسوع لملتمسهم، إذ سبق لذلك الرجل أن كان عضوًا في لجنة فرّيسيّين مكلّفين بترصّد يسوع في كفرناحوم، وواجه المخلّص بعداءٍ سافرٍ وشرسٍ. وساد الاعتقاد بأنّ العلّة الخطيرة التي مني بها إنّما كانت عقابًا له على الإهانات التي ألحقها بيسوع، وكان قد أمسى، من جرّاء تلك العلّة، لا يكفّ عن النحيب، وتنتابه باستمرارٍ نوبات ارتجافٍ وتقيّؤٍ، وجسمه يهزل، لحظةً فلحظةً. ولم يتلكّأ يسوع في الشخوص إلى منـــزله، فإذ به ربّ أسرةٍ في العقد الرابع، طريح الفراش وفريسة آلامٍ مضنيةٍ. فسأله هل هو راغبٌ في الشفاء، وهل يؤمن أنّ لدى يسوع قدرةً على شفائه، فأجاب خجلاً: "أجل يا ربّ، أومن". فوضع المخلّص إحدى يديه على رأسه والأُخرى على صدره، وصلّى، ثمّ أمره بالنهوض وتناول الطعام. وفي الحال، هبّ الفرّيسيّ واقفًا، مذرّفًا الدموع، وشاركه البكاء زوجته وأبناؤه. فخاطبهم الشافي بلهجةٍ مفعمةٍ عطفًا وعزاءً، متحاشيًا عن أيّة إشارةٍ إلى موقف ربّ الأُسرة العدائيّ السابق.

ثمّ طاف يسوع بالعديد من البيوت وأعاد الصحّة لمرضاها. وفي المساء، لّما شاهد الفرّيسيّون زميلهم الذين لم يأملوا يومًا شفاءه، معافًى، واقفًا بين ظهرانيهم في

المجمع، وطّنوا العزم على الإضراب عن معارضة الناصريّ. وتناولت عظة الربّ، يومذاك، تحقّق النبوءات، ووصف المعمدان بسابق المسيح، وتحدّث عن المسيح بوضوحٍ سافرٍ لم يكن معه من العسير إدراك أنّه كان يعني ذاته.

بعدئذٍ، تحوّل يسوع إلى دسكرةٍ بائسةٍ تدعى "صهيون"، تقع غرب طابور، مكوّنةٍ من قصرٍ تحيق به أسوارٌ صفيقةٌ وبعض بيوتٍ زريّةٍ. وكان دافع يسوع إلى زيارة تلك الدسكرة بؤس أهاليها. فقد كانت مدمّرةً، مهملةً، لا تحظى من سكّانها بأيّ اهتمامٍ. وقصد يسوع الحيّ البائس من الدسكرة الذي تكدّست فيه أكواخٌ متلاصقةٌ بحيث يصعب التنفّس فيها. وكان الفرّيسيّون يكدّسون فيها المرضى، فعكف على شفاء مختلف العلل، وتبرّع التلاميذ للأهالي بكلّ ما يملكون من مالٍ، وثيابٍ، وأغطيةٍ وطعامٍ.

ومن "صهيون" تحوّل يسوع وصحبه إلى "نعيم" (أو نائين)، حيث هرع للترحيب بهم، عند نبع ماءٍ، العديد من التلاميذ ومن أفراد الشعب، وكان هناك بانتظاره تلاميذ أورشليم مع ثلّةٍ من النساء القدّيسات، بعد أن شاركوا العذراء الاحتفال بعيد العنصرة في الناصرة. وفي بيتٍ يخصّ الأرملة التي أقام ابنها من الموت، كانت مرتا والمجدليّة، وڤيرونيكا وحنّة زوجة كوزا والسوفانيّة. المجدليّة والسوفانيّة كانتا قد فقدتا كثيرًا من جمالهما، واعتراهما الشحوب والهزال، وتورّمت جفونهما من البكاء، فيما ظلّت مرتا محتفظةً بنشاطها واندفاعها. وبدت حنّة على شيءٍ من الشحوب والجدّ الوقور، ولكنّها ما انفكّت متينةً متدفّقةً حيويّةً، وڤيرونيكا كانت توحي بروحانيّةٍ ساميةٍ ولكنّها ما برحت متحفّزة العزيمة، جريئةً، مقدامةً وصريحةً. ووجّه يسوع لكلّ منهنّ كلمةً طيّبةً، ثمّ تحدّثنَ هنَّ عن المؤامرة التي كان هيرودس قد حاكها في سبيل الإيقاع به والقبض عليه، فرفع إصبعه إيعازًا لهنَّ بالتزام الصمت، وأخذ عليهنّ الانهماك بهذه الهواجس الأرضيّة، واستسهالهنّ إطلاق الأحكام على الآخرين.

ثمّ روى لهنّ نتائج رحلته إلى قبرص، وموقف والي "سلامينا" الرومانيّ، فعبّرت بعضهنّ عن خشيتهنّ عليه وتمنّيهنّ أن يغادر الجزيرة وينجو بنفسه، ولكنّ يسوع

اعترض قائلاً: "بل الأحرى أن يمكث حيث هو، ويخدم الكثيرين، ريثما تكتمل رسالتي، ويُستبدل، في وظيفته، بوالٍ آخر سيكون صديقًا للكنيسة العتيدة" (وكان يعني به سرجيُس بَوْلُس الذي ردّه بولس الرسول إلى المسيحيّة).

ويوم السبت، غشى المجمع مع تلاميذه، فدعاه الرابيّون إلى تلاوة نصوص ذلك اليوم والتعليق عليها، وكانت هذه النصوص تتعلّق بالمسيح وبدعوة الأُمم، وكان تعليق يسوع حازمًا، صارمًا، مؤكّدًا أنّ الوثنيّين سيحتلّون في الملكوت مكان اليهود قساة القلوب، الذين سينكرون مسيحهم، لأنّه سيظهر على غير ما تخيّلوه وأرادوه. وكان أشدّ المعترضين على أقواله ثلاثة رجالٍ بدينين سبق لهم أن كُلّفوا بالتجسّس عليه في كفرناحوم، وغاظهم شفاؤه لزميلٍ لهم بالأمس من مرضه العضال، واتّهموه بالسعي إلى استمالة فرّيسيّي تلك المنطقة إليه، وأنذروه بالكفّ عن إجراء أشفيةٍ، أيّام السبت، وعن إثارة البلبال في الشعب. ولكنّه ردّ عليهم قائلاً: "سأقوم بما تمليه عليّ رسالتي، وسأثابر على التعليم والشفاء، إلى أن أنفّذ مهمّتي". فاستشاطوا غيظًا، وأعرضوا عن دعوته إلى الطعام، إذ شقّ عليهم أن يروزوا مدى تأثير تعليمه وأعمال محبّته على البائسين والفقراء والقوم البسطاء، الذين كانوا يزدادون، يومًا فيومًا، نفورًا من قسوة الفرّيسيّين وجشعهم.

وكان طقس ذلك السبت رائعًا في "نعيم". فتجوّل يسوع مع تلاميذه في ربوعها وحدّثهم بحميميّةٍ عذبةٍ، وممّا قاله لهم: "أُحرّضكم على الثبات والوفاء، إذ إنّ آلامًا جسيمةً واضطهاداتٍ شرسةً تحيق بي، فلا ترتابوا ولا تتعثّروا بشأني. أنا لن أتخلّى عنكم، وعليكم ألاّ تتخلّوا عنّي. فمن شأن ما يُلحق بي من مهانةٍ أن يهزّ إيمانكم". هذه الأقوال استدرّت دموع التلاميذ.

وفي طريق عودته إلى المجمع من أجل اختتام السبت، التقى مرضى، كانوا يمدّون إليه أيديهم ملتمسين غوثه، فشفاهم. وعند مدخل المجمع، كان سبعة مرضى آخرون راقدين على أسرّتهم، وكان يسوع قد أحجم عن شفائهم، سابقًا، لأنّ إيمانهم، آنذاك، لم يكن صافيًا، وكانوا يفتقرون إلى قدرٍ كافٍ من التواضع يؤهّلهم

للظفر بنعمة الربّ. وفي هذه الأثناء دنا الفرّيسيّون، وهم يجيشون غيظًا وخشيةً من أن يشفي يسوع أولئك المساكين الذين طالما ردّدوا على مسامعهم أنّه عاجزٌ عن ذلك، وانطلقوا يصيحون: "إيّاكم وهذا المنتهك لقدسيّة السبت". ولكنّ الربّ لم يأبه بهم ولا بصياحهم وأعاد لأولئك البائسين عافيتهم، فهبّوا يمجّدون الله. وحينئذٍ، التفت الربّ إلى الفرّيسيّين المرائين، وبعباراتٍ صارمةٍ، سألهم، هل عمل الخير محظورٌ يوم السبت، وهل هم أنفسهم يحجمون عن علاج ذواتهم فيه، وهل يحظر على هؤلاء الذين نالوا الشفاء تقديس السبت، وهل تُمنع، يوم السبت مؤاساة الحزانى، وإعادة المال الحرام لأصحابه، وهل يتوجّب، في ذلك اليوم الامتناع عن رفع الضيم عن أرامل وأيتامٍ ظلّوا يعانون، طوال الأسبوع، الآلام والقمع. وبحزمٍ، ندّد برياء الفرّيسيّين وباستغلالهم الفقراء بحجّة توفير احتياجات المجمع، الذي يفيض بالخيرات من كلّ لونٍ، وأردف قائلاً: "وها أنتم الآن تبتغون الحؤول دون حصولهم، يوم السبت، على نعمة الله والشفاء، فيما أنتم، في هذا اليوم عينه، لا تحرمون ذواتكم من أكلٍ وشربٍ ما سلبتموهم إيّاه". إزاء هذا القول أُرتج عليهم، ولم يجدوا ما يجيبونه به، فلاذوا إلى المجمع.

ومع ذلك، عندما غشى، هو أيضًا، المجمع لم يتردّدوا في دفع الكتب المقدّسة له وفي دعوته إلى التعليم، طمعًا في أخذه بهفوةٍ، واتّهامه بضلالٍ. ولمّا جاء على ذكر المسيح، أعلن عن مجيء يومٍ ينضمّ فيه وثنيّون كُثُرٌ إلى شعب الله، فردّوا عليه ساخرين، أنّه ربّما مضى إلى قبرص كي يكسب ودّ أولئك الوثنيّين. وفي سياق حديثه عن العُشر أشار إلى الأعباء الباهظة التي يلقونها على كواهل الآخرين، ويأنفون هم احتمالها، ومن قمعهم للأرامل والأيتام. ولا سيّما أنّ التقليد كان يكلّف اللاويّين بجباية العشر المتوجّب للهيكل، طيلة الفترة الممتدّة بين عيد العنصرة وعيد المظالّ، غير أنّ الفرّيسيّين قد انتهكوا هذا التقليد، وغدوا يقومون هم بهذه الجباية، والاحتفاظ بغلّتها لذواتهم. فندّد يسوع بتجاوزهم الأعراف وباختلاساتهم، مسعّرًا نيران غيظهم، ولكنّهم لم يجرؤوا على الردّ إلاّ بعد مغادرة الربّ المجمع.

في ذلك المساء تناول يسوع وصحبه العشاء في بيت الأرملة التي أقام ابنها، وودّع النساء القدّيسات.

وفي اليومين التاليين زار قرًى عديدةً في ضواحي كفرناحوم، والتقى يائير وابنته التي أقامها من الموت، ولعازر، وقائدي المئة زوروبابل، وكورنيليوس، وخادمه الذي كان قد شفاه، ونثنائيل عريس قانا الذي أنقذه من نفاد الخمرة يوم عرسه، وعاد، مساء اليوم الثاني، إلى كفرناحوم حيث كانت النساء القدّيسات تنتظرنَه في بيت أُمّه العذراء. وبعد العشاء انتحى مع أُمّه، فحدّثها عن رحلته إلى قبرص، وكانت تصغي إليه صامتةً سعيدةً، وروت هي له أحداثًا جرت في أثناء غيابه، وعبّرت عن مخاوفها من الأخطار التي كانت تحوم حوله، فلامها برفقٍ، قائلاً إنّ عليها أن ترحّب واثقةً بمخطّطات الله، مؤكّدًا عزمه عل إتمام رسالته إلى أن يعود إلى أبيه، ثمّ انضمّ إليهما عددٌ من النسوة اللواتي أصغين إلى أقوال الربّ خاشعاتٍ.

حصاد التلاميذ

حلّ يسوع في بيت بطرس حيث التأم التلاميذ الموجودون، آنذاك، في كفرناحوم، وسرعان ما انضمّ إليهم أندراوس وآخرون فاستُقبلوا بفرحٍ. ثمّ انتقل الجميع إلى بيت أندراوس في بيت صيدا. وهناك سرد التلاميذ للمعلّم ما حدث لهم حيثما كرزوا، ففي أماكن استُقبلوا برشق الحجارة، التي لم تصبهم، وفي أماكن أُخرى اضطرّوا للفرار كي ينجوا بأنفسهم. أو التقوا قومًا طيّبين، فعلّموا كثيرين، وشفوا مرضى، وكانت مهمّتهم، في تلك المرحلة محصورةً باليهود وفق تعليمات الربّ، ولا تطال من الوثنيّين إلاّ الذين كانوا يخدمون يهودًا.

وكان يسوع يستمع، بانتباهٍ واهتمامٍ إلى الروايات التي يدلي بها بعضهم ببساطةٍ وتواضعٍ، أمّا الذين كانوا يتباهون بمآتيهم، ويفخّمونها فكان يقاطعهم، ولا يتيح لهم المضيّ في سردها، قائلاً إنّه على علمٍ بكلّ ما قالوا وما كانوا يزعمون قوله، ويدعوهم إلى التمثّل ببساطة وتواضع زملائهم.

وكان، هو، يعلّق على ما سمعه بأمثالٍ، ويروي، على سبيل الشاهد، مثل الزؤان الذي ينبت مع القمح، فيُترَك حتّى الحَصاد، وحينئذٍ يُفرز ويُحرق. وكان يحذّر التلاميذ من التمادي في الاعتماد على قدراتهم الخاصّة، وإذ كان يقرأ كلّ ما يدور في خَلَد كلٍّ منهم، كان يدعو بعضهم إلى نبذ الأفكار والتخيّلات التي كانت تحوم في مكامن صدورهم، ويصحّح الآراء الخاطئة التي تراود أذهان آخرين، أو ينهاهم عن أفعالٍ كانوا يعتزمون القيام بها. وكان يقابل بعضًا منهم بصرامةٍ.

وفي المساء عاد إلى بيت أُمّه العذراء، وشخص مع التلاميذ إلى حديقةٍ حيث أصغت إليه النساء القدّيسات، محجّباتٍ، ومنتحياتٍ جانبًا. فألقى على مسامعهنّ أقوالاً تفيض عزاءً، وروى لهنّ مثَل العمّال الذين تفاوتت ساعات جهدهم في الكرم، ومع ذلك نالوا جميعهم أجرًا متساويًا.

وقدّم لوالدته التلاميذ الجدُد والمرتدّين حديثًا، ودرج على هذه المبادرة في أيّامه الأخيرة، وكأنّه قد توافق مع أُمّه على أن تُحِلّ تلاميذه في قلبها، وفي صلواتها، وفي بركتها، وتُعدّهم أبناءً لها، وإخوةً ليسوع، وتكون لهم أُمًّا روحيّةً. كان يقدّمهم لها علنًا، وهي كانت تتقبّلهم بحنانٍ وقورٍ.

أشفيةٌ في كفرناحوم وإخزاء الفرّيسيّين

مع استهلال يوم السبت شخص يسوع مع تلاميذه إلى المجمع، حيث كان الفرّيسيّون قد احتلّوا منابر التعليم، ولكنّه قصدها مباشرةً فانسحبوا ساخطين، غير أنّهم توافقوا على إفساح فترة ربع ساعةٍ له، على أن يقرّوا، في اجتماعٍ مسائيٍّ، أو بعد اختتام السبت، وسيلةً لإخراسه نهائيًّا. واخترق يسوع خبث نواياهم، فقال لهم جهارًا أنّهم لم يغشوا المجمع بحثًا عن الحقيقة، بل بغية تزييفها. وتحدّث عن النبوءات المتعلّقة بدمار أورشليم، وعن العقابات التي ستنـــزل بالشعب الذي لا يتوب، ويرفض الاعتراف بملكوت المسيح. وروى مَثَل ابن الملك الذي قتله الخدّام الخونة، فاستشاط الفرّيسيّون غيظًا، ولكنّهم لم يجرؤوا على معارضته.

وغشت مريم العذراء والنساء القدّيسات المجمع، أيضًا، واحتللنَ الأماكن المخصّصة لهنّ. وكانت العذراء تتميّز عن جميع النساء ببساطتها ووقارها وسجوّ نفسها.

بعدئذٍ عاد يسوع إلى بيت أمّه، ولكنّه ما كاد يستقرّ فيه حتّى هرع إليه كُثُرٌ متوسّلين إبراء أبنائهم المعتلّين. فزار مع تلاميذه نحو عشرين منزلاً، يقطنها فقراء وأغنياء، وشفى فيها صبيانًا وفتيات. ومع أنّ أعراض مرضٍ واحدٍ ظهرت على جميعهم، وكأنّها أعراض وباءٍ، إلاّ أنّ يسوع استخدم أساليب مختلفةً لشفائهم، فاكتفى بوضع يده على موضع العلّة لدى بعضهم، وفركه بلعابه لدى آخرين، ونفخ على فئةٍ أُخرى. وكان شفاء بعضهم فوريًّا، فيما كان بطيئًا، تدريجيًّا، لدى آخرين. وكان الربّ يبارك الذي يشفون، ويسلّمهم لذويهم، وناشد ذوي آخرين بالصلاة، وأرشدهم إلى العلاج الضروريّ. وفي جميع الحالات ابتغى شفاء الأولاد ووالديهم.

وكان قد جيء أيضًا بالعديد من المرضى إلى بيت بطرس، فشفاهم يسوع وأرشدهم، فيما كان الفرّيسيّون الساخطون لا يكفّون عن مراقبة تحرّكاته وأعماله، سحابة النهار. وبعد الظهر وافى ثلاثةٌ منهم متصنّعين الدماثة واللطف، وتسلّلوا إلى حيث كان يُجري أشفيته، وأوعزوا إليه واجب الإقلاع عمّا يفعله، وعن انتهاك يوم السبت. كانوا، في الواقع، يضمرون إثارة مناوشة، ولكنّ يسوع أشاح عنهم، مؤكّدًا لامبالاته بهم، لأنّ لا رجاء في إصلاحهم، وأنّ لا همّ له غير المرضى، فارتدّوا والغيظ يجيش في صدورهم.

في هذه الأثناء كان التلاميذ قد مضوا إلى شماليّ بيت العذراء، حيث سبق للمعلّم أن بشّر وكرز، وحيث كان غرباء كُثُرٌ قد ضربوا خيامًا، وأمضوا النهار كلّه يعلّمون ويشفون، بوضع الأيدي أو بدهن الزيت، مردّدين التعاليم التي طالما ألقاها الربّ بصيغٍ متنوّعةٍ، خلال أسفاره المتواترة.

ومساءً، عاد يسوع وتلاميذه إلى المجمع من أجل اختتام السبت. وتناول، في

عظته، تذمّر الإسرائيليّين من موسى، وما منوا به من عقابٍ. وتكلّم، بحزمٍ، عن البركة واللعنة، وعن التنكّر للدعوة إلى الملكوت وما تجرّه من عواقب. وحينئذٍ اعتلى المنبر فرّيسيّان ورويا كيف أمر موسى الشعب كلّه برجم رجلٍ جمع حطبًا يوم سبت، ملمّحين أنّ هذا العقاب جديرٌ بالانطباق على يسوع الذي يجري أشفيةً، أيّام السبت. فانبرى يسوع للردّ قائلاً: "هل يسوغ مقارنة صحّة الفقراء والبائسين بحطبٍ معدٍّ للحرق؟ أوليس أكثر عدلاً مقارنة ريائكم بالحطب؟ فأنتم باستنكاركم شفاء الفقراء، وبتبيّنكم القشّة في عين قريبكم وتغاضيكم عن الجسر الذي يعميكم، ألا تجمعون حطبًا، لا من أجل طهي طعامكم، بل من أجل إلقائه عقبةً على درب الحقيقة، ولكي تُنضجوا به سمّ الاضطهاد والشقاق؟ ألا يصلح أن نرحّب، يوم السبت، بالهبات التي التمسناها في ذلك اليوم عينه، وأن نهب ما أُعطيناه؟ إنّ الشريعة تستهدف الأعمال الروحيّة. وكيف لشريعة السبت أن تمنع شفاء مريضٍ يوم سبتٍ، وتمكينه من تقديس هذا اليوم عينه؟". كان ردّ يسوع من الإحكام والإفحام والإخزاء، بحيث لم يتجرّأ الفرّيسيّون على الردّ بكلمةٍ واحدةٍ. وأخذ التأثّر بالمستمعين كلّ مأخذٍ، وفيما استغرق بعضهم في تأمّل تعليم يسوع، سرت تمتماتٌ تقول: "أجل، هذا هو المسيح. فما من إنسانٍ ولا من نبيٍّ، يقدر أن يدلي بمثل هذا التعليم". وكانوا يتغامزون، ويتبادلون مشاعر الفرح بخزي الفرّيسيّين. غير أنّ فئةً ممّن قست قلوبهم شاطروا الفرّيسيّين غيظهم.

يوم تعليمٍ عند البحيرة

على تلّةٍ حيث ألِف أن يعلّم، أكمل يسوع تثقيف تلاميذه، فبيّن لهم الثمار التي ستؤتيها جهودهم الرسوليّة، والمكافأة التي سيتلقّونها. وحذّرهم من الآراء المسبّقة، ومن الاضطهادات التي سيتعرّضون لها، وشجّع نواياهم الطيّبة وأرشدهم إلى الأساليب المثلى في التعليم والسلوك، وناشدهم بالنأي عن مشاعر الغيرة والحسد التي قد تراود بعضهم حيال زملائهم. وروى لهم مَثَل عمّال الكرمة واستبحر في

تفسيرها واستنباط العِبَر منها. وكانت النساء القدّيسات تصغينَ، هنَّ أيضًا، إلى تعليمه، وتستخلصن منه أسلوب الحياة الخصبة.

وامتدح الربّ التلاميذ، ووعدهم بالعودة لزيارة ذويهم، والظفر بفسحة راحةٍ ونقاهةٍ، حالما يعود سائر التلاميذ من رسالاتهم. وباركهم وأضفى على نفوسهم دفق منعةٍ واندفاعٍ.

وتناول الجميع غداءً في بيت بطرس الذي كان يضجّ فرحًا، وتبادلوا أخبار ما حقّقه كلٌّ منهم في الرسالة التي أُوكلت إليه. وفي السياق عينه، أطلعهم المعلّم على ثمار رحلته إلى قبرص، وروى على مسامعهم ومسامع أُمّه والنساء القدّيسات مَثَل الصيّاد الذي انتشل من المياه الفاسدة خمس مئةٍ وسبعين سمكةً، ونقلها إلى مياهٍ نظيفةٍ. وأعاد تفسير بعض الأمثال التي كان قد سبق له أن رواها. وكانت النسوة القدّيسات قد جئنَ باحتياطيٍّ من الأحذية والثياب ووزّعنَها على التلاميذ العائدين من مهامّهم بدلاً عن تلك التي كانت اهترأت، واغتنم المعلّم تلك المناسبة كي ينصح رسله وتلاميذه بشدّ أحقائهم، وبإبقاء مصابيحهم مضاءةً.

وإتاحةً للعائدين، حديثًا، من رسالاتهم ، سرْدَ ما جرى لهم، بمنأًى عن زحمة الجموع وضجيجها، أبحروا جميعهم، فاعتلى معظم الرسل والتلاميذ مركب بطرس الكبير، فيما اعتلى يسوع متن زورقٍ صغيرٍ، وجلس قرب الشراع، إلى جانب المجذّفين، وأصغى إلى رواياتهم، معلّقًا عليها، ومرشدًا إلى مواطئ الخطأ، مشجّعًا البوادر الجيّدة، مشيدًا بإنجازاتهم، وبما أجروه من عمادٍ وشفاءٍ. وقد شكا له بعضهم عجزهم عن شفاء عللٍ، وما لاقوا من اضطهادٍ ومقاومةٍ، ورجمٍ مع أنّهم تجنّبوا التصادم مع الفرّيسيّين ولم يجادلوهم. ولكن، بالإجمال، فاقت الثمار التي جنوها كلّ معاناةٍ تحمّلوها.

وكان بطرس أكثرهم ازدهاءً ورضًى بما أحرزه. ولكنّ يسوع التفت إليه وقال: "اصمت، أيّها الشرّير، كفى!". وفي الحال، خرس ذلك الرسول الذي كان يحظى

بمحبّة يسوع، مدركًا أنّه تمادى في التباهي. فهو كان تلقائيًّا، صريحًا، ينطق لسانه بكلّ ما في دخيلته، لا يخفي ولا يداري، لا يخاف ولا يتحفّظ، على نقيض يهوذا الذي كان يحرص على تمويه مطامعه، وينـــزع إلى كتمان مشاعره، لأنّه كان يخشى الإهانة أكثر من خشيته الخطيئة.

وأرشدهم الربّ إلى ما يتوجّب عليهم فعله في الظروف الصعبة، وشدّدهم بقوله: "عندما سأعود إلى أبي سأرسل لكم الروح القدس، وحينئذٍ ستعلمون أسلوب التعليم المثالي".

وتخلص الرائية إلى القول بأنّ يسوع إن جاء اليوم فسيواجه من تردّد أصدقائه أكثر ممّا لقيه من الفرّيسيّين الذين تقرّوا الكتب، وربّما ساورهم شكٌّ بأنّه المسيح، ولكنّ ما حال دون إيمانهم به، هو ظهوره بمظهرٍ يخالف ما توقّعوه في مسيحهم الذي ابتغوه محاربًا قديرًا يعيد إلى اليهود سطوتهم وأمجادهم. وحتّى بين تلاميذه كثيرون كانوا يأملون أنّه سيتولّى، ذات يومٍ، عرش الحكم، ويقيمهم في بلاطه. غير أنّ كثيرين منهم بالمقابل اتّبعوه بدافع حبٍّ خالصٍ، واندفاعٍ مقدّسٍ.

اجتماع التلاميذ في قانا حول يسوع، وبطرس يتلقّى درسًا في التواضع

جاء يسوع إلى قانا مع سبعةٍ من الرسل، ومع العريس الذي كان قد أنقذه من الحَرَج يوم عرسه. وفي المساء التفّ حوله العديد من أقربائه وأصدقائه، ورجوه أن يتوارى، اتّقاءً لمكائد الفرّيسيّين. ولكنّه ردّ عليهم مثلما أَلِف أن يردّ على تلك النصائح، ودعاهم إلى سماع عظته على التلّة المعدّة للتعليم، والتي كان والد العروس التي أجرى معجزة تحويل الماء إلى خمر فاخرة يوم عرسها، قد غرس فيها كرمًا وأقام منبرًا للوعظ والتعليم.

وألقى فيها يسوع عظته أمام حشدٍ من ذويه، والنساء القدّيسات، والرسل والتلاميذ والعديد من أهالي قانا. وتحدّث عن تنفيذ رسالته فقال: "لم آتِ لكي أتمتّع بملذّات الحياة، أو لأسوق حياة رفاهٍ. ومن الحمق أن تطلبوا منّي القيام بأيّ عملٍ

يخالف مشيئة أبي. إنّي أُعلن، أمام جميعكم، أنّني المسيح المنتظر منذ زمنٍ طويلٍ. ولكنّ قليلين هم الذين سيتعرّفوني، وسأعود إلى أبي حالما أفرغ من أداء مهمّتي". ثمّ دعاهم بعباراتٍ مؤثّرةٍ تعاقب فيها التوسّل والإنذار، إلى عدم نبذ الخلاص، وهدر زمن النعمة وتحقيق النبوءات. وكان وعظه أخّاذًا، بحيث تبادل المستمعون القول: "إنّه أكثر من نبيٍّ. لم يتكلّم أحدٌ مثله في إسرائيل".

ثمّ مضى مع الرسل وثلّةٍ من التلاميذ إلى حيث التقوا توما ويوحنّا وبرثلماوس العائدين من رسالاتٍ في أمكنةٍ مختلفةٍ، برفقة أقرباء لزكريّا وعددٍ من التلاميذ، وقد طبع التأثّر البالغ لقاءهم معًا. وكان أشدّهم تأثّرًا يوحنّا العائد من الخليل. ورجعوا جميعًا إلى قانا، حيث كان قد سبقهم التلاميذ الذين مكثوا في كفرناحوم، وبذلك التمّ شمل الرسل، والتلاميذ السبعين الذين كُلِّفوا بمهمّاتٍ، وذوي يسوع، والنساء القدّيسات، فأقام والد عروس قانا مأدبةً كبرى، وكأنّها إحياءٌ لذكرى ذلك العرس الفريد، فزيّن البيت بالزهور، وعزف أولادٌ بآلاتٍ موسيقيّةٍ، وأنشدوا أناشيد ألّفها برثلماوس ونثنائيل وتلاميذ آخرون. وقام يسوع ورسله بتوزيع الطعام على الفقراء الذين توافدوا من البلدة ومن بلداتٍ أُخرى، وخدموا موائدهم، واغتنم يسوع تلك السانحة فعلّم وروى مَثَل العذارى الفطنات والعذارى الطائشات، وأكّد أنّ زمن مجيء العريس قد حان.

وفي الغداة يمّم يسوع وصحبه صوب جبل "غابارا"، سائرين على مهلٍ، ومتوقّفين، بين فينةٍ وفينةٍ، للإصغاء إلى أقوال يسوع التي كانت تقطر عذوبةً ومودّةً. وأوعز يسوع إلى رسله وعددٍ من التلاميذ أن يرووا على مسامع جميع الآخرين تفاصيل الرسالات التي نفّذوها وما واكبها من نجاحاتٍ ومن مقاومةٍ، ومهّد لذلك بقوله: "يا أولادي الصغار الأعزّاء، سنرى الآن من أحبَّني، وأحبَّ، فيَّ، أبي السماويّ، الذي أفاض عليكم كلمة الخلاص، ومن أجرى أشفيةً حبًّا بي، لا حبًّا بنفسه، وابتغاءً لمجده الخاصّ". فتحدّث على التوالي الرسل أوّلاً، ثمّ عددٌ من التلاميذ.

وروى بطرس، باندفاعٍ مضطرمٍ، كيف عالج العديد من المسكونين بالأرواح

الذين التقاهم، وكيف طرد منهم الأرواح الشرّيرة، باسم يسوع، مبديًا الكثير من العُجب والرضى بالذات، فقد كان اندفاعه الفطريّ قد أنساه لوم يسوع قبل يومين، فأعلن بحماسٍ: "في بلاد الجرجسيّين، تلاميذ كُثُرٌ (عدّد أسماءهم) عجزوا عن شفاء مسكونَيْن، وأنا، في الحال، طردت من أجسادهما الشياطين التي أُكرهت على الخضوع لي". حينئذٍ أمره يسوع بالصمت، ورفع عينيه إلى السماء، وقال، وسط صمتٍ عميقٍ: "كنت أرى إبليس هاويًا من السماء هبوط الصاعقة". ثمّ أنّب بطرس وجميع من تراودهم أفكار عُجْبٍ بالذات، ويتكلّمون بزهوٍ ورضًى. وقال إنّه كان الأحرى بهم العمل باسمه ومن خلاله، بكلّ تواضعٍ وإيمانٍ، وألاّ يظنّ أحدٌ أنّه يملك من السلطة أكثر من سواه، واستطرد قائلاً: "ها قد أَوليتكم قدرة سحق العقارب والأفاعي، وكلّ سطوةٍ على العدوّ: فلا يقوى شيءٌ على إيذائكم. ومع ذلك لا تفرحوا لأنّ الأرواح تخضع لكم، بل لأنّ أسماءكم مدوّنةٌ في السماوات". وقال لهم أشياء أُخرى كثيرةً، بنبرة مودّةٍ عذبةٍ، واصفًا إيّاهم بأولاده الصغار المحبوبين. وبكثيرٍ من الرقّة، لام توما ونثنائيل عن هفواتٍ ارتكباها.

كان يسوع واقفًا على قمّة التلّة، وقورًا، رافعًا يديه نحو السماء، ووجهه يعبّر عن سعادةٍ فائقةٍ. وأحاقت به غمامةٌ مضيئةٌ، فارتعش فرحًا بالروح القدس، وهتف: "أُمجّدك أيّها الآب، يا سيّد السماء والأرض، لأنّك أخفيت هذه الأشياء عن الحكماء والفطنين، وكشفتها للصغار. أجل، أيّها الآب، هذا ما استحسنته. لقد أعطاني أبي كلّ شيءٍ، ولا أحد يعرف من هو الابن سوى الآب، وما الآب إلاّ الابن، ومن أراد الابن أن يكشف لهم الحقيقة. ثمّ التفت إلى التلاميذ وقال لهم: "هنيئًا للعيون التي ترى ما أنتم ترونه! فالحقّ أقول لكم: أنبياء وملوكٌ كثيرون تمنّوا أن يشهدوا ما أنتم تشاهدون، ولم تتسنَّ لهم مشاهدته، ولا هم سمعوا ما أنتم تسمعون".

ثمّ ارتقى يسوع ورسله وتلاميذه الجبل، حيث أسهب في تثقيفهم حول ما رووه عن مهمّاتهم، وأطلعهم على كلّ ما كانوا يجهلونه، وبدّد شكوكهم، وبيّن لهم

مواطن تردّدهم وخطئهم. وحدّثهم عمّا ينتظرهم من اضطهاداتٍ، وعن رسالته، وعن نهايته الوشيكة، وأنبأهم بأنّهم سيعودون، قريبًا، إلى بيوتهم كي يصيبوا شيئًا من الراحة، وحيث ستتهيّأ لهم فرصة التبشير ونشر ملكوت الله. وبعد أن شكر لهم طاعتهم وغيرتهم، عاد معهم إلى كفرناحوم.

في كفرناحوم يسوع يفضح مكر الفرّيسيّين

يوم السبت قصد يسوع المجمع مع تلاميذه، وعلّق على قراءة ذلك اليوم بوقارٍ وشدّةٍ، أثارا سخط الفرّيسيّين الذين ترصّدوه ترصّدًا يقظًا، ولكنّهم لم يستطيعوا أن يأخذوا على تعليمه هفوةً، في حين هو لم يتردّد في اتّهامهم بارتكاب مثل ما ارتكبه آباؤهم، وما جلب عليهم غضب الله. ولم يجدوا ما يردّون به عليه سوى تفاهاتٍ نسبوها إلى تلاميذه الذين كانوا يرسلون عيونهم في إثرهم، في أثناء أسفارهم. وردّدوا ما طالما أخذوه عليهم من إهمالٍ لمقتضيات الصوم، واقتلاع سنابل، واقتطاف فواكه على طريقهم وتناولها، أيّام سبتٍ، وارتداء ملابس وسخةٍ مهلهلةٍ، وولوجهم المجمع بها، وتناولهم خبزًا بأيدٍ غير مغسولةٍ، وشتّى ترّهاتٍ من هذا النوع، انتفض يسوع لدى سماعها، وندّد تنديدًا شديدًا بالفرّيسيّين وقبائحهم، ووصفهم، مجدّدًا، بالأفاعي، وبتحميل الآخرين أعباءً باهظةً يعفون نفوسهم منها، وذكّرهم بالقمع الذي ينــزلونه بالفقراء، وباختلاسهم أموال العشر، فاضحًا رياءهم، وتحرّيهم القشّة في عين القريب وتجاهلهم العارضة التي تعمي عيونهم. وأكّد أخيرًا أنّه لن يكفّ عن التعليم، وعن إجراء الأشفية في طول البلاد وعرضها حتّى تأزف ساعته.

وفيما كان يسوع يصبّ على رؤوس الفرّيسيّين هذه الحقائق المخزية، هبّ من وسط الفرّيسيّين فرّيسيٌّ شابٌّ، ورفع يديه نحو السماء هاتفًا: "هذا هو حقًّا ابن الله، قدّوس إسرائيل! إنّه أكثر من نبيٍّ!". واستفاض في امتداح يسوع. فهبّت عاصفةٌ في المجمع، وهرع فرّيسيّان شيخان يجيشان غيظًا، وأمسكا الشابّ من

ذراعيه وجرّاه إلى خارج المجمع، وهو ما زال يجأر مديحًا ليسوع، ومعلنًا أمام الشعب كلّه انفصاله عن جماعة الفرّيسيّين، في حين كان يسوع يواصل خطابه.

ولّما خرج يسوع من المجمع، خرّ الشابّ عند قدميه، والتمس قبوله في عداد تلاميذه. وأجابه يسوع بأنّه سيرحّب به إذا هو ارتضى هجر أبيه وأُمّه، وتوزيع ماله على الفقراء، وحمل صليبه، واتّباعه، وأطلعه على الآلام التي ستلمّ بمن يتبعونه، ثمّ أوكله إلى تلاميذه. وأخيرًا عاد يسوع إلى بيت أُمّه.

وبعد ظهر اليوم التالي، وافى يسوع إلى مجمع كفرناحوم مع رسله وتلاميذه، وكان قد جيء بالعديد من المرضى وأودعوا عند مدخل المجمع، فطلب منهم الربّ أن يأتوه في الغداة إلى بيت بطرس. وكان غرضه من المجيء إلى المجمع أن يسمع الجميع ما يعلّمه لأتباعه، وكي يثبت أنّه لا يخشى أحدًا، ولا يسعى إلى التواري. وأعاد الربّ على مسامع أتباعه ما طالما علّمهم إيّاه على انفرادٍ، وحذّرهم من الفرّيسيّين والأنبياء الكذبة، وحرّضهم على السهر، وروى لهم مَثَل الخادم الخائن. فسأله بطرس: "أمن أجلنا تضرب هذا المَثَل، أو من أجل الجميع؟". فأجابه يسوع، وكأنّ بطرس هو الوكيل الذي أوكل إليه سيّده العناية بجميع خدّامه، وامتدح الوكيل الأمين، وأدان، بحزمٍ، من لا يلتزم بواجبه.

وظلّ يسوع يعلّم أتباعه حتّى قدم الفرّيسيّون من أجل اختتام طقوس السبت، فشرع بالانسحاب كي يفسح لهم المكان، ولكنّ الفرّيسيّين تظاهروا بالتهذيب وطالبوه بالتعليق على قراءة ذلك اليوم التي روت تنازل صموئيل عن وظيفة القضاء للملك الجديد شاوول. وشبّه يسوع إساءة أبناء صموئيل لأبيهم، بمعاصي الفرّيسيّين وعلماء الشريعة، وتبنّى سؤال صموئيل للإسرائيليّين: "هل أسأتُ إليكم بهذا أو بذاك؟" ولكأنّه سؤال المسيح لشعبه، وتساءل هل بين الفرّيسيّين أو علماء الشريعة من يجسر أن يسأل الشعب: "هل قمعتكُم؟ هل أخذتُ ماشيتكم؟ هل اختلستَ تقادِم...؟" ولمس الفرّيسيّون، في أقواله سهامًا مصوّبةً إلى قلوبهم.

وقارن يسوع رفض الإسرائيليّين لقاضٍ عادل، وإيثارهم ملكًا يحكمهم مثل حكم الوثنيّين وانتظارهم مملكةً أرضيّةً، ومسيحًا يوفّر لهم العيش في الترف والمتَع، وعوضًا عن محو خطاياهم بالجهد والألم والتوبة، يغطّي أدناسهم ونجاساتهم بمعطفه الملكيّ الفاخر، ويكافئ أخطاءهم ذاتها.

وذكّر يسوع بأنّ صموئيل، مع تنكّر شعبه له، ما انفكّ يصلّي من أجله، واستجابةً لصلاته همى غيث السماء على الأرض العطشى، تأكيدًا لرحمة الله حيال النفوس الورعة، وأوضح يسوع أنّ مرسل الله الذي سينبذه اليهود بازدراء، سيستمرّ في التماس رحمة أبيه لهم حتّى اليوم الأخير، وأنّ الغيث الذي أُنزلَ استجابةً لصلاة النبيّ يرمز إلى العلامات والمعجزات التي ستواكب مرسل الله من أجل إيقاظ النفوس التقيّة وارتدادها؛ وأنّ الأبرار سينالون النعمة الضروريّة لتعرّف المسيح، وأنّ إدانةً صارمةً ستنـــزل بالأشرار أمثال شاوول، الذي قُتل بيد أتباعه.

تجنّب الفرّيسيّون مناقشة يسوع داخل المجمع، تفاديًا لخزيهم أمام الشعب، وآثروا إرجاء النقاش، على أن يتمّ في بيت علماء الشريعة، حيث دعوا يسوع وتلاميذه إلى مأدبةٍ، شارك فيها نحو عشرين فرّيسيًّا. وقبل البدء بالطعام جاء رجلٌ ماكرٌ مدسوسٌ بإناء ماءٍ كبيرٍ، وسأل يسوع هل هو راغبٌ في الاغتسال، جريًا على تقاليد الأقدمين ووصايا الإسرائيليّين المقدّسة. ولكنّ يسوع ردّه، كاشفًا مكره، ومعلنًا رفضه لمائه، ومندّدًا برياء الفرّيسيّين وخداعهم.

وفي أثناء الطعام احتدم النقاش حول تعليق يسوع على تنازل القاضي صموئيل، واعتراضهم الشديد عليه، فأفحمهم حتّى بلغ غيظهم أوجه، واستمرّ الجدال حتّى بعد المأدبة، ولكنّ معظم الفرّيسيّين تأثّروا برجاحة حجج يسوع، فانسحبوا، وخلت الساحة إلاّ من سبعة متشدّدين. وعندما أُسقط في يدهم راحوا يكرّرون مآخذهم السخيفة على التلاميذ، فذاد يسوع عنهم بشدّةٍ، مؤكّدًا أنّه سيأتي يومٌ يغيب عنهم معلّمهم، فيصومون، ويتقشّفون، ويزهدون. ولكنّ الفرّيسيّين أرسلوا في إثر التلاميذ أشرارًا كي يرجموهم.

تثقيف تلاميذ جُدُدٍ

استصحب يسوع تلاميذ جُدُدًا كان زادُهم من التثقيف ما برح ضئيلاً، إلى مكانٍ قفرٍ منعزلٍ وأخذ يصلّي، وحذا حذوه التلاميذ الذين انقسموا إلى جماعاتٍ صغيرةٍ، ثمَّ التمسوا منه أن يلقّنهم الصلاة. فتسنّم معهم تلّةً، حيث انضمّ إليهم نحو ثلاثين شخصًا قادمين من الجوار. ولقّنهم دعاء "أبانا الذي في السماوات"، وفسّر لهم، بإسهابٍ، كلّ طلبٍ منها، شافعًا تفسيره بأمثلةٍ، داعيًا إلى المثابرة في الدعاء، كما يفعل رجلٌ جاءه ضيفٌ في عزّ الليل، ولم يكن له ما يطعمه، فقصد جاره كي يستعير منه خبزًا، ومازال يقرع بابه، ويمعن في قرعه، بلا مللٍ، حتّى أيقن الجار أنّ لا جدوى من التظاهر بالنوم، ونهض كي يلبّي طلبه، وأكّد أيضًا لمستمعيه أنّ الله يهب من يسألونه ما هو خيرٌ لهم، فما من أبٍ يهب عقربًا لابنه الذي يطلب منه بيضةً؛ وما انفكّ يسوع يردّد أقواله وتفسيراته حتّى يرسّخها في أذهانهم، فيتمكّنون، لاحقًا، من تلقينها للآخرين بأمانةٍ. وفي اليوم التالي أخضعهم لما يشبه امتحانًا، وطلب منهم أن يردّدوا على مسامعه ما تعلّموه بالأمس، وطرح عليهم واحدًا فواحدًا أسئلةً تتعلّق بتعليمه، كي يتأكّد من حسن استيعابهم له. وقد ناهز عدد المستمعين إليه مئة شخصٍ.

ثمّ يمّم شطر بيت صيدا حيث كانت تنتظره أُمّه، وأرملة نعيم، و"ليا" التي كانت قد هتفت "طوبى للبطن الذي حملك"، وأُخرياتٌ، كنَّ راغباتٍ في توديعه قبل انتقاله إلى ضفّة الأردنّ الأُخرى. وقد بدت العذراء حزينةً، فأنفق يسوع كنوز عطفه لكي يبثّها العزاء، ولشدّ أزرها. كان حدْسها يخيفها ممّا قد يصيب ابنها، فذكّرها بفيضٍ من التواضع والرقّة، أنّ عليه أن يتمّم مهمّته الخلاصيّة، وضمّها إلى صدره، وهدّأ روعها، وقال: "عليّ أن أُنفّذ الرسالة التي أوكلها إليّ أبي، والتي من أجلها أصبحتِ أنتِ أُمّ المسيح، فعليكِ أن تصمدي، وتساندي المؤمنين، وتكوني لهم قدوةً...". ثمّ بارك النساء الأُخريات قبل عودتهنَّ إلى كفرناحوم.

وجاء يسوع إلى بيت صيدا يوليوس، حيث استقبله فرّيسيّون بجفاوةٍ، ودعوه إلى الطعام، ولكنّهم كرّروا مآخذهم عليه، ففيما كان يهمّ بالجلوس إلى المائدة أمسكه فرّيسيٌّ من ذراعه، معبّرًا عن دهشته ممّن يحسن التعليم، ومع ذلك يزدري بالتقاليد المقدّسة، ويقدم على الطعام من غير اغتسالٍ، فأجابه يسوع أنّ الفرّيسيّين ينظّفون خارج الأقداح والأطباق، فيما داخلهم مليءٌ خبثًا. واعترض الفرّيسيّ قائلاً: "وكيف ليسوع أن يعرف ما في داخله؟"، فأجابه أنّ من صنع الخارج هو من صنع الداخل، وأنّ الله يرى مكامن القلوب. ولم يتوفّق الفرّيسيّ إلى ردٍّ سوى صبّ المآخذ السخيفة التي أَلِف أترابه رشق المخلّص بها. واعترى الخوف التلاميذ، فأخذوا المعلّم ناحيةً، ورجوه أن يكون أقلّ صرامةً في مواجهة الفرّيسيّين، لكي لا يطردوهم. ولكنّ يسوع ندّد بجبنهم، وانتهت المأدبة بهدوءٍ.

وحينئذٍ وصل ابن أخٍ ليوسف الأريماثيّ، مبلّغًا يسوع أنّ صديقه لعازر يصارع الموت.

يسوع لدى الرعاة

وصل يسوع، ظهرًا، مع ثلاثةٍ من رسله إلى قريةٍ في حرمون تدعى مخيّم يعقوب للسلام، يَقطنها رعاةٌ، كانوا قد علموا بقدومه، فأعدّوا له طعامًا وماءً للاغتسال، وجاؤوا بالعديد من المرضى كي يشفيهم. فشفاهم وبشّرهم. وكان بانتظاره، فوق تلّةٍ، نحو أربع مئة راعٍ مع نسائهم وأولادهم، وافوا لكي يستمعوا إليه. فحدّثهم بكثيرٍ من البساطة والثقة، وذكّرهم بالملوك الذين أقاموا لديهم في طريقهم إلى بيت لحم، لاثنين وثلاثين سنةً خلت، وكان كثيرون منهم ما زالوا يذكرونهم. وحدّثهم عن نجمة يعقوب التي تنبّأ بها بلعام وعن الطفل الوليد الذي جاء الملوك باحثين عنه، وعن تحقيق النبوءات، وعن يوحنّا المعمدان وتعليمه وشهادته، مؤكّدًا أنّ المسيح الموعود المخلّص قد أضحى بين ظهراني اليهود الذين لم يتعرّفوه. وكان يدعو مستمعيه: "يا أبنائي الأعزّاء". وقد اتّسم خطابه لهم بالمودّة والعذوبة.

وزار رعاةً كُثرًا في أكواخهم وبشّرهم، وبثّهم العزاء. فأحبّوه، ورغب كثيرون في هجر كلّ شيءٍ والسير في إثره، لكي يُتاح لهم سماعه، بلا انقطاعٍ. ولكنّه دعاهم إلى المكوث حيث هم، والعيش وفقًا لتعليمه.

ثمّ سلك يسوع وتلاميذه دربًا يدعى "درب داود" ينحدر، غربًا، صوب الأردنّ، عبر تعرّجات الوديان. وكان إبراهيم لدى وصوله إلى تلك الديار قد شاهد، على ذلك الدرب، بؤرةً مضيئةً وخطرت له رؤيا. وداود، أيضًا، كان قد اختبأ في ذلك الوادي، مدى ثلاثة أيّامٍ، مع ثلاث مئة رجلٍ، وهناك رأى بالروح موكب المجوس الثلاثة، وسمع أجواق السماء تنشد مبشّرةً بالمخلّص، وألّف، هناك أحد مزاميره. وهناك اختبأ أيضًا النبيّ ملاخي.

وقد ألِف سكّان تلك المنطقة وحاخاموها الحجّ، صائمين ومصلّين، على طريق داود ذاك، متوسّلين مجيء المسيح. وحرص الربّ على سلوك ذلك الدرب كي يطلع تلاميذه على تاريخه.

وقد هتف الذين سمعوه يعلّم في تلك المنطقة: "إنّه يتكلّم وكأنّه المسيح...". ولكن لم تكن صورته مطابقةً لصورة المسيح التي سكنت خيالهم. أمّا يسوع فقال لهم إنّهم قد يتعرّفون المسيح بعد لأيٍ.

يسوع يبارك الأطفال

وجاء يسوع مع عددٍ من رسله وتلاميذه إلى "بيتهابارا". (ربّما هو المكان المدعو اليوم "المغطس"). حيث كان قد احتشد جمعٌ من الكثرة بحيث كادت لا تتّسع الدسكرة لجميعهم. وقد أقام بعضهم في عنابر، والبعض الآخر في فيء أشجارٍ وارفة الظلال. وشفى يسوع هناك مرضى مصابين بشتّى أنواع العلل، فيما كان جواسيس الفرّيسيّين يلاحقونه ويترصّدونه في كلّ مكانٍ. وعمل يسوع، بلا مللٍ، وحقّق من الأشفية قدرًا كبيرًا، وألقى العديد من تعاليمه، بهدوءٍ، ووقارٍ، ووداعةٍ،

ولكن كانت تلوح على محيّاه مسحة حزنٍ دفينٍ. كان يعلّم في الشوارع، وفي البيوت التي كان أصحابها يجرّونه من ثيابه كي يلج إليها ويباركها، كان يبشّر البسطاء والحكماء، ويناشد هؤلاء أن يشكروا لله ما منّ عليهم به.

وتوافدت النساء صوبه من كلّ حدبٍ مع أبنائهنّ من كلّ الأعمار حتّى الرضّع منهم، وحاول الرسل ردّهنّ بحجّة ما أصاب المعلّم من إعياءٍ، ولكنّه ردعهم عن ذلك، ونُظّم الجمع على جانبيْ الطريق حيث انتظمت خمسة طوابير أولادٍ من مختلف الأعمار، وفُصلت طوابير الصبيان عن طوابير الفتيات اللواتي كنّ أوفر عددًا. ووقفت النسوة حاملاتٍ الرضّع في الخلف. وطاف يسوع بالأولاد، يحدّثهم ويباركهم، واضعًا يده على رأس بعضهم وعلى صدر آخرين، وشادًّا البعض إلى صدره، وقد أشار إلى فئةٍ منهم على أنّهم نماذج للآخرين، وعلّم الجميع، وشجّعهم، وباركهم، فردًا فردًا. ثمّ خاطب البالغين، وأنّب بعضًا منهم برفقٍ، ودعاهم إلى التمثّل بالصغار. ولحظ التلاميذ أنّه نأى عن بعض البالغين فاستفسروا عن السبب، فبيّن لهم أنّ هؤلاء يُظهرون غيرةً زائفةً. وقد روى يسوع في تلك المناسبة، أمثالاً عديدةً، وقال في أحدها: "إنّ الذين يدّعون العفّة، ويأكلون ويشربون كلّ ما يطيب لهم، إنّما يشبهون من يبتغي إطفاء نارٍ بإلقاء الحطب فيها".

ثمّ توجّه يسوع وصحبه نحو أريحا، وفي الطريق روى عددٌ من الرسل والتلاميذ منجزات رسالتهم. وقد سردها بعضٌ منهم مزدهين بأنفسهم، راضين عن ذواتهم، ولكنّ يسوع أنّبهم، وقال، في هذه النوبة أيضًا: "رأيت إبليس يهوي من السماء كالصاعقة"، فأخذت بهم الرعدة.

وألمح إلى أنّ الرسل يبتغونه الآن لأنّهم ينعمون بالبحبوحة، وكان يعني بها تعاليمه الإلهيّة، والسلام الذي يسود نفوسهم، ولكنّهم لم يدركوا مقصده. وأردف أنّ الرسل سيسلكون مسلكًا مختلفًا عندما ستنهال عليه الأهوال، فسينـــزعون عنهم، حينذاك، رداء محبّته، ويلوذون بالفرار، عراةً، كما فعل مرقس في الجتسمانيّ.

وعند مشارف أريحا اعترضه أربعة فرّيسيّين مرسلين من قبل زملائهم في أورشليم، وحذّروه من دخول أريحا، متذرّعين بحجّة أنّ هيرودس يعتزم القضاء عليه، في حين كان دافعهم الرئيس خوفهم ممّا سيحقّقه من معجزاتٍ كفيلةٍ بإحراجهم أمام الشعب، ولكنّ يسوع تظاهر بتصديق دوافعهم المعلنة، فأجابهم "امضوا فقولوا لهذا الثعلب: ها إنّي أطرد الشياطين وأشفي المرضى اليوم وغدًا، وفي اليوم الثالث سيتمّ كلّ شيءٍ".

وعند مدخل أريحا اعترضه شقيقان مختلفان حول اقتسام إرثٍ، وكان قد نما إليهما الكثير عن حكمته وصراحته وعدله، فرغبا في اتّخاذه حكَمًا بينهما، وارتأى بطرس ويوحنّا أنّ تلبيته طلبهما سيمثّل خدمةً حميدةً، وعملاً صالحًا، ولكنّ الربّ ردّ الأخوين وسفّه رأي الرسولَيْن، معلنًا أنّه لم يأتِ من أجل تقسيم خيرات الأرض، بل خيرات السماء. واستبهم جوابُه على رسولَيْه، إذ إنّ الروح القدس لم يكن قد حلّ بعدُ عليهما، وكانا ما زالا يتوقّعان، شأنهما شأن زملائهما، مملكةً أرضيّةً.

وأقبلت على يسوع نساءٌ عديداتٌ ملتمساتٍ بركته لأبنائهنَّ وأطفالهنَّ، وحاول الرسل المكلّفون بالتنظيم ردّهنَّ، اتّقاءً لغيظ الفرّيسيّين، ولكنّ يسوع أوعز إليهم أن يدعوا الأولاد يأتون إليه، لأنّهم يحتاجون إلى بركته كي يصبحوا، هم أيضًا، تلاميذ له. فبارك عديدًا منهم، وحتّى من الرضّع.

زكّا العشّار

كان زكّا يسكن خارج أريحا، ولكنّه لمّا علم بقدوم الربّ، سارع إليها، مثل كثيرين بدافع الفضول والرغبة في رؤية ذلك النبيّ التي ملأت شهرته البلاد، ولسماع أقواله التي لم يسمع قطٌّ أحدٌ مثلها. وبما أنّ زكّا كان قصير القامة، وكثافة الجموع تقف سدًّا في وجه مشاهدته ليسوع، تسلّق جمّيزةً مغروسةً على حافّة الطريق الذي كان على المخلّص أن يسلكه، ولمّا انتهى يسوع إلى ذلك المكان

استوقفه نداء نفسٍ تحتاج إلى الخلاص، فتوقّف ورفع رأسه إلى الشجرة، وقال: "أسرع، يا زكّا، في النـــزول، فقد اعتزمتُ الإقامة في بيتك اليوم". كان الربّ يعني ببيت زكّا، نفسَه، ولكنّ العشّار أخذ قول الربّ بحرفيّته، وجرى إلى بيته، كي يعدّه لاستقبال ضيفٍ فريدٍ، أمّا التلاميذ فاستحوذ عليهم الذهول والدهشة لرؤية يسوع مخاطبًا عشّارًا سيّئ السمعة، ويلتمس استضافته في بيته. فقد كان زكّا من العشّارين الجشعين، والذين لا يردعهم عن اختلاس أموال المواطنين والحكم، لا رادعُ خوفٍ، ولا وازعٌ من ضمير، فاستحقّ ازدراء اليهود. ومن ثمّ، لمّا ظهر زكّا في المجمع، حيث كان يسوع يعلّم، في ذلك اليوم الذي كان سبتًا، أحجم الجميع، وحتّى التلاميذ عن مخاطبته. غير أنّهم، في مساء اليوم التالي، رافقوا الربّ، متململين، إلى بيته خارج أريحا، ولكنّ بعضهم أبوا ولوجه. أمّا زكّا فأحسن وفادة ضيوفه، واستقبلهم بحفاوةٍ، وعكف على خدمتهم بنفسه، ولكنّه حالما كان يسوع يشرع في التعليم كان يوكل الخدمة لآخرين، وينصرف إلى الإصغاء للمعلّم. ومع ذلك لم يكن بعض مرافقي يسوع يستسيغون الطعام على مائدة عشّارٍ، واستشفّ الربّ ما كان يدور في خلدهم فروى عدّة أمثلةٍ، منها مثل التينة التي غرست في كرمٍ، وظلّت ثلاث سنين لا تؤتي ثمرًا، فعزم ربّ الكرم على اقتلاعها، ولكنّ الكرّام استمهل سنةً إضافيّةً، لعلّه يمعن في العناية بها فتثمر. وتحدّث، أيضًا، عن الأشجار العقيمة المزدهية بالأوراق، والتي لا تؤتي ثمرًا. فقال: "الأوراق هي الأعمال الخارجيّة التي تحدث ضجيجًا، ولكنّها لا تحمل بذور الخير، وسرعان ما تتساقط؛ أمّا الثمار فهي الأعمال الداخليّة، أعمال الإيمان والمحبّة التي تؤتي نفعًا؛ هذه الأعمال، على مثال الثمار، تنعش، وتحمل في ذاتها البذور التي تضمن للشجرة البقاء". ومن ثمّ عندما دعا يسوع زكّا إلى الانحدار عن الشجرة، كان قد رأى فيه ثمرةً نضجت، وحان لها الانفصال عن شجرةٍ تمادى عقمها.

وكان الخطأة والعشّارون يتزاحمون حول الربّ في الطرقات وأمام المجمع حيث يعلّم، رغبةً في الإصغاء إلى تعاليمه، فيما كان الفرّيسيّون يقبعون في منازلهم ريثما

يعود الجواسيس الذين بثّوهم حول المعلّم من أجل ترصّد كلّ أقواله وأفعاله، ونقلها إليهم، وينتظرون، أيضًا، عودة أزلامهم الذين أوفدوهم إلى أورشليم كي يأتوهم بتعليماتٍ عن أُسلوب القبض على يسوع وتوقيفه. وبالمقابل كان رسل يسوع وتلاميذه يزدادون امتعاضًا وقلقًا وهم يشهدونه ماضيًا في تحدّيه لأعدائه، غير حافلٍ بسلامته، وكان امتعاضهم يدفعهم إلى الابتعاد عنه، أحيانًا.

وفي هذه الأثناء لم ينفكّ القوم عن إتيانه بمرضاهم والتماس شفائهم، ولكنّه أمسى يولي أولويّة اهتمامه لإكمال تعليمه، في فسحة الوقت القصيرة التي ما برحت متاحةً له. غير أنّه لم يقوَ طويلاً على تجاهل الذين، مع انصرافه عنهم، لم يملّوا من الاستغاثة به، كي يبرز جدوى المثابرة في الصلاة، ولا سيّما أنّه حيثما كان يمرّ كان مرضى راقدون على جنبات الطريق يستغيثون به بتأوّهٍ ولوعةٍ. فغدا يقرن الشفاء بالتعليم، بوقارٍ ساجٍ مفيضًا كنوز العطف والمحبّة التي طفحت بها نفسه، قبل مغادرته هذا العالم الذي وافاه مخلّصًا، ولقي فيه طوفان صدودٍ وإعراضٍ، ومقاومةً شرسةً.

وكانت أعداد مناوئيه من الفرّيسيّين، في أريحا تتفاقم، يومًا فيومًا، ويرفدها قدوم الآتين من خارج المدينة، الذين لم يكفّوا عن ترصّده، وغيظهم يزداد تأجّجًا. وأخيرًا وطّنوا العزم على محاسبته، ولكنّهم لم يملكوا من المآخذ عليه سوى تلك التي اعتادوا اجترارها والتي طالما أفحمهم في ردّه عليها، وأخزاهم أمام الشعب. وبما أنّه كان غالبًا ما يتكلّم عن أبيه السماويّ، وراحوا يعدّدون أسماء إخوته المعروفين، واسم أبيه النجّار، ولكنّه مرَّةً أُخرى، أجابهم أن لا إخوة له إلاّ من يعملون بكلمة الله، ويحفظون وصاياه.

وكم كان يسوع رائعًا في هدوئه، وصبره، وحزمه، وهو يفنّد حجج الفرّيسيّين الطافحة خبثًا وحقدًا!

وكان تلاميذه لا يكفّون يُدمدمون هواجسهم، ويلحّون في دعوة المعلّم إلى الانطلاق نحو بيت عنيا تلبيةً لنداء لعازر وأُختيه، وحيث سيكون ويكونون في مأمنٍ، فكان يردّ عليهم ببسمةٍ تقطر وقارًا وعذوبةً.

شفاء عشرة برصٍ، وعرس رعاةٍ

فيما كان يسوع متوجّهًا صوب السامرة، امتلأت الطرق التي كان سيسلكها مرضى ملتمسين الشفاء. وفي إحدى القرى التي مرّ بها كانت قد نُصبت خيمةٌ على مسافة مئة قدمٍ من الطريق تحلّقت فيها، في مثل دائرةٍ، أسرّةٌ رقد عليها عشرة برصٍ، وما إن شعروا بدنوّ يسوع حتّى هرعوا إلى الخارج وراحوا يصيحون مستغيثين. وتابع التلاميذ سيرهم نائين بأنفسهم عن البرص، لكنّ يسوع توقّف، فاقترب البرص منه بقدر ما أتاحت لهم قواهم الخائرة من سرعةٍ وقدرةٍ على السير، وأحاقوا به، فلمسهم واحدًا فواحدًا، وأوعز إليهم أن يُروا ذواتهم للكهنة كي يحصلوا على شهادة تطهُّرٍ من علّتهم، وتابع سيره. وكان بين البرص شخصٌ سامريّ، اقتفى خطى اثنين من تلاميذ يسوع، فيما انتهج رفاقه طريقًا آخر، وكان شفاؤهم يكتمل شيئًا فشيئًا، وما انفكّ السامريّ، مذ تبيّن شفاءه التامّ يبحث بلهفةٍ عن يسوع، وما إن التقاه حتّى خرّ عند قدميه شاكرًا. فسأل الربّ: "ألم يطهر التسعة الآخرون، فأين هم؟ أوحدَه هذا الغريب جاء يمجّد الله؟ انهض، إيمانك خلّصك". وقد أمسى ذلك السامريّ، لاحقًا، مسيحيًّا غيورًا.

ثمّ اعترض طريق يسوع راعٍ ربّ أُسرةٍ، والتمس منه مواكبته إلى بيته وإعادة الحياة إلى ابنته، البالغة من العمر سبع سنواتٍ، والتي كانت قد توفّيت منذ أربعة أيّامٍ. وإذ تنامى إليه أنّ يسوع سيعبر من هناك، راح ينتظر قدومه. واستجاب يسوع لملتمسه، ودخل بيته برفقة بطرس ويوحنّا ويعقوب، ووضع يدًا على رأس الفتاة، ويدًا على صدرها، وصلّى، وعيناه شاخصتان إلى السماء، وإذ بها تستعيد الحياة، وتهبّ واقفةً. وحينئذٍ أوعز يسوع إلى رسله أن يفعلوا مثل ما فعله هو، في ظروفٍ مماثلةٍ. وجديرٌ بالتنويه أنّ والد الفتاة، عقب صلب يسوع اعتنق المسيحيّة. أمّا الفتاة فقد ساقت سيرةً ورعةً.

ثمّ زار يسوع العديد من بيوت الرعاة المتناثرة في تلك البقعة، وشفى مرضاهم. وفي طريقه التقى شابّين عائدين من المجمع حيث كانا قد عقدا زواجهما، سائرين

تحت سرادق تتقدّمهما جوقةٌ من الفتيات المكلّلات بأكاليل متعدّدة الألوان، والعازفات بالمزامير، وتتبعهما جوقةٌ من الفتيان العازفين أيضًا. وكان بين الموكب كاهنٌ من أريحا. ولمّا همّ العروسان بدخول بيتهما لمحا يسوع فاعتراهما تأثّرٌ بالغٌ والتصقا به، فقال لهما أن يتمّما طقوس الزواج ولا يسبّبا أي ردّ فعلٍ غير مستحبٍّ. وبعد الفراغ من هذه الطقوس انتحيا مع يسوع وبطرس في حجرةٍ حيث شبكا يديهما، فباركهما الربّ، وحدّثهما عن ثبات الزواج وتعذّر فسخه، وعن العفّة. ثمّ دُعي يسوع وبطرس إلى الوليمة حيث أُجلسا على رأس المائدة، وعكف العريس على خدمتهما بنفسه، ما أغاظ الكاهن، الذي عدّ أنّ هذا الشرف قد سُلِب منه، فلم يلبث أن غادر المكان، وسارع يشكو أَمره إلى فرّيسيّين لم يتلكّأوا في الانتقام من يسوع، وبلغت القحة بأحدهم أن انتزع معطف المخلّص. ولكنّ يسوع لم يتخلّ عن هدوئه ورقّته، فازداد الفرّيسيّون غيظًا، وارتدّوا خاسئين.

وأبدى يسوع قدرًا جمًّا من المودّة حيال أولئك الرعاة، وكان ذوو العروسين وبعض الرعاة المسنّين قد زاروا يسوع الوليد في مغارته، ورووا تلك الذكرى بكثيرٍ من الاعتزاز والحنين. وناشد يسوع العروسين بأن يستشيرا رسله، عقب وفاته، ويتعمّدا، ويسيرا وفق تعاليمه.

وشفى يسوع جميع المرضى والمقعدين الذين جيء بهم إلى ذلك البيت. ولم تتجلَّ يومًا على يسوع أمارات الارتياح والسكون مثلما تجلّت لدى وجوده وسط أولئك القوم البسطاء الطيّبين.

إقامة لعازر

مات لعازر فحُنّط وكُفِّن، وأُودع في قبرٍ. وغادرت شقيقتاه مرتا والمجدليّة المنـــزل إلى مزرعةٍ حيث كانتا قد استقبلتا غالبًا يسوع والعيلة المقدّسة، حيث انتظرتا مجيء يسوع، الذي كان قد بُلّغ نبأ اعتلال صديقه قبل خمسة عشر يومًا، ونبأ وفاته عندما كان في السامرة، ولكنّه قال لتلاميذه، حينئذٍ، ردًّا على إلحاحهم

بالإسراع إلى بيت عنيا: "إنّما هو في سباتٍ ولم يمت"، وعندما يمّم شطر بيت عنيا، أخيرًا، سار إليها مع رسله وتلاميذه بخطًى وئيدةٍ، مكرّرًا وقفاته التعليميّة.

كان لعازر قد مات منذ ثمانية أيّامٍ، ولكنّه لم يُدفن إلاّ في اليوم الرابع لوفاته، إذ كانت شقيقتاه ما زالتا تتوقّعان وصول الربّ بين لحظةٍ وأُخرى، وإعادته إلى الحياة. وجاء خلقٌ غفيرٌ إلى المزرعة التي لاذت إليها الشقيقتان. وعند الغروب دنت مريم زوجة زبدى وأُمّ يوحنّا ويعقوب من مرتا التي كانت وسط نساءٍ معزّياتٍ، وهمست في أذنها أنّ يسوع بات على مقربةٍ. وحرصت مرتا على أن تكون شقيقتها المجدليّة هي المبادرة إلى استقبال المخلّص، فجاءت إليها حيث كانت جالسةً وحيدةً في حديقةٍ خلف البيت وأنبأتها باقتراب يسوع، فهبّت المجدليّة تجري نحو يسوع، ولكنّها اكتفت بتحيّته، عن بعدٍ، إذ كانت تعلم عدم رغبته في التحدّث إلى نساءٍ عندما يكون محاطًا بتلاميذه، وعادت كي تحلّ محلّ شقيقتها وسط النساء المعزّيات. وهرعت مرتا نحو يسوع، الذي توقّف عند مدخل البستان متحدّثًا مع رسله وبعض الحضور. وبعد أن تبادلت مرتا عباراتٍ قليلةً معه، عادت وهمست في أذن المجدليّة التي هرعت إلى يسوع، وفي إثرها ثلّةٌ من اليهود. وكانت الشمس مائلةً إلى المغيب، وارتمت المجدليّة عند قدمي يسوع معاتبةً: "لو أنّك كنت هنا لما مات أخي". فبكى اليهود، واستولى الحزن على يسوع فبكى، ثمّ ألقى عظةً فيما كان الحاضرون، ولا سيّما أولئك الذين مكثوا خارجًا وكان عددهم لا يني يتكاثف، يتذمّرون من تلكّؤ يسوع في الحضور من أجل إنقاذ حياة صديقه لعازر. واسترسل يسوع في التحدّث عن الموت حتّى انبلاج الفجر. وحينئذٍ اتّجه إلى قبرٍ، وفي إثره يوحنّا ومتّى وأُمّه العذراء، وشقيقتا لعازر، والنساء القدّيسات، وحشدٌ يتضخّم باستمرارٍ.

دخل يسوع إلى القبر مع ثلّةٍ من رسله، ولبثت شقيقتا لعازر، وسائر النساء خارجًا، فيما كان القوم يتدافعون لمشاهدة ما يجري، وقد تسلّق كثيرون جدران المقبرة لهذا الغرض. وأوعز يسوع إلى رسله بإزاحة الحجر، وحينئذٍ، حذّرت مرتا من

أنّ أخاها يثوي في القبر منذ أربعة أيّامٍ، وقد تكون رائحة التعفّن تفوح منه، ومع ذلك أُزيح الغطاء عن الجثمان، ورفع يسوع عينيه إلى السماء، وصاح بصوتٍ جهيرٍ: "يا لعازر اخرج!" فجلس الميّت، وأخذت الجموع تتدافع لرؤيته، فأمر يسوع بإبعادهم حتّى مدخل المدفن، فيما عكف تلاميذه على إزاحة الأكفان والأغطية عن وجه لعازر، الذي بدا وكأنّه مثقلٌ بالنعاس، وفكّوا لفائف يديه ورجليه، وألقوا عليه معطفًا تلفّع به، وخرج من القبر، مترنّحًا. ولّما شاهدته شقيقتاه عند باب القبر استحوذت عليهما الرعدة فتراجعتا إلى الوراء وكأنّهما تشهدان شبحًا.

ولم تجسرا على لمسه، وسرعان ما لحق به يسوع، وأمسك بيده بوقارٍ مشبعٍ عطفًا. وسارا وسط جمعٍ كثيفٍ، مذهولٍ. وكان لعازر يسير الهوينى، وبلا مشقّةٍ، ولكن ما زالت تتراءى عليه معالم الجثّة، وكان القوم يذرّفون الدموع، صامتين وقد استحوذت عليهم الرهبة.

ودخل يسوع وصحبه مع لعازر وذويه إلى الحديقة، حيث انبطح لعازر بكلّ قامته على الأرض أمام الربّ الذي ألقى موعظةً مسهبةً، ثمّ استأنفوا مسيرهم حتّى بيت لعازر القريب، حيث انفرد يسوع بلعازر، وتحلّق الرسل حولهما. وجثا لعازر أمام يسوع الذي وضع يده اليمنى فوق رأسه، ونفخ عليه سبع مرّاتٍ، وكانت نفخاته تبدو وكأنّها أشعّة نور، وبذلك كرّس يسوع لعازر لخدمته، وطهّره من كلّ كلَفٍ بالعالم، وحرّره من كلّ ميلٍ إلى الخطيئة، وزوّده بطاقاتٍ روحيّةٍ منيعةٍ. ثمّ تحدّث إليه طويلاً، وأفهمه أنّه أقامه لكي ينذر نفسه لخدمته. وأنبأه بكلّ ما سيتعرّض له من اضطهاداتٍ من قبل اليهود.

حتّئذٍ، كان لعازر لم يتجرّد، بعدُ، من كفنه، ومن ثمّ كان يوحي بمسحة القبر والموت ورهبته، ولكن ما إن نزعه عنه حتّى أقبلت عليه شقيقتاه وقبّلتاه، وكذلك فعل أصدقاؤه.

نسمة يسوع أَكسبت لعازر مواهب الروح القدس السبع، وكانت نفسه، في أثناء تحرّرها من جسده قد اطّلعت على أسرارٍ عظمى.

وعلّم يسوع حتّى ساعاتٍ متأخّرةٍ من الليل، على ضوء مصابيح، ولعازر إلى جنبه، وأنبأ تلاميذه بأنّه مزمعٌ على الشخوص إلى أورشليم، في الغد، برفقة اثنين من تلاميذه، فعبّر التلاميذ والرسل عن خشيتهم عليه من الأخطار المتربّصة به، فطمأنهم بقوله إنّه لن يظهر علنًا، ولن يشعر أحدٌ بوجوده في المدينة.

يسوع في أورشليم، ورحلةٌ إلى الشرق

باكرًا يمّم يسوع برفقة يوحنّا ومتّى شطر أورشليم، حيث مكث يومًا وليلةً، وعلّم أصدقاءَه المقيمين في تلك المدينة، وشدّ أزرهم. في هذه الأثناء، كان الفرّيسيّون وأحبار اليهود يتداولون، قلقين، بشأن إقامته للعازر من الموت، التي أثارت في بيت عنيا، أيضًا، ضجّةً عارمةً، أجبرت لعازر وأصدقاء يسوع على التخفّي، وأكرهت الرسل على التبعثر في كلّ الجهات. ولكن سرعان ما خمدت هذه الثورة إذ تبيّن أنّ لا ذنب على لعازر ليستأهل مثل تلك الحماقة.

وفيما كان يسوع مع رسوليه، يوحنّا ومتّى، مرتحلين إلى ما وراء الأردنّ التقوا أعمى يقوده ولدان لا يمتّان إليه بوشائج قربى، وكان الرجل راعيًا من ضواحي أريحا، تنامى إليه أنّ يسوع قادمٌ، فأخذ يتوسّل عونه، ووضع المخلّص يده على رأسه فعاد إليه بصره. وفي الحال خلع الرجل أثماله، وتبع المعلّم إلى القرية. ودعا يسوع مستمعيه إلى اتّباع تعاليمه، واتّخذ من الأعمى الذي شفاه مثلاً، فكما أنّ ذلك الرجل رمى عنه أثماله واقتفى خطى شافيه، على مستمعيه أن يتخلّوا عن كلّ شيءٍ، لكي تصفو رؤيتهم، وينطلقوا في إثره متحرّرين من كلّ عائقٍ. والتمس الذي كان أعمى وشُفي الانضمام إلى جماعة يسوع فأجابه الربّ أن يثابر في اتّباع تعاليمه ويختبر قدرته على هجر كلّ شيءٍ في سبيل اتّباعه.

بعدئذٍ، أعلن يسوع عن اعتزامه القيام برحلةٍ، وأنّ على رسله الانفصال عنه، فترةً من الزمن وأرشدهم إلى حيث يتعيّن عليهم التبشير وما يجب عليهم التحاشي عنه،

ومكان ملتقاهم مجدّدًا. إذ كان على المخلّص أن ينطلق إلى مصر، معلّمًا في كلّ الأماكن التي سيجتازها، ويعود بعد ثلاثة أشهرٍ ويلتقيهم في سيخار، عند بئر يعقوب.

ولم يرافقه في هذه الرحلة سوى ثلاثة شبّانٍ تتراوح أعمارهم بين السادسة عشرة والثامنة عشرة يتميّزون عن اليهود بطول قاماتهم، وبرشاقتهم، ويُعتَقَد أنّهم من أبناء الرعاة الذين واكبوا المجوس إلى بيت لحم، وآثروا البقاء فيها، وكان يسوع قد سبق له مباركتهم في أثناء رحلته إلى السامرة. وظلّ هؤلاء يخدمونه باندفاعٍ وفرحٍ على امتداد رحلته.

لقد شقّ ابتعاد يسوع على رسله وتلاميذه. لم يُشر أحدٌ من الإنجيليّين إلى رحلة يسوع هذه إذ لم يرافقه فيها أيٌّ من أتباعه، ولم يدرِ أحدٌ منهم بمقصده. فقد كانت إقامة لعازر من الموت قد استثارت الكثير من الصخب وآثر يسوع البعاد حتّى يخفت ذلك الصخب، واندرجت رحلته في كثيرٍ من التكتّم، فلم يعلن عن هويّته في تلك البيئة الغريبة، وكان يحلّ في بيوت قرويّين بسطاء، متبيّنًا أحوالهم، راويًا لهم أمثالاً، وكان المثل الذي يتردّد على شفتيه أكثر من سواه هو مثل الراعي الساهر. وقد ظنّه كثيرون راعيًا يبحث عن مرعى لقطيعه، إذ كان كثيرون من الرعاة يقومون بمثل هذه الأسفار الاستكشافيّة. وقد لاقى الربّ من نفوس مستضيفيه ترحيبًا وارتياحًا. وعندما كان بعضهم يستفسرون عن يسوع الناصريّ كان يكتفي بالتحدّث عن أتباعه.

وانتهى يسوع إلى قريةٍ تدعى "سيدَر"، جاثيةٍ عند أقدام جبلٍ ويخترقها نهرٌ، واختار مع مرافقيه بيتًا حلّوا عليه ضيوفًا، وقصدوا مع ربّ ذلك البيت المجمع حيث قضوا السبت بهدوءٍ. وعقب تلاوة الصلوات، سأل يسوع الجمع المتحلّق حوله هل هم راغبون في أن يحدّثهم، وكانت تلك، في الواقع، أحلى رغباتهم، فروى لهم مَثَل الابن الضالّ فأصغوا إليه باهتمامٍ، واندفاعٍ، ومتعةٍ. واستفسروا عن هويّته فأجابهم أنّه راعٍ يبحث عن خرافٍ ضالّةٍ كي يقتادها إلى مراعٍ غنيّةٍ بالكلأ. فعدّوه نبيًّا وتنافسوا على دعوته إلى بيوتهم. وفي اليوم التالي بشّرهم، ثانيةً، بأمثالٍ

كانت تفتتنهم، وقد سعدوا بحضوره فرجوه أن يمكث لديهم حتّى السبت التالي، ويعظ، حينئذٍ، في مجمعهم. واستفسروه عن يسوع، فبسط بين يديهم شيئًا من سيرته وتعليمه.

ثمّ عاد يسوع إلى فلسطين، وواصل تطوافه في قراها ومدنها، متفقّدًا البسطاء والفقراء مشاركًا في أعراسهم، شافيًا مرضاهم، ومبشّرًا بحلول ملكوت الله، وداعيًا إلى الانضمام إليه. في هذه الأثناء كان غيظ الفرّيسيّين وأزلامهم لا يني يتفاقم، في أعقاب إقامة لعازر من القبر، وكان لعازر وذووه وأصدقاؤه، والنساء القدّيسات، يضطرّون، معظم الأحيان، إلى التواري. وحده يهوذا كان يتجرّأ فيظهر علنًا ويناقش الفرّيسيّين، وكانت العذراء تحذّره باكيةً من مغبّات جشعه وطمعه.

وفي إحدى القرى استُقبل في نزلٍ حيث كان شابٌّ يقيم مأدبةً عن نفس والديْ زوجته المتوفّيين حديثًا، وقد دعا الربّ إلى تبوّء مقام الشرف، فأبى وآثر أن يخدم المائدة بنفسه ملقّنًا الحضور درسًا في التواضع والخدمة. وفي الغداة زار بيوت القرية بيتًا بيتًا، مغدقًا النصائح، محدّثًا كلّ فردٍ عن شؤونه الخاصّة، مكتسبًا محبّتهم. وحدّثهم عن واجب المسامحة المتبادلة، راويًا لهم مَثَل العبد الذي سامحه سيّده بمبلغ دينٍ طائلٍ، في حين أنّ هذا العبد لم يسامح زميلاً له كان مدينًا بمبلغٍ ضئيلٍ، فاستحقّ عقاب سيّده. وضرب لهم مَثَل الكرمة التي يتوجّب تشذيبها لكي تؤتيَ ثمرًا وفيرًا، والعقاب الذي يستحقّه العامل الذي يحجم عن أداء مهمّته، وعن الأعشاب الضارّة التي أنبتتها الخطيئة في نفس الإنسان، والتي لا تُجتَثّ إلاّ بالزهد والتجرّد، وعن الأهواء الجامحة التي تهوي بالإنسان إلى ما دون البهيمة، وتفضي إلى العقم الروحيّ، والتي تقاوَم بالعفّة.

وعقد مصالحةً بين أزواجٍ منفصلين أحدهما عن الآخر. وتكلّم عن أسرار الزواج، وشدّد على دور المرأة التي وصفها بالإناء الذي يتلقّى، ويحفظ، ويهذّب. فبتطهيرها نفسها تصبح قادرةً على إصلاح الكثير ممّا يشوب ثمرها من عيوبٍ. إنّها

تكيّف الكائن الثاوي داخلها. وبتجديدها نفسها وجسدها، تمحو كلّ سيّئ في ابنها، الذي يتأثّر، خيرًا أو شرًّا بكلّ ما تفعل، وعليها ألاّ تبتغي من الزواج فقط إمتاع الحواسّ، بل احتمال أعباء الحياة، والتضحية، والكفاح، والإنجاب في الألم. إنّ مقاومة الشهوات وميول الفسق والخطيئة إنجابٌ أليمٌ وانتصار الأمّ في هذا الميدان يُعدُّ لانتصار الولد... الرجل والمرأة جسدٌ واحدٌ، غير أنّ مهمّة المرأة هي التكفير عن الخطيئة الأصليّة ومحوها، بتطهّرها في أتّون الألم، وفي الصلاة.

ولطالما استشهد بالكرمة من أجل تفسير تعليمه حول الزواج، بحيث قدّم كثيرون ببساطةٍ وسذاجةٍ حقولهم لكي يغرس فيها كرمًا، ولكنّه أجابهم أنّ لا بدّ من البدء بإعداد تربة تلك الحقول.

وأكّد أنّ افتقار الوالدين إلى العفّة يبذر الخطيئة ويغذّيها، ولكن إذا هما ساقا سيرةً مقدّسةً، واعتبرا الزواج حالة توبةٍ، فهما يسهمان في خلاص أبنائهما، ويحصلان على حصادٍ وفيرٍ.

وقال، أيضًا، إنّ خطيبته (الكنيسة) ستهب حياةً جديدةً لمن ستضمّهم في أحشائها. وجاء على ذكر عرس قانا حيث حوّل أحد المدعوّين الماء إلى خمرةٍ عذبةٍ، غير مشيرٍ إلى ذاته، وكأنّ من أجرى هذه المعجزة رجلٌ غريبٌ، يعرفه معرفةً وثيقةً، وله أعداءٌ شرسون لا يكفّون عن اضطهاده وسينتهون بالقضاء عليه.

وكان أولئك القوم الطيّبون يصغون إليه بثقةٍ صافيةٍ، ويعدّون أمثاله أحداثًا واقعيّةً. وكان بين مستمعيه معلّم مدرسةٍ، فحذّره من التعليم على غرار الفرّيسيّين، الذين يحمّلون الآخرين أعباءً يأبون هم حملها، وناشده أن يعلّم بقدوة سيرته.

ودار في خَلَد أولئك القوم البسطاء أنّ ليس لضيفهم بيتٌ يأوي إليه، وربّما خطر لهم أن يبنوا له كوخًا، فاستشفّ أفكارهم، وأعلمهم أنّه لا ينوي المكوث بين ظهرانيهم، ولن يكون له أيّ منـــزل على الأرض، قبل قيام مملكته، فعليه، أولاً، غرس كرمة أبيه، وإرواؤها بدمه على الجلجلة. ولكنّهم، حينئذٍ، لم يفهموا قوله. واستأنف

القول: "حينئذٍ سأعود من أماكن الظلمات، وأُنفِذ رسلي كي يدعوكم، وستهجرون موطنكم وتتبعوني... وسأدخل ملكوت أبي جميع الذين يكونون قد عملوا بأمانةٍ في الكرم. فلا يكن لكم من مسكنٍ سوى خيمةٍ يسهل فكّها، فلن تمكثوا هنا طويلاً".

وداعيًا إلى المحبّة الأخويّة، قال: "أحبّوا بعضكم بعضًا. ينبغي أن تتّحدوا اتّحادًا وثيقًا لكيلا تبعثركم عاصفة هذا العالم، ولا تدمّركم فرديًّا". ومشدّدًا على واجب الاعتدال، نصح الأزواج بالتزام الطهر من أجل إنتاج ثمارٍ طاهرةٍ. وكانت تعاليمه من البساطة والعذوبة والقدرة على النفاذ إلى الأذهان بحيث كان القوم، مع بساطتهم، يستشفّون هويّة يسوع الحقيقيّة، ويدركون في الإنسان وفي الخليقة جمعاء شريعةً مقدّسةً، ولكنّها خفيّةٌ، وقد طمستها الخطيئة وشوّهتها. وقد تمادى تعليمه حتّى آناءٍ متقدّمةٍ من الليل. وعندما همّ الربّ بالمغادرة التصقوا به وقبّلوه، راجين أن يمعن في تلقينهم الحقيقة. فأجابهم أنّه حسبهم، في الوقت الراهن، الاكتفاء بتنفيذ ما لقّنهم إيّاه، واعدًا بأن يرسل لهم، لاحقًا، من يزيدهم فهمًا. وحينئذٍ التمس زوجان مسنّان أن يكرّمهما بإمضاء الليل في بيتهما فلبّى ملتمسهما.

وفي اليوم التالي علّم في المجمع، وأكّد أنّ العلاقات الفاسقة تفضي إلى انحطاط الجنس البشريّ، وإلى أدنى من مستوى البهيمة. وحذّر من أنّ الثمل بالخمرة وبالشهوات الفاسدة تولد الخطيئة، فتعقب المعصيةَ معصيةٌ. ودعا الأزواج إلى تكريم نسائهم، وإلى رعايتهم كما يرعون آنيةً سريعة العطَب. وحذّرهم من الغيرة المفرطة. وحذّرهما كليهما من الإصغاء إلى النمّامين، ومن السعي، في المقام الأوّل، إلى إشباع الشهوات. وناشدهما تعاطي شؤونهما بروح المحبّة، وإقامة علاقتهما على التواضع، والتوبة، والصلاة، والسيطرة على الذات. واستهجن أن يبني الإنسان بيتًا متينًا لجسده، في حين أنّ هذا الجسد عينه هو منزل هشٌّ، ولكنّه منزل للروح ينبغي تطهيره، وتقديسه بصفته هيكلاً والامتناع عن تدنيسه وتلويثه، أو إثقاله بالأعباء على حساب النفس.

واستدعى شابًّا وفتاةً تربطهما وشائج قرابةٍ وثيقةٍ تمنع زواجهما، ومع ذلك كانا مزمعَيْن على عقد زواجهما طمعًا بمصالح مادّيّةٍ. ومع أنّ هذا الزواج اللاشرعيّ، كان ما برح سرًّا بينهما، حذّرهما يسوع من الإقدام عليه، خرقًا للشريعة، فهالهما قراءته لكوامن نفسيهما، وصدفا عمّا عزما.

يسوع يقيم ميتًا، ويواصل تعليمه

على بعد نحو فرسخٍ من مدينة سيخار، شرقًا، كان ينهض بيتٌ كبيرٌ يملكه صاحب قطعانٍ ثريٌّ جشعٌ. وكان قد تمادى في مضايقة رعاةٍ حتّى غادروا القرية، وحينئذٍ استولى ظلمًا على ممتلكاتهم، ولكنّه لم يلبث أن لقي حتفه بغتةً، في أرضٍ كان قد اغتصبها من مالكيها. فاستحوذ الغمّ على زوجته وبنيه، فأنفذوا إلى المدينة رسلاً يدعون يسوع وصحبه للاشتراك في جنازته. ووافى يسوع برفقة ثلاثةٍ من رسله وثلّةٍ من أهالي القرية التي كان يبشّر فيها، إلى حيث كان الجثمان مسجّى في دهليزٍ، فوقف يسوع أمامه، وقال: "ما نفع كلّ ما أحاط به جسده من عنايةٍ واهتمامٍ، وما جدوى هذا البيت الملعون الذي لا بدّ له من هجره؟ إنّه إيثارًا لجسده، قد أثقل نفسه بديونٍ، لم يستطع ولن يستطيع أبدًا وفاءها".

وحينئذٍ تنهّدت زوجته، وبأسًى مبرّحٍ تساءلت: "ليت كان ملك اليهود الناصريّ هنا، فهو قادرٌ على إقامة الأموات!" وردّ يسوع عليها قائلاً: "أجل إنّ ملك اليهود قادرٌ على إقامة الأموات، ولذلك يتعرّض للاضطهاد، ويبتغي اليهود قتله، مع أنّه واهب الحياة، ويأبون الاعتراف به". وردّ عليه الحاضرون: "لو كان بيننا لاعترفنا به".

وأراد يسوع امتحانهم، فحدّثهم عن الإيمان، فقال لهم إنّ ملك اليهود سيهبّ إلى نجدتهم إن هم آمنوا ونفّذوا ما يعلّمه. وحينئذٍ قالت له زوجة الرجل المتوفّى: "يا ربّ، إنّك تتكلّم وكأنّك أنت المسيح عينه". ولكنّه أومأ إليها بالتزام الصمت.

وأخرج جميع الحضور ما عدا أُسرة المتوفّى، والعروسين اللذين واكباه من القرية، وخاطب زوجة المتوفّى وابنه وابنته، وأكّد له أنّ الحياة ستعود إلى ميتهم إذا هم آمنوا بكلامه، وعزموا على اتّباعه، ووعدوا بكتمان السرّ، فوعدوا بتنفيذ مطلبه. وحينئذٍ انطلق معهم إلى الحقل الذي لقي فيه الرجل حتفه، وحيث كانت نفسه ما برحت تشهد لوحة خطاياه وعواقبها، وكلّ الآلام التي سيكابدها لقاء هذه الخطايا، ويفعمها هذا المشهد ندمًا موجعًا، وفي الآن عينه خطرت لها كلّ الآلام الفدائيّة التي سيحتملها المخلّص عنه. وفي تلك اللحظة صلّى يسوع، ودعا الميت باسمه (نازور) فعادت النفس إلى جسدها. وأنبأ يسوع أُسرة الميّت أنّهم لدى عودهم إلى البيت سيجدونه جالسًا ضاجًّا بالحياة. فقد كانت نفسه قد عادت إلى جسده عند إطلاق الربّ وعده، فاستوى الرجل في نعشه، مكفّنًا مقيّد اليدين، وسارعت زوجته إلى فكّ لفائفه، فهبّ الرجل واقفًا، وخرّ عند قدميّ الربّ، محاولاً تقبيل ركبتيه. ولكنّ الربّ تراجع إلى الوراء، وأمره بالتطهّر، والاختفاء، وبكتم أمر قيامته، إلى أن يغادر يسوع المكان. فامتثل ووري النعش التراب فارغًا. وفي الغداة، زار يسوع "نازور" الذي أعاد إليه الحياة وحرّضه على إيلاء نفسه عنايةً أكبر من عنايته بجسده، وناشده إعادة كلّ ما كان قد سلبه. ثمّ استدعى أولاده وحدّثهم عن رحمة الله، التي خبرها والدهم، ودعاهم إلى مخافة الله، وباركهم. ثمّ وعد الرجل زوجته بعزمه على العيش معها عيشةً أكثر تفاهمًا، وتقشّفًا.

وخاطب يسوع العريس الذي شارك في عرسه: "لقد فتنك جمال زوجتك الخارجيّ. وكان الأحرى بك أن تؤخذ بجمال النفس، بما أنّ الله أرسل ابنه إلى الأرض لكي يخلّص النفوس، ويفتديها بحياته. من يخدم الجسد لا يحترم النفس. إنّ الجمال يغذّي الشهوة، وإشباع الشهوة يُلحق الأذى بالنفس، مثلما تؤذي العشبة الطفيليّة السنبلة".

وأعلن يسوع عزمه التبشير في مجمع "سيدار" يوم السبت، والتعليم في المدرسة،

وعندئذٍ سيطلع المستمعين على ما يتعيّن عليهم فعله، لكي يكون لهم في ملكوته نصيبٌ. وأنبأهم، أيضًا، أنّه سينطلق شرقًا، عبر البلاد العربيّة، لكي يهدي أصدقاء له كانوا قد استرشدوا بنجمةٍ، وجاؤوا كي يحيّوا مولده، إلى السبيل المؤدّي إلى مملكة أبيه.

كان الحشد كثيفًا والازدحام شديدًا في "سيدار"، وكثر عدد الأشفية التي أجراها الربّ، الذي كان يمرّ بالراقدين على أسرّة المرضى ويقول لهم: "قوموا واتبعوني". وقد بلغت دهشة الجموع واندفاعهم أشدّهما، وألقى الربّ في الجمع عظةً موجزةً ودعاهم إلى المجمع، وأعاد على مسامعهم تعاليمه المتعلّقة بالعفّة والاعتدال، محصّنًا نفوسَهم من الخطيئة، ودعاهم إلى اتّباعه على دروب الأبديّة، مذكّرًا بقيامة الأموات والدينونة، وبأنّ الموت يأتي كالسارق بلا إنذارٍ، فلا بدّ من السهر الدائم.

يسوع في بلاد المجوس

واكب يسوع إلى الصحراء ثلاثةُ شبّانٍ ونحو عشرين شخصًا من مدينة "سيدار"، مع رئيس المجمع وعندما انتهوا إلى سهلٍ مخضلٍّ، تتسامق فيه أشجار النخيل، وتتوسّطه خيمةٌ كبيرةٌ يُحيق بها العديد من الخيَم الصغيرة، ودّع المخلّص أهالي "سيدار" الذين واكبوه فباركهم، وتابع مسيرته صوب الخيَم التي يقطنها عبدة النجوم. وكانت الشمس قد أخذت تغرب، عندما توقّف عند عين ماءٍ. وقد أُودع عندها دلوٌ للاستقاء، فشرب هو ومرافقوه، الذين غسلوا قدميه، فقابلهم بالمثل وغسل أقدامهم. كانت الخيمة الرئيسة قائمة على مقربةٍ من عين الماء، وسرعان ما خرج من داخلها خمسة رجالٍ بيض البشرة، ولهم لحى سوداء قصيرةٌ، حاملين أغصانًا متنوّعة الأشكال. ودنوا من يسوع وصحبه وحيّوهم وقدّموا لهم الأغصان ودعوهم إلى داخل الخيمة. وأجلسوهم على مقعدٍ طويلٍ مزيّنٍ بأوسدةٍ، وقدّموا لهم طعامًا وفاكهةً، ثمّ اقتادوهم إلى الحجرة المخصّصة لإقامتهم، فطلب

يسوع ماءً، فجيء إليه بطستٍ ملآن، فغسل أقدام رفاقه، الذين غسلوا، بدورهم، قدميه، ما أدهش المضيفين، ففسّر لهم يسوع مغزى هذا الفعل ودافعه، فتأثّروا، ووطّنوا العزم على التقيّد بهذا الأسلوب.

وعندما همّ يسوع بمغادرة المكان، استفسر مضيفوه عن هويّته وعن مقصده، فحدّثهم عن ملكوت أبيه، وأخبرهم أنّه قدم لزيارة أصدقاء كانوا قد حيّوا مولده، وأنّه سيتابع رحلته إلى مصر لزيارة رفاق صباه، ودعوهم إلى اتّباعه، وبعدئذٍ سيعود إلى أبيه. وحدّثهم عن عبادتهم للأوثان التي تدفعهم إلى القضاء على العديد من الضحايا، وكان الأحرى بهم عبادة الآب خالق كلّ شيءٍ، وإطعام إخوةٍ لهم جياعٍ، بالحيوانات التي يضحّون بها لصورٍ وتماثيل من صنع أيديهم...

وندّد بممارستهم عادة تعدّد الزوجات داعيًا كلّ رجلٍ إلى الاكتفاء بزوجةٍ واحدةٍ، تكون خاضعةً له ولكن لا خضوع عبيدٍ.

وتوسّلوه أن يقيم معهم ويثقّفهم، ولكنّه وعدهم، عقب عودته إلى أبيه، بدعوتهم إلى اتّباعه.

وفيما كان ماضيًا بيّن لتلاميذه البون الشاسع بين هؤلاء الوثنيّين الذين لم يصنع لهم شيئًا، ومع ذلك أحسنوا وفادته، واليهود المتصلّبين وناكري الجميل، الذين قابلوا النعم السنيّة التي أغدقها عليهم بأكثر الاضطهادات ضراوةً.

سار يسوع ومرافقوه بخطًى سريعةٍ. وقبيْل حلول السبت توقّفوا عند مثابة بئرٍ حيث تبادلوا غسل أقدام بعضهم بعضًا، وصلّى يسوع مع مرافقيه وعلّمهم، ثمّ قضوا ليلتهم في العراء. ومنذ الصباح تحلّق من حوله رعاةٌ راغبون في الاستماع إليه، فاستفسرهم هل سبق لهم أن سمعوا عن قومٍ، اقتادهم نجمةٌ، لثلاثٍ وثلاثين سنةً خلت، إلى حيث وُلد ملك اليهود. وإذ كانوا قد سمعوا ذلك لاحقًا أوضح لهم أنّه هو ذلك الملك، وأنّه قاصدٌ أولئك القوم لزيارتهم.

كان سرور الرعاة البسطاء الذين ناهز عددهم الأربعين، بذلك الضيف، غامرًا، وكان ترحيبهم به مؤثّرًا، فراحوا يقطعون الأعشاب ويكوّموها جاعلين منها مقعدًا يجلس عليه ويعلّمهم، فروى لهم أمثالاً رائعةً، وكانوا يصغون إليه مثل أطفالٍ، ثمّ شاركوه الصلاة.

وفي المساء جمعوا خيمتين معًا، وجعلوا منهما حجرةً واسعةً، تناولوا فيها طعامًا قوامه ألبانٌ وأجبانٌ وثمارٌ. وعندما شهدوه يبارك طعامه قبل تناوله، استفسروا عن معنى ذلك وفسّر لهم، فرغبوا في أن يبارك طعامهم أيضًا، وجاؤوه بأطعمةٍ أُخرى كي يباركها، ويخلطوها بمؤونتهم فتكتسب بركةً دائمةً.

وفي اليوم التالي، سألوه أن يعلّمهم أيضًا، فجلس على المقعد العشبيّ، وأخبرهم عن الخليقة، والخطيئة الأولى، والفداء، ولم يكونوا يحيطون بهذه المواضيع إلاّ إحاطةً سطحيّةً. وقد أجرى أمامهم معجزةً أخذت بألبابهم، وسهّلت لهم إدراك بعض ما حاول يسوع تسريبه إلى أذهانهم. وعلّمهم صلاةً توجز دعاء "أبانا".

ومع أنّه كان عليمًا بكلّ تقاليدهم، استوضحهم عن عبادتهم فجاؤوه بأوثانهم المتمثّلة بنعاجٍ، وحميرٍ وجمالٍ، مصنوعةٍ من معدنٍ، ومغطّاةٍ بجلودٍ. فأوضح لهم بطلان تلك العبادة، وتشويهها لعبادة الإله الحقّ، وصارحهم أنّه هو الحمل الطاهر الذي يهب الحياة والخلاص، وبالتالي أوعز إليهم الكفّ عن عبادة حيواناتٍ، والتبرّع بالمعدن الذي يصنعون بها معبوداتهم، وإقامة هياكل للآب السماوي خالق كلّ شيءٍ، ملتمسين آلاءه، واقتسام كلّ ما يمتلكونه مع إخوتهم المعوزين، والجود بلحوم الضحايا عمّن يفتقرون إلى طعامٍ، ولا سيّما أنّ في الجوار كثُرًا لا يملكون حتّى خيَمًا يستظلّونها، وحتّى الزهيد الذي لا يقيم أوَدهم.

وحدّثهم عن المجوس، فتذكّروا أنّ ملوكًا قد قاموا لثلاثٍ وثلاثين سنةً برحلةٍ بعيدة بحثًا عن المخلّص الآتي للعالم بالسعادة والخلاص، وأنّهم، لدى عودتهم اعتنقوا دينًا آخر.

وعدهم يسوع بأن يرسل إليهم من يثقّفهم ويلقّنهم الحقيقة، وأكّد أنّه هو جاء من أجل كلّ صابٍ إليه، وليس من أجل اليهود فقط.

وواصل الربّ مسيرته نحو موطن المجوس، يواكبه نحو عشرة رعاةٍ، فاجتازوا أراضي مقفرةً، لا سكن فيها ولا خيام، ولكنّها ليست متاهاتٍ، بل فيها طريقٌ ممهّدٌ واضح المعالم. وكان الموكب يتوقّف حيث يجد بئرًا وظلّ شجرٍ، فيغسل يسوع وتلاميذه أقدام بعضهم بعضًا، ويتناولون ما يقتطفون من ثمارٍ بريّةٍ، وكان التلاميذ الشبّان يؤخذون بعطف يسوع، فيعاملونه بحميميّةٍ عذبةٍ، ولكنّهم حالما يذكرون معجزاته وقدراته الخارقة، تتغلّب فيهم التجلّة على الحميميّة، فيتبادلون، فيما بينهم، نظرات الخَفَر. أمّا هو فكان يستنبط من كلّ ما يصدفونه على طريقهم موضوع تأمّلٍ.

كانوا يسيرون، ليلاً، مستهدين بمصباحٍ يرفعونه على عصًا، فينير مسافاتٍ من الطريق أمامهم، وفي الآن عينه يبعث الرعب في صدور الحيوانات المفترسة التي كانت تلوذ بالفرار. وهكذا انتهوا إلى جدارٍ مؤلّف من أشجارٍ سامقةٍ متلاصقةٍ، تنساب، عند أقدامه، ساقيةٌ تروي أراضي مستثمرةً.

واتّجه الموكب نحو أكواخٍ منثورةٍ بين الحقول والبساتين، واقتاد ساكنوها يسوع وصحبه إلى المكان المخصّص لاستقبال الغرباء، فرحّب سكّانه بالضيوف. وحينئذٍ عاد الرعاة الذين واكبوه أدراجهم إلى بيوتهم بعد أن تزوّدوا بمؤونةٍ للطريق. وجاء سكّان المكان إلى الربّ بما تنتجه أراضيهم الخصبة. فاستفسرهم عن ملوكٍ سافروا قديمًا مستهدين بنجمٍ، فأفادوه أنّهم كانوا يقطنون آنفًا مناطق متباعدةً بعضها عن بعضٍ، ولكنّهم إثر عودتهم التمّوا حيث كان النجم قد ظهر لهم للمرّة الأولى، وأشادوا هرمًا اتّخذوا منه معبدًا، وحوّطوه بمدينة خيامٍ، يعيشون فيها معًا، منتظرين زيارة المسيح التي وُعدوا بها، على أن يهجروا مدينتهم عندما سيتشرّفون بزيارته، ويلتحقوا به. وكان أكبر الملوك الثلاثة، واسمه "منصور"، ما

زال ينعم بصحّةٍ وفيرةٍ، أمّا ثانيهم "ثيوكيفو"، فقد هدّته الشيخوخة، وأقعدته عن الحركة، وثالثهم "سعير"، فكان قد لقي حتفه، منذ سنواتٍ، ولكنّ جثمانه الذي لم يطله الفناء، فما زال محفوظًا في المعبد. وفي كلّ ذكرى سنويةٍ لوفاته يفتح مدفنه، وتقدّم له طقوس التكريم، حيث، عند جثمانه، تظلّ مصابيح مضاءةً. وبعد أن أدلوا بهذه الأخبار للربّ، استفسروا، بدورهم، عن الرعاة الذين واكبوا الرعاة إلى فلسطين وآثروا المكوث فيها.

ثمّ أُوفد رسُل ينبئون الملك "منصور" بحضور رجلٍ، يُعتقد أنّه رسول ملك اليهود، فأرسل في الحال سبعةً من رجاله مزدانين بأبهى حلاهم، للترحيب به، ودعوته إلى الإقامة مع صحبه عندهم أطول وقتٍ ممكنٍ. ولكن قبل الاستجابة لدعوتهم حرص يسوع على إلقاء خطابٍ قصيرٍ، تحدّث فيه عن الوثنيّين، صافي النوايا، الذين، مع جهلهم، يحملون قلوبًا ورعةً وبسيطةً.

احتفال الملك منصور باستقبال يسوع

مع أنّ الملك منصور وقيّميه ظنّوا أنّ الضيف القادم إليهم هو رسول ملك اليهود، إلاّ أنّهم نشطوا، إعدادًا للاحتفال باستقباله. وعقدوا من ذؤابات الأشجار السامقة التي ربطت معًا، أقواس نصرٍ، وخفّ الشعب كلّه لاستقباله بفرحٍ وتجلّةٍ، ولكأنّه هو يسوع نفسه، وأعدّوا له ثيابًا لائقةً، يستبدل بها ثياب السفر المغبرّة، وزيّنوا الطرقات بباقات الزهور، ولمّا دنا المخلّص مع مرافقيه، انطلق الملك منصور لاستقباله، على متن جملٍ مزيّنٍ ومثقلٍ بالهدايا المتدلّية على جانبيه، في موكبٍ يضمّ نحو عشرين من أعيانه، بينهم من واكبوا المجوس إلى بيت لحم، منشدين لحنًا وقورًا حزينًا. وكان يسبق الموكب رجلٌ يحمل رايةً، تعبيرًا عن تكريم الضيف الرفيع، وتأهيلاً به.

استقبل الملك منصور ضيفه تحت شجرةٍ قريبةٍ من نبع ماءٍ، فوق بساطٍ من العشب، بعد أن أعدّ له ثيابًا فاخرةً موشّاةً بالذهب، ونضّد أمامه أطباقًا من الذهب

الخالص، ملأى بأعذب الفاكهة والثمار. وسجد الملك الشيخ للضيف، ولكنّه ما إن لمح قسماته حتّى استيقظت في داخله ذكريات زيارته إلى مغارة بيت لحم، واعترته نفس المشاعر المفعمة تأثّرًا التي كانت قد خالجته آنذاك. فسارع إلى تقديم صولجانه لضيفه، الذي مدّ له يده وأنهضه. وسارع معاونو الملك فقدّموا للضيف ولمرافقيه ثيابًا فاخرةً، سلّمها يسوع لتلاميذه، فأعادوا إيداعها على ظهر البعير وشكر الربّ لمضيفه هذه التقدمة التي أبى ارتداءها. وكذلك فعل عندما قدّم له الملك جمله.

وحينئذٍ استراح الجميع في ظلال أقواس الأشجار، وقدّم الملك لضيفه ومرافقين ماءً، أضاف إليه قطراتٍ من شرابٍ عذبٍ، وقدّم لهم الفاكهة، بكثيرٍ من التواضع والمودّة. واستعلم عن ملك اليهود، وهو في قرارة نفسه يتساءل عن التأثّر العميق الذي داخله عندما وقعت عيناه على من ظنّه رسوله.

ولّما أصابوا قدرًا وافيًا من الراحة، دعوا يسوع إلى تسنّم الجمل، فأبى مؤثرًا أن يتسنّمه الملك، وسار على رأس الموكب إلى مركز إقامة مضيفيه، وعند مدخلها رحّبت بهم ثلّةٌ من الفتيات المرتديات ثياب العيد، واللائي اصطففنَ اثنتين اثنتين حاملاتٍ سلالاً ملأى زهورًا كنّ ينثرنها بسخاءٍ أمام الربّ، ويفرشنَ بها طريقه. وبعد أن اجتاز الموكب ممرًّا طويلاً محاطًا بالأشجار، انتهى إلى ساقيةٍ تحيق بحديقةٍ، حيث رحّب بالضيف خمسة كهنةٍ متدثّرين بمعاطف بيضاء رحراحةٍ، وكان اثنان منهم يحملون إناءً ذهبيًّا، يحضن جمرًا متّقدًا، فيما كان الآخرون يحملون آنيةً ذهبيّةً على شكل زوارق، يأخذون منها بخورًا يلقونه على الجمر. وفي ذلك الموقع غسل التلاميذ قدمي يسوع، وبادلهم هذه الخدمة فغسل أقدامهم. وبعدئذٍ اقتادوا يسوع إلى قاعةٍ فسيحةٍ مستديرةٍ، أُقيمت فيها مائدةٌ واطئةٌ، بُسطت عليها الأطعمة في أطباقٍ فاخرةٍ، رائعة الزينة.

تحدّث الربّ مع مضيفه قبل جلوسه إلى المائدة، أمّا هم فأسهبوا في سرد قصّة رؤيتهم لنجمٍ غريبٍ، كانت تقاليدهم تصفه دليلاً إلى حدثٍ عظيمٍ، وكان قد ظهر لهم، للمرَّة الأولى خمسة عشر عامًا قبل مولد المسيح، ثمّ توالى ظهوره كلّ خمس سنوات. واستوضحوا يسوع عن سبب تواري ذلك النجم عندما وصلوا إلى أورشليم، فأجابهم: "امتحانًا لإيمانكم، ولأنّه لم يكن معدًّا للظهور في أورشليم". وبعد أن استرسل في تبشيرهم، صارحهم أنّه هو المخلّص، وليس مجرّد رسولٍ له، فخرّوا ساجدين مذرّفين الدموع، وكان الملك الشيخ أكثرهم سكبًا للدموع. وقد شقّت عليهم كفكفة دموع التأثّر المعبّرة عن حبّهم وإجلالهم، واستكبارهم أن يبادر الربّ إلى زيارتهم بنفسه. وأكّد لهم أنّه جاء من أجل الأمم واليهود على السواء ومن أجل جميع من يؤمنون به.

وخيّل إلى مستمعيه أنّ ساعة هجرهم لموطنهم في الحال، واتّباع المخلّص إلى فلسطين قد أزفت. غير أنّ الربّ سارع إلى إيضاح أنّ مملكته ليست أرضيّةً، وليست محصورةً في بقعةٍ وطنيّةٍ، وأنّ ما سيتعرّض هو له من مهانةٍ وتنكيلٍ من قبل اليهود قد يصيبهم بالخيبة، ويخضّ إيمانهم به. ولكنّهم لم يدركوا مغزى كلامه، واستوضحوه عن سبب ازدهار الأشرار، في حين يتعيّن على العديد من الصالحين تكبّد الآلام والمعاناة. فأوضح لهم أنّ من ينعمون في هذه الدنيا، سيؤدّون عن نعيمهم حسابًا، وأنّ الحياة إن هي إلاّ فسحة توبةٍ...

كان لأولئك القوم إحاطةٌ سطحيّةٌ برجال العهد القديم، وبحثوا في سلالتهم الخاصّة فتبيّن لهم أنّهم متحدّرون من ثلاث قبائل مختلفةٍ، وكانت قبيلة "منصور" تنتسب إلى أيّوب، ومن ثمّ كان أبناء قبيلتهم طيّعين طاعة أولادٍ، ولا يتوانون عن فعل كلّ ما يوفّر لهم الخلاص. واستفسروا الربّ هل الختان واجبٌ عليهم، أيضًا، فأجابهم أنّه لم يعد واجبًا، ما داموا يختنون ذواتهم عن الشهوات. وحدّثوه عن طقوسٍ يقدّمون بموجبها، خبزًا وشرابًا قائلين: "من كان ورعًا وتناولني سينعم

بسعادةٍ كلّيّةٍ". فبيّن لهم يسوع أنّهم يمتلكون نُتَفًا من الحقيقة، أمّا جوهر الحقيقة فقد شوّهتها وأفسدتها وغيّبتها عنهم دياجير الوثنيّة.

ودعوه لزيارة معبدهم، الذي اقتاده إليه كهنةٌ حفاةٌ، واجتازوا به طرقاتٍ مزدانةً بشتّى الزخارف فيما كانت نساءٌ جالساتٌ يشدّهن الفضول إلى رؤيته، فلمّا مرّ بهنّ نهضنَ وانحنيْنَ حتّى لامست رؤوسهنّ الحضيض. وفي الهيكل، أراه الكهنة رسمًا لمغارة بيت لحم حيث جلس الطفل على غطاء أحمر ويداه مضمومتان إلى صدره، مقمّطًا من رجليه حتّى وسطه، والمغارة مفروشةٌ بالقشّ.

ومعهم زار الربّ مدفن الملك "سعير" وأُسرته، حيث أوقدوا البخور، وسُكِبت الدموع، وشارك الملك منصور الجمهورَ النحيبَ. وكان منصور، من قبل، قد رافق يسوع في زيارة الملك الثالث "ثيوكينو"، الذي كانت الشيخوخة قد هدّته، وأقعدته، وكان يقيم في طبقة القصر الأرضيّة، مستلقيًا، محاطًا بأوسدةٍ وأرائك. دأب يسوع على زيارته طيلة مدّة إقامته هناك، وقد روى له العجوز، ذات يومٍ، أنّ الملك "سعير" المتوفّى، كان قد أمر بوضع غصن شجرةٍ عند مدخل قبره، وقد دأبت حمامةٌ على الحطّ فوقه، واستوضح عن معنى ذلك. فاستفسر يسوع عن إيمان الملك المتوفّى، فأجابه العجوز: "كان إيمانه مثل إيماني، فمنذ زيارتنا لملك اليهود، لم يعدْ يرغب إلاّ في تنفيذ مشيئته، حتّى وافته المنيّة". وحينئذٍ قال له يسوع أنّ حطّ الحمامة على الغصن يشير إلى أنّ الملك المتوفّى قد نال عماد الرغبة.

المجوس يحتفلون بالعيلة المقدّسة

كان المجوس قد شاهدوا النجم لخمسة عشر عامًا سبقت مولد يسوع، وفي طيف النجم عاينوا صورة بتولٍ تمسك بيدٍ صولجانًا، وباليد الأُخرى ميزانًا، تحمل إحدى كفّتيه سنبلة قمحٍ، وعلى الكفّة الأُخرى يثوي عنقود عنبٍ. ومنذ عودتهم من بيت لحم، اعتادوا أن يحتفلوا، مدى ثلاثة أيّامٍ، تكريمًا للعذراء مريم، وليسوع،

وليوسف الذي أحسن وفادهم في بيت لحم، وخلّف في نفوسهم أطيب أثرٍ. وحلّ موعد هذا الاحتفال، أثناء زيارة يسوع لهم، فخطر لهم أن يلغوا هذا الاحتفال، لكي ينصرفوا إلى سماع تعليم يسوع. ولكنّه نصحهم بالمضيّ قدمًا في ما اعتادوا عليه، لكيلا يصدموا الذين أمسوا يظنّون أنّ هذا الاحتفال هو جزءٌ جوهريّ من دينهم. وكانت طقوسهم تلجأ إلى رموزٍ تمثّلها حيواناتٌ، وهي تنّينٌ فاغرٌ شدقيه، يرمز إلى الأهواء الجامحة التي ينبغي مكافحتها، وكلبٌ كبير الرأس، يرمز إلى الوفاء، والعرفان بالجميل، واليقظة الساهرة، وطائرٌ طويل العنق والساقين يرمز إلى البرّ بالوالدين. هذه الحيوانات لم تكن موضوعةً في المعبد، ولم تكن أصنامًا تعبد، بل وسائل للتأمّل في روائع الله، وتوحي بالتواضع والحكمة. فعلى سبيل المثال كان الكهنة يقولون عن التنّين: "لو كان هذا الكائن القبيح والمخيف حيًّا، وابتغى ابتلاعنا، فمن ترى ينقذنا منه إلاّ الله كلّيّ القدرة؟". وكان لله عندهم اسمٌ خاصٌّ.

غير أنّ المخلّص أوعز إليهم أن يتخلّوا عن صور البهائم، وأن يقصروا تعليمهم على الرحمة، ومحبّة القريب، والفداء، وأن يتأمّلوا روائع الله في خلائقه، ويشكروه وألاّ يعبدوا سواه. وأوصاهم ألاّ يسرفوا في التعلّق بالحيوانات، وفي الآن عينه، ألاّ يسيئوا معاملتها، وأن يؤثروا بحبّهم البشر، ويُعنوا بنفوسهم بقدر عنايتهم بأجسادهم، وأن يغيثوا المحتاجين حتّى البعيدين عنهم، وأن يصلّوا من أجل المتألّمين حيثما وُجدوا، فهو يعدّ كلّ غوثٍ للبائسين غوثًا يسدونه له.

ومن طرائف ما حدث في أثناء تلك الزيارة، أنّ الملك "ثيوكينو" كان راغبًا في الاستماع إلى تعليم يسوع، ولكنّه كان عاجزًا عن المضيّ إلى المعبد لهذه الغاية، فجاءه يسوع، وأمسكه من يده، وأمره بالنهوض وباتّباعه، وآمن الملك بقدرة الربّ، فنهض وتبعه، ومنذئذٍ استعاد قدرته على الحركة.

واتّفق أن شاهد يسوع، في المعبد، امرأةً ساجدةً أمام صورة التنّين، فسألها سبب هذا السجود، فأفادت أنّه يوقظها كلّ صباحٍ، فتركع أمام صورته وتعبده. وأوضح

لها أنّها إنّما تسجد أمام إبليس الذي سلبها إيمانها، وأنّ الأَحرى بها أن تلتمس غوث ملاكها كي يوقظها فتعبد الله الحقّ. وفي تلك اللحظة حدّقت إلى صورة التنّين، وكذلك فعل الحضور، فرأت ورأوا كائنًا مقيتًا، ناريّ اللون، هزيلاً، مريعًا جعلها ترتعد خوفًا. وأعلمها يسوع أنّ لكلّ إنسانٍ ملاكًا، فعليها الاعتماد على ملاكها، وقال لها: "انظري من يوقظك حقًّا، ومن يليق بك الاستماع إلى نصائحه". وحينئذٍ شاهد الجميع إلى جانب المرأة شكلاً جميلاً نيّرًا، سجدت أمامه المرأة، وقد أخذ بها الاضطراب.

وطلب يسوع أن تُفتح أبواب المعبد لكلّ راغبٍ في الاستماع إليه، وأسهب في التعليم داخل المعبد وخارجه، متوجّهًا إلى جميع فئات المجتمع من رجالٍ ونساءٍ وأولادٍ وفتياتٍ. وروى لهم الأمثال التي اعتاد روايتها لليهود، وكان يتيح لأيّ مستمعٍ أن يقاطعه، ويطرح عليه أسئلةً، ويدعو الذين يستشفّ الشكوك التي تساورهم أن ينهضوا ويجهروا بما يجول بخواطرهم. ووعد مستمعيه بإرسال من يُجري بينهم الأشفية والمعجزات التي يجريها هو في فلسطين، ومن يلقّنهم التطهير بالعماد، وسائر تعاليمه.

وفي خطابٍ خصّ به الكهنة والملوك، حذّرهم من أنّ ما في تعليمهم يرتدي مظهر الحقيقة، لا يتعدّى كونه أشكالاً باطلةً يملؤها إبليس، وهي بالتالي كاذبةٌ. فحيث يغيب ملاك الله يتبوّأ إبليس مكانه، ويُفسد العبادة التي يستحوذ عليها. ونوّه بأنّهم طالما كرّموا سابقًا، كلّ ما توسّموا فيه قدرةً خاصّةً، ولكن عقب عودتهم من بيت لحم تخلّوا عن الكثير من أوهامهم، ومع ذلك ما زالوا يحتفظون بطائفةٍ منها. وناشدهم أن يُذيبوا معادن أصنامهم، ويهبوا أثمانها للمحتاجين، إذ إنّ كلّ علمهم وعبادتهم لا يُساوي شيئًا. فلا بدّ من عزوفهم عن الأصنام، وتعليم المحبّة، والرحمة، وشكر الآب السماويّ الذي، في عطفه الجمّ، دعاهم إلى معرفة الحقيقة. وأخيرًا وعدهم بإرسال من يكمل تعليمهم.

وفي المعبد، حدّثهم عن رسالته ونهايته الوشيكة. وأنبأهم أنّ اليهود يجهلون وجوده بينهم، وأنّه آثر استصحاب شبّان مطيعين لا يستنكرون ما يرونه منه، وأنّ اليهود كانوا كفيلين بقتله لو لم يُفلت من سطوتهم. وأنّه توخّى زيارة موطنهم، لأنّهم هم زاروه، وآمنوا به، وأحبّوه. وحرّضهم على شكر الله الذي وقاهم من التردّي إلى عمى الوثنيّة، وأرشدهم إليه، وإلى العمل بوصاياه. وأنبأهم، أخيرًا، أنّه سيقصد مصر، رغبةً في التقاء أشخاصٍ عرفوه طفلاً، لّما أقام هناك مع أُمّه. وعبّر عن رغبته في أن تظلّ إقامته بين ظهرانيهم مكتومةً، إذ إنّ بينهم يهودًا كفيلين بالقبض عليه وتسليمه. واستغلق على مستمعيه إدراك سبب هذه الهواجس، وتساءلوا علامَ يُعامل إلهُ على هذا النحو، فأوضح لهم أنّه هو، أيضًا، إنسانٌ، وأنّ أباه أرسله لإنقاذ النعاج الضالّة، وأنّه بصفته إنسانًا معرّضٌ لتنكيل البشر، عندما ستأزف ساعته.

يسوع يغادر ديار المجوس

توسّل الملك منصور ضيفَه أن يقيم عندهم ولا يغادرهم، وقدّم له كلّ ما يملك، وألقى عند قدميه التاج الذي كان يعتمره سابقًا. كان يتوسّله وهو يسكب سيلاً من الدموع، وتشاركه رعيّته البكاء. ولّما أكّد الربّ تعذّر تلبية رغبتهم، أبدوا رغبةً في تشييعه كما استقبلوه باحتفالٍ عارمٍ، ولكنّه رفض، ورفض أيضًا، جملاً وضعوه بتصرّفه.

وغادر يسوع عند الفجر، وحرص الملك منصور، والكهنة على مواكبته، فترةً قصيرةً، مع جمعٍ غفير. وكان يتعاقب كلّ اثنين منهم على الإحاطة به يمينًا ويسارًا، ثمّ يتراجعان ويحلّ محلّهما آخران. ولدى عودتهم أعلن "منصور"، أنّ كلّ من يأبى اتّباع وصايا يسوع واعتناق تعليمه، عليه مغادرة البلاد في الحال.

وتوقّف يسوع عند قبيلةٍ يحكمها ابن شقيقٍ للملك "منصور"، فعلّم، ونهى عن

عبادة الأوثان، وشفى من أمراضٍ مستعصيةٍ، وطلب منه كثيرون أن يعمّدهم في الحال، ولكنّه وعدهم بأن يرسل لهم من يكمل تثقيفهم وإعدادهم للعماد، وأكّد لهم أنّ من يلقى منهم حتفه قبل ذلك، يكون قد تلقّى عماد الرغبة. وفيما بعد، أضحى كثيرون ممّن شفاهم هناك، ومن الذين التزموا بتعليمه من أركان الكنيسة الناشئة ومن شهدائها.

يسوع يواصل رحلته إلى مصر

واجتاز يسوع وصحبه بلاد ما بين النهرين، وأُور، وانتهى، مساءً، إلى مكانٍ يُدعى "سيكدور"، يسكنه كلدانيّون في بيوتٍ متناثرةٍ على جنبات الطريق. فبشّر سكّان ذلك المكان البسطاء الطيّبين، الذين كانوا يسترشدون بالأفلاك. وعلى مقربةٍ منهم، على قمّة تلّةٍ، كان يجثم هرمٌ عالٍ، يُصعَد إليه بأدراجٍ، ومنه كانوا يراقبون الكواكب، ويفسّرون الأحلام، ويتنبّأون بالغيب.

وكان معبدهم مزدانًا بتماثيل معدنيّةٍ متقنة الصنع، وفي شكل حديقةٍ مستديرةٍ، محاطةٍ بشباكٍ ذهبيّةٍ، وُضعت صورة عذراء. وكان يداخلهم شعور بأنّها أُمّ الله. وقد ندّد يسوع بعبادتهم للأصنام، وأكّد لهم أنّ دينهم ينطوي على استشعارٍ للحقيقة، غير أنّ إبليس قد شوّه، ودنّس كلّ أشكال هذه الحقيقة، ممّا جعلهم يخلطون إيحاءات الله بهلوساتٍ شيطانيّةٍ. ولكنّه سكب العزاء في نفوسهم بقوله إنّه جاء ليخلّص البشر أجمعين. وطالبهم بتحطيم أصنامهم، وتوزيع أثمان معدنها على المحتاجين. وكان الربّ يتكلّم وسط هؤلاء القوم بحرّيّةٍ أوفر من تلك التي يتحدّث بها إلى اليهود، لأنّ هؤلاء الغرباء كانوا أكثر تواضعًا واستعدادًا للإيمان. وعندما همّ بمغادرتهم لم يتمالكوا أنفسهم، وحاولوا الحؤول دون ذلك، مفترشين الأرض أمامه. ولكن كان عليه أن يواصل مسيرته. وانطلق بخطًى حثيثةٍ، واصلاً الليل بالنهار بلا توقّفٍ، متّجهًا جنوبًا، في حين كان درب الشمال يفضي إلى بابل، ومساء يوم الثلاثاء توقّف مع صحبه عند تلّةٍ مخضلّةٍ، ودخل المدينة بهدوءٍ وسلامٍ،

إذ كادت الشوارع تفرغ من المارّة. ولكن سرعان ما بادرته ثلّةٌ من الرجال المُجَلببين بثيابٍ طويلةٍ، معمّمين، وسجدوا له، وقدّم له أحدهم سجّادًا يجتاز فوقه، وكانوا يسارعون إلى نقله لمكانٍ آخر من الطريق الذي سيجتازه، حتّى انتهوا إلى ساحةٍ محاطةٍ بسورٍ مشبّكٍ، جثمت فوقه أنصاب أوثانٍ عديدةٌ، فيما كان يلوح فوق الجهة المطلّة على الطريق علمٌ يحمل رسم رجلٍ يمسك عصا السلام.

كانت تلك المدينة مدينة كهنةٍ، وسكّانها عبدة أوثان. أبى يسوع دخول معبدهم غير أنّه علّم خارجه أمام شعبٍ غفيرٍ، وندّد تنديدًا صارمًا بطقوسهم الوثنيّة وتكريمهم لإبليس، وممارستهم تعدّد الزوجات، وازدرائهم للنساء، وأخذ عليهم عمى بصيرتهم وانغماسهم في الشرّ، وأوضح لهم أنّهم لم يكونوا بعد متأهّبين للعماد، ولذلك سيرسل لهم أحد رسله كي يكمل تثقيفهم.

لم يُطِقْ يسوع إطالة المكوث في تلك المدينة، ومع أنّ النساء والفتيات كنّ قد مُنِعْنَ من مقابلته، غير أنّه عندما غادر المدينة هرعت جوقةٌ من الفتيات لمقابلته عند باب المدينة حاملاتٍ باقاتٍ وأطواق ورودٍ، وصادحاتٍ بمدائح له، فتبادل معهنَّ عباراتٍ رقيقةً، وشكرهنّ وباركهنّ.

اجتاز يسوع سهلاً رحبًا، وعند الظهر، توقّف في قرية رعاةٍ يقطنون خيامًا فجلس عند عين ماء، وما عتّم أن قدِم إليه رجالٌ يحملون أغصانًا، مرحّبين به بفرحٍ. هؤلاء، أيضًا، كان لديهم، هرمٌ يراقبون منه الأفلاك، التي يعبدونها. ولم يكن لديهم أصنامٌ. والمرجّح أنّهم كانوا من قبائل أولئك الذين واكبوا المجوس إلى بيت لحم. وقد شقّ عليهم أن يغادرهم، غير مستجيبٍ لتوسّلاتهم المكوث بين ظهرانيهم.

وغذّ يسوع وصحبه السير ليلاً ونهارًا، واستراح برهةً، عند عين ماءٍ مستفيئًا أشجارًا كثيفةً، ثمّ واصل سيره جنوبًا، فانتهوا مساءً إلى مدينةٍ مضّجعةٍ على ضفاف نهرٍ، بيوتها متقاربةٌ، ونساؤها مختلطاتٌ بالرجال، وربّما كانت تلك "أُور" مدينة

إبراهيم، وكان سكّانها قد أُنبئوا بواسطة الكواكب بمجيء الربّ، فراحوا يترقّبون وصوله، متحقّقين من كلّ غريبٍ قادمٍ. وما أن شاهده بعضهم قادمًا حتّى خفّوا يزفّون نبأ وصوله إلى أصحاب بيتٍ كبيرٍ قائمٍ في وسط المدينة، له سطحٌ مطلٌّ على كلّ الجنبات، وقد خرج عددٌ من الرجال بثيابٍ طويلةٍ، وبيد أحدهم صولجانٌ، ولمّا دنا يسوع سجدوا وقدّموا له غصنًا، ودعوه للدخول إلى قاعةٍ فسيحةٍ، ثمّ اقتادوه إلى منبرٍ يُصعد إليه بدرجٍ. وتقاطر حشدٌ غفيرٌ للاستماع إليه، ولكنّه أوجز القول. ثمّ دعوه إلى مائدةٍ، لم يتناول منها سوى الزهيد من الطعام، وبعدئذٍ أدخلوه إلى حجرةٍ اختلى فيها مع مرافقيه.

وكان في تلك المدينة معابد كثيرةٌ حافلةٌ بأصنامٍ كانت قد حجّبت، ولكنّ الربّ لم يدخل أيًّا من تلك المعابد غير أنّه أسهب في التعليم عن إبراهيم وإيمانه، وأنّب مستمعيه تأنيبًا صارمًا، بسبب انحطاطهم السحيق.

ومع ذلك شيّعه أهالي "أور" بحفاوةٍ، وفرشوا طريقه بالأغصان. أمّا هو فاتّجه غربًا وسط حقولٍ مخضلّةٍ، وانتهى، مساءً، إلى صرحٍ مستديرٍ، محاطٍ بالمياه، وببيوتٍ زريّةٍ يقطنها فقراء.

ودخل يسوع مع صحبه إلى ساحةٍ ملاصقةٍ للصرح، حيث غُسلت أقدامهم. ثمّ جاءَهم من داخل الصرح رجلان، معتمران قبّعاتٍ من ريش، ومتّشحان بألبسةٍ مزركشةٍ، وقدّم أحدهما للربّ غصنًا، وباقةً، واقتاداه إلى الداخل، مع صحبه وقدّما لهم طعامًا. ثمّ طاف بهم ربّ البيت في قصره الزاخر بأصنامٍ متقنة الصنع، ومتعدّدة الأشكال والأحجام، تمثّل رؤوس كلابٍ، وثيرانٍ، وأفاعٍ وسواها. بعدئذٍ تكلّم يسوع في الساحة، منددًا بعباداتهم الشيطانيّة، فاغتاظ زعيم المكان وعارضه، ولكنّ يسوع أنذرهم مؤكّدًا أنّ، في ليلة ذكرى ظهور النجم للمجوس، ستتحطّم أصنامهم، وستخور أصنام الثيران، وتعوي أصنام الكلاب، وستأخذ أصنام الطيور بالصياح. وأنّ هذه الظاهرة ستتكرّر في جميع الأماكن الوثنيّة التي اجتازها.

يسوع في مصر

عقب اجتيازهم صحراء شاسعةً، وصل يسوع وصحبه إلى جانب نهرٍ، كان طوفٌ راسيًا على ضفّته، فامتطوه وبلغوا به مدينةً قائمةً على ضفّتيه. وكان ليلٌ يسكنه الصمت والهدوء، فمضى يسوع ومرافقوه، إلى معبدٍ، كانت قد بسطت في رواقه فرشٌ للغرباء، فاستلقوا عليها، واستيقظوا صباحًا، على جلبةٍ عارمةٍ غاضبةٍ، إذ كانت أعدادٌ كبيرةٌ من الأصنام قد تحطّمت ليلاً. ورأى العديد من الأطفال أحلامًا نبويّةً، تشير إلى دخول قدّيسين إلى المدينة، فنأى يسوع وصحبه بأنفسهم، فيما كان أولادٌ يجرون في إثرهم صائحين: "هؤلاء هم القدّيسون".

وجاء يسوع إلى مدينةٍ سبق له الإقامة فيها مع أمّه ويوسف، وكان هناك عمّالٌ أنبأهم حدْسهم بأنّ المنقذ الذي طالما انتظروه قد حضر، فاستأذنوا بالإقلاع عن العمل، وجروا نحو يسوع حالما مرّ على مقربةٍ منهم. وسجدوا وقدّموا له أغصان أشجارٍ، فلمسها وباركها، فغرسوها على حافّة الطريق. غير أنّ فئةً أُخرى اغتاظت وهرعت إلى المدينة كي تغير الصدور عليه. ومع ذلك، دخل يسوع إلى المدينة برفقة نحو عشرين من أبنائها، الذين اقتادوه إلى المسكن الذي كان القدّيس يوسف قد أعدّه للأسرة المقدّسة، عندما كانت منفيّةً، وانطلق الذين رافقوه لدى دخوله المدينة يزفّون لليهود نبأ وصوله، فأقبل العديد منهم ومن كلّ الأعمار. وفي المساء جاء شيخٌ جليلٌ بيسوع إلى المدرسة، التي كانت ما زالت في حالةٍ جيّدةٍ، وأحلّه في مكان الشرف، حيث صلّى وبشّر.

كانت عبادة الأصنام شائعةً في تلك المدينة، ولكن كان لكلّ حيٍّ أصنامه، فمنهم من يعبدون ثيرانًا، ومنهم من يعبدون كلابًا تشاهد تماثيلها وهي مقعيةٌ، برؤوسٍ بشريّةٍ. وكانت تلك المدينة ما زالت تحمل ذكرياتٍ ليوسف الصدّيق وإخوته ويعقوب أبيه.

وفي صباح اليوم التالي غادر يسوع المدينة، يرافقه عددٌ من أبنائها، وكان بينهم

شابٌّ من هيليوبوليس، يدعى "ديوداتوس" أي "عطيّة الله". فقد كانت أُمّه عاقرًا، والتمست بركة العذراء مريم، أثناء إقامتها في تلك المدينة، فرزقت به.

وولج يسوع وصحبه الصحراء، وانتهى ليلاً، إلى مدينةٍ يقطنها يهودٌ كانوا قد فرّوا من تدمير أورشليم، وعربٌ، وأجناسٌ أُخرى. وتوقّف يسوع عند نبع الماء، وفق العادة المألوفة، حيث وافى الكثيرون واقتادوه إلى بيت الضيافة.

سكّان تلك الديار كانوا يهودًا متحدّرين من متاتياس، وقد استقبلوا يسوع بترحيبٍ وإجلالٍ، وإذ لم يكن هناك مدرسةٌ شرعيّةٌ علّم يسوع في أحد البيوت، وأنبأ بقرب عودته إلى الآب، وبالطريقة التي سيعامله بها أبناء جلدته، والتي لم تَرُق لمستمعيه، فجهدوا لإقناعه بالبقاء عندهم. ولكنّه غادرهم، منذ فجر اليوم التالي مصطحبًا تلميذيْن جديديْن. وكانوا يغذّون السير ليلاً ونهارًا، ولا يتوقّفون إلاّ لاستراحاتٍ قصيرةٍ. ولكنّ يسوع توقّف، بسرورٍ، حيث كانت العيلة المقدّسة الفارّة قد توقّف للاستراحة، وحيث، استجابةً لرغبة العذراء، تفجّرت عين ماءٍ غسلت به العذراء طفلها.

وانتهوا، مساءً، إلى بئر سبع حيث وفّر له اليهود استقبالاً ودّيًّا.

عودةٌ إلى فلسطين، وتطوافٌ سريعٌ في اليهوديّة

علّم الربّ في مجمع بئر سبع، معلنًا هويّته، منبئًا بنهايته الوشيكة. ثمّ انطلق برفقة ستّة شبّانٍ صوب بئر يعقوب، حيث كان قد ضرب لرسله موعد التقاء. وكان أهالي المناطق التي يمرّ بها يرحبّون به، ويتوسّلونه شفاء مرضاهم فيلبّي ملتمسهم، ويعلّم في مجامعهم. وفي الطريق انضمّ إليه بطرس وأندراوس ويوحنّا، ثمّ لحق بهم آخرون من رسله ومن تلاميذ جُدُدٍ، وآن وصوله إلى بئر سبع كان عدد أتباعه قد بلغ ستّة عشر نفرًا.

المنطقة الممتدّة بين أريحا والسامرة تموج بخضرةٍ موّارةٍ، وتتخلّلها سواقٍ توسوس بعذوبةٍ. وكان حيثما يتوقّف يسوع يعلّم بلهجةٍ صارمةٍ، منبئًا بآلامه الوشيكة،

ومندّدًا بعقوق اليهود، ومنذرًا بالخراب الذي سينـــزل بهم. وفي بئر سبع، صرف تلاميذه بعد أن حدّد لهم موعد لقاءٍ، يوم السبت في سيخار، وطاف مع الستّة عشر رفيقًا الذين جاؤوا معه من بئر سبع، بأكواخ رعاةٍ مبعثرةٍ، حيث زار معارف له، ثمّ واصل مسيرته نحو سيخار، بخطًى وئيدةٍ، مكثرًا من محطّات التوقّف، كي يسهب في تلقين تلاميذه الجدُد الدروس الجديدة التي كان قد ألقاها عليهم، ويرسّخها في أذهانهم، ويفسّر لهم مرامي ما كان يحدث لهم في أثناء رحلتهم. ورغب إليه رسله أن يزور، الناصرة، موطنه، ويظهر قدراته من خلال معجزاتٍ، فردّ أنّ لا جدوى من المعجزات، ما لم تصطلح النفوس، مستشهدًا بالعجائب الباهرة التي أجراها على امتداد أكثر من سنتين، مثل تكثير الخبز والسمك، وإقامة لعازر، وشفاء شتّى ألوان العلل المستعصية، والتي لم تفلح في تليين القلوب المتحجّرة، والأذهان المعتمة، مشدّدًا على أنّ كلمة الحقّ الخلاصيّة هي غالبًا أجدى من المعجزات. فوافقه على ذلك بطرس ويوحنّا، في حين لم يستسغ آخرون موقفه.

وهدّده الفرّيسيّون الذين لم يستسيغوا تعليمه، بالقبض عليه، واقتياده إلى أورشليم، فردّ عليهم أنّ ساعته لم تحِنْ بعدُ، وأنّه سيشخص، طوعًا، إلى أورشليم وسيقول أكثر ممّا قاله حتّئذٍ، وأنّه لم يكن يعلّم من أجلهم، بل من أجل أتباعه. ثمّ صرَف رسله وتلاميذه، وبرفقة ثلاثةٍ من معارفه الذين زارهم في قرية الرعاة، شخص إلى قرية "عفرون"، حيث كانت تنتظره أُمّه والنساء القدّيسات. وفي أثناء الطريق، زار كلّ بيتٍ كان فيه مريضٌ ينتظر الشفاء، باثًّا العزاء، وبشرى الخلاص.

على مقربةٍ من "عفرون" توقّف يسوع عند نبع ماءٍ، للتعليم، فخفّت إلى ذلك المكان أُمّه العذراء، وشقيقتا لعازر، وسجدنَ له، وقبّلنَ يده، ولمّا نهضنَ انحنى على يد أُمّه فقبّلها، ثمّ دخل الجميع إلى بيتٍ حيث عقد حديثًا موجزًا مع أُمّه ومرافقاتها، وجلس يبشّر.

ثمّ قصد، مع الرجال المرافقين له، أريحا، حيث كان ينتظره جمعٌ غفيرٌ، فبشّر

وشفى العديد من المرضى، ما جعل الفرّيسيّين يتذمّرون. ولم يلبث أن غادر أريحا ويمّم شطر ضفاف الأُردنّ حيث كان يتمّ العماد، وحيث قبع حشدٌ من المرضى ملتمسين الشفاء، فأبرأ الكثيرين. ولكن عندما تكاثفت الحشود، ابتعد مع ثلّةٍ من تلاميذه متّجهين إلى "بيت إيل".

ولّما أطلّ خفّ للقائه لعازر وشقيقتاه، ونيقودمس، ومرقس. فضمّ بين ذراعيه لعازر الذي كان ما برح هزيلاً، شاحب المحيّا. ثمّ دخلوا إلى البيت الذي كانوا يقيمون فيه، وقدّموا له ولصحبه طعامًا. ثمّ عكف يسوع على تبشير الموجودين، وشفى المرضى الذين كانوا مستلقين في رواقٍ محيطٍ بالبيت.

وتابع يسوع رحلته شافيًا، معلّمًا، مواسيًا، مبشّرًا. ووصل، مساءً، مع أندراوس ويوحنّا ويعقوب إلى قصرٍ محاطٍ بخنادق ومستنقعاتٍ، فتوسّله تلاميذه أن ينأى عنه، اتّقاءً للمنغّصات وللصدام، ولكنّه صمّم على دخوله، مطلقًا لهم حرّيّة البقاء خارجًا. وفي داخل القصر مُنِع يسوع ورسله من الدخول ولكنّه كلّمهم برقّةٍ، فأشرعوا أمامه الطريق، في كثيرٍ من الاحترام. وتحلّق المساجين حول المخلّص، ففرز عددًا منهم جانبًا، واستدعى من المدينة ضابطين، فكلّمهما وأخذ على عاتقه المساجين الذين كان قد فرزهم فسمحا له بإخراجهم، وكان عددهم خمسةً وعشرين سجينًا، وأنفق الليل سائرًا بخطًى حثيثةٍ، باتّجاه الشمال، إلى أن بلغ المدينة التي كانت موطن السجناء المحرّرين، وسلّمهم لأُسرهم. وكان، في أثناء الطريق، قد صرف رسله، ثمّ توجّه صوب طبريّا منتهجًا دروب الوديان، قاصدًا كفرناحوم، حيث كان ينتظره بطرس وأندراوس ويعقوب الصغير، وشابٌّ كان قد جاء من "سيدار" والتمس أن يضمّه يسوع إلى صفوف تلاميذه، وأيّد الرسل طلبه، فرحّب به الربّ، وفي الحال كلّفه بجلب مفتاح المجمع من رئيسه، ثمّ فتحوا المجمع، وأضاؤوا مصابيحه، وجلس يعلّم معلّقًا على نبوءة أشعيا، وسرعان ما غصّ المجمع بالمستمعين، الذين بلغ بهم التأثّر كلّ مبلغٍ.

ومنذ فجر اليوم التالي غادر المخلّص كفرناحوم، قاصدًا الناصرة مع رسلٍ وتلاميذ تقاطروا لمواكبته. وقد أحدث ظهوره خضّةً في المدينة التي قصد يسوع مجمعها، فراح رجلٌ يسكنه إبليس يصيح: "هذا هو ابن يوسف، هذا هو المشاغب، اقبضوا عليه". فالتفت إليه يسوع وأمره بالصمت، فصمت. وفي المجمع ارتقى يسوع المنبر وبشّر بلا تحفّظٍ، وبلهجةٍ تنمّ عن سلطانٍ صدمت العديد من اليهود. ثمّ زار بيوتًا وشفى مرضاها. وحينئذٍ اغتاظ الفرّيسيّون، الذين لم يُبدوا أي ردّ فعلٍ على تعليمه، ولكنّهم لم يطيقوا رؤيته يجري أشفيةً. وحينئذٍ غادر يسوع الناصرة مع التلاميذ بعد أن أوعز إلى الرسل الالتقاء به على جبلٍ، حيث سرعان ما احتشد التلاميذ وأشعلوا نارًا، ووصل يسوع إلى القمّة ليلاً، وأنفق الليل كلّه مبشّرًا، وأرشد الرسل إلى الأماكن التي ينبغي أن يقصدوها للتبشير والشفاء. وفي الصباح توجّه جنوبًا.

وحيثما توقّف في طريقه كان يفتح المدينة أو المجمع ويعلّم، ويشفي طالبي الشفاء. بعد أن أوفد رسله، بعضًا إلى كفرناحوم، وبعضًا إلى جبل تكثير الخبز، توجّه إلى بيت عنيا حيث كانت قد سبقته أُمّه والنساء القدّيسات المرافقات لها.

الفهرس

تمهيد ٧

الفصل الأوّل

حياة مريم العذراء ويسوع حتّى الآلام ١١

محتد العذراء ١٢

يواكيم وحنّة يستقرّان في الناصرة ١٥

التقاء يواكيم وحنّة تحت الباب الذهبيّ ١٩

ولادة مريم ٢٠

تقدمة مريم إلى الهيكل ٢٣

انطلاق مريم إلى الهيكل ٢٤

دخول مريم إلى الهيكل ٢٦

يوسف ٢٩

البشارة ٣٢

زيارة إليصابات ٣٤

إلى بيتَ لحم ٣٧

الفصل الثّاني

حياة يسوع الخفيّة ٤٣

مولد المسيح ٤٤

عبادة الرعاة ٤٧

زيارة إليصابات ٤٨

المجوس الثلاثة يغادرون المشرق ٤٩

زيارة حنّة ٥٢
المجوس في بيت لحم ٥٤
سلطات بيت لحم ٥٩
ختانة يسوع ٦١
تقديم يسوع إلى الهيكل ٦٢
عودةٌ إلى الناصرة ٦٥
المنفى المصريّ ٦٦
بين اللصوص ٦٩
دخول مصر ٧٠
نجاة المعمدان وإقامته في الصحراء ٧٤
إقامة العيلة المقدّسة في المطريّة ٧٥
يسوع في الهيكل وسط علماء الشريعة ٧٩
وفاة القدّيس يوسف ٨١

الفصل الثالث

حياة يسوع العلنيّة ٨٣

السنة الأولى ٨٤
استقبالٌ عدائيٌّ في الناصرة ٨٧
يسوع في لبنان ٩٢
عماد يسوع في الأردنّ ٩٣
يسوع في بيت عنيا ٩٦
المعمدان ١٠٠
صراعٌ مستمرٌّ مع هيرودس ١٠٤
عماد يسوع وبدء رسالته العلنيّة ١٠٦
يسوع في الصحراء – صيامه ١١٢
أتباع يسوع ١١٦
دعوة بطرس، وفيلبّس ونثنائيل ١١٨

تعليمٌ ومعجزاتٌ في الجليل ١٢٥
من كفرناحوم إلى بيت عنيا ١٣٠

السنة الثانية من حياة يسوع العلنيّة ١٣١

في بيت عنيا وفي الهيكل ١٣١
طرد تجّار الهيكل، والاحتفال بالفصح في بيت لعازر ١٣٣
اضطهاد يسوع والنسوة القدّيسات ١٣٥
عماداتٌ وإبراء مَلِكٍ ١٣٧
يسوع يبشّر الجليليّين المهملين وسكّان صور وجوارها ١٣٩
أشفيةٌ عديدةٌ في كفرناحوم ١٤١
يسوع يواجه الهيرودسيّين، والمعمدان يواجه هيرودس ١٤٩
قضيّة الشفاء يوم السبت ١٥٤
في مسقط رأس إليشع ١٥٦
تنبّؤات يسوع ١٥٩
في بيت أُمّه ١٦٢
أيّام المعمدان الأخيرة ١٦٣
مريم المجدليّة ١٦٥
في عينون ١٦٨
في راموت جلعاد ١٧٢
في "غدارا" ١٧٤
في عينون ١٧٧
في مدينة "سكّوت" ١٧٨
عيد المظالّ في "سيلو" ١٧٨
الأعمى التلميذ ١٨١
تعاليم صارمةٌ وأشفيةٌ ١٨٢
انضمام يهوذا الإسخريوطيّ إلى جماعة يسوع ١٨٥
شفاء ابنتيْ أرملةٍ وثنيّةٍ ١٨٨
صدامٌ مع الفرّيسيّين في مدينة "دوثان" ١٩٠

يسوع يتابع تثقيف تلاميذه.. ١٩٣
عطف يسوع على مستقيمي القلوب وصرامته حيال رياء الفرّيسيّين........... ١٩٦
في مدينة جيسكالا ١٩٩
يسوع في بيت عنيا ٢٠١
تبشير في ضواحي أورشليم.. ٢٠٢
عند بئر يعقوب: دينا السامريّة ٢٠٤
سجال مع الصدّوقيّين والفرّيسيّين ٢٠٩
شفاء ابن قائد مئة كفرناحوم.. ٢١٢
يسوع يبشّر في كفرناحوم.. ٢١٤
يسوع يكشف عن هويّته ويخزي الفرّيسيّين ٢١٨
تعليم يسوع في الناصرة، ومحاولة قتله..................................... ٢٢٠
عودةٌ إلى كفرناحوم... ٢٢٤
يسوع يبشّر في "غابارا" وارتداد المجدليّة................................... ٢٢٨
تعليمٌ وأشفيةٌ في كفرناحوم.. ٢٣٥
إقامة ابن أرملة "نعيم"... ٢٤٠
يسوع يجيب على تلميذي المعمدان... ٢٤٣
في كفرناحوم ٢٤٥
شفاء عالِمَيْ شريعةٍ.. ٢٤٨
إقامة ابنة يائير ٢٥٠
دعوة متّى ٢٥٢
دعوة بطرس وأندراوس، وتهدئة العاصفة.................................... ٢٥٤
رسالة الخلاص تنتشر... ٢٥٥
شهادة المعمدان الأخيرة ٢٥٧
أشفيةٌ وصيدٌ عجيبٌ ٢٥٩
التطويبات.. ٢٦١
إقامة ثانية لابنة يائير ٢٦٣
أشفيةٌ في كفرناحوم وتطويبٌ لأمّ يسوع ٢٦٦
المقتضى من أتباع يسوع، والسلطات الرومانيّة تراقب يسوع.................. ٢٦٩

يسوع في موطن الجرجسيّين ٢٧٠
يسوع يسير على الموج ويفحم الفرّيسيّين ٢٧٥
يسوع يشدّد إيمان مرتدّين وأُسرهم، وانحطاط المجدليّة........................ ٢٧٨
يسوع يثقّف تلاميذه قبل إرسالهم........................ ٢٧٩
صدامٌ في اليهوديّة........................ ٢٨٢
ارتداد المجدليّة الحاسم، وتحريرها من شياطينها ٢٨٤
صديق الأطفال ٢٨٩
يسوع في الناصرة ثانيةً........................ ٢٩١
أشفيةٌ متعدّدةٌ........................ ٢٩٢
ذكرى ميلاد هيرودس، ومقتل المعمدان ٢٩٥
شفاء مقعدةٍ في مدينة "انتيباتريس" ٢٩٨
نحو بيت عنيا ٣٠٠
يسوع يعزّي ويشفي عمّالاً، ويزور أبناء رعاة بيت لحم........................ ٣٠٢
يسوع ينعى ذوي المعمدان بمقتله........................ ٣٠٣
خطف جثمان المعمدان........................ ٣٠٦
شفاء مقعد بيت حسدا........................ ٣٠٧
يسوع في أورشليم، ورأي بيلاطس فيه........................ ٣٠٩
محرّر المساجين ٣١١
يسوع في كفرناحوم ــ سجالٌ مع الفرّيسيّين........................ ٣١٤
إكمال تثقيف الرسل والتلاميذ، وتكليفهم ٣١٨
تكثير الخبز ٣٢٠
يسوع يسير فوق الأمواج........................ ٣٢٢
يسوع يهب رسله وتلاميذه سلطات شفاءٍ ٣٢٦
شفاء ابنة الكنعانيّة........................ ٣٢٨
في قيصريّة فيليبّس ٣٣٤
إكمال عظة الجبل وتكثيرٌ ثانٍ للخبز والسمك........................ ٣٣٧
تعليمٌ في بيت صيدا ٣٣٩
بطرس يعلن ألوهة يسوع........................ ٣٤١

السنة الثالثة من حياة يسوع العلنيّة ٣٤٥
الفصح الثاني ٣٤٦
عظةٌ علنيّةٌ في الهيكل ٣٤٧
شفاء امرأةٍ حدباء ٣٥٠
التجلّي ٣٥٢
شفاء طفلٍ مسكونٍ بروحٍ شرّيرٍ ٣٥٤
تعاليم حول التجرّد، والبساطة، والتواضع، والعفّة في الزواج ٣٥٦
خطبةٌ وداعيّةٌ على تلّة "غابارا" ٣٦٢
العثور على هامة المعمدان ٣٦٤
يسوع يرسل تلاميذه ويتّجه صوب صور ٣٦٥
يسوع يبحر إلى قبرص ٣٦٦
مقابلة الحاكم الرومانيّ ٣٦٩
تعليمٌ عن الوثنيّة، وحديثٌ مع الكاهنة "مركوريا" ٣٧٢
نقاشٌ مع فلاسفةٍ وثنيّين، وزيارةٌ تعليميّةٌ للجزيرة ٣٧٤
يسوع يعلّم في قرية "مالّلف" ٣٧٨
يُطلع الفلاسفة على حقيقة الوثنيّة، ويُرشد أزواجًا جدُدًا ٣٧٩
يسوع يحمل حملةً شعواء على الزنى ويصالح أزواجًا ٣٨١
تبلّغ أخبار فلسطين ويشارك عمّالاً احتفالهم ٣٨٢
عودةٌ إلى فلسطين ٣٨٤
يسوع يشفي فرّيسيًّا عدوًّا له، ويفحم فرّيسيّي "نعيم" ٣٨٥
حصاد التلاميذ ٣٨٩
أشفيةٌ في كفرناحوم وإخزاء الفرّيسيّين ٣٩٠
يوم تعليمٍ عند البحيرة ٣٩٢
اجتماع التلاميذ في قانا حول يسوع، وبطرس يتلقّى درسًا في التواضع ٣٩٤
في كفرناحوم يسوع يفضح مكر الفرّيسيّين ٣٩٧
تثقيف تلاميذ جُدُدٍ ٤٠٠
يسوع لدى الرعاة ٤٠١
يسوع يبارك الأطفال ٤٠٢

زكّا العشّار ٤٠٤
شفاء عشرة برصٍ، وعرس رعاةٍ ٤٠٧
إقامة لعازر ٤٠٨
يسوع في أورشليم، ورحلةٌ إلى الشرق ٤١١
يسوع يقيم ميتًا، ويواصل تعليمه ٤١٦
يسوع في بلاد المجوس ٤١٨
احتفال الملك منصور باستقبال يسوع ٤٢٢
المجوس يحتفلون بالعيلة المقدّسة ٤٢٥
يسوع يغادر ديار المجوس ٤٢٨
يسوع يواصل رحلته إلى مصر ٤٢٩
يسوع في مصر ٤٣٢
عودةٌ إلى فلسطين، وتطوافٌ سريعٌ في اليهوديّة ٤٣٣

الفهرس ٤٣٧

صدر للمؤلّف

أ – منشورات المكتبة البولسيّة – جونية – لبنان

مؤلّفات متفرّقة

١ – قدّيسة من بلادنا: الطوباويّة الأخت مريم يسوع المصلوب – ١٩٩٠

٢ – يسوع في إنجيله – ٢٠٠٦

٣ – يسوع في حياته – الجزء الأوّل – ٢٠٠٦

٤ – يسوع في حياته – الجزء الثاني – ٢٠٠٦

٥ – أمّ الله أمّنا – ٢٠٠٩

٦ – مختارات مريميّة – ٢٠٠٩

٧ – أمّ الرحمة – ٢٠١١

٨ – باقاتٌ من حدائق رابندرانات طاغور – ٢٠١٦

سلسلة النوابغ

١ – السياسيّ القدّيس: المهاتما غاندي – ١٩٩٢

٢ – فرنسيس... أصلح كنيستي – ١٩٩٢ و ٢٠٠٨

٣ – صوتُ من لا صوتَ لهم: الأب پيير – ١٩٩٧

٤ – حتّى يوجعَ العطاء: الأمّ تيريزا الكلكتّاويّة – ١٩٩٨ و ٢٠٠٣

٥ – أنا الأخت إيمّانويل، أشهد – ١٩٩٩

٦ – سيرة المسيح (مترجم عن جيوڤانّي باپيني) – ٢٠٠٣

٧ – بولس، رسول يسوع وقلبه ولسانه – ٢٠٠٣

٨ – جان ڤانييه وسفينته – ٢٠٠٣

٩ – البابا القدّيس يوحنّا بولس الثاني – ٢٠١٥

سلسلة الظهورات

١ – ظهورات لورد – ٢٠١١

٢ – ظهورات فاطمة – ٢٠١١

٣ – ظهورات الصوفانيّة – ٢٠١١

٤ – ظهورات مديوغوريه – ٢٠١١

٥ – ظهورات لاساليتّ وظهورات الإسكوريال – ٢٠١٢

٦ – ظهورات كيبـيهو وظهورات غوادالوپّي – ٢٠١٢

٧ – ظهورات العذراء لكاترين لابوريه (الإيقونة العجائبيّة) وألفونس راتسبون – ٢٠١٢

٨ – ظهورات لوس وغيتـشڤاود – ٢٠١٢

٩ – لمَ تبكي العذراء؟ – ٢٠١٢

١٠ – الأمّ السماويّة تجوب العالم (١) – ٢٠١٢

١١ – الأمّ السماويّة تجوب العالم (٢) – ٢٠١٣

١٢ – ظهورات غَرَبَندَل وظاهرة سان داميانو – ٢٠١٣

١٣ – ظهورات في فرنسا – ٢٠١٣

سلسلة صفحات روحيّة

١ – أبانا – ٢٠٠٥
٢ – كتاب الحكمة والفضائل المستعادة (مترجم) – ٢٠٠٧
٣ – العذراء في حياتنا (مترجم) – ٢٠٠٥ و ٢٠٠٧
٤ – المسيحيّة في نظر رابندرانات طاغور وصلوات شاعر (مترجم) – ٢٠١٥
٥ – على درب الحياة مع ألكسي كاريل، الرحلة إلى لورد وخواطر مختارة (مترجم) – ٢٠١٦

كتب مترجمة

١ – يد الله – ١٩٨٨ (سلسلة الشهود)
٢ – ثلاث عشرة قصّة – ١٩٩٠ (سلسلة الوداع)
٣ – أيدٍ ملطّخة بالدم – ١٩٩٥ (سلسلة الوداع)
٤ – اذكروا الله: تأمّلات من وحي رسائل الصوفانيّة – ١٩٩٥
٥ – حدّثني عن الحبّ (طبعة ثالثة) – ٢٠٠٥ (سلسلة الشباب مستقبل الغد)

ب – دور نشر أخرى

١ – على درب الحياة مع ألكسي كاريل (مطبعة الأديب – دمشق) – ١٩٨٤ و ٢٠٠٠
٢ – حدّثني عن الحبّ (مطبعة اليازجي – دمشق) – ١٩٩٨ و ٢٠٠٠

المطبعة البولسيّة
جونيه – لبنان